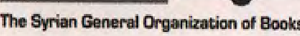
وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب







بلزاك

سيرة حياة



تأليف: ستيفان تسفايغ
ترجمة: محمد جديد

ستيفان تسڤايغ

كاتب نمساوي كبير، نظم الشعر وألف القصص والمسرحيات وكتب الدراسات والسير والتراجم. وهو أستاذ القصة السيكولوجية ومن أعظم كتّاب السير والتراجم. ولد في فيينا عام ۱۸۸۱ في أسرة ثرية، ودرس اللغات في جامعتي فيينا وبرلين. وعمل مراسلاً صحفياً في سويسرا، وتنقل كثيراً في أوروبا وفي العالم، باحثاً ولاجئاً ومنفياً، وكانت له صداقات مع كبار الشخصيات الأدبية والفنية الأوروبية في عصره (مثل فيرهيرن، ريلكه، رودن، رومن، غوركي). لقد شهد الحربين العالميتين الأولى والثانية، وكان داعية سلام. عاش في زالتسبورغ من ۱۹۱۹ إلى ۱۹۳٤. زار موسكو عام ۱۹۲٤ وشارك في الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد تولستوي. ثم هاجر إلى إنكلترا عام ۱۹۳٥ وعاش في نيويورك عام ۱۹٤۰ ثم غادرها إلى البرازيل عام ۱۹٤۱. وفي شباط عام ۱۹٤۲ أنهى حياته في بيتروبوليس بالبرازيل منتحراً لما عاناه من غربته الدائمة وليأسه ومعاناته القاسية من ويلات الحرب العالمية الثانية.

بدأ بنشر مؤلفاته وأعماله الإبداعية منذ عام ۱۸۹۸، وفي أعوام الحرب العالمية الأولى أصبح كاتباً معروفاً. نشر قصائده الشعرية منذ عام ۱۹۰٦، حيث صدرت له مجموعتان شعريتان: **«الأوتار الفضية»** و **«حب إيريك إيوالد»**. واشتهر بترجماته للشعراء بودلير وفيرلين وفيرهين، كما اشتهر بنمنماته التاريخية. تأثر تسفايغ بالوجودية، وهذا ما ظهر في مسرحيته **«تيرسيت»**، كما تأثر بالفرويدية، وهذا ما تجلى في مجموعته القصصية **«المعاناة الأولى»**. وقد غاص في أعماق النفس البشرية وأسرارها في مجموعتيه القصصيتين **«آموك»** و **«هيجان العواطف»**.

وتشغل دراسات تسڤايغ في السير والتراجم حيزاً هاماً في مسيرته الإبداعية. وقد وضع دراسات متميزة لحياة وأعمال ستاندال وتولستوي وديكنز وفرويد ونيتشه. في عام ۱۹۱۹ أصدر سلسلة بعنوان **«بناة العالم»**، وقد تضمن المجلد الأول منها دراسات عن الثلاثة العمالقة في الرواية العالمية وهم «بلزاك وديكنز ودوستويفسكي». وعمل ثلاثين عاماً في دراسة شخصية بلزاك وسيرته وأدبه وعصره. وتجسد عمله هذا في كتابه، الذي نقدمه لقراء العربية «بلزاك - سيرة حياة»، الذي صدر لأول مرة، بعد وفاته عام ۱۹٤٤.

بلـزاك

سيرة حياة

بلــــزاك

سيرة حياة

تأليف : ستيفان تسفايغ
ترجمة : محمد جديد

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٧

العنوان الأصلي للكتاب

Stefan Zweig

Balzac

بلزاك سيرة حياة = Balzac / تأليف ستيفان تسفايغ ؛ ترجمة محمد جديد .- دمشق : وزارة الثقافة، ٢٠٠٧ .- ٥٦٨ ص ؛ ٢٤ سم .-
(الأعمال الكاملة ؛ ٤)

١- ٩٢٨: بلزاك ، انوريه دي ت ٢- العنوان ٣- تسفايغ
٤- جديد ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

الأعمال الكاملة
« ٤ »

مقدمة

لم أكن أولي شخصي أبداً ذلك القَدْر من الأهمية الذي يغريني بسرد قصة حياتي على الآخرين، ولم يكن ُبدٌّ أن يحدث الكثير، بل ما هو أكثر إلى ما لانهاية له، مما يُقْسَم في العادة لجيل واحد بعينه، من الأحداث، والكوارث، والمِحن، قبل أن أجد الجرأة على الشروع في كتاب يتَّخذ من أَناي َشخصيته الأولى- وبعبارة أفضل- مِحورًا له. وما من شيء هو أبعد عن ذهني من أن أُولِي نفسي بذلك الصدارة، إلاّ أن يكون ذلك بمعنى الشارح الذي يشرح محاضرة مصحوبة بصُور ضوئية: أما الزمن فيعرض الصور، وأمّا أنا فلا أُقَدّم إلاّ كلامي حولها، ولن يكون ما أرويه في الحقيقة مصيري، أنا الذي أروي، بل سيكون مصير جيل بأسره- مصير جيلنا الفريد الذي كان مشحونًا بالقَدَر على نحو لا يكاد يتاح لجيل آخر على مر التاريخ، وذلك أن كل واحد منا، وحتى أصغرنا وأقلُّنا شأنًا، يستْثار وتُهيَّج كَوامنُه في أعمق أعماق وجوده من جرّاء الهزّات البركانية التي لاتكاد تتوقَّف في أرضنا الأوروبية، ولست أقِرُّ، في وسط هذه الهزّات التي لا تُحْصى، بالحق في مركز الصدارة لهزة أخرى سوى هذه الهزَّة الواحدة لي: ، أنا النمساوي، الذي يعتنق اليهودية، والكاتب، وذو النزعة الإنسانية، وداعية السلام، الذي وقف في كل مرة على نحو دقيق تمامًا،

في الموقف الذي كانت فيه هزّات الأرض هذه تحدث آثارها على نحو هو أكثر ما يكون شدَّة وعنفًا على الإطلاق. لقد قلبت بيتي وحياتي، ثلاث مرات، رأسًا على عقب، وفَصمت علاقتي بكل سالف وغابر، وطوَّحت بي، بعنفوانها الدراميّ، في الفراغ، فيما هو معروف لديَّ من قبل جيدًا، وهو قولي: «لست أعرف إلى أين، غير أنني لم أكن أشكو من هذا، وذلك أن الشريد يغدو حرًا على وجه الخصوص، بمعنىً للحرية جديد، والذي لا يعود مرتبطًا بشيء هو وحده الذي لا يحتاج مِنْ بَعدُ إلى مراعاة أي شيء. ولذلك فأنا آمل أن أتمكّن من تحقيق شرط رئيسيّ واحد على الأقل لكل تصوير للعصر مبنيٍّ على الصدق: وهو الصراحة، والبساطة.

ذلك لأنني كنت مقطوع الصلة بكل الجذور، وحتى بالأرض التي تغذي هذه الجذور، هذا ما كنت عليه حقًا كما لم يكن عليه أحد في هذه العصور إلاّ فيما ندر. فقد وُلدْت في امبراطورية كبيرة وقوية، ولكن لا ينبغي للمرء أن يبحث عنها في الخارطة، فقد مُحيَت من دون أن يبقى لها أثر، ونشأتُ في ڤينا، الحاضرة العالمية التي سلخت من العمر ألفي عام، واضطررت إلى أن أغادرها شأن المجرم قبل أن يجري تخفيض مرتبتها إلي عاصمة من عواصم الأقاليم الأعانية أما أعمالي الأدبية في اللغة التي كتبتها بها، فقد أُحرِقت وتحولّت إلى رماد، وذلك على أية حال في البلد ذاته الذي جعلت فيه كتبي ملايين القرّاء أصدقاءً لي، فعُدْت لا أنتمي إليه في كل مكان، وأصبحت في كل مكان غريبًا، وفي أحسن الأحوال ضيفًا، وضاع مني أيضًا وطني الحقيقي الذي اصطفاه قلبي، وهو أوروبا، منذ أن

تمزَّق جسده مرة ثانية، إربًا إربًا، كما يحدث للمنتحرين، في الحرب الأهلية، وأصبحت، خلافًا لإرادتي، شاهداً على هزيمة العقل الرهيبة إلى أقصى الحدود، وعلى أشد انتصارات الفظاظة وحشية وجموحًا في إطار حوليات العصور، ولا أسجل هذا مَزْهُوًا به بحال من الأحوال، بل أسجله وأنا أشعر بالعار، وهل عانى جيل من نكسة أخلاقية كهذه التي تردَّت به من مثل ذلك الارتقاء الفكري، كجيلنا. فخلال الفترة الضئيلة، منذ أخذت لحيتي تنبت إلى الفترة التي أخذ المشيب يعلوها فيها، في نصف القرن هذا، حدث من التبدّلات والتغيُّرات الجذرية أكثر مما يحدث في العادة خلال عشرة من الأجيال وكلٌّ منا يشعر أنه يكاد يكون مفرطًا في الكثرة! وإنه ليبلغ من الاختلاف بين يومي هذا وبين كل يوم من أيام أمسي، وأيام السقوط، والتردّي التي شهدتها أنه يبدو لي في بعض الأحيان أنني لم أعِشْ مجرد حياة واحدة، بل عشت حيواتٍ متعددة يختلف بعضها عن بعض كل الاختلاف. ذلك لأنه يحدث لي في كثير من الأحيان أنني عندما أذكر «حياتي» من دون أن ألقي لذلك بالاً، أسائل نفسي، على غير إرادة مني: «أية حياة هذه يا ترى؟» أهِي حياتي قبل الحرب العالمية، أم حياتي قبل الحرب العالمية الثانية، أم حياة اليوم؟ ثم أعود فأضبط نفسي وأنا أفعل ذلك، إذ أقول «بيتي»، وأنا لا أدري، على الفور، ما الذي أعنيه من البيوت الغابرة. أتراه بيتي في «باث»، أم هو بيتي في زالتسبورج، أم بيت والديَّ في فينا، أم تُراني أقول «في بيتنا»، وأضطر في هذا الصدد، والفزع ينتابني، إلى أن أتذكَّر أنني ما عُدْت أنتمي، في نظر الناس في موطني، إلى ذلك الموطن، منذ عهد بعيد، إلاّ بمقدار ما من ناحية أخرى، يرتبط الإنكليز أو الأمريكيون بذلك الوطن ارتباطًا عضويًا،

أو يندمجون فيه، كل الاندماج، فالعالم الذي نشأتُ فيه، وعالم اليوم، والعالم الذي يقوم بين ذَيْنِك العالمين، هذه عوالم ينعزل كلٌّ منها عمَّن عداه انعزالاً مطَّرد الزيادة، بالقياس إلى شعوري حتى تتحوَّل إلى عوالم مختلفة كل الاختلاف، وفي كل مرة أروي فيها، أثناء الحديث مع الأصدقاء الأحدث سنا، أقاصيص من أيام الحرب العالمية الأولى، ألاحظ، من خلال أسئلتهم المفعمة بالاندهاش، مقدار ما اكتسب الصفة التاريخية أو بات غير ممكن التصوُّر، مِنْ هذا الذي مازال يعني، بالقياس إليَّ واقعاً مفهوماً بحكم البديهية. على أن ثمة غريزة خفيّةً في نفسي تجعلهم على صواب، فلقد تحطّمت كل الجسور بين يومنا هذا وأمسِنا وقبل الأمس، ثم إنني لا أجد، أنا نفسي، مناصاً من أن يتولاّني العجبُ من الفيض الكبير والأنواع الجَمّة التي حشرناها في الحيِّز الضيق، حيِّز الحياة الواحدة التي هي بالطبع حياة أبعد ما تكون عن الراحة، وأكثر ما تكون تعرُّضاً للأخطار، وذلك حتى عندما أقارنها بطراز حياة أجدادي، أمّا أبي، وجدي، فماذا رأيا؟ لقد عاش كلٌّ حياته بالصورة الواحدة، حياة واحدة من البداية إلي النهاية، من دون حالات ارتقاء، ولا سقوط أو تَرَدّي، ومن دون هزة وخطر، حياة فيها أشكال من التوتُّر ضئيلة، وحالات انتقال لا تُلاحَظ، بالإيقاع ذاته، وكانت موجة العصر تحملهم بيُسْرٍ وسكون، من المهد إلى اللحد. كانوا يعيشون في البلد ذاته، وفي المدينة ذاتها، وتكاد تكون حياتهم دائماً في المنزل ذاته، أمّا ما كان يحدث في العالم الخارجي فكان يحدث في الحقيقة في الجريدة فحسب، ولم يكن يطرق باب حجرتهم، وما من شك في أن حرباً ما، كائنة ما كانت، تحدث في مكانٍ ما، في أيامهم، ولكنها كانت، مع ذلك مجرد حرب صغيرة، إذا ما قيست إلى

أبعاد حرب اليوم، وكانت تدور أحداثها بعيداً عن الحدود، ولم يكن المرء يسمع المدافع، وكانت تخمد جذوتها بعد نصف عام ويطويها النسيان، وما هي إلاّ ورقة جافة من أوراق التاريخ، وتعود الحياة نفسها. أنّا نحن فكنا نعيش كل شيء بلا عودة، ولم يكن يبقى شيء من السالف الغابر، ولم يكن شيء يعود أدراجه، وكان يُحال بيننا وبين المشاركة على أقصى الحدود فيما كان التاريخ في العادة يوزِّعه توزيع المقتصد على بلد واحد بعينه وعلى قرنٍ بعينه في كل مرة. وكان الجيل الواحد يشارك في ثورة واحدة على كل الأحوال، بينما يشارك الجيل الآخر في انقلاب، والثالث في حرب، والرابع في مجاعة، والخامس في إفلاس دولة- وكانت بعض البلدان التي تحظى بالبركة وبعض الأجيال المباركة لا تشارك في شيء من هذا كله على الإطلاق. أمّا نحن، الذين سلخنا اليوم ستين عاماً من العمر، وما زال أمامنا، يحكم العرف والقانون في الحقيقة، فسحة من الزمن نعيشها، فأي شيء لم نره ولم نُعانِه ولم نعايشه؟ لقد مررنا بسجل كل الكوارث التي يمكن تصورُّها فحسب، من إحدى نهايتيه إلى النهاية الأخرى (ولمّا نصلْ بعد إلى الورقة الأخيرة). وقد كنت أنا وحدي معاصِراً لأكبر حربين في تاريخ البشرية، بل شهدت كلاًّ منهما على جبهة مختلفة، أمّا الأولى فعلى الجبهة الألمانية وأما الأخرى فعلى الجبهة المعادية للألمان، وقد عرفت في فترة ما قبل الحرب أعلى مراحل الحرية، وأرفع صورة من صورها الفردية ثم عرفت بعد ذلك أدنى دَرَكٍ لها منذ قرون، لقد احتُفِل بي وتعرضت للحرمان وأغارت على حياتي كل خيول نهاية العالم المتقعة اللون، من ثورة ومجاعة، وخفضٍ لقيمة العملة وإرهاب، وأوبئة، وهجرة، ورأيت الإيديولوجيات الجماهيرية الكبرى تنمو تحت ناظرِيّ، وتنتشر، الفاشية في

إيطاليا والنازية في ألمانيا، والبلشفية في روسيا، ولا سيما ذلك الداء الوبيل، النازية التي سممت ازدهار ثقافتنا الأوروبية، ولم يكن لي بدٌّ أن أكون شاهداً أعزل على الانتكاسة التي لا يمكن تصوُّرها، للبشرية، إلى بربرية حسِبَ الناس أنها طواها النسيان منذ عهد بعيد، بما فيها من عقيدة مقصورة ومنهجية، هي عقيدة معاداة الإنسانية، وكان محفوظًا لنا الحقُّ في أن نرى من جديد، ولأول مرة منذ قرون، حروبًا من دون إعلان حرب، ومعسكراتِ اعتقال، وعمليات نهب جماعيّ، وهجمات بالقنابل على مدن لا دفاعَ لها، وألوانًا من الوحشية من هذا كله لم تعرفها الأجيال الخمسون الأخيرة، وآمل أن لا تحتمل في المستقبل أمثالها. غير أنني رأيت، من باب التناقض، أيضًا، في الحقبة ذاتها التي يَرْتَكِسُ فيها عالمنا، في مضمار الأخلاق، بمقدار ألف سنة إلى الوراء، هذه البشرية ذاتها ترتقي، في مضمار التقنية وفي المضمار الف=كري، إلى مآثر لم تكن تُقَدَّر، إذ تسبق بخفقة جناح واحدة، كلَّ ما تمَّ إنجازه خلال الملايين من السنين: فمن ذلك غزو الأجواء بالطائرة، ونقل كلمة أهل الأرض في الثانية ذاتها حول الكرة الأرضية، والانتصار، بذلك، على الفضاء الخارجي، وتحطيم الذرة والانتصار على أخبث الأمراض، والتمكُّن في كل يوم تقريبًا مما كان وما يزال بالأمس مستحيلاً. ولم يسبق للبشرية قطُّ، حتى ساعتنا هذه، من حيث هي مجموع، أن سلكت سلوكًا شيطانيًا أكثر مما فعلت هنا، ولا أنجزت انجازاً يضاهي إنجاز الرب إلى هذا المدى.

والشهادة على حياتنا هذه المتوتِّرة والغنية بالمفاجآت إلى حد درامي،

تبدو لي واجبًا، لأن كلَّ امرئ- وأكررِّ ذلك- كان شاهدًا على هذه التبدُّلات الهائلة، وكلَّ امرئ كان، يُضْطر إلى أن يكون شاهدًا. وبالقياس إلي جيلنا لم يكن هناك مَهْرَب ولا مندوحه، ولا التباذٌ لمكانٍ قصيٍ كما كان يحدث في الجيل الذي قبله، وكان قد تمّ إدخالنا، من جراء تنظيمنا الجديد الخاص بالتزامن، في هذا الإطار الشامل، إطار العصر. فكانت القنابل إذا دمَّرت المنازل في شنغهاي عرفنا ذلك في أوربا ونحن في حجراتنا، قبل أن يُحْمَل الجرحى من منازلهم، وبات ما يحدث على بعد ألف ميل وراء البحر يقفز إلينا متجسدًا في صورة، ولم يكن هناك حماية ولا تأمين ضد التفاهم المتواصل والانجذاب إلى الآخرين، ولم تكن هناك بلاد يهرب المرء إليها، أو يستطيع المرء أن يشتريها، وكانت يد القدر ما تفتأ تمسك بنا في كل مكان وتردُّنا إلى لعبتها التي لا سبيل إلى إشباعها.

ولم يكن للمرء بدٌّ أن يجعل من نفسه تابعًا لمطاليب الدولة، وأن يرمي بنفسه فريسة لأشد السياسات حماقة وتغفيلاً، وأن يتكيَّف مع أكثر التغييرات إمعانًا في النزعة الخيالية، وكان يزداد، على نحو مطرد، ارتباطًا بأغلال الأمور المشتركة، مهما كانت مقاومته لذلك مريرة، إذ كان هذا يجرف المرء معه على نحوٍ لا سبيل إلى مقاومته وكان مَنْ يخوض في هذا العصر، أو يطارده هذا العصر بالأحرى، ويلاحقه إلى أن يرهقه- ونحن لم نعرف إلاّ القليل من فترات التقاط الأنفاس- يشارك في معايشة التاريخ أكثر من أي امرئٍ من أجداده. واليوم أيضًا نقف مرارًا عند منعطف تاريخي، عند خاتمة وبداية جديدة، ولذلك فأنا لا أتصرَّف على الإطلاق

تصرفًا خياليًا من النيّة والقصد عند ما أدع هذه النظرة إلى الوراء، على حياتي تنتــهي بتاريخ محدَّد بصفـــة مؤقتـــة، ذلك لأن ذلك اليوم من أيام أيلول عام ١٩٣٩ يرســم خط الخاتمة النهائي تحت حقبة شكّلتنا وربَّتنا نحن أبناء الستين. ولكن عندما ننقل بشهادتنا مجرد كِــسْرَةٍ من الحقيقـــة من بنيتها المتداعيـــة، إلى الجيل القادم لا نكون قد أدينا عملنا أداءً عبثيًا كل العبث.

على أنني أدرك الظروف غير المواتية، والمتميِّزة مع ذلك إلى أقصى الحدود بالنسبة لعصرنا، وهي الظروف التي أحاول فيها أن أصوغ ذكرياتي هذه، وأنا أبعث بها في غمار الحرب، وأكتبها في الغربة، ومن دون أدنى مُعين للذاكرة، فليس هناك نسخة من كتبي، ولا تدوينات، ولا رسائل صديق، تتوافر لي في حجرتي بالفندق، وما من مكان أستطيع فيه أن أستحضر المعلومات، لأن البريد من بلدي إلى بلد تعوقه الرقابة في العالم كله، ونحن نعيش معزولين كما كنا نعيش قبل مئات السنين، قبل أن تُخْتَرَع البواخر والخطوط الحديدية والطائرات والبريد وعلى هذا فأنا لا أحمل معي شيئًا من ماضيَّ سوى ما أحمله في دماغي وكل شيء آخر ليس في متناول يدي في هذه اللحظة أو هو مفقود. غير أن الفن المستحسن الذي يتمثل في الحزن على المفقود، تعلَّمه جيلنا على نحو مُحكَم وعميق، بل ربما تحوَّل فقدان التوثيق والتفاصيل إلى مكسب لكتابي هذا. ذلك لأنني لا أنظر إلى ذاكرتنا على أنها مجرد العنصر الواحد الذي يحتفظ بطريق المصادفة، والعنصر الآخر الذي يُضيِّع بطريق المصادفة، بل أنظر إليها على أنها طاقة تنظِّم تنظيم العارف، وتستعبد استعباد الحكيم. وكل ما ينساه المرء من

حياته، هو، فإنما سبق الحكم عليه في الحقيقة، منذ عهد بعيد، من قبل غريزة باطنية، بأن يُنْسى وما أريد، أنا، أن احتفظ به فحسب، فله وحده الحق في أن يُحْفَظ للآخرين، وهكذا فلْتَتَحدَّثن ولْتَختَرْن، أَيْ ذكرياتي، بدلاً مني، ولْترسلِن على الأقل شعاعًا منعكسًا من حياتي، قبل أن تغوص في غياهب الظلام!

الفصل الأول

مأساة طفولة

سيكون من العسير على رجل يتمتع بعبقرية بلزاك، الذي يتمكن، بفضل خياله الدافق الفيّاض، من أن يقيم عالمًا ثانيًا، كاملاً، إلى جانب العالم الأرضيّ، أن يلتزم التزامًا صارمًا على الدوام، بالحقيقة الموضوعية، بالنظر إلى أقاصيص حياته الخاصة التي هي أقاصيص غير ذات طائل، إلاّ فيما ندر. وذلك أن كل شيء عنده يجري إتْباعه لتعسّف إرادته ذات السيادة التي تُحَوِّل وتبدِّل. ومن الأمور المميِّزة أن هذا التحويل والتحوير للكثير من أقاصيص حياته يبدأ حتى بالحقيقة الأساسية -التي لا يمكن تغييرها في العادة، في حياة امرئ من الطبقة الوسطى: أي باسمه، إذ يكشف بلزاك للعالم ذات يوم، وهو في حوالي الثلاثين من عمره، اسمه ليس هونوريه بلزاك، بل هونوريه دي بلزاك، وأكثر من هذا أيضًا، إذ يزعم أنه كان منذ أيامه الأولى مفوّضًا، بحكم القانون، بأن يحمل اسمه هذه الأداة الدالّة على النبالة وعلى حين كان والده هو قد تحدث من باب التلفيق، وعلى سبيل المُزاح فحسب، وفي المحيط العائلي الأضيق للغاية، عن إمكانية استعماله لاسم العائلة الفروسي اليوميّ وهو اسم بلزاك دِنتراج، ربما من حجة بعيدة، يقوم ابنه ذو الخيال الجامح برفع هذا التكهن الذي تعصف به الشكوك، من باب التحدّي، إلى مقام الحقيقة التي لا جدال فيها، فهو يوقِّع على رسائله وكتبه باسم «دي» بلزاك، بل يوعز بتركيب شعارات نبالة آل انتراج على حنطور رحلته إلى ڤينا، وحين يتهكم

عليه زملاؤه من غير أهل المودة بسبب الإضفاء الذاتي للنبالة الذي ينطوي على الصلف والغرور، يجيب بصراحة ووقاحة، عن أسئلة الصحفيين، قائلاً إن أباه قد سجَّل هذا الأصْل النبيل قبل مولده هو في الوثائق الرسمية، ويقول إن الانتساب إلى النبلاء في وثيقة ميلاده ليس أقلّ سريانَ مفعولٍ من انتساب مونتايني أو مونتسكيو.

ومن المؤسف أنه يوجد اليوم في عالمنا المعادي، عداواة تتمثل في اقتفاء الأثر. بقصد خبيث يتميَّز بسلاطة اللسان في مقابل أكثر الأساطير ازدهاراً عند الأديب ومن المزعج المُكدِّر أن وثيقة الميلاد تلك التي يستشهد بها بلزاك بلهجة المنتصر، محفوظة في محفوظات مدينة تور، ولكن لا يُعْثَر مع اسمه، على حرف من أداة (de) تلك الأرستقراطية. على أن الكاتب الحكوميّ في تور يسجل تحت تاريخ ٢١ أيار، ١٧٩٩، قوله، ببرود ووضوح:

اليوم، في الثاني من شهر بريريال، من العام السابع للجمهورية الفرنسية ظهر أمامي، أنا، بيير جاك دوڤيڤييه، موظف الأحوال المدنية الموقع أدناه، المواطن برنار- فرانسوا بلزاك، من المالكين، المقيم في المكان الذي أعمل فيه هنا، بشارع جيش إيطاليا، حي شاردونيه، رقم ٢٥، للإبلاغ عن ميلاد ولده، وصرح بلزاك المذكور بأن الطفل سُمِّي باسم هونوريه بلزاك، وأنه وُلِدَ صباح البارحة في الساعة الحادية عشرة، في بيت القائم بالتبليغ.

وكذلك لا تفعل الوثائق الأخرى إلاّ القليل، إذ لا يذكر لقب النبالة هذا، لا الإعلان عن وفاة الأب، ولا الإعلان عن زواج الأخت الأولى، وهو اللقب الذي يتبيّن، بموجب ذلك، أنه يمثل، مع كل الأبحاث الخاصة بالأنساب، مجرد نتاج رغبة محضة من قبل الروائيّ الكبير.

ولكن إذا كانت الوثائق تحتفظ، بالمعنى الحرفي، بالحق ضد بلزاك، فقد احتفظت إرادته، إرادته الإبداعية اللاهبة، بالحق المجيد، ضد الورق البارد، وكان

الأدب ينتصر دائمًا على التاريخ، على الرغم من كل التصحيحات اللاحقة. وعلى الرغم من أنه مامن ملك فرنسي وقع على رسالة إضفاء نبالة عليه أو على أحد أجداده في أيِ يوم من الأيام، فإن العالم من بعده إذا سئل عن اسم أكبر كاتب ملحمي فرنسي يذكر، مطيعًا له، اسم هونوريه دي بلزاك، ولا يقول، مثلاً، هونوريه بلزاك، أو حتى هورنوريه بالْسا.

ذلك لأن اسم العائلة الصحيح لأجداده من الطبقة العاملة هو بالْسا، لا بلزاك، ولا دي بلزاك، من باب أَوْلى: فهؤلاء لا يملكون قصوراً ولا يحملون رمز الأسرة الذي يستطيع جَدٌّ الأديب أن يرسمه على العربة، وهم لا يخرجون راكبين في عربات مدرَّعة لامعة، ولا يمارسون مبارياتالجمباز الرومانسية، بل يسوقون الأبقار في كل يوم إلى الشرب، ويستصلحون أرض اللانجويدوك مالعرق يتصب منهم. وقد ولِدَ والد بلزاك، برنار فرانسوا، بصفته أحد المستوطنين الكثيرين من أسرة البالسا هناك، في ٢٢ حزيران١٧٤٦، في كوخ بائس من الحجر في مستوطنة صغيرة هي مستوطنة لانوجيرييه عند كانزاك، وكان سوء السمعة الوحيد الذي حظي به واحد من هؤلاء البالْسا في أي يوم مضى من الأيام، يبعث على القلق إلى أقصى الحدود، ففي العام نفسه، أي في عام ١٨١٩، حين يغادر هونوريه الجامعة، يُلقى القبض على شقيق أبيه البالغ من العمر أربعة وخمسين عامًا بشبهة قتله فتاة قروية حاملاً، وبعد قضية لفتت الأنظار في العام التالي يتم إعدامه بالمقصلة. وربما كانت الرغبة في النَّأْي بنفسه قدر الإمكان عن شقيق الأب هذا السيء السمعة، هي التي أتاحت، على وجه الخصوص، لبلزاك، الدافع الأول لإضفاء النبالة على نفسه، وحملته على أن يخترع لنفسه أصلاً آخر.

أما برنارد فرانسوا، والد بلزاك، فتُخَصَّص له، بصفته الأكبر سنًا بين أحد عشر طفلاً، من قبل والده، وهو عامل زراعي عاديّ تمامًا، مهنة كهنوتية، فيعلمه

قسيس القرية القراءة والكتابة، وحتى شيئًا من اللاتينية، ولكن الفتى الجَلْد القوي، المفعم بالحيوية والطموح يظهر قليلاً من الميل إلى قصٍّ إكليل من الشعر وأن يفرض على نفسه نذر العفة، ويظل حينًا من الزمن يروح ويجيء هنا وهناك في المستوطنة الصغيرة التي نشأ فيها، فيعمل كاتبًا يساعد موثِّق عقود تارة، ويشمِّر عن ساعد الجدّ في مزرعة كرمة، ووراء المحراث تارة أخرى، ولكن حين يبلغ العشرين ينطلق إلى غير رجعة. وبقوة الدفع، تلك الصلبة، التي لا تَني ولا تتراجع، عند أبناء الريف، والتي وصفها ابنه في رواياته بأروع أشكال التنوُّع، يحشر نفسه في باريس، وكان أول الأمر غير مرئي، وتحت السطح، يحكم كونه، على أية حال، مجرد واحد من الشباب الذين لا يُحْصَوْن عدداً، والذين يريدون أن يحققوا ارتقاءً في مهنتهم في باريس، من دون أن يعرفوا، هم أنفسهم، بأي طريقة يكون ذلك، وفي أية مهنة.
أما أنه كان في أيام لويس السادس عشر أمين سر في مجلس الملك، أو حتى محاميًا عن الملك، كما يزعم فيما بعد، حين أصبح من شخصيات الريف الناجحة- فذلك ما كُشِف القناع عنه منذ عهد بعيد، على أنه تبجُّح السيد المسن المولع بسرد الأقاصيص، وذلك عن طريق حقيقة مؤدّاها أنه ما من أحد من الكتب السنوية للملك يذكر رجلاً باسم بلزاك، ولا باسم بالْسا في منصب مماثل، وكانت الثورة هي أول من ارتقى بابن الطبقة العاملة هذا مثلما ارتقى بالكثيرين، ويتقلَّد وظيفة يُحاذر مفوَّض الجيش اللاحق أن يكثر من الحديث عنها- موظفًا في مجلس مدينة باريس الثوري، ويبدو أنه أنشأ لنفسه صِلات هنَاك، وبالغريزة الحارّة الجامحة التي تدفع إلى كسب المال، والتي سيورثّها لابنه، يختار لنفسه في أيام الحرب ذلك القسم من الجيش الذي يكون فيه كسبُ المرء أكثر ما يكون: وهو قسم التموين بالغذاء وتوريد المواد الحربية، ومن فرع التموين بالغذاء في أحد الجيوش تفضي خيوط من الذهب، بدورها، على نحو لا مناص منه، إلى مُقْرِضي الأموال وإلى رجال المصارف. وذات يوم، وبعد ثلاثين عامًا من المهن والصفقات التي يحفُّ بها

الغموض، يغيِّر برنار- فرانسوا مساره مرة أخرى ويظهر أمين سرٍّ أول في البيت المصرفي، دانييل دوميرك، في باريس.

وحين بلغ بلزاك الأب الخمسين من العمر أتيح له التحوُّل الكبير آخر الأمر- وما أكثر ما وصف ابنه هذا التحوُّل- الذي يجعل من مفلس مضطرب لا يقرّ له قرار، وطموح، آخر الأمر، ذلك المواطن المهذَّب المحترم، والعضو الشريف، أو العضو الذي أصبح شريفًا، في «المجتمع الطيِّب». والآن فحسب، وبشيء من رأس المال المكتسب، وبالمركز المضمون، يستطيع أن يقدم على الخطوة الضرورية التالية، لكي يتحوَّل من مواطن ضئيل الشأن إلي مواطن كبير (وفيما بعد: من المواطن الكبير إلى- المرحلة الأخيرة- التي هو أكثر ما يكون شوقًا إليها- وهي أن يكون صاحب أملاك وريْع): ولسوف يتزوج، في الحقيقة فتاة موسرة ومن أسرة بورجوازية طيبة. فإذا بلغ الحادية والخمسين فهو رجل مكتمل الصحة، ضخم فخم، ولما كان إلى جانب ذلك امرءاً كثير الهَذْر واللغو، بارعًا فيهما، ومُحَطِّمًا لقلوب النساء متمرِّسًا فهو يوجِّه نظراته إلى ابنة واحد من رؤسائه في المصرف والحق أنَّ آن شارلوت سالا مبييه تصغره بمقدار اثنين وثلاثين عامًا، وتنطوي على ميول رومانسية إلى حد ما، غير أنها تمتثل لنصيحة الأبوين بحكم كونها ابنة بورجوازي تقيَّةً حسنة التربية، مطيعةً لهما، إذ يعلن هذان أنهما يريان في بلزاك الأكبر سنًا في الحقيقة بمقدار لا يستهان به، ولكنه أوتي موهبة طيبة فيما يتصل بولعه بالمال، شريكًا صلبًا متينًا، ولم يكد بلزاك الأب يتزوَّج حتى بات يرى أن مما ينتقص من مكانته، وهو أيضًا ضئيل العائد، أن يظل مجرد موظف. وفي عهد رجل مثل نابليون تبدو له الحرب مصدراً للكسب أسرع كثيراً وأوفر عائداً، وإذا هو يدع صلاته القديمة تلعب دورها من جديد، وينتقل، إذ باتت أمره مضمونة عن طريق دوطة زوجته، إلى تور ليتولى منصب رئيس تموين الفرقة الثانية والعشرين.

وفي هذه اللحظة، عندما يولد ولدهما الأول، هونوريه (في ٢٠ أيار ١٧٩٩) يكون آل بلزاك أناسًا موسرين، ويجري قبولهم في طبقة البورجوازية العليا على أنهم مواطنون جديرون بالاحترام في مدينة تور، وتبدو توريدات برنار- فرانسوا وقد عادت بعوائد طيبة، ذلك لأن الأسرة التي ما تفتأ تدّخر وتضارب في وقت معًا، تأخذ الآن في الظهور بمظاهر الأُبّهة والفخامة، وبعد ميلاد هونوريه مباشـــرة ينتقلون من شـــارع جيش إيطاليا الضيق إلى منزل خاص بهم، ولا يضنّون على أنفـــسهم، ما دام العصر الذهبي للحملات النابليونية قائمًا، بترف المدينة الصغيرة، من عربة وعدد كبير من الخدم، ويتردَّد على منزل المـــستوطن القروي وعضو مجلس المدينة الجمهوري السابق، ذي الرايـــة الحمراء والزرقاء أفضل فئات المجتمع، بل الارســـتقراطيون، على نحو مستديم، ومنهم عضو مجلس الشيوخ كليمنت دي ري، الذي سيصف بلزاك اختطافه الغريب والحافل بالأسرار، فيما بعد في رواية «القضية الغامضة»(Ténébreuse Affaire)، وصفًا مفصّلاً وكذلك البارون دي بومرول والمسيودي مارجون، اللذان سيبذلان بعد ذلك لهذا الأديب مساندتهما وعونهما في أحرج الأوقات، بل يجتذب بلزاك الأب النشاطُ في المدينة، فهو يتولّى إدارة المستشفى، ويحظى رأيه بالاحترام في صدد كل القرارات. وعلى الرغم من أصله الوضيـــع وماضيه الذي لم يُســـبَر غوره أو يُستَقْصى، أصبح في هذا العصر، الحافل بالارتقاء السريع في المهن والوظائف، وإعادة النظر في هيكل التَّراتُبِ الطبقي، شخصية جديرة بالاحترام، لا شائبة فيها.

على أن هذه المحبة التي كان يتمتع بها بلزاك الأب مفهومة من كل جهاتها، فهو رجل من أهل البِشْر والبشاشة، متين البنية، ظريف، رفيق، راضٍ عن نفسه، وعن ضروب نجاحه، وعن العالم كله. على أن لغته لا تتميز بلكنتها الأرستقراطية، فهو يشتم بمرح مثل مَدْفعيّ، ولا يَضِنُّ بالطرائف ذوات التوابل

اللاذعة- وربما نقل إلى ابنه بعضاً من الأقاصيص الماجنة (Contes drolatiques)، غير أنه قصّاص رائع، يسره، بالطبع أن يخلط الحقيقة بألوان من التبجج والهذر القائمين على المبالغة، وهو مع ذلك طيب وديع، ومرح، وأكثر براعة من أن يحسم موقفه في مثل تلك العصور المتقلّبة، إلى جانب الامبراطور أو الملك، أو الجمهورية، ومع كونه مفتقراً إلى التعليم المدرسيّ الكامل فهو يظهر اهتمامه في هذا الاتجاه وذاك، ويكتسب بالتعلّم من كل حدب وصوب، نوعاً من الثقافة الجامعة، بل يؤلف بعض الكتيّبات، مثل: مذكرة في الحيلولة دون السرقات وحوادث القتل، و مقالة في الاختلاط والفوضى الفضائحية الناجمة عن الفتيات المخدوعات والمهجورات، وهي أعمال لا تُقارَن بالطبع مع أعمال ابنه العظيم، مثلما لا تقارن اليوميات الإيطالية لوالد جوته بكتاب «الرحلة إلى إيطالية» ليوهان فولفجانج، ولما كان يتمتع بصحة كاملة لا شائبة فيها، وكان مفعماً بمتعة الحياة التي لا يشوبها همٌّ ولا غم، فقد عقد العزم على أن يبلغ من العمر مائة عام، وبعد عامه الستين يضيف إلى أولاده الأربعة الشرعيين بعض الأولاد غير الشرعيين، ويتّهم، وهو في الثمانين من قبل ألسنة السوء في المدينة الصغيرة بالتسبُّب في حمل فتاة، ولم يدخل طبيب بيته أبداً، وهذه الإرادة الهادفة إلى البقاء حيّاً بعد كل الآخرين يزيد من قوتها بعدُ ذلك الظرف المتمثل في كونه يتمتع بمعاش تقاعدي مدى الحياة من المؤسسة المسمّاة Tontine Laferog التي يرتفع عندها، في حالة وفاة كل مشارك، الراتب المخصَّص للباقين. على أن الطاقة الشيطانية ذاتها، التي يعبئها الولد في تشكيل الحياة بألف وجه، يعبّئها هذا الأب في سبيل الحفاظ على حياته الخاصة فحسب، وها هو ذا يسبق شركاءه ويخلّفهم وراءه، وهاهو ذا معاشه التقاعدي يصل إلى ثمانية آلاف فرنك، هنالك يقع ابن الثالثة والثمانين حولاً ضحية لحادث ينطوي على عدم التعقُّل، ولولا ذلك لكان برنار ڤوانسوا خليقاً أن يحقق المستحيل عن طريق تركيز الإرادة مثلما فعل هونوريه على وجه الدقة.

ومثلما ورث هونوريه دي بلزاك عن أبيه الحيوية والولع بحبْك الحكايات وتزويقها يرث عن أمه إرهاف الحس. وذلك أنها كانت، وهي التي تصغر زوجها اثنين وثلاثين علماً، ولم تكن تزوَّجت زواجًا تعيسًا بحال من الأحوال، تتسم بخصلة رديئة، وهي شعورها الدائم بأنها غير سعيدة، وبينما كان زوجها يمضي في حياته مرحًا غير آبه بشيء، ولا تكدِّر صفوه بحال من الأحوال مشاكسات زوجه وأمراضها المتوهَّمة، في مزاجه الذي لا يزعزعه شيء، تمثُّل آن شارلوت بلزاك الأنموذج المزعج الثقيل أنموذج المتكدِّرة أبدًا في جملة ماينعكس لديها من ألوان الهستيريا، فهي تشعر أنها لا تلقى المحبة الكافية من كلِّ مَنْ في البيت، ولا تجد الاحترام الكافي، ولا التقدير الكافي، وما تفتأ تشكو من أن أولادها لا يؤدون ما يكفي من الشكر مقابل التضحية الجُلى، ولن تكف، إلى نهاية حياتها، عن تعذيب ولدها الذي بات يتمتع بشهرة عالمية، بالنصائح ذات «المقصد الحسن»، وضروب التقريع التي توشك أن تتحول إلى بكاء، على أنها ليست، مع ذلك، بالمرأة الخالية من الذكاء والثقافة، وقد جاءت معها، وهي فتاة صبيّة، مخصصة لتكون نديمة لابنة ذلك المصرفيّ، دوميرك، من هذه المعاشرة، بميول رومانسية معينة، وهي تتحمَّس في تلك السنين للأدب الإبداعي، وسوف تحافظ، بعد ذلك، على إيثار لسويد ينبورغ والكتابات الصوفية الأخرى، ولكن هذه التحليقات المثالية اليسيرة سرعان ما تخيّم عليها ظلال الخوف الموروث على المال، إذ كانت تنتمي إلى أسرة باريسية أنموذجية من الطبقة البورجوازية الصغيرة كانت تملأ جُراب توفيرها، على طريق البخلاء، بتجارة لوازم الخياطة، قرشًا قرشًا، وتُدْخِل كل غرائز البُخل العفِنة المرتبطة بالبورجوازية الدنُيا، في إدارة المنزل الحديثة، ولا سيما بُخلاً يقوم على الحذلقة، ولكنه يُخالِس النظر، في الوقت ذاته، في شرَه ومُغالاة، إلى الاستثمارات الجيّدة والمضاربات ذات العوائد المُجْزِئة، والعناية بالأطفال تعني، بالقياس إليها، أن تعلّمهم أن إنفاق المال جريمة، وكسب المال فضيلة الفضائل، وأنه

لا بدَّ للمرء أن يوجههم منذ البداية، إلى الظفر «بموقع» مَكين، أو، في حالة البنات، بزواج حسن، وأن لا يدع المرء لهم حرية، وأن ينتبه إليهم انتباه من يسيء الظن، غير أنها تُحدِث، على كل حال، بهذا القلق المُلحّ، اليقظ، وبهذه الحماسة ذات المزاج المتكدِّر من أجل صالحها المزعوم، أثراً باعثاً للشلل في الأسرة بأسرها على الرغم من «نواياها الطيِّبة»، وحتى بعد سنين، سوف يتذكَّر بلزاك، وقد غدا رجلاً في سن الرشد، أنه كان، وهو طفل، يتولاّه الفزع بمجرد أن يسمع صوتها.

أمّا ما عاناه بلزاك في كنف هذه الأم المتكدِّرة أبداً، والمُعاقة في ذاتها، والتي كانت تصدُّ كل محاولة من محاولات الملاطفة من قبل الأطفال الذين يُقْبِلون كالعاصفة، والذين يتّسمون بالعاطفة الجامحة مع الوداعة، فذلك ما يمكن أن يُسْبَرَ غوره من الصرخة التي تتردد في رسالته: «لم يكن لي أمٌّ أبداً» وأمّا ما هية السبب الخفي الذي كان يُبْعد آن شارلوت بلزاك الغريزة، عن كلا ولديها المولودين أوَّلاً، وهما هونوريه ولور، بينما كانت بعد ذلك تلاطف الصغيرين، لورنس وهنري- وربما كان دفاعاً من جانبهامحوَّلاً ضدَّ زوجها، فذلك أمر لا يكاد يمكن الكشف عنه اليوم بعد، غير أن الأمر الذي لا ريب!فيه هو أنه لا يكاد يمكن تصوُّر سلوكٍ من جانب أم تجاه طفلها أكثر مبالاة وخُلُوّاً من الحب، من سلوكها، ولم تكد تلد ولدها، وهي بعد في طور النفاس، حتى أخرجته من البيت كأنه أَبْرَص. ويُعْهَد بالرضيع إلى مرضعة، وهي زوجة رجل من الدَّرك: ويظل هناك حتى عامه الرابع، وحتى في ذلك الوقت لا يتاح له أن يعود إلى أبيه وأمه وإخوته، في المنزل الفسيح بلا ريب، وذي الموقع الحسن، بل يُعطى، في فندق عائلي جزئي، إلى أسرة غريبة، ولا يُباح له أن يزور ذويه إلاّ مرة في الأسبوع، يوم الأحد، وكأنهم من أقربائه البعيدين، ولم يُتَحْ له لَعِبٌ مع أخوته الأصغر منه ولم يكن يسمح له بألعاب

وهدايا، على أنه لا يعرف أمّاً تسهر عند سريره إذا ما أصابه مرض، ولم يسمع قطُّ صوتها ينطق بكلمة رفيقة ليّنة، وكأن إذا أَلَحَّ على ركبتها برقة ورغب في معانقتها أَفْزعته عن مثل هذه الحميميّة كلمةٌ صارمة، بحكم كون ذلك أمراً غير لائق، ولم يكد يستطيع أن يحرك ساقيه الصغيرتين على الوجه الصحيح وهو في السابعة حتى اصطدمت بما هو غير مرغوب فيه في مدرسة داخلية بعد ڤاندوم، لم يكن ينبغي له إلاّ أن يظل بعيداً، في مكان آخر، في مدينة أخرى، وحين يعود بلزاك بعد سبع سنين من التربية التي لا تطاق، إلى بيت والديه تجعل هي الحياة صعبة عليه، كما يقول بعبارته هو- إلى الحد الذي يجعله يدير ظهره لهذه البيئة التي لا تطاق، من تلقاء نفسه، وهو في الثامنة عشرة.

ولم يستطع الرجل حين بلغ الرشد، أبداً، أن ينسى، على الرغم من كل الوداعة الطبيعية، الظلم والخذلان اللذاين عرفها من الأم الغريبة، وحتى بعد سنين، حين يأخذ مُعَذِّبَة طفولته الآن، من جانبه، إلى بيته، لا يستطيع ابن الثالثة والأربعين، الذي ظهرت الخصلات البيض في شعره، أن ينسى ما فعلت هذه في سالف الأيام بالطفل ابن السادسة، وابن العاشرة، الرقيق، المحتاج إلى الحب، بنفورها وإعراضها، وهو يرفع صرخته، في ثورة لا حول لها، إلى السيدة هانسكا، بالاعتراف الرهيب.

«لو كنتِ تعرفين أي امرأة أمي: إنها جبّارة وتجسيد للجبروت في وقت معًا، وهي في اللحظة الحاضرة توشك أن تدفن أختي تحت التراب، بعد أن هلكت أختي لورنس وجْدتي من جرائها، وهي تكرهني لأسباب كثيرة، تكرهني قبل أن أولد، وقد كنت أوشكت أن أصرم حبلها، إذ كان هذا ضرورياً، غير أني أوثر أن أواصل المعاناة، إنه لجرح لا يمكن أن يندمل، وكنا نعتقد أنها مجنونة، واستشرنا طبيباً هو على صداقة معها منذ ثلاثة وثلاثين عامًا، غير أنه قال

لنا : «كلاّ، إنها ليست مجنونة، فهي سيئة الخلق فحسب» ... وأمي علة كل الشرور في حياتي.

وهذه الكلمات هُنَّ الجواب الذي ينبثق على نحو مكشوف، بعد سنين، على صنوف العذاب الكامنة التي تبلغ الألف، والتي يعرفها في سنه الأكثر حساسية على الإطلاق، من قِبَل ذلك المخلوق الذي كان يجب أن يكون أقرب المخلوقات إليه بموجب قانون الطبيعة، وأمه وحدها تحمل وِزْرَ ماعاناه حسب تعبيره هو، من طفولة هي أفظع ما قُسِمَ لإنسان أن يعانيه على وجه الأرض».

أما السنوات الستة التي قضاها بلزاك في السجن الفكري المتمثل في المدرسة الداخلية لرابطة الرهبان المسكونية في ڤاندوم فلدينا عنها تقريران، التقرير الخاص بسجل المدرسة الموضوعي الرسمي، والتقرير الرائع من الناحية الأدبية في روايته «لويس لامبير، وآباء المدرسة لا يلاحظون إلاّ ببرود :

الرقم ٤٦٠ : هو نوريه بلزاك، السن ثمانية أعوام وشهر، سبقت إصابته بالجدري من دون أضرار تخلَّفت عنه، الشخصية : مفعم بالحيوية، سهل الاستثارة، تنتابه نوبات من حمى الاستثارة من حين إلى آخر، دخل المدرسة الداخلية في ٢٠ حزيران ١٨٠٧، وخرج منها في ٢٢ آب ١٨١٣ ترسل الرسائل إلى المسيو بلزاك، الأب، في توز.

وقد ظل بالنسبة إلى رفاقه من التلاميذ عالقًا بذاكرتهم بحكم كونه الفتى الوحيد والبدين المكتنز الوجنتين، الأحمر الوجه، وما يستطيعون أن يتحدثوا عنه يتعلق بالمظهر الخارجي، أو ببعض الأقاصيص الطريفة التي تبعث على الشك.

على أن صحائف السيرة الذاتية في «لويس لامبير» تكشف عن الحياة الداخلية المأساوية للغلام الذي سيؤول إلى العبقرية، والذي لقي من العذاب ضعفين من أجل عبقريته، كشفًا يهزُّ النفوس أكثر من هذا إلى حد بعيد.

وقد اختار بلزاك من أجل هذا التصوير الذاتي لسنوات نشوئه وتطوره صيغة الصورة المزدوجة، فهو يصف، في صديقَيْ المقعد المدرسي، نفسه بصفته شاعراً، لويس لامبير في صورة «ڤيثاغورث»، الفيلسوف، وقد قام، على غرار ما فعل الفتى جوته في شخصية فاوست والشيطان- بعملية فَصْمٍ لشخصيته، فهو يقسم الصورتين الأساسيتين لعبقريته، الصورة الإبداعية، التي تحاكي شخصيات الحياة، والمُنَظِّمة، التي كانت تريد أن تكشف عن القوانين الخفية في سياقات الحياة الكبرى، إلى طبيعتين مختلفتين، وفي الواقع كان هو المرتين لويس لامبير ذاته، وكانت التجاريب الظاهرية، الخارجية لهذه الشخصية المخترعة في الظاهر، على الأقل، تجاريبه هو: وما من واحدة من الانعكاسات الكثيرة لنفسه- مثل: رافائيل في الجلد المحبب، دآرتيه في «الأوهام المفقودة»، والجنرال مونتيرو في «تاريخ الثلاثة عشر- تعد مكتملة ومُعاشة على نحو محسوس مثل مصائر الطفل المنبوذ في إطار التربية الإسبارطية في هذه المدرسة الكهنوتية.

وهذا المعهد الواقع في وسط مدينة ڤاندوم، على نهر اللوار الصغير أقرب إلى أن يعطي، حتى من حيث مظهره الخارجي، بأبراجه المتجهمة، وجدارنه المتينة، الانطباع الخاص بسجن منه إلى أن يعطي الانطباع الخاص بمنشأة تربوية. وكانت المائتان إلى الثلاثمائة من الذين يُربَّوْن فيها يؤخذون بالتربية الصارمة صرامة الأديرة منذ اليوم الأول، فليس هناك إجازات، ولا يجوز للوالدين أن يزورا أطفالهما إلاّ بصفة استثنائية. وفي كل هذه السنين لم يكن بلزاك قطُّ، تقريبًا، في بيته، وللتأكيد على التماثل مع ماضيه هو، بدرجة أشدّ، يجعل من لويس لامبير طفلاً ليس له أب ولا أم، أي أنه يجعله يتيماً، وكان سعر النزُل العائلي الذي لم يكن يشمل أجرة التعليم فحسب، بل يشمل الرعاية والثياب في ذاته، أقلَّ نسبيًا، وكان يجري التوفير من مصاريف الأطفال إلى الحد غير اللائق. أمّا أولئك الذين لا يبعث إليهم

الوالدان بالقفازات والملابس الداخلية الأكثر دفئًا- وكان بلزاك من المغبونين بسبب لا مبالاة أمه- فكانوا يزحفون في الشتاء زحفًا بأيديهم المتجمِّدة ودمامل الصقيع في أقدامهم، هنا وهناك، وكان لامبير- بلزاك، المرهف الحس بوجه خاص فيما هو جسدي مثلما هو مرهف الحس بالمعنى الذهني، يعاني منذ اللحظة الأولى أكثر مما يعاني رفاقه من أسر الفلاحين.

«ولمّا كان قد تعوَّد هواء الريف، والحرية التي تتوافر في تربية متروكة للمصادفة، ورعاية شيخ يحبه حبًا رقيقًا، وتعوَّد التفكير تحت شعاع الشمس، فقد بات من العسير عليه إلى حد فائق أن يخضع لقانون المدرسة ونظامها، ويسير ضمن الطابور، وأن يعيش داخل الجدران الأربعة، جدران قاعة يقعد فيها ثمانون من الصبية صامتين على مقاعد خشبية طويلة، وكلٌّ أمام منضدته، وكانت حواسه مفعمة بتكامل يجعلها رقيقة إلى حد غير عادي، وكان كل شيء فيه يعاني من الحياة المشتركة، وكانت انبعاثات الأبخرة التي تفسد الهواء، مع اختلاطها برائحة حجرة فصل قذرة على الدوام إذ تتوضَّع فيها هنا وهناك بقايا قطع الخبز من وجبة العصر عندنا، تقتحم حاسة الشم عنده، وهي الحاسة التي ترتبط بمنظومة الدماغ أكثر مما يكون ذلك عند الآخرين جميعًا، ولا بُدَّ أن يسبِّب إلحاق الضرر بها هزّات لأعضاء التفكير غير ملحوظة، وبصرف النظر عن هذه العلل التي تسبِّب فساد الهواء كان يوجد في قاعات المدرسة حجرات بسيطة ذات جدران من الخشب يرفع فيها كلٌّ كنوزه اليسيرة: ومنها الحمامات المذبوحة من أجل أيام الأعياد أو الأطعمة التي يكونون اختطفوها من قاعة الطعام في الدَّيْر، وفضلاً عن ذلك كان يوجد في قاعاتنا أيضًا حجر هائل يقوم عليه في كل وقت دلْوان من الماء، ونوع من حوض صغير تضطر إلى أن نغسل عنده وجوهنا وأيدينا، كلٌّ حسب دوره، في كل صباح، بحضور المعلم، ومن هنا كنا نتوجه إلى بركْة حيث تقوم نساء بتمشيط شعورنا ونثر

المساحيق علينا. أمام حجرة نومنا، التي كان يتمّ تنظيفها مرة واحِدة في اليوم قبل النهوض من الفراش، فكانت تظل على الدوام غير نظيفة، وعلى الرغم من القَدْر الكبير من النوافذ، وارتفاع الباب كان الهواء فيها يتعرَّض للفساد بغير توقف من جرّاء انبعاثات الأبخرة الصادرة من مكان الغسل والتمشيط، وحجرة حفظ الأمتعة وألوف المشاغل التي يشتغل بها كل تلميذ، بصرف النظر عن أجسادنا المحشورة فيها والبالغ عددها ثمانين ... وكان الحرمان من هواء الريف النقيّ، ذي العبير، الذي كان يعيش فيه حتى الآن، وتغيير عاداته، والنظام، كلّ هذا كان يبعث على حزن لامبير، وكان وهو يسند رأسه بيده اليسرى، ويستند بمرفقه على منضدته، ينفق ساعات الدرس وهو يتأمل الأشجار الخضر في الفناء، والسُحب في السماء، وكان يبدو وكأنه يتعلَّم واجبه المدرسي، غير أن المعلم الذي كان يرى ريشته ساكنة وصفحته تظل بيضاء، كان يصيح به: «يا لامبير، ها أنتذا لا تفعل شيئًا!».

(لويس لامبير)

وكان المعلمون يحسنون، على غير وعي منهم، بمقاومةٍ لدى هذا الغلام، ولا يلاحظون أن ثمة شيئًا غير عادي يُحْدِث أثره في نفسه بل لا يلاحظون سوى أنه لا يقرأ ويتعلم على نحو سويّ، أو بالمعنى المألوف، وكانوا يرون فيه امرءًا متبلِّد الحس أو خاملاً، أو عنيدًا أو غارقًا في الأحلام، لأنه لا يماشي خطوات الآخرين، فهو يتخلَّف عنهم حينًا ويتقدَّمهم بقفزة حينًا آخر، وعلى كل حال فلم تكن قبضة التأديب تنقضّ على أحد مثلما تنقضّ عليه، وكان ما يفتأ يتعرَّض للعقوبة، ولم يكن يوجد بالقياس إليه فراغ ساعات الاستجمام، وكان يُقَدَّر بقسطه من العقوبة المرة بعد الأخرى، وكان يبلغ من الزَجّ الحارس الأعظم شأنًا على الإطلاق في عصره أن يبْلُوَ النسبة القصوى من العقوبة الصارمة (Padres)، وهي وهي التأديب الجسدي:

«وكان هذا الغلام الضعيف والقوي للغاية في وقت معًا ... يحتمل كل إمكانات المعاناة في جسده ونفسه، وكان يُرْغَم، وهو يرسف في الأغلال كالعبد على المقعد الطويل وراء منضدته، ويُضْرَب بمقرعة التأديب، ويضربه المرض، ويُصاب في كل حواسّه، ويُضْغَط بملزمة من الشدائد والمَكاره، على أن يضحي بإهابه الخارجي للألوف من أشكال الطغيان في المعهد ...

«وكان الأعنف على الإطلاق بلا ريب، بين كل آلامنا الجسدية، ذلك الألم الناجم عن نطاق من الجلد يبلغ سمكة إصبعين تقريبًا، وينقض بكل طاقته، وبغضب المعلم على أيدينا مُدَوِّيًا، ولكي يتلقى المذنب هذا التأديب الكلاسيكي، كان يقعد على ركبتيه في وسط القاعة، وكان يترتَّب عليه أن ينهض عن المقعد الطويل، وأن يركع قريبًا من منصة المدرِّس، ويتحمل نظرات الرفاق الفضولية التي يغلب عليها التهكُّم، وكانت هذه التحضيرات تضاعف عذاب النفوس الرقيقة، مثلما كان يفعل من قبلُ الطريقُ من مبنى المحكمة إلى منصة الإعدام، ذلك الطريق الذي لم يكن بُدٌّ للمحكوم عليهم أن يقطعوه. وكان منهم الذين يصرخون ويذرفون الدموع الساخنة قبل التأديب وبعده، تبعًا لشخصيتهم، وكان الآخرون يتجملون الآلام وعلى وجوههم ملامح الفلاسفة الرُّواقيين، ولكن لم يكن يستطيع حتى أقوى الأقوياء أن يكتبوا تشوهًا تشنُّجيًا في وجوههم.

وكانوا ينهالون على لويس لامبير بالعقوبات ضربًا بالعُصِيّ، وإلى هذا يدين بالفضل في مقدرة في طبيعته ظل زمنًا طويلاً لا يعرف شيئًا عن وجودها، وكان إذا انتُزِعَ من أحلامه بالعنف، من جرّاء قول المعلم: «ها أنتذا لا تفعل شيئًا!»، وكان يحدث في كثير من الأحيان، وعلى نحو خارج عن نطاق وعيه هو في البداية، أنْ يرمي هذا الإنسان بنظرة مفعمة بالازدراء الجامح ومشحونة بالأفكار مثلما يشحن مصباح لَيْدن بالكهرباء، ومامن شك في أن تبادل النظرات هذا كان يبعث في نفس

المعلم إحساساً غير مستحب، وحين يكدِّره التهكُّم الصامت الذي يكمن في هذا يهمُّ بإخراج بُروق العينين والتماعهما من عيني التلميذ، وحين أحسَّ الأب أول مرة بهذا الشعاع المُزْدَري الذي أصابه كالبرق، صدر عنه القول التالي، الذي علِق بذاكرتي: «إذا واصلت النظر إليَّ بهذه الطريقة، يا لامبير، فسوف تنل نصيبك من العصا!»

وما من أحد بين الآباء الصارمين يدرك في كل هذه السنين سرَّ بلزاك، وذلك أنهم لا يرون إلاّ تلميذاً يتخلَّف عن الآخرين في اللاتينية أو في معرفة المفردات، ولا يقدِّرون مؤهِّلاته وما يُتَوقَّع منه، وهم يعدونه قليل الانتباه، لا مباليًا، من دون أن يلاحظوا أن المدرسة تبعث في نفسه الملل وترهقه، لأن المسائل التي تطرحها تبلغ من السهولة عليه ما يجعل خموله الظاهري مجرد استنفاد للطاقة من جرّاء تزاحم الأفكار "Congestion d' idées" وما من أحد يخطر بباله أن الغلام الصغير المكتنز الوجنتين يعيش، منذ عهد بعيد، بطاقة تحلقه الفكري، في مجالات أخرى غيرِ مجال المدرسة الخانق، وأن هذا الواحد بين كل هؤلاء الذين يقعدون في أماكن قعودهم وينامون في أماكن نومهم، يعيش حياة مزدوجة غير مرئية.

وهذا العالم الآخر الذي يعيش فيه ابن الثانية عشرة، وابن الثالثة عشرة، هو الكتب. وهذا أمين المكتبة في معهد البوليتكنيك العالي، الذي يعطيه دروساً خصوصية في الرياضيات - ولذلك يعد بلزاك أسوأ من يحْسُب في الأدب، طول حياته- يسمح للغلام أن يأخذ من الكتب ما يحلوله، إلى المدرسة الداخلية، من دون أن يقدِّر مدى تجاوز الحدود الذي يستعمل به العاطفيُّ، الجامحُ الهوى، هذا الإذن. وهذه الكتب تعد إنقاذاً بالنسبة لبلزاك، فهي تجعل كل صنوف العذاب والمهانات في أيام المدرسة غير ذات موضوع. «ولولا الكتب المأخوذة من المكتبة، التي كنا نقرؤها، والتي حافظت على سلامة الحياة في أدمغتنا لأفضى نظام حياتنا

هذا إلى تحوُّل كامل إلى الوحشية. ». وتتحوَّل الحياة الواقعية في الفِناء وفي المدرسة إلى حالة هي بين الوعي واللاوعي، شوبة بالكَدَر، وتتحول الكتب إلى حياةٍ له حقيقية.

ويتحدث عن صورته المنعكسة في لويس لامبير، قائلاً: «ومنذ هذه اللحظة بات هذا عنده نوعًا من الجوع الذي لا يشبع، والذي لم يكن يقدر على إطفاء جذوته. وكان يلتهم الكتب من كل نوع، وكان يغذي نفسه، دونما تمييز، بالكتب الدينية، والتاريخية والفلسفية وكتب علوم الطبيعة»- ويتم وضع الأساس الهائل لمعارف بلزاك الجامعة في ساعات المطالعة السرية هذه عند صبيّ المدرسة. وإذا آلاف الحقائق التفصيلية متَراصٌّ بعضها مع بعض بملاط كالإسمنت لا تنفصم عُراه، بفضل ذاكرة سريعة يقظى كذاكرة الشيطان، وقد لا يكون ثمة شيء يفسر الأعجوبة الفريدة الماثلة في المقدرة البلزاكية على الاستيعاب أكثر مما يفسرها وصف سهرات المطالعة المجنونة، السرية، عند لويس لامبير:

«كان امتصاص الأفكار بطريق القراءة قد تحوَّل عنده إلى ظاهرة مدهشة. فهذه عينه تستوعب سبعة سطور إلى ثمانية دفعة واحدة، وفكرة يدرك معناها بسرعة تتماشى مع سرعة نظرته، وكثيراً ما كانت كلمة واحدة في جملة من الجمل تجعله يدرك معنى الجملة. وكانت ذاكرته أعجوبة، فكان يتذكر، بالدقة ذاتها، الفكرة التي اكتسبها بالمطالعة، مثلما يتذكر الفكرة التي أوحى بها إليه تفكيرٌ أو محادثة. وجملة القول أنه كان يتمتع بكل أنواع الذاكرة، ذاكرة المكان، وذاكرة الأسماء، وذاكرة الكلمات، والأشياء والوجوه. ولم تقتصر المسألة على أنه كان يستطيع أن يستذكر الأشياء تبعًا لما يشاء، بل كان يراها في سريرة نفسه في الموقف ذاته، وفي الضوء ذاته، وفي اللون ذاته، مثلما رآها في اللحظة التي كان لاحظها فيها. وكان يتمتع بالمقدرة ذاتها فيما يتعلق بالأحداث الأكثر استعصاءً على

الإدراك، على الإطلاق في إطار المقدرة على الفهم. وكان يتذكر- حسب تعبيره- لامجرد ترتيب طبقات الأفكار في الكتاب الذي أخذها منه، بل يتذكر أيضًا أحوال نفسه هو في لحظات باتت بعيدة عنه بُعدًا شاسعًا، وعلى هذا فقد كانت ذاكرته تتمتع بالسمعة الفريدة التي لم يُسْمَع بمثلها، وهي قدرتها على أن تعرض لعينيه خطوات التقدم وكل حياة فكره مرة أخرى، منذ أشد أفكاره بكوراً على الإطلاق إلى الفكرة التي تهيّأت له وواتته في آخر لحظة، ومن أكثرها اختلاطًا وتشوّشًا إلى أكثرها وضوحًا. وكان دماغه الذي تعوَّد منذ حداثة سنة على الآلية المعقَّدة لتركيز الطاقات البشرية، يمتص من هذا المستودع الغني فيضًا من الصور في وضوح ونضارة جديرين بالإعجاب كان يشكل غذاءه أثناء تأمّلاته الصافية، وكان خياله قد تطوَّر إلى مستوى رفيع وهو في سن الثانية عشرة- إذ كان يستحثه التمرين المستمر لألوان مقدرته، وأتاح له هذا الخيال أن يستحوذ من الأمور التي كان لاحظها من المطالعة فحسب، على تصورات بلغ من دقتها أن صورتها في نفسه ما كان لها أن تكون أكثر حيوية لو أنه رآها بالفعل، سواء أكان ذلك بأنه كان يعمل بنتائج مبنية على القياس أم كان موهوبًا بنوع من حاسة بصر ثانية كان يدرك بها الطبيعة.

«وقال لي ذات يوم: «حين قرأت وصف معركة أوسترليتز، رأيت كل شيء يحدث، فكانت طلقات المدافع وصرخات المقاتلين تتردَّدُ أصداؤهنَّ في أذنيّ، ويُحْدِثْن هِزَّةً واضطرابًا في سريرتي، وكنت أشم رائحة البارود، وأسمع وقع حوافر الخيل، وأصوات البشر، وأُعْجِبت بالسهل الذي تلاقى فيه البشر المسلَّحون وكأني على مرتفع سانتون Santon، وبدت لي هذه المسرحية مفزعة مثلما يبدو موضع من سَفْرِ رؤيا نهاية العالم».

«وكان إذا استغرقت القراءة على هذا النحو كل طاقاته بات كأنما فقد وعيه لحياته الجسدية وما عاد له وجود إلاّ عن طريق عبث أعضائه الداخلية الذي يقدر

على كل شيء، والذي تعد مقدرته على الأداء والإنجاز متسعة اتساعًا غير متناسب، وكان يخلّف، حسب تعبيره، المكان وراءه!»

(لويس لامبير)

ثم يقعد الغلام الذي لم يفرغ من نومه، بعد أمثال هذه التحليقات الوَجْدِية في اللامحدود التي تستنفذ طاقة النفس استنفاداً ممتعًا، في ثياب الدير المكروهة، إلى جانب صبيان الفلاحين الذين كانت أدمغتهم المتبلّدة تتابع عرض المدرِّس متابعة تحاكي خَبْطَ أقدامهم على الأرض، وكأنهم يسيرون وراء المحراث، ويفترض فيهأن ينتبه إلى كلمة mensa وجمعها mensae، وقواعد النحو وهو ما زال مستثاراً من جرّاد أصعب المشكلات على الإطلاق، ولما كان يثق بتفوق دماغه الذي لا يحتاج إلاّ إلى أن يتصفح صفحةً من الكتاب بنظرة خاطفة ليحفظها عن ظهر قلب، فهو يفوِّت على نفسه فرصة الإصغاء ويتابع أفكار تلك الكتب الأخرى في الأحلام، وفي أغلب الأحيان تكون عاقبة هذا الازدراء للواقع جد وخيمة.

«لقد بلغ من قوة ذاكرتنا أننا لم نتعلّم قط واجباتنا المدرسية، ويكفينا أن نسمع القطع الفرنسية واللاتينية، أو الفقرات النحوية من رفاقنا يتلونها علينا لنتمكن منها نحن أنفسنا، ولكن كان من سوء الحظ أن المعلم حين توصَّل إلى فكرةمؤدّاها أن يغير تسلسل الدور، ويسألنا أولاً، هنالك لم نكن نعرف، في أغلب الأحيان أين يكمن الواجب المدرسي. وكان الواجب الجزائي يعاجلنا على الرغم من أبرع الاعتذارات قاطبة. وكنا نتريث في إنجاز واجباتنا المدرسية دائمًا حتى اللحظة الأخيرة، فإذا كان لدينا كتاب نريد أن نقرأه إلى نهايته فقد ضيّعنا أنفسنا في الأخيلة والأحلام، وهكذا كان الواجب المدرسي يطويه النسيان: وهذا مصدر جديد للواجب المدرسي الجزائي!

(لويس لامبير)

وكان الغلام الذي سيَؤول إلى عبقري يتعرّض للضرب التأديبي بقسوة مطّرة الزيادة، وأخيراً لا يظل بمنجاة حتى من «السروال الخشبي» (Culotte du bois)، وهو تلك الكتلة Blark من أيام العصر الوسيط التي يدع لير، بطلُ شكسبير، كنت، الفاضل البارّ، يُحصر فيها، ولا يتاح للعبقري ذي النضج المبكر أن يغادر سجن طفولته، حيث «كان قد عانى وكل مكان يمكن للألم أن ينتابه فيه فحسب، من الناحية النفسية، والجسدية».

وهذا الخلاص النهائي من العبودية الثقافية يتقدمه في «التاريخ الثقافي» لبطل بلزاك، لويس لامبير، حدث عابر ليس من الأحداث المخترعة على الأرجح. وذلك أن بلزاك يدع أناه الأخرى، أي بطله المتخيَّل، لويس لامبير، يؤلّف، وهو في سن الثانية عشرة، مذهبًا فلسفيًا حول العلائق والسياقات النفسية والجسدية، وهو: «مقالة في الإرادة» التي انتزعها منه رفاقه الذين كانوا يحسدونه لموقفه «الارستقراطي المنغلق»، بخبث، ويسمع بالجَلَبة أكثر المعلمين صرامة، وهو سوط صباه، الأب هو جول الرهيب»، فيستحوذ على مقالته في الإرادة ويعطيها بعد ذلك لصغار التجار على أنها ورق لا قيمة له، «من دون أن يعلم أية كنوز من كنوز الفكر لها شأنها توجد أمامه ثم تتعرّض ثمارها التي ولدت في وقت جد مبكر، للإهمال والدمار بين أيدي الجاهلين». على أن هذا المشهد فيه مما يهز النفوس حقًا في وصفه، بكل الغضب الذي لاحول له عند الغلام المهان، وهو غضب أكبر من أن يكون من الممكن أن تكون المقالة، معه، مخترعة كل الإختراع. ولكن هل جرَّب بلزاك شيئًا مماثلاً فحسب، ربما بمحاولة أدبية، أم تُراه جرَّب نفسه بالفعل، في الرابطة العالمية لرهبان الدير، في «مقالة في الإرادة» ناقش أفكارها بصورة لاحقة، مناقشة مفصّلة؟ وهل كان نضجه المبكر، بالفعل، مثمراً إلى هذا المدى في تلك السنين حتى بلغ منه أنه استطاع أن يجرؤ على عمل من هذا النوع؟ أتراه بلزاك،

الواقعي، الغلام الفعلي، هو الذي ألّف مثل هذا العمل، أم هو مجرد ذلك الذي ابتدعه خياله الشعري، أي شقيق نفسه المُتَخيَّل، لويس لامبير؟

أمّا هذا السؤال فلا يُجاب عنهأبداً إجابة حاسمة تمامًا، على أن الأمر الذي لا ريب فيه هو أن بلزاك فكَّر في مثل هذه «المقالة في الإرادة»- وقد كانت الأفكار المركزية التي تعود إلى المفكِّر تحتل موقعها المركزي في سنوات التطوُّر- وكان ذلك قبل أن يجسِّد الاتجاه الغريزي للإرادة الذي يتخذ مائه وجه وخضوعها للقوانين في «كوميدياه الإنسانية» من خلال الشخصيات. على أن مما يلفت النظر إلى حد مفرط أنه يدع بطل روايته الأولى «جلد الخيل»، يعمل في كتابه «مقالة في الإرادة»، على نحو مماثل لما يفعل صاحبه لويس لامبير أيضًا، على أن الخطة من أجل العثور على القوانين الأساسية التي سوف يكوِّن العثور عليها مجدي ذات مرة» لا بدَّ أنها كانت، بصورة مطلقة، مثل الفكرة المحورية، أو الفكرة الأم "idée mére" في صباه. أمّا مسألة أن بلزاك تلقى الحوافز الأولى حول العلاقات بين النفسيّ والجسدي التي تتحقق عن طريق «السائل الأثيري» (fluid éthéré) منذ سنواته المدرسيّة، فذلك ما نملك من أجله أكثر مما هو مجرد تكهنات، وذلك أن أحد معلميه، المدعو ديسايني كان، مثل الكثيرين جداً في ذلك العصر، واقعًا تمامًا تحت تأثير سحر حوافز مِسْمَر وغال- التي كانت مازال يُساءُ فهمها- والتي خلَّفت آثارها في كل مكان من عمل بلزاك، كان مؤلف «دراسات في الإنسان الأخلاقي، حول العلاقات بين مواهبه ومنظومة أعضائه من حيث كونه حيًا. وما من شك في أنه نقل هذه الأفكار في ساعات الدرس، وبعث في الغلام الوحيد ذي السمة العبقرية، في فصله المدرسيّ، الطموح الذي يدفعه إلى أن يكون هو نفسه مثل هذا «الكيميائي المختص بالإرادة» (كيميائي الإرادة). على أن الفكرة التي كانت من قضايا الساعة في تلك الأيام، وهي فكرة المادة المحركة للكون، تتماشى تمامًا مع الدافع اللاشعوري في طبيعته،

ذلك الدافع الذي يدفعه إلى نهج معين، ولمّا كان بلزاك طوال حياته يُلحّ عليه فيضُ الظاهرات النفسية، فقد عمل جاهداً، قبل الكوميديا الإنسانية بزمن طويل، على تحويل هذا العماء الرائع إلى نظام ظاهري، وتصنيفه حسب الموضوع أو القانون، ليسجِّل على هذا النحو أشكال النسبية في الطبيعة النفسية تسجيلاً مبنيًا على النظرة الشاملة، مثلما تُسَجَّل هذه الأشكال في العضويات المجردة من النفس أو الروح. أما مسألة هل تجرآ بلزاك في حقبة مبكِّرة كهذه، لا تتوافر لها الأرجحية، على تدوين نظراته أم أن هذا مجرد تَجَنٍّ على الأديب اللاحق فذلك ما لا يكاد يكون من الممكن إثباته في يوم من الأيام، وأمّا أن البدهيات المأخوذة من مقالة لويس لامبير في الإرادة، كانت بَدَهيات ابن الثانية عشرة، فذلك ما يبرهن عليه مجرد الظرف المتمثل في أنها لم تكن متضمَّنة بعدُ على الإطلاق في الصياغة الأولى لرواية لويس لامبير (١٨٣٢)، ولم يجر إدخالها إلاّ بصورة مرتجلة إلى حد بعيد من أجل الطبقات اللاحقة.

وبعد ذلك الخروج المفاجئ من معهد رابطة كهنة الأديرة العالمية يرى ابن الرابعة عشرة في الحقيقة بيت والديه أول مرة منذ ولادته. على أن الأب والأم اللذين كانا يستقبلانه في هذه الفترة الفاصلة في زيارات تحدث في المناسبات بين الحين والآخر، فحسب، مثلما يستقبلان أيَّ قريب غير وثيق الصلة، يجدانه قد تغيَّر كل التغيُّر، ظاهراً وباطنًا. فبدلاً من الصبي ذي الوجنتين المكتنزتين، والصحة الممتازة، والمتسم بالوداعة، يعود من التربية الكهنوتية فتى ضامر معروق، عصبي واسع العينين، مُرَوَّع. إنه يعود مثلما يعود امرؤ لقي شيئًا رهيبًا، لا يوصف، على أن أخته تقارن فيما بعد سلوكه بسلوك امرئ يسير في نومه، يتحرك بخطوات هادئة في رابعة النهار وله نظرات غريبة. ولا يكاد يسمع عندمايُسْأل عن شيء، ويقعد قعود الحالم، هنا وهناك، وهو يثير استياء أمه بانغلاقه التي يخفي وراءه تفوقًا

خفياً. ولكن بعد بعض الوقت تنبجس الحيوية الموروثة مثلما يحدث في كل أزمات حياته، منتصرة، ويعود الفتى من جديد، حسن المزاج، طَلْق الأسارير، نَزّاعًا إلى الحديث، بل يغدو وذلك بالقياس إلى أمه أكثر مما ينبغي، ولاستكمال دراسته ينتقل إلى المدرسة الثانوية في تور، وحين تنقل الأسرة، في نهاية عام ١٨١٤، من تور إلى باريس، يُرْسَل هناك، إلى مدرسة ليبيتر الداخلية، وكان هذا السيد ليبيتر أثناء الثورة، وبصفته المواطن ليبيتر، على صداقة مع والد بلزاك، عضو مجلس الراديكالي، في تلك الأيام، وقد لعب، من هذه الوجهة، دوراً تاريخياً، حين كان المساعد الرئيسي في محاولة تحرير ماري أنطوانيت من سجن باريس. والآن ماعاد أكثر من وكيل إداري للمعهد، طيِّب، يترتَّب عليه ترقية الفتيان عن طريق الامتحان. وفي هذه المدرسة الداخلية أيضاً يلاحق الفتى الذي يفتقر إلى المحبة، الشعور الباعث للاكتئاب، الشعورُ بأنه ممتهن، متُخلى عنه، ومهجور، وهكذا يدع رافائيل، الشخصية الأخرى التي تعكس صباه، يتحدث في «جلد الخيل» قائلاً:

«على أن الآلام التي عرفتها في أحضان الأسرة، وفي المدرسة، وفي المدرسة الداخلية، تجدَّدت الآن في صورة متبدِّلة أثناء إقامتي في نُزُل ليبيتر العائلي. وكان والدي راضييْن كل الرضى عن أنني كنت أجد التغذية والكساء، وأُحْشى حَشواً كاملاً باللاتينية واليونانية. لقد تعرَّفت خلال حياتي في المدرسة الداخلية على نحو ألف رفيق» غير أنني لا أستطيع أن أتذكّر، حتى في حالة واحدة من هؤلاء فحسب، أنه لقي من قبل والديه مثل هذا المثال في اللامبالاة.

وهنا أيضاً يثبت بلزاك، وعلى ما يبدو نتيجة لدفاع مضاد داخلي، أنه ليس «بالتلميذ الصالح ويرسله الوالدان إلى معهد آخر، في استياء. وهنا أيضاً لا تكون حاله أفضل مماعداها، أما في اللاتينيّة فيأت ترتيبه الثاني والثلاثين بين نحو خمسة وثلاثين، وهي نتيجة كانت تدعم، على نحو مطرد الزيادة، شبهة الأم في أن

هونوريه فتى خائب، وهكذا تكتب إلى ابن السابعة عشرة بتلك اللهجة التي ترثي لنفسها فيها وهي تجنح إلى البكاء، أي باللهجة التي سوف تُورِدُ حتى ابنَ الخمسين حولاً مواردَ اليأس، الرسالة المجيدة التالية:

«عزيزي هونوريه، لا أستطيع أن أجد الكلمات التي هي قوية بما يكفي لكي تصف لك الألم الذي سببته لي. وإنك لتُشْقيني بالفعل، أنا التي تعمل كل شيء من أجل أولادها، وكان ينبغي لي في الحقيقة أن أتوقَّع أن يسعدوني!

لقد أبلغني المسيوجانسير، الطبيب الجدير بالتوقير، أنك تراجعت في الترجمة إلى المرتبة الثانية والثلاثين!!! وقال لي إنك أقدمت قبل بضعة أيام، مجدَّدًا، على عمل ينم عن سوء أدب بالغ، وهكذا انتُزِع مني كل السرور الذي كنت وعدت به نفسي من أجل الغد...

لقد كان ينبغي لنا في الحقيقة أن نلتقي حوالي الساعة الثامنة صباحًا: ولَوْ قد فعلنا لتغدَّيْنا معًا ولتعشَّينا معًا، ولتجاذبنا أطراف الحديث البالغ الحلاوة، وروى كلٌّ منا للآخر ألوانًا شتى من الأحاديث، على أن نقص النشاط عندك، وطيشك، وألوان تقصيرك يحكمان عليَّ الآن بأن أُسْلِمَك لعقوبتك العادلة. ما أشدَّ خواءَ قلبي الآن! وكم ستبدو لي الرحلة طويلة! وإني لأكتم عن والدك الترتيب السيء الذي تحصل عليه لأن مما لا ريب فيه أنه لن يُتاح لك أن تخرج يوم الاثنين على الرغم من أن هذا الخروج لا يُقَرَّر إلاَّ من أجل الأغراض النافعة، لا من أجل متعتك بحال من الأحوال، وأستاذ الرقص سيأتي غداً، في الساعة الرابعة والنصف، وسأوعز بأن يُؤْتى بك وبأن تعاد بعد تلك الساعة، وإني لخليقة أن انتهك حرمة الواجبات التي يفرضها عليَّ حبي لأولادي لو تصرَّفت حيالك على غير هذا النحو».

ولكن على الرغم من هذا التنبؤ السيء كله ينهي المحروم من حماية القانون دراسته على أي نحوٍ من الأنحاء. ففي الرابع من تشرين الثاني عام ١٨١٦ يستطيع أن يتقدم بطلب الانتساب إلى الجامعة ليكون طالبًا في الحقوق.

وكان مقدَّراً لهذا الرابع من تشرين الثاني عام ١٨١٦ أن يكون، بحكم الحق والقانون، نهاية عصر الاستعباد وبداية شفق فجر الحرية بالقياس إلى الإنسان الشاب، وبات من المفروض الآن أن يُباح له، شأن كل الآخرين، أن يتابع دراساته على نحو مستقل ويستفيد من وقت الفراغ في التسكُّع والراحة أو في متابعة ميوله الخاصة. ولكن والديْ بلزاك يَريَان رأيًا آخر، فالشاب لا ينبغي أن تكون له حرية، ولا أن تتوافر له ساعة من وقتٍ فائض، فمن الواجب عليه أن يكسب المال ويكفيه أن يستمع إلى ساعات الدرس في الجامعة ثم يُباح له في الليل أن يدرس مجموعة الأحكام القانونية الرومانية أما في النهار فينبغي له، فضلاً عن ذلك، أن تكون له مهنة، وكل شيء إلا أن يضيِّع وقتًا من أجل التقدم في مهنته! وكلُّ شيء إلاّ أن ينفق قرشًا دونما ضرورة! وهكذا يضطر الطالب بلزاك إلى أن يكدح في الوقت ذاته، كَدْح العبيد، كاتبًا عند المحامي غيونيه دي ميرڤيل - وهو، بالمناسبة، أول رؤسائه، الذي يعترف به طوعًا ويخلّده باسم دير ڤيل، شاكرًا له وممتنًا، لأنه اعترف اعتراف الذكي، بتميُّز كاتبه، وجاد بصداقته على هذا، أكثر بكثير مما جاد على الآخرين من الشباب. وبعد عامين سوف يُعْهَد ببلزاك إلى موثّق للعقود هو باسّيه الذي كانت تربطه صداقة بأسرة بلزاك، وبذلك يكون قد تمَّ تأمين مستقبله المدني على نحو كامل فيما يبدو. وفي الرابع من كانون الثاني ينجح الشاب الذي بات «طبيعيًا» في امتحان البكالوريوس، وسرعان ما يتولى عمله بالاشتراك مع موثق العقود الطيب، وعندما يشيخ المعلم باسّيه أو يموت، يعتلي المنصة، ثم يتزوج، ويكون، بحكم البدهية، زواجًا من امرأة موسرة، وينتسب إلى أسرة محترمة، وبذلك يشرِّف آخر الأمر، أمه السيئة الظن وكل آل بلزاك وسالا مبييه، وسائر ذوي القربي، وكان من الممكن أن تكون سيرة حياته مثل سيرة رجل آخر، يضاهي المسيو بوڤار أو بيكوشيه، يكتبها فلوبير، لا لشيء إلاّ لتكون مثالاً أنموذجيًا لسيرة مهنيّة مدنيّة طيِّبة، طبيعية، هنالك ترتفع آخر الأمر شعلة الثورة المكبوتة والمخنوقة منذ سنين في نفس بلزاك. ففي ربيع

عام ١٨١٩ يقفز ذات يوم عن مقعد موثِّق العقود، ويدع الملفّات المبدوء بها يعلوها الغبار، راقدةً حيث هي، لقد شبع إلى الأبد من هذه الحياة التي لم تَهَبْ له بعدُ يومًا سعيدًا خاليًا، ويرفع هامته-أول مرة- في وجه الأسرة مصممًا، ويعلن مباشرة، أنه لا يريد أن يغدو محاميًا، ولا موثِّق عقود، ولاقاضيًا ولا موظفًا، لا يريد مهنة مدنية على الإطلاق! فقد عقد العزم على أن يصبح كاتبًا وأن يغدو، عن طريق روائع أعماله المقبلة، مستقلاً، وغنيًا، ومشهوراً.

الفصل الثاني

سؤال مبكر إلى القدر

لقد انتهت بي آلامي إلى الشيخوخة...
وهي آلام لا يمكن تصوُّرُها على الإطلاق،
وأي حياة هذه التي ظللت أعيشها
إلى عامي الثاني والعشرين.

رسالة إلى دوقة أبرانتيس، ١٨٢٨

على أن الإعلان المفاجئ من قِبلَ ابن العشرين، أنه يريد أن يغدو كاتبًا، أو أديبًا، وعلى كل حال إنسانًا يبدع بحرية، بدلاً من أن يكون موثِّق عقود أو محاميًا، يكون له على الأسرة التي لاتدري شيئًا، وَقْع كوقع الرعد. أَوَ يتخلىَّ عن مسيرة مهنية مضمونة؟ وهل يكون لرجل مثل بلزاك، هو حفيد سالا مبييه ذي المقام الرفيع، أن يتخذ مهنة هي مثار للشبهات كمهنة الكاتب؟ وأين توجد ههنا الضمانات، والتأمينات من أجل دخل محترم يعتمد عليه؟ أما الأدب، والشعر، ومثل هذا الترف الفائض عن الحاجة فيمكن أن ينهض به رجل مثل الڤيكونت دي شاتو بريان، الذي يملك قصراً جميلاً في مكان ما في بريتاني، أو سيد مثل لامارتين، أو على كل الأحوال ابن الجنرال هوجو، ولكن لا يقدر عليه بحال من الأحوال ابن رجل مسكين من الطبَقة الوسطى، ثم هل كشف هذا الفتى الذي ضَلَّ

عن الجادَّة، في أي يوم من الأيام، عن أدنى أثر لموهبة؟ وهل قرأ الناس له مقالة جميلة، وهل نشر، في أي يوم من الأيام، في صحيفة الإقليم، قصائد؟ كلاّ، أبداً، لقد كان، في كل المدارس، يقعد على مقاعد المَعابَة والمَعرَّة، أمّا في اللاتينية فكان ترتيبه الثاني والثلاثين، إذا ضرب المرء النظر صفحاً عن الرياضيات التي لا بدَّ أن تكون هي أهمُّ العلوم قاطبة بالنسبة لكل من يراعي الأصول.

ويأتي هذا الإعلان، فوق هذا بعدُ، في اللحظة التي تشير إلى الذروة من قلة البراعة، لأن بلزاك الأب يمرّ الآن على وجه الخصوص، بأحوال مالية تتسم بالخطورة والاضطراب. وذلك أن حركة إحياء النظام القديم (Restauration)، حين استأصلت كرمة الحرب التي تعيش على الدماء، استأصلت معها أيضاً تلك الجذور التي ظل مصّاصو الدماء في الحرب يتطفَّلون بامتصاصها على مدى سنوات نابليون المباركة. وأقبل زمان أَعْجَفُ هزيل بالقياس إلى المُوَرِّدين إلى الجيش والمستفيدين منه، واختُصِر دخل والد بلزاك الدَّسِم، البالغ قدره ثمانية آلاف فرنك إلى معاش تقاعديّ هزيل، وكان، فضلاً عن ذلك، قد تكبدَّ الخسائر الجمَّة في تصفية، وفي مضاربات أخرى، وما زال في وسع المرء أن يَعُدَّ الأسرة موسِرة وهو مطمئن، وكما سوف يتبين، ما زال يوجد، على كل حال، بضعة من عشرات الألوف في جراب التوفير، ولكن القانون الأعلى، الأكثر سرياناَ مفعولٍ من كل قوانين الدولة، هو أن كل انخفاض في الدخل لابُدَّ أن يتم تعويضه على الفور بتوفير مضاعف. لقد قررت أسرة بلزاك أن تتخلى عن المسكن الباريسيّ وتنتقل إلى مكانٍ للسكن رخيص، إلى ڤيلباريزي- وكانت تبعد في تلك الأيام مسافة عشرين كيلومتراً عن العاصمة- حيث يستطيع القوم أن يحدّوا من المصاريف على نحو أقل لَفْتًا للأنظار، وفي هذه اللحظة على وجه الخصوص يأتي الفتى الساذج البليد، الذي كانوا يعتقدون أنهم رفعوا عِبْأَهُ عن كاهلهم إلى الأبد، ويريد، لا أن يكون أديبًا فحسب، بل يطالب فوق ذلك بأن تموّل الأسرة له هذه البطالة وهذا التعطُّل.

من أجل ذلك تعلن الأسرة قولها: هذا مستبعد! وتستدعي لمساندتها الأصدقاء وذوي القربى الذين يعربون، بحكم البدهية، وبالإجماع، عن وقوفهم ضد وَهْمِ هذا العاطل البائر، ذلك الوهم الذي ينم عن الصلف والخيلاء. على أن الأب بلزاك يظهر في صورة أكثر القوم رزانة ورباطة جأش، فهو لا يحب مشاهد الخلاف العائلي، وأخيراً يدمدم قائلاً بلهجة تنم عن الرزانة ورباطة الجأش: «ولِم لا؟». ولمّا كان هو نفسه مغامراً ومضارباً قديماً، بدَّل مهنته عشرات المرات، ولم يجنح إلاّ في حقبة متأخرة إلى المدنيّ المريح، فإنه لا يستطيع أن يضرم الكثير من النار ليستثير نفسه ضد تبذير سليله الغريب، ثم يقف إلى جانب بلزاك، في الخفاء، بالطبع، لور، أخته المفضَّلة، وهي تنطوي على ميل رومانسي إلى الشعر، وكانت فكرة الظفر بأخ مشهور تتملَّق غرورها. غير أن ما تحلم به الأخت الرومانسيةعلى أنه شرف، تحسُّ به الأم التي ربِّيت على طريقة البورجوازية الصغيرة على أنه عار مرير. وأنىَّ لها أن تتمكن من الوَقوف أمام ذوي قُرباها حين يطلعون على الأمر المَهول، وهو أن ثمة ابناً لمدام بلزاك التي ولدت باسم سالا مبييه، أصبح كاتب كتب أو جرائد؟ وبكل إجفال البورجوازية من حياة «غير موطَّدة الأركان»، تزجُّ بنفسها في خضم المعركة، كلاّ، أبداً، وأبداً! لن يُتْرَك هذا الفتى الذي يجنح إلى الكسل والخمول، والذي لم يكن يصلح لشيء منذ أن كان في المدرسة للخوض في أمثال هذه الألوان من الجنون التي لا تعود عليه برغيف العيش، ويزيد من ذلك أن القوم دفعوا الرسوم وتكاليف الممارسات الرياضية عنه بالفرنكات نقداً، فلتكن النهاية، إلى الأبد، لهذا المشروع العبثيّ!

ولكن والدة بلزاك تصطدم لأول مرة بقوة مضادّة لم تكن تقدرها أبداً في الولد الخامل الوديع- تصطدم بقوة الإرادة التي لا تلين لها قناة ولا يزعزعها شيء، عند هونوريه دي بلزاك، بقوة إرادة لايمكن لها الآن، إذ تحطمت إرادة نابليون، أن تُقارَن بإرادة في أوروبا. وما يريده بلزاك يتحوَّل إلى واقع، وحيثما عقد عزمه على شيء فهو يجعل المستحيل ممكناً، وما عادت تستطيع الدموع ولا الإغراءات، ولا

المناشدات، ولا نوبات الهستيريا أن تغير مزاجه- إنه يريد أن يغدو أديبًا كبيرًا، ولا يريد أن يغدو موثّق عقود، والعالم يشهد أنه أصبح أديبًا كبيرًا، وبعد معارك حامية الوطيس دامت أيامًا تنتهي المسألة إلى حل وسط بورجوازي للغاية، إذ توضع التجربة الكبيرة على أساس صلب متين. ينبغي أن يكون لهونوريه ما يريد، ينبغي أن يتاح له أن يجرب إمكانية تحوُّله إلى كاتب كبير شهير، وحين يفرض هذا فالأمر متروك له، أمّا الأسرة فتشارك، من جانبها في هذا المشروع غير المأمون برأسمال محدَّد بدقة، إنها تعتزم أن تستثمر معونة مالية مدةسنتين على أفضل الأحوال في موهبة هونوريه المشكوك فيها إلى أقصى الحدود، وهي الموهبة التي من المؤسف أنه مامن أحد سواها يتحمَّل ضمانتها، فإذا لم يصبح هونوريه خلال هذين العامين كاتبًا كبيرًا ومشهورًا فعليه أن يعود من جديد إلى حجرة موثّق العقود- وإلاّ سحبوا أيديهم من الولد الضائع، ويُعْقَدَ عَقْدٌ غريب على ورق نظيف بين الأب والولد يلتزم الوالدان فيه، بعد حساب دقيق مبني على أساس الحد الأدنى للدخل الضروري من أجل البقاء على قيد الحياة، بأن يؤدّيا، حتى خريف ١٨٢١، لولدهما، مائة وعشرين فرنكًا كل شهر، أي أربعة فرنكات في اليوم، بصفة معونة مالية، من أجل حملة الفاتح التي يزمع القيام بها إلى الخلود- وهي على كل حال أفضل صفقة يسجلها بلزاك الأب على الرغم من كل توريداته للجيش ومضارباته المالية التي عادت عليه بالربح الوفير.

ولم يكن بدٌّ للأُم العنيدة أن تتراجع لأول مرة أمام إرادة أقوى- وفي وسع المرء أن يقدِّر بأيّ قدر من اليأس تمَّ ذلك، لأنها كانت على يقين صادق، بموجب كل مسار حياتها، أن ابنها يفسد على نفسه حياته بالتخيُّلات العنيدة. وبات أهم شيء بالنسبة إليها الآن أن تخفي العار عن آل سالامبييه الأشراف، وهو العار الذي يتمثل في أن هونوريه هجر المهنة الثابتة وهويريد أن يجعل نفسه مستقلاً بهذه الطريقة اللامعقولة. ولكي تخفي رحيله إلى باريس أبلغت ذوي قرباها أنه توجَّه إلى الجنوب، نحو ابن عم له، لأسباب صحية. وربما يتلاشى الاختيار العبثي لهذه المهنة

مثلما يتلاشى مزاج عابر، وربما فكَّر الولد التائه الضالّ في حماقته من بعدُ، ولا يكون أحد عندئذ قد اطَّلع على هذا التصرف العنيد الذي يمكن أن ينتقص من مهنته الثابتة المستقيمة، ويفسد عليه الزواج بذلك، ويفسد زبائن موثِّق العقود بصورة نهائية. وعلى كل حال فهي تدبر خطتها في جو من السكينة والهدوء. ولمّا لمْ يكن من الممكن أن يصرف المرء هذا الفتى ذا العقل العنيد عن هذه المهنة الفضائحية بالأسلوب الطيب وألوان الرجاء فلا بُدَّ لها أن تحاول ذلك الآن بالحيلة والمجالدة. لسوف يُجَوِّعونه، وينبغي له أن يرى كم كان يعيش حياة مريحة في البيت، وكم كان الجو دافئًا في مكتب موثق العقود الحَسَن التدفئة وعندما تُقَرْقِر معدته في باريس على الوجه الصحيح سرعان ما تستسلم المخططات المبنيّة على التبجُّح والادعاء، وعندما تتجمد أصابعه في سقيفته سرعان ما يدع الكتابة الغبيّة. وبذريعة حرصها على حُسن سير أموره، من وجهة نظر الأم تصحبه إلى باريس لتستأجر له غرفة هناك، وهي تختار في الواقع، لأديب المستقبل، عن قصد وتصميم، أسوأ الحجرات التي يمكن العثور عليها، حتى في باريس العمال والكادحين، وأشدّها بؤسًا، وخلُوًا من أسباب الراحة، لتنتهي بعزيمته إلى الخَوَر.

منزل جين، رقم ٩، شارع ليدنيير مهدوم منذ عهد بعيد، وهذا أمر يدعو إلى الأسى، ذلك لأن باريس ليس فيها، على الرغم من وجود ضريح نابليون، نصب تذكاري للتضحية الجامحة أروع من الحجرة السقفية الباعثة للتفجُّع، والتي يمكن العثور على وصفها في «جلد الحصان». كان دَرَجٌ أسود منتن يفضي، على ارتفاع خمس درجات، إلى باب دهليز متداعٍ مصنوعٍ من ألواح سميكة، صناعةً بدائية، فإذا ارتقاها المرء خَبَط بأقدامه في حجرة سقفية مظلمة منخفضة، جليدية في الشتاء، ساخنة لاهبة في الصيف، وحتى مقابل السعر البائس، البالغ خمسة فرنكات في الشهر، لم تعثر ربة الدار على أحد يرغب في سُكْنى هذا الوكر. وتختار الأم «هذا السرداب» الذي هو أحرى أن يكون قمرة للرصاص كتلك التي تكون في البندقية لِتُكرِّه إليه مهنة الكاتب.

ولم يكن من الممكن أن يوجد شيء أكثر إثارة للفزع والإجفال كما يكتب بلزاك، حتى بعد سنين- من حجرة السقيفة هذه بجدرانها الصُفْر المتسخة، التي تفوح منها رائحة البؤس ...

وكان السقف يهبط على نحو متواصل ... وكانت اللّبنات المتفككة تدع السماء ترسل ضياءها من خلالها وكان مأواي يكلفني ثلاثة قروش في اليوم، وكنت أَحْرُق بثلاثة قروش زيتًا في الليل، وكنت أُعِدُّ الغرفة بنفسي، وألبس قمصان الفانيللا، لأنني لم أكن أستطيع إنفاق القرشين على الغسيل في كل يوم، وكنت أُسَخِّن بالفحم، وكانت القطعة تكلِّف، عندما أُقسِّم المبلغ على أيام السنة، مالا يزيد على نحو قرشين ... وكانت كل هذه النفقات معًا لا تشكل ما يزيد على ثمانية عشر قرشًا، وبذلك كان يتبقّى لي قرشان للنفقات غير المتوقّعة، ولا أتذكر أنني أنفقت خلال هذه الحقبة الطويلة من أيام الجهد والمشقة في بون ديزار، في أي يوم من الأيام، مالاً مقابل مائي، وكنت آتي به بنفسي من البئر في ميدان سان ميشيل ... وكنت خلال الشهور العشرة الأولى من عزلة الرهبان التي عشت فيها، أعيش على هذا النحو في فقر وعزلة؛ وكنت في الوقت ذاته سيد نفسي وخادم نفسي، وكنت أعيش حياة رجل مثل ديوجين، بهوى لا يوصف.

وفي حرص مبنيّ على الحساب والتقدير لا تفعل والدة بلزاك أقل شيء لكي تجعل زنزانة السجن أوفر راحة وأكثر قابلية للسكنى، فكلّما دفع ولَدها عدمُ ارتياحه إلى العودة من جديد إلى مهنة طبيعية بسرعة أكبر، كان ذلك أفضل، وعلى هذا لايخصَّص لبلزاك، من أجل تجهيز الحجرة السقفية سوى ما هو ضروري كل الضرورة ولا مندوحة عنه أبداً، على الإطلاق، من سَقَط متاع تجهيزات الأسرة- ومِنْ ذلك سرير رقيق، قليل الارتفاع، قاس، «يضاهي هيكلاً خشبيًا لنجّار أو مِحفَّة موتى» ومنضدة صغيرة من خشب البلوط قد شُدَّ عليها جلدٌ ممزَّق مهترئ، وكرسيّان قديمان. وهذا كل شيء، سرير للنوم، ومنضدة للعمل، وإمكانية القعود

الضروري، إليها، وحتى رغبة هونوريه التي هو أكثر ما يكون شوقًا إليها، وهي أن يُتاحَ له أن يستأجر جهاز بيانو صغيراً، لا تحظى بالإقرار، وبعد أيام قلائل يضطر إلى العودة إلى البيت ليستجدي جرابًا أبيض من القطن وجرابًا رماديًا من الخيط المفتول، ومنديلاً لليدين، ولكن لا يكاد يؤمِّن لنفسه لوحة من النحاس المنقوش، ومرآة مربَّعة مذهَّبة، حتى تكون أم بلزاك قد ذكَّرت أخته لور بوجوب تأنيب أخيها على «تبذيره».

ولكن الخيال عند بلزاك أقوى ألف مرة من الواقع، ونظرته تستطيع أن تبعث الحياة فيما هو أكثر الأشياء بُعداً عنها، وأن ترتقي بالقبيح، وحتى الإطلال المتكدِّر لزنزانة سجنه على الأسقف الرمادية في باريس يستطيع أن يخرج منه بالعزاء.

«إني لأذكر كم كان يسرني أن أُفتِّت رغيفي في اللبن، وأنا قاعد أمام نافذتي، استنشق الهواء، وعيناي تسرحان فوق منظر طبيعي فوق أسقف بنيَّة، ورمادية فاتحة وحُمر، من الأَرْدواز أو الآجر يُغَشّيها الطحلب الضارب إلى الصفرة أو الخضرة. وفي البداية كان هذا المنظر الذي أُطِلُّ عليه رتيبًا، ولكن سرعان ما أكتشف بريق أشعة المساء المُشْرِق، الذي كانت مصاريع النوافذ التي أسيء إغلاقها، تحدِّد فيه حدود الأعماق السود من هذا المنظر الطبيعي الخصوصي، ثمَّ، مرة أخرى، البريق الشاحب الباهت لمصابيح الشوارع التي كانت تلقي انعكاساتها الضاربة إلى الصُّفْرة بين ثنايا الضباب، وتعكس في شكوى واتهام، بضوئها الواهن على الشوارع، موجات الأسقف المتراصّة، إنه بحرضبابيّ من هندسة العمران، وكانت تظهر في بعض الأحيان، في وسط هذا القفْر المتكدِّر صفْوُه، شخوص غريبة، وكنتُ أرى، تحت أزهار حديقة سطح ما، كائنةً ما كانت، الظلّ الجانبي الحادّ لامرأة عجوز تنثر الماء على نباتٍ لها يشبه الجرْجير، وأرى في إطار نافذةٍ سقفيةٍ متداعية، صبيّةً أمام مرآة الزينة تعتقد أنها لا يلاحظها أحد، ولم أكن أرى سوى محيّاها الجميل، وغدائرها الطويلة التي كانت ترفعها إلى الضوء بذراعيها الأبيضَيْن الظريفين،

وكنت أُعجب بالنباتات الصائرة إلى الفناء في ميازيب الأسطح، تلك الأعشاب البائسة التي ربما كانت حملتها إلى هناك ريحٌ عاصفة، وكنت أدرس الطحالب وألوانها التي بعث المطر الحياة فيها، والتي كانت تتحول تحت الشمس إلى مخمل جاف، بنّيٍّ له انعكاسات متقلّبة. وأخيراً انطباعات اليوم الشعرية والعابرة وحداد الضباب، والانبثاق المفاجئ للشمس وصمت الليل وسحره، وأسرار شروق الشمس، ودخان المداخن- كل أحداث هذه الطبيعة الخاصة باتت مألوف بالنسبة إليّ، وباتت تسليني. لقد أحببت سجني، إذ كنت هناك بمحض إرادتي. وذلك أن مراعي الساڤانا هذه الباريسية التي تكوَّنت من السقوف ذات الشكل الرتيب التي تمتد كالسهل فوق هُوَّة الحياة التي توجد تحتها- أُشْرِبَتْها نفسي واختلطت بخيالاتي.

وعندما يغادر حجرته في يوم جميل، ليتسكّع- وهذه هي المتعة الوحيدة التي يجوز له أن يستبيحها، لأنها لا تكلّف شيئًا- على طول شارع بوردون باتجاه ضاحية سان أنطوان، ويستنشق شيئًا من الهواء الطلق يدخله إلى رئتيه، تتحول هذه النزهة الوجيزة عنده إلى حافز وتجربة.

«كان ثمة هوى وحيد ينتزعني من دراساتي- ولكن ألم يكن هذا الهوى يدخل فيها، وأخذت ألاحظ حركة الحياة في الضاحية، وسكانها، وشخصياتها، وكنت أرتدي ثيابًا رثَّة مثل عمال المنطقة، غير مُبالٍ بكل لياقة في المظهر، وألتقي بهم من دون أن يلاحظوا أي تحفُّظ، وكنت أستطيع أن أختلط بمجموعاتهم، وأراهم يتسوّقون ويشترون مشترياتهم، وأسمع مناقشاتهم حين يعودون من العمل، وكانت هذه الملاحظة قد أصبحت عندي حَدْسِيّة تمامًا، وكنت أتغلغل في النفوس من دون أن أهمل المظهر الخارجي، أو أنني كنت أَلِمُّ بهذه الملامح الخارجية إلمامًا يبلغ من إتقانه أنَّ ملاحظتي كانت تتخطّى هذا الإلمام على الفور، وكان تمنحني المقدرة على معايشة الفرد المعنيِّ في حياته، كما كان يعيشها، وكانت تتيح لي أن

أضع نفسي مكانه، مثلما كان ذلك الدرويش الوارد في ألف ليلة وليلة يتخذ شخصية البشر الذين ينطق في وجوههم بتعويذته السحرية ويتمثَّل نفسيَّتهم ...

وكنت أتفاهم مع هؤلاء الناس، وأتمثَّل حياتهم، وكنت أحسُّ بأسمالهم على كتفيَّ، وكانت قدماي تجريان في نعالهم المُثقَّبة، وكانت رغائبهم ومحنتهم تسريان في نفسي، أو تنقل نفسي إلى نفوسهم مختلطة بها، وكان هذا نوعًا من حلم اليقظة وكنت أتحمَّس معهم ضد رؤساء المؤسسة الذين كانوا يتعرضون لطغيانهم، أوضد ألوان الأحابيل وألوان الخداع التي كانوا يرغمونهم بها على أن يعودوا عدداً من المرات من دون أن يؤدّوا إليهم مالهم. وكانت تسليتي تتمثل في التخلي عن عاداتي الخاصة، والتحول إلى امرئ آخر، في نوع من السكر بطاقاتي الأخلاقية، وممارسة هذه اللعبة وَفقًا لهوى نفسي، ولِمَنْ عساي َأدين بالفضل في هذه الموهبة؟ أهي نوع من حاسة البصر الثانية؟ أم تراها إحدى الخصائص التي يمكن أن يفضي سوء استعمالها إلى حدود الجنون؟ لم يسبق لي أبداً أن تقصَّيت أسباب هذه المقدرة؛ لقد كنت أتمتع بهذه المقدرة، وكنت استخدمها-، كان هذا كل شيء، وكل ما يهمُّ فحسب هو أنني فككّتُ، منذ ذلك الوقت عناصر تلك الكتلة المركبة التي يسمّونها «الشعب» أجزاءاً، وأنني حلَّلْتها، وتمكنت من التمييز بين صفاتها الحسنة وصفاتها السيئة. وكنت أعلم حق العلم لماذاكانت هذه الضاحية مفيدةً لي، هذه المدرسة الثورية، بأبطالها ومخترعيها، وحكمائها العمليين وأوغادها ومجرميها، إذ يحشُرُهم البؤس جميعًا، وتكبت أصَواتهم المحنة ويغرقون بالخمر ويحترقون بالبراندي، وهم لا يستطيعون أن يتصوَّروا كم من مغامرة تجري أحداثها في مدينة الآلام هذه من دون أن تُلاحَظ، ويالها من مسرحيات سرعان ما يطويها النسيان! وما هذه الأشياء المفزعة والأمور الجميلة التي يراها المرء هنا! إن الخيال لا يصل أبدًا إلى الواقع الذي يكمن هنا، والذي لا يكتشفه أحد، ولابد للمرء أن ينزل

إلى الأعماق ليجد هذه المشاهد الجديرة بالإعجاب، من مآسٍ ومهازل، وأعمالٍ من الروائع تَلِدُها المصادفة.

الكتب في حجرته، والناس في الشارع، والعين التي تتغلغل في كل شيء، والأفكار والحدث، هذا يكفي لينشئ عالمًا، ومنذ اللحظة التي يشرع فيها بلزاك في العمل لا يوجد شيء واقعي حوله سوى إبداعه هو.

ويستخدم بلزاك الأيام الأولى من حريته التي اشتراها بثمن باهظ في إعداد البؤرة الموحشة لخلوده المستقبلي من أجل العمل، فهو لا يأنف أن يكلِّس الجدران المُبقَّعة ويكسوها بالبُسط، ويَرُصُّ كتبه التي جاء بها معه، ويجلب كتبًا أخرى من دار الكتب، ويكدِّس الأوراق البيض بعضها فوق بعض من أجل روائع أعماله القادمة، ويُشَذِّب لنفسه الرِّيَش، ويشتري شمعة يخصص زجاجة فارغة لتكون لها شمعدانًا ويؤمِّن لنفسه زيتًا للمصباح الذي يفترض يكون له شمسَ الليل في صحراء عمله التي لا نهاية لها.

والآن بات كل شيء جاهزاً، وما عاد ينقصه إلا شيء واحد، صغيرة من الصغائر لا يُستهان بها- وذلك أن أديب المستقبل مازال لا يعرف على الإطلاق ما الذي يفترض أن يصوغه ويبدعه، إنه ينطوي على هذا التصميم الباعث للدهشة، وهو أن يدفن نفسه في كهف فلا يغادره قبل أن يكون فرغ من عمل من الروائع، على قرار اتخذه صادراً فيه عن محض الغريزة. والآن، إذ بات من الواجب عليه أن يبدأ، لا توجد لديه خطة عمل معينة أو هو يتلمَّس، بالأحرى طريقه، حول مائة من الخطط الغامضة وغير المختمرة تمامًا، وذلك أن ابن الحادية والعشرين لا تتوافر لديه فكرة واضحة حول مسألة ماهيته في الحقيقة، وما يريد أن يصير إليه- أيريد أن يصبح فيلسوفًا، أم شاعراً، أم كاتب روايات، أم كاتبًا مسرحيًا، أم رجلاً من أهل العلم، وهو لا يحسّ بشيء سوى طاقة فيه، من دون أن يعلم الجهة التي ينبغي أن يوجهها إليها.

«كنت أشعر في نفسي بعقيدة مؤدّاها أن عليَّ أن أعبر عن فكرة، وأن أشيد نظامًا وأقدِّم علمًا.

ولكن ما هي الفكرة، وما هو النظام، وما هو النوع الأدبي الذي ينبغي أن يتفانى فيه أول الأمر؟ مازال لم يعثر بعدُ على القطب الداخلي، وهاهي ذي إبرة مغناطيس الإرادة ترتعش مضطربة، جيئة وذهابًا، ويقلّب في المخطوطات التي جاء بها معه، كلها أجزاء غير مكتملة، وما منها واحد مكتمل، وما من واحد يبدو له أنه البداية الصحيحة للوثوب إلى الخلود. هنا توجد بضعة كراريس «ملاحظات حول خلود النفس»، «ملاحظات حول الفلسفة والدين» وهي ملاحظات مأخوذة من المحاضرات الجامعية والمطالعات حينًا، وتصورات خاصة به حينًا آخر، ولا يفاجئ فيها سوى الملاحظة الواحدة: «وبعد مأساتي سوف أستأنف العمل في هذا». وهنا أشعار متفرّقة، بداية ملحمة مقفّاة، هي ملحمة «سِلاّ» والبداية لملهاة هي «الفيلسوفان». ويظل حينًا من الزمن يخطط لرواية «ديك الكركيّ» ورواية في رسائل «ستيني أو الأخطاء الفلسفية» ورواية أخرى «في النوع القديم» هي «ستيلاّ» ويدخل فيما بين هذا مشروع لأوبرا هزلية «الرحلة في البحر» ويزداد اضطراب بلزاك على نحو مطرد لدى هذه النظرة الشاملة المخيِّبة للأمل، في صدد ما ينبغي البدء به، هل تراه يكون مذهبًا فلسفيًا، أم مجموعة أو برات للضاحية، أم ملحمة رومانسية، أم رواية تحمل اسم بلزاك إلى العالم؟ ولكن فليكتب أول الأمر مجرد شيء ما على وجه الإطلاق. وليَصِل بأيِّ شيء إلى نهايته، بأي شيء يجعله مشهوراً ومستقلاً عن الأسرة، وبالحُميّا الجامحة التي يتميز بها، ينقِّب في سلاسل كاملة من المجلات، ويقرأها، لكي يكون من الممكن العثور على مادة من ناحية، وفي الوقت ذاته ليتعلَّم من الآخرين التقنية الخاصة بهذه الصناعة.

«لم أكن أفعل شيئًا سوى الدراسة وصياغة أسلوبي إلى أن اعتقدت أنني بتُّ خليقًا أن أفقد عقلي».

هذا ما يكتبه إلى أخته لور، ومع ذلك يأخذ الوقت في الإلحاح عليه شيئًا فشيئًا، لقد تبدَّد شهران في البحث والمحاولة، والمعاش محدود إلى حد لا رحمة معه، وهكذا تؤجل خطة العمل الفلسفي ويظن أن هذا كان لأنها كانت تقتضي قدراً مفرطًا من التحضير مع كونها قليلة العائد إلى حد مفرط. أما الرواية فلا يجد في نفسه من الطاقات ما هو كافٍ من أجلها. وتظل المسرحية- ومن البدهي أنها يجب أن تكون تاريخية، من الكلاسيكيّ الجديد، على النحو الذي أدخله في الزيّ الشائع شيلر، وألفييري، وماري جوزيف شينييه، مسرحية لمسرح الكوميدي فرانسيز. ويظل مراراً يستخرج وينقب من خزانة المطالعة العشرات من الكتب. إنهامادة هي بمثابة مملكة؟

وأخيراً يقع الاختيار. ففي ٦ أيلول ١٨١٩ يروي لأخته قائلاً:

«لقد توقفت أخيراً عند موضوع «كرومويل»، واخترتُه لأنه أجمل المواد في التاريخ الحديث بأسره، ومنذ أن التقطت هذا الموضوع، وقلَّبت النظر فيه أقبلتُ عليه إقبالاً وصل إلى حد فقدان الوعي وإن الخواطر لتتراكم في رأسي، غير أنني أظل أتعرَّض للوقف، المرة بعد الأخرى من جراء ضآلة موهبتي في فن الشعر...

ولكن فلترتعدي، يا أختي العزيزة، فأنا أحتاج، على الأقل، إلى سبعة أشهر، بل إلى ثمانيةلأسكب المسرحية في قالب الشعر، ولأفْرَغَ من صياغة ألوان إبداعي، ثم لأنقِّحها إلى النهاية.

آه لو تعلمين كيف تنهال الصعوبات لدى أمثال هذه الأعمال كما يَسَّاقط المطر! لقد احتاج راسين العظيم، وينبغي لهذا أن يعطيك صورة كافية، إلى عامَيْن للفراغ من تنقيح مسرحيته «فيدرا» التي تنتهي بكل أديب إلى اليأس، ولكنهما عامان بأسرهما! - عامان، تصوَّري هذا: عامين.

ولكن ماعاد هناك الآن رجوع أو نكوص.

إذا لم تكن لديّ عبقرية فقد ضعتُ وبُؤْتُ بالخسران!-

وإذاً فلم يكن بدٌّ أن تكون لديه عبقرية، ولأول مرة يطرح بلزاك على نفسه مسألة ويزجُّ بإرادته التي لا تقهر، في اللعبة، وحيث تؤدي هذه الإرادة عملها لا تكون هناك مقاومة وبلزاك يعلم أنه سوف يفرغ من «كرومويل» لأنه يريد أن يكمِّله، ولأنه لابدّ أن يكمِّله.

«لقد عقدت العزم على الوصول بـ «كرومويل» إلى النهاية، ولو لم يكن بدٌّ أن أنفجر، لابدَّ لي أن أصنع شيئًا كاملاً» قبل أن تأتي أمي وتطالبني بأداء الحساب عن وقتي».

ويلقي بلزاك بنفسه في خِضمّ العمل بتلك الطاقة التي يؤْتاها من انتابه جنون الفكرة الواحدة والتي قال هو عنها ذات مرة إنه لا يمكن، حتى لألدِّ أعدائه أن ينازعوه في حقه فيها. ولأول مرة في حياته يفرض على نفسه حياة عزلة الرهبان التي تبلغ حتى درجة أهل دير لاترابْ، التي جعل منها قاعدة فولاذية خلال كل فترات عمله المكثَّفة في حياته. ويظل ليلاً ونهاراً قاعداً إلى منصة الكتابة، ويظل، في كثير من الأحيان، لايغادر السقيفة مدة نصف أسبوع، وحتى عندما يكون ذلك لمجرد أن يشتري الخبز وشيئًا من الفاكهة والبن الطازج، هذا المنبِّه لأعصابه المتعبَة الذي لا يُستغنى عنه، وشيئًا فشيئًا يأتي الشتاء، وتهدّد الأصابع المرهفة الحس تجاه البرد منذ أيامه الأولى، بالتجمُّد في حجرة السقيفة المعرضة لتيّارات الهواء، وغير المُدَفَّأة. غير أن إرادة بلزاك المتعصبِّة لا تَني ولاتتراجع، ولا يتزحزح عن منصة الكتابة، وقد غطّى قدميه بدثار قديم لأبيه، من الصوف، وحمى صدره بصُدَيْريّ من القطن، ويستجدي من أخته «أيَّ شَمْلة مغرقة في القِدَمْ»، لكي يستطيع أن يَلُفّ بها كتفيه أثناء العمل، ومن أمه قبعة يُفتَرَض أن تحوكها له بالخرز ولمجرد أن يوفِّر حطب الوقود الباهظ، يظل أيّامًا بأسرها في السرير، ليواصل الكتابة، في مأساته الإلهية، وكل هذه الشدائد والمكاره لاتقدر على أن تثني إرادته، ولم يكن يجعله

يرتعد فَرَقًا إلاّ الخوف من نفقات زيت المصباح، لأنه لم يكن له بدٌّ، مع حلول الظلام المبكّر، أن يوقد المصباح منذ الساعة الثالثة بعد الظهر، وإلاّ فالنهار والليل عنده سيّان؛ إذ لا يصلح كلاهما إلاّ للعمل.

ولم يكن يوجد خلال كل هذا الوقت، أصدقاءُ، ولا نساءٌ، ولا مطاعمُ، ولا مقاهٍ، ولاتخفيف واحد للتوتر في خِضَمّ هذا التوتُّر الهائل، أمّا النساء فلا يجرؤ ابن العشرين على الدنُوّ منهن من جرّاء الخجل والخوف اللذين داما وقتاً طويلاً، وذلك أنه لم يَعِش، في كل المدارس الداخلية إلاّ بين الصبيان، ويعرف أنه غير بارع، وهو لا يستطيع أن يرقص، ولم يتعلم كيف يتحرك في وسط المجتمع المحترم، ويعلم أنه رثّ الثياب بسبب الاقتصاد المنزلي، ويضاف إلى ذلك أن بلزاك يحدث في فترة العمر الانتقالية هذه على وجه الخصوص، أثراً ليس في صالحه، سواء أكان ذلك من جراء مظهره البدني أم من جراء إهماله، بل إن أحد معارفه من تلك السنين يعدُّهُ دميمًا:

«كان بلزاك في تلك الأيام يتميز بدمامة خاصة تلفت النظر إلى حد بعيد، على الرغم من عينيه الصغيرتين اللتين تبرُقان من الفكر. وكانت له قامة غليظة، متينة البنيان، وشعر أسود، أشعث وبنية قوية العظام، وفم كبير، وأسنان تالفة». ولمّا لم يكن له بدٌّ، فوق ذلك، أن يلتفت بكل قرش، إلى الوراء، ثلاث مرات، قبل أن يدعه يفلت من بين أصابعه، فقد كانت تُفْتَقَد فيه حتى أكثر الشروط الأولية بدائية من أجل عقد صلات التعارف. أما في المقاهي، حيث كان يجلس الصحفيون والكتاب الشباب بعضهم إلى بعض، وحتى في المطاعم، فيُباح له، على أقصى تقدير أن يعكس وجهه الجائع في ألواح الزجاج، ولا تصل من بين كل المُتَع، والمَسَرّات، وألوان الأُبَّهة في مدينة الملايين، إلى الراهب الذي تَرَهَّب بمحض إرادته، في شارع ليدينيير، في كل هذه الشهور إلاّ المُتَع العابرة إلى أقصى الحدود.

على أن ثمة رجلاً وحيداً يتخذ، من حين إلى آخر، سلوكًا مختلفًا تجاه الوحيد المعتزل، وهوالأب دابلن القصير، وكان هذا المواطن النبيه، قد ألزم نفسه،

بحكم كونه صديقًا قديمًا للعائلة، وبصفته تاجر خردوات وأوائل حديدية بالجملة بأن يُعنى بعض العناية بالمتطلّع المسكين إلي فن الأدب وشيئًا فشيئًا تنشأ عن هذا صداقة تنطوي على الرعاية والاهتمام إلى حد مؤثر من جانب السيد الشيخ نحو الفتى المهجور، وهي صداقة سوف تدوم بعد ذلك على مدى حياة بلزاك بأسرها. وعلى الرغم من أن هذا الرجل الفاضل لم يكن شيئًا سوى تاجر صغير في ضاحية المدينة فقد كان ينطوي على تقدير وتبجيل مؤثِّرين لفن الأدب، وكان مسرح الكوميدي فرانسيز هيكله الذي يأخذ إليه معه الشاعر أحيانًا عندما يتم الفراغ من صفقات الخردوات البعيدة عن عالم العواطف والأخيلة، وكانت هذه الأمسيات المصحوبة بالطعام السخيّ بين يَدَيْ أُبَّهة أشعار راسين، هي الغذاء الوحيد، الجسدي والفكري، المُنْعِش لضيفه الممتنّ. وكان الأب القصير دابلن يرتقي في كل أسبوع، بجرأة، الأدوار الخمسة، إلى السقيفة، ليتفقد ذلك الذي أدخله في حمايته، ويمارس مع التلميذ السيء في معهد ڤاندوم، مرة أخرى، كتابة الواجبات المدرسية اللاتينية، ليثقف نفسه بنفسه. ويتبيَّن فيه بلزاك، الذي لم يكن قد عرف حتى الآن في أسرته هو، سوى حُمَيَّا التوفير عند طبقة البورجوازية الصغيرة ذات المطامح الثانوية- وسوف يخلدها بقلمه اللاهب الذي يصول أو يجول في كثير من الأحيان في الحديث عن أمثال هذه الشخصيات المجهولة من الطبقة الوسطى بأسلوب أكثر نقاءًا مما يفعل الصخّابون والكتاب في الأدب، ومثلما يترنَّم فيما بعد، في روايته «سيزار بيروتو»، بنشيد الأنشاد عند المواطن البسيط المنُصِف، يضيف وهو ممتنٌ مقطعًا شعريًا تمجيداً لهذا المُعين الأول له، الذي كان «يفهم بكل مقدرته الباطنية على الإحساس، مع كونه قليل الكلام، لا يميل إلى المبالغة» كل محنة ألوان القلق والاضطراب في صباه ويخفِّف من وطأتها. وفي صورة الشخصية المعدَّلة، شخصية موثِّق العقود الطيب، المتواضع، الذي لا يلفت النظر، صورة بيلروت ظلت هذه الشخصيةالجديرة بالمحبة، شخصية الأب القصير دابلان، قريبة منا، هذا الرجل الذي كان، على الرغم من ضيق أفق مهنته البورجوازية، يقدِّر عبقرية بلزاك

بالاستناد إلى حدس القلب، ويتبيَّنها قبل أن تقرر باريس، والأدب، والعالم، بعشر سنوات، أن يكتشفنه لأنفسهن.

وهذا الإنسان الوحيد الذي يُعنى به، يستطيع من حين إلى آخر أن يخفف عبء الهجران الهائل الذي يعاني منه بلزاك، من حيث الظاهر، غير أنه لا يستطيع أن يرفع عذاب الاضطراب الداخلي عن الأديب غير المثقف وغير الخبير، ويكتب بلزاك، ويكتب والدم ينبض فوق صدغَيْه، ويداه محمومتان، في سِكْرٍ وحيد، هو سكر نفاد الصبر. فلا بدّ لمسرحيته «كروموبل» أن تكتمل بأي ثمن خلال أسابيع. ولكن تَعْرُض له فيما بين ذلك تلك اللحظات التي تعرض لكل مبتدئ إذ ينتابه فيها الشك في ألوان مقدرته وفي عمله الخاص الذي ينشأ الآن فحسب وما يفتأ بلزاك يسائل نفسه: «أتُراني أتمتّع بالموهبة الكافية أيضاً؟» وهو يتوسَّل إلى أخته في رسالة له، أن لا تضلِّله بثناء مبنيٍّ على التعاطف:

«أنا أناشدك، باسم الحب الأخوي الذي تكنّينه لي، أن لاتقولي لي أبداً، عندما تتحدثين إليّ عن أحد أعمالي: هذا حسن! بل ينبغي لك أن تشيري إلى أخطائي فحسب، أمّا ثناؤك فاحتفظي به لنفسك».

على أن هذا الفتى اللاهب لايريد شيئًا متوسطًا، ولا يريد أن يبدع شيئًا عاديًا مألوفًا.

ويصيح قائلاً: «فليذهب التوسُّط إلى الشيطان! - لا بدّ للمرء أن يصبح رجلاً كالمؤلف الموسيقي الفرنسي للأوبرا، أندريه إرنست موديست! أن يكون راسين»

وبالطبع ففي بعض اللحظات التي يكون فيها ما يزال يُغشّيه ضباب سحابة الإبداع النارية تبدو له مسرحيته «كروموبل» رائعة، ويعلن قائلاً بفخر: «ينبغي أن تغدو مأساتي كتاب صلوات الملوك والشعوب. وأريد أن أظهر بمأثَرة في المرة الأولى أو تنقصم رقبتي.

ثم تنتابه لحظة من لحظات اليأس والقنوط، مرة أخرى:

«إنما ترجع كل همومي إلى أنني أتبيَّن مقدار ضآلة ما أتمتع به من الموهبة».

أولا يمكن أن يكون نشاطه كله ضربًا من العبث، وما عسى أن يكون للنشاط وحده من شأنٍ في الفن...

وذلك أن كل العمل الموجود في هذه الدنيا لا يمكن أن يقوم مقام ذرة من عبقرية.

وكانت مسرحية بلزاك «كرومويل» كلما اقتربت من الإنجاز. ازداد ما ينطوي عليه من العذاب تساؤلُ ذلك المعتزل الوحيد، هل تكون المأساة التي بين يديه من روائع الأعمال، أم تراها ليست بشيء.

وبطريقة تنطوي على طامّة لا يتوافر لمسرحية بلزاك، كرومويل، الكثير من الأمل في أن تغدو من روائع الأعمال، وكان هذا المبتدئ قد توجَّه وجهة خاطئة إذ كان لا يعرف طريقه الداخلي، ولم تكن توجهه يد خبيرة، ولم يكن هناك شيء أقل ملاءمة للموهبة التي ما زالت واهية الجناحين عند ابن الإحدى وعشرين سنة، الذي لا يعرف الدنيا ولا ممارسة المسرح، مِنْ أن يكتب مأساة، وأقل ما يكون ذلك في حالة التراجيديا الشعرية. أما أنه لم يكن ينطوي إلاّ على القليل من الموهبة فيما يتصل بالقافية، فذلك ما كان من الواجب عليه أن يكون معلومًا عنده، ولم يكن من قبيل المصادفة أن أشعاره، حتى في بضعةالقصائد الباقية منها، تقع في مستوى الهُوى العميقة تحت مستواهْ. وذلك أن الوزن العروضي، ولا سيما البحر الإسكندريني بإيقاعه الرزين المتحفِّظ، المتلائمة نبراته مع البحر العروضي، يقتضي من الفنان السكينة والرَّوِيّة والصبر، أي أنه يقتضي على وجه الخصوص تلك الخصال التي تتعارض تعارضًا مطلقًا مع طبيعة بلزاك الفياضة الدافقة، فهو لا يستطيع أن يفكر إلاّ في حالة الطيران، ولا يكتب إلاّ وهو يحلّق، حين لايكاد القلم يقدر على متابعة الكلمات والأفكار، كما أن خياله الذي يقفز من تداعيات إلى

تداعيات، لا يستطيع أن يتوقف لكي يعدَّ المقاطع الصوتية، وليشكل القوافي تشكيلاً فنيًا، ولا بُدَّ للصيغة الجامدة أن تعوق زخم كيانه بالضرورة، وما يبدعه إنسان العاطفة والهوى الجامح في جهد كلاسيكي يتحوَّل إلى تراجيديا باردة، تقوم على التقليد.

غير أن بلزاك لا يتوفر لديه الوقت من أجل معرفة الذات هذه، فهو لا يرى إلاّ أن ينتهي، وأن يكون حرًا، شهيراً وكذلك يطارد أبيات البحر الاسكندرينيّ المتعثِّرة ما ضيًا بها إلى الأمام. إنه لا يريد إلاّ أن ينتهي، وأن يحصل على جواب عن سؤاله إلى القدر، أتُراه «يملك موهبة» أم ينبغي أن يعود من جديد، مَوَثَّق عقود وعبداً للأسرة. وفي كانون الثاني عام ١٨٢٠، وبعد أربعة أشهر، من العمل المحموم تنتهي مسرحية «كرومويل» في ملامحها الإجمالية، وعند أصدقائه في جزيرة آدم، يضع، في الربيع، اللمسات الأخيرة عليها. وفي أيار يظهر لدى العائلة في فلبياريزي، المخطوط المكتمل، في الرزمة الضيقة، ليقرأه، الآن يُفْتَرَض أن يصدر الحسم الكبير: هل يوجد في فرنسا، وفي العالم، عبقرية جديدة اسمها هونوريه بلزاك.

وكانت الأسرة تنتظر السليل الذي ينطوي على الإشكال وتنتظر عمله بفضول وصبر نافِد، وكانت قد ظهرت لفتة يسيرة لصالحه على نحو غير ملحوظ البتّة، وذلك أن الوَضع الماليَّ للأسرة تحسَّن إلى حدٍّ ما، وبات يسود مزاج أكثر إشراقًا واستبشاراً في المنزل- وذلك على وجه الخصوص لأن لور، الأخت المُفضَّلة عند هونوريه، تزوجت المهندس سورڤيل الموسر، والنبيل، فوق ذلك، وشكَّلا بذلك شريكين ممتازين، كما حظيت بالإعجاب والانطباع الحسن بلا ريب حقيقةٌ مؤدّاها أن بلزاك صمد لبرنامج الاستشفاء بالجوع صموداً ينطوي على العزم والتصميم، من دون أن يترتَّب عليه قرش من الديون- وهذا على أية حال- برهان على الشخصية وقوة الإرادة الخصوصية، ثم إن وجود مخطوط ناجز يضم ألفي بيت من الشعر يعدُّ في حد ذاته، من جراء كمية الورق المكتوب فحسب، برهانًا

على أنه لم يكن مجرد امرئ خامل كسول يحمله خموله وكسله على أن يتخلى على هذا النحو المفاجئ عن وضع المرشح لعمل موثّق العقود. والمهنة التي تتسم باقتصاد الرهبان أسهمت في إثارة بعض الشكوك لدى الأسرة فيما يتصل باحتمال أن يكون القوم تصرّفوا مع الولد آخر الأمر تصرّفًا مفرطًا في القسوة، وكانوا يسيئون الظن به أكثر مما ينبغي. وربما كان يكمن أيضًا شيء خصوصيّ في هذا الفتى الفريد في نوعه والعنيد وإذا قُدِّر له أن ينطوي على موهبة بالفعل فلن يكون العرض الأول في الكوميدي فرانسيز آخر الأمر أمرًا مُخِلاً بالشرف على الإطلاق بالقياس إلى آل سالامبييه وآل بلزاك، وحتى الأم تأخذ في إظهار اهتمام متأخر جدًا بنتاج سليلها، وتعرض أن تنسخ المخطوط الذي تراكمت فيه التصحيحات بخط يدها، لكيلا يتعرَّض المؤلف الفتى، من جراء الإهمال في الكتابة، في حالة التلاوة المؤثرة، لشيء من الإعاقة. ولأول مرة - ولن يدوم هذا وقتًا طويلاً - يؤخذ أمر هونوريه في بيت والديه مأخذ الجدّ إلى حد ما.

وهذه التلاوة التي يفترض أن تفصل في مسألة هل ينطوي هونوريه بلزاك على «عبقرية» أم لا، تحدث في أيار، في فيليباريزي، وتضفي عليها الأسرة إطارًا من الاحتفالية الحميمة. ومن أجل استكمال شكل المحكمة العليا، كما كانت عند الإغريق في رابية الأريوباج، مقر آريس، إله الحرب، يُدْعى، فضلاً عن الصهر الجديد، سورڤيل، بعض الأصدقاء ذوي الأهمية والخطر، ومنهم الدكتور ناكار، الذي سيظل حتى ساعة وفاة بلزاك، طبيبًا له وصديقًا ومعجبًا، ولا يدع الأب دابلان الطيب، بالطبع، حضور هذا العرض الأول الغريب يفوته، ويظل يصلْصِلُ بشيء معدني، بهمة صادقة، على وجه الخصوص، في العربة المُسْتَأجرة، وهي عربة النزهة ذات الطراز القديم، على مدى الساعتين من باريس إلى هنا.

أَمَا إنه لعرض غريب: فقد أعدت أسرة بلزاك الصالون، بالطبع، إعداداًاحتفاليًا من أجل القراءة، وكان يجلس على المقاعد ذوات المساند، كما كان متوقعًا، في دائرة، بلزاك الأب، ابن الفلاح الذي طالما طوَّف في الآفاق، والأم الصارمة، والجدة سالامبييه المريضة بالوهم، والأخت لور، مع زوجها الشاب الذي يتمتع، بحكم كونه مهندسًا، بدراية في إنشاء الجسور والطرق أكثر مما يتمتع بدراية في أبيات البحر الألكسندريني ذات البنيان الحسن أو المهلهل. وكانت مقاعد الشرف مخصصة للضيفين، الدكتور ناكّار، أمين سر الجمعية الملكية للطب، والأب القصير دابلان، وكان يصغي في الخلفية، من دون كبير اهتمام على الأرجح، شقيقا هونوريه الأصغرين، لورنس وهنري. وكان يقعد قبالة هؤلاء المستمعين الذين لا يتمتعون بالكثير من الكفاءة، المؤلف الناشئ الجديد إلى منضدة صغيرة، يقلّب بيديه الصغيرتين البيضاوين، في المخطوط بعصبية، وكان هذه المرة، على سبيل الاستثناء، قد اغتسل حتى عاد نظيف الجسد والثياب، فتى في الحادية والعشرين، ضامراً، ذا لبدة قوية مردودة إلي الوراء بأسلوب العباقرة وعينين صغيرتين سوداوين قد أُنْسِيَتا في اللحظة الحاضرة نارهما التي ينقدح منها الشرر. وفي شيء من الاضطراب تنتقلان من الواحد إلى الآخر بأسئلتهما، وفي كثير من التردد والوَجَل يفتتح القراءة: المشهد الأول، الفصل الأول، ولكن سرعان ما يدخل في حالة من الاندفاع والتوثُّب. ثم يدوّي هدير طوفان البحر الألكسندريني كالرعد، وتصطفق أمواجه وتهبُّ هَفْهافة وتصطخب على مدى ثلاث ساعات أو أربع في أرجاء الحجرة.

ولا يتوفر لدينا خبر حول مسيرة هذه القراءة الجديرة بالذكر والتي يذكرها التاريخ، ونجاحها، ولا نعرف هل أخذت الجدَّة سالامبييه في أثناء ذلك سنة من النوم، ثمّ ألم يكن الشقيقان الأصغران مضطرَّيْن إلى الانسحاب إلي فراشهما حتى قبل إعدام شارل الأول، وكل ما نعلمه هو أن القراءة وضعت المستمعين في حرج معيَّن من وجوب مبادرتهم على الفور، بعد هذه التجربة- المتعبة إلى حد ما- إلى

البتّ في المسألة بأسلوب تعسُّفي، مسألة هل ينطوي هونوريه على «عبقرية» أم لا على أن المورِّد القديم للجيش، وتاجر الخردوات الحديدية بالجملة، ومهندس الجسور، والطبيب، ليسوا على وجه الخصوص بالنقاد المثاليين لمسرحية شعرية. وما من شك في أنه لم يكن من المريح لهم أن يقرِّروا هل يبعث هذا الأثر المسرحي الضخم، الملالة والسأم فيهم شخصيًا فحسب أم هو باعث للملل في حد ذاته. وبالنظر إلي هذا اللايقين العام يقترح المهندس سورڤيل، أن يُعرَض هذا العمل الذي أخرجه «سوفوكل الجديد»- وكان هونوريه يحلم بأن يكون مثل هذا، في شيء من التسرُّع- على مرجع يتمتع بالكفاءة فعلاً. وبهذه المناسبة يتذكَّر أن مدرس الآداب في إحدى مدارس الفنون التطبيقية كان هو نفسه مؤلفًا لبعض الكوميديات المكتوبة شعراً، والتي غزت المسرح بالفعل، وقال إنه يود لو يتوسَّط لكي يصدر هذا السيد أندريو حكمه في مسألة هل ينطوي كاتب شاب على «عبقرية» أم لا، بحكم كونه أستاذاً خبيراً في تاريخ الأدب استدعي في أثناء ذلك حتى إلى الكوليج دي فرانس؟

على أنه ما من شيء يحدث أثره على المواطنين الطيبين أكثر من لقب رسمي جميل: فمن تُسَمِّه الدولة أستاذًا، ويجوز له أن يحاضر في الكوليج دي فرانس لابد أن يكون غير معرَّض للخطأ. وهكذا تحج السيدة بلزاك الأم وابنتها إلى باريس وتعرضان على السيد الذي يتعرض غروره للتملُّق، بأنه في الحقيقة كاتب مشهور، وهو يسرُّه أن يُذَكَّر بذلك- إذ نسي العالم هذا منذ عهد بعيد، المخطوطَ لإصدار الحكم عليه. أمّا أنه يرى في مسرحية «كرومويل»، منذ القراءة الأولى، عملاً لا أمل في نجاحه، فذلك حكم أيَّده العالم من بعده في هذه الأثناء، بل لا بد للمرء أن يعدَّ من مآثر الرجل الطيِّب أنه لا يدع الحكم المرير على هذا العمل ينزل بحال من الأحوال إلى مستوى إنكارٍ نهائي وفظّ لموهبة هونوريه بلزاك الأدبية. ويكتب إلى الأم بأدب جم:

«أنا بعيد كل البعد عن الرغبة في تثبيط همة السيد ولدك، غير أني أعتقد أنه كان في وسعه أن يستخدم وقته على نحو أفضل من استخدامه في كتابة التراجيديات والكوميديات، وحين يرغب في أن يمتِّعني بزيارته فسوف يسرني أن أبيِّن له كيف يدرس المرء، فيما أرى، أدب الإبداع وما هي المزايا التي يستطيع المرء أن يستخرجها منه من دون أن يصبح على الفور شاعراً محترفًا.

وكان مثل الاقتراح المتعقِّل والمنطوي على الحل الوسط هو على وجه الخصوص ما كان سماعه أحب الأمور إلى أسرة بلزاك، وإذا كان هونوريه يريد أن يواصل ممارسة عمل الأديب من بعد ذلك فلِمَ لا؟ فالقعود إلى منصة الكتابة هو على أية حال أفضل (وأرخص) بالقياس إلي الفتى من القعود هنا وهناك في المقاهي، أو تبديد الوقت، وإتلاف الصحة (والمال) مع الفتيات المائعات. ولكن ينبغي أن يكون هذا، بحكم البدهية، وعلى نحو مماثل بدقة لما نصح به الأستاذ أندريو، الذي لابد أنه يعلم هذا، لا بصفته «أديبًا محترفًا» بل من باب الهواية الجميلة، بالتوجُّه إلى مهنة مدنية ثابتة موطّدة الأركان، تدر دخلاً. ولكن بلزاك الذي مازال يشعر، على الرغم من هزيمة مسرحية «كرومويل» بأنه «أديب بدافع من نداء داخليّ» يدرك الخطر، ويحسّ، بالاستناد إلى غريزة خفيّة، أن العمل الذي نُدِبَ إليه، أشدُّ وَطأً من أن يُؤدىّ بصورة عرضية هامشية فحسب.

«عندما ما أقبل وظيفة، فقد ضيَّعت نفسي، وإني لخليق أن أكون أجيراً، أو آلة، أو جواداً في سيرك، يؤدي دوراته الثلاثين أو الأربعين ضمن الحلقة، ويشرب ويأكل العلف، وينام، في الساعات المحدَّدة له، وإني لخليق أن أصبح إنساناً في خدمة كل البشر، وهذا ما يسمونه عندئذ بالحياة، هذا الدوران على شاكلة حجر الرحى، وهذه العودة الأبدية للأشياء ذاتها إلى الأبد».

وهو يشعر أنه قد وُلِدِ من أجل رسالة خصوصية تتطلَّب الطاقة القصوى من الإنسان، بل تتطلب ما يتجاوز هذا المدى، من دون أن يعرف أين تكمن هذه

الرسالة. ولذلك يرفض الحل الوسط ويصر على مظهره الخارجي. وبموجب عقده مع أبيه لاتعد سنتا التجربة منقضيتين، فهو مازال لديه أكثر من سنة كاملة، لنفسه، وهو يريد أن يستغل هذا، ويعود أدراجه إلى زنزانة سجنه التي اختارها بنفسه في شارع ليدينيير من دون أن ينحني أو يُجْدِيَ فيه رجاء، مثلما كان يحدث بعد كلٍّ خيبة من خيبات الأمل ذات المائة وجه في حياته، وأكثر تصميماً بعدُ من ذي قبل، على أن يظفر لنفسه بالاستقلال عن العبودية وعن الأسرة.

الفصل الثالث

مصنع هوراس سان أوبان وشركاؤه للروايات

ويظل بلزاك بضعة أيام، أو ربما بضعة أسابيع، يأبى أن يُسَلِّم بأن مسرحيته «كرومويل» انتهت إلى الإخفاق، ويتشاور مع صديقه الحنون دابلان، فيسأله ألا ينبغي للمرء أن يعرض هذه التراجيديا على الكوميدي فرانسيز أيضًا، على أن تاجر الخردوات الطيب الذي لا تربطه علاقات جمَّة بالمسارح يجتهد في سؤال أحد معارف الممثل لافون ألا يرغب هذا في تقبُّل هذا العمل، ويقال إن بلزاك ينبغي له بعد ذلك أن يزور لافون ويتحدث إليه حديثًا معسولاً ويداهنه ما وسعه ذلك، فربما تولّى لافون بعد ذلك تقديم إلياذة كرومويل بعد ذلك إلى الأعضاء الآخرين في الشركة، ولكن فجأة يتمرَّد بلزاك، في إطار معرفته بنفسه، فِيم يعرِّض نفسه للمهانة والإذلال أكثر مما ينبغي؟ وفيم يَزُجُّ بهذه الورقة القديمة المستهلكة، في اللعبة، بأسلوب ثقيل سمجٍ؟ وذلك أن من أحسَّ في نفسه بالقوة، استطاع أن يتحمل صدمة قاسية أيضًا. لقد فرغ من مسرحية «كرومويل»، وهو يؤثر أن يكتب شيئًا أفضل، ويرجو بلزاك من دابلان أن يكفَّ عن بذل أي جهد آخر، ويرمي بالمخطوط في أحد الأدراج في تصميم، ولم يُلْقِ نظرة أخرى، طوال حياته على هذا الخطأ الأول في شبابه.

ولكن فليسارعْ الآن إلى العمل مرة أخرى. لقد بعث هذا الإخفاق القاتل، البرودة في كبريائه إلى حدٍّ ما. وقبل عام، حين كان يكتب مسرحية كرومويل بحواسٍّ لاهبة، كان مسترسلاً بعدُ في أحلام غامرةٍ فيّاضة، إذ كان ابن العشرين

يريد أن يحرز الشهرة والشرف والحرية بضربة واحدة، أمّا الآن فقد اكتسبت الكتابة والإبداع عند الكاتب المسرحي الذي هوى، قبل كل شيء، الروح العمليّ: أن لا يضطر إلى العودة إلى الارتباط بالوالدين، فليؤجل روائع الأعمال، والخلود، إلى وقت لاحق، إذ يجب بادئ ذي بدء، كسب المال بالكتابة، المال بأي ثمن، لكيلا يضطر إلي أن يحسب حساب كل قرش مع الوالد والوالدة والجَدَّة- على أنه عطاء من باب الرحمة، ويضطر صاحب الأوهام الذي لا سبيل إلى شفائه، أوّل مرة، إلى أن يفكر تفكير الواقعيّ، ويقرر بلزاك أن يكتب شيئًا يحرز به المرء النجاح على وجه السرعة، فأي شيء يصيب النجاح بسرعة في هذه الساعة؟ وينظر هذا الذي لم يتعلّم، حواليه ويدرك: إنها الرواية. لقد أقبلت من إنكلترا موجة جديدة، بعد انقطاع الموجة السابقة، العاطفية، («هيلواز الجديدة لجان روسو، وآلام ڤرتر لجوته») في أوروبا. لقد أدخلت الحقبة النابليونية، شأن كل حقبة حربية، ما يكفي (وما هو أكثر من حد الكفاية) من التوتر في الحياة اليومية، بحيث ما عاد المواطن يشعر بالحاجة إلى أن يُسْتثار بمصائر فردية مُخترَعة. وكان «الرقيب» ينظم للشاعر شعره، ولكن مع عودة آل بوربون وعودة السلام برزت الحاجة من جديد إلى إدخال النفس في حالة الذبذبة والاهتزاز عن طريق المغامرات الأجنبية، واستثارة الأعصاب، ودفع الشعور إلى حالة القشعريرة على نحوٍ متناوب، أو إلى ما هو مرهف الحس. فالجمهور يريد الروايات، المثيرة، الصارخة، الرومانسية، الغريبة، على أن قاعات المطالعة التي تم تأسيسها حديثًا، ومكتبتَيْ الإعارة لا تكاد تستطيع أن تشبع هذا الجوع الجماعي، أما الكُتّاب فيعرفون كيف يعبِّئون، بلا مبالاة، في مطبخهم المملوء بالساحرات، والسمَّ والدموع، والعذارى الفاضلات وسفن القرصنة، والدم والبخور، وأساليب النصب والاحتيال، وروح النبالة والساحرات، ومنشدي الشعر الغنائي بحيث تأتلف من هذا كله كتلة تاريخية رومانسية، ثم ينهالون عليها بدفقة باردة كالجليد، من الأشباح، والفزع. فقد أقبل الآن زمن رائع بالقياس إليهم. فهذه، مثلاً، الآنسة آن راد كليف في إنكلترا، التي

يجعجع مصنعها بأقاصيص الرِّعدة والأشباح، شأن رحى الطاحون. وأما الفرنسيون البارعون المتمرِّسون الذين كانوا يعرفون كيف يأخذون وسائل العمل وأوائله عن طريق ملاحظة تلك السيدة التي هي في شغل دائم وعجلة من أمرها، فقد جمعوا برواياتهم السود أموالاً طائلة على النحو ذاته، ولكن على صعيد أعلى أيضًا يتحوَّل زيُّ الملابس التاريخيّ، ولا سيّما زيُّ العصر الوسيط، إلى زيٍ سائد كبير: فهاهم أولاء فرسان والترسكوت يغزون بأسيافهم ودروعهم البرّاقة، من البلدان، ومن البشر، أكثرَ مما غزا نابليون بمدافعه، وباشوات بايرون وسفن القرصنة عنده، بما تنطوي عليه من المزاج السوداويّ الكئيب، يجعلْنَ نبضات القلوب تدق الآن دقًا في مثل عنف نداءات ريڤولي وأوسترليتز في سالف الأيام.

ويقرر بلزاك أن يسوق سفينته الشراعية برياح العصر الرومانسية، وأن يكتب رواية تاريخية، ولن يكون الوحيد في فرنسا الذي يغريه نجاح بايرون ووالترسكوت وعما قريب سيجرب ڤيكتور هوجو، برواياته (بوغ- جار غال) و «هان الإيسلندي» و «نوتر دام» وڤيني بروايته (Cinq- Mars)، أيديهم البارعة في الجوذاته، غير أن هؤلاء كانوا قد سبق لهم التمرُّس بالأخذ عن القصيدة، في سفينة الكلمة وفي فن الإنشاء. أمّا بلزاك فيبدأ بأسلوب المقلّد غير الواثق من نفسه، بروايته Falthurne، ويستعير الخلفية التاريخية من روايات آن راد كليف الباعثة للتفجُّع، ويأخذ الكواليس النمطية من نابولي، ويأتي بكل الشخصيات الضرورية في روايات السلالم الخلفية إلى المشهد، وفي المقام الأول الساحرة التي لا يستغنى عنها، ساحرة سوماري Sommaris المُمَغْنَطة، والنورمان وقائد المرتزقة والسجناء النبلاء يرسفون في الأغلال والأجراء أولي الحسّ المرهف، على أن المخطط الأولي ينذر بمعارك، وعمليات حصار، وغياهب سجون، والأعمال البطولية المدفوعة بدافع الحب، والتي هي أبعد ما تكون عن الاحتمال-، وهو في البداية أكثر مما يستطيع الكاتب الشاب أن يتمكن منه، وكذلك تظل رواية أخرى، هي «ستيني»، أو

الأخطاء الفلسفية، التي كتبت أيضًا بأسلوب روسو، في رسائل، والتي يشير فيها الموضوع المفضَّل عند لويس لامبير، وهو «نظرية الإرادة» إلى نفسه بصورة إجمالية، غير مستيقنة، قطعة مجتزأة (إذ يوضع قسم من المخطوط فيما بعد في صورة عمل مرقَّع، في رواية أخرى)، وكذلك يلقى بلزاك هزيمته الثانية، فقد أخفق في محاولة التراجيديا، ولم يحالفه التوفيق في الرواية، وضاع عام، وعام ونصف العام. وفي بيته تسهر إلهة من إلاهات القدر لا ترحم، لكي تقطع خيط حياة حريته الرفيع قطعًا نهائيًا. وفي ١٥ تشرين الثاني عام ١٨٢٠ تعلن الأسرة يوم الأول من كانون الثاني ١٨٢١ موعداً لإخلاء المسكن في شارع ليدنيير، وكفاه ما حاول من الكتابة! ولْيَعُدْ إلى الحياة المدنية! وليختر مهنة ثابتة موطّدَة الأركان! وليُمْسِك آخر الأمر عن إنفاق مال الوالدين، وليكسب المال بنفسه!

أن يكسب المال بنفسه، أن يستقل بنفسه، وأن يكون غير تابع أو مرتبط- وإذاً فمن أجل لاشيء كافح بلزاك الكفاح المرير، سوى أن يعيش هذه الحياة، سنوات القبو والسجن في شارع ليدينيير، لقد اقتصد ووفَّر، وجاع، وظل يكتب حتى جُرِحت أصابعه، وظل يكدح، عبثًا! وإذا لم تنقذه أعجوبة في اللحظة الأخيرة فلا بُدَّ له أن يعود إلى مهنة مدنيّة.

وفي أمثال هذه اللحظات، لحظات انعدام المخرج، واليأس إلي أقصى الحدود، يحدث دائمًا في الأساطير، أن يتقدَّم المُغْوي من اليائس، ليشتري منه نفسه. على أن المغوي في حالة بلزاك لا يبدو شيطانيًا بحال من الأحوال، بل يظهر في صورة الرجل الساحر المُسَلّي، ويرتدي سروالاً حسن الخياطة مع ملابس نظيفة. وما من شك في أنه لا يريد أن يشتري من بلزاك نفسه، بل يدَه الكاتبة فحسب. وفي أي مكان، وفي أي زمان- ربما عند ناشر قدّم له رواياته، وربما في المكتبة العامة، أو في مطعم، يتعرف بلزاك على هذا الذي يكاد يماثله في السن، والذي يحمل، فوق مظهره الحَسَن أيضًا، الاسم النبيل، أوغست لوبوا ثفان دي ليجر ڤيل، ولمّا كان ابن

ممثل فقد ورث عن أبيه لباقة معينة وطلاقة في اللسان، وكان يعوِّض ما يفتقر إليه من الموهبة الأدبية بمعرفة بالدنيا متعددة الجوانب، وهكذا أتيح له، وهو الذي لا يعدُّ موهوبًا بحال من الأحوال، أن يكسب، من أجل رواية بعنوان (الهكتوران الأخرقان، أو الأسرتان البريتونيتان) كاد يفرغ من كتابتها بأسلوب التلفيق الأخرق على عجل، ناشراً، بل ذلك الناشر الذي يَعُدُّ له، مقابل هذا العمل، ٨٠٠ فرنك نقداً على المنضدة، وكان يفترض أن يصدر الكتاب في مجلدين بالاسم المستعار، أوغست دي ڤيير جليه، عن تاجر الكتب هوبير في «القصر الملكي»، والأرجح أن بلزاك شكا إلى الصديق الذي ظفر به مجدَّدًا سوء حظه في كتبه، وصرَّح له بواثقان بأن تجاوزه للحدود في طموحه الأدبي هو العلة الحقيقية لسوء الحظ هذا. ويقول المُغْوي مذكِّرًا: فيم استخدام الضمير الفني في رواية، ولماذا يحمل عمله على محمل الجد إلى هذا المدى؟ فالرواية تكتب بسهولة بالغة، بلا ريب، وإنما يختار المرء موضوعًا أو يسرقه، أيَّ قضيَّة تاريخية تستحوذ على اهتمام الناشرين الآن، ويفصّل القول فيها بعد ذلك بشيء من الحذْق والشطارة إلى أن ينتهي من ذلك إلى بضع مئات من الصفحات بحنكة. وأفضل ما يكون ذلك من قبل كاتبَيْن اثنين. ويقول إن الناشر في متناول يده الآن، وإذا رغب بلزاك ففي وسعهما أن يكتبا الرواية التالية كتابة مشتركة، أو يكتباها كتابة أفضل بعد، وهي أن نخلط الخرافات الغبيّة ونلصقها بعضها ببعض، وأنت تملأ الصفحات بالكلام وحدك، فأنت أكثر مني براعة وأسرع، وأنا أتولّى إيراد الأمور ذات الأهمية في أماكنها. وعلى هذا فقد اتفقنا، سنؤسس وضعنا على أساس المناصفة وكان الاقتراح مُذِلاً مهينًا، تدبيج رواية ليس لها قيمة من الناحية الأدبية خلال أجل معين في حجم محسوب بدقة بعدد الصفحات، وفوق ذلك أيضًا، مع شريك لا رادع له البتَّة ولا طموح. ما أكثر ما كانت تختلف عن هذا، بالأمس بعد، أحلام «سوفوكل الجديد». إساءة استخدام موهبته هو، وربما بالإضافة إلي هذا، إفسادها والانتهاء بها إلى الانحطاط، لمجرد التهام بضع مئات من الفرنكات من دون مقابل! ألم يكن يريد،

قبل عام فحسب، أن يخلِّد اسم بلزاك، ويتفوق على راسين؟ ألم يكن يريد أن يبلِّغ عن نظرية جديدة حول قدرة إرادة البشر على كل شيء؟ إن ما يطلبه المُغوي منه هو أعمقُ أعماق نفسه، ضمير الفنان، غير أن بلزاك لا خيار له في الأمر، فقد تم إعلان خُلُوّ المسكن، وإذا عاد إلى دياره من دون أن يستحق أو يكسب شيئًا فلن يجود عليه أبوه وأمه مرة ثانية بحريته، ولَأَنْ يكون له عمله الروتيني الخاص به، خير له من أن يكون عمله للغرباء، وهكذا يبرم الاتفاق. وفي الرواية التالية (شارل بواتيل أو ابن عمي من ناحية اليسار» التي كان لوبوا تڤان دي ليجرڤيل قد بدأها (أو ربما صمَّمها) يفترض أن يظل بلزاك، المتعاون السرِّي (أو الكاتب الرئيسي)، مكتومًا، غير أنهما يرغبان في التوقيع على ضروب النتاج اللاحق لمصنع الروايات المَنْويِّ تأسيسه، معًا، على طريقة المؤسسات: آ. دي ڤيير جليه (وهو مقلوب دي ايجرڤيل) ولورد رهون (وهو مقلوب هونوريه).

وبذلك يكون قد أُبرِم الاتفاق الشيطاني. وفي حالة أقصوصة شاميسّو الشهيرة، يكون ظل بيتر شليميل الخاص هو الذي يبيعه بيتر شليميل نفسه لرب الجحيم، أما بلزاك فيبيع فنه، وطموحه الأدبي، واسمه، ومن أجل الحرية يذهب إلى العبودية- وقد تحول إلى «عبد أسود»، إلى امرئ كثير الكتابة في السرّ، يكتب بالنيابة عن الآخرين، وستظل عبقريته غارقة في ظلمة القوارب ذات المجاذيف التي يحركها العبيد على مدى السنين وسيظل اسمه غير مرئي.

ولا يعود بلزاك، بعد اختتام بيع النفس هذا، إلي أسرته، في ڤيليبا ريزي إلاّ في نوع من إجازة استجمام، فقد تخلى عن مسكنه في شارع ليدينيير، والآن ينسحب عائداً إلى الحجرة السابقة لأخته لور، التي خلَتْ من جراء زواجها. لقد عقد العزم على أن يظفر بالعمل، وبالجد الذي لاهوادة فيه، وبمسكن إضافي آخر، بماله الخاص، وفي هذه الحجرة الصغيرة حيث تابعت أخته الأحلام الرومانسية بمجد أخيها وشرفه، ينشئ مصنعه للروايات، ويكدِّس صحائف الورق المكتوب بعضها

فوق بعض، ويقعد الأيام والليالي إلى العمل، لأن الطلبات تظل تتوارد على الدوام بفضل النشاط الجمّ من قبل العميل لوبواتڤان دي ليجرڤيل، وقد تم توزيع الأدوار في هذا المصنع الذي يعمل بدقة كالساعة، توزيعًا حسنًا- أمّا بلزاك فيكتب الروايات، وأمّا بواتڤان فيُسوّقها.

وأمّا الأسرة فتنظر بسرور أهلِ الطبقة الوسطى إلى هذه الانعطافة الجديدة. وذلك أنها ما عادت ترى في عمل هونوريه ضربًا من العبث منذ أن رأت العقود الأولى- ثمانمائة فرنك عن العمل المصطنع، ثم يتصاعد الأجر على عجل إلى ألفي فرنك للشريكين. وربما يقف هذا الذي يمارس العبث، ذات مرة على قدميه، ولا يظل يعيش على حسابهم إلي الأبد. على أن الوالد تسره على وجه الخصوص حقيقة أن ولده تخلى فيما يبدو عن تطلّعه إلى أن يكون أديبًا كبيراً، وأنه لا يشوّه سمعة اسم بلزاك المدني الحسن عن طريق اختياره لأسماء مستعارة كثيرة شتى، ويقرِّر الشيخ المسن الطيب «أنه يصب الماء في خمره هو، وما زال هناك وقت، وما زلت آمل أن يصبح شيئًا ما»، أما الوالدة بلزاك، التي تتمتع بموهبة السوء التي تجعلها تفسد على ولدها كل شيء بقلقها المُلِحّ، فتنظر إلى مصنع الروايات الذي تأسس في منزلها نظرتها إلى شأن من شؤون العائلة، وتقوم هي وابنتها بدور الناقدتين المشاركتين بإسداء العون، وتشكو من «الافتقار إلى الأسلوب»- على أنها ليست الأخيرة في هذا، ولكنها الأولى في قولها إن «رابليه قد أفسده»، وتُلِحُّ عليه في أن «يراجع مخطوطه بعناية»، ويحسُّ المرء كيف ينتاب هذا البالغَ التعبُ من هذه الوصاية الأبدية من جانب العائلة، وسرعان ما تضطر الأم التي لا تستطيع أن تقلع عن عادتها في القلق غير المرغوب فيه، والذي يوشك أن يتحوّل إلى بكاء، على الولد الضائع، إلى أن تُبَلِّغ أن «هونوريه لديه تصورٌ عن نفسه وعن معرفته بالغ الغرور والصلف وأنه لا بدّ له أن يجرح مشاعر كل امرئ». ويضيق المكان على هذا الإنسان الطبيعيّ الطَّلْق أيمَّا ضيق، ويغدو هواء حجرة العائلة لا يُطاق، أما رغبته الوحيدة فهي أن يفتتح لنفسه مرة أخرى غرفة في باريس فحسب، ويحظى، آخر الأمر، بالاستقلال الذي تتوق إليه نفسه منذ سنين.

وبالانطلاق من هذا الدافع إلي الحرية يعمل كما يعمل المحكوم عليه بالعمل في السفينة الحربية ذات المجاذيف، فينجز عشرين، أو ثلاثين، أو أربعين صفحة. ويكون الفصل الواحد في اليوم بالقياس إليه واجبًا يوميًا متوسطًا، ولكن كلما ازداد ما يكسبه ازداد ما يرغب في كسبه، ويكتب مثلما يعدو السجين، بأنفاس المُطارد، وبرئتين تخفقان، لكي يهرب من سجن العائلة المكروه. وأخيراً يعمل مثل وحش، و«إذا واصل هذه الحياة ثلاثة أشهر أيضًا، فسوف يَعْتَلُّ عَلَيّ». ولكن بلزاك، إذا ما اندفع ذات مرة وتوثَّب، زجَّ بكل عنفوان كيانه في مصنع الروايات، وفي كل ثلاثة أيام تفرغ دواة حِبْر، ويستهلك عشراً من ريش الكتابة، ويُصَعِّد في العمل طاقة عمله إلى أن يصل إلى ذلك العنفوان الذي لا وقفة معه، وإلى مسٍّ من جنون أصبح فيما بعد مثاراً لاندهاش كل رفاقه، ويستكمل، حتى في عام ١٨٢١ (بعد أن استدرك، على الأرجح، في رواية بوتڤان الأولى «الهكتوران» معه، أو ربما بدلاً منها، رواية شارل بوانتيل، التي تصدر باسم ڤيير جليه، على الرغم من أنها تتضمن مواضع بأسرها من رواية «ستيني» لبلزاك، وحتى قبل مطلع العام الجديد تكون قد انتهت رواية ثانية- وإذا أدخل المرء في الحسبان رواية «الهكتوران» كانت الرواية الثالثة منتهية، وهي «وريثة بيراغ، مأخوذة من مخطوطات دومْ راغو، الرئيس السابق للرهبان البنيدكْت، قصة حررها وأخرجها ابنا الأخ م أ. دي ڤيير جليه، واللورد رْهونْ، ومازال هذا العمل المصطنع لم يُفرَغ من طبعه حتى الآن حقًا، وكذلك يَقْفو أثره كتاب آخر في أربعة مجلدات، هو «جان لويس، أو الإبنة التي عثُِر عليها من جديد»، وقد وقَّع عليه، على النحو ذاته، ابنا الأخ الموقَّران لرئيس ديرالد ومينيكان الأسطوري، توقيعًا مشتركًا، غير أنه كان قد شبع من الشراكة التي كان هو وحده رأسها ويدها ودماغها وقلبها. ويُدبِّج بلزاك رواية أخرى، ثالثة، على عجل (تارتاروس، أو العودة من المنفى)، تظهر باسم أ. دي ڤيير جليه (عام ١٨٢٢، أيضًا)، من دون أن يُذْكَر اللورد رْهونْ بصفة متعاون أو مؤلف حقيقي، وبذلك يبدو العقد وكأنما انتهى مفعوله. ومنذ الآن فصاعداً ينشر بلزاك، بحكم

كونه المالك الوحيد لمصنع لورد رْهونْ للروايات (سابقًا: أ. دي فييير جليه، ولورد رْهون)، وقد عقد العزم على أن يجعل من هذا المصنع المؤسسة الأولى في فرنسا. وفي أول تهليل للمال المقبوض، يصرخ قائلاً لأخته، كالنافخ في البوق، بملء شَدْقَيْه:

«أختي العزيزة،

إنني أعمل الآن، مثلما كان يكدح جواد هنري الرابع، قبل أن يُسْبَك تمثال له من البرونز، وآمل أن أكسب، في هذا العام؟ أيضًا، مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ فرنك يفترض أن يشكِّل حجر الأساس لثروتي، ويترتَّب عليَّ أن أقدِّم روايات «والي إقليم الآردين» و «العالم» و «أوديت دي شانديڤير»، و «أسرة رْهون» وفضلاً عن هذا، قَدْرًا كبيراً من المسرحيات.

وسوف يغدو اللورد رْهونْ، خلال أجل قريب رجلَ اليوم، والأكثرَ إثارة للرَّهبة والفزع من كل الكتاب، ورجل المجتمعات الأكثر جدارة بالمحبة، هونوريه في عربة فاخرة، مرفوع الهامة، مزهُوَّ النظرات، وقد أُترعت جيوبه بالمال، وعند اقترابه سوف يرتفع اللَّغَط المتملِّق الذي سوف يؤدّي إليه التحية على أنه معبود الجماهير، وسوف يتهامس الناس قائلين: «هذا شقيق مدام سورڤيل!»».

أمَّا أن هذا الذي كان يصطنع بضاعة التلفيق والتدبيج هو بلزاك المُقْبِل، فذلك ما يمكن لهذه الروايات أن تجعلنا ندركه من ناحية واحدة فحسب، وهي سرعة الإنتاج التي لا يمكن فهمها ولا وصفها. فبعد هذه المجلدات الستة عشر أو العشرين، مع لوبوا تفان أو من أجله، يدع، في هذا العام أيضًا، أي عام ١٨٢٢، ثلاث روايات تصدر، وكلٌّ منها بأربعة مجلدات- أي ستة عشر مجلدًا آخر، وهي: «كلوتيلد دي لوزينيان، أو اليهودي الجميل» و «ابنا المائة حَوْل أو اثنان من آل بيرينجهيلد» و «والي إقليم الآردين» ويبدو بوضوح أنه يتولاّه الخوف هو نفسه من الكيفية التي سوف يواجه الجمهور بها نيران مثل هذا المدفع الرشاش، لأنه في حالة

الروايتين المذكورتين أخيراً يبدّل القناع، ولا يعود يوقِّع باسم «لورد رْهون»، بل باسم «هوراس دي سان أوبان». وهذه العلاقة التجارية الجديدة بات لها في السوق سعر أعلى إلى حد خطير من سعر الشركة السابقة. وذلك أن اللورد رْهون- سان أوبان حلَّق بالسعر من ثمانمائه فرنك أتعاباً كان عليه أن يقتسمها مناصفة مع العامل معه، إلى ألفي فرنك مقابل ١٥٠٠ نسخة من الرواية الواحدة. وما هي إلاّ خمس روايات، أو عشرة في العام- وهي عبث أطفال بالقياس إلي طراز من الإنتاج الأدبي يصل إلى هذا القَدْر من الخفة والرشاقة وانعدام العوائق- وإذا أحد أحلام صباه يتحقق: وما هي إلاّ بضع سنوات فحسب ويغدو غنيّاً ومستقلاً إلى الأبد.

أمّا ما كتب بلزاك ونشر من كتب غامضة، في سنوات العمل هذه، أي عمل العبودة والسخرة وما اتخذ من أسماء مستعارة، على سبيل الحصر، فذلك ما لاتقدر على تقديم المعلومات الشاملة عنه حتى العُصبة من المختصين. غير أن الروايات التي ينشرها باسم لورد رْهون وهوراس دي سان أوبان، ليست إلاّ جزءاً ضئيلاً من نشاطه المحفوف بالظلام والذي لا يعد مجيداً بحال من الأحوال. وما من شك في أنه كان يمارس الاستثمار بيده في حالة الرواية المصطَنعة (ميشيل وكرستين، والتتّمة)، لرفيقه السالف بواتفان، وبصورة كاملة أو جزئية في حالة (البغل)، التي تصدر باسم أورو كلوتڤو، وما من نوع أدبي، ولا طلب، ولا جماعة كان مُضرِاً بسمعته بين العام الثاني والعشرين والعام الثلاثين، بل كانت ريشته السريعة رخيصة مبذولة، لكل شيء ويمكن الظفر بها مغفلة الاسم. ومثلما كان أولئك الكتاب العموميون (Scribes publics)، الذين كانوا، في أيام الأميّة، يقعدون في الشارع، في ضواحي باريس، ويُدبِّجون، مقابل قروش، ما يرغب فيه عابر السبيل على وجه الخصوص، من رسائل الحب إلى الخادمات، والشكاوى، والالتماسات، والإشعارات، كان أكبر الكتاب في قرنه، يكتب بلا مبالاة ساخرة، بإيقاع يُماشي المقاطع الصوتية (على طريقة جويد وآرتينيوس) للسياسيين الذين تحوم حولهم

الشبهات، والناشرين المغمورين، والعملاء أولي القوة والبأس، ويكتب الكتب والكُتُيِّبات والنشرات بكل حجم، سلعة «مُفَبْركة» رخيصة، بكل أسلوب، وبكل مستوى من مستويات الأسعار، فهو يلفِّق، بالأمر، منشوراً ملكيّاً «حول حق أوَّل المواليد» ويختلس، ويُلَفِّق، كيفما اتفق «تاريخًا نزيهًا لليسوعيين»، ويكتب ميلودراما «العبد الأسود»، وبمثل ذلك القدر من اللامبالاة ينجز أشياء مثل «القاموس الوجيز لعناوين اللافتات في باريس». وفي عام ١٨٢٤ تقوم الشركة المغفلة بتغيير وضع شركة الروايات، بناءاً على الأزمة، إلى ما يسمى بالقوانين والفيزيولوجيات، التي جعل فيها سمسارٌ للأب مثير للشبهات يدعى هوراس ريسّون، هذه القوانين والفيزيولوجيات زِيًا سائدًا (موضة). ويظل المصنع، شهراً بعد شهر، يُخرِج بعمليات مثل إطلاق النار، قوانين أخرى، في صورة ألوان من التسلية والإمتاع المنطوي على الفكاهة بأسلوب متشنج، لصغار المواطنين، ومنها قانون الشرفاء، أو فن عدم التعرض للخداع من قبل النصابين، و«فن وضع ربطة العنق»، وقانون الزواج الذي يتوسع فيما بعد ليصبح «فيزيولوجيا الزواج»، وقانون رجل الأعمال المسافر، الذي سيصبح فيما بعد ذا فائدة لصاحبه الخالد (جوديسار- Goudissart)، و «فن تسديد المرء ديونه، وإرضاء دائنيه من دون أن ينفق قرشًا واحدًا- وهو فن صاحبه المستقبلي دي ميركاديه- Mercadet، الذي لم يتعلمه هو بالطبع طوال حياته أبدًا، وكل هذه القوانين، ومنها أيضًا «المرجع الكامل في اللباقة والتهذيب الذي يوقّع عليه هوراس ريسّون، ويسوِّقه بأكبر منفعة له- وقد بيع من بعض هذه الكتب المصطنعة أكثر من اثني عشر ألف نسخة- ويمكن إثبات أنها كتبت كلها أو معظمها بيد بلزاك. أمّا مقدار ما ألَّف بصورة عَرَضية. من كتيّبات ومقالات صحفية، بل ربما منشورات إعلانية أيضًا فتلك مسألة ما عاد يمكن متابعتها، إذْ لم يكن هو، ولا مُكلِّفوه الذين تحفُّ بهم الظلمة، ينطوون على ميل إلى إضفاء الشرعية في يوم من الأيام على هؤلاء الأنغال الذين تمَّ إنجابهم على سرير قمار التلفيق والتدبيج، أمام الملأ وكل ما يبقى غير متنازَع فيه هو أنه لم يكن هناك سطر

واحد من بين عشرات الألوف من السطور التي لفَّقها بلزاك في سنوات عاره ومهانته تلك، يمتّ بأدنى صلة إلى الأدب، أو الفن، وأنَّ المرء يكاد يتولاه الخجل من أن يعلم أنها ثابتة عليه، ويشار إليه بها.

ألا إنه لعهْرٌ- ولا يستطيع المرء أن ينسب إلى هذه الكتابة صفة غير هذه الصفة، بل هو العهْر الذي يبعث على الرثاء، لأن المرء يُقْدِم عليه من دون هوىً، وبدافع الربح السريع فحسب، وقد يكون في البداية مجرد اللهفة على الحرية، ولكن بلزاك حين تردّى في الهُوَّة ذات مرة، واعتاد هذا الكسب المائع أخذ يعرِّض نفسه للتردّي على نمط مطَّرد الزيادة، وبعد أموال الروايةالضخمة سمح بأن يُستَغَلَّ لقاء تعويض أهون شأنًا، وفي كل أركان ماخور الكتابة التلفيقيّة، شأن المومس الطيِّعة التي يحتفظ بها اثنان أو ثلاثة من أهل الكتابة في وقت واحد، وحتى في الحقبة التي أصبح فيها، عن طريق «الثوار الملكيين» وعن طريق «جلد الحصان» واحداً من عظماء الأدب الفرنسي، وما زال لديه- مثل امرأة متزوجة تنسلَّ في الخفاء إلى بيت من بيوت المواعيد (الفندق الذي يعمل بالساعة) ما يكسبه من مصروف يوميّ مما حوله شأن النساء- فهو يتردد على هذه السلالِم الخلفية، ويتخذ من هونوريه دي بلزاك الذي بات مشهوراً، شريكَ سرير في الكتابة لكاتب مشبوه، كائنًا مَنْ كان، مرة أخرى مقابل بضع مئات من الفرنكات. واليوم، إذْ أصبحت عباءة خَفَاء الهُوِيَّة(طاقية الإخفاء) التي يمارس من روائها هذه الصفقات المشبوهة، رثَّة بالية إلي حد بعيد حتى إنها لتَشِفُّ عما وراءها، بات الناس يعرفون أن بلزاك قد دنَّس نفسه في سنين العار تلك بكل لون من ألوان الدنَّس في الأدب، إذ لفَّق روايات ليست له، ورقَّعها، بمِزَقٍ من مُصْطنعاته، ورقَّع روايات ليست له بِمِزَق من رواياته، ثم عمد، مرة أخرى، إلى سرقة أساطير ومواقف من روايات أخرى من أجل رواياته الخاصة المصطنعة، بسهولة وبساطة، وقام بكل نوع من أنواع التقطيع والتوصيل من دون تردُّد ولا وَجَل، ثم إنه وضع كتبًا ليست له في الصورة التي تحلو

له، ووسَّعها، وحوَّرها، ولوَّنها، وحدَّثها، وقدَّم كل شيء، من فلسفة، وسياسة، وأحاديث مسلِّية، في مطاوعة دائمة لكل طالب، إنه عامل وَشْيٍ، بارع، ليس له من رادع، يُقْبِل مسرعًا على أثر كل صَفْرةٍ من صافرٍ، ويعدِّل مواقفه، في كل مقالة تكون قابلة للاستفادة منها على وجه الخصوص، بسرعة وثبات وتفانٍ. على أن مما يهزُّ النفس أن يفكِّر المرء في نوعية الأُجَراء، والرفاق، والنوع البالي المهترئ من الناشرين الذين يقبعون في الزوايا والأركان المهملة، و الملَفّقين بالجملة الذين كانوا ينضمون إليه في تلك السنين المظلمة، وهو القصّاص الأكبر في قرنه، ولم يكن أكثر من عامل مساعد مُشترىً، مستأجر، من طِراز أحطِّ امرئ من السَّفْلة. وكل هذا لمجرد نقص في ثقته بنفسه، وبدافع من عدم تقدير لا يُدْرك، لقَدْره ومكانته الكامنة.

أمّا أن مثل هذه العبقرية أمكنها أن تخرج سليمة بعدُ، على وجه الإطلاق من مثل هذا المستنقع ذاته، فتلك مسألة تظل تمثل أعجوبة من الأعاجيب التي لا يمكن أن تتكرر في الأدب، أسطورة تكاد تضاهي أعجوبة منشهاوزْن (Münchhausen) الذي انتفض مُنْتَزِعًا نفسه بغدائره من الحَمْأة، وبالطبع فقد ظلّت بعض الأوساخ، في حالة هذا المغامِر الذي ما عاد له عزاء ولا سرور، رائحة معينة معطَّرة بعطر ضارب إلي الحلاوة من تلك الحجرات الماخوريّة في الأدب التي كان هو فيها نزيلاً مداوِمًا. وثمة شيء يظل عالقًا، ويظهر فنان من هذا النوع في أعماق مجاري مياه التصريف في الأدب غير مفتقر إلى التفكير، وتظل موهبته، على نحو لا يخلو من الضرر سنين طوالاً، مشدودة، كما تشد حيوانات الجرّ، إلى هياكل عربات غير لائقة. على أن بلزاك لم يتهيّأ له أبدًا، أن يُخلِّص رواياته بعدُ تمامًا مما في رواية السلالم الخلفية هذه من انعدام العوائق والروادع، وألوان عدم الاحتمال أو عدم الإمكان، وضروب العاطفية الغليظة غير أن سيولة قلمه، والمرور العابر، والسُّرعة، اللواتي عوَّد يده الكاتبة عليهن أيام كتابته المصطنعة، أصبحن طامّةً ووبالاً على أسلوبه، ذلك لأن اللغة تنتقم لنفسها، شأن الغَيْرى، انتقامًا لا هوادة

فيه ولا رحمة، من كل فنان كان لا مباليًا بها وكان يستغلها على أنها مجرد عاهر، من دون أن يكون خطب ودَّها قبل ذلك بصبر ينمّ عن الصدق والحرارة، ولو كان ذلك في بعض الأحيان فحسب. وينتاب بلزاك اليأس، وهو بلزاك الناضج، إذ استيقظ على نداء المسؤولية، في وقت متأخر، يحرث مخطوطاته ويقَلِّب تربتها عشر مرات، بل عشرين، وما عاد من الممكن اجتثاث الأعشاب الضارة منها، إذ أتيح لها أن تَرْبوَ وتترعرع فوق ما ينبغي، وأن تُعَشْعِش في وقاحة جاوزت الحدود في تلك السنين التي لا هَمَّ فيها ولا غم. ولئن ظل أسلوب بلزاك، ولغة بلزاك، طوال حياته، ملَوَّثين على نحو لا سبيل معه إلى انقاذ، فإن ذلك لم يكن، إلاّ لأنه كان في الحقبة الفاصلة من تطوُّره غير نقيٍّ حيال نفسه ذاتها.

أمّا أنه كان يتنكَّر بهذا النوع من فساد الأخلاق، لأناه الحقيقية، فذلك ماكان الإنسان الشاب نفسه يِحسُّ به وهو في غمرة فساده وعَطَنه المتخمِّرَيْن، وذلك أنه لم يضع اسمه على أيٍّ من هذه الكتب المصطنعة، وكان يجادل بعد ذلك مجادلة مريرة في مسألة تأليفه لها، وهي مجادلة أقرب إلى أن تكون جسارة منها إلي أن تمثِّل نجاحًا. على أنه يأبى على الفتاة الوحيدة التي كانت موضع ثقته في صباه، وهي أخته لور، التي تواكب طموحاته الأولى شأنَ المؤمنة المُصدِّقة، أن يكشف لها عن أوَّل أعماله المشتركة، وهو «وريثة بيراغ» إباءاً مطلقًا،

«لأنه يمثل في الأدب قذارة حقيقية»

أمّا رواية «جان لويس» فلا يسلمها نسخة منها إلاّ بشرط:

«أنْ لا تعيرها إلى نفس بشرية، بل لا تكشف عنها مجرد كشف، وأنْ لا تشيد بها بصوت عالٍ، لكيلايشيع أمر النسخة، ومثال ذلك رواية (في بايّو)، ويلحق الضرر بتجارتي».

وهذه الكلمة الواحدة، التجارة، تكشف كشفًا حاسمًا عن الكيفية التي كان بلزاك ينظر بها إلى طريقة كتابته للكتب في تلك الأيام نظرةً خالية من الوهم تمامًا،

وكان، بصفته المُقَدِّم للكتب، يلتزم عن طريق العقد، بأن يُقَدِّم كذا وكذا من الصحائف المطبوعة، وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل، وكان الكمُّ وحده هو المهمّ بالنسبة للعطاء، وكان العطاء، مرة أخرى، هو وحده المهمُّ بالنسبة إليه، بل يبلغ من قلة اكتراثه، في لهفته على البدء بسَفْر ضخم جديد على وجه السرعة، بالمشكلة الفنية الخاصة بالإنشاء والأسلوب ووحدة الموضوع، والأصالة في رواياته، أنه يتقدم إلى أخته بالاقتراح التهكميِّ، وهو أن تقوم، بحكم كونها غير مشغولة بشُغْلٍ شاغل، بكتابة المجلد الثاني من روايته (والي إقليم الآردين)، بالتصرُّف العابر في المضمون، بينما يتولّى هو إنجاز تلفيق المجلَّد الأول. ولا يكاد يغدو صنّاعًا للروايات حتى ينظر حواليَهْ باحثًا عن آلات للعمل رخيصة، وأخذ يعمل جاهدًا، وهو الذي كان، هو نفسه، ما زال «عبدًا» لآخرين، على أن يُؤَمِّن لنفسه مثل هذا العبد «الأسود»- أي المتعاون «غير المرئي»، ولكن في لحظات اليقظة النادرة، التي تتخلَّل العمل البهيميّ يرتفع صوت الضمير مع ذلك: وذلك أنه لم يَمُتْ كلَّ الموت.

ويقول متنهِّدًا: «أوّاه، يا عزيزتي لور، إني لأبارك في كل يوم سعادتي باللجوء إلى هذه المهنة الحرة، وإني لعلى يقين أيضًا أنني سأكسِب من ورائها مالاً، ولكن الآن، إذ أعتقد أنني أعرف طاقاتي، أشعر بالندم البالغ على أنني اضطررت إلى تبديد زهرة أفكاري على أمثال هذه الألوان من العبث، وإني لأرى بعين الفكر شيئًا ماثلاً أمامي، ولو كان من الممكن أن أشعر بالاطمئنان إلى وضعي المادي... لكنت خليقًا أن أعمل في كتب لائقة محترمة».

ومثل بطله لوسيان دي روبمبريه، الذي يصف من خلاله، فيما بعد، سقوطه هو، وهو السقوط الذي يحل محلَّه إنقاذ النفس في النهاية، يحسّ هو بعار يستَعِرُ في نفسه، وينظر محملقًا بِرِعْدة كرعدة الليدي مكبث، إلى يديه الملوَّثتين:

«إنها محاولتي تحريرَ نفسي عن طريق حيلة قائمة على القَسْر، وهي أن أكتب الروايات- ويا لها من روايات! أوّاه يالور، ما أشدَّ ما يبعث عليه انهيار مشروعاتي المجيدة من التفجُّع!»

وكان، وهو يكتب، يزدري ما يكتب، ويزدري السماسرة الذين يكتب من أجلهم، ولم يكن يهب له القوةَ إلا تقديرهُ غير المستيقن، أنه لا بُدّ أن يصل بهذا الجهد الذي هو فوق مستوى البشر، آخر الأمر، إلي هدف عظيمٍ ما، كائنًا ما كان- أي عظمته الخاصة، إنه يهب له المقدرة على احتمال عمل السُّخرة الباعث للرثاء، وهو العمل الذي باع نفسه له، ومثلما يحدث دائمًا، يتولَى الوهمُ إنقاذَ هذا الذي هو الأكثر صدقًا وأصالة بين الإنسانيين قاطبة، من الواقع.

وفي أثناء ذلك يكون هونوريه دي بلزاك قد بلغ من العمر ثلاثًا وعشرين سنة، وكان قد عمِل فحسب، ولم يعِشْ بعد، ولم يُحبّ، ولمّا يعثر على أحد يحترمه، ويساعده ويثق به. أما في الطفولة فكان في المدرسة رقيقَ الدولة السبارطيّ، وعبداً من عبيد أسرته، ثم يبيع شبابه من أجل أجر جدير بالازدراء، لمجرَّد أن يُكدِّس المال الذي يفتدي به نفسه من الاضطرار إلى العمل، فهو يعمل بالسُّخرة ليُحررِّ نفسه من السُّخرة، وهذا التناقض المأساوي سوف يظل منذ الآن فصاعداً، صورة حياته وصيغتها، إنها الدورة ذاتها المترعة بالعذاب دائماً: أن يكتب لكيلا يُضْطَرَّ إلى الكتابة بعد هذا، وأن يكدِّس المال، والكثير من المال، والمالَ الأكثَر بعدُ أيضًا لكيلا يُضطَرَّ مِنْ بَعْدُ إلي التفكير في المال، وأن يعتزل العالم لكي يغزوه غزواً أكثر يقينًا، من باب أولى، بكل بلدانه، ونسائه، وترفه، وإكليل تاجه، ومجده الخالد، وأن يقتصد ويوفِّر ليستطيع في النهاية أن يُبَذِّر، وأن يعمل، ويعمل، ويعمل، نهاراً وليلاً، ومن دون توقُّف، ومن دون بهجة أو مسرَّة، لكي يعيش الحياة الحقيقية أخيراً-، وهذا هو، منذ الآن، فصاعداً، حلُم بلزاك الجامح الذي يثير الأعصاب، والذي يستحثُّ العضلات بسوطه، إلى العمل الذي يتجاوز

طاقة الإنسان. وما زال الفنان الكبير في خِضَمّ هذا العمل، لا يمكن تمييزُهُ أو التعرُّف عليه، ولكن بات من الممكن تَبَيُّن الطاقة الثَّوْرانية في إنتاجه، تلك الطاقة التي ما تفتأ تقذف، على الدوام، وبغير توقُّف، بالكتلة الناريّة، من بشر وشخصيات، ومصائر، ومناظر طبيعية، وأحلام وأفكار، ومثلما يحدث في حالة بركان، يحسّ المرء، أن هذه النار المُنْسابة ليست انبثاقًا من السطح الخارجي، بل هي تفريغ لشحنة، وتَخَفُّفٌ من عبء الأعماق الخفيّة، إنها طاقة تضاهي قوة طبيعية عظمى، مُعَوَّقة، محشورة، تكاد تختنق بفيضها هي، تريد أن تتحرَّر، ويحس المرء كيف يصارع هذا الإنسان الشاب، في مسيرة عمله المظلمة تحت الأرض، صِراع العاصفة الجامحة، ليرتطم بالنور، وليتنفَّس الهواء، هواء الحرية، القويَّ المُغْوي-، وكيف يرغب، رغبة مُطْلَقَة العنان، في أَنْ لا يكتفي دائمًا بمجرَّد اختراع الحياة، بل برغب في أن يدع الحياة تعثر عليه، لقد تمَّ الظَّفر بالمقدرة على العمل: وما عاد ينقصه الآن إلاّ رحمة القدر إلى جانبها. شعاع من الضوء، وسوف يزدهر كل شيء يهدِّد بأن يجف وينتابه العطَن، في هذا السجن البارد.

«ألا ليت أحداً من الناس، كائنًا من كان، يلقي بشعاع سحريٍّ على هذه الحياة المتجمِّدة! أنا ما زلت لم أتمتَّع بزهرة من زهرات الحياة ... إني أجوع، وما من شيء يُتاح لشهيَّتي، فماذايصنع هذا؟ ليس لديَّ سوى اثنين من الأهواء: الحب والمجد، وما من واحد من هذين وجد إشباعًا له حتى الآن».

الفصل الرابع

مــدام دي بيــرنــي

ولم ير بلزاك، من هذين الإثنين من «الأهواء»، هوى الحب، وهوى المجد، لا هذا ولا ذاك، متحققًا. وكانت عاجزةً كلُّ أحلامِه المطلقة العنان، وعبثًا كانت المحاولات ذات الهوى الجامح. أما مسرحية «كرومويل» التي أعدَّها ليقدِّمها إلى «ملكة هذه الأرض» فتعلوها الصُّفرة، مدسوسة في دُرْج، بين أوراق أخرى لا قيمة لها، ومنسيّة، وأمّا الروايات البائسة التي يظل يدونُها على عجل وفي إتقان مرة بعد أخرى، فتظهر وتتوارى بأسماء غريبة، وما من أحد في فرنسا، لا أحد يعرف من بين مؤلفي الكتب في البلاد البالغ عددهم خمسة آلاف، اسم رجل يقال له هونوريه دي بلزاك، وما من أحد يحترم موهبته، أما هو نفسه فأقل الناس تقديراً لها، ولم يُجْده فتيلاً أنه انحنى انحناءة شديدة تحت مستوى قدره الطبيعي، لكي يتسلّل من باب القبو، على الأقل، إلى أسوأ منزل من منازل الأدب سمعة، وهو التدبيج السُّوقيّ والتلفيق، ولا يجديه فتيلاً أنه يكتب أيامًا ولياليَ، ويكتب ويكتب، بذلك العناد والجَلَد اللذين يتّسم بهما جُرَذٌ جائع يريد أن يظل يُنَقِّب بالقَرْض مطلقًا، في حجرة الطعام التي يشعر برائحتها المُغْرية تستعر حتى تبلغ أحشاءه. على أن أشد المجهودات هَوْلاً لم يتقدم به خطوة واحدة إلى الأمام.

ولم تكن مصيبة بلزاك الكبرى في تلك السنين، بحال من الأحوال، نقصًا في الطاقة- إذ كانت هذه تَغْتلي فيه متجمعة ومُخَزَّنة، بل كانت نقصًا في الجرأة. وذلك أن بلزاك يتمتَّع بطبع الفاتح، وبإرادة فرض نفسه، وحتى في الساعات

النادرة، ساعات الانكسار والقنوط، يعرف أنه متفوّق على كل أقرانه في الفكر، والنشاط، والمعرفة، بما لا يقاس. ولكن ربما كان لا يعرف، إذْ أَضَرَّ به استحواذ الخجل عليه من جرّاء موقف الأسرة منه، وهو في موقفه المتميِّز بالأمن، كيف يشق الطريق لجرأته الكامنة هذه: «والحق أنني كنت جريئًا، ولكن في سريرتي فحسب، لا في سلوكي».

وحتى عامه الثلاثين لن يجرؤ على الرسالة اللائقة به بحكم كونه فنانًا ولن يجرؤ، في حياته الخاصة، وبحكم كونه رجلاً، على التقدُّم إلى المرأة. وإلى هذا الحدّ يبدو التصورُّ أوّل الأمر شائهًا: وذلك أن الرجل الماجن المستهتر، والمتهورِّ المندفع، كما سيكون فيما بعد، كان خلال كل حقبة صباه وجِلا، هيّابًا إلي حد يوشك أن يكون مَرَضِياً.

غير أن الوجل لا يكون صادراً عن ضعف بالضرورة، دائمًا، ولا يتسم بالاطمئنان والثقة بالنفس حقًا(إلاّ الإنسان الذي بات متوازنًا، ثم إن القَدْرَ الزائد من الطاقة غير المستعملة، والتي ما زالت لا تعرف ماذا تصنع بنفسها، يسْهل عليه أن يُوردَ النفس، بصدماته العنيفة، مواردَ التَّقلُّب والتذبذب: التذبذب بين التعاظم أمام نفسه ذاتها وبين الخوف، في الوقت ذاته، من الاعتراف أمام الآخرين، بهذه الطاقة التي لمّا تكتسب صفة المشروعية، على أن الفتى بلزاك يتحاشى النساء لا عن خوف من الوقوع في الحب، بل على النقيض من ذلك، أي لأنه يوجس في نفسه خيفة من عنفوانه هو- يتحدث بنفسه عن «بلوغٍ مدَّ في أجله إلى حد الإفراط، العملُ» وعن رجولته، «التي لم تكن تُطِلُّ بدوافعها الخضر الفتية إلاّ على تردُّد وتهيُّب».

ومع ذلك فهي تُخَضِّب بدمها الفتى المربوع القامة، العريضَ المنكبين، وذا الشفتين المكتنزتين إلى حد يكاد يضاهي شفاه الزنوج، بعنفوان يبلغ منه أنها تهب له أقوى طاقة جنسية يمكن أن يُؤْتاها رجل، على الإطلاق: إنها المقدرة على عدم

الاختيار أو التمييز. بلزاك، بحكم كونه إنسانَ حواسٍ وإنسان خيال، لا يحتاج من المرأة إلى الشباب أو إلى الفتنة. وذلك أن ساحر الإرادة هذا، الذي يصف لنفسه، في سنوات جوعه، وجبة على منصة الكتابة، وهو يعتقد أنه يتذوق الكافيار والفطائر المحشوَّة باللحم بينما يفتِّت بين أسنانه خبزاً مخبوزاً منذ عهد بعيد، هذا الرجل يستطيع، ما دامت إرادته تلعب دورها، أن يرى هيلين في كل امرأة، وحتى في هيكوبا (والدة هكتور) فلا العمر المتقدم الذي يضاهي عمر أهل الكنائس والرهبان. ولا فساد الملامح، ولا البدانة، ولا أي مظهر آخر من مظاهر عدم الاستقامة في الشكل، مما كان خليقاً أن يُحيج شهوانياً انتقائياً إلى لفتة توراتية كلفتة يوسف، يَعْنين بالقياس إليه عوائق. وذلك أنه سيحب حين يشاء أن يحب، ويأخذ ما يحلو له وما يشتهي، ومثلما كان الكاتب، مستعداً لإعارة قلمه بغير اختيار لكل أهل القذارة من البشر، كان مستعداً، بصفته رجلاً لأن يربط نفسه بأي امرأة تحرره من استعباد أسرته له، سواء أكانت حسناءَ أم دميمة، محدودة الأفق أم مشاكسة، وكانت اللواتي يخطب ودَّهن في المقام الأول، شأن كتبه، مُغْفلاتِ الاسم تماماً. ويكتب هذا المثالي الغريب، في عامه الثاني والعشرين إلى أخته، قائلاً:

«فالتمسي لي أية أرملة غنية، ذات ثروة... وأَثْني عليّ: في الثانية والعشرين. فتى طيب، حسن المظهر، في عينيه حيوية، وهما مترعتان بالنار! وهو أفضل فطيرة محشوَّة باللحم تُعدُّها السماء في صورة زوج لها في أي يوم من الأيام.

ومثلما كان هونوريه بلزاك في تلك الأيام رخيصاً حين يراد شراؤه في محالِّ تجار الكتب في حي القصر الملكي، كان يمكن شراؤه رخيصاً في سوق الزواج، لأنه يكاد يحدد قيمته بالصفر، ولن يؤمن بلزاك بنفسه قبل أن يشجعه إنسان واحد. وما هو إلاّ ناشر، أو ناقد يعده بالنجاح، أو امرأة تهب له ابتسامة، ويزاوله الوجل، غير أن المجد لم يرغب فيه، والنساء لم يحترمنه، ولذلك فهو يريد، على الأقل المتاع الثالث على هذه الأرض: المال، وبذلك يحصل على الحرية.

أمّا أن النساء لم يشجّعن الطالب الفتى المغفل الاسم على نحو خاص، فذلك أمر مفهوم في حد ذاته. ويبدأ ڤينيي وصفه المعاصر بقوله: «فتى غض الإهاب، شديد الدمامة» ومثلما يهمل موهبته يهمل أيضًا مظهره الخارجيّ في تلك السنين، وحتى رفاقه من الذكور يلاحظون بعدم ارتياح، الدهن الشحميّ المكتنز على ناصيته، والأسنان الرديئة التي تنثر اللعاب عند الحديث السريع، وعدم حلقه شعره، وربطات الحذاء المحلولة، وحتى الخياط الريفي من تور الذي تقع عليه مهمة تغيير حلل الأب المهترئة لكي تَصلُحَ له، لا يستطيع، مع وجود هذا النحر العريض الذي يضاهي نحر الثور، والمنكبين الضخمين، أن يجعل الثوب ينتهي إلى غايته بحيث يكون له خصر يماشي الزيّ السائد. وبلزاك يعلم أن بدانته المقترنة بقصر ساقيه، منذ الولادة تجعله مضحكًا حين كان يحاول أن يتغَنْدَر في حركاته مثل أهل الأناقة في عصره، أو يتجرأ على الرقص في حلَبَة الرقص، وهذا الشعور بالنقص أمام النساء يحمله، المرة بعد الأخرى، على الهرب عائداً أدراجه إلى منصة عمله الوحيدة. وما تجدي «العين النارية» ما دامت تتراجع على الفور لتتوراى في وَجَل تحت الجفنين بمجرد أن تتقدَّم منه امرأة جميلة؟ وما قيمة الفكر والمعرفة، والفيض الداخلي، إذا كان لا يجرؤ على الكلام، ولا يخرج إلاّ ببضع كلمات متُلَجْلجة مترددة، على حين يعرف الآخرون، الذين هم أغبى منه ألف مرة، كيف يتزلَّفون ويتودَّدون بالعبارات المرنة المِطْواعة، ويعرف الإنسان الفتى أنه يستطيع أن يتحدث حديثًا أفضل ألف مرة، وأن ضروب المقدرة على الإغواء والإسعاد الشهواني، والجنسي أيضًا هي عنده أكثر عنفوانًا بما لا يقبل القياس، مما هي عند هؤلاء الغلمان المتجمّلين الذين يستعينون في النظر بالنظارات ذوات اليد وقد أحسنوا شدَّ ربطات عنقهم. لقد كان وهو في غمرة جوعه إلى الحب التي لم يتحقق له فيه إشباع، خليقًا أن يكون مستعداً لأن يتخلى عن كل أعماله المستقبلية وذكائه وفنه، وفكره، ومعرفته مقابل هذا الفن الآخر، الذي يمكّنه من أن ينحني بهذه الرقة وبنظرات تلتمع التماعًا، على سيدة، ويُحِسَّ، مع هذا الانحناء، بالرعدة اليسيرة في كتفيها،

ولكن لم يُقْسَم له شـرارة ضـئـيلة من أمـثـال هذه الضـروب من النجـاح، وهي الشـرارة التي كانـت خليقة، مع قوة خياله، أن تتحوّل على الفور إلى شعلة تضيء بنورها عالمًا بأسره. على أن نظرته لا توحي إلى النساء إلاّ بمقدار ما يوحي اسمه إلى الناشـرين، وبلزاك نـفسـه هو الذي يدع بطله رافائيل يصف هزائم صـبـاه في رواية «جلد الحصان»:

«وكانـت نفسي التي ما تفتأ تتعرَّض للإعاقة ويُحال بينها وبين الإعراب عمّا فيـها، تنغلق على ذاتها على نحـو مطرد الزيادة. وكنت، وأنـا الصريح والطبيـعي بحكم البيت الذي خـرجت منه، أضطر إلى أن أوحي بأنني، مع ذلك، بارد وغير طبيعي، وكنت وجِلاً، أعْسَر وكـانت تراودني الشكوك في احتـمـال أن يكون صـوتي هو الذي يـحـدث الأثر الأكـثـر ضآلة على الإطلاق، وكنت لا أستطيع أن أحتـمل نفسي ذاتها، ووجدت أنني كنت دميمًا، وبتُّ أشعر بالخجل من نفسي، وعلى الرغم من ذلك الصـوت الـداخلي الذي يظـل يحـافظ على بقـاء الموهوب في مـحنه، والذي كان يصيح بي قائلاً «عليكَ بالجرأة! وإلى الأمام!- وعلى الرغم من الإيحاءات التي كـانت تكشف لي، بأسلوب البرق الخاطف، عن ماهية الطاقة التي أملكها، وعلى الرغم من الأمل الذي كـنت أستـمـده عندما أقارن أعمـال اليوم التي كان الجـمهـور يعجب بها، بالأعمـال الفنية النـاشئة عن خيالي: كنت مضطربًا فاقد اليقين، شـأن الطفل، وكنت فـريسـة لأشد المطامح جـمـوحًا على الإطلاق. وكنت أعتقد أنني مندوب لأمور عظيمة، وكـنـت أحس في الوقت ذاته بتفاهتي ... ولقيت بين الشـبـاب الـذين هم في مـثـل سنيّ طائفـة من أهـل التبـجُّح يُطَوِّفـون في البـلاد مرفوعي الهـامات، ويتحـدثـون بحديث لا يفيد شيئًا، ويقـعـدون إلى جانب النسـاء من دون أي عـائق. وقـد أثرّ فيّ هؤلاء أكـثـر ممن عـداهم على الإطلاق، بألـوان قلة الحيـاء التي قـدَّمـوها وترنَّمـوا بهـا، وبالأسلوب الذي كـانوا يقـضـمـون به رؤوس عُصِيِّهم الصـغـيرةوبثرثـرتـهم المُزَوَّقة، وكـانوا يمارسـون في أحـاديثـهـم، الدعـارة مع

أجمل النساء، ويزعمون أنهم ضاجعوا كل امرأة، أو يتظاهرون بذلك على الأقل، ويمثلون في الوقت ذاته دور ذوي المقام الرفيع الذين لا تعني أمثال هذه الملذّات شيئًا على الإطلاق في الحقيقة بالنسبة إليهم. وأكثر النساء فضيلة وعفة في أعينهم ليست سوى فريسة سهلة- إذ يستطيع المرء أن يغزوها بكلمة بسيطة، بلفتة جريئة يسيرة، بأول نظرة وقحة! وإني لأصرّح لك بشرفي وضميري: في تلك الأيام بدا لي الظفر بالقوة والسلطان أو المجد الأدبي أقل صعوبة من التغلُّب على سيدة شابة ظريفة ساحرة ذات مكانة ... وقد رأيت في تلك الأيام من النساء ما يكفي، نساءاً كنت أعبدهن، وكان قلبي خليقًا أن يكون تحت تصرفهن، من أجل كل اختيار-، وكان في وسعهن أن يمزّقن نفسي إربًا، وما كانت طاقتي لترتدع عن أي تضحية أو أي عذاب، وكُنَّ تابعاتٍ لأناس مُحَمَّقين مأفونين لا أريد أن يكونوا حُجّابًا لديَّ... وما من شك في أنني كنتُ مفرطًا في السذاجة بالقياس إلى هذا المجتمع المصطنع الذي يتحرك تحت ضوء مصطنع والذي يخرج كل أفكاره في ثوب من العبارات التقليدية أو في تعبيرات تماشي الزيَّ السائد، ولم أكن أعرف، لا أنْ أحملَ صمتي على الكلام، ولا أن أخلد إلي الصمت وأنا أثرثر، وكذلك لم يكن لي بدٌّ آخر الأمر أن أكبت النار التي كانت تأكلني، في صدري. وكان لي مع ذلك نَفْس كتلك النفس التي تستطيع النساء أن يرغبن فيها فحسب، نفس مترعة بتلك الحماسة التي تتوق أنفسهن إليها. لقد كنت أتمتع بالفعل بتلك القوة التي يباهي بها أولئك الأغبياء فحسب- غير أن كل النساء كُنَّ يعاملنني بمكر وقسوة... أوّاه، يا لروعة الشعور بأن المرء ولد من أجل الحب، وأنه مندوب لكي يُسْعِد امرأة، وأن لا يجد إنسانًا، ولا حتى امرأة جريئة ونبيلة، أو أية مركيزة جنحت إلى الشيخوخة يمتنعن عليه! أن يأخذ هؤلاء كنوزًا معه في كشكول تسوُّله وأن لا يلقى أحدًا، ولا حتى طفلة، أو أية بنت صبية فضولية يمكنها أن تستحسنه، تمتنع عليه. لقد طالما وددت لو أنني أنتحر من اليأس.

ولكن حتى المغامرات الأسهل، التي يجد فيها الشباب في العادة تعويضًا عن غرامياّتهم التي حَلِموا بها، يُحْرَم منها، ففي بلدة ڤيليبا ريزي الصغيرة تضعه الأسرة

تحت رقابتها، وفي باريس تمنعه الكمبيالة الشهرية الناجمة عن الإفلاس حتى من دعوة أكثر الفتيات بؤسًا إلى مأدبة عشائه.

ومع ذلك فكلما ازداد ارتفاع السَدّ ازدادت قوة ضغط الموجة التي تتصدى له وهو الضغط الذي يعتزم أن ينسفه. ويتمكن بلزاك حينًا من الزمن، من كبت هذه الرغبة في النساء والملاحظات عن طريق عمل قائم على الخيال. وفي رواياته ينغمس في بدائل الواقع، ويُفْتَتَن ببطلاته - المبتذلات حقًا. غير أن هذا الخيال- وهذه حلقة مفرغة- لا يغذي فيه سوى العنصر القابل للالتهاب. وفي عامه الثاني والعشرين يكون بلزاك مُتْرَعًا برغبة مُصَعَّدة على الدوام. وتكون هناك طاقة حب لا حدَّ لها، لا تنتظر سوى الباعث الأول، لتنغمس في الشهوات. لقد ولَّت أيام ممارسة الأحلام المشوَّشة، الداخنة، المترعة بالعذاب، وما عاد بلزاك يحتمل وحدته، وبات يريد أن يعيش، آخر الأمر، وأن يحب، ويريد أن يُحبّ، وحيثما يَزُجُّ بلزاك بإرادته في اللعبة، يبتدع من ذرّةٍ من الهباء لا نهايةً.

وقد دأبت الأهواء التي تُختَزَن وتُرَدُّ على أعقابها بسَدٍّ أو حاجز، على أن تؤمن لنفسها اختراقًا، شأنُها في ذلك شأن العناصر الطبيعية الأخرى، كالهواء والماء والنار، حين يُدْفَع بها إلى نقطة الضغط الأقصى. ويكون الاختراق في الموضع الذي هو أبعد ما يكون عن التوقع. على أن تجربة بلزاك الحاسمة تبدأ في المدينة الصغيرة، وتكاد تكون في ظل المنزل الأبوي الذي يكون في العادة بالغ الانتباه، وتشاء إحدى المصادفات أن يكون مُقام أسرة تدعى أسرة بيرني في باريس إلى جانب المسكن الثاني لأسرة بلزاك، وأن يكون لها، على نحو مماثل بالضبط لهذه، منزل صيفي في ڤيلباريزي. وسرعان ما ينجم عن هذا معرفة أوثق يحق لأسرة بلزاك المنتمية إلي البورجوازية الصغيرة أن تَعُدَّها شرفًا لا يُسْتهان به، وكان المسيو غابرييل دي بيرني، وهو ابن محافظ حقيقي، وكان نفسه مستشاراً في البلاط الأمبراطوري، ينتمي إلى أسرة من النبلاء طيِّبة، ولم يكن أصل زوجته التي هي أصغر منه سنًا إلى درجة لا يستهان بها، من الدم الأزرق تمامًا، غير أنها كانت مقابل

ذلك أكثر جاذبية وأدعى إلى الاهتمام. وقد أتيح لأبيها، فيليب يوزيف هِنَّر، الذي ينتمي إلي أسرة ألمانية قديمة من الموسيقيين، من ڤيتسلار، أن يتمتع بحماية خصوصية من لَدُنْ ماري أنطوانيت التي تسوق إليه وصيفتها الخاصة، مارغريت دي لابورد، زوجة. وبعد موت هِنَّر المبكّر- إذ مات في عامه الثلاثين- لا يزداد الارتباط بالأسرة الملكية إلاّ وثوقًا لأن الأرملة تتزوَّج، في زواج ثانٍ، الشيڤالييه دي جارجيل، أكثر الملكيين جرأة، وهو الذي يثبت في وقت الخطر أنه الأكثر إخلاصًا بين كل المخلصين، ويحاول، وهو عائد من كوبلينتس، المستحيل، وهو أن يحرر الملكة السجينة من سجن قصر العدل في باريس. وكان سبعة أطفال، بينهم بنات في مثل جمال الصُّوَر، وصبيان وسيمون، يملأون البيت الريفي الفسيح حياة وبِشراً. وكان يمارس هناك الضحك وتبادل النكات، واللعب والحديث الذكيّ، ويعمل السيد بلزاك جاهداً على تسلية السيد الذي بات منذ إصابته الآخذة بالازدياد، بالعمى، على شيء من التجهُّم، وبات شكله مضحكًا. أما السيدة بلزاك فتعقد أواصر الصداقة مع السيدة التي تقاربها في السن، وتعد، على النحو ذاته، ذات طبع رومانسيّ إلى حدٍّ ما. وتصبح لور بلزاك رفيقة لعب البنات الصغيرات، ويكون من المصادفات الممتازة أن يجد القوم لهونوريه أيضًا استخدامًا مناسبًا. ولمّا كان والداه لا يجدان نشاطه الأدبيّ بالغ الأهمية، وكان من الواجب على الفتى العاطل الذي لا يصلح لشيء أن يؤدي شيئًا ما نافعًا مقابل مأواه ومائدته، على الأقل، فقد حثّاه على أن يُعلِّم أخاه الأصغر، هنري في الساعات التي لا يعمل فيها في روايته، ولمّا كان ألكسندر بيرني في سنٍّ مماثل إلى حد بعيد، فلم يكن هناك شيء طبيعيّ أكثر من أن يعطي هذه الساعات لكليهما بصورة مشتركة. وكذلك يتردد ابن الثانية والعشرين الذي يرحِّب بكل باعث يدفعه إلى أن يدير ظهره لمنزل عائلته، مرات أكثر فأكثر على المنزل الصيفي المريح الذي يشيع فيه المرح والبِشْر عند آل بيرني.

وسرعان ما تأخذ تلفت نظر أسرة بلزاك بعض الأمور: وأولّها أن هونوريه يَؤم آل بيرني حتى في الأيام التي لا يعطي فيها دروسًا، وينفق هناك فترات كاملة من بعد الظهر وفي الأماسيِّ، ثم يلفت نظرهم أنه يرتدي ثيابًا فيها مزيد من العناية، وأنه يغدو أقرب منالاً وألين عريكة، وأكثر ودًّا على نحو ظاهر. أمّا أمه فلم يكن اللغز بالقياس إليها صعب الحل. وذلك أن فتاها هونوريه وقع في الحب، ولا يمكن أن تكون المسألة حب مَنْ. كان لمدام دي بيرني، إلى جانب ابنتها التي تزوَّجت، ابنة صبيّة جميلة جمال الصُّوَر، هي إيمانوئيل- «كانت ذات جمال فاتن، زهرة هندية، كما يكتب بلزاك قائلاً بعد عشرين عامًا- ولم تكن تصغره إلاّ بشيء يسير. وتبتسم أسرة بلزاك ابتسامة الرضى من دون أن تنبس ببنت شفة، فما كان هذا ليبلغ قدراً كبيراً من السوء، وكان أقرب الأمور إلي العقل ما بدأه حتى الآن هذا الفتى الذي لا يمكن أن تفوت النظر رؤيته، لأن أسرة دي بيرني أعلى من مرتبتها هي كثيراً، وهي موسِرة حقًا، وهو الأمر الذي لن تتجاهله الوالدة بلزاك أبدًا، وذلك أن هونوريه خليق إذا أتيحت له امرأة من أوساط ذات نفوذ، أن يصل على الفور إلى مركز يدر عليه أموالاً، وهو مركز يُعَدُّ، فضلاً عن ذلك، أدعى إلى الاحترام من أن يلفِّق لصغار الناشرين روايات الصدمات، وهكذا يشجعون، بغمزات هادئة من العيون هذه العلاقة الحميمة الباعثة للبهجة، وكانت الوالدة بلزاك تفكِّر، على الأرجح، في هدوء وسكينة، في رقم الدوطة التقريبي، في عقد الزواج الوشيك. وهي تحلم بعقد زواج هونوريه بلزاك وإيما نوئيل دي بيرني مُزْدانًا بكل التوقيعات من قبل ذوي القربى من كلا الجانبين.

ولكن كانت الطامّة بالقياس إلى بلزاك الأم، أنها لم تكن أبدًا على وعي بما هو جوهري في ابنها، وهي تعمل جاهدة، بصدق وإخلاص، على تقدم ابنها، بأسلوب تَوَجُّهها ذي السمة البورجوازية الصارمة. وحتى في هذه المرة لم تُوَفَّق على الإطلاق، وذلك أن التي سحرت هونوريه ليست الصبيّة الساحرة إيمانوئيل دي

بيرني، بل الأم، وهي التي باتت جَدَّة بسبب ابنتها المتزوجة- لوردي بيرني. ولم يكن من الطبيعي أن يقدِّر المرء في هذه المرأة الإمكانية التي هي أقل الإمكانيات رُجحانًا على الإطلاق، وهي أن تتمكن امرأة ذات خمسة وأربعين حَوْلاً، أنجبت تسعة أطفال، من أن تبث نار الهوى والغرام بعدُ. أمّا مسألة احتمال أن تكون مدام دي بيرني في مقتبل عمرها جميلة، فذلك أمر ما عاد من الممكن تقريره بسبب الافتقار إلى الصور الوثائقية. والأمر المُستيقَن فحسب هو أنها باتت في عامها الخامس والأربعين قد تجاوزت تجاوزاً بعيداً الحدود التي يمكن عندها أن تتوجه إليها الرغبة الشهوانية بالنسبة إلى رجل طبيعي. ولئن كان من الممكن أن تحدث رقة الملامح المشوبة بمسحة من الكآبة الميلانخولية عندها أثرًا جذّابًا فإن الجسد قد جنح إلى الترهُّل منذ عهد بعيد، وانحلَّ جانب المرأة فيها كل الانحلال متحوِّلاً إلى الجانب الأموميّ، ولكن هذا الأمومي على وجه الخصوص، أيْ ما ظل بلزاك طوال طفولته يتوق إليه من أمه ولكن عبثًا، سيكون هو الذي يلتمسه في هذه الصورة ويعثر عليه. لقد جعلته الغريزة الخفية الدفينة التي ترافق كل عبقري في طريقه شأن الملاك الحارس، يدرك أن الطاقة التي تلازمه من الداخل تحتاج إلى القيادة والتوجيه، وتحتاج إلى يد خبيرة ومُحِبّة تحلُّ التوترُات أو تخفِّف من حدَّتها، وتصقل ماهو خَشِن فيه وتُهذِّبه من دون أن تجرحه. إنه يحتاج إلى تلك التي تشجِّعه وتدلُّه في الوقت ذاته على الأخطاء، ولكن بطريقة ليس فيها خبثُ طويَّةٍ مُحْرِج، بل بطريقة تنطوي على العون والنجدة والمشاركة في الإبداع، وتحاول أن تفكِّر معه، ولا تضحك من أحلامه العارمة الفيّاضة على أنها محض جنون. لقد باتت الحاجة التي لا يعوقها مُعَوِّق، إلى التوسُّع، والرغبة العاصفة، في الإفصاح عمّا في نفسه، وهي الرغبة التي كانت أمه تُحسّ بها إحساسها بتعاظم هائل، تستطيع آخر الأمر أن تتحرَّر في إطار من الثقة، لدى هذه المرأة التي كانت، وهي التي تكاد تعدل أمه في السن، تصغي إليه بعينين ذكيتين، طيبتين، تنطويان على الاهتمام عندما كان يحلم أحلام اليقظة بمشروعاته النارية بين يديها، وكان من شأنها أن تصحِّح الألوان

اليسيرة من حالات عدم تمكُّنه من نفسه وقلة براعته وارتباكه وقلة لباقته بأسلوب مُرْهف، ولكن ليس بالطريقة التحكمية الصارمة، طريقة أمه، بل كانت تُشَكّله بهدوء، وتربيّه بحذر، وكان من شأنها أن تقيم أَوَد ثقته المتردِّية، بنفسه بمجرد هذا الانحناء والإقبال المُسْعِف المُصْغي. وفي روايته «مدام فيرمياني» يصف سعادة هذا اللقاء الفكري:

«هل أتيحت لكَ ذات مرة سعادة اللقاء بامرأة يضفي صوتها المتناغم على الكلمات سحراً ينتشر على كل سلوكها بالقدر ذاته؟ امرأة تعرف كيف تتحدث وكيف تسكت، وتستحوذ على المرء برقة كاملة وتختار كلماتها اختياراً موفَّقًا، وتتحدث بلغة نقية؟ وألوان مُزاحها كالمداعبات، على أن نقدها لا يجرح، وهي لا تتعامل مع الأشياء بروح من حب المشاكسة، بل تكتفي بتوجيه حديث ووَقْفه في وقت مفترض، وهي تتصرف تصرفًا لطيفًا مصحوبًا بالابتسام، وليس في تهذيبها شيء من التكلُّف أو الافتعال، وإذا اجتهدت في أمر لم يتطرَّق إليها خوف مفرط أبداً، أما الاحترام الذي لابُدَّ للمرء أن يولِيَها إياه، فلا يكون أبداً أكثر من مجرد ظِلّ حلو. وهي لا تتعبك أبداً، وهي تغادرك راضيًا عنها وعن نفسك، وهذا السحر الظريف تجده مطبوعًا في كل الأشياء التي تحيط بها نفسها. وفي منزلها يتملق الأنظارَ كلُّ شيء، على أن الهواء الذي تتنفَّسه يبدو لك هواء ديارك. وهذه المرأة طبيعية. وما من شيء تفعله يكون مصحوبًا بالإجهاد، ولا ترتدي ثيابها للعَرْض، ثم إنها تعبِّر عن مشاعرها ببساطة، لأنها تحسُّ إحساسًا صادقًا ... وهي رقيقة الحس طَلْقَة الأسارير، تواسي بطريقة تلقي الإعجاب على وجه الخصوص، ولسوف تحبها حبًا يبلغ من عمقه أنك ستكون مستعداً لأن تجد أنها على حق عندما يُقَدَّر لهذا الملاك أن يرتكب خطأً ما.

ثُمَّ في أي جوٍّ مختلف جديد يدخل هو في هذا الوسط! وكيف تُعلِّم معاشرتها هذا الإنسان الفتى الذي يعرف، كما لا يعرف امرؤٌ آخر، كيف ينظر إلى

العلاقة بين البشر وعصرهم، وكيف يحسُّ بالتاريخ ويعايشه على أنه الحاضر الأكثر حيوية على الإطلاق! لقد وقف على حوض معمودية هذه المرأة دوق دي فرونساك، والأميرة دي شيماي ممثلين لعرّابين من ذوي المقام الرفيع، مثل ملك فرنسا وملكتها، وهي تسمى لور لويزا على اسم لويس السادس عشر، وتسمى أنطوانيت على اسم ماري انطوانيت، ولقد سمعت في بيت زوج أمها، الشيڤالييه دي جار جيل، هذا الذي هو أخلص الخلصاء يروى، كيف تمكن من التسلل مواجهًا خطر الموت، إلى سجن قصر العدل، وتلقى من يَدَيْ الملكة الرسائل إلى ولي نعمتها فيرسان. وربما كشفت له عن رسالة الامتنان من قبَل الملكة، وهي الرسالة التي تحتفظ بها الأسرة إلى جانب منديل الجيب المخضَّب بالدم، من منصة الإعدام على أنها كنزها الأكبر، هذه الرسالة الأخيرة التي تهزّ النفوس: لقد مررنا بحلم جميل، وهذا هو كل شيء. ولكن كان كسبًا كبيرًا أن أطلع في هذه المناسبة على برهان جديد على تفانيها في شخصي». ويالهذه من ذكريات تبعث الحياة في الخيال بآلاف من التفاصيل، وتستثير الذهن، وتُصعّد مقدرة إرادة الإبداع والتشكيل! وفي وسع المرء أن يتصور الفتى بلزاك، الصبي المهجور، الذي يعذب الهمُّ والبؤس صباه في زنزانات التعذيب في المدارس، وفي حجرة السقيفة البائسة في شارع ليدينيير، والذي لا يسمع في بيته دائمًا سوى تفجُّع البورجوازية الصغيرة الخالد على الإيجار الباهظ والفوائد والاستثمارات والمعاشات التقاعدية، وكيف يُقَدَّر له آخر الأمر أن يكسب، وأن يغدو مواطنًا طيبًا أو موظفًا بسيطًا. وفي وسع المرء أن يتصور، كيف كان يصغي عندما يروي الصوت النسائي العذب الرقيق هذه الأساطير العظيمة عن الملكية التي تُحْتَضَر، وعن أهوال الثورة، وحين لا يُسْتَقْبَل فضوله المُلِحّ بكلمة تصدُّ وتدافع، بل بنظرة أمومية دافئة. وفي أمثال هذه الأحاديث يشعر بخياله يتصعَّد، وبقلبه يتوسَّع، ويظفر الأديب النافدُ الصبر وهو ممتنٌّ بأولى نظراته في الحياة عن طريق هذه المعلِّمة اللطيفة.

وهكذا بدأت الأمور بالنسبة لمدام دي ڤاران حين أدخلت الفتى جان جاك

روسو في بيتها، إذ كانت هي أيضًا تريد أن توجِّهه بعض الشيء وتقوده وتربيه فحسب، إذ كان قليل اللباقة، غير مختمر، وكان عاصفًا، وكانت هي أيضًا لا تفكر ولا تقصد إلاّ إلى الإفضاء بتجربتها إلى امرئ غير ذي تجربة، ولكن من السهل أن ينجم بين المعلم والتلميذ تبدّل في المشاعر يضرب إلى الشهواني ّعلى نحوٍ غير ملحوظ، ومن دون أن يُقْصَد إلى هذا يتحوَّل التوجيه إلى رِقَّة ولطف، ويتحوَّل التبجيل إلى الحب، والرغبة في اللقاء الحميم إلى الرغبة في علاقات حميمة أوثق وأعمق، وحتى مدام بيرني أيضًا تسمح لنفسها في البداية، شأن المرأة الأخرى، بأن تنخدع من جرّاء إجفال هذا الفتى اللاهب ووَجَله، وتحسب أنه مجرد تقدير لسنِّها وتفوُّقها الاجتماعي، ولكن حين تُحَلْحِلُ عقدة ثقته بنفسه بتشجيعه ومواساته، لا تُقدِّر أية شيطانية تحررها من عقالها ههنا، وأيّ لهيب من نار ظلت مكبوتة على مدى السنين يستطيع أن يضرمه مجرد نظرة. إنها لا تستطيع أن تقدر أن سنوات عمرها لا تدخل في الحساب بالنسبة لإنسان من أهل الخيال مثل بلزاك، وأن مقدرته الهائلة على التحمُّس تستطيع أن تجعلها، وهي الأمُّ، والجدَّة، جديرة بالرغبة مرة أخرى، ولكن إرادة بلزاك أن يحب، هذه الإرادة الفريدة من نوعها، تبتدع لنفسها الأعجوبة وتصطنعها.

«حين رأيتك أوّل مرة استثيرت حواسّي كلها، واستعر خيالي ناراً، واعتقدت أنني أرى فيك مخلوقًا كاملاً... ولم يكن في وسعي أن أقول أي نوع من المخلوقات هذا، غير أني بتُّ آخر الأمر - وقد تغلغل في نفسي هذا التصوُّر، أَغُضُّ النظر عن كل الأخريات، وأصبحت لا أرى فيك بعدُ إلاّ هذا الكمال الوحيد.

ومن الإعجاب تتكوَّن الرغبة، والآن، إذ أصبح بلزاك يتمتع بالجرأة على أن يرغب ما عاد يسمح لمقاومة أن تتصدى له.

وينتاب مدام بيرني الفزع. على أن المرأة التي أصبحت الآن تتميز بكل هذا اللطف وهذه السمة الأمومية لم تكن في سنوات صباها قديسة بحال من الأحوال.

ولم تكد تتزوَّج - قبل أكثر من اثنين وعشرين عامًا- حتى أقامت علاقة حب ناريّة مع فتى كورسيكي أسود الشعر ولم يبق هذا هو الأخير، بل إن ألسنة السّوء الخبيثة في ڤيلبا ريزي لتتهامس بأن كلا ولديها الأخيرين لَيْسا سليلَيْ زوجها الشيخ نصف المكفوف إلاّ بالإسم، وعلى هذا فما كان هوى فتى ليعرِّض للخطر حياءاً بيوريتانيًا كاذبًا، غير أنها تدرك الجانب العبثيّ السخيف المتمثل في إقدامها، وهي ابنة الخامسة والأربعين، أمام أعين أولادها البالغين، على الشروع في علاقة غرامية مع فتى أصغر من ابنتها، ففيم الاسترسال، مرة أخرى في هذا الخطر الحلو ما دام مثل هذا الحب لا يمكنه أن يدوم بلا ريب؟ وكذلك ترفض، في رسالة لها لم تُحْفَظ- شعور بلزاك العارم وتردُّه إلى حدوده، حدود الصداقة. وبدلاً من أن تكتم سنَّها، تؤكِّد سنوات عمرها، ولكن بلزاك يجيب إجابة عاصفة. فبلزاك ليس بالرعديد كما كان بطله المأساوي اللاحق أتاناس غرانسون، في رواية «العذراء العجوز». الذي يخاف من لَعْنة التعرض لضحك الناس الذي سينطلق به العالم تجاه حب فتى في الثالثة والعشرين لامرأة في الأربعين».

لقد عقد العزم على التغلب على مقاومة صديقته، وهو يكاد يناديها قائلاً في غضب: «يا إلهي العظيم، لو كنت امرأة، ولو كنت في الخامسة والأربعين، وكنت ما أزال جديراً بالحب- ويلاه!، إذاً لكنت تصرفت غير التصرُّف الذي تصرَّفْته! وأي مشكلة في أن يكون الإنسان امرأة في مقتبل خريفها، وهي ترفض أن تقطف التفاحة التي أوقعت آدم وحواء في المصيبة!»

ولأن مدام دي بيرني تحب هذا الفتى الناريّ، لهذا على وجه الخصوص، لا تُسَهّل الطريق على العاشق المُلِحّ، فتظل تدافعه أسابيع، وشهوراً، بقوة ولكن بلزاك زَجَّ بكل طموحه وإرادته في حبه هذا الأول، وهو يحتاج إلى هذا الانتصار الأول والحاسم من أجل ثقته بنفسه. وأنّى لامرأة وحيدة ضعيفة، مخيَّبة الأمل، شقية في زواجها، وقد أصبحت هي ذاتها راغبة، من جرّاء مثل هذه الرغبة فيها، أن تتمكن

من مقاومة إرادة ستكون قوية بما يكفي لكي تستعبد عالمًا؟ وفي ليلة قائظة من ليالي آب يحدث ما لابد أن يحدث. ففي الظلام يتحرك المزلاج بصوت خفيض في باب الحديقة الذي يفضي إلى المتنزَّه في بيتها الصيفي، وتتولى يد رقيقة قيادة المخوف والمنتَظَر إلى الداخل، وتبدأ تلك الليلة الحافلة بالمفاجآت، والمترعة بألوان الملاطفة، تلك الليلة التي لا يستطيع المخلوق، الرجل- الطفل، أن يستمتع بها إلاّ مرة واحدة في حياته، والتي لن تعود أبداً.

وفي البلدة الصغيرة لا يظل شيء خفيّاً مدة طويلة، وسرعان ما تقدم الزيارات المتواترة من قبل الفتى هونوريه لمدام دي بيرني باعثًا للتكهنات الحارّة، واللَّغَط الخبيث، وتنتهي المسألة إلى ألوان من التوتر والمشاهد المسرحية في دار آل بيرني لأن رؤية الأم بذاتها تخدع الأب الذي كاد يُكَفُّ بصره لم يكن من الممكن إلا أن تكون مخجلة مخزية بالقياس إلى البنات الصبايا الثلاث في المنزل- وكانت كبراهن متزوِّجة- وهنَّ يفعلن كل شيء لينغِّصن على العاشق غير المرغوب فيه مُقامَه في المنزل، على أن ما تصاب به مدام بلزاك يغدو أكثر قسوة بمجرد أن تبدأ في إدراك الحقيقة آخر الأمر. ففي سنوات التطور الحاسمة لم تكن تحفل بابنها على الإطلاق تقريباً، وكانت تقمع انطلاقه ورِقّته، وثقته بنفسه، بالقوة، وتريد، بأي ثمن، أن تمسك به رهن المسافة التي تفصله عنها وتتسم بالذلة والخنوع، والآن، إذ لاحظت أنه ظفر من مدام دي بيرني بالمُساعدَة، والصديقة والمستشارة، وبكل ما كان ينبغي لها هي أن تكونه، بحكم كونها أُمًّا، وظفر منها، فوق ذلك، بالعشيقة، ينبعث في هذه المرأة النزّاعة إلى التسلُّط والتحكُّم نوع من الغيرة الجامحة، ولكي تنأى بولدها عن القرب من هذه المرأة التي تحظى لدى ولدها، بأسلوبها الرقيق اللطيف، بنفوذ أكبر مما تحظى به هي بالتحكُّم والقسوة، ترغمه على مغادرة ڤيليبا ريزي في ربيع عام ١٨٢٢ والتوجه إلى أخته مدام سورڤيل، في بايّو. وترافقه على وجه الخصوص إلى عربة البريد لكيلا يهرب في اللحظة الأخيرة. وبينما كانت من قبْلُ تنظر إلى «ڤبركته» للروايات على أنها ليست سوى وسيلة يدبِّر بها لنفسه شيئًا

من المال تجرِّب الآن أن تقوم بدور الراعي والمستشار، وتطالب هونوريه بأن يعرض عليها مخطوطات رواياته أولاً وأن يخضعها لنقدها. ولكن كان قد فات الأوان. كان بلزاك قد تعلَّم كيف يفرِّق بين الأسلوب الرقيق، المنطوي على المقصد الحسن، الذي تُواكب به مدام بيرني محاولاته، وبين محاولات الأم الدالّة على نزعة التحكُّم والتسلُّط، ويظل بارداً بالقدر ذاته تجاه خطب الوُدّ المتأخر من قبل أمه واهتمامها المتكلَّف المفتعَل، شأن موقفه من مظاهر عصبيتها. لقد ولّى الخوف، وولّى معه الاحترام. ولأول مرة تصطدم لدى الولد الذي كان حتى الآن مِطواعًا، بمقاومة صلبة وحازمة.

وتكتب مغتاظة إلى ابنتها: «لقد كنت ألزمت هونوريه بأن يتصفَّح مخطوطه بعناية، وكلفته أن يعرضه على منْ يتمتع بخبرة أكثر من خبرته في الكتابة... وتصرّف هونوريه وكأن كلامي ليس له أدنى قيمة. والقوم لا يُصغون إليّ، ويبلغ من ثقة هونوريه بنفسه أنه لا يعتزم أن يعرض مخطوطه على أحد».

والآن، إذ تشعر أنه أفلت من يدها، تحاول أن تمسك به بالقوة، ولكن سلطانها تحطّم. لقد جعل منه النجاح الأول مع إحدى النساء رجلاً، وباتت ثقته بنفسه التي لبثت تُقْمَع على مدى السنين، تَشبُّ الآن عن الطوق في عناد ولم يكن بُدٌّ لمدمِّرة طفولته، أن يتبيَّن لها وقد تولاّها اليأس أن سلطان الإرهاب الذي كانت تمارسه عليه خلال عَقْدَيْن من الزمان، قد تحطّم إلى الأبد، ومن دون وعي منها تتَّهم عجزها وهي تحاول أن تَشكُوه إلى أخته، ولكن كل المآخذ تَرِدُ بعد فوات الأوان. لقد حرَّر بلزاك نفسه من الأسرة، وتجاوز طفولته الوبيلة، مثلما يتجاوز المرء علة، وبات القوم يحسون ببرئه، وأصبحوا يحسون أنه يشعر بأنه يستمتع بطاقته الخاصة، متمكّنًا من نفسه، ورائعًا، وما عاد موطنه منزل الوالدين، بل منزل مدام دي بيرني، وما عاد ثمة مناشدات، ولا مآخذ، ولا ضروب هستيريا في منزل الوالدين، وما من تهامس خفيّ، ولا لَغَط في المدينة يستطيعان أن يثنيا إرادته أن يكون تابعًا، بحرية وهوى جامح، للمرأة التي تحبه.

وتضطر الأم إلى أن تدخل في ذهن ابنتها، أن هو نوريه لا يريد أن ينظر بعين

المتبصر إلى مقدار ما ينطوي عليه من عدم اللياقة أن يتردَّد مرتين في اليوم على منزلها، فهو لا يرى ما يضعه القوم نُصْب عينيه بوضوح بالغ. لقد ودِدْت لو كنت على بعد مائة ميل من ڤيلباريزي! إنه لا يحمل في رأسه إلاّ هذه القصة الواحدة، وهو لا يفهم أنه سوف ينتابه السأم ذات يوم من هذه العلاقة عندما يتفانى الآن فيها بهذا القَدْرِ المفرط.

وهذا هو الأمل الأخير للأم بلزاك، أن ينتاب ابنَها التعب عمّا قريب من هذا «الهوى الذي يحطمه». أيْ أن يكفَّ عما قريب عن هذا الحب اللامعقول لامرأة في الخامسة والأربعين وقد أصبحت الآن في السادسة والأربعين، غير أنها تضطر مراراً إلى أن تدرك مدى قلة ما كانت تعرف منذ البداية عن ولدها، ومقدار ما قدَّرت قوة الإرادة التي لا تلين لها قناة ولا تتزعزع عند هذا الفتى، الذي يبدو عليه في الظاهر أنه مجرد امرئ سَمْحٍ طيب ينزع إلى الاستمتاع، دون قدرها. ولمّا كان هذا الهوى بعيداً عن أن «يفسد الفتى» فهو يعين ذلك المضطرب غير الواثق من نفسه على أن يكتشف نفسه. وحين يبعث الحياة في الرجل الماثل في هذا «الرجل الطفل» التوّاق، يحررِّ في داخل المُصطنَع المستعجل الغامض، الأديب على مَهْل وبرفق، ولم يصبح بلزاكُ بلزاكَ الحقَّ إلاّ من خلال «نصائحها الصادرة عن التجربة والخبرة»، وسيقول فيما بعد معترفًا:

«لقد كانت لي أمّاً وصديقة، وأسرة، ورفيقة، وناصِحة. لقد صنعت مني كاتبًا، وواستني فتىً، وعلمتني الذوق، وبكت معي بكاء أخت وضحكت، وكانت تُقْبِل عليَّ في كل يوم إقبال إغفاءة تُسْدي إليَّ جميلاً، وتنتهي بآلامي إلى التفريج وما من شك في أنني كنت خليقًا أن أموت لولاها»

لقد صنعت من أجله كل ما تستطيع امرأة أن تصنعه من أجل رجل.

«لقد صانتني في غمرة العواصف الكبرى بتشجيعها ومواساتها، وبتصرفات

مترعة بالتضحية ... وشجعت لديَّ ذلك الزُّهُوَّ بالنفس الذي يصون من كل ضروب التردّي والانزلاق ... وإذا كنت بقيت على قيد الحياة فإنما أشكر ذلك لها. لقد كانت كل شيء بالقياس إليَّ».

ولئن كانت علاقات هذه الصداقة الغرامية مع «المصطفاة الوحيدة» (Dilecta)، التي ظلت عقداً كاملاً من الزمان، من عام ١٨٢٢ إلى عام ١٨٣٣، أي حتى عام المرأة الخامس والخمسين، حسِّية حميمة، فقد انحلَّت بهدوء، متحوّلة إلى «مجرد صداقة» فقد صعَّد بلزاك تعلّقه وإخلاصه، وتسامى به أيضًا، بالأحرى وكل الكلمات التي كتبها بلزاك عن مدام دي بيرني أيام حياتها، وموتها، تشكل قصيدة واحدة دفّاقة، من قصائد الامتنان لهذه المرأة «العظيمة الجليلة»، «لملاك الصداقة هذا»، الذي بعث فيه كلَّ شيء، الرجلَ، والفنانَ، والمبدع، والذي آتاه الجرأة، والحرية، والأمن الخارجي والداخلي، وحتى الصورة المثالية لمدام دي مورتسوف، التي رسمها في أَثَرِه «زنبقة الوادي» لا يسميها سوى «انعكاسٍ بعيد لها... وتعبير باهت عن الصفات الأقل شأنًا في هذه الشخصية» ويعترف وقد تولاّه الخجل، بأنه لن يكون في وسعه أبدًا أن يعبِّر التعبير الكامل عمّا كانته بالقياس إليه، «لأنني أخجل من أن أبتذل انفعالاتي الخاصة علانية. أمّا ماهية الحدث السعيد، الفريد والوحيد في حياته، الذي يحسُّ أن هذا اللقاء يمثله فقد دوَّن ذلك في الكلمة التي أصبحت خالدة منذ ذلك اليوم:

«ما من شيء يضاهي الحب الأخير في حياة امرأة تهب لرجل إشباع حبه الأول».

وإنما يعد اللقاء بمدام دي بيرني القرار المُحَرِّر في حياة بلزاك، وذلك أنه لم يحرر الرجل الواقع في حالة ابن الأسرة المقموع، والفنان الذي بات مترددًا وجلاً، من العبودية للكتابة التلفيقية العجْلى، فحسب، بل حدَّدله، منذ الآن فصاعدًا، المرة بعد الأخرى، في كل النساء، هذا الجانب الذي يرعى ويصون ويوجه توجيهًا

رفيقًا رقيقًا، ويسعف إسعاف المتفاني، هذا الجانب الذي أسعده في هذه المرأة الأولى، التي لا تطالبه بالوقت وهو الذي لا يتطرّق إليه التعب، بل يتوافر لديها الوقت والطاقة لكي تخفف حدَّة توتُّره بعد العمل، وسوف تكون النبالة بمعنَيَيْها الاجتماعي والنفسي، شرطًا أوَّليًا من شروط الحب. وسوف يكون للفهم شأن أكبر من شأن الهوى، ولن تكفيَهُ من النساءِ دائمًا إلاّ تلكم اللواتي يتيح له تفوقُهن في الخبرة، وتفوقُهن في السن أيضًا- وهذا من غريب الأمور- نظرةً إلى الأعلى. فالعناوين من قبيل «المرأة المهجورة La femme abandonné » و: «امرأة في الثلاثين- La femme de trente ans » ليست من عناوين رواياته فحسب، بل سيَكُنَّ بطلات حياته اللواتي ينضجن في الخريف، وهُنَّ النساء اللواتي خابت آمالهن في الحب والحياة، واللواتي ما عُدْنَ يتجرأّن على أن يتوقعن شيئًا لأنفسهن، ويَرَيْن أن من فضل القدر عليهن أن يكنَّ مرغوبًا فيهن مرة أخرى، وأن يُتاحَ لهن خدمة الأديب مساعِدات ورفيقات. ولن يكون للمرأة اللعوب، المحترفة، والتي تُدْعى شيطانية، والمتعاظمة من الوجهة الأدبية، أبدًا أن تمارس قدرتها على الفتنة حيال بلزاك، ولن يغويه الجمال الظاهري، ولن يغريه الشباب بل لقد عبَّر التعبير القويّ عن «نفوره العميق» من الصبايا، لأنهن يطلبن الكثير الكثير ولا يبذلن إلاّ القليل القليل.

«سوف تفعل المرأة ذات الأربعين كل شيء من أجلك- أما ذات العشرين فلن تفعل شيئًا».

وفي كل تجاريبه لن يتوق، دائمًا، وعن غير وعيٍ منه، إلاّ إلى عودة ذلك الحب المتعدد الجوانب، الذي يجمع في ذاته كل الأشكال، والذي عثر عليه في هذه الواحدة التي كانت بالقياس إليه كل شيء في وقت واحد، كانت أمًّا، وأختًا، وصديقة، ومعلِّمة، وعشيقة، ورفيقة.

الفصل الخامس

حَدث تجاريّ عارض

لقد تحققت أولى رغائب بلزاك من القدر، إذ أتيحت له معونة مُحِبَّةٍ هي التي كان يتوق إليها، وبفضل هذه الثقة الجديدة بالنفس وجد الاستقلال الخارجي، لكي يكون مستعداً لرسالته الحقيقية: ألا وهي العمل.

لقد كان بلزاك يأمل، حتى عامه الخامس والعشرين، أن يتمكن من الحصول على هذا الاستقلال في المستقبل، رُوَيْداً رويداً، عن طريق «فبركة» بضاعة تلفيقية دارجة في التداول. ففي الأيام الأخيرة من شتاء عام ١٨٢٤، يتخذ، فجأة، قراراً جديداً. وسوف يكون يوماً أسود في تقويم حياته ذلك اليوم الذي يدخل فيه محلَّ الكُتُبيِّ والناشر أوربان كانيل، في ٣٠ ميدان سان أندريه ديزار، ليقدِّم أحدث سلعة له من مخزن رواياته، أي رواية وان- كلور، ولم تكن المسألة أنه استُقْبِلَ هناك استقبالاً سيئاً، بل على النقيض. وذلك أن مؤسسة كانيل لتجارة الكتب والنَشر تعرف، عن مؤسسة هوراس دي سان أوبان، للروايات بالجملة والمفرّق، على الفور، وحسب الحاجة تماماً، روايات قتل وضرب، وعاطفيات وغرائب. ومن دون تردد يقبل المسيو كانيل العمل الذي تمَّ الفراغ من تدبيجه للتوّ، ولكن المؤسف أنه يطلعه في هذه المناسبة على مشروعاته التجارية الأخرى المتوافرة لديه، ويُسِرُّ المسيو كانيل إلى الفتى بلزاك أنَّ لديه فكرة لامعة في مجال النشر من أجل هدايا عيد الميلاد والتثبيت ولأسر البورجوازيين التي باتت موسرِة، ويقول إنه مازال هناك طلب على الكلاسيكيين الفرنسيين وأن الرَّواج لم يُعانِ حتى الآن إلاّ من الظرف

المتمثّل في أن سادة محترمين كتبوا قدراً مفرطًا في كثرته فمجموع أعمال موليير، مثلاً، أولافونتين يضم في الطبعات الموجودة حتى الآن، عدداً لا يستهان به من المجلدات، ويشغل كثيراً من المكان في منزل بورجوازي، ويقول إن لديه الآن الفكرة الرائعة، وهي إخراج الأعمال المتعددة لكلٍّ من هؤلاء الكلاسيكيين في مجلد واحد، وإذا طبع المرء المسرحيات بحروف دقيقة، وطبع في كل صفحة عمودين، استطاع أن يجمع كل لافونتين أو كلَّ موليير بين دفَّتي كتاب من دون إعمال نظر، وإذا زخرف المرء هذا المجلَّد بعد ذلك أيضًا بأشجار كرمة جميلة لم يكن بدٌّ أن تُباع هذه المجلدات مثلما تباع حبات الكستناء الساخنة، ويقول الرجل إن هذه الخطة قد تم التحضير لها حتى تفاصيلها الأخيرة وقد بُدئ بلا فونتين. وقال إنه مازال الأمر يفتقر إلي مسألة صغيرة لكي يتمّ التمهيد لمشروع رائع كهذا، ويقصد بذلك رأس المال الضروري.

أمّا بلزاك، المتحمِّس والخيالي ّالخالد، فيتحمَّس على الفور لهذه الخطة، ويقترح على كانيل أن يسهم هو في هذه المضاربة في تجارة الكتب، على أنه لم يكن في حد ذاته ينطوي على باعث للجري وراء مثل هذه الصفقات التي هي مثار للشكوك، وكانت تجارته الخاصة، وهي مصنع هوراس سان أوبان للروايات تزدهر ازدهاراً كافيًا تمامًا بفضل المقدرة التي لا يتطرَّق إليها الكلل، وبسبب عدم وجود العوائق. وكان ابن الخامسة والعشرين يكسب، حين يستهلك علبة من ريش الغراب وبضع مجموعات من صحائف الورق الكبيرة غير المكتوبة في الشهر، بضعة آلاف من الفرنكات في السنة، ولكن بلزاك تتنامى مطاليبه أيضًا مع نشوء الثقة الجديدة بالنفس. وذلك أن عشيق السيدة الكبيرة ما عاد يرضى أن يسكن مثلما كان يسكن ابن العشرين في حجرة في السقيفة، كما أن الحجرة الصغيرة في الطابق الخامس، في شارع تورنون تبدو له غير لائقة، وهي بالنسبة له أضيق مما ينبغي. وما أكثر ما ينطوي عليه من المهانة، والإرهاق، وما يخلو من المجد والفائدة على المدى

الطويل، دورانُ رَحى طاحون الكتابة المغفلة الاسم، هذا الكسب الباعث على التفجُّع، سطراً فسطراً، ومجلداً فمجلداً، وروايةً على أثر رواية! ولماذا لا يفضل أن يقفز قفزة جريئة ينتقل بها إلى الحرية، إلى الاستقلال؟ ولماذا لا يفضّل أن يتجرآ ببضعة آلاف من الفرنكات على مضاربة مأمونة إلي هذا المدى؟ أمّا الروايات البليدة، والمقالات للصحف وكل هذا اللغو المغفل الاسم، ففي وسع المرء أن يتابع الكتابة فيه بهدوء وعلى نحو عَرَضيّ، وذلك أنه يسيل به قلمه سهلاً رخيًّا. وأخيراً فإنه لم يقطع مسار عبقرية بومر شيه نشرُهُ أعمال السيد ڤولتير بصورة عَرَضية، ثمَّ ألم يكن كبار ذوي النزعة الإنسانية في العصر الوسيط مصححين ومستشارين فنيّين للناشرين؟ أمّا كسب المال الكثير، بأي طريقة كانت، فلم يكن يبدو لبلزاك عاراً على الإطلاق، بل كان يبدو ومجرّد برهان على نفسية تنطوي على اللباقة والمرونة، والغباء لا يكون إلاّ حين يكسب المرء القليل من المال بالعمل الكثير، ولا يكون الذكاء إلا بكسب المال الكثير بضربة سريعة. أمّا الآن فليؤمِّن المرء لنفسه آخر الأمر رأس مال لكي يبدع مِنْ بعد ذلك عملاً حقيقيًا بإرادة مصممة وبطاقة موجهة نحو الجوهريّ، ليبدع عملاً فنيّاً يوقع عليه باسمه ويستطيع أن يتحمل مسؤوليته أمام العالم الراهن والعالم اللاحق.

ولا يفكر بلزاك طويلاً، وذلك أنه كلما سمع بصفقة أو تجارة جادل عنده الخيال الدافق الفياض بدلاً من العقل الذي يحسُب، وقد كانت المضاربة عنده، طوال حياته، عملاً من أعمال المتعة مماثلاً على وجه الدقة للكتابة والإبداع. ولم يسبق لبلزاك أبداً أن كان يأنف، بدافع الكبرياء الأدبية، من إبرام الصفقات. وكان مستعداً للإتجار بكل شيء، بالكتب والصور وبأسهم الخطوط الحديدية، وبقطع الأراضي وبالخشب والمعدن. وكان طموحه الوحيد أن يفرغ شحنة طاقته، وأن يتقدم ويتغلغل، في أي موضع كان ومهما كانت الوسائل. ولم يكن لدى الفتى بلزاك سوى إرادة واحدة، إرادة الصعود والارتقاء، إرادة القوة، ويفكر وهو بعدُ

في عامه الثلاثين، هل يصبح وكيلاً لأهل الفن أم صحفيًا، وقد كان خليقًا، لو أتيحت له فرصة سانحة، أن يكون تاجرًا مثلما هو خليق أن يكون سمسارًا أو تاجر رقيق، أو مضاربًا بالأراضي أو مصرفيًا، ولم يكن تفريغه شحنة عبقريته في الأدب إلاّ مسألة مصادفة. ويظل هناك بعُد، إلى حد بعيد سؤال هل كان في عام ١٨٣٠، وحتى في عام ١٨٤٠ و ١٨٥٠، موضوعًا أمام الاختيار بين أن يكون روتشيلد، أو أن يكون مبدع الكوميديا الإنسانية، ولماذا لم يختر موقع الصدارة في عالم المال بدلاً من موقع الصدارة في الأدب، وذلك أن كل مشروع، سواء أكان أدبيًا تجاريًا، يثير خياله المتوتِّر على الدوام، لأنه يتضمن في ذاته إمكانات لا يمكن تقديرها أو إدخالها في الحسبان، وهو لا يستطيع أن يرى من دون أن يُهَلْوِس، ولا يستطيع أن يسرد القصص من دون أن يبالغ، ولا يستطيع أن يحسب- مهما كان حَسّابًا ممتازًا، من دون أن يدخل في حالة سكْرٍ بالأعداد، ومثلما يطلُّ بنظرة شاملة، وبسرعة على كل الملابسات المعقدة والحلول عند أول خاطرة فنيّة، يرى، على نحو قَسْري، في حالة كل مضاربة حالةَ تضخُّم للنَّهم، وربحًا بالملايين. ولا يحتاج المسيو أوربان كانيل إلاّ إلى أن يتحدث عن تلك الطبعة الخاصة بالكلاسيكيّين، وإذا بلزاك يعتقد- بينما لا يوجد في الحقيقة سوى الورقتين الأوليَيْن مصفوفتين- أنه يمسك في يديه بالعمل كاملاً على ورق أبيض كالزهر في مجلد فخم، مزْدان بأشجار الكرمة، المجلد الأول، والمجلد الثاني، والسلسلة بأكملها، ويرى، فوق ذلك، البشر الذين يزدحمون أمام المكتبات، بعشرات الألوف، ومئات الألوف، في باريس، وفي الريف، وفي القصور، يقرأون الكتاب في الحجرات الصغيرة ويَجَمّشونه، وإذا هو يرى منصة المحل عند السيد كانيل مترعة بالطلبات، والعتّالين الذين يترتَّب عليهم أن يبعثوا بها إلى كل أصقاع الدنيا ساعة فساعة، يتنَّهدون تحت الرُّزَم، ويرى خزانة المال ملأى بالأوراق من فئة الألف فرنك، ويرى نفسه في منزل فخم، والمركبة ذات العجلتين أمام الباب، وها هو ذا يرى الأثاث الذي سيتجهَّز به، والأريكة ذات الدّمَقْس الأحمر التي يكتشفها بالأمس عند بائع للأثاث القديم في ريف جوش،

والستائر من الدمقس، والتماثيل الصغيرة عند المدفأة، والصور على الجدار، ومن البدهي أنه يصرح للسيد كانيل الذي يتولاه العجب من مثل هذه الحماسة، بأنه سوف يؤمِّن هذه البضعة آلاف من الفرنكات التافهة، والضرورية لمثل هذه التجارة العظيمة، وبأنه سيكتب، فضلاً عن ذلك، المقدمة لهذا اللافونتين وهذا الموليير، وسوف يشرح أول مرة لفرنسا مَنْ كان هؤلاء الرجال، وسوف تغدو أجمل طبعة صُنِعت في أي يوم من الأيام، والنجاحَ الأكبر في كل العصور.

وحين يغادر بلزاك المحل يشعر أنه قد بات من أصحاب الملايين. أمّا رجل الأعمال أوربان كانيل فقد ظفر بمن يُسْهِم في مضاربة صغيرة، وأما بلزاك، صاحب الأوهام فقد بات صاحب ثروة في أحلامه.

وقد استحقت قصة المبادرة، الغريبة، أن تُروى من قبل بلزاك نفسه، ومن الظاهر أن الكاتب الفتى لم يفكر مطلقًا في الالتزام العميق، وكان إسهامه في القضية بأسرها في الأصل ليس أكبر من ألف وخمسمائة فرنك أو ألفي فرنك، أي أنه ليس أكثر مما تدرُّ عليه رواية واحدة من رواياته التي كان يدبجها على عجل كيفما اتفق، لهوراس دي سان أوبان. ولكن بالقياس إلى بلزاك يصل كل شيء إلى درجة الشيء الفائق الأبعاد، مثلما تفضي رواياته من العلاقات المحدودة ذات الأفق الضيق والنطاق المحدود، عن طريق الطاقة التي تُولِّف وتُصَعِّد، في خياله، إلى الإنساني العام المطلق. وهكذا تتطور كل مضاربه من مضارباته لتتّخذ أبعاداً خطيرة، وعلى قدر قلة ما يعلمه حين يكتب المشاهد المسرحية الأولى من الحياة الخاصة، من أنه يبدأ بها «الكوميديا الإنسانية»، أي ملحمة عصره، يقل ما يستشعره من ماهية المخاطرة التي يُقْدِم عليها بهذا الإسهام الضئيل الذي لا يلفت النظر

على أن العقد الأول الذي يُبْرَم في منتصف نيسان ١٨٢٥، مازال بعيداً كل البعد عن أن يثير الهواجس. فهنا لايكون بلزاك سوى واحد من المُسْهمين في اتحاد للشراكات يتسم بسمة البورجوازية الصغيرة يريد أن يجمع السبعة آلاف أو الثمانية

آلاف فرنك بصورة مشتركة لينشر مجلداً للافونتين. وما من أحد يعرف مَنْ جمع بين هؤلاء الأربعة، وهم، إلى جانب بلزاك، طبيب، وضابط متقاعد، وتاجر كتب يبدو على الأرجح أنه يريد أن يستعيد أمواله الموضوعة حتى الآن في صورة رأسمال، والأربعة جميعًا أناس غير أولي شأن، يريد كلٌّ منهم أن يستثمر في الصفقة الصغيرة المُرْبحة نحو ألف وخمسمائة فرنك. وكان من الأمور التي تنطوي على الطامّة أن هذه الشركة ذات الرؤوس الأربعة من أجل استغلال أساطير لافونتين، لم يكن لها بقاء على مدى طويل، ويستطيع المرء أن يستفيد من رسالة باقية للطبيب حافلة بالاستثارة والغضب، أن مجرّد المناقشات الأولى بين الشركاء الأربعة كانت مناقشات بالغة العنف وتكاد تفضي إلى الاشتباك بالأيدي، ومنذ الأول من أيار ينسحب المُسْهِمون الآخرون من المشروع، بحكم كونهم مواطنين يحسبون حساباتهم بحذر ويَدَعون للمثالي والطوباوِي الوحيد في حلقتهم، المشروع بأسره، على عاتقه.

وبذلك يكون بلزاك قد خطا خطوةً أبعد مما كان يريد. وبحكم كونه المالك الوحيد لكتاب «لافونتين» الذي لم يجرِ الفراغ من طبعه على الإطلاق، يضطر إلى أن يتكفّل بنفقات الإخراج، وأن يدفع المبلغ الهائل بالقياس إلى أحواله في تلك الأيام، وهو يقارب عشرة آلاف فرنك. فمن أين يأتي هذا المال؟ هل قام الناشر الفتى في ساعات فراغه، مرة أخرى، بـ«فَبْرَكة» مجلدين أو ثلاثة مجلدات من الروايات، أم هل قررت الأسرة الموسِرة آخر الأمر، أن تضع تحت تصرُّف ابن السادسة والعشرين رأس مالٍ صغيراً؟ على أن التسجيلات في دفتر الصفقات تحل اللُّغز. وذلك أن كل ثلاث قسائم من قسائم الديون كان بلزاك يسدِّد بها الفواتير مسحوبة على اسم مدام دي بيرني التي يبدو بوضوح- مثلما ستعلم فرنسا كلها والعالم فيما بعد، أنها وقعت أسيرةَ سحْرِ عروضه. ومرة ثانية تكون الصديقة والعشيقة هي التي تحاول أن تشق له الطريق إلى الحياة.

ولكن الآن يقع بلزاك فريسة لطبعه. لقد كان من المنطقي أن يتربّص بكتاب لافونتين حتى ينجح قبل أن يشرع في مجلد جديد من مجلدات الكلاسيكيين، لموليير، ولكن كلما ورد التفاؤل الفطري عند بلزاك في اللعبة تغلّب عنده على العقل الذي يحسُب، وذلك أن بلزاك ماعاد يستطيع أن يفكر أو يعيش بأبعاد متواضعة، وتحوّل الطالب الفتى المقتصد الذي يحسب حساباً لكل قرش إلى امرئ نافد الصبر، جامح مُفْرِط سيظل على هذه الخصال طوال حياته، وإذاً فليُعَجّل وليبادر إلى إلحاق «موليير» بلافونتين! فَلأنْ يُسَوِّق المرء كتابين أسهلُ عليه من تصريف واحد، ولْيَسْقُط كل اشتغالٍ بصغائر الأمور وسَفْسافها.

ومرة أخرى ينبعث فن سرد القصص الجامح عند بلزاك، ويكون هذه المرة المسيو داسّونقييه، وهو من أصدقاء الأسرة، هو الذي يعلن استعداده لأن يُسَلِّف خمسة آلاف فرنك من أجل «موليير». وبذلك بات بلزاك، حتى قبل أن تُباع نسخة واحدة، يستثمر في مشروعه، وبمخاطرة شخصية منه، أربعة عشر ألف فرنك من أموال لا تعود إليه. وبأسلوب المحموم يدفع الآن بعملية إصدار المجلَّدين كليهما قُدُمًا إلى الأمام، بل بأسلوب محموم إلى حدّ الإفراط، ذلك لأن تُجّار الجملة يقدّمون، وهم يستغلّون قلة خبرة المتحمّس وتسرُّعه، بمَكْرٍ منهم، إلى الناشر المبتدئ الغض الإهاب ورقًا مختَزَنًا غدا متَّسخًا. أما أشجار الكرمة لديفيريا، التي كان بلزاك يأمل، تحت تأثير خياله المتسرِّع، أن تكون من روائع الأعمال، فلا تبدو منسجمة، ولكي يستطيع أن يحشر «لافونتين» كله في مجلد واحد تكون هناك ضرورة لاختيار حروف طباعة يبلغ من صغرها أنها تتعب حتى العين السليمة الجيّدة، وحتى المقدِّمات التي يدونُها بلزاك على عجل، لا تضفي على المجلّدين غير الموفقين من الناحية التقنية أدنى مقدار من السحر الجذّاب.

وعلى هذا الأساس تتشكّل النتيجة التجارية أيضًا. وذلك أن بلزاك، الواقع تحت تأثير نفاد صبره ولهفته على تحصيل أكبر قدر ممكن من المال، يحدد سعر كل مجلد بعشرين فرنكًا- وهو سعر يحدث أثرًا باعثًا للفزع والإجفال في نفوس تجار الكتب. وهكذا تظل الألوف من النسخ التي ظل بلزاك وقتًا طويلاً يحلم بأن تكون

بين أيدي قُراء لا يُحْصَوْن عدداً، غير مطلوبة، في قاعات التخزين، عند الطابع والناشر! وبعد سنة يكون قد بيع، على الإجمال عشرون نسخة من العمل الواحد كانت محسوبة على أساس البيع بكميات كبيرة، وكان من الضروري تسديد الحسابات لتاجر الكتب ومَنْ نضَّد الحروف ومَنْ طبع الكتب، وللورق. ولكي يجِد متنفَّساً يعرض بلزاك المجلد بثلاثة عشر فرنكًا. ولكن عبثًا، وينزل في السعر إلى اثني عشر فرنكًا من دون أن يظهر طلب، وأخيراً يطرح الكمية المرصوصة كلها بسعر باعث للسخرية، ليُنْبَذَ نبذ النواة حتى في هذه الصفقة مرة أخرى. وبعد عام من الكفاح اليائس تصبح الكارثة كاملة. وبدلاً من الثروة التي يحلم بها هونوريه بلزاك تتراكم عليه ديون تبلغ الخمسة عشر ألف فرنك.

وكان كل امرئ آخر، خليقًا، بعد مثل هذا الإخفاق الصارخ، أن يستسلم، ولكن بلزاك مازال قوياً بما يكفي لكي يُباحَ له أن يتحمَّل هزيمة حاسمة، وكان، بعد ذلك، إذا سقطت قطعة وازنَها برواية تهزُّ العالم، وإذا طارده الدائنون، ووقف له منفِّذو الأحكام القضائية بالمرصاد أمام أبوابه رَفَّه عن نفسه بمعابثتهم، وباهى بديونه كما يباهي المرء بانتصار، ولكن ابن السادسة والعشرين ما عاد يتمتع بمساندة في نجاح، ولا برأس مال قادر على أن يُحرز له الثقة في حياته، ومازال لا يتّسم بسمة نابليون الأدب الذي يستطيع أن يتحمَّل تقبُّل مَقْلَبٍ من حين إلى آخر، ويضاعف ما يراهن عليه، ربما لأنه يتولاه الخجل من الأسرة التي كانت ترتاب دائماً في مؤهِّلاته، وربما لأنه يأبى أن يعترف لمحبوبته بأنه قامر بكل ما في يده منذ الرمية الأولى، فهو لا يرى إلاّ طريقًا واحداً لكي ينقذ المال الضائع وهو أن يُلْقِيَ الناس إليه بمال جديد مِنْ بَعدُ. ولابُدَّ أن ثمة خطأ ما، كائنًا ما كان، حدث في هذا الحساب الأول، ويحسب بلزاك أنه أدركه، وذلك أن مجرد القيام بدور الناشر تجارة رديئة، إذ يتعرَّض المرء للغش والخديعة من قبل الطابعين الذين يكشطون القشدة، ويدعون للمرء، في أحسن الأحوال المَصْل الخاوي، فالتجارة الوحيدة الطيبة حقًا هي أن لا

يكتب المرء الكتب، ولا يحرِّر الكتب، بل أن يطبعها بنفسه، وليس بمجرد مثل هذه التوليفة الأكثر جرأة، حيث يكتب الكتب، ويختارها وينشرها، وينتجها، في وقت معًا، يستطيع أن يُدْخل مؤهِّلاته بأكملها في إطار اللعبة. ولذلك يقرر بلزاك، لكي يوازن إخفاق «لافونتين» و «موليير» على وجه السرعة، أن يتولى بنفسه الإخراج الشامل للكتب، وبموجب وصفة قديمة من وَصفات المفلسين يحاول أن يَرُدَّ إلى المشروع الذي لحقت به الهزيمة، الصحة والعافية، بأن يزيد في حجمه. وتبدأ الحقبة الثانية من العمل الكبير، إذ يقرر بلزاك أن يفتتح مطبعة.

وكانت ما تزال تنقص الشاب من أجل هذا المشروع، بالطبع، بعض الشروط الأولية الهامة، فهو أولاً، ليس بالخبير المختص، ولا يعرف شيئًا في باب الطباعة، ثم إنه لا يملك التفويض الملكي الذي كان في تلك الأيام ضروريًا لكل «طابع» في فرنسا، وهو لا يملك، من ناحية ثالثة، المحلّ، والمعدات، وأقلُّ من ذلك بعدُ، من ناحية رابعة، ملكيته لرأس مال المؤسسة لكي يحصل على الامتياز والمادة، وليدفع، فوق ذلك، الأجر لخبير الطباعة وللعمال، ولكن حين يزمع امرؤٌ أن يجرِّب نفسه في عمل رديء، هنالك يسرُّ المصادفة الخبيثة أن تكون طوع بنانه، ويُوَفَّق بلزاك إلى العثور على الخبير، وهو مُنَضِّد للحروف يدعى أندريه باربييه، كان قد لفت نظره في إخراج «لافونتين»، ويقتنع باربييه بأن يتولى الإدارة التقنية لـ «مطبعة هونوريه بلزاك». أما التسجيل بموجب براءة فتؤمِّنه له رسالة توصية من السيد دي بيرني، إذ يكتب هذا إلى وزير، وإلى رئيس الشرطة- ويدرك القوم أيُّ يد ناعمة كانت تُوَجِّه ريشة الزوج المُعَطَّل المهزوم- :

«هذا الشاب من معارفي منذ عهد بعيد، وإن استقامة تفكيره ومعرفته بالأدب ليقنعاني بأنه يدرك، بدرجة فائقة، الواجبات التي تفرضها عليه مهنة من هذا النوع» وهذه التوصية تكفي، ويُقَدَّم الترخيص الرسميّ، بحكم الوظيفة، إلى المسيو هونوريه بلزاك (أما اسم هونوريه دي بلزاك فمازال لم يُخْترع)، لكي يمارس مهنة الطباعة.

وحين تغدو هذه البراءة في يده لا يصعب عليه أن يعثر على مطبعة مُعَدَّة للبيع، إذ كان يوجد في شارع دي ماريه، وهو زقاق صغير مظلم متفرِّع من الضفة اليسرى (سُمِّي فيما بعد شارع دي ڤيسكونتي) بجوار المنزل الذي قضى نحبه فيه جان راسين ١٦٩٩، وأدريين لو كوڤرير ١٧٣٠، في الطابق الأرضي، مطبعة صغيرة متَّسخة توضع في ركن منعزل من المكان، وهي مجرد «مَكْبَس» بمعنى الكلمة، أو «صرصور» كما كانوا يسمّونها في لهجة أهل الصنعة، وكان مالكها، ويدعى المسيو لورنس إيّنيه، يتمنى أن يتخلص من هذا العمل القليلِ العائدِ منذ زمن طويل، ولا يمكن أن يحدث له ماهو أفضل من أن يعثر على من يدفع له سعراً جيداً، أو على الأقل على امرئ يعِدُ بدفع مبلغ مقبول ويقدِّم في مقابل ذلك كُفُلاء كافين.

وبذلك تحققت ثلاثة من الشروط الأربعة بسهولة وعلى نحو موفَّق. على أن الشرط الرابع يثير صعوبات جوهرية بدرجة أكبر، لأن الشراء هو دائمًا أسهل من الدفع. وذلك أن بلزاك يحتاج، من أجل مشروعه الجديد إلى خمسين وحتى ستين ألف فرنك، منها ثلاثون ألفًا للحصول على امتياز البراءة وعلى المحل، واثنا عشر ألفًا ضمانًا لبقاء المدير التقني باربييه، الذي يبدو أنه ليس بالمُتَشَبِّع تمامًا قناعةً بالموهبة التجارية عند بلزاك. وفضلاً عن ذلك تثبت بعض الأشياء الجديدة التي يتم تأمينها في المؤسسة ذات الطراز القديم، والمهملة من قبل المالك السابق أنها ضرورية لامناص منها. ومن هذه الفرنكات البالغ عددها خمسين إلى ستين ألفًا لا يستطيع مَنْ ليس لديه سوى خمسة عشر ألفًا من الديون، بحكم البدهية، أن يُؤَمِّن قرشًا واحداً. ولكن كان من حسن حظ بلزاك، أو ربما من سوء حظه، أنه يعثر على ضامنين لهم وزنهم، وذلك في الحقيقة حيث يكون المرء أقل توقُّعًا للعثور عليهم. وذلك أن أسرة بلزاك، التي لم يكن الأب فيها ولا الأم يُعرِضان قطُّ عن المضاربات، والتي تصل ثروتها النقدية في الوقت الحاضر إلى نحو مائتي ألف

فرنك، كان لديها في الوقت الحاضر بعض النقد السائل، وكان من المفاجئ أنهما لا يقاومان مشروع ولدهما، والطباعة على أية حال مهنة من المهن البورجوازية الموطّدة الأركان، وليست مهنة غير موثوقة تعصف بها الرياح كالكتابة، والأرجح أن هونوريه يعرف كيف يعرض مهنته المستقبلية بالتعبئة الكاملة لخياله المتفائل أبداً، على أنها مهنة يبلغ من انطوائها على الآمال والتوقُّعات أن مجلس العائلة يقرر أن يجعل الريْع البالغ ألفاً وخمسمائة فرنك رأس مالٍ نقدياً له. وبضمان والد بلزاك وأمه تقدِّم صديقة للعائلة، هي مدام دي لانوا ثلاثين ألف فرنك إسهاماً في رأس مال المشروع. أما الباقي فيبدو أن مدام دي بيرني، المستعدة في كل وقت للتضحية، هي التي دبَّرته هذه المرة أيضاً، وفي الرابع من حزيران ١٨٢٦ يُبلغ هونوريه بلزاك الوزارة رسمياً بقوله:

أنا، الموقع أدناه، مالك المطبعة في باريس، أصرح بأنني أنقل مسكني ومقر مؤسستي إلى شارع دي ماريه، رقم ١٧، ضاحية، سان جيرمان.

وبدأ الفصل الثالث من المهزلة المأساوية التجارية.

وكثيراً ما وُصِفَت هذه المطبعة فيما بعد، وهناك قَدْرٌ لا يستهان به من الصفحات التي تعرض مشاهد حيّة متجسِّدة من الأوهام المفقودة "Illusions Perdues" و «منزل القطة التي تلعب بالكرة- "La Maison du chat qui-pelote" تلقى ضوءاً ساطعاً وراء ألواح الزجاج المظلمة في اتجاه الشارع في تلك الورشة الشائهة. وكان شارع دي ماريه يمضي متلوِّياً، في ضيق وانحناء بين سان- جيرمان- دي- بريه، والبكي مالاكيه، ولم يكن يسقط قطُّ شعاع شمس على أحجار بلاط الزقاق الضيق. على أن أبواب الدخول العالية، الإقطاعية التي تفضي إلى الدهاليز تشير إلى أن الناس في القرن السابع عشر كانوا ينطلقون هنا بالنبلاء في عربات حنطور. ولكن القيمة والذوق يتبدَّلان خلال قرنين، وذلك أن أرستقراطيي الدم والمال كانوا قد التمسوا لأنفسهم منذ عهد بعيداً أحياءاً أسطع ضوءاً وأَحْفَل

بالمودة، وبات يُعَشْعِش الآن صغار العمال بأكواخهم في الحارة المهملة التي زاد في تجمُّعها الهُباب والوَسَخ، وكَرُّ الأيام.

أما المنزل نفسه، الذي تختاره الشركة الفتية، شركة بلزاك وباربييه محلاً للمشروع فلم يكن يَدُل حتى على مَزِية الإقطاعية التي تعطَّلت وتآكلت. وكان قد زحف على الشارع بدلاً من ذلك فندق من فنادق النبلاء التي كانت نبيلة في غابر الأيام، بل كانت مقدمة المبنى تصل حتى بتمامها إلى طريق المرور، وكان بناءاً رخيصاً للاستغلال، فكان الطابق الأرضي يتألف من مجرد غرفة كبيرة واحدة هي غرفة الورشة، ومن هناك يؤدي سلم حلزوني حديدي إلى الطابق الأول حيث كان «الراعي» الجديد قد فتح مسكنه الخاص بما يشبه الضرب: إنه دهليز، ثم المطبخ المظلم، وحجرة للطعام صغيرة فيها مدفأة من طراز الآمبير، ثم المسكن الحقيقيّ، وحجرة العمل، وفيها مخدع صغير.

وهذا هو بيته الحقيقي الأول. وكان بلزاك يبذل لهذا المسكن العناية الأكثر انطواءاً على المحبة وبدلاً من أن يَشدَّ البسط على الجدران يشدُّ عليها نسيج البركان الفارسي الأصل الأزرق الفاتح ويصُفّ كتبه في مجلدات جميلة، ثم يأتي بعدها بأشياء صغيرة رخيصة- بكل ما يمكن أن يبهج عين المساعِدة المخلصة التي تظل تزوره يوماً بعد يوم في سنِيِّه الأشد صعوبة على الإطلاق.

«وكانت تأتي في كل يوم، كالوسنِ الذي يبعث الارتياح ويُنَوِّم كل الآلام»

وهذا الملجأ الذي يجهزه بلزاك كما يجهِّز قَمْرة في سفينة مشروعه التي كانت تترنَّح منذ البداية لا يمكن أن يُحسب عليه بحال من الأحوال ضمن حساب الترف أو الطيش، لأن بلزاك يأخذ مهنته الجديدة مأخذ الجد حقًا. فهو يظل، من الصباح الباكر إلى ساعة متأخرة من الليل في أكمام قميصه، وياقته المفتوحة، ينبعث منه البخار من الهمة والنشاط في الورشة الحارة ذات البخار الذي ينضح برائحة الزيت والورق النَّدِيّ، بين العمال البالغ عددهم أربعة وعشرين، ويكافح مثل مصارع

روماني، لكي يُقدِّم العَلَف على نحو متواصل لمكابس المطبعة السبعة، وما من خدمة تعد ضئيلة بالقياس إليه، وما من عمل يرفضه بدافع الكبرياء الأدبية على أنه غير لا ئق به، فهو يصحح تجارب الطبع، ويساعد في التنضيد، ويساعد في حساب التكاليف، ويكتب الحسابات بخط يده (وبعضها مازال باقياً حتى اليوم)، وما يفتأ يحشر قامته التي باتت على شيء من البدانة، بين الآلات، وأعمدة الورق المرصوص بعضه فوق بعض، ليستثير حماسة عاملٍ وهمتَّه حيناً، وليساوم تجار الكتب ومُورِّدي الورق على كل قرش في الحجرة الصغيرة المبنية من الخشب والزجاج، في غمرة صخب الآلات التي ما تفتأ تَزْفُرُ، وتُطَرْقِع وتصرُّ صريراً، ويداه ما زالتا مُسَوَدَّتين من الصباغ والزيت، ولم يكن أحدٌ مِمَّن يُلِحّ في هذه السنين على راعي المطبعة الذي يُرغي ويُزبد من فرط الحرارة، والمربوع الممتلئ، بطلبيّة أو مطلب، يدرك ولو على أبعد تقدير أن هذا الرجل الضئيل البدين، الذي يجده أبداً في حركة لا تنقطع، ونشاط دؤوب، وذا الشعر الذي تشعثت خصلاته على قذارة واللسان الذَّرِب الطليق يمكن أن يكون أكبر أدباء عصره أو يصير إلى هذه المنزلة.

ولكن بلزاك كان قد تخلى بالفعل في تلك السنين عن مطامحه الكبيرة كلَّ التخلي فهو طبّاع بكل جسده ذي العنفوان وروحه الذي لا يُكْبَح جماحه، ويتمثل طموحه الوحيد في المحافظة على سير مكابس المطبعة والنهوض بالمشروع. لقد أدبرت هذه المطامح الجنونية في أن يقتحم على الشعب الفرنسي كلاسيكييه في عقر دارهم ويحملهم على الصمت. وتقوم مطبعة بلزاك وباربييه بالطبع بأسلوب لا انتقاء فيه البتّة، لمجرد أن تصل إلى تكليفات وتحصل عليها. ولم يكن العمل الأول للطبّاع هونوريه بلزاك، بحال من الأحوال ينتمي إلى الأدب الرفيع، بل كان كتاب: «حبوب غير لزجة من أجل طول العمر، أو حبوب الحياة» "Pillules anti-glaireuses de longue vie ou grains de vie"، وكان الكتاب الثاني دفاعاً عن قاتلة يطلب محامٍ طموح طبعه على نفقته، والكتاب الثالث إعلاناً بصوت مُجَلْجِلٍ

مُدوٍّ عن وسيلة كالأعجوبة "Mixture brésilienne de le pére pharmacien" ثم يلي ذلك في خليط فوضوي مُلوَّن، ما يأتيه إلى بيته على وجه الخصوص، من كتيّبات، ونشرات، وكتب كلاسيكية وقصائد، وإعلانات، وكتالوجات، وألوان مسليّة من التفاهات «المرشد إلى تجارة الحطب» "Boussolé du commerce des bois de chauffage" «فن عقْد ربطة العنق» "Art de mettre sa cravatte" وكان يطبع من بعض الأعمال نسخة واحدة فحسب، مثل "Petit dicionnaire des en-seignes de Paris par un batteur des pavés" (القاموس الوجيز للافتات باريس بقلم مُبلِّط) يبدو أنه كتب تحت عنوانه على عجل ما يشير إلى أن مؤلفه ناشر، لكي يؤمِّن لنفسه متنفساً في غمرة أزمة مالية.

ذلك لأن الصفقات تسير منذ البداية سيراً سيئًا ولا بدّ أن بلزاك قد قرأ، وقد خامره شعور غريب، تصحيحات أحد الكتب التي عُهِدَ إليه بطباعتها: "L'Art de payer ses dettes et satisfaire ses créanciers... ou manuel du droit com-mercial al'usage des gens ruinés (فن تسديد الديون وإرضاء الدائنين، أو المرجع في القانون التجاري لمنفعة الذين خَرِبَت بيوتهم، على أنه لا يعرف، منذ البداية، فن التمكُّن من هذه التقنية، أي تقنية إرضاء الدائنين. ولكن مجرد صفته المالية الأولى تكشف عن الكيفية التي تُحْدِث بها القوى ذاتها، في عوالم مختلفة، آثاراً متناقضة، إنه التفاؤل ذاته، وقوة المخيِّلة ذاتها، التي تنشئ في الجو الفني عوالم، وتفضي في عالم التجارة إلى الخراب على نحو لا سبيل إلى تجنُّبه. وتتعثَّر قدم بلزاك منذ ارتقاء الدرجة الأولى، ولكي يؤمِّن لنفسه شيئًا من رأس مال المؤسسة الخاصة بالطباعة باع ما يوجد مخزونًا لديه من كتابَيْه «لافونتين» و «موليير»، لتاجر الكتب بودْوان بثمن يبعث على السخرية، إذ باع كل النسخ البالغ عددها ألفين وخمسمائة باثنين وعشرين ألف فرنك. والحق أن هذا يعني مجرد ثمانية فرنكات للنسخة بدلاً من الفرنكات العشرين التي حَسَبَها في أيامه،

ولكن بلزاك في حاجة ماسّة إلى المال، ويوقّع، وفي غمرة نفاد صبره ولهفته على الحصول على المال في بيته، لا ينتبه أبداً إلى الظرف المتمثل في أن بودوان يفضّل أن يعطيه، بدلاً من الفرنكات الاثنين والعشرين ألفاً نقداً، سبعة وعشرين ألف فرنك على شكل سندات ديون على اثنين من تجار الكتب يعيش أحدهما في الريف، فلا يرى إلاّ الفرنكات البالغ عددها خمسة آلاف زيادةً ويبتلع الصنّارة مع الطُعْم، ولكن سرْعان ما يَتبين الخُطّاف المعقوف، وفي هذه اللحظة التي يزمع فيها بلزاك أن يحوز على ماله من كلا تاجِرَيْ الكتب، يعلن كلاهما إفلاسه ولمّا كان بلزاك مُثْقَلاً بالديون الفادحة فإنه لا يستطيع أن ينتظر إلى أن يتم إنجاز معاملة التفليسة، ولكي يحصل على شيء ما في يده فحسب، يقرر ملازمة مستودع التاجر الريفي من دون أن يُلْحِق به أذى، ويحصل، بدلاً من المال النقدي، على أكوام كاملة من الكتب التي لا قيمة لها، في بيته، ومنها الطبعات القديمة لجيسنَر، وفلوريان، وفينيلون، وجلبر، التي يعلوها الغبار منذ سنين في الريف، في مستودعها. وهكذا حدثت المأساة التالية: طبع بلزاك بالمال النقدي الذي أعطته إياه مدام دي بيرني، كتابين، هما «لافونتين»، و«موليير»، ثم تخلّى عنهما، إذ تبين أنهما غير قابلين للبيع، بثلث السعر الأصلي، ليحصل على المال النقدي من جديد، وبدلاً من المال النقدي أي يحصل الآن، مرة أخرى، على كتب غير ممكنة البيع أيضاً، ويحصل بدلاً من الورق المُهْمَل، على ورق آخر ربما لم تُجاوِز قيمته عُشْرَ الورق المهمل السابق، لقد جرى له مثل ما جرى لهانز في سعادته في الأسطورة الألمانية القديمة، يستبدل هذا بما له بقرة، ويستبدل ببقرته معْزى، ثم يستبدل بالمعزى إوزّة، ويستبدل بالإوزة حجراً، وأخيراً يرى بعدُ هذا الحجر يسقط في الماء فيحدث دويّاً.

وترقد الآن في مطبعة بلزاك وباربييه أعمال الفطاحل الراحلين الذين خبانجمهم. على أن الأمر الذي ينطوي على المصيبة أن العمال الذين لا بُدَّ من دفع أجورهم بالفرنكات نقداً من أجل طعامهم وشرابهم وسكنهم وملْبَسهم، يأبَوْن

إجراء المقاصَّة عن أجرهم الأسبوعي بطبعات قديمة لفينيلون وفلوريان، وهكذا دواليك، وسَرْعان ما يتشمم مُوَرِّدو الورق أيضًا رائحة غير مستحبَّة، فيردُّون سندات دين بلزاك «وكمبيالاته» التي لم تكن في تلك الأيام قد حازت بعدُ على قيمتها المستقبلية من حيث كونها أوتوغرافات قيِّمة، من دون مراعاة، ويصرّون، وقد استحوذ عليهم الغضب والفظاظة، على التسوية الفورية للحساب. وما عادت الحجرة المبنيَّة من الخشب والزجاج، في الورشة، مخبأً كافيًا، وبات ظهور بلزاك في الورشة يزداد نُدْرةً، ويظل غائبًا مدة تزداد طولاً على نحو مطرد بوجه خاص حين تقترب نهاية الأسبوع ويتيه هنا وهناك، يلتمس تمديداً لأجل «الكمبيالات»، وليتّدبر بعض المال النقدي من رجال المصارف، والأصدقاء والأقرباء. وكل مشاهد الإذلال التي سوف يصفها فيما بعد في روايته «سيزار بيروتو، ذلك الوصف الخالد، شهدها في تلك الشهور التي كان يناضل فيها نضال اليائس من أجل بقاء مشروعه.

ولكن حتى قواه الشمشونية ما عادت تستطيع أن تمسك بالغطاء على رأسه وفي صيف عام ١٨٢٧ يكون كل شيء قد ضاع، وما عاد في خزانته قرش ليدفع أجور العمال لقد عجز الطبّاع بلزاك مثلما عجز من قبله الناشر، ومن قبل ذلك أديب «كرومويل» ولم يبق للمطبعة من الوجهة القانونية والمنطقية سوى إمكانيتين: فإما التفليسة العلنية وإما التصفية الهادئة.

ولكن بدلاً من هاتين الإمكانيتين يختار بلزاك إمكانية ثالثة. وعلى شاكلة منافسه الخالد نابليون لا ينسحب مهزومًا إلى إلبا، بل يجرِّب معركته «واترلو». وما دام لم يتعلم من التجاريب السابقة فهو يكرر، مرة أخرى، الممارسة السابقة، وهي إنقاذ مشروع لحقت به الهزيمة والإفلاس منذ عهد بعيد، بأن يُكبِّره مراراً فحين لم تستطع تجارة النشر أن تطفو على سطح الماء علَّق بها المطبعة لتكون حزام نجاة، وحين تنتهي المطبعة الآن إلى الغرق يحاول أن ينهض بها بأن يُلْحِق بالمشروع الخاسر

مـسـبك حـروف، على أن المأسـاويّ في هذا يكمن، مـثلمـا كـان الحـال في كل مشروعات بلزاك في أنه قام على تفكير سليم في الأسـاس. وفي بلزاك يستكنُّ، إلى جانب الأخيلة، واقعي متمرِّس محنَّك، يتمتع بالنظرة الصافية التي يتميز بها محام أو رجل أعمال. ولم يكن مشروع طبعة الأعمال الكلاسيكية في مجلد واحد مشروعًا عبثيًا في حد ذاته، إذ فرض نفسه بعد ذلك في صورة أفضل أيضًا، وحتى تأسيس المطبعة في حد ذاته لم يكن من قبيل العبث، إذ كان استهلاك المطبوع يتنامى في تلك السنين بسرعة بل كان المشروع الثالث، وهو مشروع مسبك الحروف، حافلاً بالآمال والتوقّعات على وجه الخصوص. وكان بلزاك قد سمع بطريقة جديدة في الطباعة، وهي التي يطلق عليها اسم «فونتيرّيبوتيبي» اخترعها رجل يقال له بيير ديريشيل، ويقال إنها نجحت في الوصول إلى نتائج أفضل مما كان يحدث في حالة الستيريو تيب المألوفة «من دون استعمال بوتقة الصهر من أجل سبك القوالب، ومن دون ضرورةٍ لأن يعود المرء أدراجه ويصحِّح»، وعلى الفور يُفْتَتَن بلزاك، إذ أدرك بنظرته التي تستطلع المستقبل بمقدار عشرات السنين، في وقت مبكر، أن كل طريقة من طرق التبسيط وكل عملية تخفيض لتكاليف الإنتاج ستكون حاسمة في مستهل عصر الصناعة وأن أكبر الأرباح في كل مادة من المواد لا بدَّ أن تنتج عن اختراع ما في هذا القرن، يقلل من تكاليف الإنتاج، أو يُسَرِّع وتيرة الصنع. وكانت مشكلة هذا الاختراع تشغله بغير انقطاع- وهذا ما تثبته رواياته. ولم يكن من قبيل المصادفة أنه يدع بطله داڤيد سيشار، في «الأوهام المفقودة» - هذه الصورة التي تعكس حقبته الخاصة، ممارسًا للطباعة- يجهدنفسه من أجل قضية في صناعة الورق تعود، من حيث تأثيرها، بالملايين. وذلك أن بطله، بالتازار كلايِس، في «البحث عن المطلق "Recherche de l'absolu"، وبطله سيزار بيروتو، مخترع مرهم الجمال، ورسّامه فرينهوفر، وموسيقيَّه غامبارا، هؤلاء جميعًا يبحثون عن تصعيد لقوة التأثير عن طريق تنسيق للقوى من نوع جديد. ومن بين كل أدباء العصر لا يتابع أحد، منذ أيام جوته، كل خطوات تقدم العلم بهذا الفضول، وهذا الاهتمام، مثل بلزاك، وهكذا يتنبأ أيضًا، بأن التنضيد باليد، والسبك باليد، لابدَّ لهما، مع

حاجة البشرية المتنامية بِنسب خيالية، إلى الأشياء المطبوعة، أن يتوجّها عما قريب، بالضرورة، نحو تحسين للآلات. وعى كل حال فأسلوب الطباعة الذي يسمى بالفونتير ّيوتيب يبدو أنه بداية تُبَشّرٍ بالكثير، وبنفاد صبر المتفائل، وبيأس المفلس، في الوقت ذاته، يلجأ بلزاك إلى هذه الإمكانية الجديدة.

وفي الثامن عشر من أيلول ١٨٢٧، بينما كانت المطبعة تلفظ أنفاسها الأخيرة، يجري تأسيس شركة جديدة، ينتمي إليها باربييه، رفيقه، وبعده رجل يقال له لوران، مُصَفّي التفليسة لورشة التنضيد المفلسة التي تحمل اسم م. جيليه الابن، ٤ شارع غارونسيير. وفي كانون الأول يتم توزيع دورية، ويبدو أن لوران هو الذي يقدم المادة، ويتولى باربييه القيادة، ويتولى بلزاك الدعاية للطريقة الجديدة. والآن تكون خاتمة المحل الصغير المُتْعِب، محل الطباعة العَرَضية؛ ولا بد أن تتم قيادة المشروع الجديد على النطاق الواسع، ويُحَضّرِ بلزاك ألْبومًا رائعًا يفترض أن يتم ّفيه ترتيب كل الحروف الطباعية التي يمكن توافرها في المطبعة، بنماذج يمكن الإحاطة بها بنظرة شاملة، وكذلك كل التصاوير والقطع الزخرفية التي يمكن تقديمها إلي المطابع أو الناشرين بفضل الطريقة الجديدة، ولم يكد هذا الكتالوج الجديد يتم إعداده إعدادًا أنموذجيًا، حتى أعلن باربييه، القيادي ّالثالث، فجأة، أنه ما عاد يرغب في المشاركة. وتهدد السفينة بالتحطُّم وهي بعدُ في الميناء، ولِتجاوزِ هذه الأزمة الخطيرة، تأتي، مرة أخرى، أخلص الخلصاء، مدام دي بيرني لمعونته، فتلتمس من زوجها أن يعطيها تفويضًا ماليًا، وتتولى الالتزام الخاص بباربييه الذي خرج، على أن التسعة آلاف فرنك التي تلقي بها بعدُ في أثر المال الذي بات ضائعًا، تُعَوِّم المركب من جديد، لحظة من الزمان.

ولكن كان قد فات الأوان. وذلك أن الألبوم الرائع بكل ما فيه من الحروف، وهو الذي كان يفترض أن يجتذب المشترين والطالبين، لا يصبح جاهزًا في الوقت المناسب، ثم إن الدائنين الذي أثار قلقهم انسحاب باربييه، الذي يبدو الوحيد الذي

يمكن الاعتماد عليه بالقياس إليهم، يقتحمون الدار ويريد مُوَرِّدو الورق حساباتهم، والمرابون كمبيالاتهم، كما يريد العمال أن تُدْفع لهم أجورهم، وما عاد أحد يلقي بالاً إلى تطمينات بلزاك بقوله إن ألوفًا وعشرات ألوف باتت مضمونة له عن طريق المشروع الجديد، وما عاد أحد يأخذ سنداً، لا من مؤسسة بلزاك وباربييه، ولا من مؤسسة بلزاك ولوران، ولا من هونوريه بلزاك. وفي السادس من نيسان ١٨٢٨ لا يكون هناك بُدٌّ من إعلان إفلاس الاتحاد المؤقت الثالث أيضًا الذي كان أُغلق إلى أجل قدره اثنا عشر عامًا، وها هو ذا بلزاك مفلس، ومفلس ثلاث مرات، ناشراً، وطبّاعًا، ومالك مَسْبَكٍ للحروف.

والآن ما عاد يمكن كتمان الخبر السيّء، ولم يكن هناك بدٌّ من إبلاغ الأسرة، إذا كان لا يراد لها أن لا تطّلع على إخفاق ولدها، وعلى وصمة الإفلاس التي لحقت باسم بلزاك، عن طريق الصحف أوّل ما تطلّع عليه. ويكون لخبر انهيار المطبعة وورشة تنضيد الحروف وقع كوقع الصاعقة في منزل الوالدين، وتحاول الأم أن تكتم عن زوجها البالغ من العمر اثنين وثمانين حولاً، ضياع رأس المال المستثمر، وهو الأمر الذي تُوَفِّق إليه في البداية أيضًا، ولكن هذا يأتي بعد ذلك، بأسلوب لا يرحم، وهو: هل ينبغي للأسرة أن تدع ابنها العاقّ يسقط، بلا تردُّد، أم تنقذ شرفه التجاري عن طريق تضحية أخرى؟

أمّا الأم بلزاك فهي من البورجوازية الصغيرة، مقتصدة، جَلْدَة، تحبُّ المال حبًا جمًا، وتدافع عن كل قرش توفِّره دفاعًا مريراً، وكان ينبغي للمرء في الحقيقة أن يتوقَّع منها، وهي التي كانت تزجر ولدها إذا ما عَلَّق في حجرته نقشًا فنيًا صغيراً، لتبذيره، ولم تكن ترْسل إلى طفلها في المدرسة الداخلية حتى مصروف جيب يسيراً، أن تفتح صندوق توفير العائلة- الذي مازال ينطوي على مبلغ جسيم حقًا. ولكن الأم بلزاك مواطنة بالمعنى الآخر أيضًا، فهي تفكر، والخوف يساورها، في حُسْنِ سمعتها، كما أنها مفعمة بالخوف من اللَّغَط العمومي. على أن فكرة احتمال

ظهور اسم بلزاك في قسم «التفليسات» في كل الصحف تعني بالنسبة لكبريائها البورجوازية أمام الجيران، والأقرباء، عبئًا لا يطاق. وهكذا تعلن- وفي وسع المرء أن يُقَدِّر ماهية اليأس الذي كانت تعاني منه- استعدادها للتضحية بالمال مرة أخرى لكي يتم تجنُّب التفليسة العلنية، غير المُشَرِّفة، والشائنة.

ويتولى ابن عمٍّ لها، هو المسيو دي سيديّو، بناءً على رجاءٍ منها، عمل التصفية الصعب، ولن يكون ذلك سهلاً عليه، لأن بلزاك أدخل تشابكًا بين المشروعات المختلفة مع كل ما يتصل بها من التزاماتٍ وبلغ من هذا التشابك أن المسيو دي سيديّو لم يكن له بُدٌّ أن يظل يعمل في ذلك طوال عام تقريبًا لتقرير قيمة الأصول والموجودات و الاستحقاقات، وليُرْضيَ الدائنين إرضاءًا جزئيًا على الأقل. ويكون تصرفه المعقول الأول إخراج بلزاك نفسه إخراجًا كاملاً، فأهل الخيال وصُناع المشروعات لا يُحتاجُ إليهم في عمل يبلغ هذا القَدْرَ من الدقة والمشقة، وبعد عام فحسب، أي في منتصف عام ١٨٢٨ ينتهي العمل المشوب بالكَدَرِ إلى غايته. أمّا المطبعة التي يَجْثُمُ عليها عبء ديون يربو على مائة ألف فرنك، فيحظى بها باربييه، مع براءة الامتياز في الوقت ذاته، بسبعة وستين ألف فرنك، بحيث ينجم عن ذلك خسارة جَلِيّة لأسرة بلزاك تتراوح بين أربعين وخمسين ألف فرنك. أما السيدة دي بيرني التي استثمرت من أجل عشيقها، أيضًا، خمسة وأربعين ألف فرنك، فتحصل، في صورة دفعة كانت أول الأمر بعيدة المتناوَل إلى أقصى الحدود، وهي ورشة تنضيد الحروف، على رهينة تسلِّمها إلى ولدها ألكسندر دي بيرني لمواصلة تشغيلها. وفي الوقت الحاضر يخسر كل

أولئك الذين وثقوا بعبقرية بلزاك التجارية، خسارة مالية فادحة، ولكن بفضل سخرية غريبة من سخريات القدر يأخذ المشروعان في إدرار عائد على الفور بمجرد أن يغادرهما الأديب، ويُدار المشروعان في عمل واقعيّ، موضوعيّ، مبنيّ على الصبر الذي تتطلبّه التجارة ويعود بلزاك أدراجه من جديد إلى العالم الوحيد الذي يستطيع فيه أن يدع خياله يتطوَّر إلى الحد الأقصى، إلى الفن.

ولمّا كان ابن العم سيديّو قد فرَغَ الآن من تصفية مؤسسة بلزاك وباربييه ومؤسسة بلزاك ولوران بصورة مؤقتة، بعيداً عن الإشكالات واللَّغَط، فقد بات على بلزاك نفسه أن يسوّي الحساب، وذلك أن هذا باعث للدمار بمعناه المادي. فهو الآن في التاسعة والعشرين، وأقل حرية مما كان في أي وقت مضى، وبينما كان ابن التاسعة عشرة لا يملك شيئًا، ولم يكن مدينًا بشيء، تراكمت عليه، وهو في التاسعة والعشرين، مائة ألف فرنك من الديون تقريبًا، لأسرته، وصديقته، لقد ظل عشر سنين يعمل عبثًا، من دون توقُّف، ولا استرخاء، ولا استمتاع، وحمل على عاتقه كل ضربٍ من ضروب الإذلال، وكتب الألوف من الصفحات بأسماء غريبة، وكان يقف عند منصته بصفة رجل أعمال، من الصباح إلى الليل، مادام لم يكن يجري وراء الزبائن أو يقاتل الدائنين. لقد عاش في حجرات باعثة للأسى والتفجُّع، ولم يكن له بدٌّ أن يتقبَّل من أسرته خبز الاستقلال المُرّ، ليغدو، بعد جُهْدٍ كجهد العمالقة، أفقرَ مائة مرة، وأقل حظًا من الحرية ألف مرة، من ذي قبل. أما الديون التي تبلغ المائة ألف فرنك، والعائدة إلى سنوات نشاطه التجاري الثلاث، فسوف تكون كتلة سيزيف الصخرية التي يُدَحْرِجُها إلى القمة بعضلات توشك أن تتمزَّق، المرةَ بعد الأخرى، والتي تظل تشدُّه إلى الوراء المرة بعد الأخرى، من جديد. وهذا الخطأ الأول الواحد في حياته يحكم عليه أن يظل مدينًا إلى الأبد، ولن يتحقق أبدًا حلم طفولته بأن يتمكَّن من الإبداع الحر، وأن يكون مستقلاً.

ولكن تسوية الحساب هذه المتصلة بدفاتر التجارة والعمل يقف في مواجهتها شيء من الأصول والموجودات لا يضاهيه شيء آخر، وذلك أنَّ ما خسره رجل الأعمال ظفر به الأديب، المصورِّ في عملة أخرى، أرفع شأنًا، وأعلى مكانةً على النطاق العالمي، لأن سنوات الجهد، هذه الثلاث، وسنوات الكفاح الذي لا ينقطع، مع مقاومة الواقع، علَّمت الرومانسي، الذي لم يكن يزيد قبل ذلك على أن يرسم بالخطوط العريضة، شخصيات باهتة، غريبة عن الحياة، بأسلوب المحاكاة والتقليد، أن يرى العالم الواقعي بكل مسرحياته اليومية التي تُعَدُّ كلٌّ منها، كما سيقول بعد ذلك، مسرحية تهزُّ النفوس مثلما تفعل مسرحية لشكسبير شامخة هائلة

مثل معركة نابليونية. لقد خبر الأهمية الهائلة الشيطانية، للمال في عصرنا المادي، وهو يعلم أن ألوان القتلى من أجل كمبيالة وسَنَد ماليّ، وضروب المراوغة والحِيَل التي تدور في المَحالّ الصغيرة، أو في مكاتب التجار في باريس، في كل ساعة لا تقتضي من تعبئة القُوى في هذه اللعبة ما هو أقل مما يعبّئه قراصنة بايرون وفرسان والترسكوت ذوو الدم الأزرق ولقد حصَّل، بعَمَلِه مع العمال، ونزاعه مع المرابين، وتعامُلَه مع المُورِّدين بيقظة يائسة، من المعرفة بالظروف الاجتماعية، ماهو أكثر بما لا يُقاس، مما حَصّله رفاقه الكبار، ڤيكتور هوجو أو لامارتين، أو ألفريد دي موسيه، الذين لا يبحثون إلاّ عمّا هو رومانسيّ، وعمّا يرتفع بالنفس، وعن الرائع، على حين يعرف هو كيف يرى، ويصورِّ، في الإنسان أيضًا، ما هو حقير مع قسوته، وقبيح، على دناءته، وهائل مع خفائه. وإذا خيال المثاليّ الفتى يضاف إليه صفاء الواقعيّ، وتَشَكُّك المخدوع، وما عاد ثمة عظمة سوف ينبهر بها، ولا حُجُب وأَسْتار رومانسية تخدعه، لأنه أطلَّ بنظرته الثاقبة على أعمق أعماق الآلة الاجتماعية، وعرَف الحبال التي يُشَدُّ بها وَثاق المدينين، والشباك التي يهرب المرء من خلالها من الدائنين. وإنه ليعرف كيف يُجْنى المال وكيف تتم خسارته، وكيف يخوض المرء الدَّعاوى، ويتقلَّب في المناصب، وكيف يبعثر الأموال وكيف يَدَّخر، وكيف يخدع الآخرين ويخدع نفسه، ولسوف يستطيع بعد ذلك أن يقول بحق إنه لم يستطع أن يصورِّ عصره بالفعل إلاّ لأنه مَرَّ، في صباه، بهذا القدر من المهن المختلفة، وبات من ظروفها على بيّنة، من جرّاء ذلك، على أن أكبر الروائع من أعماله، على وجه الخصوص، وهي «الأوهام المفقودة»، و «جلد الحصان» و «لويس لامبير»، و «سيزار بيروتو»، وهي الملاحم الكبرى التي تتصل بالطبقة الوسطى، والبورصة والأعمال، ما كانت ممكنة التصورُّ لولا ما عانى من خيبات الأمل في سنوات تجارته. والآن فحسب، إذ امتزج خياله بالواقع وتشبَّع به، يمكن أن تنشأ تلك المادة الرائعة، مادة الرواية البلزاكية، هذا المزيج الأكثر اكتمالاً على الإطلاق، من الواقعية والخيال. الآن فحسب، إذ انتهى إلى الإخفاق في العالم الواقعي، بات الفنان فيه ناضجًا، لكي ينشئ عالمه الخاص إلى جانب هذا العالم، وفوقه.

الفصل السادس

بلزاك ونابليون

مابدأه بالسيف ،

سأُكَمِّلُه بالقلم

ولم يكن بدٌّ للمرء أن يتوقَّع من انهيار على هذا الجانب من الكمال ، أن يدفن تحت أنقاض كل هذه الآمال العريضة الفيّاضة ، ثقةَ المُضارب المتسرِّع ، بنفسه أيضًا . غير أن بلزاك لا يحس ، حين ينهار المنزل عليه ، إلاّ بشيء واحد ، وهو أنه عاد حراً ، مرة أخرى ، وأن في وسعه أن يبدأ من جديد . على أن حيويته الموروثة عن الوالد ، وربما عن جيل بأكمله من الفلاحين الذين لا يتزعزعون ، لا تتعرَّض للأذى على الإطلاق من جراء هذه الكارثة ، ولا يفكر في أن يخفي نفسه ويواريها ، كما يُفْعَل بالأموات ، ويتولاه الأسى على المال الذي ضاع ، وأخير فالمال الذي فقده ليس ماله الخاص ، أما الديون فستظل ، من فرْطِها غير واقعية بالقياس إليه ، شأن ثرواته المحسوبة . ولن تستطيع أية هزيمة كانت أن تقهر تفاؤله الأَوَّلي الفطري . وما كان خليقا أن يقصم ظهر الآخرين إلى الأبد ، لا يكاد يخدش بشرة عملاق الإرادة هذا .

«لقد كنت أجد جرأتي تتفوَّق على تعاستي في كل حِقَب حياتي» .

وعلى كل حال كان يبدو في الفترة الأولى ، أن من المستحسن ، لأسباب تتعلَّق باللياقة والتهذيب ، أن يُغيِّبَ نفسه عن الأنظار قليلاً . وفضلاً عن ذلك فقد كانت لدى بلزاك أسباب لها وزنها ، تحمله على أن لا يكشف للدائنين عن باب

مسكنه الخاص من أجل زيارات ليست موضع الترحيب. ومثل الهنديّ الأحمر في إحدى الروايات التي كان يهواها كثيراً، للفينيمور كوبر، يظل طوال فترة من الزمن يمارس فن طمس آثار وقع قدميْه، ولمّا كان يزمع البقاء في باريس لأسباب تتصل بكسب المعيشة، ومن أجل مدام دي بيرني، فقد كان من المستحسن تبديل المساكن، وأن يظل غير معروف عند الشرطة.

ويجد مخبأه الأول عند هنري لاتوش الذي دخل معه في الشهور الأخيرة في علاقات صداقة. ويتخذ لاتوش، بفضل لباقته في عالم الصحافة الباريسية، تجاه بلزاك، الأصغر منه سنًا بقليل والذي كان اسمه مازال غير معروف البتة، موقف الحامي إلى حد ما. ولمّا كان ذا موهبة أنثوية تتمثل في كونه أقدر على الإيواء والتقبُّل، والتعرُّف والتمييز، منه على التميُّز بالأصالة، فقد كان مثل كل أصحاب المواهب الجزئية، دمِثًا لطيف المعشر، متأدِّبًا متجملاً، في سنوات نجاحه، لكي يتَّسم بعد ذلك بالمرارة من جراء الإخفاق، ويعتزل الناس. على أن تقديره هذا الخصوصي لموهبة الآخرين وهب له، وهو غير الموهوب نسبيًا، نوعًا من مشاركة الخالدين في خلودهم. ويبقى هناك مأثرته المتمثلة في إنقاذه قصائد أندريه شينييه التي ظل أخوه الغيور طوال ربع قرن يخفيها في مكتبه، للعالم من بعده، ولئن لم يكتب هو نفسه أيضًا قصيدة تستحق الذكر، فقد انصبَّ اهتمامه على بعض أشعار هي من أجمل الشعر الفرنسي الغنائي، وهي أبيات مرسلين ديبود ڤالمور (Marceline Desbodes- Valmore) الرائعة، التي كان المحبَّ لها غيرَ المُخْلِص، وليس مما يشهد على ضآلة مقدرته على الشعور الحدسيّ حفاوته بالمضارب في المطبعة، الذي كان لم يكتب بعد سطراً واحداً يُعتدُّ به وقد شارف على الثلاثين، وكأنه رفيق من رفاقه، وأنّه شجعه أكثر مما شجَّع أي امرئ آخر، ونبهّه إلى وجوب تجريب نفسه في الأدب مرة أخرى.

وبالطبع فإن بلزاك لا يصبر طويلاً على المُقامِ في هذا المخبأ عند الرفيق الودود والكثير اللغط والثرثرة مع ذلك، ولكي يعمل كما يعمل، أي في النهار والليل،

ومن دون أن تعكير الصَّفْوِ أو توقُّف، يحتاج إلى عزلة كاملة، إلى صومعة جدّ صغيرة ولكنها خاصة به وحده. ولكي تنقذ الأخت، والحَمْوُ، سورفيل، للمُطارَد، القَدْرَ اليسير من السكينة والهدوء الذي يحتاج إليه من أجل بدايته الجديدة، يضعان اسميهما تحت تصرُّفه، لأنه لو استأجر مسكنًا باسمه هو لظَلَّ الجرس يُقْرَع من الصباح إلى المساء، من زحف الدائنين ومنفذي الأحكام القضائية. وهكذا يأخذ، في آذار ١٩٢٨، سيِّد غير معروف البتة، يُقال له سورڤيل، جناحًا صغيراً في شارع دي كاسيني سيظل الآن المقرَّ الرئيسي لبلزاك مدة تسع سنوات وستكون حجراته الأربع أو الخمس مأهولةً بالمئات والآلاف من صور الشخصيات التي يحلم بها، ويضعها فيها.

وهذا الشارع المسمى شارع دي كاسيني يتميز، في وضعه، بكثير من المزايا، فهو شارع في ضواحي المدينة يقطنه بسطاء الناس، ولن يلتمس الناس فيه كاتبًا من الكتاب، ويقع في الحافة القصوى من المدينة بالقرب من المَرْصَد.

إنه ما عاد باريس الحقيقية، ومع ذلك فهو ينتمي إلى المدينة. فهذه المدينة تنطوي على شيء من الميدان، ومن الشارع، والشارع الفخم العريض، ومن المباني التحصينية، ومن الحديقة، ومن الشارع المشجر، والطريق الزراعي، ويكون المكان من الريف، ومع ذلك فهو من العاصمة بعدُ، إنه شيء من هذا كله، ومع ذلك فهو في الأساس ليس بالشيء الحق الصحيح. إنه في الحقيقة قَفْرٌ من القفار.

ومثلما ينحدر فارس من قطاع الطرق، من حصنه، يستطيع بلزاك أن ينزل من هنا في الليل إلى «باريس التي عند قَدَمَيَّ، و التي أريد أن أغزوها»، ومن ناحية أخرى يستطيع أن يرفع الجسر المتحرك، بحيث لا يقدر زائر ليس في موضع الترحيب أن يفاجئه. أما سر إقامته فلا يعلم به إلاّ صديقه، المصورُ أوغست بورجيه الذي يسكن في الطابق السفلي من الجناح، وهاوية الفن، مدام دي بيرني، التي ربما كان لها دور في التشاور بصدد اختيار هذا المسكن، ذلك لأن هذا المسكن لا

يقع، على وجه الخصوص، حول الناصية التي تُفضي إلى مسكنها، بل ينطوي أيضًا، على شيء خصوصي ينطوي على نعيم الحياة Dilecta : إنه سلّم خلفيّ ضيّق يؤدّي، على نحو مباشر، من الفناء، عن طريق باب مغطى بالسجاد، إلى حجرة نوم بلزاك بحيث لا يمكن أن تُلْحِق الأذى بسمعتهم أكثر الزيارات تواترًا

ولم يكن المسكن، في حد ذاته، إلاّ باهظًا إذا ما قارنه المرء بشارع ليدينيير، وبدلاً من الستين فرنكًا، مقابل الحجرة في السقيفة، تكلّف الحجرات الصغيرة، والصالون وحجرة العمل وحجرة النوم، مع حمام صغير مطبوع بطابع العبث والدُعابة، أربعمائة فرنك في السنة، ولكن بلزاك يعرف الفن الخطير المتمثل في تحويل الرخيص إلى باهظ، فلم يكد يحوز المسكن، وهو بعدُ باسم امرئٍ آخر حتى وقع ضحية للهوى الذي يحمله على تجهيزه تجهيزًا مترفًا. ومثل ريتشارد ڤاغنر الذي كان على الدوام، وطوال حياته، يرزخ تحت عبء الديون، على نحو مماثل لبلزاك بدقة، هذا أيضًا يشعر بالحاجة إلى حيازة الترف حتى في محيطه، في نوع من استباق المتعة، بينما كان يعمل لتأمين ثروة له، ومثلما كان ڤاغنر يستدعي، أينما توقف وأقام، أوّل ما يستدعي، عامل تبطين من أجل الستائر المخملية والدمَقْس الذي يغطي الجدران، والسجاجيد الثقيلة والغليظة، ليضع نفسه في الإطار الذي يوافق المزاج، يحتاج بلزاك من أجل صومعة الرهبنة الخاصة بعمله، إلى وسط فخم، وأكثر من فخم ومُثْقَل- وهنا أيضًا يضاهي ڤاغنر، وكان في الحقيقة وسطًا خاليًا من الذوق. أما التجهيز بالأثاث فهو عنده متعة تمتد على مدى الحياة. ومثلما يضطر إلى إنشاء حجرات، ومنازل، وقصور، من أجل كل شخصية من شخصياته في الروايات، بالمعرفة المُؤلَّفة، معرفة مهندس العمارة، ومُبطِّن الجدران، والخياط والجمّاع، بكل ما في هذا من التفاصيل، لكي يراها متجسِّدة، يحتاج من أجل نفسه إلى الإطار الشخصي ذي التشكيل الحسن. وما زالت هذه ليست الأشياء الباهظة في الوقت الحاضر كما أصبحت فيما بعد، ولم تكن قطع البرونز الإيطالية، وعُلَب

نَشوق التبغ الذهبية، ولا العرائش التزيينية المزدانة بالشعارات والرموز، ولا كانت كل تلك الأشكال المُصعَّدة المترفة إلى الحد الفاحش، هي التي سيظل طوال عشرين عامًا يضحي بنوم لياليه وبالجزء الأفضل من صحته من أجلها. ففي شارع كاسيني لم يكن يوجد في بادئ الأمر سوى أشياء فائضة يسيرة، وفي الوقت الحاضر مازال بلزاك يجري هنا وهناك، وراء تجار القطع الفنية الصغيرة والأشياء المستعملة، ليشتري لنفسه قطعًا تزيينية لاضرورة لها البتَّة، من ساعات قائمة على الأرض، وشمعدان مائدة، وتماثيل صغيرة وأخلاط من المتاع النسائي، من أجل قطع الأثاث التي يدبّرها لتضاف إلى قطع الأثاث التي تمَّ إنقاذها من أيدي الدائنين، من شارع دي ماريه، وبعد أسرته يكون الآن أيضًا صديقه لاتوش هو الذي يجد هذا الولع النسائي بقطع المتاع الصغيرة، أمرًا يتسم بالحمق مع كونه خالي الوفاض تمامًا:

«وإنك لأنت نفسك دائمًا: فأنت تختار شارع كاسيني لإقامتك، ولا تسكن هناك أبدًا. وتجري هنا وهناك إلى كل مكان، إلاّ إلى هناك، حيث ينتظرك نشاط مفيد يستطيع المرء أن يعيش منه، وبتعلق قلبك بالبُسط وخزائن الماهاجوني، وبكتب جميلة جمالاً عبثيًا، وبساعات مكتب فائضة عن الحاجة، ونقوش نحاسية، وتحملني على الجري في أنحاء باريس كلها وراء شمعدانات لن يضيء ضوؤها لك أبدًا، وأنت مع ذلك لا يوجد في جيبك بضع قطع نحاسية من النقد تتيح لك إمكانية زيارة صديق مريض».

غير أنه ربما كان يحس بهذه الجوانب الخارجية الفائضة عن الحاجة إحساسه بشيء ضروري، بحكم كونها شيئًا يتلاءم مع الفيض الداخلي. أما حجرة العمل فتظل مثل حجرات الرهبان، وستظل كذلك إلى الأبد: المنضدة الصغيرة، التي يأخذها معه من مسكن إلى مسكن بتعلُّق خرافيّ، والشمعدان من أجل الشموع (وبلزاك يعمل في الليل في المقام الأول)، والخزانة الجدارية لأوراقه ومخطوطاته. ولكن الصالون ينبغي أن يحدث أثرًا ينمّ عن النعومة والأنوثة، وحجرة النوم وفوقها

بعدُ الحمام يحب أن يَنِمّاً عن الشبق. وفي اللحظة الراهنة، إذ خرج من صومعته المظلمة، ومن حلم يقظته التقشُّفيّ، المتصل بالعمل، يريد أن يشعر بالألوان الحِسّية من حوله، من أقمشة ناعمة رقيقة، ومن سحابة ذهبية من سماء الغنى، وشيءٍ مما هو غير مألوف، ومما يتجاوز الطبقة الوسطى، لكيلا يستيقظ في هذا الواقع الآخر، بخشونة مفرطة.

ولكن من أين يأخذ بلزاك المال من أجل هذه المقتنيات؟ وهو الذي لم يكسب شيئًا، وعليه ديون تبلغ ستين ألف فرنك يترتب دفع فوائد عنها قدرها ستة آلاف فرنك في السنة، وكيف يستطيع، وهو الذي كان قلَّما يخرج في تلك الأيام من بيته في شارع ليدينيير، حين كان يجلب لنفسه الماء من بعد ستة شوارع لمجرد أن يوفر القرش الذي يُدْفَع للسقّاء، وكيف يستطيع الآن، وهو الذي يرزح تحت عبء ديون لا تُقَدَّر، أن يقتني فوقها، وإضافة إلى الضروري، فجأة، أمثال هذه الأشياء الفائضة عن الحاجة؟ إن الأبطال الواردين في رواياته سوف يشرحون له التناقض. وسوف يدافعون، عشرات المرات عن الأطروحة القائلة إن انعدام الديون أو الديون الضئيلة تجعل المرء مقتصداً، والديون الضخمة مبذِّرًا. فبالفرنكات المائة في الشهر، في شارع ليدينيير، كان بلزاك يستعمل كل فرنك سبع مرات، وحين كان يزرح تحت عبء ديون قدرها ستون ألف فرنك، وهو رقم فلكي بالقياس إليه، بات سواءاً عنده أن يجلِّد الكتب التي يحبها بالنسيج القطني الرخيص، أم بجلد الماعز المراكشي الأحمر، وأن يُسَدِّد بضع مئات من الفرنكات، أو يكون من الأفضل أن يُرتِّب على نفسه آلافًا أخرى من الديون. ويحتج أبطاله بقولهم: إما أن يخترق المرء السدود والحدود، بأن يصبح مشهوراً- كما يعيش بلزاك ويجادل على هذا الأساس، وإما أن يتزوَّج امرأة غنية، وإمّا أن يضرب ضربة صائبة في البورصة-، وعندها يُستعاد كل شيء، أو يعجز المرء، وعندها لن يحسّ الدائنون بالقدر الضئيل من الزيادة على وجه الخصوص. ولكن هونوريه بلزاك عقد العزم على أن لا يعجز، فهو يعلم أَنْ

قد آن الأوان لبدء الكفاح الحقيقي، والآن ماعاد الكفاح يدور من أجل أجور ضئيلة وانتصارات عابرة، ومناوشات مُغْفَلَة، بل بات يدور حول الانتصار الكبير الحاسم. وفي حجرة عمله الصغيرة البائسة ينتصب، في صورة الزخرف الوحيد، على حافة رف المدفأة، تمثال صغير من الجبس لنابليون أهداه إليه امرؤٌ ما، أو ربما عثر عليه في مكان ما، ويحس بلزاك بهذه النظرة الصادرة عن فاتح العالم إحساسه بتحدٍّ له هو. ولكي يستثير نفسه إلى أقصى الحدود يتناول قطعة من الورق، ويكتب عليها:

«مابدأه بالسيف سأُكَمِّله بالقلم».

ويُلْصِق الورقة على قاعدة التمثال. وهذا الدافع، والتذكير ينبغي أن يظلاّ أمامه، لكي يجرؤ الجرأة الأقصى، ولكيلا يكون حتى وراء هذا الذي هو أعظم عظماء القرن، والذي سكن هو أيضًا في حجرة سقيفة ضيقة في باريس، سنوات وسنوات قبل أن يجعل من نفسه، بنفسه سيد العصر. وبالتصميم ذاته يجلس هونوريه إلى مكتبه، لكي يفتتح العالم لنفسه، بدوره، بالقلم سلاحًا، وببضع رزمات من الورق غير المكتوب، ذخيرة.

على أن التفوُّق الهائل لبلزاك، ذي التسعة والعشرين حولاً على ابن التسعة عشر حولاً يكمن في أن بلزاك يعرف الآن ما يستطيع العمل فيه، وفي أنه يعرف ما يريد العمل فيه، ولم يشعر بطاقته إلاّ في غمرة الكفاح المرير، وعرف في الوقت ذاته الشرط الأولى الثابت الحاسم للنجاح الكاسح، وهو أنه لابُدّ للمرء من تركيز إرادته الحازمة على هدف ما، وفي اتجاه وحيد. هنالك فحسب تستطيع الإرادة أن تأتي بالأعاجيب، حين لاً يجازف بجهوده وهو متذبذب، ويكون موزَّعًا بين أشد الميول اختلافًا وتباينًا، ولا يهب القوة والعنفوان إلاّ الجنون بشيء وحيد، والتفاني في هوىً جامح وحيد، على سبيل الحَصْر وسوف يبسط بلزاك، في تضاعيف عمله هذه الفكرة الأم "Idée mére" (أو الفكرة الأساسية)، في علم النفس عنده، في متغيّرات لا تُحصى- هذا التفاني يهب القوة، ويفرض نفسه فرضًا لا يُقاوم. وفي

وقت متأخر يتضح له الآن الخطأ وعلة إخفاقه في العمل والتجارة، في قرارة نفسه، وذلك أنه لم يكن في هذه الأعمال بكل روحه، ولم يُرَكِّز عليها التركيز الكامل، ولم يكن يجري وراء كل قرش وكل تكليف بالرغبة المُسْتَعِرة عند رجل التجارة الحقيقي، وكان يكتب كتابة عَرَضية ويقرأ الكتب، ولم يكن يقف كل عصب في جسده، وكل فكرة في دماغه على مشروعه، أو على مطبعته. وحين يجرِّب هذا الآن مرة أخرى في الأدب فلا بُدَّ أن يتمّ ذلك بطريقة أكثر انطواءاً على الهوى الجامح والطاقة مما كان حتى الآن. لقد توافرت الشروط الأولية، وكان قد وَطَّن يَدَه بمحاولاته الغُفْلِ التي لا تحصى، وباتت لديه الآن، إذ احتك بالحياة الواقعية احتكاكًا ينطوي على آلاف التضاعيف وتعرَّف على الناس، ولا حظهم، وعَرَف كل توتُّرات الواقع في جسده هو، مادَّةٌ تكفي لكي تملأ حياة بأسرها بألوان الوصف، وكان خَدَمَ، وهو تلميذ، مائة سيد، وعمل في خدمة كل حاجة من حاجات الساعة، والآن، إذ أشرف على عامه الثلاثين، انتهت حقبة التعلُّم، ومضى يزجُّ بكل إرادته في العمل، بات في وسعه أن يكون معلِّم نفسه.

وهذا التصميم على تحمُّل المسؤولية حيال نفسه وحيال عمله الخاص يفصح عنه بلزاك عن طريق مجرد التصميم على نشر كتابه الجديد باسمه هو، فما دام يستخفي وراء الأسماء الزائفة ولا يريد شيئًا آخر سوى أن يقدِّم، الكثير من صحائف المادة الطباعية الدارجة ليحصل على الأتعاب بأقصى سرعة ممكنة، كان من الجائز أن يكون متهاونًا، إذ كان كل اللوم والثناء الذي يعود به من وراء كل هذه الكتابات التي يُضَمُّ بعضُها إلى بعض بأسلوب أخرق، لا يتوجَّه إلاّ لسيِّد خيالي هوسان- أو بان أو ڤيير جليه. ولكن في هذه المرة، إذ كان يريد أن يفرض العلامة التجارية (الماركة) الخاصة بهونوريه بلزاك، وكان من المفروض أن يشق لنفسه طريقًا خلال الكتلة المتزاحمة المتراصة من كتَّاب الكتب والكتب، ما عاد يريد أن يُخْلَط بينه وبين صغار الملفقين للروايات ذوات الالتواءات والانعطافات الكثيرة، وأشكال

الصور التاريخية الحقيرة بأسلوب آن رادكليف. لقد عقد بلزاك العام ١٨٢٨ العزم على أن يظهر بأوراق مكشوفة، وعلى أن يتصارع مع أكثر مؤلفي الرواية التاريخية نجاحًا وأشهرهم قاطبة، وهو والترسكوت، وأن يحوز قصب السبق، وأن لايكون نِدًّا له فحسب، بل يتخطّاه ويتجاوزه. وبنفخة البوق الماثلة في مقدمته للكتاب الجديد يفتتح المبارزة بقوله:

«على أن المؤلف لا يقصد إلى الثبات على طريقة واحدة في العرض والتصوير تُرْصَف فيها الوقائع بعضها إلي جانب بعض على جفاف، ويُعرَض فيها الحدث خطوة خطوة، مثلما يشير المرء إلى هيكل عظمي ّ رُقِّمَت أجزاؤه بعناية، فلابد للمرء في هذه الأيام أن يعرض لنا الدروس الكبرى التي تتحدث إلينا من كتاب التاريخ المفتوح بحيث تكون مفهومة على النطاق العام. والكتاب أولو المواهب يتبعون هذا المنهج منذ عدد من السنين، والمؤلف ينضمُّ إليهم، لقد حاول في هذا الكتاب أن يعبِّر عن روح عصر من العصور، وأن يبعث الحياة في حدثٍ ما. فهو يؤثر أن يقدم المعركة نفسها بدلاً من تقديم تقرير عنها، وبدلاً من السرد الملحمي يختار الحدث الدرامي ّ.

ولأول مرة منذ تلك المحاولة المبكرة في صباه، وهي مسرحية كرومويل يطرح بلزاك على نفسه مهمة تتحدى كل قوته، أمّا ماهية الحدة الهائلة التي يُفَرِّغ شحنتها بفعل هذا فذلك ما سيطّلع العالم عليه عمّا قريب وقد تولّته الدهشة.

وكان بلزاك قد قام بتحضير الموضوع من أجل روايته الحقيقية الأولى منذ وقت طويل ويوجد بين أوراقه التي لا تُحصى مشروعات بالخطوط العريضة لرواية «البواسل» التي يُفْتَرَض أن تعرض حكاية مأخوذة من ثورة الفانديين على الجمهورية الفرنسية، وكان قد أعدَّ من ناحية أخرى، حكايات متفرِّقة من أجل عمل من أعماله المتكلّفة ذات المستوى الأدنى تجري أحداثه في المحيط الأسباني، وإذا هو يدرك، بفضل شعوره المُصَعَّد بالمسؤولية، مدى انطواء أشكال التوثيق التاريخي في

الروايات التاريخية السابقة على النقائض، وأنَّ مَنْ أراد الاقتراب من الحاضر فلا يجوز له أن يضع مجرَّد كواليس رُسِمَت عليها الرسوم والتصاوير حول الشخصية، بل لا بُدَّ له أن يرى البيئة حقًا وفي صورة مفعمة بالحياة، وكان إذا قام قبل ذلك بتلفيق رواية من العصر الوسيط لم يستطع تقرير أوجه الانحراف والانزلاق فيها، في أحسن الأحوال، إلاّ عدد من أساتذة الجامعة أو المختصين، غير أن كفاح الڤانديين مازال غير مفرط في البعد من حيث الزمان، ومازال يوجد على قيد الحياة مئات من شهود العيان الذين شاركوا في فصائل الزرق، أو في قوات الفلاحين بقيادة كادودال (Cadoudal). وهكذا يقبل بلزاك هذه المرة على العمل بعناية وبوحي الضمير، ويجلب من المكتبات مذكرات معاصرة، ويدرس التقارير العسكرية، ويأخذ منها مقتطفات مستفيضة، ويكتشف لأول مرة، أن التفصيل الضئيل، الذي لا يلفت النظر، والحقيقي يهب للرواية العظيمة الحيويَّة المُقْنِعة، وليس خطوط الفريسكو الطائشة التي تعلمها من الكتاب الأجانب، فبدون الحقيقة والصدق لا ينشأ فن، ولا يمكن أبدًا لشخصياتٍ أن تكون مؤثرة بالفعل إذا لم تُعْرَضْ مرتبطةً بالبيئة التي تحيط بها على نحوٍ مباشر، بالأرض، والمنظر الطبيعي، والوسط والجوّ النوعي في عصرها، وإنما يبدأ الواقعيُّ في بلزاك مع أول عمل خاص وشخصي.

ويظل بلزاك شهرين، وثلاثة شهور، يقرأ ويدرس، ويبحث في كل المذكِّرات التي يمكن الوصول إليها، ويؤمِّن لنفسه الخرائط، لكي يستطيع أن يُثبِّت بأقصى قدر من الدقة، حركات القوات، وكلَّ حكاية عسكرية على حدة. ولكن لا يحدث في أي مرة من المرات أن ينقل نص مطبوع حتى لأكبر موهبةٍ في التخيُّل حسِّية التجسيد المباشر. وسرعان ما يدرك بلزاك، أنه لكي يستطيع أن يصف رِحلة الآنسة دي ڤيرنيّيْ على الوجه الصحيح لابدّ له أن يسلك طريق العربات ذاته مثلما فعلت بطلته، وأنه لا يقدر على التعبير عن الهواء والجوّ، والتلوين الحي

للمنظر الطبيعي إلاّ عندما يضاهي الواقع برؤياه التي ربما كانت مفرطة في فيضها الغامر الدفّاق.

والآن يشاء حسنُ الحظ، أن يكون أحد المحاربين الجمهوريين القدماء مازال على قيد الحياة وقد عاد من الحملة إلى شوُان، جنرالاً متقاعداً، في فوجير على وجه الخصوص وهي منطقة الحرب في تلك الأيام، وأن يكون هذا البارون المدعو دي بوميتريّي صديقًا قديمًا لأسرة بلزاك، ولم يكن بُدٌّ لبلزاك أن يستغل توليفات فريدة في نوعها إلى حد بعيد، حتى وإن لم يكن له مندوحة عن اقتراض المال اللازم للسفر، أو العمل في أعمال ملتبسة غامضة، لتأمينه. (وحتى أدق الباحثين في بلزاك لا يعرفون كم من أعمال الزنوج الملتبسة الغامضة كهذه اضطر إلى أدائها وبصدق عاصف يعتذر من البارون دي بوميريي من أنَّ وضعه الماليّ المُقَلْقَل يحمله على أن يدعو نفسه إليه، وكان البارون دي بوميريي الذي يشعر، على الأرجح بالملل العميق في ركنه المنعزل، ويسرُّه، مثل كل محارب شيخ متمرِّس بالقتال، أن يجدا امرءاً يدعه يقصُّ أفعاله الحربية التي باتت تعد ضائعة منسيّة وأذناه صاغيتان، واهتمامه ينمُّ عن هوى جارف ويجيب في غير إبطاء ولا تريث، قائلاً إن بلزاك يمكنه أن يأتي.

ولم يكن يترتَّب على ابن التاسعة والعشرين أن يأخذ معه الكثير من المتاع، وما زال لا يضطره التعاظم المبني على الغرور، كما سيكون شأنه في الأيام اللاحقة، إلى أن يختار من بين مائة وثلاثين صُدَيْرِيًا، الأكثر تألُّقًا والأَبْهَظَ ثمنًا، ومازال لا يرتحل في عربة خاصة به يصحبه خادم في حُلَّة الخدم الخاصة، وإنما هو شاب جَمُّ التواضع بل هو مجهَّز بثياب باهتة، حائلة اللون، ولا يُحْدِث بحال من الأحوال أثرًا ينمُّ عن الأهمية. والخَطَر، يصعد إلى أرخص مكان في عربة البريد العمومية، وحتى ترف عربة البريد هذا لا يستطيع أن يتحمَّله إلى أن يصل إلى هدفه تمامًا، إذ يضطر إلى اجتياز الجزء الأخير من الطريق على ساقيه القصيرتين لأسباب

تتعلق بالتوفير والاقتصاد، وهذا المسير في شارع الجيش لا يُجمِّل على وجه الخصوص هندام شعره الذي يتسم على كل حال بأنه ليس على ما يرام عند الأديب الشاب. وحين يطرق باب الجنرال دي بوميريي وقد تصبَّب عرقًا وعَلاهُ الغبار يحسبه المرء أول الأمر متشرِّدًا، غير أنه لا يكاد يدخل المنزل، ويُسْلِم نفسه، بكل ما فيه من نضارة الشباب، للشعور بالسعادة بكونه توارى أخيراً لكي يحظى بسرير وطعام طيب مدة بضعة أسابيع أو شهور، حتى يتوارى الانطباع الأول المزعج. وقد وصفت مدام دي بوميريي فيما بعد هذا اللقاء الأول الذي يعطينا صورة مجسَّدة عن الحيوية التي كان ينبعث شعاعها في تلك الأيام من بلزاك الفتى في نظرته وفي كلامه وفي كل حركة من حركاته.

«كان إنسانًا شابًا قصير القامة، صُلْب العود الذي كان يزيد من إبراز صلابته حُلَّة رديئة التفصيل، وكانت قبعته باعثة للنفور والاشمئزاز، ولكن لا يكاد يحسرها عن رأسه حتى يتوارى كل ما تبقى من جرّاء تعبير وجهه، وكنت لا أرى منْ بَعدُ سوى محيّاه، ومَنْ لَمْ يَرَه فلن يستطيع أن يكوِّن تصوُّرًا عن نوعية هذا المُحيَّا، ونوعية العينين اللتين كانتا له! جبين واسع كأنما ينسكب عليه الضياء، وعينان بنِّيتان تضربان إلى اللون الذهبي كانتا لا تقلاّن حفُولاً بالتعبير عن كلماته، أما أنفه فكان غليظًا مربَّعًا، وكان فمه كبيراً إلى حد فاحش، ترتسم عليه، دائمًا، أسارير ضِحكةٍ توشك أن تنطلق، على الرغم من أسنانه التي انتابها الأذى، وكان شارباه كثيفين، وكان شعره طويلاً أيَّما طول، مُلْقى على كتفيه، وكان في تلك الأيام ولاسيما حين يزورنا، ضامر البطن على الإجمال، وكان يحدث فينا انطباعًا يوحي بأنه امرؤ أَضرَّ به الجوع.

وكان في مجمل أسلوبه، وحركاته، ومِشيته، والطريقة التي يتكلم بها، قدر كبير للغاية من طيب القلب والسذاجة والصراحة والصدق بحيث لم يكن بُدٌّ للمرء أن يتعلَّم أن يحبّه بمجرد أن يراه، غير أن خصلته البارزة كانت مزاجه الطيب دائمًا، والذي بلغ من فَيْضِهِ أنه كان يُحْدِث أثرًا مُعْدِيًا»

وسوف يبلغ حُسْن إطعامه أنه «لا يفقد امتلاءه واكتنازه ونضارة لونه» إلا بعد أسابيع في باريس.

وبدلاً من الأيام الأربعة عشر التي تمَّ التخطيط لها يمكث شهرين، ويدع نفسه يتحدث ويروي، ويُطَوِّف في آفاق الريف، ويكتب ويدوِّن، وينسى باريس، وينسى أصدقاءه بل ينسى مدام دي بيرني الذي وعدها وعداً مقدساً أن يبعث إليها بيوميات عن انطباعاته اليومية ويعيش بتلك الحدَّة التي تتسم بالهَوَس بفكرة ثابتة، والتي ستظل عنده الشرط الأولي لكل نجاح طيِّب، لعمله وحده، وبعد بضعة أسابيع يستطيع أن يعرض على لاتوش في باريس جزءاً كبيراً جاهزاً من الرواية.

ويحسُّ لاتوش، الذي تتمثل موهبته الوحيدة في انطوائه على غريزة تضاهي مِجسَّ البحث عن الماء في باطن الأرض، على الفور، بالكاتب الكبير الآخذ في الظهور في بلزاك. ومن المؤسف أن ثقته يتم التعبير عنها بصيغة مادية، فهو يقرر أن «يراهن» على هذا الذي سيتمتع بالحظوة عنده في المستقبل، ويقدِّم إليه، في معرفة منه بوضعه المتأزِّم، ألف فرنك عن حقوق النشر للرواية التي لم تكن بعدُ مكتملة على الإطلاق. ولم يكن أمام بلزاك اختيار. فعلى الرغم من أنه سبق له أن دبَّر، مقابل نتاجه الذي دبَّجه ولفَّقه دونما جهد ألفًا وخمسمائة فرنك، وحتى ألفَيْ فرنك، لا يستطيع أن يقاوم إغراء ألف فرنك نقداً. وتتحقق الصفقة، وكما هو مألوف تتحطّم الصداقة في هذه الأثناء، وتعرُض لِلاتوش مفاجأة غير مستحبة. ولمّا كان اعتاد أن ينظر إلى بلزاك نظرته إلى عامل مستعجل، نزِق يقدم في اليوم الكميَّة المتفَّق عليها من جريمةِ قتل، وسُمٍّ، وحِوار عاطفي، فإنه يكون من بواعث استيائه أن يرى في بلزاك ما يحمل على تذكيره، فهو لايدع مخطوطه قبل أن يكون وقع من قرارة نفسه هو موقع الرضى، وثمة تأخير جديد، إذا لم يكد القوم ينتزعون المخطوط من يد بلزاك ويبعثون به إلى المطبعة حتى عادت تجاريب الطبع المطبوعة مصححة ومُغيَّرة تغييراً يبلغ منه أنه لم يكن للقوم بُدٌّ أن ينضِّدوها من جديد،

ويستشيط لاتوش غضباً، قائلاً إن الوقت قد ضاع ومعه المال بهذه التصحيحات التي لاتتوقَّف- ولن يكون هو آخر ناشر يترتب عليه أن يشكوَ من هذا ولكن بلزاك ما عاد يدع أحداً يُلِحُّ عليه أو يستعجله، إذ كان شعور الفنان بالمسؤولية قد استحوذ على ذلك الذي كان يصطنع الكتابة الملفَّقة. فهو يشعر أولَّ مرة بما يدين به لاسم هونوريه بلزاك الذي عقد العزم، على أن يجعله خالداً، وعلى قَدْرِ ما ستظل ديونه المادية لا تؤرِّقه طوال حياته، كان يشعر بهذا على أنه التزامه الذي لا مَعْدى له عنه.

وفي آذار من عام ١٨٢٩ تظهر أخيراً رواية «آخر الثوار الملكيين، أو بريطانيا في عام ١٨٠٠» "Le dernier chouan ou Bretagne en 1800" لهونوريه بلزاك، أي مازال لا يحمل سمة النبالة في اسمه «دي»- في أربعة مجلدات لدى الناشر كانيل، ولا تغدو هذه نَجاحًا بمعنى الكلمة، ولم يكن ذلك بغير وجه حق. على أن الاستعداد والميل يكشفان لأول مرة عن اليد البارعة لكاتب ملحميّ كبير، فالمنظر الطبيعي يتم بَسْطُهُ على نحو رائع، وكل شيء عسكري يتمُّ رسمه بتجسيد فخم رائع، ثم إن شخصيَّتي الجنرال هولو، والجاسوس كورينتين تثبتان أنهما قد تم تفصيلهما تبعًا للأنموذج الحَيّ على نحو مباشر. أمّا الولَع بالخلفيّات السياسية الذي سيضفي على الروايات فيما بعدْ طابَعها الذي لا يُضاهى، وهو طابع العصر، فذلك ما تُبْرِزُهُ شخصيةُ فوشيه التي كانت تفتن بلزاك دائماً، من الظلال التي كان خصم نابليون هذا، الأقوى على الإطلاق، يعرف كيف يستخفي وراءها طوال حياته. ولا يظل هناك إلاّ المؤامرة الحقيقية التي تكشف بعدُ، على نحوٍ يبعث على الاشتباه، عن أصلها المأخوذ من الرواية التلفيقية.

على أن الآنسة دي فيرنيي التي انتقلت من الرواية الرخيصة المبتذلة الغفْل، «عازف الغيتار» التي «فَبْرَكَها» بلزاك قبل بضع سنين لمكلفيه المبهمين تظل الرواية بالنسبة إليها غير صادقة في كل مشهد. ويشير النقد الباريسيّ، بحق، أيضاً، وهو الذي يتخذ موقفاً فاتراً إلى حد بعيد على الرغم من كل إثارات لاتوش وبلزاك، إلى «مافي الأسلوب من هَلْهَلَة» (Devergondage du style)، وبلزاك

نفسه لا يستطيع أن يتجاهل معرفته أنه جعل يده مفرطة في الوَهْن (حين تمسك بزمام الأسلوب) من جراء الكتابة الملَفّقة بغير اهتمام على مدى السنين، وحتى بعد خمس سنين، بعد أن حَسَّن الأسلوب بأقصى قدرٍ ممكن من العناية من أجل طبعة جديدة، يكتب إلى البارون جيرار، الذي يبعث إليه «ببضاعته القديمة في صورة مجدَّدَة»، قائلاً: «أنا أستطيع أن أعمل ما أشاء- على أنني أخشى أن تظل يد المبتدئ يمكن تمييزها والتعرّف عليها». وحتى الجمهور لا يتحمَّس على وجه الخصوص لوالترسكوت الفرنسي الجديد، أو فينيمور كوبر. ويتم، بمشقة وعناء شديد، بيع أربعمائة وخمس وأربعين نسخة في عام كامل، ومرةً أخرى يُضْطَرُّ من وَثِق ببلزاك قبل الأوان إلى أن يكفِّر عن هذه الثقة بخسارة فادحة.

على أن ثمة مصادفة تعوِّض هذا الإخفاق. وذلك أن الناشر لوڤاسور يعلن عن قدومه على بلزاك بينما كان هذا مازال يعمل في رواية «الثائر الملكي»، وكان الرجل قد وُفِّق إلى استكشاف بيته، ويذكِّره، بطريقة شديدة الإلحاح، أنه سبق أن دفع له قبل عام، مائتي فرنك مقابل «المرجع لرجل الأعمال»، وهو كتاب من تلك الكتب في القانون التي تولى بلزاك كتابتها في تلك الأيام خلال أزمته المالية، ونسي بلزاك هذا الاتفاق منذ زمن طويل، ويصر لوڤاسّور على حقه، ولما كان بلزاك غير راغب في قطع عمله والإقدام على انتاج مثل هذا الكتاب غير المُحكَم العائد إلى مناسبة معينة، في غمرة اشتغاله بالرواية التي يُقْصَدُ بها إلى الجد، فهو يقترح على دائنه اقتراحًا جاء فيه أنه يوجد بين مخطوطاته القديمة كتاب آخر في القانون أيضًا، هو قانون الزواج، كان قد شرع، في أيامه، حتى في طباعته، بعنوان «فيزيولوجيا الزواج، وقال إنه إذا وافق لوڤاسّور فهو يعتزم أن يُعَدِّل هذا الكتاب من أجله، وبذلك يقضي دينه عن كتاب «المرجع لرجل الأعمال». على أن لوڤاسور الذي يدرك بلا ريب مدى ضعف أمله في الحصول على مال نقديّ من هذا المفلس، يعلن موافقته.

ويُقبل بلزاك على العمل، ولم يبق من العمل القديم إلا القليل. وكان بلزاك قد قرأ في هذه السنوات الكثير لرابليه. وبدلاً من روح الفكاهة البارد عند أنموذجه السابق، ستيرن، يُدْخِل في اللغة الآن الحيوية والحرارة، وتزوِّده صديقته، مدام دي بيرني، وواحدة جديدة أيضًا، من معارفه، هي دوقة أبرانتيس، بطرائق ممتعة، وهكذا ينشأ عن الموقف الحرج، وبفضل هذا الموقف الحرج، كتاب مَرِن مِطْواع، متُوَهِّج، يتسم بخفة الروح، يستفزُّ إلى المناقشة بتناقضاته الفاحشة وسخريته اللاذعة المستعذبة، وريَبيتِّه الفكاهية. وهذه المناقشة التي تبدأ على وجه السرعة، والتي تتسم بالمزاج الحسن أو المتكدِّر، تؤمِّن للكتاب نجاحًا فوريًا. وكانت النساء على وجه الخصوص هُنَّ اللواتي سيكُنّ لبلزاك فيما بعدُ حاملات الرايات، واللواتي يشعُرنَ بأنهن يتعرَّضن للإستثارة والاستمتاع، وكُنَّ يقَدِّمْنَ الأجوبة برسائل فيها من الحلاوة وفيها من اللَّذْع، فيتحمَّسن لها أو يشكون منها، ولكن في كل الأحوال لا يتحدث القوم في كل الصالونات في الأسابيع التالية، إلاّ عن هذا الكتاب وحده فحسب. ومازال بلزاك لم يَشُقَّ طريقه، ولم يَغْدُ مشهوراً، غير أن ثمة شيئًا واحداً وصل إليه، لقد استبدَّ بباريس الفضول حيال هذا الكاتب الفتى السيد بلزاك، ويدعوه الناس، ويضطرُّ إلى أن يطلب الحُلَل الجيدة والصُدَيريات ذات الأبَّهة من خياطه، وتقدِّمه دوقة أبرانتيس إلى مدام دي ريكاميه، التي كان صالونها في ذلك الوقت أول دار لبورصة الأعمال الأدبية في ذلك الموقع. ويتعرف، في المؤسسة المنافسة، العائدة لمدام صوفي وديلفين جاي، على زملائها الذين باتوا مشهورين: ڤيكتور هوجو، ولامارتين، وجول جانين، وماعاد ثمة ضرورة إلاّ لجهد أخير، وتتحقق الرغبة الثانية التي كان يبتغيها من الحياة، وهي أن لا يكون محبوبًا فحسب، بل أنْ يصبح مشهوراً أيضًا.

ومازال الطريق غير مفتوح، ولكن السَدَّ تم اختراقه في موضعٍ ما، وبكل القوة التي يتمتع بها طوفان مُحْتَجَز تنهال الآن القوة المنتجة الهائلة عند بلزاك،

كالشلال. ومنذ أن لاحظ الناس في باريس طلاقة الكاتب الفتى، الذي يستطيع في الوقت ذاته، أن يُنْضِج محكمة متماسكة البنيان، مثلما يكتب رواية تاريخية، وفطيرة لحم حرّيفة مثل «فيزيولوجيا الزواج»، في الفرن ذاته، يرى نفسه، وقد أوشك النجاح والتكليفات الجمَّة أن تصيبه بالخبال ولكن حتى أولئك الذين يطلبون بلزاك لا يدرون كم سيكون هذا الفنان الجديد، ذو الألف وجه، مستعداً لأن يقدم من الصفحات والأمور المتعددة الجوانب، وماهو الجواب الهائل الذي سيُردُّ به مُرْعِداً على هذا النداء الأول الذي مازال بعيداً على وجه الإطلاق عن أن يكون مُلِحاً.

وما ينشره بلزاك في هاتين السنتين، ١٨٣٠ و ١٨٣١، بمجرد أن يحظى اسمه ببعض المكانة والتقدير، من أقاصيص، وروايات وجيزة، ومقالات في الصحف، وأحاديث، وقصص قصيرة، ومقالات في ركن الأدب والفن في الصحف، وتأمّلات سياسية، لا يكاد يكون له مثال في التاريخ الحَوْلي للأدب. وإذا جمع المرء المنشورات السبعين المضمونة عن عام ١٨٣٠ (والأرجح أنه كتب منشورات أخرى بصورة عرضية، وبأسماء مستعارة وجمع الخمس والسبعين عن عام ١٨٣١، تبعًا للكمّ فحسب، فلا بُدّ له أن يكون كتب في اليوم الواحد جُزازة طبع تتألف من ست عشرة صفحة تقريبًا من دون أن يدخل في ذلك تصحيحات الطبع. ولا توجد مجلة، ولا صحيفة لايجد المرء فيها اسمه فجأة، فهو يشارك في العمل في «اللص»، وفي «الصورة المظلّلة» و «الكاريكاتور» و «الموضة» و «مجلة باريس» وفي العشرات من المنشورات الأخرى، في تَلوُّن وتنوُّع جامح، ومازال يثرثر بأسلوب ركن الأدب والفن في الصحافة، بتلك «القوانين» القديمة، حول «فلسفة للهندام، وحول «فيزيولوجيا الذوق» في فن الطبخ، ويكتب اليوم عن نابليون، ويكتب غداً «دراسة في أخلاقيات القفّازين، ويُقَدِّم نفسه فيلسوفًا في التأويلات حول «السان سيموني» و «السان سيمونية»، أو يصرح بـ «رأي بقّالي»،

ويدرس «التصفيق»، أو «المصرفيّ» ويتهكّم على «أسلوب إثارة الاضطراب أو القلاقل»، ثم يكتب، مرة أخرى عن «الأخلاقية» في زجاجة الشمبانيا»، أو عن «فيزيولوجيا السيجار».

ومثل هذه المرونة الفكرية وروح الفكاهة ما كانت لتستحق الملاحظة والتنويه في حد ذاتها في الصحافة الباريسية، غير أن ما يبعث على الدهشة هو نشوء أعمال كاملة من الروائع في وسط أمثال هذه المفرقعات اللمّاعة، وكانت أول الأمر مجرد روائع من القياس الصغير، ولكنها مع ذلك أعمال تجاوزت قرنًا أولَ من الزمان تجاوزًا مجيدًا ولم يَطْوِها النسيان، على الرغم من أنها كتبت بمثل السرعة التي كتبت بها المنشورات العابرة الصائرة إلى الزوال. وذلك أنَ كتبًا مثل: «عاطفة جامحة في الصحراء»، «حكاية في ظل الإرهاب» و «إلفيردوجو، وساراسين، تكشف عن هذا الكاتب المجهول الاسم تمامًا، بضربة واحدة أستاذًا لا يفوقه أستاذ في الفنون الإبداعية الصغيرة، وكان بلزاك كلما تجرأ على المزيد من المضي قُدُمًا ازداد اكتشافًا لنفسه "Vires acquirit eundo": (في التقدُّم إلى الأمام تتنامى قواه) وبالصورة الخاصة بنوع أدبي معين، من المجتمع الباريسي «دراسة في النساء»: (Etude de femme) و «امرأة في الثلاثين- La Femme de trente ans»، «السكينة الزوجية- La Paix du Ménage»، يبدع أنموذجًا جديدًا كل الجدة، هو أنموذج «المرأة غير المفهومة» التي ترى نفسها مخيَّبة الآمال في كل توقُّعاتها وأحلامها، والتي تعاني من السَّقم والمرض حتى الموت، ومن لا مبالاة زوجها وبروده، كما يعاني المرء من داء خفيّ، ولمّا كان مازال مشحونًا بالنزعة العاطفية إلى حد بعيد، فإن هذه الأقاصيص على وجه الخصوص، وهي التي تبدو لنا، بافتقارها إلى الواقعية والحقيقة الموضوعية، مضمَّخة بالعطر، تُكْسِبه جمهورًا متحمسًا، ولمّا كان هناك في فرنسا، وفي العالم، ألوف، وعشرات الألوف، ومئات الألوف من النساء اللواتي يشعرن أنه يجري التنكُّر لهن، وأنهن مُخيَّبات الآمال، فإنهن يكتشفن في بلزاك الطبيب

الذي هو أول من يطلق اسماً على هذا المرض. أنهن يشعرن أنهن مفهومات من قَبِله، وهو الذي يصفح عن كل زلّة إذا ما حدثت بدافع الحب، والذي يجرؤ على أن يقول إنه ليست المرأة ذات الثلاثين وحدها، بل هي ذات الأربعين أيضاً، إنها هي على وجه الخصوص بحكم كونها العارفة والمتفهِّمة، التي تتمتع بالحق الأعلى في الحب، أجل إنهن يشعرن أنه يفهمهن كما لم يفهمهن أحد غيرهُ. فهو يغدو محاميها الذي يدافع عن كل زلة في وجه قانون الدولة والأخلاق البورجوازية، وثمة أعداد لا تحصى من نظائر مدام ديجلون يَحْسَبْن أنفسهن منعكسات في صوره التي أضفي عليها الطابع المثالي. على أن روايته «مشاهد من الحياة الخاصة- Sc`enes de la vie privée» التي تظهر في نيسان ١٨٢٠، لا تقرأ في فرنسا فحسب، بل تقرأ أيضاً في إيطاليا وبولونيا وروسيا، بالحماسة ذاتها، وهو يعلن، من خلال كلمة «امرأة في الثلاثين» للعالم بأسره، عن عصر جديد للحب بالنسبة للمرأة.

ولكن هناك درجة أعلى من الميل النرجسيّ عند جمهور النساء الذي لا يرثي دائماً إلاّ لنفسه من خلال رثائه لحبيبه، لابدَّ لها أن تتولاّها الدهشة من تعدد وجوه هذا الكاتب وحِدّته، وهو الذي خرج من القفص المظلم الخاص بالأدب التلفيقيّ، ليقتحم حَلَبَة الأدب بوثبة الأسد، وذلك أن كل جيل أولئك الذين باتوا من المشاهير ليس لديهم ما يُضاهون به «بيت الشباب الأحمر- L'Auberge rouge» في قيمته وقوة تصويره، مع إيجازه وإحكامه، ويكشف بلزاك في «العمل الرائع المجهول Chef d' oeuvre inconnu»، بعد أن أثار الدهشة بمجرد اتساع أفق موهبته، عن العمق الكامل لعبقريته. على أن الفنانين على وجه الخصوص يشعرون أنه لم يحدث قط أن تَمَّ الدفع بأعمق سر من أسرار الفن، وهو الدافع إلى الكمال، إلى المستوى الأعلى، ليدخل في إطار المأساويّ، بهذا القدر من النجاح الذي يلفت الأنظار وكانت جوانب جزئية من الجوانب الكثيرة في عبقرية بلزاك، تترواح بين عشرة وخمسة عشر، قد أخذت كلٌ منها تعكس، على مساحة صغيرة ومحدودة،

شيئًا من الضوء الداخلي"، غير أن مقياس منسوب ارتفاع بلزاك لن يتمثَّل، دائمًا، إلاّ في اتساع نطاقة، وفيضه، وتعدُّد جوانبه. وذلك أن مداه الكامل الذي لا يُسْبَرغوره، لا ينجمُ إلاّ بحشد كل قواه.

ولأول مرة يتيح بلزاك تقدير حجمه في أول رواية واقعية له «جلد الحصان La peau du chagrin » لأنه يكشف فيها عن هدفه المستقبلي: وهو أن يُقَدِّم الرواية لتكون مقطعًا عرضيًا يمرُّ من خلال المجتمع بأسره، إذ يمزج الطبقات العليا بالطبقات الدنيا، والفقر بالغنى، والحرمان بالتبذير، والعبقرية بالبورجوازية، وباريس العزلة بباريس الصالونات، وسلطان المال بعجزه. ويأخذ الملاحظ الكبير والناقد الذي يتمتع بالفكر الثاقب في فرض الحقيقة على الرومانسي"العاطفي خلافًا لإرادته، أمّا ما هورومانسي"في «جلد الحصان» فما زال يتمثل في مجرد خطة تقوم على تركه أسطورة شرقية من ألف ليلة وليلة، تتحقق في باريس العام ١٨٣٠، وربما كان الرومانسي"يتمثل أيضًا في شخصيات الكونتيسة فيدورا التي تُؤْثِر الترف على الحب، في مقابل نقيضتها، بولينا، الفتاة التي تتسم بمقدرتها التي لا تحدّها حدود، على الحب الغيري". ولكن الواقعية الصارمة في تصوير حفلة السكر، التي أفزعت معاصريه وتصوير سنواته التي قضاها طالبًا، ترجع أصولهما، على نحو مباشر إلى تجربة بلزاك الخاصة في الحياة. وذلك أن مناقشات الأطباء، وفلسفة المُرابي ما عادت أحاديث صالونات، بل أصبحت شخصيات تتشكل بكلامها وتتعرَّض للإعلاء والتصعيد وبعد عشر سنين من تَلَمُّس الطريق والبحث عبثًا، اكتشف بلزاك مهنته الحقيقية: وهي أن يكون مؤرِّخ عصره هو، وعالم نفسه وعالم فيزيولوجياه، ومُصَوِّره، وطبيبه، والقاضي والأديب المختص بتلك العضويّة الهائلة التي يُطْلَق عليها اسم «باريس»، واسم «فرنسا»، واسم «العالم». ولئن كان اكتشافهُ الأولُ طاقةَ عمله الهائلة فإن اكتشافه الثاني، الذي لا يقل عنه أهمية، يتمثل في الهدف التي تتوجه نحوه هذه القُوى؛ وبهذا الهدف وجد بلزاك نفسه بنفسه. وكان حتى الآن لا يشعر إلاّ بقوة في نفسه لا تُقاوَم، متجمّعة مُكَثَّفة فيه إلى حد يبعث على

الانفجار، كانت في النهاية خليقة أن تنهض به وترتقي إلي المسار الكوني، بما يزيد ويعلو على الْتِماس المتخبطين من معاصريه لضالّتهم على غير هدىً، في خضم الفوضى والتداخل الذي يكدِّر الصفو.

«هناك رسالات يشعر المرء أنه مندوب لأدائها، ولا بدّ أن يستجيب لها، وهناك قوة لا تُقاوَم تدفع بي قدمًا إلي الأمام، نحو المجد والسلطان»

ولكن مثلما لم يتجرأ غوته، حتى بعد نجاح «آلام ڤرتر» و «جوتس فون برليشنغن» على أن يدرك أن موهبته الوحيدة وأخصّ خصائصه هما الأدب، لم يتجرأ بلزاك، حتى في أيام «جلد الحصان»، وحتى في الأيام التي تلتها، على أن يستيْقِن أن الأدب هو مصيره الحقيقي. وكان بلزاك ينتمي إلى أولئك العباقرة العظام الذين كانت عبقريتهم خليقة أن تتجلى في أي صورة يختارها، فهو رجل يمكن أن نتصوّره في صورة نسخة ثانية من ميرابو، أو تاليران، أو نسخة ثانية من نابليون، أو في صورة صانع عظيم، أو أمير لكل تجار الصور، أو أستاذ لكل المضاربين. ومن أجل ذلك أيضًا لا يشعر في صباه على الإطلاق، أن الأدب هو السِمة النوعية المميِّزة التي تتميز بها موهبته. على أن غوتييه، الذي عَرفه معرفة دقيقة، ربما لا يَعْدو الحقَّ حين يقول فيه:

«لم يكن يتمتع بالموهبة الأدبية في أساس حقيقته وعلى نحو حاسم، وذلك أن هاويةً كانت تنفتح عنده بين الفكرة والشكل، وكان هو ذاته يتولاّه اليأس من إمكان ردم هذه الهوَّة، ولا سيما في بداياته»

ولم يكن الإبداع الأدبيّ بالقياس إليه ضرورة، ولا كان يحسّ به في أي يوم من الأيام على أنه رسالة، بل كان ينظر إلي الكتابة على أنها مجرد إمكانية واحدة من بين الكثير من الإمكانات عنده لكي يفرض نفسه، ولكي يتمكّن من العالم عن طريق المال والمجد.

«كان يريد أن يغدو رجلاً عظيمًا، وقد وصل إلى هدفه بالتجلّيات التي لا تنقطع، لتلك القوة التي هي أشد بأسًا من تدفُّق الكهرباء».

وكانت عبقريته الحقيقية تكمن في الإرادة، وفي وسع المرء أن يسميها، كما يشاء، مصادفةً، أو قَدَرًا مقدوراً، وهي الإرادة التي فرغت شحنتها في مادة الأدب على وجه الخصوص. وعلى حين باتت كتبه الأولى تُقرأ في كل أرجاء الدنيا، وحتى غوته، البالغ من العمر واحدًا وثمانين حولاً يعبِّر لإيكرمَن عن اندهاشه المنطوي على حُسْنِ المقصد، من هذه الموهبة الفائقة، وبينما تحاول المجلات بأنواعها إغراء الرجل ذاته بأعلى الأجور، وهو الذي كتب يقول وهو بعدُ عامل رخيص الأجر:

«إن أجر نقل رسالة، أو بطاقة سفر في حافلة تعنيان بالنسبة لي إنفاقًا باعثًا للفزع وأنا لا أخرج من البيت حفاظًا على ملابسي»

يكون بلزاك نفسه غير مستيقن بعدُ أنه يتمتع من الموهبة بما يكفي لكي يكون كاتبًا. ومازال لا ينظر إلى الأدب على أنه الإمكانية الضرورية الوحيدة، بل على أنه إمكانية واحدة من بين إمكانيات النجاح المختلفة، وهو يكتب إلى أمه، وهو بعدُ في عام ١٨٣٢، قائلاً:

«سوف أُكَوِّن لنفسي ثروة، عاجلاً أو آجلاً، بصفتي كاتبًا، في السياسة، أم في الصحافة، أمْ عن طريق زواج، أَمْ أي ضربة كبيرة في مجال الأعمال والتجارة»

وتظل السياسة تمارس عليه، حينًا من الزمن، جاذبية لا تُقاوم، أو لم يكن من الأفضل، يا تُرى، أن يفرض السلطان الذي يُحِسُّ به في نفسه، على البشر، على نحو أسرع، بأن يستفيد من توافق الظروف الملائمة في تلك الساعة؟ لقد ردّت ثورة تموز عام ١٨٣٠، إلى الطبقة الوسطى السيادة: وانفسح المجال الآن للشباب أولي الهمة والطاقة، وبات في وسع النائب الآن أن يرتقي بمثل السرعة التي كان

يرتقي بها عقيد في الخامسة والثلاثين في الحقبة النابليونية.

ويظل بلزاك، حيناً من الزمن، وقد أوشك أن يعقد العزم على أن يضحي بالأدب من أجل السياسة. ويقذف بنفسه في «الجو العاصف، جو الأهواء السياسية، ويحاول أن يرشح نفسه للنيابة في كمبراي، وفي فوجي، لمجرَّد أن يمسك بزمام السلطان في يده، وليعيش حياة قرنه (Vivre la vie de si`eclemême)، وليكون في موقع أكثر حفولاً بالمسؤولية، ويتسم بالصفة القيادية. ولو أن الناخبين أظهروا مزيداً من الجد والاجتهاد لكان من الجائز أن يسلك طموح بلزاك وعبقريته مساراً آخر، ولكان أصبح، بدلاً من تيير، الزعيم السياسي لفرنسا، بل ربما أصبح نابليوناً جديداً.

وكان من حسن الحظ أن يقرِّر الناخبون في هذين الموقعين اختيار مرشحين آخرين، وبذلك ما عاد يوجد سوى الخطر الآخر، وهو أن يعثر على «امرأة وثروة»، أي على «الأرملة ذات الثراء العريض» التي ظل يبحث عنها طوال حياته، ولو قَدْ فعل، إذاً لظهر المستمتع في بلزاك، لا العامل العملاق، وذلك لأن ضغطاً هائلاً سيكون ضرورياً ليستخرج منه إنجازاً هائلاً، وقد كان بلزاك خليقاً، إذا ما تهيأ له دخل يترواح بين الثلاثين والخمسين ألفاً من الفرنكات من أرملة موسرة، أن يبيع نفسه لمصير مدنيّ مريح بدلاً من أن يقيِّد نفسه بالعمل فيما يشبه عمل العبيد المسخرين للتجديف في سفينة تجديف سريعة.

«لقد كنت خليقاً أن أقتصر، بسهولة، على السعادة المنزلية» بذلك يعترف لصديقته زُلْماكارّو، ويصف لها ذلك المُطارَد أبداً، حلمه بأن يعيش في الريف، وأن يكتب كتاباً من حين إلى آخر، بصورة عفوية، وكيفما اتفق، لمجرد إشباع ميله الخاص.

ولكن القدر، الذي هو أكثر حكمةً من أعمق رغائب بلزاك، يأبى عليه مثل هذه المتعة السابقة لأوانها، لأنه يريد منه ماهو أكثر من هذا، فهو يحتجز في المفكر

السياسيّ فيه إمكان ممارسة الدعارة بموهبته على منصة الوزراء، ويأبى على بلزاك، رجل الأعمال، أن يتيح له الفرصة للظفر بالثروة التي يحلُم بها عن طريق المضاربات، بل يصدُّ عن طريقه كلَّ الأيامى الموسرات اللواتي يطاردهن، ويبدِّل هواه الذي كان في البداية إلى الصحافة، على تقزُّز واشمئزاز من كل ألوان الكتابة الصحفية، لمجرَّد أن يُنَفِّره وينأى به، ويشدَّه بالأغلال إلى منصة الكتابة التي تستطيع عبقريته، بالانطلاق منها، أن تسيطر، لا على مناطق مجلس النواب الأضيق نطاقًا، ومناطق سوق الأوراق المالية، في حياة تقوم على التبذير الذي يلفت الأنظار بمظهره الخارجي، بل على العالم بأسره. وفي غير رحمة، شأن مُحْضِرٍ في المحكمة، سوف يردُّه، المرة بعد الأخرى، وهو المولَع بالحياة حقًا، والظامئ إلى الحب والقوة والحرية، ظمأً لا حدَّ له، إلى زنزانة عمله، وسوف يُحْبِط كل انطلاق أو خروج، ولسوف يضاعف له، مقابل كل محاولة للهرب، وزن الأغلال التي يصطنعها له، ولا بدَّ أن إحساسًا غامضًا غلب على بلزاك منذ أن كان في شهرته الأولى، في صدد ماهيّة العبء وماهيّة الخدمة المضنية المنهكة التي يأخذها على عاتقه بهمته، فهو يقاوم هذا ويحاول الهرب منه، ولسوف يتوق المرة بعد الأخرى، ودائمًا، إلى الأعجوبة التي تنتزعه من هذا السجن بضربة واحدة، وليس هناك، دائمًا، إلاّ الحُلُم بمضاربة كبرى، بامرأة موسرة، أو بانعطافة سحرية في مسار القدر، كائنة ما كانت. ولكن لمّا كان لا يتاح له هذا الهرب، ويُفْرَضُ عليه أن يقوم بالتشكيل، فسوف تضطر الطاقة الكامنة الهائلة إلى أن تهيِّئ لنفسها أبعادًا للتأثير لم يُعْرَف في الأدب مثلها حتى الآن، فإن الخارق الذي لا تحدُّه حدود سيغدو مقياسه، وسيصبح ما لا حدود له هو الحد عنده. ولم يكد يبدأ حتى رأى أنه لا بدَّ له أن يُقَسِّم هذا الفيض وما فوق الفيض، الذي كان يتدفق منه، لكي يكون من الممكن الإحاطة به بنظرة من علٍ، بالنسبة إليه ذاته وبالنسبة للآخرين، فإذا لم يكن هناك بُدٌّ أن يكون هذا الذي يعمل فيه أدبًا كان من الواجب أن لا يكون مرصوفًا بعضُه إلى بعضٍ بغير اختيار، بل ينبغي أن يصبح سلسلة من المراحل التي تمَّ التخطيط لها، وهرَمًا تراتبيًّا

(Hierarchie) لكل الأهواء والعواطف الجامحة، وأشكال الحياة على وجه الأرض، ومنذ أن بعث بروايته الأولى إلى صديق له، يكتب في ذلك قائلاً:

«هاهي ذي الخطة الإجمالية لعملي تأخذ في الارتسام والتميزّ».

لقد غلبت عليه الفكرة المثمرة، وهي أن يدع الشخصيات التي أبدعها تعود أدراجها، كلٌّ على حدةٍ، من كتاب إلى كتاب، وبذلك يكتب، بفضل إمكانية استعراض هذه الشخصيات من أولها إلى آخرها، تاريخًا حوليًا أدبيًا كاملاً، يحيط بكل الطبقات، والمِهَن، والأفكار، والمشاعر، والعلائق المتبادلة، وفي تمهيده لطبعة كتابه «روايات وأقاصيص فلسفية Romans et contes philosophiques يَدَع الجمهور يتهيّأ عن طريق فيلاريت شازل. ويتم التخطيط لصورة شاملة للعصر، وهذا المجلد ليس إلا «السِّفر الأول من سلسلة كبرى لنقوش الفريسكو. لقد أخذ المؤلف على عاتقه مهمة تصميم صورة للمجتمع والحضارة في عصرنا، ذلك المجتمع والحضارة اللذين يبدوان له منحَلَّيْن بما ينطويان عليه من الثَوَران والحُمَّى المفرطة، وغَلَبة الإنسان المنفرد بذاته، ولسوف يرى المرء كيف يعرف المؤلف مَزْجَ ألوانٍ جديدة دائمًا على لوحة ألوانه ... وكيف يصور كل درجات سلَّم المراحل الاجتماعية، بالتسلسل. فهو يسوق إلينا الشخصية بعد الأخرى: الفلاّح، والمتسوِّل، والراعي، والمواطن، والوزير، ولن يتهيَّب من أن يرسم الملك نفسه، أو الكاهن.

وفي اللحظة التي يبدأ فيها الفنان في بلزاك تكون الرؤيا الكبيرة، الخاصة بالكوميديا الإنسانية، ماثلة في ذهنه. على أن عشرين عامًا من العمل الذي لا يُسْبَرُ غَوْرُه، ولا يُضاهى، لا تكاد تكفي، لتشكيلها.

الكتاب الثاني

بلــزاك في عملــه

الفصل السابع

ابــن الثلاثـين حــولاً

ومنذ عام ١٨٢٩ فصاعداً، وبعامه الثلاثين، ومنذ اللحظة التي يخرج فيها على العالم بأول كتاب حقيقيّ له، يغدو بلزاك، بصورة نهائية، هونوريه دي بلزاك، فقد اختتم تطوُّره الطويل الأمد، والكثير الالتواءات، نهائيًا، لقد اكتمل تجلّيه، من حيث الصياغة والتشكيل، رجلاً وفناناً وشخصية، سواءً من الناحية الفنية أم الأخلاقية، أم من حيث السيماء، كل الاكتمال، ولن تتغيَّر قَسَمةٌ من القَسَمات حاسمةٌ في صورته، بعد ذلك، لقد عثرت الطاقة المُدَّخَرة على نحوٍ لا مثيل له، على وِجْهَتها، وأخذ المُبْدِع على عاتقه مهمته، وهو المهندس العظيم، أن يصمِّم الخطة من أجل عمله المستقبلي- وإن كان ذلك أول الأمر في خطوط أوَّلية عريضة فحسب-وبجرأة الأسود يَزُجُّ بلزاك بنفسه في لُجَّة العمل، ولن يتوقف إيقاع عمله اليومي، ولن يتضاءل مادام النبض يخفق في يده، لقد وضع هذا الرجل الذي لا يعرف الحدود لنفسه، في الحقيقة هدفًا لا سبيل إلى بلوغه، ولكن الموت وحده هو الذي يستطيع أن يضع حدّاً لإرادته التي هي إرادة بروميثيوس. وربما كان بلزاك في عمله هو المثل الأعظم والأجلُّ، على استمرارية الإبداع، الذي نعرفه في الأدب الحديث، ومثل شجرة جبّارة، تَغْذوها قوى الأرض الخالدة، انتصب وقد أُفْعِم جذعه بالعنفوان وفيض الحيوية إلى أن تهوي به الفأس، بينما تزداد ذُؤابة عمله المكتنزة شموخًا بقبَّتها نحو السماء، ومن دون أن يغيِّر موقعه، وبصبر كأنه يجري على سَنَن قانون مُطَّرِدٍ من قوانين الطبيعة، على وجه الخصوص، مؤدِّيًا وظيفته التي يرسمها له القَدَر، وهي أن يظلَّ يزدهر فلا يتوقف ازدهارُه، وأن يترعرع ويؤتي ثماره التي تَطَّرِد زيادة نضجها.

وبكل هذا الألوان من التجديد الإبداعي، سيظل بلزاك، منذ الآن فصاعداً، هو بلزاك الواحد نفسه دائماً: فها هي ذي سيماؤه الخارجية لا تتغيَّر من بَعْدُ، مثلما لا تتغير بنية شخصيته، وإذا وضع المرء صور ابن الخمسين حولاً إلى جانب ابن الثلاثين حولاً لم يجد من المتغيرات إلاّ أموراً من قبيل الصغائر، ولم يجد شيئاً جوهرياً، إنما هي بضعة خطوط رمادية في الشَّعر، وبضعة ظلال تحت العينين، ومِسْحة ضاربة إلى الصفرة في التلوين الذي كان فيما سلف مزدهراً باذخاً إلى حد بعيد، ولكن المظهر هو نفسه على وجه الدقة، ففي العام الثلاثين انتهى الفرديُّ والفريد، في مظهره، مرةً وإلى الأبد، إلى التعبير النهائي الحاسم. لقد خرج من الشاب الضئيل، الهزيل، الشاحب» في سنوات التطور، الذي كان من الممكن أن يُشادَ بمظهره المتواضع الذي لا يلفت النظر، بحكم كون ذلك يمثِّل نقطة إيجابية وحيدة، على أنه يكشف عن «شبه ضئيل» ببونابرت الشاب، قبل مجده، في بؤرة تلفت الأنظار، مرة أخرى، عن«الطفل البدين، ذي الوجنتين الحمراوين المستديرتين» في طفولته الأولى. على أن الجانب العصبي، والمضطرب، والمتّسِم بنفاد الصبر، وعدم التوازن، يتنحّى في اللحظة التي يستقرّ فيها عند منصة الكتابة، ليفسح المجال لاتساع نطاقٍ يفيض بالقوة والوفْرَة، والارتياح، وهو يصف صورته المنعكسة في شخصية آرتيه حين يقول:

«كان التعبير الماثل في عينيَ آرتيه: والذي كان فيما سلف تنبعث منه نار طموح نبيل، قد انتابه التعب مع النجاح، وكانت الأفكار التي كانت تضفي على جبهته الروعة، قد اعتراها الذبول، وكانت قامته الهيفاء فيما مضى قد اكتنزت، وكانت الألوان الذهبية التي توحي بحياة الرخاء تتجلّى في كل مكان من وجهه الذي كانت قد ارتسمت عليه ظلال سُمْرٌ في أيام صباه من أثر المحنة-، إنهنّ ألوان طبعه التي تشدُّ كل القوى لتظل تكافح وتنتصر».

وكان الانطباع الأول عن وجهه هو مجرد الانطباع الخاص بصحة حافلة باللذائذ مبنية على الاستمتاع بالحياة، ومزاج طيب، مرح مُسْتَبْشِر.

وعلى الرغم من الشعر الطويل المسترسل، المُكوَّم المرفوع فوق الجبهة القاسية البيضاء وغير النظيفة تمامًا، على الأغلب، كانت المادة البضَّة التي يتشكل منها هذا الوجه- إذ كانت بشرته رَخِيَّةً دُهْنِيّة، واللحية الصغيرة ناعمة رقيقة، والأشكال مفلطحة ناعمة- تحدث الانطباع الخاص بعفوية ناجمة عن الاستمتاع، وبإنسان كثير النوم، كثير المطالعة، قليل العمل، ولا يشعر المرء بشيء من الضخامة والعنفوان في كيانه إلاّ حين ينظر إلى كتفَيْ عتّال، هاتين الكتفين العائدتين لرجل مثل ڤوتران Vautrin، وإلى هذا القفا الجَلْد المفتول العضلات، الذي يمكن أن يُكِبُّ على العمل اثنتي عشرة ساعة أو أربع عشرة ساعة، من دون أن يعتريه الكلل، وإلى الصدر الرياضيّ، ولا يبدأ هذا الجانب الشديد البأس إلاّ تحت الذقن الذي يتميَّع ويسيح، فهذا الجسد كتلة من البرونز، وإنما تكمن عبقرية جسده، مثلما تكمن عبقرية عمله، في الكتلة الضخمة، في الاتساع، في حيوية لا توصف. ولذلك تكون من قبيل العبث والكذب كل محاولة لتفسير عبقرية بلزاك بالانطلاق من محيّاه. لقد حاول ذلك المثال داڤيد دانْجرْ بأن زاد في ارتفاع الجبهة وجَمَّل حَدَبَتَها الناتئة لكي يدع عمل الدماغ في التفكير يبدو كأنما يرشح من خلال القشرة. أما الرسام بولانجيه فقد حاول أن يحجب الاكتناز البارز عن طريق ثوب الراهب الأبيض، وأن يَشُدَّ وقفة الرجل القصير المكتنز، وأما رودان ففعل ذلك بأن أضفى عليه النظرة التي تنمُّ عن الفزع الذي يتَّسِم بالذهول، لا مرئ يستيقظ من حالة هَلْوَسات مأساوية، وكل الثلاثة يحاولون ذلك بدافع من الشعور الغامض بأنه لا بُدَّ للمرء أن يُصَعِّد هذا الوجه الذي لا يُعَدَّ، في حد ذاته، مما يوحي بالأهمية والدلالة من حيث السيماء، لكي يجعلوا العبقرية تتميَّز من جراء تسريب عناصر شيطانية أو بطولية إليه، على أن بلزاك يجرب ذلك، من خلال مثل هذه الزيادة في حِدّة كيانه، حين يرسم نفسه في صورة بطله ز. ماركاز (Z. Marcas)، إذ يقول:

«كان شعره يضاهي عُرْف حصان، وكان أنفه قصيرًا، مضغوطًا، وكان يرتسم على أرنبة أنفه خط كالأخدود، وله منخاران عريضان، كما يكونان في حالة

الأسد، وكانت جبهته أيضًا كجبهة الأسد، مقسّمة بانخفاض يسير، طويل، قويّ، إلى حَدَبَتَيْن».

ولكن لم يكن بُدٌّ لمن يَنْشُدُ الحق أن يقرر، بلا رحمة، أن بلزاك كان يبدو، شأن كل العبقريات الأنموذجية الحقيقية في شعب ما، مثل تولستوي، ولوثر- أنه يمثل شعبًا يكون وجهه فيه كأنّه يمثل مجموعة أناس في وطنه لا يُحْصَوْن عددًا، وهم غُفْلٌ لا أسماء لهم، وفي هذه الحالة الخصوصية يكون الوجه- كما هو في حالة لوثر، مرارًا، وفي حالة تولستوي- وجهًا شعبيًا حقًا، من الدهُماء، من عامة المواطنين، بل وجهًا من الرعاع، وعلى وجه الخصوص في فرنسا، يعبِّر الإنجاز الفكري للأمة عن نفسه في أنموذجين، أنموذج مصقول صقلاً أرستقراطيًا، مع التعذيب والإعلاء- مثل ريشليو وڤولتير وڤاليري، والآخر الذي يتم فيه التعبير عن القوة، عن صحة الشعب، وهو أنموذج ميرابو ودانتون. على أن بلزاك ينتمي إلى الطبقة الشعبية العامية، والابتدائية مع ذلك، كل الانتماء، ولا ينتمي إلى الأرستقراطيين المنحلين، ولو شدَّ المرء حواليه مَرْيَلَة، ووضعه وراء منصة بائع فطائر في جنوبي فرنسا لما استطاع المرء أن يميِّز الرجل الطيب، المُستَبْشِر من أي نادل أميّ في مطعم من المطاعم، يصب لزبائنه الخمر، ويثرثر معهم. وإن بلزاك لخليق أن يحدث بكيانه، وخلْقِه في كل مكان، انطباعًا يوحي بأنه فلاح وراء محراث، أو سقّاء في الشارع، أو عامل مكوس، أو بحّار في ماخور بمرسيليا، وملابس بلزاك أصيلة وطبيعية، بأكمام قمصانه، وما في ذلك من العفويّة، شأن الفلاح أو البروليتاريّ، وشأن الشعب الذي هو جزء منه، ولا يبدو متنكِّرًا إلاّ عند ما يحاول أن يكون أنيقًا ويتصرَّف كالأرستقراطيين، وعندما يَدَّهِنُ بالمراهم، ويُرَجِّل شعره، وعندما يمسك بنظارة باليد مزوَّقة أمام الأعين التي تتغلغل في كل شيء وترى كل شيء، ليصنع صنيع الذين يسيرون سَيْرَ أهل الصلف والخُيَلاء في ضاحية سان جيرمان. وكما هو الحال في فنه، لا تكمن قوتّه في المواطن التي يكون فيها متصنِّعًا، حيث يتوجه من الناحية الفلسفية أو العاطفية، وجهة تجعله بعيدًا عن

أصالته، بل لاتكمن قوته إلاّ حيث يكون من عامة الناس، وكذلك كانت عبقريته الجسدية تكمن في حيويته وحدها، في عنفه وتوقُّده، وقوَّته.

على أنه ليس مما يدخل في جوهر الصورة أن يعبِّر المرء تعبيراً بصريًا عن هذه الخصال على وجه الخصوص. فالصورة لاتكون دائماً، إلاّ ما يشبه القصاصة المقتطعة من فيلم حيّ، ثانيةً من الجمود، ومحافظة المرء على الوضع الذي هو فيه، إنه حركة منقطعة، ومثلما لا يستطيع المرء أن يستخلص من صفحة مفردة من عمله، الفَيْض وتعدُّد الأوجه، والإنتاجية التي لامثيل لها في عبقريته، لايستطيع المرء، بموجب الصور الاثنتَيْ عشرة المتبقِّية أن يحسّ بفيْض الفكر، والحُميّا، والمرح، وفيض الحياة الطاغي الذي لابُدّ أنَّه كانه بصفته إنسانًا، وذلك أن النظرة العابرة، السطحية لاتجدي شيئًا مع بلزاك، وإن المرء ليعرف ذلك بالاستناد إلى التطابق بين كل الأخبار التي أدلى بها معاصروه: عندما كان الرجل الضئيل القصير الذي يميل إلي البدانة، وهو مازال يقعد القرفصاء من إجهاد صعود السلالم، يدخل حجرة بثوب بنِّي عقُدَت أزراره عقداً سيئاً، وبنعلين نصف مفتوحين، وبشعر مسترسل أشعث، ويلقي بنفسه، ثقيلاً، على كرسيّ ذي مساند يئنُّ على نحوٍ مثير للقلق، تحت وطأة ثقله البالغ خمساً وثمانين أو تسعين كيلو، كان الانطباع الأول انطباعًا ساحقًا. كيف؟ أو يُفْتَرَض أن يكون هذا الفلاح من عامة الناس، والفظ، المترهِّل، ذو العطر الرديء، صاحبنا بلزاك، الأديب البروفنسالي (التروبادور)، الذي يترنم بأكثر مشاعرنا حميميةً، والمحامي عن حقوقنا؟ بذلك كانت السيدات يتحدثن وقد أخذتهن الدهشة. وكان الأدباء الآخرون الحاضرون يخالسون النظر في المرآة مغتبطين، ويقولون مُقررِّين، كم يبدو الانطباع الذي يحدثونه هم أفضل، وكم يبدون أعلى منه من حيث مستوى الفكر، وتختفي وراء بعض المراوح اليدوية ابتسامة، ويتبادل السادة نظرات ماكرة حول هذا المنافس المتطفل من الطبقة الوسطى، ومن الرعاع الغلِاظ، الذي ينافسهم على نحو خطير، ولكن في اللحظة

التي يشرع فيها بلزاك في الحديث يتغيَّر الانطباع المزعج الأول بسرعة البرق، إذ ينبثق جدول ينقضُّ كالسيل، بل كالنهر إذ ينهال من فوق جبل، وسرعان ما تسري الكهرباء في جوّ الغرفة على الفور، إذ يتوهَّج ويلتمع من الفكاهة والفكر، ويشدُّ بلزاك كل الانتباه إليه، شأن المغناطيس، ويخوض في الحديث عن آلاف الأشياء، فيتحدث في الفلسفة حينًا، ويصمّم مشروعات سياسية حينًا آخر، وهو يعرف مائة طرفة ويروي القصص الحقيقية والمخترعة التي تزداد حفولاً بالخيال وعدم القابلية للتصديق على نحو مطرد، بينما يسردُها. وهو يتبجَّج، ويتحكَّم، ويضحك، وتتطاير من العينين الداكنتين الصغيرتين شرارات ذهبية تنم عن التعاظم وينتابه السكر بقوته ويُسكِرُ كل الآخرين وفي اللحظة التي يستطيع فيها أن يعطي من فيضه، يكون امرءًا ليس له شبيه.

على أن هذه القوة الهائلة هي السحر الفريد في نوعه، الذي ينبعث من بلزاك جسديًا، كما ينبعث من عمله. وذلك أن كل وظيفة تتجرَّد عنده بحدَّة تبلغ عشر أضعافها بالقياس إلى الآخرين، فعندما يضحك تَرْتَجُّ الصور على الجدران، وعندما يتحدَّث تنبثق الكلمات فيما يشبه الغليان والتفجُّر، وينسى الناس رداءة أسنانه وإذا سافر ألقى إلى سائق عربة البريد في كل نصف ساعة «ببقشيش» جديد لمجرد أن يستحث الخيل على مزيد من السرعة، وإذا حسب انسابت الآلاف والملايين بعضها فوق بعض، وإذا عَمِل ماعاد للنهار والليل وجود، إذ يظل عشر ساعات، وأربع عشرة ساعة، وست عشرة ساعة لا يتحرك من بقعته، ويظل يكتب إلى أن يستهلك اثني عشرية من ريش الغراب، وإذا أكل- وهذا ما يصفه جوزلان- ارتعدت شفتاه، وأضاءت عيناه من السعادة، واختلجت يداه من المتعة عند النظر إلى هرم من ثمرات الكمثرى والدُّراق... وكان فخمًا في أسلوب البانتاجرولي (*) الشبابيّ، و قد خلع ربطة عنقه، وقميصه مفتوح، وفي يده سكين الفاكهة، وكان يضحك، ويشرب، ويعالج برمحه لحم ثمرة كمثرى ليِّنة على وجه الخصوص...»

(*) نسبة إلى بانتا جرول، الرواية المشهورة للكاتب الفرنسي، رابليه «المترجم»

وكل شيء يحدث عنده مطبوعًا بطابع المتعة، ويظل دائمًا يدفع بكل شيء فوق كل حدٍّ وسط وما من شيء أغرب عن شخصيته من الصغير واليسير، وبلزاك ينطوي على ما ينطوي عليه العمالقة من طيب القلب والطفولية، وهو لا يعرف خوفًا، ولا يستطيع أن يتعامل مع نفسه إلاّ تعامُلَ المُبَذِّرين، وما من شيء يستطيع أن يهزّ طيب قلبه، وهو يعلم أن زملاءه يشعرون بالضيق والحرج من حضوره الكبير إلى حد الإفراط، وأنهم يتهامسون من وراء ظهره قائلين إنه امرؤٌ لا أسلوب له، ويتفوّهون بمائة من ألوان الغيبة والتنقُّص الأخرى، ولكن حماسته الطبيعية تقدِّم إلى كلٍّ منهم مودة، فهو يهدي إليهم كتبه ويسمي كل فردٍ منهم باسمه في كوميدياه الإنسانية، في أي موضع كان منها، فهو أعظم من أن يعادي، ولا يوجد قط، في كل عمله، جدل مذهبي ضد أية شخصية بعينها، كائنة ما كانت وحيثما يحسُب فهو يخطىء في الحساب دائمًا لأنه يضع لنفسه مقاييس مفرطة في الغُلُوّ. وعندما يعذِّب ناشريه ويمسك بعنانهم لا يكون ذلك بسبب الفرنكات، بل بدافع متعة العبث معهم، وليكشف لهم عن السيِّد فيه، وإذا كذب فهو لا يكذب لكي يغش أحدًا ما، بل بدافع متعة إعمال الخيال، وسروره بالمقلب، وهو يعلم أن الناس يتهكّمون من ورائه على تصرفاته الصبيانية، ولكن بدلاً من أن يتجنَّب هذه لا يزيد على أن يُصَعِّدها، ويختلق لأصدقائه شيئًا ما، ويلاحظ بعينيه الثاقبتين والسريعتين، على وجه الدقة، أنهم لا يصدقون كلمة من كلامه، وأنهم سوف يواصلون، في الصباح التالي، تلفيق هذا كله في كل أرجاء باريس، غير أنه لا يزيد على أن ينثر على هذه توابل من الأكاذيب أشد مفعولاً وكان مما يسلّيه أن يحسّ به الآخرون إحساسَهم بشيء عبثيّ، أو شيء لا ينسجم مع نمطهم. وحين يتنبأ بالأشكال الكاريكاتورية التي سوف تُرسم عنه يرسم عن نفسه رسمًا كاريكاتوريًا بأسلوب رابليه. فماذا عسى أن يُلْحِقوا به من الضرر؟ إنه يعلم ذلك في كل ثانية، ويشعر بأنه يُعَدّ، في عضلاته التي تحت جلده، وفي تلك التي وراء جبهته، أقوى منهم جميعًا، ولذلك يدعهم وشأنهم، غير آبهٍ بهم.

وهذا الوعي بالقوة عند بلزاك يقوم على جسده، وعلى دماغه، وعلى طاقته، إنه يكاد يشبه أن يكون وَعْيَ العضلات، والدم، والعُصارات والقوى، إنه ثقة بالنفس تهدف إلى مجموع الحياة، ولا تقوم، مثلاً، على المجد أو النجاح، ذلك لأن ثقة بلزاك بنفسه أقرب إلي أن تكون غير مُسْتَيْقَنَة، من الوجهة الأدبية، ولا في سن السادسة والثلاثين، بعد «الأب غوريو»، وبعد «جلد الحصان»، وبعد اثني عشرية من روائعه الأخرى، الخالدات. على أن شعوره بالحياة لا يأتي من تَفَكُّرٍ وتدبُّر، ومراقبة للذات، كما أنه لا يأتي من حكم الآخرين، إنه شعور ابتدائي (elementar)، فهو يشعر بفيض في نفسه، ويستمتع بهذا الشعور بالفيض من دون أن يحلّله تحليلاً مبنيًا على الخوف، أو تحليلاً نقديًا، ويجزّئه.

«إن جسدي الذي يبلغ من الطول خمسة أقدام وشبْرَيْن ليتضمن كل أشكال التضادّ والتناقض التي يمكن تصورُّها فحسب، ومن شاء أن يَعُدَّني من أهل الصلف والغرور، مبذِّرًا، عنيدًا طائشًا، من دون متابعة صحيحة للمنطق في تفكيري، جانحًا إلي الحماقة، مُهْمِلاً، كسولاً، من دون عناية ولا تفكير، ومن دون أي مثابرة، ثرثارًا، قليل اللباقة، قليل التهذيب، والأدب، غريب الأطوار، متقلّبًا في مزاجي فسيكون على حق مثل ذلك الذي هو خليق أن يقول إنني مَدَبِّر للمنزل، متواضع وجريء، جَلْدٌ، مفعم بالهمة والحيوية، لا يحمل همًّا، ويُكِبُّ على العمل، مواظِبٌ على حاله هذه، يجنح إلى الصمت، وهو مفعم بالرقة والأدب، دائم البِشْر والسرور. وفي وسع المرء، كذلك، أن يقول إني امرؤ رعديد له قدم كقدم الأرنب، أو إنني بطل حقيقي، وإنني فتى ذكيّ، أو امرؤ جاهل، وإنني موهوب إلى أقصى حدود الموهبة أو غبيّ- فأنا لا يمكنني أن يتولاني العَجَب من شيء فلقد عقدت العزم، أنا نفسي، في النهاية، على أن أعتقد أنني لست إلاّ أداة تمارس بها الظروف لُعبتها».

ولْيفكر الآخرون في ذلك، وليُشيدوا به أو يتهكّموا عليه، على أنه ماضٍ في

طريقه، مستقيماً لا يريم، شجاعاً، مرِحاً، لا يحمل همّاً، عبر كل العوائق والهموم، باللامبالاة التي يتميَّز بها عنصر من العناصر، ومَنْ كان يشعر بأمثال هذه القوى في نفسه كان في وسعه أن لا يأبه ولا يَعْبأ، على أن صلَفه طفولي، غير أنه لا يتسم أبداً بضيق الأفق أو ضيق الصدر، وذلك أنه يتمتع باليقين والابتعاد عن الهَمّ اللذين يتمتع بهما امرؤ غلب عليه شيء يسير من السُّكْر.

ولابُدَّ لطبيعة سخية شهمة واسعة الأفق، كهذه، أن تَنْزِع إلى التبذير، ولقد كان بلزاك على هذه الصورة بكل معنى من معانيها. ولم يُرَبِّ نفسه على الاقتصاد مدفوعاً بالحاجة الماسة إلا في ناحية واحدة، هي ناحية تعامله مع الناس، ومن كان، مثله، «لا يملك إلاّ ساعة واحدة من النهار يهبها للعالم»، كما قال ذات مرة عن نفسه، فليس له في حياته مجال لمجلس الأُنس ولذلك فإن البشر الذين كان يرتبط معهم بالفعل يُعَدُّون على أصابع اليد. وربما لايكاد يجاوز العشرة على الإجمال أولئك الذين كانوا يمتون إليه بصلة فعلية، وحتى هؤلاء كانوا قد احتشدوا حوله في عامه الثلاثين، وفيهم أهم تلك الشخصيات. وحتى في إطار الصداقة، كما في إطار المعرفة بالعالم والتدريب الفني، لم يُضَف إلى هؤلاء إلاّ القليل في السنوات اللاحقة. أمّا ما كان عليه أن يستوعبه فكان قد بات فيه وقد أخذه في ذاته حتى عامه الثلاثين. ومنذ العام الثلاثين فصاعداً، ماعاد مستعداً لأحد سوى عمله، وما عاد يهمه، ويُعَدُّ واقعياً بالقياس إليه سوى البشر الذين يبتدعهم.

وفي محيط الصداقة هذا الضيق، والمستديم المتواصل مع ذلك، كانت النساءيتمتَّعن بالأولوية. فقد كتبت تسعة أعشار رسائله، بلَ ربما أكثر من ذلك، إلي النساء. وذلك أنه لا يستطيع أن يستسلم للرغبة التي لا تقاوم إلاّ حيالهن، وهي الرغبة في أن يدع القلب الطافح أبداً يتدفَّق بالاعترافات، فهو لا يستطيع «أن يتجرَّد» إلاّ أمامهن، ومن حين إلى آخر ينبثق من صمته الذي يطول شهوراً طَفَحٌ مفاجئ من الحاجة العاصفة إلى الإفضاء، بل يكون ذلك في الغالب إفضاءاً إلى

امرأة لم يرها قط أو لا يعرفها إلاّ معرفة عابرة، وما من مرة تتوجه فيها رسالة حممية إلى رجل، وحتى إلى أكبر معاصريه وأكثرهم شهرة مثل ڤيكتور هوجو، وستندال- يفضي فيها بما في نفسه في أي يوم من الأيام حول ألوان الصراع الداخلي فيه. ولمّا كان في الحياة متحدثًا ينطوي على جنون بشيء واحد (Monomanie)، لا يكاد يسمع جواب الآخرين، ويدَعَ لأخيلته وألوان تبجُّحه مساراً خالياً من العوائق فإنه لا يحفل بروح زمالة، سواء في إطار المكاتبة أم في إطار المشافهة، ولمّا كان طافحًا مترعًا فهو لا يحتاج إلي النقيض على وجه الدقة، ألا وهو تخفيف حدة التوتر، أو الاسترخاء. ولذلك فحين يجيب عن رسائل من نساء على وجه الخصوص فليس ذلك لمجرد أن «هذا يشكّل الأسلوب ويصوغه، كما يعلّق على ذلك في حديثه إلى تيوفيل غوتييه، بل بدافع من حاجة أعمق، وربما كانت حاجة غير واضحة تمامًا بالقياس إليه، وهي أن يعثر على المرأة التي تفهمه. وكان إذا أنهكه العمل، ولاحقته الالتزامات، وناء بعبء الديون، ولبث المرة بعد الأخرى ينغمس في «حياته العاصفة، لا يفتأ يتوق إلى امرأة تكون له، في الوقت نفسه، أمّا، وأختًا، وعشيقة، ومعينة، كما كانت مدام دي بيرني في سنوات تطوُّره، ولم يكن ما يدفعه، المرة بعد الأخرى، إلي البحث، الولَعُ بالمغامرات، ولا النزعة الحسية، ولا الشهوة، بل كان، على النقيض من ذلك، حاجة إلي الهدوء والسكينة جامحة، ولا يَسْمَحَنَّ المرءُ لنفسه أن تخدعها الأقاصيص الماجنة "Contes drolatiques" وما فيها من إتراع بالنزعة الحسية، التي تقوم على التبجُّح والبذاءة وقلة التهذيب. ولم يكن بلزاك قطُّ دون جوانًا، أو كازانوفا، أو مجنونًا بالرغبة الجنسية. وإنما تتجه رغبته إلى امرأة بالمعنى المدنيّ، بل بالمعنى المدني الأقصى، «إلى امرأة وثروة»، كما يقول ذلك بصراحة، وذلك أنه لمّا كان رجلاً تابعًا لخياله ولقابلية الاستثارة الفكرية عنده، فهو لا يحتاج إلى مغامرات رخيصة، وقد كان بلزاك ينطوي من التوتر في نفسه على ما يكفي لكيلا يلتمس بعدُ ألوانًا جديدة منه. وما يرغب فيه في حالة من الوعي الجزئي على الأغلب، وفي معرفة واضحة منه في بعض اللحظات، هو امرأة تشبع حاجة

كلا القطبين في كيانه، ولا تؤثر تأثيراً سلبيًا على عمله بمطاليبها الشخصية وتُخَلص عمله من لعنة العمل من أجل المال، وتخفف من حدة توتر الإتراع بالرغبه الجنسية فيه، وتخفِّف عنه في الوقت ذاته، عبء الحَرَج الماديّ، كما يُفْتَرَض فيها، أن تشبع بعدُ، عن طريق أصلها الارستقراطي، قدر الإمكان، حاجته الطفولية إلى الظهور بمظهر النبالة.

والعثور على هذه المرأة هو حلم حياته الذي لم يتحقق أبدًا، وما يبحث عنه لا يُعْطاه دائمًا إلا قطعًا، إذ يُعطى شطراً من رغبته حينًا، ويُعطى الشطر الآخر من تلك الرغبة حينًا آخر، ولا يعطى أبدًا، كليْهما في واحد- أو يُعْطاه بعد فوات الأوان، وحتى علاقته الأولى بمدام دي بيرني كانت تحمل لعنة الجزئية هذه في ذاتها، لأن الشيطان أحدث الخلل في عمل ساعة السنين بقسوة بالغة، كما قال ذات مرة، ففيها وجد ابن الثالثة والعشرين، وهي التي كانت معلِّمة صباه، والمُواسية له في محنَه، والمُنْقذة له في حالة الخطر، والعشيقة الجامحة لفيضه الجسدي، كلّ شيء مُجْتَمِعًا. غير أنَ ما كان في البداية طبيعيًا بعدُ، في أيام المحنة، وهو علاقة فتى في الثالثة والعشرين بإمرأة في السادسة والأربعين، لابُدَّ أن يغدو، مع مرور الزمن، شائهًا ومُجافيًا للطبيعة. وحتى بالقياس إلى طبيعة غير انتقائية من الوجهة الجنسية، إلى حد بالغ، ومفزع، مثل طبيعة بلزاك، يغدو من المزعج أن يكون عشيقًا لامرأة في الرابعة والخمسين، ومهما يكن وَقْعُ هذا فادحًا على مدام دي بيرني- وحتى أذكى النساء لا يعرفن كيف يستسلمْن مادمُْن يُحْبِبْن، فإنه يغدو مما لا سبيل إلى تجنُّبه، شيئًا فشيئاً، أن تتجرَّد هذه العلاقة من سمتها الشهوانية، وتنحسر عن الجانب الجنسي، لتقتصر على مجرد الصداقة والأمومة.

ولكن حتى قبل هذا التحرر التدريجيّ كان الطبع الشهواني عند بلزاك يبحث عن مجال للتفريج، وكان ذلك باعثًا شديداً لغيرة الصديقة التي كانت تتقدَّم في السن، وربما زاد في ذلك أن الصديقة الجديدة كانت، على النحو ذاته، في خريف

عمرها وفي خريف مفاتنها الجسدية، وكانت دوقة أبرانتيس، أرملة الجنرال جونو، حين تعرَّف عليها بلزاك حوالي عام ١٨٢٩، في فرساي، وقد باتت مَعْلَمًا أثريًا من المعالم التي لحق بها الأذى إلى حد بعيد من جراء عدم العناية، مُسْتَبْعدةً من البلاط البوربوني، لا تحظى بالكثير من الاحترام في المجتمع، وكانت، فوق هذا، مدينةً دينًا لا شفاء منه إلى حَدٍّ بلغ منه أنها كانت تتاجر بذكرياتها، وكانت تضطر، عامًا بعد عام، إلى أن تستخرج فضائح قديمة، ملفَّقةً أو مُعاشة، لتبيعها للناشرين، مجلدًا، فمجلدًا آخر، وعلى الرغم من ذلك لا يصعب عليها أن تَسْحب الأديب الشاب من بين أواصر الأمومة التي كانت تشدُّه بها مدام دي بيرني، لأنها تحدث أثرها في عنصرين هما من أقوى العناصر في كيان بلزاك: في فضول الفنان الذي لايمكن إشباعه، إلى فهم التاريخ الحَوْلي على أنه تاريخ حي، وفي نقطة ضعف بلزاك الكامنة في أعمق أعماقه، وهي انتقائيّته التي لم تشبع، ولا سبيل إلى إشباعها أبدًا. وقد كانت الألقاب، والأسماء الأرستقراطية يُمارسْنَ على ابن مدام بلزاك، المنتمية إلى البورجوازية الصغيرة، طوال حياته، سِحْرًا لا يُهْزَم، بل يصل عبثه في بعض الأحيان إلى الحد المضحك. على أن الانتصار المتمثل في كونه صديقًا، بل عشيقًا لدوقة، وكونه خلَفًا، في سريرها، لا للأمبراطور في الحقيقة، بل لجنرال من جنرالاته مع ذلك، وخلفًا لمورا، وهو ملك من ملوك نابولي، وللأمير ميترنيش، لم يكن له بُدٌّ أن يصرفه عن مدام دي بيرني ساعة وجيزة من الزمان على الأقل، وهي التي كانت أمها، آخر الأمر، بلا ريب مجرد وصيفة لماري أنطوانيت.

وبطبع الرجل الذي يتَّسم بسهولة الاستثارة والصَّلف يقذف ابن الطبقة الوسطى الخالد في بلزاك بنفسه في خضم هذه المغامرة- التي لم تكن أبدًا صعبة كما كانت تشير إلى ذلك كل العوامل المُرَجِّحة، وياله من كسب بالقياس إلى رجل سيكون «مؤرخ عصره» في المستقبل، أي بالقياس إلى رجل من أهل الخيال مثل بلزاك، الذي لا يحتاج إلاّ إلى شرارة لكي يضيء أفقًا بأسره، أنْ يرقد «بين مِلاءَتَيْ

سرير» مع هذه المرأة التي تعرف كل أسرار التاريخ! لقد عرفت دوقة أبرانتيس نابليون عند أمها، مدام بيرمون، وكان مازال النقيب الضامر، بونابرت، ووقفت في قصر التويليري بين الأمراء والأميرات الجدد في الصف الأول، وجعلت تَرَقُّب تاريخ العالم أيضاً من السلالم الخلفية، ومن المخدع، وحين تكون كل روايات بلزاك العائدة إلى الجو النابليوني، مثل «علاقة غامضة- Une ténébreuse Affaire»، و «الكولونيل شابير»، مشبعة كل الإشباع بالتوثيق المادي، يكون مديناً بالفضل في ذلك إلى تلك العلاقة التي كان للحب الحقيقي فيها دور أقل كثيراً من دور الشهوانية المتبادلة والفضول الفكري، وبالمناسبة لم تدم هذه العلاقة الغرامية طويلاً، وما يربط بين الجانبين يظل صُحْبَةً معينة، ولمّا كان كلاهما يرزح تحت عبء الديون، وكلاهما ظامئ إلي الحياة، وسَرْعان ما اتجه كلاهما إلى أهواء أخرى، فإنهما يحاولان أن يساعد كلٌ منهما الآخر وقتاً طويلاً بعد، بروح رفيقين، بعد أن خمدت النار السريعة الاشتعال، الناجمة عن الميل القصير الأمد، منذ عهد بعيد، وتتولى الدوقة إدخال بلزاك على مدام ريكامييه، وبعض الآخرين من معارفها الأرستقراطيين، كما أنه يساعدها، بدوره على أن تدفع بالمذكرات إلى الناشرين في أفضل صورة ممكنة، وربما أسهم في التأليف سِراً. وشيئاً فشيئاً تغيب عن حياة بلزاك، وحين يصف، بعد سنوات، نهاية هذه الرفيقة، التي يُعْثَر عليها- وهي المبذِّرة التي لا سبيل إلى شفائها من التبذير- ميتة في حجرة سقيفة بائسة، هنالك فحسب، يحسُّ المرء، من خلال نبرة الفزع، أنه نسيها منذ سنين وأن هذا اللقاء لم يكن إلاّ حكاية ساخنة عابرة، في شبابه.

وفي الوقت ذاته تقريباً، أي حين تشق طريقها هذه العلاقة العابرة بدوقة أبرانتيس، تدخل حياة بلزاك امرأة أخرى، هي زُلْما كارّو- التي تمثل أفضل صداقاته، وأكثرها قيمة ونُبْلاً، وأنقاها، وأكثرها ديمومة على الرغم من كل ما في المدى المكاني والزماني من البُعد. وذلك أن واحدة من أتراب أخته الأثيرة، لور،

وهي زلْماتورانجان، تزوَّجت في عام ١٨١٦، النقيب المدفعي كارّو، وهو رجل يتميزَّ «بالعفة والاستقامة الصارمة»، لم تجد خدماته تقديراً، نتيجة لسوء الحظ على وجه الخصوص. وكان من سوء حظ هذا الضابط اليقظ النابه، الشجاع أن يظل معتقلاً طوال سنين بصفة أسيراً في القوارب الخشبية العريضة، الانكليزية، بينما كان رفاقه في ميادين المعارك، وفي الوزارات يستغلون الازدهار الاقتصادي الناجم عن الحرب، ويحققون ارتقاءاً رائعًا في المناصب. وحين تمَّت المبادلة به أخيراً كان قد فات الأوان، إذ لم يكن في وسع القوم، في أي مكان، أن ينتفعوا حق الانتفاع بالضابط الصغير الذي لم تتح له فرصة إقامة علاقات مجدية أو الظفر بالأوسمة والنياشين الناجمة عن الحرب، وفي البداية يدسّه القوم في حاميات الأقاليم الصغيرة، ويجعلون منه في النهاية مديراً للمصنع الحكومي للبارود، وهكذا يعيش الزوجان كارّو حياة ضيِّقة الأفق، ساكنة، في الظل. أمّا زلْما كارّو، التي لم تكن جميلة حقًا، وكانت عرجاء المشية إلى حدٍّ ما، فكانت تكن أعظم الاحترام ورثاءً عميقًا لسوء حظ زوجها الذي يتميز بمستوى رفيع من التهذيب، والذي توقفت مطامحه وانقطع سروره بالحياة في وقت مبكّرٍ، من دون أن تحبه في قرارة نفسها. وتتقاسم الهموم بإخلاص بينها وبينه هو، وولدها، ولمّا كانت امرأة تتمتع بذكاء خصوصي ولباقة ووِجْدان على وجه الخصوص فهي تعرف كيف تجمع حواليها، حتى في المدينة الريفية النائية، دائرة صغيرة من البشر الشرفاء، المهذبين، وإن لم يكونوا أيضًا من ذوي الأهمية على وجه الخصوص، وكان فيهم نقيب يدعى بيريولا يظفر بلزاك فيما بعد بمودته على وجه الخصوص، ويدين له بالفضل في معلومات لها أهميتها بالنسبة لأعماله التي تتضمن أموراً عسكرية.

ويكون لقاء زلْما ببلزاك في منزل أخته، حدثًا سعيداً على وجه الخصوص بالنسبة لكل من الجانبين. أمّا المرأة الذكية، ذات الروح الإنساني التي كان مستواها

الفكري يعلو كثيراً على مستوى كل محيطها- وحتى على رفيقها الأدبيّ الشهير، وناقدها، بلزاك، فيكون هذا بالقياس إليها تجربة يتاح لها فيها أن تلتقي برجل تدرك عبقريته من حيث هو أديب بمثل السرعة التي تجري بها إنسانية قلبها الدفّاقة، المشرقة، الفيّاضة الغامرة. وبالقياس إلى بلزاك يعد من الأحداث السعيدة، أن يعرف منزلاً يستطيع أن يهرب إليه حين تُستنفَدُ قواه من عمله ويكون من السهل أن يستثار من قبل دائنيه، وتثير اشمئزازه قضاياه المالية، من دون أن تظلّله سماء الإعجاب الانتقائي، أو يستعرضه الناس، وقد أخذه الصلف. وكانت توجد على الدوام حجرة جاهزة له يستطيع أن يعمل فيها من دون أن يكدِّر صفوه مكدِّر، وفي المساء ينتظره أناس أهل مودة حارة، ومقاصد حسنة يستطيع أن يثرثر معهم دونما عائق، وأن يتصرف وهو فيما يشبه لِبْسة المتفضّل، من دون أن يتولاه القلق من أن يُثْقِلَ على أحد. على أن شعوره بتوافر الملاذ الجاهز له من أجل حالات تخفيف حدة التوتر الضرورية بعد ما يتعرض له من أشكال التوتر التي لاحدّ لها، كان تحمله على أن يحلُم بصورة مسبقة، وحتى قبل شهور، بهذه النزهات التي تنتهي به إلى حاميات آل كارّو، أو إلى سان سير، أو إلى أنجوليم، أو فرابيسل.

ولم تستغرق المسألة زمنًا طويلاً قبل أن يلاحظ بلزاك الأهمية النفسية لهذه المرأة المجهولة تمامًا، والتي لا اسم لها، والتي كانت عبقريتها الخفية تتمثل في مقدرة مذهلة على التفاني والإخلاص. وتبدأ علاقة لا يمكن للمرء أن يتصوّر أنقى منها ولا أجمل. وما من شك في أن زُلْما كارّو أيضًا، كانت تشعر، من حيث كونها امرأة، بسحر هذه الشخصية الفريدة في نوعها، ولكنها تمسك بقلبها، بيد قاسية، فهي تعلم أنه ما من واحدة مثلها، هي، ستكون الملائمة لهذا الذي لا يقرُّ له قرار، زوجةً قادرة على أن تتضاءل إلى الحد الذي تمحو نفسها عنده، بين يَدَيْ هذه الشخصية الفائقة، وتُبْعِد عنه، مع ذلك، كل الصعوبات، في الخفاء، وتلطِّف من حِدَّتها.

وتكتب إليه ذات مرة قائلة: «لقد كنتُ المرأة التي كتبها القدر لك»، ويكتب هو إليها بدوره: «لقد كنت في حاجة إلى امرأة مثلك، امرأة بعيدة عن المنفعة الخاصة».

ويعترف قائلاً: «إن ربع ساعة تتاح لي لكي أقضيها عندها في المساء لتعني بالقياس إليَّ ما يعدلُ كل مسرات ليلة بين أذرع تلكم الجميلات ...

ولكن زُلْما كارّو هي في الوقت نفسه أوضح رؤية من أن لا تعلم أنها امرأة تفتقر إلى الجاذبية الشهوانية لكي تشبع رجلاً توليه مكانًا فوق كل مكان، إلى الأبد. وكان من المستحيل عندها، قبل كل شيء أن تخدع زوجها، أو تفارق الزوج الذي رصد حياته كلها لها، ولذلك فهي تكرِّس طموحها في أن تقدم إليه صداقة «طيبة ومقدَّسة، تكون خالصة من أي غرور، ومن كل طموح، ومنفعة شخصية-

«لاأودُّ أن يشوب علاقتنا مجرد ذرة صغيرة من الأنانية، - وهي العلاقة التي يثير الاضطراب فيها نبرة من الشهوانية تكدِّرها، ولمّا لم يكن في وسعها أن تمثل كلا الأمرين معًا بالقياس إليه، أيْ أن تكون مُوَجهة وعشيقة، مثلما كانت قبل ذلك مدام دي بيرني، فقد كان أحبَّ الأمور إليها أن ترى هاتين الدائرتين منفصلتين لتكون المُعينة في موضع الترحيب عنده بدرجة أكبر، في كل محَنه، وهي تصيح قائلة: «يا إلهي! لماذا لم يقذف بي القدر في المدينة التي لابُدَّ لكَ أن تقيم فيها! إذًا لكنت خليقة أن أَهَب لك من الحَدَب والرعاية كلَّ ما كان يمكنك أن تتمناه فحسب، ولا تَّخذت مسكني في البيت الذي تقطن فيه ... وإذًا لكان ذلك سعادة تقوم على رابطين.

ولكن مادامت مثل هذه الإمكانية لم تُتَحْ له لكي يقسِّم حياته إلى جانبين: شهواني ونفسيّ، فهي تلتمس لنفسها، في قرارة نفسها، مخرجًا:

«إنني أتبنّاك ابنًا لي.

وهي تريد أن تجعل مهمة حياتها أن تفكِّر من أجله، وأن تُعنى به، وتستشيره: ومثل كل النساء في حياة بلزاك تشعر، هي أيضًا، بالحاجة إلى أن تعرض على هذا العبقري الطفل، الذي لا يعرف كيف يدبِّر أمور حياته، أمومةً في إطار الحب.

وفي الواقع لم يكن لبلزاك أبداً، مستشار أكثر صدقًا، ولا أفضل بالنسبة لفنه ولحياته، من هذه المرأة الضئيلة، غير المعروفة، الموؤودة في الريف، في زواج مبتذَل. وفي وقت كان فيه عمل بلزاك يلفت أنظار الملأ بطريقة الزِيّ السائد (الموضة)، غير أنه مازال لا يجد أدنى فهم (١٨٣٣)، تكتب هي بكل توكيد ينمّ عن الصدق الذي لا يتزعزع، والذي يميّز كل كلمة من كلماتها:

«أنت كاتب العصر الأول، وأنت، بالنسبة لشعوري، أهم الكتاب قاطبة، ولا يستطيع المرء أن يضاهيك إلا بك، وكل شيء يبدو، إلى جانبك، عديم الطعم والنكهة».

وهي تضيف إلى ذلك بالطبع، قولها على الفور:

وعلى الرغم من ذلك، يا عزيزي الأعزّ، فإن لي هواجسي، وهي أن أشُدَّ بصوتي، أزْرَ جوقة الألوف الذين يترنمون، بين يديك، بالمدائح».

ذلك لأنها تخاف، بدافع من غريزة بالغة الصحة، مما يساير الزِيّ الشائع (الموضة)، وهو ما يثير الحماسة العارمة في نجاح بلزاك، وذلك، على وجه الخصوص، لأنها تعرف عظمة قلبه، ولأنها تحب بلزاك الذي هو «في الأساس طيب رقيق القلب» والذي يستكِنُّ «وراء كل ستائره المتَّخَذة من الموسلين وشالات الكشمير، وتماثيل البرونز النصفية»، فهي تخاف، (بحق) أن يشكل النجاح الانتقائي في الصالونات، والنجاح المادي لدى الناشرين، خطراً على موهبته مثلما يشكل خطراً على شخصيته. ويتمثل طموحها في أن يستخرج هذا العبقري الذي تدرك تفرُّده قبل كل الآخرين، من نفسه أقصى إمكاناته وأفضلها.

«إني لمجنونة بالرغبة في أن أراك كاملاً» هذا ما تعترف به- وهذا الكمال شيء مختلف كل الاختلاف عن:

«النجاح المتمثل في الزِيّ الشائع «الموضة»، أو النجاح في الصالونات (اللذين آسَفُ لهما، لأنهما يفسدانك فيما يتعلّق بالمستقبل)- إنه الكمال الذي لابدَّ

أن يكمن مجدك الحقيقي فيه، مجد المستقبل، الذي أفكر فيه، وهذا يعدل عندي في الأهمية أن أحمل اسمك أو أقف قريبة منك بحيث يرسل شعاعه عليّ».

وهكذا يفرض نفسه الواجبُ المتمثل في أن تكون لهذا الرجل الذي تعرف عظمته وفضله، مثلما تعرف ميله الخطير إلى أن يبدِّد طاقته ويستسلم لنزعة طفولية مغرورة مبنية على أوجه تقدُّم قائمة على البهرجة والمظاهر، وفي نظرة منها إلى خطر فقدان هذه الصداقة التي هي عندها أغلى متاع في الحياة، تعبِّر بصدقها الرائع العجيب عن هواجسها مثلما تعبِّر عن موافقتها، إذ تميِّز نفسها بذلك، عن وعيٍ منها، من أميرات المجتمع وسيداته اللواتي يمجدن الكاتب الذي يماشي الزِيَّ السائد من دون تفكير.

ولا يستطيع المرء في كل المجال الزمني أن يجد أحكاماً ونقداتٍ أكثر معقولية من أحكامها ونقداتها، ومازال كل ثناء، وكل تقييد أو تحديد يصدران عن هذه المجهولة، زوجة النقيب من أنجوليم، حتى اليوم، بعد قرن من الزمان، يتسم بالصحة على نحو أكثر إصابة للجوهر من كل أحكام سانت بوف، والنقد المحترف. فهي تعجب بروايات «لويس لامبير» و «العقيد شابير» و«سيزار بيروتو» و «أوجيني غرانديه»، بينما تحس بعدم ارتياح، مفعم بالحيوية، حيال أقاصيص الصالون المعطَّرة، في «امرأة في الثلاثين» و «الطبيب الريفي»، تعدُّها، وهي مصيبةٌ أيَّما إصابة، أنها «غليظة، ومشحونة بالأفكار إلى حد الإفراط»، وتشعر بالنفور من التصوُّف الزائف الذي يحلق في أجواز السماء، في «سيرافيتا». وبصفاءٍ في الرؤية يبعث على الدهشة تحسُّ دائماً بكل خطر يهدِّد ارتقاءه، فحين يعتزم أن يتوجه إلى السياسة تحذِّره وتذكِّره تذكير اليائس:

«الأقاصيص الماجنة "Contes Drolatiques" أهمُّ من حقيبة وزارية.

وحين يتجه نحو الحزب الملكي تصيح به قائلة:

«ألا فَلْتَدَعْ هذا الدفاع لأناس من محيط البلاط، ولا تجعل بينك وبينهم قضية مشتركة فإنك لن تزيد بذلك على أن تلوِّث سمعتك التي اكتسبتها بصدقك».

وتعترف بعناد، بأنها سوف تظل دائماً وفية لحبها «لطبقة الفقراء»، التي تُذكَر بالسوء على نحو باعث للغيظ إلى حد فائق، ويجري استغلالها من جرّاء جشع الأغنياء»

«ذلك لأني أنتمي، أنا، إلى الشعب، ولقد تم ادخالنا، من الوجهة الاجتماعية، في الفئة الارستقراطية بالطبع، غير أننا كنا نحافظ دائماً على تعاطفنا مع الشعب الذي يعاني من القهر».

وتحذِّره عندما ترى كم يتعرَّض للإفساد في كتبه من جراء الحُمَيّا التي يكتب بها ما يلم بباله كيفما اتفق، وتصيح به قائلة:

«أتُراك تسمي هذا ممارسة للأدب، عندما تكتب هكذا بالسكين على حنجرتك؟ وأنىَّ لك أن تستطيع أن تبدع عملاً مكتملاً حين لاتكاد تستغرق الوقت الكافي لتدوِّنه على الورق بصورة مطلقة! ففيم هذه العجلة، لمجرد أن تحتمل ترفًا يليق بمعلم خباز أدركه الثراء، غير أنه لا يليق بعبقريٍّ؟ إن الرجل الذي استطاع أن يرسم شخصية كشخصية لويس لامبير ما كان ليحتاج في الحقيقة، بلا ريب، إلى أن يتزوَّد بخيول العربات ... وإني ليؤلمني، يا هونوريه، أن لا أراك عظيماً. ويلاه، لقد كان من الممكن، بالقياس إليَّ، أن أشتري الخيل، والعربة والبُسْط الفارسية التي تُعلَّق على الجدران- غير أني ما كنت لأتيح لأي فتى مكّار إمكانيةَ أن يُباحَ له أن يقول عني: إن في وسع المرء أن يحظى بها في كل وقت مقابل المال».

ثم إنها تحب عبقريته وتخشى ضعفه، وهكذا تنظر إليه بخوف وهو يستعجل إنتاجه، وكيف يدع الصالونات الأرستقراطية تستأثر به، وكيف يحيط نفسه بترف لا ضرورة له ليبهر هذا «المجتمع الراقي» الذي تزدريه، والذي يدفع به إلى الوقوع تحت عبء الديون، وهي تناشده، في توقُّع حقيقي للغاية، قائلة:

«لاتستهلك نفسك هكذا قبل الأوان!».

وهي تود، بحكم عقليتها ذات الولاء الشديد لفرنسا، أن ترى أكبر فنان في القرن مستقلاً بكل معاني الاستقلال، مستقلاً عن الثناء والذمّ، وعن العلانية والجمهور وعن المال، ويتولاّها اليأس من وقوعه المرةَ بعد الأخرى تحت وطأة عبودية جديدة وارتباط جديد:

«عبد من عبيد التجذيف في المراكب الحربية القديمة-، هذا ما ستكونه دائمًا، فأنت كأنما تعيش من أجل عشرة، وتستهلك نفسك في الرغبة، ولسوف يكون مصيرك في كل مسار حياتك تانتالوس (*)-

كلمة تنبؤية!

على أن مما يشهد لبلزاك، الذي كان أذكى ألف مرة من ألوان صَلَفه اليسيرة، بالعفة والصلاح في سريرة نفسه أنه كان، في الوقت الذي كان فيه يحيط به الدوقات والأميرات متملّقات، ويبالغن في تقريظه، لم يكن يكتفي، في كثير من الأحيان، بتقبُّل هذه المآخذ القاسية والعنيفة في كثير من الأحيان، بل كان يشكر لهذه الصديقة الحقّة، المرة بعد الأخرى، إخلاصها.

وكان يجيبها قائلاً: «أنت جمهوري، وإني لفخور بمعرفتك، أنتِ التي تبثين في نفسي الجرأة لتجعلي مني كاملاً»

وهو يشكر لها أنها تعينه، على تطهير حقوله من الأعشاب الطفيلية، «فكلما رأيتك خرجت من ذلك بمكسب لحياتي».

وهو يعرف أنه ليس ثمة دافع غير نبيل، ولاغيرة، أوكبرياء ثقافية تكمن في ألوان تذكيرها، بل مجرد الحرص المتناهي في الصدق على الروح الخالد في فنه، وهكذا يوليها مكانًا خصوصيًا في حياته.

(*) هو ملك أسطوري عند الإغريق، وآلامه هي رؤيته ما يشتهيه في متناول يده مع استحالة الحصول عليه «المترجم»

«إني لأكنُّ لك شعوراً لا يمكن مقارنته بشعور آخر، وما من شيء يماثله أو يضاهيه».

وحتى عندما يوجه اعترافاته إلى أخرى، إلى مدام هانسكا،

«لايتزعزع مكان الصدارة هذا الذي يتمتع بالامتيازات في مشاعري»، إلاّ أنه يغدو أكثر صمتاً في صدد صديقة الأمس، ربما بدافعٍ من عدم ارتياحٍ معيَّن، وبدافع خجل خفي. وعلى حين يسير حيال مدام دي هانسكا والنساء الأخريات في حالات ثَوَرانه سيرة رومانسية، أو سيرة مسرحية، درامية، ويظل يمارس الألعاب البهلوانية بسلاسل عمودية كاملة لأرقام ديونه، وسلاسل جانبية لأرقام عمله المستعجل إلى حد فائق، وهو يعلم أنه لا يستطيع أن يقول لهذه المرأة ذرة مما هو غير حقيقي، من دون أن تحسَّ بها، وفي غير شعور منه يشعر بزيادة مُطّردة فيما يتعرض له من التعويق في اعترافاته، وتمضي السنون من دون أن يزور موضع العمل في منزلها، وربما كان في ذلك إلحاق للضرر به، وفي المرة الوحيدة التي تأتي فيها إلى باريس- والله وحده يعلم مقابل أي تضحيات، يكون غارقًا في عمله إلى حد يبلغ منه أنه لا يفتح رسالتها، ويدعها أربعة عشر يومًا تنتظر جوابه، وهي على بُعد ساعة فحسب من منزله، في انتظار دعوة لا تأتي أبداً. ولكن قبيل موته، أي في السنة التي يستطيع فيها، بعد أن بات ميؤوساً منه، أن يأتي بمدام دي هانسكا، التي صارع من أجلها ستة عشر عاماً، إلى بيته زوجة، يتوقّف ثانية ليستعرض حياته بنظرة شاملة، ويدرك أن زلْما كانت أهمَّ صديقاته، وأصدقهن، وأفضلهن، ويتناول الريشة ليكتب إليها: «لم أتوقف قط عن التفكير فيك، وحبّك، والحوار معك، هنا أيضًا».

على أن بلزاك، المُصعِّد الخالد، والمُبالغ الخالد، لم يبالغ حين وضع علاقته بزلْما، من حيث كونها أكثر صداقاته نقاءاً، بعيداً عن كل الصداقات الأخرى، وفوق كل الصداقات الأخرى. وكل سائر العلاقات، باستثناء تلك العلاقة الأقل

صدقًا إلى حد خطير، بمدام دي هانسكا، التي سوف تسيطر على حياته- تظل عرضية بدرجة تقل أو تكثر. وبلزاك يكشف عن شعوره السيكولوجي الأكيد عندما ينحاز انحيازاً شديداً على وجه الخصوص إلى النبيلة مارسلين ديبورد- فالمور التي يهدي إليها أحد أجمل أعماله، والتي يرتقي إليها الدرجات المائة المؤدِّية إلى سقيفة القصر الملكي - وهو مجهود خصوصي بالنظر إلى وزنه الثقيل- وهو جاثٍ على ركبتيه. أمّا جورج صاند التي يسميها «أخاه جورج» فيربطه بها نوع من الزمالة الجريئة الحازمة التي لا يخالطها ظل من العلاقة الحميمة الشهوانية. على أن كبرياءه تحميه من أن ينخرط في لائحة عشاقها برقم الرابع عشر أو الخامس عشر، وأن يدخل في علاقة أخوة في السرير مع نصف الأدب الباريسي، مع ألفريد دي موسيه، وساندو، وشوبان، وسانت بوف. وكان يوجد في الخلفية، في الظل، إلى حد بعيد، بعض الشخصيات العابرة أيضًا، فمنْهُنَّ «ماري» غير المعروفة، التي كانت له بها علاقة قصيرة الأمد، وكان له منها ولد على الأرجح، وأخرى تدعى «لويز»، التي لا تُعْرَف اسم عائلتها، على النحو ذاته، وكان بلزاك يعرف كيف يمارس التكتُّم والتحفُّظ في كل أمور حياته الحاسمة وراء نزوعه الظاهري إلى الثرثرة واللامبالاة، بأسلوب الأستاذ البارع، فيما يتصل بالعلاقات الحميمة بالنساء.

على أن صداقاته مع الرجال أكثر ندرةً بعد، ويكاد كل أولئك الذين استرسل معهم في تعلُّق قلبيّ، يمثلون شخصيات لا أهمية لها، ولا تُعْرَف أسماؤها. ولئن كان بلزاك يلتمس عند النساء تخفيف حدة أشكال التوتر عنده فقد كان يلتمس عند الأصدقاء إمكان الاعتماد عليهم، وكشأن معظم ذوي الطبائع المبدعة الذين التزموا بعمل شامل بموجب قَسَم، مثل جوته، وبيتهوفن، لا يختار بلزاك عقولاً شامخة تأتيه بالحافز، وتشجعه على الإبداع الفني، والتنافس، إذ يكفيه أناس يستطيع أن يتوجّه إليهم في حالة الحرج، من دون أن ينتابه الهمّ، ويكونون مستعدين للخدمة أو التسلية في كل حين وساعة، في فترات التوقف القصيرة عن العمل، وما يبحث

عنه إنما هو نوع من العلاقة العائلية، وإلاّ لما عرف المرء إلاّ القليل عن المسيو دي مارجون الذي كانت تتاح في قصره، في ساشيه، اثنتي عشرة من المرات، للهارب من باريس، ورشة عمل مريحة. ولم يكن أصدقاؤه الحقيقيون، بحال من الأحوال، هم المعاصرون، من حجم ڤيكتور هوجو أو لامارتين، أو هاينه وشوبان، على الرغم من أنه عرفهم جميعاً، بل كانوا تاجر خردوات حديدية، وطبيباً، ورساماً ضئيل الشأن، وخياطًا، وهي صورة شائهة بما فيه الكفاية، على أن تاجر الخردوات الحديدية، وهو «الأب دابلان القصير» يظل رجلاً لا يستغنى عنه منذ سنوات شارع ليدينيير، ويعيش مع أوغست بورجيه، وهو رسام لا أهمية له البتة، حينًا من الزمن، في شارع كاسيني، أمّا الدكتور ناكار فهو طبيبه حتى ساعة وفاته، وهو يسانده بالنصائح الاختصاصية في صدد رواياته، لا في بعض الأحيان فحسب، بل يساعده أيضا عندما تمسّ الحاجة على وجه الخصوص، لسد الثغرة التي تظل أبدًا من جديد في كيس الديون الذي يظل بلزاك طوال حياته يجرّه على ظهره. وآخر من يظهر في السلسلة الخياط بويسون، في شارع ريشليو، وهو الذي عرف كيف يقدِّر بلزاك قبل أن يقدِّره النُقّاد الباريسيون، وهو لا يكتفي بتقديم قرض إليه على مدى السنين، بل يضع تحت تصرفه المال أيضاً في بعض الأحيان، ويقدم إليه المخبأ في بيته، حين لا يعرف بلزاك كيف يخلّص نفسه من الدائنين الآخرين الأقل تبصُّرًا. غير أن إقراض المال لطبيعة بالغة الامتنان مثل بلزاك، لم تكن، في أي مرة من المرات، عملاً غير مستحسن، على أنه سدّد كل ديونه الصغيرة والكبيرة لخياط حُلَل الفراك الطيب بسطر واحد، في «الكوميديا الإنسانية»:

«إن حُلَّة يدين المرء بالفضل فيها إلى بويسون، لهي كافية لكي يلعب المرء دوراً ملكيًا في كل صالون» وبفضل هذه الكلمات القلائل، كلمات الإعلان، رفع منزلة بويسون على الفور إلى مُوَرِّد للمجتمع الراقي. وبات يتوافر لكبار الرجال، إلى جانب العملة اليومية الصغيرة، عملة أخرى خصوصية: لقد بات في وسعهم أن يدفعوا الثمن بالخلود.

وكـانت هذه الحلقـة الصـغيـرة من البـشـر المحـيطين ببلـزاك قـد أُغلقَت، في جوهرها، حين أخذ في عـمله الحـقيقي، وفي العـام الثلاثين تكـون حقبـة التـقبُّل والتَّلَقّي عنده قد انتهت، وماعاد في حـاجة إلى الحوافز، ولا إلى إقناع أو مناقشـة، ولا إلى مطالعة، ولا إلى معـارف، ولا إلى بشر، إذ بات كل شيء جـاهزاً فيه. وما كـان عليه أن يمنحه من الفكـر والعبـقرية، ومن الدفـء والحِدّة فما عـاد يرجع إلاّ إلى عـمله. ويقـول ذات مـرة: «الشـجـرة الكبـيـرة تجـفف الأرض في مـحـيطهـا» فـهي تجتذب، لكي تستطيع أن تُزْهِر وتحمل الثمار، إلى نفسها كل قوة من محيطها» ولئن كـان بلزاك مـرتبطًا بالمئات من البشـر عن طريق عـمليات التعـارف من حين إلى آخـر فـإنه لن يوسِّع الدائرة الـداخليـة التي كـانـت تشكلت في عـامـه الثـلاثين، أبداً، ولن تُضاف إليها سوى شخصية واحدة، هي مدام دي هانسكا فيما بعد، لتكون المحور والقلب الحقيقي لحياته.

الفصل الثامن

بلزاك من الخارج ومن الداخل

والنجاح المفاجئ، والشخصي، يعني، دائمًا، خطراً على الفنان. ففي عام ١٨٢٨، يكون بلزاك، في سن التاسعة والعشرين، عاملاً بسيطًا مسكينًا، بائسًا، ضئيل الشأن في مجال الأدب، يكدح، ويكتب، من دون اسم، للآخرين، وكان تاجراً مفلسًا، غارقًا في الديون إلى ما فوق أذنيه، وماهو إلاّ عام، وعامان، بعد ذلك، وإذا بلزاك نفسه واحد من أشهر الكتاب في أوروبا، يُقْرأ في روسيا، وفي ألمانيا، وفي اسكنديناڤيا، وفي إنكلترا، تتزاحم عليه المجلات المختلفة، ويبحث عنه الناشرون جميعًا، وتَنْصبُّ عليه رسائل المعجبين. وبين عشية وضحاها تتحقق رغبة من رغائب صباه، «المجد»، وهو المجد الكبير، الذي يبهر الأبصار، المجد الذي يُشْرق نوره على العالم بأسره، ولم يكن بُدٌّ، حتى لإنسان أكثر رزانة وحصافة من بلزاك، أن يُسكِرَه مثل هذا النجاح، وما أحراه أن يُسكِر، من باب أولى، طبيعة كطبيعته، تبتسم بهذا القدر البالغ من التدفُّق والفيض، وبهذا القدر من الولع بالأوهام، والتفاؤل. لقد أنفق قدراً من السنين مفرطًا في كثرته، قاعداً في صومعته، فقيراً، يتضورّ من الجوع، مُتْرَعًا بنفاد صبر اليأس، ولم يكن في اللحظات العابرة، ينظر إلى الآخرين، فحسب، دائمًا، إلاّ نظرة الحاسد، إلى أولئك الذين يملكون الثروة، والنساء، والنجاح، وإلى ألوان البذخ والترف، ومفاجآت الحياة التي تحفل بالتبذير. وما أكثر ما يكون مفهومًا أنه ينزع، وهو على ماهو عليه من الحسية والشهوانية، إلى أن يتذوَّق هذا التهامُس والهمهمة، ، والصخب حول اسمه، كما يتذوَّق متعة في حياته الخاصة، وأن تنازعه نفسه إلى أن

يستنشق هذا المجد، ويتذوَّقه، ويَتَقراّهُ، ويُحس به، في بؤبؤ العين وفي البشرة، وفي دفء البشر المُستَعْذَب، وفي نَفَس التملُّق الحلو، الذي يفيد أنه مادام الناس ينتظرونه، فهو شخصية عمومية، تعود إلى العالم، وهو يريد أن يتجلى للعالم، وأنه قد تولاه التعب من ألوان الإذلال، والصَدّ، وأعمال سخرة العبيد التي طالت عليها السنون، ومن الحساب، والتوفير، والاقتراض، وعاد يريد أن يستسلم لإغراءات مجده الخاص، للترف والثروة، والتبذير. وهو يعلم أن خشبة مسرح العالم الكبرى مفتوحة أمامه. وهكذا يقرر بلزاك أن يتجلّى لجمهوره، وأن يلعب دوراً اجتماعياً.

وعلى قدْر كثرة ما يأتي به بلزاك من العبقرية من أجل عمله، يقلُّ ما يأتي به من الموهبة والكفاءة من أجل هذا الدور، دور أسد المجتمع. ودماغ البشر غريب الطبع إلى حد يبلغ منه أن المعرفة الذهنية المكتملة ذاتها، وأغنى الخبرات، لا يَقْدِرْن على إلحاق الهزيمة بمواطن الضعف الفطرية. وعلم النفس يستطيع أن يدرك الاستعدادات المُعيبة، بلا ريب (وهذه إحدى نقاط التحليل النفسي التي تحفُّ بها الشكوك)، ولئِن كان يكشف عن نفسه بشعاعه، فإنه لا يستطيع أن يقضي عليها. والإدراك، أو المعرفة، لا يعنيان التغلب والانتصار، ونحن نظل، المرة بعد الأخرى نرى أوفر الناس حكمة عاجزين أمام حماقاتهم اليسيرة التي يضحك منها كل امرئ آخر. على أن بلزاك لم يُوَفَّق قط إلى كبت أسوأ ميوله: وهو نزوعه إلى الانتقاء، مهما يكن من وعيه لطفوليّة هذا الميل، وجدارته بأن يُضْحَك منه. وهذا الرجل الذي أبدع أعظم عمل في قرنه، وكان في وسعه أن يمرَّ بحريّة بتهوڤن، بالأمراء والملوك، فيتجاهلهم ولا يحفل بهم، يعاني من جنون بالأرستقراطية شائهٍ. وذلك أن رسالة من دوقة ضاحية سان جيرمان أكثر أهمية عنده من ثناء جوته، وربما كان وصوله إلى منزلة كمنزلة روتشيلد وسكناه القصور مع وجود الخدم والعربات وقاعة لروائع الأعمال، أحبَّ إليه من خلوده وقد كان خليقاً أن يبيع روحه مقابل براءة

نبالة صادرة عن لويس فيليب الساذج. وإذا كان أبوه أقدم على الخطوة الكبيرة، بتحويل أسرة من الفلاحين إلى منزلة الطبقة الوسطى الثرية، فلماذا لا يقوم بخطوة الانتقال إلى الأرستقراطية؟ إن عصر الارتقاء من دون قيود لم يُوَلِّ الأدبار إلاّ منذ الأمس، ولماذا يفترض أنه انتهى تمامًا؟ وإذا كان رجال مثل مورا، وجونو، وناي، وصُنّاعٌ، وأبناء حوذيّين، وأحفاد أصحاب مطاعم تحولوا إلى دوقات من جراء هجمات فرسان، أو هجمات بالحراب، ويلتمس الآن رجال المال، المتلاعبون بالبورصة، وأرباب الصناعة، إضفاء النبالة عليهم، فلماذا يفترض فيه هو أن لا يرتقي إلى هذا «العالم الأعلى»؟ وربما كانت هي القوة ذاتها، التي دفعت ببلزاك الأب، دونما وعي، قبل ستين عامًا، إلى الخروج من كوخ القش البائس في نوجارييه إلى باريس، والتي تدفع الآن بالابن إلى مواصلة الارتقاء إلى هذا العالم «الأعلى» والذي كان من قبيل المهزلة أن الابن لا يراه ضمن حدود مقدرته، بل يراه وقفًا على عالم دنيوي يُستَبْعَدُ هو منه حتى الآن، وهو أمر لا سبيل إلى إدراكه بالعقل، على أن التناقض الي لا يفهم: هو أن المرء لكي «يرتقي» في هذا الجو سوف يمتهن نفسه طوال حياته ليعيش في ترف، ويشكّل نفسه بحيث ينسجم مع ورشة العمل، ولكي يبدو أنيقًا، لابدَّ له أن يجعل نفسه في موضع التضاحُك منه والسخرية، وهو في هذا الصدد يثبت صحة القانون الذي وصفه هو نفسه من مائة وجه، وهو أنَّ مَنْ كان مُعَلِّمًا في مجال من المجالات سوف يتحوَّل إلى أخرق عاجز عندما يجرِّب نفسه في مجال غير مناسب له.

ومن أجل هذا الظهور يصلح بلزاك هندامه إصلاحًا كبيرًا، وأول ذلك أنه لا يجوز له أن يظهر باسم مجرد السيد بلزاك، إذ يبدو هذا مفرطًا في السوء، وفي الانتماء إلى الطبقة الوسطى في ضاحية سان جيرمان. وعلى هذا يلفِّق بلزاك لنفسه بالانطلاق من كمال سلطانه، تقدير نبالة، ومنذ رواية جلد الحصان تظهر كل كتبه باسم هونوريه دي بلزاك، والويل لمن يجرؤ على مجادلته في هذا اللقب ويتناهى

إلى سمعه أنه ليس إلاّ من قبيل التواضع أن يسمي نفسه مجرد "de Balzac" مادام أصله يرجع إلى المركيز دنتراج، ولكي يجعل هذا قابلاً للتصديق أيضًا يوعز بنقش الشعارات الغريبة على أدوات مائدته، ورسمها على هيكل عربته. ثم إنه يغير من الأساس أسلوب حياته، وذلك أن الناس لن يصادقوا على اسم هونوريه دي بلزاك، كما يقول محتجًا، إلاّ بأن يكون أديبًا كبيرًا، وعندما يظهر بما يتلاءم مع مركزه. وذلك أن مَنْ له يُعْطى ويُزاد، وفي عالم لا يكون فيه الاعتبار إلاّ للمظهر والبريق لابدّ للإنسان، بناء على هذا أن يظهر بالمظهر الذي يوحي بأنه يملك الكثير لكي يحصل على الكثير، وعندما يملك سيِّد يقال له شاتوبريان قصرًا، ويقتني جيراردان اثنين من الخيل للخروج بهما راكبًا، وحتى رجل يقال له جول جانان، أو رجل يقال له اوجين سو عربة. فمن الأَوْلى أن يكون لهونوريه دي بلزاك مركبة خفيفة ذات عجلتين مع خادم في حلَّة الخدم لكيلا يحْسَبَه الناسُ الكاتب الأقل شأنًا. وفي شارع كاسيني يؤخذ الطابق الثاني، وتُؤَمَّن له مفروشات مترفة، ولا ينبغي لأحد من أهل الأناقة أن يُباح له أن يقول إنه يرتدي ثيابًا أغنى وأغلى من هونوريه دي بلزاك. أما حلة الفراك الزرقاء فيوعِز بأن تُصْنَع لها، على وجه الخصوص، أزرار ذهبية منقوشة، ولا بُدَّ لبويسون الطيب أن يؤمن له الصُّدَيْريّات الأبهظ ثمنًا، من الحرير والبروكار، بالدَّيْن، وهكذا يدخل الكاتب الجديد الصالونات الباريسية، وقد مُشِّطت له لِبدَة كلبْدة الأسد بطبقة كثيفة من المرهم، وفي يده منظار للأوبرا له قبضة بأسلوب المزهُوّ بنفسه الذي يقصد إلى لَفْتِ الأنظار، «لكي يُكوِّن لنفسه سمعة»، وكأنه لم يغْزُ العالم الراهن والعالم اللاحق بأعماله.

ولكن يا لها من خيبة أمل! وذلك أن «السمعة» التي يريد بلزاك أن يكتسبها في المجتمع الباريسي بمظهره الشخصي، تغدو على وجه الخصوص وبَالاً على سمعته الحقيقية. وذلك أن محاولة بلزاك أن يظهر بمظهر الأنيق تظل طوال حياته إخفاقًا واحدًا. وأوّلُ ذلك أن الصالونات ليست صالونات ضاحية سان جيرمان،

ولا قصور البعثات الكبرى التي يتاح له دخولها، بل هي مجرد الصالونات الأدبية العائدة لمدام دلفين جاي وابنتها، مدام جيراردان، وركْن الثرثرة العائدة لمدام ريكاميه، وهي صالونات لسيدات تريد أن تنافس الارستقراطية الأدبية، لأن الأرستقراطية الرسمية تتنحَّى جانبًا. ولكن حتى في هذه الدائرة الأقلِّ رغبات وشروطًا، تُحْدث الأناقة ذات الأبَّهة والمُباهاة، والافتعال والتكلُّف، أثرًا يضاهي الكارثة. وذلك أن بلزاك، حفيد الفلاح وابن المواطن، وغير ذي النبالة، الذي لا شفاء له، لا يستطيع، لمجرد نموِّه الجسدي أن يعلق أمله على أن تكون له شخصية ومشْية، أوجِلْسة أرستقراطية، ومامن خياط للبلاط، مثل بويسون، ولا أزرار ذهبية، ولا أطواق مكَشْكشة ذات ذوائب، تستطيع أن تضفي مظهراً نبيلاً بالفعل على هذا الخارج من الطبقة الوسطى، الغليظ الأطراف، والمكتنز المنفوخ، ذي الوجنتين الحمراوين، الذي يرفع عقيرته بالحديث، ولا يَني يتحدث، والذي يقتحم كل مجتمع بما يتسم به من العنف. إنه ينطوي على قدر من الطبع الحاد يبلغ من تجاوزه للحدود وطغيانه أنه لا يمكنه أن يتعلم معه، في أي يوم من الأيام، سلوكًا حَذِرًا، متحفظًا، وحتى بعد عشرين عامًا سوف تشكو مدام دي هانسكا من الكيفية التي يدسُّ بها السكين في فمه عند الأكل. وكيف يُثْقل، على وجه الخصوص، بتبجُّحه الصاخب، على أعصاب أولئك الذين يُعْجبون به أصدق الإعجاب أو سوف تشكو من الأسلوب المُجَلْجِل في ضحِكه، ومن «طلاقة لسانه تلك الفيّاضة العاصفة» التي تنتزع الكلام من كل امرئ آخر. ولن يبذل الوقت ويظهر المثابرة على المحافظة على أناقته على الدوام إلاّ امرؤٌ متعطل متسكِّع، وطبيعة مؤسسة على المظهر الخارجيّ، وهو الأمر الذي يُعدَّ في حد ذاته نوعًا من الفن- . على أن رجلاً كبلزاك الذي انتزع نفسه من العمل مدة ساعة على وجه الخصوص، إنما يكشف، من خلال أسلوب تجهُّزه، بوضوح، عن السرعة. ثم إن تركيب الألوان في حلته الفراك، وفي سرواله، انتهى بديلاكروا إلى اليأس، وماذا يجدي المنظار الذهبي ذو القبضة إذا كانت أظفار الأصابع التي تمسك به متسخة، وكانت شرائط النعلين تروح

وتجيء، محلولةً، فوق الجوربين الحِريريَّيْن، وماذا تجدي الأطواق المكشكشة حول العنق، إذا كان دسم اللِّبْدة المدهون بالمرهم يتقاطر فوقها بمجرد أن تسخُن؟ وكان بلزاك يتوشَّح بأناقته التي كانت، في حالة ذوقه العاميّ، تهدف دائمًا إلى الجانب التبذيري وجانب الأُبَّهة أكثر مما تهدف إلى جانب الحذر والتحفُّظ، مثلما يتوشّح خادم بحلَّته الرسمية، وكان الشيء الباهظ يحدث في نفسه أثرًا كأنه رخيص، بينما يحدث الشيء المُتْرَف إثارة، ثم إن كل المزيج المجموع - من الرسوم الكاريكاتورية التي لا تحصى التي حُفِظَت عنه- يضطرُّ، في كثير من الأحيان، حتى المعجبات به، إلى رسم ابتسامة خفيّة من وراء مراوحهن اليدوية.

ولكن بلزاك كان كلما ازداد إحساسًا بأنه لا يُوَفَّق إلى الأناقة الحقيقية، ازداد محاولة لتصعيدها، فإذا لم يكن في وسعه أن يتخذ لنفسه وِقفَةً حسنة، فهو يريد، على الأقل، أن يحدث لفتًا كبيرًا للأنظار، وإذا لم يستطع أن يلفت الأنظار على نحو مستعذب، عن طريق عدم لفت الأنظار المنطوي على النبالة، فسيفرض، على الأقل، أن يبلغ من شهرة ألوان ترفه وتبذيره ما يبلغه هو من الشهرة، وإذا كانوا يتهكمون عليه فهو يريد على الأقل أن يرمي إليهم بشيء ينمُّ عن السخاء لكي يتهكَّموا عليه. وهكذا يبتدع بلزاك لنفسه، بعد إخفاقه الأول بضعة أشياء ضخمة سوف تجعله، كما يقول ضاحكًا، أكثر شهرة من رواياته، فهو يؤمِّن لنفسه عصا، غليظة كهراوة، مطعَّمة بالفيروز أو التركواز، وينشر حولها أغرب الشائعات، كأن يقول، مثلاً، إنه يوجد في عقدة هذه العصا صورة عشيقة مبهمة خفية، من الطبقة الأرستقراطية العليا، في إهاب حواء. وكان إذا دخل شرفة «النمور» في دار «الإيطاليين» جَمَدت أنظار الجمهور كله مسحورة، عليها، ثم إن مدام دي جيراردان تشعر، من جراء هذا الأمر الغريب، بما يحفِزُها، إلى وضع رواية خاصة بها «عصا المسيو بلزاك»، غير أن السيدات يَظْلَلْن يشعُرْنَ بخيبة الأمل، وما من واحدة منهن تختار شاعر النساء، هذا البروفنساليّ ليكون حاميها، ثم إن أسود

الصالونات الباريسية، أي أصحابه من آل راستينياك ودي مارساي، الذين يُعْجبُ بهم أعمق الإعجاب، يشعرون أنهم ليسوا في حاجة إلى الصراع مع عنف الفيلة أو فرس النيل المتمثل في هذا المرشح الجديد.

ولم يكن بلزاك أكثر نجاحًا مع زملائه في عالم الأدب الذين ينظرون من دون ارتياح كبير على وجه الخصوص إلى هذا المكتنز المنفوخ كأنه سمك الكُرْكي، يسبح فجأة في حوضهم الذي هو حوض سمك المشط، أو الشبّوط، ومازال قسم كبير منهم يتذكر على وجه الدقة البالغة، أن هذا الكاتب الذي بلغ هذا القدر من الشهرة كان بالأمس مازال يقدم، بصفة «الزنجي» أكثر الروايات الرديئة بؤسًا، بأي ثمن كان، وفي كل اتجاه من اتجاهات الذوق. ولكن حين فوجئوا بموهبته، وأثار اضطرابهم انتاجيته الرائعة، باتوا خليقين أن يكونوا على استعداد لقبوله في «حلقتهم» وكان من سوء الحظ أن بلزاك لا يردُّ على هذا التلطُّف والمجاملة. وعلى الرغم من أنه كان، في أعمق أعماقه طيِّب القلب، يتحمَّس لكل إنجاز غير إنجازه- ولا يكاد يوجد كاتب في عصره لا يذكره في كوميدياه الإنسانية كما يُذْكَر الرفاق والزملاء، أو لا يُهدي إليه كتابًا من كتبه- فهو يظهر تجاه رفاقه في عالم الأدب، على وجه الخصوص، سلوك المُسْتكبِر عن قصد، ويُغْلِظ لهم في القول بدلاً من أن يتفاهم معهم ويتوافق، ويحتفظ بقبعته على رأسه حين يدخل الحجرة، ويرفض كل استخدام لكلمة «نحن»، حين يدور الكلام عن الجهود الفنية، وبدلاً من أن يسلك الأسلوب الدبلوماسيّ، ويتجنب ألوان الصَّلَف الغريبة، يؤكد بصوت عال، أنه لا يسمح، بحال من الأحوال، بأن يوضع على صعيد واحد مع ألكسندر دوماس، وبول دي كوكس، وأوجين سو، و ساندو، وجانان، وهو يجرح مشاعر الكتاب إذ يتبجّح بالحديث عن أجورهم، ويثير غيظ الصحفيين- «لم يكن هناك كاتب يبلغ هذا القدر من اللامبالاة بمقالات المديح والإعلان». ويدعهم يشعرون أنه ليس في حاجة إلى أياديهم البيض وما يُسْدون من صنائع، ومثلما لا يتميَّز، تجاه المجتمع،

عن طريق أناقته المقترنة بصَخَب السوق، والمفاجآت المثيرة، بالذوق البالغ، من حيث كونه «ظاهرة خصوصية» يؤكّد، بصدقه البريء، البعيد عن الحذر، المرة بعد الأخرى، أنه يقاس بمقاييس أخرى، سوى تلك التي يُقاس بها الآخرون. وإذا كان هذا يحدث أيضًا في أكثر الصور لامبالاة، وهو يضحك، وفي استخفاف وبَطَر، وفي مثل براءة الأطفال، فإن الباريسيين يشعرون بأن ظهوره يمثل، مع ذلك، تحدِّيًا.

والآن باتت مواطن ضعف بلزاك أكثر انكشافًا من أن لا تتيح للروح البارع، وخبث النوايا، المئات من الثغرات التي لا يمكن أن يُهاجَم منها، وفي كل الصحف يبرق الجو ويلتمع من التهكُّم الخبيث، ويتحول بلزاك، أعظم أدباء عصره، إلى موضوع مفضَّل للملاحظات المسمومة والرسوم الكاريكاتورية الوقحة. وما من أحد ينتقم منه ما يسمى «المجتمع»، انتقامًا أكثر مرارة من ذلك الذي يزدريه، ولا يستطيع، مع ذلك أن يستغني عنه، على أن بلزاك نفسه لا يحس بهذا الإخفاق على وجه الخصوص، إذ إنه أكثر إفعامًا بالحياة، وأشد حيوية، وتمتُّعًا بالسيادة، من أن يلاحظ وخزات الإبر هذه. أمّا الابتسامة الضئيلة، والتهكم اليسير من قبل أولئك المعجبين بأنفسهم والذين يثيرون الملل والسآمة، والنساء المتعالمات الانتقائيات فيجيبهم بالضحكة الطلقة الكبيرة، ضحكة رابليه. وأمّا خبث الصحفيين والأدباء العاجزين الذين تولاّهم الاستياء والغيظ، فسوف يردّ عليه- وهو شهم سخي ومبدع في حالة غضبه أيضًا- بدلاً من الجدل المذهبي الذي يُعنى بالصغائر، برسم صورة كالنقش على الحائط (فريسكو) عن الفساد الأدبي في «الأوهام المفقودة- Illusions perdues» وفي مقابل ذلك يعاني أصدقاؤه الحقيقيون من أنهم يرون رجلاً يُعْجبون بعبقريته يتوجه، من جراء مواقف وضيعة من قبل أناس يتظاهرون بالنبالة، إلى موقف يذله ويمتهنه، ويمنح الحق للمتهكمين، مدة ربع ساعة على أن المرأة الريفية المتواضعة، زُلما كارّو تدرك، على البُعد، قبل أن يدرك هو نفسه، أن

ثمار الأناقة المتكلفة الفردوسية التي يحلم بها لابُدّ أن يبدو له مذاقها تافهًا مريرًا عما قريب، وتناشده أن لا يكون «ممثلاً»:

«في عالم يبتغي منك ماهو أكثر مائة مرة مما يستطيع هو أن يعطيك»

وبلهجة المودة تناديه قائلة:

يا هونوريه، أنت الآن كاتب معروف، غير أنك مندوب لأمرٍ أعلى وأجلّ، ومجرد الشهرة ليس شيئًا بالقياس إلى امرئ مثلك، وقد كان ينبغي أن تضع لنفسك هدفًا أعلى! ولو أوتيتُ الجرأة لقلت لك: لماذا تُبَدِّد، في صلَفِك، عقلَك غير العاديّ بهذه الطريقة العبثية؟ ألا فَلْتَدعْ هذه الحياة الأنيقة ...».

ولكن بلزاك سيحتاج بعدُ إلى أن يمرَّ بتجاريب أخرى مريرة قبل أن يُعْقِب السّكْرَ الأول بمجده الفتيّ، الصَّحْوُ من السّكْر، ويدرك حقيقة قانونه الخاص، وهو أن المرء لا يستطيع أن يكون معلمًا أو أستاذًا في مجالين في وقتٍ معًا، بل في مجال واحد فحسب، وأن معنى قَدَره لا يتمثل في أن يتألّق في عالم كبير فانٍ، قابلٍ لأن يطويه النسيان، بل في أن يُخَلِّد هذا العالم في كل ذُراه وأعماقه عن طريق الوصف والصياغة.

ونحن نملك من تلك السنين عددًا لا يُحصى من ألوان الوصف بقلم بلزاك، وهي ألوان ممتعة، تنطوي على خبث ودهاء، واستهانة واستخفاف، وفكاهة، وسموم، وكلها مأخوذ من نظرة في بؤرة المجتمع والصحافة الباريسيَّيْن: بلزاك في ثوبه الأزرق ذي الأزرار الذهبية المنقوشة، وبعصاه النفيسة التي تحاكي الهراوة، وبلزاك في خُفَّيْن، وبلزاك في المركبة ذات العجلتين، مع الحوذي والخادم، وبلزاك المتسكِّع، الذي يقرأ كل لافتات المحلات ليعثر على الأسماء الملائمة لأبطاله، وبلزاك الجمّاع، الذي ينقِّب ويبعثر الأشياء في كل مَحَلٍّ من محال السلع المستعملة، ليكتشف، لقاء سبع فرنكات، لوحة لرمبرانت، ولقاء اثني عشر قرشًا،

طبقًا لبنفينوتو توسيلليني، وبلزاك الذي يثير فزع ناشريه، وبلزاك ربّ الحَذْلقة بين منضِّدي الحروف الذين يضطرون إلى تبديد الساعات في عَمَل سُخْرة من أجل كل صفحة من المخطوط، وبلزاك الكذاب، والفَشّار، والمُحيِّر، الذي يَعِظُ داعيًا إلى العفة على أنها الشرط الأولي الوحيد للإبداع، والذي يبدِّل النساء أكثر مما يبدِّل قمصانه، وبلزاك الأكول، الذي يلتهم في جلسة واحدة، مائة قوقعة بحرية وشريحةً من اللحم، ولحم دجاج، بعضها وراء بعض، وبلزاك الذي يتحدث عن الملايين التي يفترض أنها عادت عليه من مناجم معادنه، ومن بستانه، وأعماله وتجاراته، ويضطر إلى الاختباء باسم مستعار، أسابيع، لأنه لا يستطيع أن يسدِّد حسابًا قيمته ألف فرنك. وليس من قبيل المصادفة أن تكون ثلاثة أرباع مجموع الصور المنقولة عنه رسوم كاريكاتورية، لا صور عادية (Porträt)، وأن معاصريه يسجلون عنه ألفَيْ طُرْفة ونادرة، ولكنهم لم يكتبوا تصويراً واحداً لحياته، صحيحًا، له وزنه. وكل هذه الوقائع تعبر بوضوح عن أن شخصية بلزاك في باريس كانت تحدث آثارها لا على أنها شخصية عبقري، بل على أنها شخصية إنسان شاذ غريب الأطوار، وقد يكون معاصروها رأَوْها الرؤية الصحيحة بمعنى ما. ولم يكن بُدٌّ لبلزاك أن يحدث، في إطار الملأ من الناس، أثر الشخصية الغريبة الأطوار، لأنه يخرج عن مركزه بأَصَحّ معاني الكلمة بمجرد أن يغادر حجرته، ومنصة عمله، وعمله. وذلك أن بلزاك الفعلي، عامل الورشة، الذي يعرفه الأدب العالمي لم يكن له بُدٌّ أن يظل غير مرئيّ بالقياس إلى كل أولئك البشر، الذين تُطْلَق عليهم أسماء: جوزلان، وڤيرديه، وجانان، أي بالنسبة إلى المتعطِّلين والمتسكعين، لأنهم لا يعرفونه إلاّ في «ساعة واحدة من النهار كان عليه أن يهبها للدنيا»، ولم يكونوا يعرفونه في الساعات الثلاث والعشرين الخفية، ساعات وحدته الإبداعية، وكان إذا مشى بين الناس، كانت هذه هي نصف الساعة، أو الساعة التي يُسْمَح فيها لسجين أن يستنشقِ الهواء في فِناء سجنه. ومثلما تعود الأرواح والأشباح، عند قرع الجرس الأخير، إلى ظلمة الأَرض، لم يكن له هو بُدٌّ، بعد هذا الأجل القصير، الموقوف

للاستخفاف والبَطَر، والفيض والنشوة، أن يعود أدراجه إلى سجنه، وإلى عمله الذي لا يقدر على الإحساس بضخامته وصرامته كلُّ أولئك المتعطّلين والكَتَبة الساخرين، أبداً، ولو من باب الظن والتكهُّن فحسب. وذلك أن بلزاك الحقيقي هو ذلك الذي كتب، خلال عشرين عاماً، إلى جانب عدد لا يحصى من المسرحيات والأقاصيص والمقالات، أربعاً وسبعين من الروايات التي تظل على الدوام تقريباً، كاملة الأهمية، وأبدع في هذه الروايات الأربع والسبعين عالماً خاصاً فيه مئات المناظر الطبيعية، والمنازل والطرقات، وألْفا شخصية.

وبهذا المقياس وحده يجوز أن يقاس بلزاك، ومن خلال هذا العمل فحسب تتبين حياته الحقيقية. على أن ذلك الذي تجلّى لمعاصريه في صورة مجنون كانَ في الواقع الذكاء الفنيَّ الأكثر انضباطاً في تلك الحقبة، وإذا الرجل الذي كانوا يتهكّمون عليه على أنه مبذر يتجاوز الحدود، زاهد متقشِّف يتمتع بالمثابرة التي لا تتزعزع عند ناسك في صومعة، فيكون أروع العاملين قاطبة في الأدب الحديث. وإذا المُبالغ الذي كانوا، وهم المعتدلون، يهزأون منه، لأنه كان يبالغ ويلفِّق، ويختلق، ويباهي أمام الناس يستخرج، في الحقيقة، من دماغه، أكثر مما استخرج كل زملائه الباريسيين مجتمعين. وربما كان الوحيد الذي يستطيع المرء أن يقول عنه من دون مبالغة، إنه ظل يعمل حتى أهلكه العمل. ولم يحدث قطُّ أنْ كان تقويم بلزاك هو تقويم عصره ذاته، فحيثما يكون الوقت بالقياس إلى الآخرين نهاراً يكون بالقياس إليه ليلاً، وحيثما يكون بالقياس إلى الآخرين ليلاً، يكون بالقياس إليه نهاراً. ولا يكون وجوده الحقيقي في العالم في الحياة اليومية بل في عالمه الخاص، العالم الذي أنشأه بنفسه، على أن بلزاك الحقيقي لم يعرفه أحد، ولا راقبه، ولا أصاخ السمع إليه، سوى الجدران الأربعة في سجن عمله. ولم يستطع أن يكتب سيرته الحقيقية معاصر له، بل فعلت ذلك أعماله بالنيابة عنه.

ولذلك فلنتقدم من حياة بلزاك هذه الواقعية في يومٍ منها- وكان ثمة ألف، بل عشرات الألوف، كهذا اليوم.

الساعة الثانية مساء: لقد فَرَغ البشر الآخرون من عملهم منذ وقت طويل، وغادروا مكاتبهم ومتاجرهم، ومصانعهم، وتناولوا غداءهم في محيطهم، أو مع أسرتهم، أو وحدهم. والآن يخرجون زرافات للَّهو والاستمتاع. وها هم أولاء يتسكعون في الشوارع المحفوفة بالأشجار على الأغلب، ويجلسون في المقاهي، ويقفون أمام المرايا ليستكملوا هندامهم من أجل المسرح والصالونات- أمّا هو، بلزاك الواحد، فينام في الغرفة التي سادها الظلام، محطّماً بفعل هِراوة العمل الذي دام ست عشرة ساعة، بل سبع عشرة ساعة.

الساعة التاسعة مساء: لقد بدأت المسارح، والأزواج من الراقصين يدورون كالزوبعة في قاعات الرقص، وفي دور القمار يصلصل رنين الذهب، والعشاق يتلاحمون تلاحُمًا أشدَّ وأعمق في ظلال الشوارع المشجَّرة- وما زال بلزاك نائماً.

الساعة العاشرة مساء: لقد انطفأت الأضواء في بعض المنازل، وأخلد كبار السن إلى الراحة، وباتت العربات التي تَدْرُج على بلاط الشوارع أَنْدَر، وأصبحت الأصوات في المدينة أكثر خفوتاً- وما زال بلزاك نائماً.

الساعة الحادية عشرة: المسارح تفرغ من عملها، وفي الصالونات يصطحب الخدم آخر الزوّار إلى منازلهم. وتنطفئ أنوار المطاعم، ويتلاشى المتنزهون، وما عاد هناك سوى موجة أخيرة من العائدين تهيم في جلَبة وصَخَب وهي تجتاز الشوارع المشجَّرة لتتبدَّد تماماً في الشوارع الجانبية- وبلزاك مازال نائماً.

وأخيراً- في منتصف الليل: أخلدت باريس إلي الصمت، وأُغْمِضَت ملايين العيون، وانطفأت الألوف، وعشرات الألوف من الأضواء. والآن، إذْ أخلد الآخرون إلى الراحة وقَرَّ قرارهم سيؤون أوان العمل بالنسبة لبلزاك. الآن، إذ يحلُمُ الآخرون، آن الآوان عنده ليستيقظ. الآن إذ ينتهي اليوم بالنسبة للعالم، يبدأ يومه. الآن ما عاد في وسع أحد أن يأتي ويكدِّر عليه صفْوَه، فلا زوّار يُثْقِلون عليه، ولا رسائل تبعث فيه القلق والاضطراب: فالدائنون الذين يلاحقونه لا يستطيعون

أن يقرعوا عليه الباب، وما عاد سُعاة المطبعة يُلِحّون عليه مستعجلين العمل، فهناك مجال هائل: ثماني ساعات، بل عشر من الوَحدة الأكثر اكتمالاً، في انتظاره. وبلزاك يحتاج، من أجل عمله الهائل إلى مجال هائلٍ مثله، فهو يعلم كيف أَنَّ الأفران العالية التي تصهر الفلز الهش، البارد لتحولّه إلى فولاذ متين لا يتولاّه العطب، لا يجوز لها أن تدعه يَبْرُد، وكذلك لا يجوز لتوتُّر الرُّؤى فيه أن يتوقف. ولا يجوز لهلوسة بهذا القدر من الاكتمال، كالهلوسة التي هو فيها، أن تتوقّف في طيرانها الناريّ.

«لابد للأفكار أن تتقاطر من جبهتي، كما يتناثر الماء من ينبوع فوّار. إنها عملية لاشعورية بصورة كاملة».

ومثل كل فنان عظيم، لا يعرف بلزاك سوى قانون عمله:

«يستحيل عليَّ أن أعمل حين أكون مضطراً إلى الانقطاع والخروج من البيت، فأنا لا أعمل أبداً مجرد ساعة أو ساعتين».

فهو يعلم أن الليل وحده، الليل غير المحدود، وغير المُقَسَّم، هو الذي يتيح له هذه الاستمرارية في العمل، ومن أجل هذا العمل يغيِّر مؤشّر الساعة، ويجعل، وهو المعلّم الأستاذ في ميدانه الخاص، من الليل نهاراً، ومن النهار ليلاً.

لقد أيقظه من سباته قرع خافت على الباب من قبل الخادم. فينهض بلزاك، ويتناول ثوبه، ثوب الرهبنة، وقد اختار هذا الملبس بحكم خبرة السنين الطويلة على أنه الأكثر ملاءمة لعمله. وكان هذا الكاتب قد اختار لنفسه، مثلما يختار المحارب سلاحه وعتاده، ومثلما يختار عامل المنجم وشاحه الجلدي، تبعًا لمقتضيات المهنة، ثوبًا طويلاً من الكشمير الدافئ في الشتاء، ومن الكتان الناعم في الصيف، لأنه يطاوع كل حركة بسهولة، ويدع للعنق حرية التنفُّس، ويبعث الدفء في الوقت ذاته، ومع ذلك فهو ليس بالثقيل الضاغط، وربما أيضًا لأنه، مثل طيلسان الراهب،

يمكن أن يذكّره أنه الآن في الخدمه، قد نذر نفسه لوصية أعلى، وحلف لَيَنأَيَنَّ بنفسه، مادام يتّشح به، عن كل العالم الواقعي وإغوائه. وكان ثمة حبل مضفور (أصبح فيما بعد سلسلة ذهبية)، يشدُّ طيْلُسان الراهب هذا الأبيض، على استرخاء، فوق الجسد. ومثلما يحمل الراهب الصليب، ويتمنطق بالشريط القماشيّ، وهما عَتادُ الصلاة، يتدلّى عنده المقصُّ، ومِسطَرة الطيّ، وهما عتاد عمله. وما هي إلاّ بضع خطوات جيئة وذهاباً، في الثَوب الرَّخِيِّ المِطواع لكي يسقط عنه الظل الأخير من النوم، وليجري الدم في الشرايين بمزيد من النشاط، وعندها يكون بلزاك على أهبة الاستعداد.

وكان الخادم قد أوقد الشموع الست في الشمعدان الفضي، وشدَّ الستائر بعضها إلى بعض شَدّاً محكماً، وكأنه أراد بذلك أن يلغي العالم إلغاءاً مرئياً، ذلك لأن بلزاك ماعاد يريد الآن أن يقيس الزمن بمقياسه الفعلي، بل بمقياس عمله فحسب، وهو لا يريد أن يعرف متى ينبلج الضوء، ومتى يطلع النهار، ومتى تستيقظ باريس، وسائر الدنيا. وما عاد ينبغي لشيء أن يظل قائماً حوله من عالم الواقع، وتغرقُ في ظلام الحجرة من حوله الكتب عند الجدران، والجدران والأبواب، والنوافذ، وكل ما يوجد من خلفهن. والبشر الذين يتبدعهم الآن من نفسه، هم وحدهم الذين ينبغي لهم الآن أن يتحدثوا، وأن يتصرّفوا، ويعيشوا. وينشأ عالمه، عالمه الخاص، ويظل قائماً.

ويجلس بلزاك إلى منضدته، إلى هذه المنضدة.

(حيث أقذف بحياتي في بوتقة الانصهار، مثلما يفعل عالم السيمياء بذهبه».

إنها منصة صغيرة، لا تلفت النظر، مستطيلة الشكل، ومع ذلك فهو يحبها أكثر مما يحب أَنْفَس متاعه، فهو لا يحب العصا الذهبية، المطعمة بالتُّركواز، ولا الجهاز الفضي الذي اشتراه وجمَّعه بشقِّ النفس، ولا الكتب المجلَّدة تجليداً فخماً ذا أُبَّهة، ولا مجده، مثلما يحب هذا الجهاز الضئيل، الصامت، بسيقانه الأربعة الذي

ظفر به من مسكن إلى المسكن الآخر، ناجيًا به من التفليسات والكوارث، مثلما ينجو جنديٌّ بأخيه في السلاح من غمار المعركة. ذلك لأن هذه المنضدة هي المؤتمنة الوحيدة على أعمق متَعِه، وأشد ألوان عذابه مرارة، والتي هي وحدها الشاهد الأخرس على حياته الحقيقية.

«لقد رأت كل بؤسي، وهي تعلم بكل خططي، وأصغت إلى أفكاري، ولقد استعملها ذراعي بما يضاهي العنف عندما كنت أسترسل في الكتابة فوقها»

وما من صديق، ولا إنسان من أهل الأرض يعرف عنه كلَّ هذا القدر، وما من امرأة جاد عليها ليالي جمَّة العدد، بصحبته اللاهبة إلى أقصى الحدود كما كان شأنه معها، فعلى هذه المنضدة عاش بلزاك، وعليها أنهك نفسه بالعمل حتى هلَك.

وثمة نظرة أخيرة أيضًا: هل بات كل شيء جاهزًا؟

ومثل كل عامل متعصب حقًا، يتسم بلزاك بالحذلقة في عمله، فهو يحب عُدَّته مثلما يحب الجندي سلاحه، ولا بدَّ أن يعرف أنه جاهز مشحوذ، وإلى يساره توجد الصحائف غير المكتوبة، في طبقات بعضها فوق بعض، صحائف من ورق محدَّد كل التحديد، مختارة بعناية، ومن قياس متماثل، ولابدَّ للورق أن يكون ضاربًا إلى الزرقة قليلاً، لكيلا يبهر البصر ويتعبه العمل الذي يدوم كثيراً من الساعات. ولابُدَّ أن تكون الصحائف ناعمة بوجه خاص لكيلا تقاوم قصب الريشة الذي يطير، ولابدَّ أن تكون رقيقة، فما أكثر ما يترتَّب بعدُ أن يكتب في هذه الليلة، عشرة، أو عشرين، أو ثلاثين. أو أربعين: وبهذا القدر من العناية يتم تحضير الرِّيش، رِيَش الغراب (ولا يريد غيرها)، وإلى جانب دواة الحبر، لا الثمينة المصنوعة من مادة المَلَكيت، التي أهداها إليه المُعْجَبون، بل الدواة البسيطة العائدة إلى أيام دراسته- مازال يوجد، على سبيل الاحتياط زجاجة إلى اثنتين من الحبر على سبيل الاحتياط ولابُدّ من اتخاذ الحيطة لكل مسألة، لكيلا يعاني الاستمرار

الدائم للعمل من الانقطاع، وعلى الجانب الأيمن من المنضدة الضيقة يوجد بعدُ دفتر صغير للملاحظات يسجل فيه، تسجيلاً مسبقًا، خواطر وأفكاراً عارضة من أجل الفصول اللاحقة، وما عدا هذا فلا شيء: ليس هناك كتب، ولا وسائل مساعدة، ولا مادة مُكدَّسة. كل شيء مفروغ منه في داخله، قبل أن يشرع بلزاك في عمله.

ويستند بلزاك بظهره إلى الوراء، ويشمِّر أكمام الطيلسان، ليتيح لليد اليمنى، اليد التي تكتب، مزيداً من الخفة والرشاقة، ثم يستحث همته بعدُ، مثلما يفعل حوذي بحصانه، بهتافات لنفسه نصف هزلية، ويبدو كشأن السبّاح إذ يرفع ذراعيه عاليًا ويدع مفاصله تلعب لعبتها، قبل أن يلقي بنفسه على رأسه، في لُجَّة الماء.

ويكتب بلزاك، ويكتب، ويكتب، من دون توقُّف ومن دون تعثُّر، فإذا اتّقَد ذات مرة وواصل خياله الالتهاب، واستَعَر، إنه مثل حريق في غابة، إذ ينتشر اللهب، من جذع إلى جذع، ويزداد سخونة على نحو مطرد، ويزداد انطلاقًا وتوفُّزًا، وسرعة وتجري الريشة في اليد الأنثوية الناعمة بسرعة يبلغ منها أن الكلمة لا تكاد تقدر على أن تتابع الفكرة، وكلما أكثر من الكتابة، ازداد اختصاراً للمقاطع الصوتية، لمجرد أن يواصل، ويواصل فحسب، ولا يتردَّد، ولا يتعثَّر، فهو لا يستطيع أن يتوقف، ولا أن يقاطع الرؤيا الداخلية، ولن يتوقف قبل أن تتعثّر اليد في كفاحها من أجل الكتابة، أو يتلاشى المكتوب أمام النظرة التي ذهب ببصرها التعب.

وتمضي ساعة، واثنتان، وثلاث ساعات، وأربع ساعات، وخمس ساعات، وست ساعات، وأحيانًا سبع ساعات وثماني ساعات. وما عاد ثمة عربة في الزقاق، ولا جلبة في البيت، وفي الحجرة، سوى الصريف الخافت والأزيز الصادران عن القصب الذي يجري فوق الورق، ومن حين إلى آخر حفيف صحيفة يجري إبعادها، وها قد أشرق النهار في الخارج، وبلزاك لا يعرف ذلك،

فبالقياس إليه ليس النهار إلاّ هذه الدائرة الصغيرة من بريق الشموع، وليس هناك بشر سوى أولئك الذين أبدعهم لتوّه. ولا مصائر سوى تلك التي يبتدعها وهو يكتب. ولا مكان ولا زمان، ولا عالم سوى العالم الواحد والوحيد، في الكون الخاص به.

وفي بعض الأحيان تهدد الآلة بالتعثُّر، فالإرادة التي هي أكثر الإرادات تجاوزاً للحدود، لا تقدر، هي أيضاً، على أن تفعل شيئاً حيال الحد الطبيعي للقوى، وبعد أربع ساعات، أو ست ساعات، من الكتابة والإبداع اللذين لا ينقطعان، يحسُّ بلزاك أنه ماعاد يستطيع أن يواصل العمل، فاليد ينتابها الشلل، والعينان تأخذان في إرسال الدموع، وظهره يؤلمه، ودمه ينبض مهدِّداً عند الصَّدغين من فرط الجري والطِّراد، والتوتُّر في الأعصاب يخذله، وقد كان غيره الآن خليقاً أن يمسك، ويستريح، وأن يقنع بإنجازه الكامل الأهمية إلى هذا الحد وهو ممتن، ولكن بلزاك، هذا الشيطان من شياطين الإرادة، لا يتراجع، ولابُدَّ من الوصول إلى الهدف المرسوم، ولو قُضِيَ على العدّاء على أثر ذلك: وينهض بلزاك- وهذه هي الحالات الوحيدة من الوقفات اليسيرة في وسط العمل- ويتقدم من المنصة، ويوقد مرجل القهوة.

ذلك لأن القهوة هي الزيت الأسود الذي يستطيع وحده أن يبعث الحركة، المرة بعد الأخرى في آلة العمل هذه الرائعة، ومن أجل ذلك تعدُّ بالقياس إلى بلزاك، الذي يعدُّ العمل هو الشيء الوحيد الذي يعني شيئاً بالقياس إليه، أهم من الطعام، والنوم، وكل متعة أخرى، وعلى حين يكره التبغ، لأنه لا يثير ولا يَحفِز، ولا يفضي إلى ذلك التخطّي للحدود الذي هو عنده المقياس الوحيد- «التبغ يلحق الضرر بالجسم، ويهاجم العقل، ويجعل أمماً بأسرها متبلِّدة-»

ينشد للقهوة أجمل نشيد قاله فيها أديب:

القهوة تنساب نازلة إلى المعدة، ثم يتحرك كل شيء: أما الأفكار فتزحف، شأن كتائب الجيش الكبير إلي ميدان المعركة، ويبدأ القتال، وتصل الذكريات في خَطْرٍ عاصف، بصفة الجنود المشاة حاملي الراية في الاستعراض، ويتطور سلاح الفرسان الخفيف إلى عَدْوٍ فَخْمٍ، وتهْذِر مدفعية المنطق متقدمة بانطلاقها وخراطيشها، وتتدخل الخواطر الطريفة في الاشتباك بصفة قنّاصين، وتتنكَّر الشخصيات، ويحتجب الورق بالحبر، وتبدأ المعركة وتنتهي في غمرة تدفق الطوفان الأسود، مثلما تغرق المعركة الميدانية الحقيقية في دخان البارود الأسود.

ولا عمل من دون قهوة، أو لا يكون، على الأقل ذلك العمل الذي لا يَني ولا يتوقف والذي حشد بلزاك طاقاته من أجله. فإلى جانب الورق والرِّيش يأخذ معه، حيثما ذهب، وسيلة عمل ثالثة، هي آلة قهوته التي ألفها واعتادها مثلما اعتاد منضدته، وطيلسانه، وهو لا يدع لأحدٍ تحضيرها، فما من أحد غيره خليق أن يُحَضِّر له هذا السُّم المثير الحافز بمثلِ هذا السواد المهيِّجِ للأعصاب، وبمثل هذه القوة، ومثلما لا يختار إلا نوعًا معينًا من الورق، وشكلاً محدَّدًا من الرِّيَش، بنوع من الفيتيشية الخرافية، يخلط أنواع القهوة بجرعاتها بموجب طقس خصوصي.
«هذه القهوة تتألف من ثلاثة أنواع من حبوب القهوة: البوربون، والمارتينيك، ومخا. أما البوربون فقد اشتراه في شارع دي مون بلان، وأما المارتينيك فقد اشتراه في شارع دي ڤييي أودرييت من بقّال لا يمكن أن يكون نسي بعدُ هذه الوصفة الرائعة، وأمّا المخا فقد اشتراه في ضاحية سان جيرمان من تاجر في شارع الجامعة، ومع ذلك فما كنت لأعرف بعدُ أن أقول مَنْ هو ذلك التاجر، على الرغم من أنني صحبت بلزاك مراراً في جولات تسوقه. وكان هذا في كل مرة رحلة نصف نهار عبر باريس، غير أن القهوة الجيِّدة كانت تستحق عنده هذا القدر الكبير من الجهد.

ولما كانت القهوة، شأن كل مثير، تتطلب تصعيدات تزداد قوة على نحو مطرد، لكي تحدث تأثيرها، فقد كان لابد لبلزاك، كلما ازداد تهديد أعصابه بالوقوع ضحية لفرط التوتّر، أن يتكلّف قَدْرًا مطرد الزيادة من هذا الإكسير القاتل. وهو يكتب عن أحد الكتب قائلاً إنه لم يَفْرَغْ من كتابته إلا بفضل «أنهار من

القهوة». وفي عام ١٨٤٥، وبعد ما يقارب العشرين عامًا من الاستمتاع المبالغ فيه، يعترف أن كل عضويته تسممت من جراء هذا التخدير المتواصل، ويشكو من أن مفعوله يتضاءل على نحو مطَّرد.

«المجال الزمني الذي يدوم فيه الوحي عن طريق القهوة يزداد ضيقًا على نحو مطَّرد، وقد باتت القهوة تَحفِزُ دماغي الآن مجرد خمس عشرة ساعة- وهي استثارة تنطوي على طامة، إذ تسبِّب لي آلامًا فظيعة في المعدة.

ولئن كانت فناجين القهوة البالغ عددها خمسين ألف فنجان من القهوة المفرطة في القوة (وقد قدَّرها أحد الإحصائيين بهذا القدر) سرَّعت العمل العملاق المتمثل في «الكوميديا الإنسانية» فقد انتهت بذلك، بلا ريب، بقلبه الذي يتمتع بصحة أصيلة، إلى الانفجار السابق لأوانه. وسوف يقرّر الدكتور ناكار، الذي صحبه عبر حياته بأسرها، صديقًا وطبيبًا بصراحة أن السبب الحقيقي للوفاة، يتمثل في «معاناة قلبية قديمة، زاد في حدَّتها العمل الليلي، واستعمال القهوة، أو سوء استعمالها، على الأصح، وهي التي لم يكن له بُدٌّ أن يجد ملاذه فيها، ليكافح الحاجة الطبيعية، البشرية، إلى النوم».

وأخيرًا، في الساعة الثامنة، يُسْمَع قرع خفيف على الباب، ويدخل الخادم أوغست، ويأتي، على صينية، بإفطار متواضع، وينهض بلزاك عن منضدته، ولم يكن قد وضع الريشة منذ الثانية عشر ليلاً، والآن تأتي لحظة استراحة، ويزيح الخادم الستائر، ويتقدَّم بلزاك من النافذة، ويلقي نظرة على باريس التي يريد أن يغزوها. وفي هذه الدقيقة يلاحظ لأول مرة، بعد ساعات وساعات، مرة أخرى، أنه يوجد إلى جانب عالمه، عالم آخر أيضًا، وإلى جانب باريس خياله، باريس الواقع، التي تخرج إلى عملها الآن، إذ انتهى عمله إلى حين، تنفتح المحال، والآن يُهْرَع الأطفال إلى المدرسة، وتأخذ العربات في الانطلاق، وفي آلاف الحجرات يجلس الموظفون، ورجال الأعمال، إلى منصّاتهم، إلاّ هو، الواحد فحسب، بين مئات الألوف، قد فرغ من عمله.

ولكي يخفف حدة توتُّر الجسد المُنهَك، ويهب له، من أجل العمل الجديد الذي ينتظره، الإنعاش والنضارة، يستحم في حمّام ساخن، وكان يبقى في العادة، ساعةً في حوض الاستحمام، وهو في هذا مماثل لمنافسه الكبير، نابليون. إنه المكان الوحيد الذي يستطيع فيه أن يمارس التفكير والتأمل، أي أن يفكر من دون أن يُدَوِّن على الفور، وقد استسلم في عريه، لمتعة الإبداع الذي يصوغ ويشكِّل، ومتعة الحلم، من دون الجهد البدني المتزامن معه. ولكنه لم يكد يرتدي طيلسانه من جديد حتى تتقدم خطوات من الباب. لقد أقبل السُعاة من المطابع المختلفة التي يُشْغَلُها في وقتٍ معًا- مثلما كان فرسان نابليون المُبَلِّغون، أثناء المعركة، يحافظون على الاتصال بين موقع القيادة والكتائب التي تنفِّذ الأوامر. أما الأوَّل فيطالب بمخطوط جديد، هو المخطوط الطازج الذي لم يَجِفَّ مداده بعدُ تمامًا في هذه الليلة. ذلك لأن كل ما يكتب بلزاك لابُدّ له أن يذهب إلى المطبعة على الفور، لا لمجرد أن الصحيفة، أو الناشر ينتظرانه كما ينتظران دينًا مستحقًا- والرواية غير المكتوبة تكون مباعة دائمة بصورة مسبقة، ومرهونة- بل لأن بلزاك لا يعرف، وهو في حالة الانتقال الخاصة بإبداع الرؤى، ما يكتب، وما كتب، أيضًا، وحتى عينه هو لا تستطيع أن تحيط بأحراش مخطوطه المكتوب، بنظرة شاملة، فاحصة. ولا يعرف القائد في بلزاك هل كَسِبَ المعركة أم يترتَّب عليه أن يقوم مرة أخرى بتجديد الاقتحام، إلاّ بعد أن يزحف المخطوط في أعمدة مُنَضَّدة، فقرة إثر فقرة، وكتيبة كتيبة.

وثمة سُعاة آخرون من المطابع، أو من الجريدة، أو من دار النشر، يأتون بتصحيحات جديدة للمخطوطات التي كتبها بلزاك أوَّل أمس، وأعطاها بالأمس للطبع، وفي الوقت نفسه تصحيحات التصحيحات السابقة. رُزَم كاملة من المطبوعات حديثًا من ورق مازال نَديًا، اثنتا عشرية، وثلاث اثنتي عشريات. وفي كثير من الأحيان تغطي المنضدة الصغيرة، خمس اثنتي عشريات وستٌّ من ملازم تجاريب الطبع وتفيض بها المنضدة، وتقتضي تصفُّحًا متكررًا، مرة أخرى.

الساعة التاسعة: انتهت الاستراحة. «أنا أسْتَجِمُّ في أحد الأعمال، من العمل الآخر»- وفي إطار السرعة الهائلة، والاستمرارية الهائلة، الإنتاجية لا يحصل بلزاك على قوته إلاّ بتغيير نوع العمل أثناء العمل.

غير أن قراءة التصحيحات ليست، كما هي بالقياس إلى معظم الكتّاب الآخرين، العمل الأَيْسر، فهي ليست مجرد التصحيح والتنقيح، بل هي تعديل كامل للإبداع، وإبداع من جديد. فقراء التصحيحات، أو، بالأحرى، تعديلها، يعنيان عنده فعلاً إبداعيًا لا يقلُّ شأنًا عن الفعل الأوَّل، ذلك لأن بلزاك لا يصحح في الحقيقة الملازم التي تمَّ طبعها أبدًا، بل يستخدم الصيغة المطبوعة الأولى في صورة مجرد أساس أو سَنَد، وما صمَّمه رجل الخيال في جوٍّ من السكْر، وفي عجلة المحموم يتأمَّله الآن، ويُقَيِّمه، و يغيِّره ويبدِّله الآن الفنان المفعم «بحِسٍّ المسؤولية.» وما من شيء بذل فيه بلزاك جهدًا أكبر، وعاطفة جامحة، وطاقة، مثلما بذل من أجل ما في نثره من المرونة والمطاوعة التي لم تكن صياغتها إلاّ على نحو تدريجيٍّ، طبقة فطبقة. ولمّا كانت طبيعته، في كل ما يتصل بالمهمة الخاصة بأعمق أعماقه، وبعمله، تتسم بالطغيان والتحذلق، وهي التي كانت في العادة مُبَذِّرة سخيّة، فقد كان لابدَّ أن يتمَّ تقديم ملازم التصحيح إليه من المطابع بموجب لوائح خصوصية. وكان من الواجب، قبل كل شيء، أن تكون الصحائف كبيرة وطويلة، وكل واحدة منها بحجم الفوليو المضاعف لكي يستقِرَّ العمود المطبوع فيها مثلما تستقر الورقة الرابحة في ورق اللعب، ويظل هناك، عن اليمين، وعن الشمال، وفي الأعلى، وفي الأسفل، المجال المضاعف أربع مرات وثماني مرات، للتعديلات والتصحيحات. وفضلاً عن ذلك، لابُدَّ من وضعَ التصحيحات على ورق أبيض. بدلاً من الورق المعتاد، الرخيص، الضارب إلى الصفرة، لكي يتميَّز كل حرف من الخلفية بوضوح، ولاينتاب العين الإرهاق من جراء هذا.

والآن فليبادِرْ إلى العمل! وما هي إلاّ نظرة سريعة- وبلزاك يتمتع بموهبة بطله، لويس لامبير، وهي القدرة على الإحاطة بستة أسطر إلى سبعة في لحظة

واحدة- وإذا يده تنطلق منفعلةً والريشة فيها، قُدُمًا إلى الأمام. وبلزاك غير راض، فكل ما كتبه بالأمس، وما كتبه أولَ أمس، رديء، والمعنى غير واضح، والجمل مشوَّشة مبلْبلة، والأسلوب حافل بالنقائص والعيوب، والترتيب ثقيل إلى حد مفرط! ولا بد من عمل كل شيء على غير هذه الصورة، وعلى نحو أفضل، وأكثر وضوحًا، وجلاءًا. إنه نوع من النجاح الذي يلفت الأنظار يغلب عليه، ويحسُّ المرء بذلك من خلال الريشة التي يتطاير منها رذاذ المِداد، ومن خلال الشقوق والجروح التي تنتشر عبر الصحيفة بأكملها وبعنفوان هجمة من هجمات سلاح الفرسان ينتقض على الورق المُسَطّر بالمربَّعات، فهنا طعنة برمح ريشته، وهناك جملة تُنتزَع، ويُقذَف بها ناحية اليمين، وثمة كلمة تغرس عن الشمال، وتُنْتزَع فقرات بأسرها كأنما بمخلب أسد، وتُحْشر في المكان فقرات أخرى، وسرعان ما تعود إشارات التوجيه الموجَّهة إلى المُنَضّد لا تكفي، فقد قام بالكثير جداً من التصحيحات- ويضطر إلى اختراع الإشارات الجديدة. وسرعان ما يضيق عليه المجال بما رَحُبَ، أيضًا، إذ بات يوجد منذ وقت بعيد، في الهامش، أكثر مما يوجد في الداخل، ضمن النصّ المطبوع. وتنطلق في الاتجاه العلوي، والسفلي، وعن اليمين وعن الشمال، مزوَّدة بشارات سحرية، استدراكات بدلاً من الاختصارات، وتغدو الصفحة التي كانت في الأصل نقيّة، يمكن الإحاطة بها، بنظرة شاملة، كأنها مغطّاة بشبكة منسوجة من الخطوط العابرة، والمتقاطعة، التي تصحح نفسها من جديد، بحيث يقلب الورقة ليعثر على مجال جديد، ويواصل، على الوجه الآخر، كتابة الاستدراكات. غير أن هذا لا يكفي! إذ ما عادت الريشة تجد مجالاً بعد، ثم إن الأرقام والأعداد التي يفترض أن توجِّه المُنَضِّد البائس، لا تكفيه، وإذًا فعليه بالمقص، وليقتطع بعض الفقرات الفائضة عن الحاجة، وعليه بورق جديد للمخطوط، وهذه المرة من القياس الأصغر، لكي يجعله متميزًا بوضوح عن المخطوط الأول، ولْيُثَبِّتْ بالصمغ، وما كان بدايةً يجري حشره في الوسط، وتُكتَبُ بداية جديدة، وتتم إثارة مملكة الأرض بأسرها، وقَلْبُ تُرْبَتها، كأنما بفأس

ومِسْحاة. وهكذا تعود ملزمة الطبع أدراجها إلى المطبعة، طبقة فوق طبقة، وكتابةً يديوية فوق طباعة، مرقمةً، ملوَّثة، في صورة فوضى وبلبلة كاملة- وهي أكثر مائة مرة، استعصاءاً على الفهم، وعلى القراءة، من المخطوط السابق.

وكان القوم يتزاحمون في إدارات التحرير، وفي المطابع، على الدوام، ويتضاحكون جميعاً، عندما تصل مثل هذه الكتابة الحافلة بالبقع من المداد، ويصرِّح المنضِّدون المدرَّبون قائلين: «هذا غير ممكن»، وعلى الرغم من أنه كان يُعْرَض عليهم ضعف الأجر، كانوا يرفضون أن يعملوا أكثر من «ساعة في بلزاك» في اليوم الواحد، وكان الأمر يستغرق شهوراً إلى أن يكتسب الواحد منهم أو سواه علم فك رموز هذه الكتابة الهيروغليفية، ولم يكن بُدٌّ لمُصَحِّح خصوصي، أن يقوم بعد ذلك، في كثير من الأحيان، بمراجعة محاولاتهم التي يحفُّ بها الكثير جداً من الشكوك، مرة أخرى.

ولكن ياله من خطأ أن يحْسَبوا أن عملهم قد تمَّ إنجازه بذلك! ذلك لأن ملازم الطبع المنضَّدة تنضيداً جديداً بصورة كاملة عندما تعود أدراجها في اليوم التالي أو اليوم الذي بعده، إلى بلزاك، يكِبُّ، بالغضب نفسه، على النص الذي طُبِع من جديد مثلما أكَبَّ على النص الذي تم تنضيده أوَّل مرة. ومرة أخرى يقوم بتخليع كل المجموع الذي تمَّت ملاءمة بعضه مع بعض، من مفاصله، ويعود إلى زرع الصحيفة وتلوينها من أعلاها إلى أسفلها، ليَرُدَّ الجديد في صورة غير قابلة للقراءة، يسودها الفوضى والعَماء على نحو مماثل للقديم على وجه الدقة. وهكذا تمضي الأمور في كثير من الأحيان مرة ثالثة أيضاً، ورابعة، وخامسة، وسادسة وسابعة، إلاّ أنه لا يفكِّك مِنْ بعدُ، فقرات بأكملها، أو يفسدها ويغيِّرها، بل يضيف إليها مَزيداً من السطور، وأخيراً، مزيداً من الكلمات فحسب، وقد عدَّل بلزاك. بالتصحيح، تجارب الطبع في بعض أعماله، حتى المرة الخامسة عشرة، والسادسة عشرة، ولا يحصل المرء على إحساس داخلي بالطاقة الإنتاجية عند بلزاك، تلك الطاقة التي لا

يمكن مضاهاتها بشيء على وجه الأرض، إلاّ عندما يحسب بهذا المقياس، أنه لم يكتب، خلال عشرين عامًا، رواياته الأربع والسبعين، وكل أقاصيصه وقصصه القصيرة، مرة واحدة فحسب، بل كانت الأعمال النهائية تعني في الواقع سبعة أضعاف هذا الإنجاز إلى عشرة أضعافه، وهو الإنجاز العملاق في حد ذاته.

وما من محنةمالية، ولا مناشدات من الناشرين، الذين يأخذون عليه المآخذ الوديّة حينًا، ويحرجونه بالشكاوى القضائية حينًا آخر، تستطيع أن تصرف بلزاك عن هذا النهج الباهظ الثمن. ولقد ضيّع على نفسه، عشرات المرات، شطراً من أجور أعماله، بل كلها إذ دفع التكاليف الضخمة المترتبة على هذا التعديل والتقديم والتأخير من جيبه الخاص، غير أن بلزاك لا يرحم في هذه النقطة الخاصة بأعمق أعماق الأخلاق الفنية وحين يورد، ذات مرة محرر صحيفة تتمّة رواية، من دون أن ينتظر التصحيح الأخير من هذه التصحيحات التي لا تحصى يبلغه بلزاك بقطع العلاقة معه إلى الأبد، على أن ذلك الذي يبدو في نظر كل الآخرين، طائشًا مستهتراً، مستعجلاً، جشعًا إلى المال، هو هنا، حيث تتعلق المسألة باكتمال عمله وشرفه الفني، أكثر المناضلين في الأدب الحديث انطواءاً على الضمير وأكثرهم جَلَدًا، وصموداً وثباتًا، وحيوية وطاقة، ولأنه كان هو الذي يعرف كل المجموع الرائع من الطاقة، والتضحية والهَوَس بالكمال، ولأن هذه العملية التعديلية التي تتكرر خمس مرات، وعشر مرات، تجري في ظلمة المختبر، غير معروفة بالقياس إلى كل أولئك الذين يرون النتاج الناجز، من أجل هذا يحب مَلازِم الطبع هذه من حيث كونها الشواهد الوحيدة المخلصة التي يمكن الاعتماد عليها. إنها تمثل زُهُوَّه بنفسه وكبرياءه، لا كبرياء الفنان فيه، بمقدار ما هو الإنسان العامل، والصانع الذي لا يعتريه الكلل، ومن أجل ذلك يؤلف، لكل عمل، نسخة من هذه الصحائف التي روجِعَت ونُقِّحت، ففيها الحالة الأولى، والثانية، والثالثة، إلى الأخيرة، ويوعز بتجليدها مع المخطوط، كلٌ منها على حدة، في مجلد ضخم (يشمل عندئذ، في كثير من الأحيان، ألفي صفحة، بدلاً من الطبعة النهائية التي تقتصر

على مجرد مائتي صفحة). ومثلما كان يفعل نابليون- قُدْوته- إذ ينعم بألقاب الإمارة وشعارات الدوقية على قوآده والعاملين الأكثر إخلاصًا، في خدمته، يُنْعِم في كل مرة بمخطوط من مملكته الهائلة، مملكة «الكوميديا الإنسانية»، على أنها أَنْفَس ما يستطيع أن يمنحه.

«أنا لا أجعل من هذه المجلدات هدية إلاّ لأولئك الذين يحبونني، إنهن شواهد على عملي الطويل، وعلى ذلك الصبر الذي وعدتهم به. لقد بذلت لياليَّ من أجل هذه الصفحات الرهيبة»

أما القسم الأكبر فتحصل عليه مدام دي هانسكا، ولكن مدام دي كاستري أيضًا، والكونتيسة فيسكونتي، يُخصَّص لهن مثل هذا الوسام. أمّا أنه يعرف كيف لا يعطي هذه إلاّ للقلائل الذين يعرفون كيف يقدِّرون هذه الوثائق الفريدة في نوعها على الوجه الصحيح، فذلك ما يكشف عنه جواب الدكتور ناكار، حين يتلقى، لقاء خدماته الطبية على مدى السنين الطوال، وخدمات صداقته، من بلزاك، مجلد تصحيحات «الزنبقة في الوادي» (Lys dans la Vallée)، ويكتب الدكتور ناكار في ذلك قائلاً:

«هذه لحظات يذكرها التاريخ حقًا، ولم يكن بُدٌّ لأولئك الذين ما زالوا يؤمنون باستكمال أسباب الجمال في الفن أن تتم تجلية هذا لأعينهم! وما أكثر ما يحفل به هذا من الدروس أيضًا بالقياس إلى الجمهور الذي يعتقد دائمًا أن منتجات الفكر شيء يسهل تلقيه وإبداعه، مثلما تسهل على المرء قراءته! ولقد وَددْتُ لو أمكن أن تشاد مكتبتي في ميدان الڤاندوم لكي يعرف أصدقاء عبقريتك أيضًا كيف يقدرون بالفعل أيضًا ماهية الضمير الحيّ والجَلَد اللذين كنت تعمل بهما».

ولا يكاد يكون من الممكن، في الواقع، أن يجد كفاح الفنان اليعقوبيّ، في أية وثائق، سوى كراريس بيتهوفن، التعبير عنه الأقرب إلى الشيء الملموس منه في هذه المجلدات. وهنا يتم التعرُّف على قوة بلزاك الأصيلة الحقيقية، وعلى الطاقة

العملاقة في عمله، إذ تحدث في النفس من الانطباع والتأثير أكثر مما يكون في كل طرائف معاصريه وأقوى مما يوجد في كل صورة. ولا يعرف بلزاك الحقيقي إلاّ من يعرفها.

ويظل بلزاك يعمل ثلاث ساعات، وأربعًا، في تصحيحاته، فيغيِّر، ويصحح؛ وهذا «الطبخ الأدبي»، كما يسميه هازلاً، يشغل في كل مرة، كل فترة ما قبل الظهيرة، ويتم، على النحو ذاته، من دون توقُّف، وعلى النحو ذاته، بمرارة، وعاطفة جامحة، مثل عمل الليل. وعند الظهر فحسب يزيح بلزاك رزمة الأوراق جانبًا، ليأكل شيئًا يسيراً، بيضة، أو رغيفًا مطليًا بالزبدة، أو فطيرة خفيفة محشوة باللحم المفروم، وهو، بحكم طبيعته، من البشر الذين يستمتعون، إذ أخذ عن موطنه، التورين حُب الأشياء الدسمة والثقيلة، من لحم الخنزير المفروم اللذيذ، والديوك المخصيّة المسمَّنة المحمَّرة، واللحم الأحمر المكتنز، ويعرف خمور موطنه الداكنة اللون والفاتحة اللون، مثلما يعرف الموسيقي أصابع البيانو عنده، ويُحَرِّم على نفسه، أثناء العمل، كل متعة، فهو يعلم أن الأكل يبعث التعب، وهو لا يجد الوقت لكي يتعب، ولا يجوز له أن يستريح، ولا يريد أن يسمح لنفسه بذلك، وإذا هو يدفع بالكرسي ذي المساند نحو المنضدة الصغيرة، ويواصل العمل، مرة بعد مرة، في التصحيحات أو القصة القصيرة، أو الملاحظات، أو الرسائل، ولكنه العمل دائمًا، من دون توقف، أو مقاطعة.

وأخيراً، حوالي الساعة الخامسة يطرح بلزاك الريشة جانبًا، ويطرح، بذلك، السوط الذي يستحثه على المُضِيّ قدمًا. كفى! فإن بلزاك لبث النهار كله- وهذا يحدث في كثير من الأحيان على مدى أسابيع- فلم يرَ إنسانًا، ولم يُلْقِ نظرة من النافذة، ولم يقرأ جريدة. والآن يجوز للجسد الذي لقي الإجهاد المفرط، وللدماغ الذي طورد مطاردة مفرطة، أن يستريحا أخيراً. ويقدم الخادم العشاء. وفي بعض الأحيان يأتي مدة نصف ساعة أو ساعة، ناشر كان استدعاه إليه، أو صديق. وفي

أغلب الأحيان يظل وحده، متفكرًا، قد راودته الأحلام قبل أوانها، في صدد ما يترتَّب عليه أن يبدع في الغد، ولا يطرق الشارع أبدًا، أو لا يكاد يطرقه البتة، فالإرهاق مفرط بعد مثل هذا العمل الهائل. وفي الساعة الثامنة، الآن، إذ يأخذ الآخرون في الخروج زرافات، يرقد في سريره، وينام على الفور، نومًا مُحكمًا، من دون أحلام، وعميقًا، إنه ينام مثلما يفعل كل شيء: نومًا يجاوز الحد، وأشدُّ وطأة من نوم أي امرئ آخر. ينام لكي ينسى أن كل العمل الذي أنجزه لن يخلِّصه من العمل الذي لابد من أدائه غدًا، وبعد غد، وإلى الساعة الأخيرة من حياته. ينام إلى منتصف الليل، حيث يأتي الخادم فيوقد الشموع، ويتخذ العمل بدايته، المرة تلو الأخرى.

وهكذا يظل بلزاك يعمل طوال أسابيع، وشهور، من دون مقاطعة، ولا يتيح لنفسه فترة توقف، مادام ثمة كتاب لم يجر الفراغ منه، وحتى فترات المقاطعة هذه تظل وجيزة إذا ما قيست، «فثمة معركة تُعْقِب الأخرى»، وكتاب يُعْقِب الآخر مثل غرزة الإبرة التالية بعد غرزة الإبرة الأولى، في النسيج الهائل الذي هو حياته: «إنه الشيء ذاته دائمًا: ليالٍ بعد ليالٍ، ومجلدات جديدة دائمًا! وما أريد أن أشيده شامخ للغاية وبعيد المدى ...»

كذلك يقول وهو يئن ويتأوَّه. وفي كثير من الأحيان يساوره الخوف من أن تفوته الحياة الحقيقية، الفعلية عن طريق هذا العمل، ويهزُّ الأغلال التي صنعها لنفسه بنفسه.

«لابُدَّ لي أن أبدع في شهر مالا يفرغ منه الآخرون في عام بأكمله، أو أكثر من عام».

ولكن العمل تحوَّل عنده إلى قَسْر، وما عاد يستطيع أن يمسك عنه،

«أنا أنسى في العمل آلامي، ففي العمل خلاصي»

على أن اختلاف عمله لا يقطع استمراريته.

«وعندما لا أعمل في مخطوطاتي أفكر في مخططاتي، وحين لا أفكر أو أكتب تكون لديّ تجاريب طبع أصححها. وهذه حياتي»

وهو يظل طوال حياته، وهذه الأغلال، أغلال العمل، تغلُّ قدميه. وحتى عندما يكون واقعًا في غرام امرأة ويرحل إليها لا يكون هناك بُدٌّ للهوى الشهواني أن يكون في منزلةٍ دون منزلة هذه التبعية الأعلى. وعندما يبلغ عن حضوره لدى مدام دي هانسكا، أو لدى دوقه كاستري في جنيف، وهو يحترق من نفاد الصبر، وقد بات سَكْران من الرغبة، تُخَدِّر رسالة في الوقت نفسه الحبيبة بأنها لن تراه أبدًا قبل الساعة الخامسة مساءً، فهو لا يبيح نفسه للنساء إلاّ بعد الساعات الاثنتي عشرة، أو الخمس عشرة التي لا تَهاوُن فيها، والتي تعود إلى منصة الكتابة. فالعمل أولاً، ثم الحب، و «الكوميديا الإنسانية» أولاً، ثم الدنيا، والعمل أولاً ثم المتعة- أولا متعة أبدًا، في الحقيقة.

وهذا الجنون وحده، الجنون المدمِّر لنفسه، هذا الفيض من العمل المتسم بسمة الجنون بشيء واحد، هو الذي يقدر على تفسير الأعجوبة المتمثلة في أنه أبدع «الكوميديا الإنسانية» في أقل من عشرين عامًا، غير أن هذا الجانب الذي لا يكاد يُفْهَمَ في الطاقة الإنتاجية عند بلزاك يغدو أكثر استعصاءاً بعدُ على الفهم، عندما يضيف المرء حساب إنجاز الكتابة العملية، الخصوصية، إلى الإنجاز الخاص بالعمل. فبينما يتوافر لجوته أو ڤولتير، على الدوام، أمينا سرّ إلى ثلاثة، وحتى رجل مثل سانت بوف، يوعز إلى مُوَظَّف خاص به بإنجاز الأعمال التمهيدية، كان بلزاك يدبِّر وحده كل مراسلاته، وأعماله، جمْيعًا. وباستثناء الوثيقة الأخيرة، التي تهز النفوس. وهو على فراش الموت، إذ ما عاد في وسع اليد أن ترفع بالريشة، ولا يعود يضيف إلى الرسالة المكتوبة من قبل زوجه إلا التعقيب التالي:

ماعاد في وسعي أن أقرأ، وما عاد في وسعي أن أكتب،

وكان ينجز كل صفحة من عمله، وكل سطر من مراسلاته، مكتوبين بخط يده، وكل العقود، والمشتريات والمبيعات، والصفقات، وتأمين الحاجات، وسندات الديون، والكمبيالات، والدعاوى، والدعاوى المضادة المتعلّقة به، من دون مُساعِد، ولا مُدبِّر ولا مستشار. فهو يدبر المشتريات في البيت، ويتقدم بطلباته إلى بائعي السجاجيد والمُورِّدين بشخصه، بل يدبِّر في الحقبة اللاحقة، فوق ذلك، الشؤون المالية لمدام دي هانسكا، ويقدم المشورة لأسرته. وإنها لعملية تبديد للطاقة ومبالغة في العمل تصل إلى الحد المرضيّ. وفي بعض اللحظات يكون على وَعْيٍ أن مثل هذا الاستهلاك للذات، المجانب للطبيعة لابدّ أن يؤدي، بطريقة قَسْرِية إلى تدمير النفس.

«في بعض الأحيان يبدو لي كأن دماغي يلتهب، وكأنما كُتِبَ عليَّ أن أموت على أنقاض عقلي»

ومن أجل ذلك تعد الاستراحة بعد هذه الأشكال من تجاوز الحدود، خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من العمل الذي لا توقُّف معه، والذي لا يطرق الشارع فيه، مماثلة في خطورتها، دائماً لانهيار، فهو ينهار انهيار بطل جريح، بعد انتصاره:

«أنا أنام ثماني عشرة ساعة في اليوم، وفي الساعات الستة الباقية لا أفعل شيئًا» ولعل من قبيل مجاوزة الحد أن يستريح بلزاك من مجاوزة الحد في عمله، وكذلك فإن من مجاوزة الحد أن يكون مازال فيه من القوة ما يكفي لينغمس في اللهو والمتعة بعد الفراغ من عملٍ ما. فحين ينهض من سكْر عمله، ويخرج من صومعته للاختلاط بالناس يكون السكْر مازال فيه: فحين يدخل المجتمع والصالونات يتحدث ويفاخر ويُباهي، وهو الذي ظل طوال أسابيع، لا يسمع صوتًا غير صوته، بل لا يسمع صوته هو، من دون أن ينتبه إلى الآخرين، ويتدفق ذلك منه كأنما يحدث من دافع مختزن، متهكمًا، ضاحكًا، مُزبداً. وعندما يدخل، وهو الذي أبدع لهذا وحرَم ذاك، من الملايين في رواياته، محلاً تجاريًا، ينثر المال من

حوله بغير معنى، وهو مازال في عالم الأرقام، من دون أن يحسُب، ومن دون أن يعد. وكل تصرُّف من تصرفاته مازال يحتفظ بشيء من الأحلام، أو البُعد عن الواقع، والتصعيد المفرط اللذين يكونان في الروايات، يترتَّب أن يحدث كل شيء وهو حافل بالمتعة. ومثل واحد من أولئك البحارة الأفظاظ، الأشدّاء، المفعمين بالحيوية في العصور السالفة، يبادر، بعد أن لبث عامًا لا يرى براً، ولا ينام في سرير، ولا يُحِسُّ بإمرأة، بعد أن تعود السفينة إلى موطنها بعد ألفٍ من الأخطار، إلى ضرب المنصة بكيس نقوده الملآن، ويَسْكَرَ إلى حد الثَّمَل، ويثير مشاهد تلفت الأنظار، ويحطم زجاج النوافذ بدافع من متعة الحياة المتفجِّرة، ومثل جواد أصيل لبث في الحظيرة وقتًا أطول مما ينبغي، فما عاد يسير سير الخبب على الفور على نحو طبيعيّ سليم، بل ينطلق، بادئ ذي بدء، انطلاق الصاروخ، ليفرِّغ شحنة التوتُّر في عضلاته، وليُحِسَّ بسِكْرِهِ بالحرية- يُفَرِّع بلزاكَ تنسُّكَه وزهده، وأشكال توتره وانعزاله وانغلاقه خلال الفترات القصيرة التي يتيحها لنفسه بين العمل والعمل الآخر.

ثم يأتي المَزْهُوّون بأنفسهم، غيرُ أولي الشأن، من آل جوزلان، وڤيديه، والصحفيون البائسون، الذين يستهلكون نقاط الفكاهة الضئيلة عندهم في كل يوم بلا استثناء لقاء بضعة قروش، ويتهكّمون، مثل الأقزام في رحلات غَلَيڤر، على العمالقة الذين أُفْلِت عنانهم، ويدونُّون الطرائف الضئيلة، ويوعزون بطبعها بإلحاح، قائلين يا لبلزاك العظيم هذا من رجل مزهُوّ بنفسه، مضحك، مغرور، ذي نزعة طفولية، وكل غبي يشعر بأنه أكثر ذكاءاً منه. وما مِن أحد منهم يفهم أَنْ ليس من الطبيعي أن يتصرف امرؤ ذو هَلْوَسة، بعد تصعيد كهذا التصعيد الهائل في عمله، تصرفًا طبيعيًا، ولو كان يمارس مَسْك دفاتر بأسلوب نظيف، حيال كل فرنك، ويستثمر المدَّخرات، مثل تاجر صغير، بريْع قدره أربعة في المائة، ولو كان، وهو بعدُ حاكم، وساحر، وآمرٌ ناهٍ في عالم من عوالم الأحلام، يتحرك في عالم

الواقع تبعًا للقواعد الدنيوية السائدة في الصالونات، ولو كان، وهو الذي تكمن عبقريته في المبالغة الإبداعية، فائق البراعة، فائق الدبلوماسية، بارد الحسابات، مثلهم، هم، لما كان في وسعهم أن يرسموا عنه سوى الظل الشائه الذي تُسْقِطُهُ شخصيته العملاقة على جدار الزمن، بأسلوب كاريكاتوري. وما من أحد من المعاصرين أحاط بجوهره الفعليّ. وذلك أنه مثلما لا يُباح للأشباح في الأسطورة إلاّ أن تمرُّ ساعةً من الزمن، بظلالها، على الأرض التي لا تعود إليها، يُتاح لبلزاك مجرد التقاط بضعة أنفاس من نسيم الحرية، ويظلُ يضطرٌّ، المرة بعد الأخرى إلى أن يعود أدراجه إلى سجن عمله.

الفصـــل التاســـع

دوقة كاستري

وسوف يكون العمل، العمل الذي لا يُسْبَر غوره، الصورةَ الحقيقية لحياة بلزاك، حتى الساعة الأخيرة، وهو يحب هذا العمل، أو، بالأحرى، يحب نفسه ذاتها في هذا العمل، فهو يستمتع، في غمرة عذابه الإبداعي، بولع خفي، بطاقته الشيطانية ومقدرته على الإبداع، وقوة إرادته التي تستخرج في غمرة تفانيه في العمل، إحساسه الداخلي القاسي بأنه يُفَوِّت على نفسه أفضل سنواته من جراء هذا العمل. والإبداع، حتى في صورته الأكثر إعلاءاً وتصعيداً، ليس إلاّ بديلاً للحياة الواقعية. «أنا أحاول أن أنقل حياتي إلى دماغي». بذلك يعترف لزُلْما كارّو، ولكن هذا يستعصي على النجاح كل الاستعصاء. على أن الفنان، الذي لا ريب في أنه يُعَدُّ أيضًا، على الدوام، مستمتعًا، يئنُّ ويتأوَّه تحت وطأة الرَّتابة التقشُّفية في عمله اليومي، والرجل فيه يلتمس انسكابًا أكثر تَوَقُّدًا من ذلك الذي يحدث مع الكلمات الدافقة فوق الورق البارد، إنه المُشَكِّل، الذي يحلم، في إطار عمله، بمائة امرأة عاشقة، إنه يريد ويحتاج امرأة لا يقدر على أن يحبَّها.

ولكن كيف السبيل إلى العثور على امرأة كهذه؟ وهنا أيضًا يُحَوِّل له العملُ الغيور الطريق إلى الحياة: وذلك أن بلزاك لا يتوافر له الوقت لكي يبحث عن امرأة أو عن عشيقة، ولمّا كان مشدوداً بالأغلال إلى منضدة الكتابة أربع عشْرة ساعة وخمس عشرة ساعة، إذ يُضحّي بالساعات الأخرى للنوم والأعمال المُلحَّة، فإنه لا تُتاح له الفرصة ليذهب للبحث متسكِّعًا، وإنه لمن الأمور المؤثِّرة أنه يظلّ، المرة بعد الأخرى، يكلِّف الإنسانين، أو الثلاثة الذين يثق بهم فعلاً، أي أنه يكلف أخته، وزلْما كارّو، أن تعثرا له على الزوجة الملائمة التي تُخَلِّصه من هذه الألوان من التوتُّر

والأشواق التي تعذّبه والعائدة إلى العالم السفلي.

على أن المجد المفاجئ يحدث في ذلك انعطافة باعثة للدهشة، وعلى حين بات بلزاك يرتاب في أنه سيُوفَّق في أي يوم من الأيام إلى العثور على امرأة، تأخذ النساء الآن في البحث عنه والنساء يحببن دائماً أكثر ما يُحْبِبْن الأدباء الذين يُشْغَلون بهن. وتحيُّز بلزاك للمرأة من حيث هي ضحية الرجل التعيسة، وغيرَ المفهومة، وحلْمه وترويّه حيال أخطائها وصَفْحُهُ عنها، وتعاطفه مع كل المهجورات والمنبوذات والطاعنات في السن لم يُثِرْ فضول مجرد الباريسيات والفرنسيات، تجاهه، إذ تتوارد من أرجاء الريف التي هي أقل الأقاليم اعتياداً لهذا، من ألمانيا، وروسيا، وبولونيا، الرسائل إلى «العارف بنقاط الذُرى، والانخفاض».

وبلزاك، على وجه العموم، مراسل متهاوِن، مهمِل، مُستنفَدُ القوى فوق ما ينبغي، من جراء عمله، ومن النادر أن يجيب عن رسالة، وعبثًا يحاول المرء، أن يلتمس في مراسلاته مناقشاتٍ فكرية مع رجال عصره البارزين. غير أن رسائل النساء هذه تشغله، وتُسْعِده، وتثير في نفسه الاضطراب. وبالقياس إلي رجل من أهل الخيال من طرازه، يعيش في حالة من الانتقال التصويري الدائم، ترتبط بكل رسالة من أمثال هذه الرسائل إمكانية رواية حيّة. وفي إطار حاجته إلى أن يتفانى، يكتب، في بعض الأحيان، وهو يتوقَّع ارتباطًا نفسيًا، في تحمُّس منه، إلى امرأة غير معروفة البتة، اعترافاتٍ، وألوانًا من الإقرار، يرفض أن يكتبها حتى إلى أقرب أصدقائه إليه.

وذات يوم، في ٥ تشرين الأول ١٨٣١، تُرْسَل إليه، في ساشيه، حيث هرب إلى أصدقائه، من آل مارغون، للعمل، رسالة نسائية- تلفت نظره بوجه خاص. وخيال بلزاك يتمتع، كما يعرف المرء ذلك من رواياته، بالمقدرة على أن يُلْهِبَ نفسه إلهابًا إبداعيًا بالتفاصيل الدقيقة. وتكون هذه المرة مظاهر خارجية لا يُستهان بها، كنوع الورق، والكتابة، والطريقة الخاصة في التعبير، هي التي تمنحه شعوراً أَوَّليًا بأن هذه المرأة، التي لا تُوَقِّع باسمها الحقيقيّ، بل توقِّع باسم انكليزي

مستعار، لابُدَّ أن تكون امرأة من طبقة رفيعة، أو من أعلى الطبقات. وبسرعة البرق يأخذ خياله يلعب لعبته. لا بد لهذه أن تكون امرأة جميلة، شابة، شقية، امرأة شَهِدَت الكثير من الأمور المؤلمة، المأساوية، وهي، فضلاً عن ذلك، من المنتميات إلى أرفع طبقات النبلاء، كونتيسة، أو مركيزة، أو دوقة.

على أن الفضول- وربما التظاهر بالنبالة أيضًا- لا يدعه يقرُّ له قرار. وعلى الفور يوجه إلى المرأة المجهولة «التي لا أعرف عمرها ولا ظرف حياتها،»

رسالة تقع في ست صفحات، وكان، في الأصل، لا يريد في جوابه سوى أن يدافع عن نفسه ضد مأخذ العبث والطيش الذي أخذته عليه تلك المُراسِلة بعد قراءتها لفيزيولوجيا الزواج، ولكن بلزاك الذي هو إنسان التخطّي الخالد للحدود، لا يمكنه أن يُمْسِك، ملتزمًا بخط وَسَط، فإذا أُعجب بشيء ما، لم يكن له بُدَّ أن ينتهي به إلى حالة الوَجْد، وإذا عمِل، كان عمله كعمل المعاقَبين بالعمل في السخرة في سفن التجذيف الحربية القديمة، وإذا أفضى بما في نفسه إلى امرئ ما لم يكن لذلك بُدٌّ أن يتحوَّل إلى حفلة ماجنة عربيدة، وإلى فيض دافق من الاعتراف ومن دون أي عائق يفتح لهذه الكاتبة غير المعروفة كل قلبه، فهو يُسِرُّ إليها أنه لا يريد أن يتزوَّج إلاّ أرملة، ويصفها، بألوان نصفها عاطفي رقيق ونصفها ناريٌّ، ويكشف لها عن أسراره المستقبلية»، فهو يروي لها أن رواية «جلد الحصان» ليست إلاّ حجر الأساس في صرح شامخ منيف- من «الكوميديا الإنسانية» المستقبلية، التي يريد أن ينشئها، «وأنا مفعم بالفخر بأنني حاولتُ ذلك، وإن قُدِّر لي أن أتكبَّد الهزيمة في هذا المشروع»

ولابدَّ أن الكاتبة المجهولة تولَّتها الدهشة حين تلقَّت، بدلاً من جواب مهذَّب، أو جواب بأسلوب الثرثرة الأدبية، مثل هذا النوع من الإفضاء بمكنون النفس الحميم من قبل الكاتب الشهير. وما من شك في أنها أجابته على الفور: وينشأ بين بلزاك والدوقة التي يحلم بها علاقة مراسلة (من المؤسف أنه لم يتبقَّ لنا

منها محفوظًا إلاّ أيْسر جزء منها) تؤدي في النهاية إلى أن يرغبا، كلاهما، في التعارف الشخصيّ أيضًا، إذ بات الفضول يستبدُّ بأحدهما نحو الآخر، من وجهة إنسانية. وعلى كل حال فقد كانت المجهولة تعرف بعض الأمور عن بلزاك، وربما حمل إليها بعضَ الأمور اللَّغَطُ أيضًا، وكانت صورته قد سرت من خلال عدد من المجلات. غير أن بلزاك لا يعرف شيئا عنها. وما أشدَّ ما وصل إليه تصاعد فضوله من استحالة سَبْر الغَوْر: هل ستكون هذه المجهولة، يا تُرى، صبيّة، جميلة، وهل تراها تكون واحدة من تلك النفوس التي ترغب فيمن يواسيها؟ وهل ستكون مجرد واحدة من ذوات الجوارب الزُّرْق (*) العاطفيات، أو ابنة تاجر مفرطة في الثقافة والتكلُّف، أم ستكون بالفعل (وهو الحالم الجسور) كونتيسة، أو مركيزة، أو دوقة؟»

ويكون انتصارُ عالم النفس: أنَّ المراسلة المجهولة هي بالفعل مركيزة، تتمتع بالترشيح للقب دوقة، وذلك، في الحقيقة، ليس كحبيبته Amorosa السالفة، دوقة أبرانتيس، وهي دوقة، رفع من شأنها الغاصب الكورسيكي حديثًا، بل كانت من أفضل ذوات الدم الأزرق، الأشد زرقة على الإطلاق، من ضاحية سان جيرمان، لاشائبة فيها. أمّا والد المركيزة، والدوقة اللاحقة، هنرييت ماري دي كاستري فهو دوق دي ماييه، المارشال السابق لفرنسا، الذي ترجع نبالته إلى القرن الحادي عشر، وكانت أمها دوقة ڤيتس- جيمس» أي أنها تنتمي إلى أسرة ستيوارت، وبذلك تكون تابعة للأسرة الملكية. أما زوجها، المركيز دي كاستري، فهو، مرة أخرى، حفيد المارشال الشهير الذي يحمل الاسم ذاته، وابن دوقة جويز. وعلى هذا فقد كان بلزاك، المهووس بالأرستقراطية، لا يكاد يمكن أن يتحقق له إشباع أروع مما يتحقق عن طريق شجرة النسب التي تتشعَّب وتلتفّ على نحو بديع للغاية من كلا الجانبين.

(*) نسبة إلى حلقة نسائية من هاويات الأدب في لندن كنَّ يرتدين الجوارب الزرق الصوفية بدلاً من الجوارب الحريرية (١٧٥٠) وهي تسمية تهكمية ضد النساء المتعالمات، أو المتحذلقات.

وحتى من حيث السن كانت المركيزة تتلاءم تلاؤمًا كاملاً مع المثل الأعلى عند بلزاك. ويجوز أن تُعَدَّ، وهي في سن الخامسة والثلاثين، بطلة «امرأة في الثلاثين» وذلك في الحقيقة من حيث أنموذجها البلزاكيّ إلى أقصى الحدود، لأنها امرأة عاطفية رقيقة، تعيسة مخيَّبة الآمال، وراءها، على أية حال، قصة حب لم تكن في المجتمع الباريسيّ أقل شهرة من رواية «جلد الحصان»، بل كانت زوجة متوقعة لأكبر زملاء بلزاك، وهو ستندال الذي استفاد منها في باكورة أعماله «آرمانس».

ولم يتجشم بلزاك من الجهد من أجل الاطلاع على تفاصيل هذه القصة الرومانسية. ففي سن الثانية والعشرين تعرفت المركيزة الشابة التي كانت في تلك الأيام إحدى أجمل أرستقراطيات فرنسا، إذ كانت امرأة رقيقة، هيفاء القوام، ذات شعر مشرق ذهبي بُني ضارب إلي الحمرة، على ابن المستشار ميترنيش، ذي السلطان الواسع، وهو الأمير ڤيكتور ميترنيش، وتقع المركيزة في غرام جارف بالشاب الذي ورث عن أبيه الجمال الرجاليّ، والسحر الاجتماعي، على أنه لا يَرِث، بالطبع صحته المتينة، ولما كانت طبقة كبار النبلاء في فرنسا مازالت تحيا حياة الإخلاص لتقاليد القرن الثامن عشر المتنوِّرة من الوجهة الفلسفية، فقد كان أبوها على استعداد للتسامح الحذِر حيال علاقة الحب هذه الجامحةبين الشابين. ولكن بتصميم صادق لا يثير حماسة ستندال وحده، بل المجتمع الباريسيَّ بأسره أيضًا، يأنف كلا العاشقين من كل حل وسط، وتتخلى مدام كاستري عن قصر زوجها في وقت الضيق، ويتخلى ميترنيش الشاب عن مستقبله المهني الباهر. وماذا يهمهما من العالم، وماذا يهمهما من المجتمع- فهما لا يريدان أن يعيشا إلاّ على أن يكون كلٌّ منهما لصاحبه، وللحب. وهكذا يسافر الزوجان الرومانسيان إلى أجمل بقاع أوروبا بحرية، وبأسلوب البدو الرُحَّل، إلى سويسرا، وإلى إيطاليا، وسرعان ما يغدو ابن لهما (ينعم عليه إمبراطور النمسا فيما بعد بلقب بارون فون ألدنبرج)، شاهدَ سعادتها المُبَجَّل.

غير أن هذه السعادة أكثر اكتمالاً من أن تدوم. ومن السماء المشرقة الخالية من السحب تنزل الكارثة. وذلك أن المركيزة تسقط عن جوادها في رحلة صيد وينكسر

عمودها الفقري. ومنذ ذلك الوقت تصبح مُعوَّقة الحركة، وتضطر إلى أن تقضي شطراً كبيراً من اليوم مستندة إلى الكرسي الطويل (الشيزلونج)، أو في سريرها، من دون أن يستطيع ڤيكتور فون مترنيش أن يشملها وقتًا طويلاً برعايته الطبية، لأنه سرعان ما يموت بُعَيْد ذلك، في تشرين الثاني ١٨٢٩، بالسلّ. على أن هذه الخسارة تصيب حياة المركيزة دي كاستري إصابة أقسى مما أصابها به قبل ذلك سقوطها عن الجواد. ولمّا كانت غير قادرة على أن تظل وقتًا أطول من هذا في كل البقاع التي لم يكن جمالها باعثًا لكل تلك السعادة إلاّ في ظل حبّها، فهي تعود أدراجها إلى باريس، ولكنها لم تَعُد إلى منزل زوجها، ولا إلى المجتمع الذي كانت نظراته تنمُّ عن الكثير من التحدّي لها. وتنفق أيامها في قصر أبويها العائد إلى العائلة، قصر دي كاستيلان، في عزلة كاملة، وبدلاً من الأصدقاء السالفين تكون الكتب الآن جليسها الوحيد.

ولابدَّ أن الجانب الأدبيّ، والجانب الخاص بالتظاهر بالنبالة، على حد سواء في قلب بلزاك، وُضِعا على الفور في حالة هِزَّة عاطفية عارمة، من جراء ما خاطبته به، بالمراسلة، مثل هذه المرأة التي كانت تتلاءم، في مركزها، وسنّها، ومصيرها، كلَّ التلاؤم مع أجرأ الصور التي ترسمها أحلامه، بل سَرْعان ما دُعِي دعوة المودة. إنها مركيزة، ودوقة في المستقبل، و «امرأة في الثلاثين» و «امرأة مهجورة»، تُميِّزه، وهو حفيد الفلاحين، وابن الطبقة البورجوازية الصغيرة، إلى هذا الحد! فياله من انتصار على كل الآخرين، على آل ڤيكتور هوجو، وآل دوماس، وآل دي موسيه، الذين لم يكن لهم من زوجات سوى نساء الطبقة الوسطى، ولم يكن لهم من صديقات سوى الممثلات والمتأدِّبات أو الغانيات! وياله من انتصار من باب أولى إذا أمكنه أن يفخر ويباهي بما هو أكثر من مجرد الصداقة، إذا ما أصبحِ الآن، وهو الذي تصاب عاطفته الجامحة بالسكر من جراء مجرد لقب امرأة، وبعدَ مجرد نبيلة متواضعة، مثل مدام دي بيرني، وأرستقراطية وصولية، مثل دوقة أبرانتيس يصبح عشيقًا، أو حتى زوجًا لدوقة فرنسية فعلية أصيلة، وخلَفًا لرجل هو الأمير

ميترنيش، وبعد أن أصبح في حالة دوقة أبرانتيس خَلَفًا لوالده، يصبح خَلَفًا للأمير ميترنيش! ويترقَّب بلزاك الدعوة وقد أفْعِم بنفاد الصبر واللهفة على أن يُتاح له زيارة صديقة المراسلة ذات المقام الرفيع شخصياً. وأخيراً، في الثامن والعشرين من شباط، تأتيه رسالة بـ «إشارة الثقة» هذه، وعلى الفور يجيب قائلاً إنه سيسرع إلى «تقبُّل هذا العرض الكريم»، مع المجازفة بخسارة جسيمة عن طريق التعارف الشخصي»

وبعجلة بالغة وسرعة كبيرة، وبسعادة فائقة، وافتتان وبهجة، يجيب هونوريه دي بلزاك عن هذه الرسالة من ضاحية سان جيرمان، قائلاً إنه يتصفَّح رسالة أخرى توجد على منضدته في اليوم ذاته، رسالة من روسيا، من امرأة أخرى، كُتِبَت ووُقِّعت من قبل «المجهولة» (L'Etrang`ere)

وبالقياس إلى إنسان من أهل الخيال من طراز بلزاك يُعَدّ من البدهي أن يقع في غرام دوقة كاستري، وهو لا يحتاج، من أجل ذلك، إلى أن يراها، ولو كانت قبيحة أو غبيّة أو مشاكسة، أو خبيثة، لما أمكن لهذا أن ينال من شعوره، لأن كل المشاعر، وحتى الحب، تخضع عنده لقوة إرادته المهيمنة، وحتى قبل أن يُصْلِح بلزاك هندامه بشيء من التكلُّف ويرتدي الملابس الجديدة، ويقعد في العربة، لينطلق إلى قصر كاستيلان، يكون قد عقد العزم على أن يحب المرأة، وأن يكون محبوبًا من قبلها! وكما يُستفاد بعد ذلك من المرأة صاحبة تلك الرسالة الثانية، التي لم تفتح بعد، فقد أبدع لنفسه، من دوقة كاستري، من دون أن يعرفها، الشخصية المثالية التي يريد أن يعطيها في رواية حياته، دور البطلة.

وفي الواقع تسير الفصول على نحو كامل، بحيث تتوافق مع الصورة التي يتصورَّها خياله، وفي صالون مُجَهَّز بذوق هو في الغاية من التروّي والحذر، والنبالة، تنتظره، على أريكة من طراز مدام ريكاميه، متمدِّدةً، امرأة شابة ولكنها ليست شابة فوق ما ينبغي، على شيء من الشحوب، وشيء من التعب، امرأة

أحبَّت، واطلعت على الحب، امرأة في حاجة إلى المواساة فيما تعاني من الهجران، على أن الرائع في ذلك أن هذه الأرستقراطية، التي كانت لا تعاشر حتى الآن سوى الأمراء والدوقات، هذه العاشقة، التي كان لها عشيق أَهْيَف، أنيق، هو ابن أمير، لم تشعر بخيبة الأمل من جرائه، وهو العريض المنكبين، والبدين المكتنز، ابن الطبقة الوسطى، الذي لا يَقْدِرُ فَنُّ خياط على أن يضفي عليه أناقة وهنداماً، وبعينين مفعمتين بالحيوية، وذكاء وامتنان، تصغي إلى حديثه العاصف، إنه الأديب الأول الذي تتعرَّف عليه، إنسان من عالم آخر، وهي تشعر، على الرغم من كل لحظة التحفُّظ، بمقدار التفهُّم، والتغلغل الذي يحفِز ويثير، واللذين يعرف كيف يتقرب بهما إليها، وتنصرم ساعة، وساعتان، وثلاث ساعات، بطريقة سحرية، في الحديث، وهي لا تستطيع، على الرغم من كل إخلاصها للراحل الحبيب، أن تقاوم إعجاباً بهذا الإنسان الفائق الممتاز الذي بعث به القدر إليها. وبالقياس إليها، وهي التي تشعر شعوراً أكثر كبتاً وتطامناً، بدأت صداقة، أما بالقياس إلى بلزاك، الذي يتخطى الحدود في كل شيء، فقد بدأ سكْر.

ويكتب إليها قائلاً: «لقد تقبَّلْتني بلطف بالغ، ولقد وَهَبْتِ لي ساعات فائقة الحلاوة حتى لقد بتُّ على يقين راسخ: أنك وحدك سعادتي!».

وتزداد العلاقة حرارة على نحو مُطَّرد. وفي الأسابيع والشهور التالية تمرُّ عربة بلزاك الأنيقة بقصر كاستيلان، ويظل كلاهما يثرثران حتى ساعة متأخرة من منتصف الليل، ويرافقها إلى المسرح، ويكتب إليها الرسائل، ويقرأ عليها أعماله الجديدة ويلتمس منها النصح، ويُهدي إليها أنفُس ما لديه، مخطوطات «امرأة في الثلاثين» و «العقيد شابير» و «الرسالة». أما المرأة المنعزلة التي ظلت منذ أسابيع وشهور لا تسترسل إلاَّ مع الحداد على الفقيد، فقد بدأ مع هذه الصداقة الفكرية، بالنسبة إليها، نوع من السعادة، وبدأ، بالنسبة لبلزاك، هوى جامح.

وكان مما ينطوي على طامة بالنسبة لبلزاك أن الصداقة عنده لا تكفي، وذلك أن صلفه الرجولي، وربما صلفه الخاص بالتظاهر بالنبالة، يريدان ماهو أكثر من

ذلك. وبهمة مطَّرِدة الزيادة، وهوى عاصف مطَّرِد الزيادة، يصرِّحُ لها كاشفًا عن أنه يرغب فيها، وبأسلوب يزداد إلحاحًا، يطلب منها أن تبدي له إشارة الاستجابة والموافقة. على أن دوقة دي كاستري أكثر أنوثة من أن لا تشعر بما يتملَّق مشاعرها، حتى وهي في غمرة شقائها، من جراء هذا الحب من جانب رجل تقدِّر عبقريته وتُعْجب بها. وتصغي إليه، ولا تَصُدُّ ألوانًا يسيرة من رفع الكلفة من جانب ذلك المندفع الجامح بترفُّعٍ بارد، بل ربما تتحداه- ولا يجوز للمرء، بالطبع، أن يثق كل الثقة بتصوير بلزاك، في روايته اللاحقة، رواية الانتقام، وهي «دوقة دي لانجيه».

«ولم تتقبَّلْني هذه المرأة تقبُّلاً لطيفًا فحسب، بل كشفت حيالي أيضًا، عن كل فنون دلالها التي لا يُستهان بها البتَّة، وكانت تريد أن تظفر بإعجابي، وكانت تبذل جهودًا لا توصف لكي تحافظ على حالة السُّكْر عندي، وتَدْفَع بي قُدُمًا إلى الأمام، وكانت تقِفُ كل طاقاتها لكي ترغم عاشقًا هادئًا، مترددًا على الإفصاح عما في نفسه».

ولكن حين تأخذ ألوان الدعوة في الاقتراب من النقطة الخَطِرة تقاوم مقاومة حاسمة، وتكرِّر المقاومة، المرة بعد الأخرى، وربما كانت تريد أن تظل وفية للرجل الذي فقدته منذ حين، والد طفلها، والذي تخلَّت من أجله، عن المركز الاجتماعي والزواج المدنيّ، وربما كانت تشعر بالمعوِّقات والخجل من جراء نقصها الجسدي، وربما كان ما يفرض عليها العائق يتمثل بالفعل فيما يتسم به بلزاك من البدانة والسمة العاميّة المبتذلة في جسده، وربما كانت تخشى (خشية لا تخلو من وجه حق) من أن يبادر بلزاك، في غمرة صلفه، على الفور، إلى إذاعة سر علاقته الأرستقراطية، وهكذا تدعه يقتصر، كما يذكر بلزاك في رواية «دوقة لانجيه»:

«على الغزوات اليسيرة التي تمضي قُدُمًا ببطء، والتي لم يكن للعاشقين المترددين بُدٌّ أن يكتفيا بها، »

وترفض بعنادأن تؤكد «منحَ قلبها له، عن طريق إضافة منح شخصها له» ولأول مرة يضطر بلزاك إلى أن يُحِسّ بأن إرادته لا تقدر على كل شيء، حتى عندما يشدُّ عِنانها إلى أقصى الحدود.

وبعد ثلاثة شهور، وأربعة، يظل، على الرغم من كل الدعوات المنطوية على أقصى درجات الإلحاح، وعلى الرغم من الزيارات اليومية، وعلى الرغم من كل نشاطه الأدبي لصالح الحزب الملكي، وعلى الرغم من كل ضروب الإذلال لكبريائه، مجرَّد الصديق الأدبي، ولا يغدو عشيق المركيزة دي كاستري.

وحتى أكثر المواهب الإبداعية ذكاءاً تكون دائماً آخر من يلاحظ أن المسألة أخذت تتخذ مسلكًا غير لائقٍ به، ومن دون أن يعرف أصدقاء بلزاك شيئًا واضحًا جليًّا، لفت أنظار أصدقاء بلزاك الحقيقيين القلائل تغيير في موقفه أمام الملأ، وإذا هم يَرون بغير ارتياح، كيف يخرج في ثياب الدون جوان، وكيف يبحث، من شرفة الجحيم infernal في مسرح الإيطاليين، بالمنظار ذي العدسة الواحدة، والقبضة، عن مقصورة معينة، وكيف، يخوض في حديث جمّ الحيوية، في الصالونات الملكية العائدة لفريتس جيمس وروزان، التي ينظر المرء فيها، في العادة إلى أناس من الطبقة الوسطى، وإن كانوا كتاباً، ومصورين وموسيقيين وبحارة عظماء، على أنهم مجرد خدم رسميين في ثياب عادية، مدنية، على أن أمثال هذه النزهات في عالم الترف والتبذير كان الأصدقاء قد اعتادوا عليها إلى الحد الذي لا يجعلهم يحسون بأنها تهديد لمجده، ومكانته، غير أنهم ينتابهم القلق حين يظهر صاحبهم هونوريه دي بلزاك، فجأة، كاتبًا سياسيًا في جريدة (أولترار أكْسيون) وجريدة «رينوڤاتور» متملقًا للولاء والإخلاص، وهو ينفِّذ ركوعًا علنيًا بين يَدَّي دوقة دي بري على أنهم يعرفون بلزاك بما يكفي لكي يعرفوا أنه ليس من السلالة الدُنيا، التي تبيع نفسها لقاء المال، بل تقول لهم غرائزهم إنه قد فُرضت عليه الوصاية من قبل أَيْدٍ ما، كائنة ما كانت، في هذه الأزمة السياسية المظلمة، أمّا أقدم

الصديقات، مدام بيرني، التي يكتم عنها مراسلاته وزياراته لدوقة دي كاستري، فهي أول من يحذِّره، وعلى الرغم من كونها هي ذاتها، ذات عقلية ملكية، بحكم تقاليد أسرتها، وبحكم كونها ابنة لويس السادس عشر وماري أنطوانيت بالمعمودية، فقد تأثَّرت من ذلك تأثُّراً مزعجاً، إذا رأت بلزاك، فجأة، يتصرف على أنه طبّال علنيّ وملكيّ مفرط في الملكية، وهي تنصحه، بإلحاح، بأن لا يتحول إلى عبد مُسْتَرَق لهؤلاء الناس، قائلة إن هذه الأوساط تستخدم تظاهره بحب النبالة فحسب، من دون أن تحترمه أديباً، حق الاحترام.

«لقد كانوا، مبدئياً، على الدوام، مجتمعاً ناكراً للجميل، وما كانوا ليغيِّروك بدافع الحبّ لك على وجه الخصوص، يا صديقي»

وبأسلوب أقسى بعدُ، وأكثر حسماً، تكتب زُلْما كارّو، حين تضطر، وقد انتابتها خيبة أمل عميقة، وشعرت بالخجل العميق، إلى أن تقرأ نشيد بلزاك في دوقة دي بري، حين حاولت في تلك الأيام أن تضمن العرش لابنها، حفيد شارلكان:

«ألا فَلْتَدعْ الدفاع عن أمثال هذه الشخصيات لأناس من مجتمع البلاط، ولا تلوِّث شهرتك التي أحسنت اكتسابها بسيء مشترك يجمع بينك وبين هؤلاء الرهط».

وفي إدراك منها لخطر فقدان صداقة تعني بالقياس إليها أنفس ما تمتلك في حياتها المتواضعة المجهولة، تُفصح لصديقها الكبير، بإصرار وحزم، عن مقدار اشمئزازها من نزعة التزلُّف والعبودية التي تعني بعض ألقاب النبالة الطنّانة بالنسبة إليها أكثر مما يعنيه النُبل الداخلي في موقف مستقيم سليم، وذلك لأنها تحبُّ عبقريته على أية حال: «أنت تتشبَّث بأذيال الأرستقراطية الجامدة، المتمتعة بالامتيازات! أَتُراك لا تستطيع أبداً أن تستيقظ خارجاً من هذه الأوهام»

ومازالت الأولى، والأخرى، من صديقاته الحقيقيات لا تعرفان، هل كانت سلاسل ذهبية، أم سلاسل من الورود، تلك التي شَدَّت بها يَدٌ بارعة ما، بلزاك، إلى عربة الملكية المترنِّحة، المتزعزعة إلى حد بعيد، وكل ما كانتا تشعران به أنه يغدو غير حُرٍّ، من جراء قَسْرٍ ما، كائنًا ما كان، وأنه يغدو غير مخلص لنفسه.

ويظل بلزاك خمسة أشهر، من شباط إلى حزيران، أي نصف عام تقريبًا، يبدِّد أمواله في صورة صديق الأسرة، الذي يصبرون عليه بحكم حُسْنِ مقاصده، غير أنه لم ترتفع مكانته إلى درجة عشيق الدوقة دي كاستري. وفجأة، وفي مستهل حزيران، يغادر باريس، ويتوجه إلى أصدقائه، من آل مارغون، في قصر ساشيه، فما الذي حدث؟ هل خمدت نار الهوى فجأة، أم هبطت ثقة بلزاك في نفسه إلى حدٍ بلغ منه أنه يتخلى عن حصار الحصن الذي لا سبيل إلى الاستيلاء عليه، وهو الأفلاطوني الذي لاخيار له في الأمر؟ كلاّ، على الإطلاق، فما زال بلزاك واقعًا تحت سحر هواه الجامح الذي ركَّبه بنفسه، وأبدعه من مطامحه وإرادته، على الرغم من أنه بات يبصر الجانب الخالي من الأمل في جهوده يَشِفُّ من وراء شيء ما. وبصراحة يائسة، يعترف آخر الأمر لزُلْما كارّو:

«يجب أن أذهب الآن إلى إيكس، وأتسلّق صاعداً إلى سافوايات، فأنا أعدو وراء واحدة ربما كانت تهزأ بي- هي واحدة من تلكم السيدات الأرستقراطيات اللواتي لاشك في أنهن يمثلن شيئًا مهولاً بالقياس إليك، وراء وجه من تلك الوجوه ذات الجمال الملائكي التي يحسب المرء أن وراءها نفسًا جميلة، وإنها لدوقة أصيلة، متفضِّلة للغاية، تأنس إلي المساكين وتُسْعَد بهم، رقيقة، ظريفة، ذات دَلّ، مختلفة كل الاختلاف عن كل من رأيت حتى الآن وهي ظاهرة من تلك الظاهرات التي تتهرَّب من كل ملامسة، وهي تزعم أنها تحبني، وأحب شيء إليها أن تمسك بي في أعماق قصر من قصور البندقية تحت الحراسة ... وهي امرأة (وأنا أقصُّ عليك كل شيء بلا ريب) تريد أن أكتب لها دون غيرها، وواحدة من تلكم النساء اللواتي

يضطر المرء إلى أن يجثو على ركبتيه ويصلّي لهن إذا ما رغبن في ذلك، ويغزو المرء قلوبهن بالكثير جداً من المسرات، امرأة كما في الأحلام! ... تغار من كل شيء! ويلاه! لقد كان خيراً لي لو كنت عندكم في أنجوليم، بالقرب من مصنع البارود، بعقلي الكامل، وسلامي الكامل، أسمع طواحين الهواء تدور، إذاً لكان في وسعي أن أملأ بطني بالكمأة، وأضحك معك، وأثرثر- بدلاً من أن أُضيِّع وقتي وحياتي هنا!

ولكن عندما يقطع بلزاك الآن خدمات الشاعر الغزلي البروفنسالي (التروبادور) بعض الوقت، ويغادر باريس ودوقة كاستري تكون الأسباب أكثر دنيوية وابتذالاً إلى حد بعيد من هذه النظرة الداخلية الثاقبة. وذلك أن كارثة من تلك الكوارث المالية، شأن تلك التي تتجمَّع وتتحشَّد بانتظام العواصف الصيفية واطِّرادها، فوق رأسه، وتفرغ شحنتها فجأة، نزلت به من جديد، مرة أخرى. وبالقياس إلى بلزاك، الذي لا يتحول كل شيء يلامسه إلى ذهب، وهو نقيض الملك ميداس، بل يتحوَّل إلى ديون، يتحول حبه دائماً إلى كارثة مادية كلما وقع في غرام امرأة، أو جاد على نفسه برحلة، أو جرَّب نفسه في مضاربة، وكل وقت يضيع من عمله يمثل موقعاً من مواقع الخلل يُضاف إلى أوضاعه المالية المقلقلة على أية حال، إذ كانت ميزانيته لا تفتأ تتوازن على نصل سكين. وذلك أن الأمسيات الكثيرة التي يبدِّدها في صالون دوقة كاستري، بدلاً من العقود إلى منضدة كتابته، وأمسيات المسرح، والمقصورة في مسرح «الإيطاليين» يمثلان وحدهما روايتين لم تُكتَبا. وفي تزامُن مع تقلُّص العائدات تصاعدت النفقات إلى حد يبعث على القلق، ثم إن الفكرة الباعثة للتعاسة، وهي أن يظهر في مظهر الخاطب النبيل وبتصرُّفات الأرستقراطيين كدَّست الديون حتى وصلت إلى نِسب جنونية. فالحصانان اللذان يشدّان عربته ذات العجلتين، التي كان ينطلق بها إلى قصر كاستيلان، هذا الحصانان وحدهما أكلا من العلف ماتربو قيمته على تسعمائة فرنك

من الشوفان، وكانت إدارة المنزل بمن فيه من السعاة الثلاثة، والملابس الجديدة ومجمل طراز الحياة المُبَهْرَج، كل هذه الأمور كانت تفرض نفسها على نحو يزداد انطواءاً على الكارثة بإطراد، وكانت الحسابات غير المدفوعة، والكمبيالات المستحقة ترد في كل يوم بمثل الانتظام الذي كانت تَرِدُ به قبل ذلك مَلازِمِ التصحيح، وما عاد الذين يحاصرون شارع كاسيني هم الدائنون منذ عهد بعيد، بل باتوا هم المبلِّغون ومنفذّو الأحكام القضائية. ولمّا لم يكن هناك سوى شيء واحد يستطيع أن ينقذ بلزاك، فإنه لم يكن هناك سوى إمكانية واحدة: الهرب، الهرب من باريس، والهرب من الحب، والهرب من الدائنين، الهرب إلى مكان لا يعثر عليه فيه أحد ولا يستطيع الوصول إليه فيه أحد.

ومن البدهي أن العمل الذي كان بين يدي بلزاك، كان مباعًا سلفًا. وكان قد وقَّع في اليوم الأخير قبل الرحلة، على عقدَيْن، ورفع ألفًا وخمسمائة فرنك لكي يتوفَّر لديه مصروف جيب، من أجل الشهور التالية، ولكن القوم ينتزعون منها ألفًا وأربعمائة، من يده، قبيل الانطلاق، وهو يستطيع أن يهرب في عربة البريد بمائة وعشرين فرنكًا تحمله إلى ساشيه، وهناك يُعنى بإقامته، وهناك، في قصر أصدقائه من آل مارغون، لا تترتَّب عليه مصاريف، فهو يظل يكتب سحابة النهار، وشطراً من الليل في حجرته، ولا يظهر إلاّ ساعة أو ساعتين، عند وجبات الطعام، غير أن قعوده ساكنًا لا يمنع تكاليف إدارة البيت في باريس المرسومة على مستوى الترف، أن تظل تتواصل، ولابد لامرئٍ ما أن يوجد نظامًا ماهناك، وأن يخفِّض التكاليف، وأن يناضل الدائنين بالنيابة عنه، ويهدِّئ ثائرة المورِّدين. ومن أجل هذه الخدمة القاسية والصعبة لا يعرف بلزاك إلاّ إنسانًا واحداً، هو نفسه إنسان قاس وصعب، وهو أمه. وبعد أن كان حاول طوال سنين، أن يتخلَّص من رعايتها، يضطر، وهو الأديب الكبير. الشهير، إذ بات الآن ذليلاً، أن يفزع إلى اقتصادها وبراعتها في إدارة الأعمال، وهي التي كدَّرت عليه صفو صباه.

ويتحوَّل استسلام الولد المتكبِّر، العنيد إلى انتصار للمرأة العجوز وبجرأة وطاقة وهِمّة تدافع عن الموقع الضائع، فتخفض تكاليف إدارة البيت، وتسرح سُعاة الخدمة الفائضين عن الحاجة، وتناضل المُورِّدين ومنفِّذي الأحكام القضائية، وتبيع العربة ذات العجلتين والحصانين اللذين يأكلان العلف الكثير، وتحاول أن تَرُدَّ العافية والسلامة إلى شؤون ابنها المالية المُقَلْقَلَة، من جراء غرامه الأحمق وولَعه بالعظمة، بالقرش فوق القرش، والفرنك فوق الفرنك. ولكن حتى هي سَرْعان ما تقف بغير دفاع أمام تدافع الدائنين، أمّا الإيجار فما زال غير مدفوع، وربّ البيت يريد أن يرهن الأثاث، على أن الخبّاز وحده يقدِّم- ولا يكاد المرء يستطيع أن يدرك أن عَزَبًا أكل كل هذا القدر من الخبز- فاتورة لم تُسَدَّد، بمبلغ يربو على سبعمائة فرنك. وفي كل يوم يترتَّب تسديد كمبيالات وسندات دين أخرى تعوم في سوق الأوراق المالية بباريس من يد إلى أخرى، وتوجِّه، في باريس، رسالة إثر رسالة، إلي ابنها، الذي يترتب عليه أوّلاً أن يكتب مخطوطاته التي بيعت منذ زمن طويل، وهو ليس على استعداد لأن يستخرج ولو فرنكًا واحدًا من الناشرين والصحف. وحتى لو عمل أربعًا وعشرين ساعة في اليوم لما استطاع أن يُعوِّض ما كلفه نصف العام هذا من التظاهر بالنبالة والوقوع في الحب، والأدب لا يستطيع أن ينقذه. وهذا ما يتبين لبلزاك، وهكذا يعود إلى التفكير- وإنها لفكرة غريبة إلى أقصى الحدود بالقياس إلى امرئ يُقال إنه واقع في غرام جامح- في وسيلة العلاج القديمة، والزواج من ثرية. وبإعمال مزدوج غريب للقلب والدماغ، خَطَب بلزاك، منذ الربيع، بينما كان يلتهب غرامًا رومانسيًا بدوقة كاستري، بأسلوب منطقي وجادّ جدًا، فتاة صبيّة، هي الآنسة دي ترومِلّي التي كانت وصلت، عن طريق وفاة أبيها، إلى امتلاك ثروة مستقلة. ولأسباب لا نعرفها، رُفِضَت خطبته. ولما كانت اليتيمة الموسرة تُعرِض عنه إعراض المزدري فإنه يعود الآن أدراجه إلى مَطْمَحِه القديم وهو الزواج من «الأرملة الموسِرة» (riche veuve)، وبذلك يحقق لنفسه بصورة نهائية، سكينة قلبه والراحة في عمله على حدٍ سواء. وفي غمرة يأسه لا يكلف بلزاك أمه

فحسب، بل يكلّف حتى الصديقه القديمة، مدام دي بيرني، بأن تلتمس له، بأقصى سرعة ممكنة، صاحبة ريع كبير تَرَمَّلت، لتحميه من عار إفلاسٍ ثان، وبالفعل يتم العثور على مثل هذه الأرملة الثرية، وهي البارونة دور بروك، التي كانت، فوق هذا، مفتونة أيّما افتتان بأعمال الأديب هونوريه دي بلزاك. وتُحاكُ مؤامرة صغيرة، وكان يفترض أن ترسو في الصيف الفرقاطة الذهبية على مقربة شديدة من ساشيه، في أرضها، ميريه، ويُعِدُّ بلزاك كل أسلحة بلاغته، ليستأثر بهذه الغنيمة النفيسة، وبإهداءات مؤثرة يبعث بأعماله إلى قصرها المنيف الآخر في جارزيه، لكي يجعل القلب المترمّل ناضجًا للعاصفة، وربما زاد هذا من نفاد صبرها ولهفتها على أن تتعرَّف آخر الأمر على الشاب ذي الأهمية والخطر. ويقطع عمله ثلاث مرات في الأسبوع، ويسير من ساشيه إلى الأملاك المجاورة، ليقوم بالاستطلاعات ويرى أتراها وصلت.

ولكن كان من سوء الحظ أن البارونة الثرية لا تظهر ميلاً إلى مغادرة قصرها الفخم جارزيه، والأرجح أنها باتت أقلَّ استعجالاً عندما أحست إحساسًا داخليًا بمدى إلحاح بلزاك على الوقوع في غرام ريْعها، فتدعه ينتظر، وكانت تأتي في كل يوم رسائل لاهبة من باريس، وفي كل يوم يزداد مصروف الجيب اليسير ذوبانًا، وما عاد في جيب المولع بالزواج سوى بضع قطع فضية، وهو لا يستطيع بعدُ أن يتمتع بحق الضيافة في ساشيه سوى أسبوع، أو أسبوعين على أقصى تقدير، من دون أن يغدو ثقيلاً وبذلك توارى الأمل الأخير في لقاء لا يلفت الأنظار بمنقذته، ولا يعود بلزاك يعرف ما بعد ذلك، وقد بات، في غمرة يأسه، على وَشْك الانتحار:

«عندما تخطر ببال المرء أمثال رسائل بلزاك المأخوذة من تلك الأيام الكارثية فعليه أن يفترض أن هذا الفنان لابدَّ أنه كان، وهو في هذه الحالة القاتلة من التشوُّش واليأس، غير قادر أبدًا على الإنتاج، أو على الأقل، على أن ينتج عملاً أنموذجيًا. ولكن في حالة ظاهرة بلزاك الفريدة تعجز كل الاستنتاجات المنطقية، وبدلاً من

الأمر الراجح، يحدث عنده دائماً، أبعد الأمور عن الرجحان، قاطبة. وذلك أنَّ كلا العاملين اللذين يعيش فيهما، أي العالم الواقعي والعالم الخيالي يبدوان كأنهما ينعزل أحدهما عن الآخر بعازل لا تنفذ منه نسمة هواء، وبلزاك المبدع يستطيع أن يحيط بنفسه كل الإحاطة، في إطار تركيزه، إلى حدٍّ يبلغ منه أنه لا يعرف شيئًا، ولا يشعر بشيء من العواصف التي تشعل الحرائق حول وجوده الخارجي. وبلزاك صاحب الرؤى، الذي يُطَوِّر، بيد سريعةو طيّارة، وعلى ضوء الشمعة المتراقص، في ورقة إثْرَ ورقة، مصائر وشخصيات، لا يتطابق أدنى تطابق مع هونوريه بلزاك الآخر، الذي يُطالب بتسديد كمبيالاته، ويُرهن أثاث بيته. إنه لا يتأثَّر أدنى تأثُّر بالأحوال النفسية وحالات اليأس التي تُعْرُض لشخصه العمومي والخصوصي، بل على النقيض: فعندما يصبح وضعه الخارجي ميؤوساً منه، هنالك على وجه الخصوص، يكون الفنان فيه أكثر ما يكون قوة، وتتحوَّل أشكال الحَرَج والمضايقات الخارجية عنده، بطريقة حافلة بالأسرار، إلى تركيز مُصَعَّد، وما من شيء أكثر صدقًا من اعترافه:

«إن أفضل حالات الوحي تبُرق لي بسناها دائماً في أعمق حالات الخوف والمحنة»

ولا يَزُج بلزاك بنفسه في حمأة العمل، مثلما يُلقي أيِّلٌ طوردِ حتى أنهكه الطِّراد، بنفسه، في النهر، إلاّ عندما يكون مطارداً أنهكته الملاحقة وأحيط به من كل جانب، ولا يجد نفسه إلاّ حين لا يعود يعرف في الحياة مزيداً. ولا ينكشف هذا السرِّ الباطني إلى أقصى الحدود، في كيانه، أفضل مما ينكشف في هذا الصيف، صيف العواصف والمنخفضات الجوية. ذلك لأنه بينما يظل يوجه، من ناحية، رسائل الهوى والغرام إلى صاحبته الدوقة المستغلقة العصية، ويخرج ثلاث مرات في الأسبوع حاجًا إلى بيتها لينتظر الأرملة الثرية، بينما يعد نقوده النقدية المتضائلة، وكانت تنهال رسائل أمه اللاهبة، تطلب المال، مرة بعد أخرى، وبينما يمارس

الألعاب البهلوانية بكمبيالاته التي فقدت قيمتها، ويمدِّد أجلها، ويواسي الناشرين الذين يدين لهم، وبينما يؤجّل، بالقطع الفنية الأقلّ قابلية للتصديق على الإطلاق، إفلاس شؤونه المالية الذي لا سبيل إلى تجنبه، وانهيار إدارته المنزلية، وفقدان شرفه المدني، من أسبوع إلى أسبوع، يكتب ذلك البلزاك الآخر فيه، في الشهر ذاته أيضاً، أكثر أعماله عمقاً، وأغناها بالأفكار، وأبعدها شأواً في طموحها، إذ يريد به أن يسبق كل ما أبدعه من قبل وكل الآخرين الذين يبدعون إلى جانبه، بضربة واحدة، ألا وهو: «لويس لامبير». وهذا العمل يُقْصَد به إلى أن يكون الاعتذار عن كل ما سبق: عن الدنيوي المبتذل، والمساير للزي السائد (الموضة) وعن الأثير في عالم السيدات، وهو يشهد، ، بشرفه، أنه ينطلق الآن، على وجه الخصوص حيث يتَّسم الوضع بأنه مُواتٍ له، وحيث يستطيع، بأية رواية غرامية، أو اجتماعية مشوِّقة، أن يُحْرِز النجاح المادي الذي يحتاج إليه حاجة ماسَّة لاهبة، إلى عمل لا ينطوي على أدنى أمل بأن يحظى بالتقدير أو الفهم من قبل جمهور القراء العريض. على أن اتجاهه، في الوقت الذي كان تجار الكتب والناشرون فيه ينتظرون منه بلهفة عملاً جديداً بأسلوب والترسكوت أو فينيمور كوبر، إلى بَذْل كل طاقته في تراجيديا فكرية، ومحاولته أن يضع الآن، إلى جانب «مانفريد» لبايرون و«فاوست» لجوته، تصوُّره لشخصية فكرية.

وبقي عمل بلزاك هذا الأكثر طرحاً للمطاليب، والذي كان من النادر أن يقدِّره القلائل، أثَراً فنياً غير مكتمل بالمعنى الأعلى، وذلك أن بلزاك يجرِّب نفسه، من خلال شخصية لويس لامبير التي يعكس فيها صباه هو، وأعمق مطامحه وأفكاره، في مشكلة ضخمة. وهو يريد أن يكشف عن أن العبقرية الكاملة التي تُصَعِّد طاقات التركيز عنده، في تنسُّك كامل بحيث يصل إلى أقصى درجات الجدَّة، لا يعود يمكنها أن تكون قادرة على الحياة في الأرض، وأن الإفراط في الشحن بالأفكار وتوريدها لا بدَّ لهما في النهاية أن ينسفا وعـــاء الدماغ العاجيّ عن طريق

فرط الضغط. لقد أُدْخلت هنا مأساة الجنون الأحادي (Monomanie)، التي تتعرَّض للتحوير مئات المرات في أنحاء عمله، في جوّ العاطفة الذهنية الجامحة- وهي مشكلة تصل وصولاً قاسيًا إلى حدود المَرَضيّ، وبإلقاء الضوء على الارتباط الخفيّ بين العبقرية والجنون، يستبق بلزاك هنا جيله بمدى بعيد.

وهو يُوَّفق بالفعل، في الفصول الأولى التي تصورٍ، من خلال تطوُّر لويس لامبير، انبثاق عبقريته هو، إلى جعل وجود هذه الشخصية الخيالية أمرًا ممكن التصديق بالفعل، وهي الشخصية التي يختصُّ بها بلزاك أفكاره التتويجيّة، نظرية الإرادة، وهي ذلك العمل الذي يفترض أن يلقي الضوء، بصورة نهائية، على العلاقات المعقدة والملابسات الخفية الخاصة بالسيكولوجي. والفيزيولوجيّ، ويكشف، بذلك، الحجاب عن أعمق طبائع الإنسان وأكثرها باطنية. ولا يبالغ المرء إذا وضع لويس لامبير، الذي «يرغب، على النحو ذاته، فيما هو غير ممكن»، ويُقْضى عليه من جرّاء ما ينطوي عليه دافع المعرفة عنده، من تخطّي الحدود، على صعيد واحد مع «فاوست»، الذي أراد بلزاك أن يدخل في منافسة معه، في شعور منه أو في اللاشعور. غير أن الفرق الذي ينطوي على الطامَّة يظل ماثلاً في أن جوته ظل، على مدى ستين عامًا من حياته، متوجهًا إلى فاوست، بينما يضطر بلزاك إلي تسليم المخطوط الناجز للناشر جوسلان، بعد ستة أسابيع، وهكذا يلفِّق، فوق الأثر الفني غير المكتمل لهذه الشخصية، لكي يتوفر له نوع من الخاتمة، قصة غرامية مُوحِلة، مملَّة. وفي النهاية يرتجل، بكل سرعة، النظريات الفلسفية لبطله، بحيث لا يستطيع المرء أن ينظر إلى هذا العمل الذي يعبر، بدرجة أقوى مما يعبِّر به أي عمل آخر، عن مستوى إمكاناته، إلاّ بشطر من الإعجاب، وشطر من الأسف، ولما كان غير مكتمل من حيث كونه عملاً فنيًا، على الرغم من الخاتمة الظاهرية، فإنه يظل

أكثر ما أخرجت يد بلزاك عبقريةً في باب الأقاصيص، وهو يعني، في إطار العمل، ذروة طموحه الفكريّ.

وفي نهاية تموز يبعث بلزاك، أخيراً، وقد استنفِدت قواه وأفرط في العمل، بمخطوط روايته الناجزة- وهي تظل في الحقيقة غير مكتملة إلى الأبد، وفاسدة- وهي رواية لويس لامبير إلى دار النشر في باريس، والحق أن الأسابيع الستة استُغِلَّت كل الاستغلال من الوجهة الفنية، غير أنها لم تغيِّر وضعه الحَرِج المقلق بحال من الأحوال، إذ لم تحضر الأرملة الغنية، ولم يكن من الممكن بالقياس إليه أن يظل عند أصدقائه وقتاً أطول من هذا. ومن الواضح أن بلزاك يتولاّه الخجل من أن يستجدي من هؤلاء النبلاء القدماء الذين أتاحوا له الضيافة النبيلة، شيئاً لمصروف الجيب، ويكشف بذلك عن وضعه الباعث للأسى والتفجُّع. ويكون من حسن الحظ أنه يتهيّأ له، دائماً، ملاذ آخر: فهو يعرف أن رفاقه الشرفاء، من آل كارّوسيكونون سعداء بإيوائه لديهم، وهو لا يحتاج إلى أن يتظاهر بغير ما هو عليه أمامهم وهم المساكين المُعْدَمون، ويستطيع أن يعترف بالحقيقة، وهي أنه، هو، أي هونوريه بلزاك، ماعاد يوجد في جيبه نقود كافية، لكي يَخْصِفَ نعليه. وكانت الفرنكات المائة والعشرون التي خرج بها من باريس، قد ذابت إلى حد ما عاد يستطيع عنده أن يحتمل استعمال البريد من قصر ساشيه. ولكي يتدبَّر أمر مؤونته بما تبقى من القطع الفضيّة، يسير المالك السالف للعربة ذات العجلتين والجوادين الإنكليزيَّيْن الجميلين، تحت الحرارة اللاهبة، على قدميه، من قصر ساشيه إلى تور. وهناك فحسب ينطلق بالعربة إلى أنجوليم، ويصل إلى هناك وقد بلغ من إفلاسه أن أول ما يفعله أنه يقترض عند وصوله ثلاثين فرنكًا من الرائد كارّو.

ويضحك الأصدقاء الطيبون الذين نزلت بهم، هم أنفسهم، بعض الكوارث، باهتمام قلبيّ، من وضع بلزاك الشائه، ويمنحانه كل ما تقدر صداقتهما

على إعطائه: حجرة هادئة للعمل، ومرحًا ودفئًا وحرارة في أحاديث الأمسيات. ومرة أخرى، وكما كان الحال دائماً، يشعر بلزاك، بعد بضع ساعات، عند هؤلاء الأصدقاء الطيبين المنتمين إلى الطبقة الوسطى، والمنفتحين، أنه أسعد مما كان عند كل أصحاب الألقاب، من كونت وكونتيسة. وكان العمل ينساب بسهولة من يده، ويكتب في هذه الأيام القلائل للغاية رواية «المرأة المهجورة»، وبعضاً من الأقاصيص الماجنة "Contes Drolatiques" وينجز تصحيحات «لويس لامبير». وقد كان كل شيء خليقًا أن يكون ممتازاً، ولكن كانت تقتحم عليه في كل يوم تقريباً رسالة جديدة من باريس، من أمه، تطلب المال، المرة بعد الأخرى. وما عاد الدائنون ينكفئون. ولكن من أين يأتي بالألوف وعشرات الألوف التي باتت الآن ذات ضرورة ملحّة، مادام ليس للمرء بدٌّ أن يغالب الحاجة إلى أن يستخرج من أصدقائه المعوزين، ثلاثين فرنكًا؟ والآن تحلُّ ساعة حالكة مدلهمّة بالنسبة لبلزاك. لقد وُفِّق، خلال عامين، أو ثلاثة أعوام، إلى الإفلات من «الوصاية» من قبل أسرته، وكان يتبجح ويزدهي، في سنوات انتصاره هذا، قائلاً إنه سيردُّ إلى أمه كل ما أقرضته، وفي غمرة السكر بنجاحه، وفي إطار الثقة بالنفس الصادرة عن موهبته التي انبعثت أخيراً، عاش مثلما يعيش صاحب الملايين واعتمد على ارتباطاته بالنبلاء، وفي حالة الضرورة كان يحسب حساب الأرملة الغنية أو اليتيمة الغنية، والآن يضطرُّ، مرة أخرى، إلى أن يهيم على وجهه، كالولد الشارد، في الليل، سراً، إلى حظيرة الخنازير في المنزل، ويتوسّل، في مذلّة، إلى ذويه، طالبًا الغوث، وكان، وهو صاحب الحُظْوة في ضاحية سان جيرمان، وهو الأديب المشهور، وذو المروءة المتسامح، (ولكنه العاشق الذي لا يُسْتَمعُ إليه) لدوقة، يضطر إلى أن يتوسَّل إلى أمه العزيزة، بحكم كونه ولداً فقيراً، وابنًا يائسًا يلتمس العون، لعلها تبذل له، بضمانتها، بأي ثمن، عشرة آلاف فرنك لكي تنقذه من الانهيار أمام الملأ. ويقول إن هذا يمس عمله ويمسُّ شرفه.

وتتحقق الأعجوبة بالفعل، وتتوصل السيدة بلزاك مع صديقة قديمة لها، هي مدام ديلانوار إلى أن تضع هذه تحت تصرُّف المُبَذِّر النادم عشرة آلاف فرنك. وبالطبع فإن هذه الكسْراتِ من الخبز لم تُبْذَل لهذا الجائع من دون كثير من الملح والبهار. ويضطر إلى أن يحني هامته العبقرية انحناءة عميقة تحت نير الأسرة الصارم، ويضطر إلى أن يُعدِّل على الفور طراز حياته المترف. وبالطبع فإن الخاطئ الذي شملته الرحمة ينذر أن يدع منذ الآن فصاعداً كل ألوان الترف التي تفضي إلى الخراب، وأن يتصرف في حياته تصرّف ابن الطبقة الوسطى المتواضع والمقتصد، كما رأى ذلك في بيت والديه، برويّةٍ وتخطيط، وأن يسدِّد كل الديون في مواعيدها الدقيقة مع الفوائد وفائدة الفوائد.

لقد أنقذت بلزاك أعجوبة، ولكن كلَّما بات من الواجب أن يسود نظام في حياته أجابت غريزة عميقة فيه تحتاج إلى الفوضى أو العماء، وإلى الحرج، مع فوضى جديدة. وبلزاك لا يستطيع أن يتنفس إلاّ في جَوٍّ ناري، ويبقى اللامقياس هو المقياس الوحيد المناسب له. على أن طبعه الدموي يجنح إلى نسيان رائع لألوان المنغِّصات، والالتزامات التي لا تُلِحُّ عليه كل الإلحاح، لا تُعَدُّ موجودة بالقياس إليه، ولوفكَّر بلزاك تفكيراً هادئًا لكان لا بُدَّ له أن يقول لنفسه إن عجزه الماليّ لا تَخِفُّ وطأته بحال من الأحوال عن طريق هذا الاقتراض. والحق أنه لم يحدث شيء سوى أن ديونًا متفرقة باهظة يبلغ عددها العشرين أو الثلاثين، تمَّ تحويلها إلى المُورِّدين، ومشتري الكمبيالات والخدم، والخياط في صورة دَيْن وحيد جديد يبلغ عشرة آلاف فرنك إلى مدام ديلانوا. ولكن بلزاك لا يُحِسُّ بشيء آخر سوى أن الحبل الذي كان يلتفّ حول عنقه قد استرخى، ولم يكد يسترد أنفاسه حتى عاد صدره يضطرم من جديد. فما دام «لويس لامبير» يشغله، والأزمة المالية تخنقه، لم يكن يفكر في دوقة كاستري، وكان في قرارة نفسه يسلِّم بخسارة الجولة، أما الآن،

إذ ما عادت الديون تَبْهَظُه، فقد غلب عليه من جديد الولَع بالإقدام على طرح الورقة الأخيرة، وكانت دوقة كاستري قد كتبت إليه مراراً خلال الصيف، وطلبت إليه أن يزورها في إيكس، في سافوايان، وأن يصحبها وعمها، دوق ڤيتس-جيمس، في رحلتها الخريفية إلى إيطاليا، وكانت الحالة المالية الميؤوس منها تحول بين بلزاك وبين مجرد الدُّنُوِّ من هذه الفكرة المغرية. أمّا الآن، إذ بدأت تَصِلُ له من جديد بعض اللويزيات الذهبية في سوق الأوراق المالية، فقد بات الإغراء طاغياً. أَوَلا تعني هذه الدعوة إلي شاطئ البحر عند أنيسي، في مَرْبَع جان جاك روسو، في النهاية، بلا ريب، ماهو أكثر من مجرد مجاملة، وهل يجوز للمرء أن لا يلقي بالاً إلى لفتة بمثل هذا القدر من الرقة؟ وربما لم ترفضه الدوقة التي لا يمكن الدُّنُوُّ منها، والتي يعرف، بلا ريب، أنها «شهوانية مثل ألف قطة»، في باريس، إلاّ خوفًا من لَغَط الناس ومن المعارف. أَلَن تقابل أرستقراطيةُ ضاحية سان جيرمان، وهي في أحضان الطبيعة الربانية، الرغبةَ الطبيعة بأسلوب أقرب إلى الطبيعة؟ أوَلَم يستمتع شاعر «مانفريد»، اللورد بايرون، عند البحيرات السويسرية، بسعادته؟ فلماذا يُرْفَضُ هذا على وجه الخصوص لأديب «لويس لامبير»، هناك؟

ومن السهل أن تتحوّل الرغائب، بالنسبة إلى إنسان من أهل الخيال، إلى أوهام. ولكن حتى في أكثر الأحلام شططًا وإفراطًا عند فنان، يظل الرقيب الداخليُّ يقظان على الدوام أيضًا. وكان ثمة ثلاثة ألوان من الغرور تتصارع في بلزاك: الغرور المتصل بالتظاهر بالنبالة، وطموح الرجل إلى أن يغزو أخيراً قلب هذه المرأة التي ما تفتأ تجتذبه وتغريه ثم تأبى أن تدعه يلمسها، والغرور الذي يتمثل في نزوعه إلى أن لا يدع، بحكم كونه رجلاً في مثل قيمته، غانيةً مبَهْرجة، تَعُدُّه مجنونًا، وهو يؤثر أن يترفَّع عنها بنفسه. ويظل أيامًا وأيامًا يتشاور مع زُلْما كارّو، الوحيدة التي يستطيع أن يتحدث إليها بصراحة، هل ينبغي له أن ينطلق إلى إيكس، أم لا ولم يكن بُدٌّ للكراهية الباطنية عند هذه الصديقة المخلصة التي تكره غريمتها

الأرستقراطية بدافع الغريزة، وربما بدافع من ميل مكبوت إلى بلزاك، أن تُحَذِّر هذا المترددِّ من الرحلة التي لا تنطوي على أمل، فهي لا تشك لحظة في أن هذه الدوقة في ضاحية سان جيرمان لن تعرِّض نفسها، على الرغم من كل الإعجاب الأدبي، لمقالة السوء بـ «حب يتسم بسمة «الطبقي الوسطى»»، ولكن حين ترى مقدار نفاد الصبر واللهفة المحمومة اللذين يرغب بهما بلزاك، خلال هذه الأحاديث، في شيء واحد، وهو أن تسانده، يغدو شيء فيها قاسيًا، فهي لا تريد أن تُعَرِّض نفسها لشبهة كونها صرفته بدافع الغيرة التي تعنى بتوافه الأمور، عن فرصته الباهرة إلى أقصى الحدود، فليختبرها بنفسه، وعسى أن يتعلم تعلُّقُه بالنبالة، آخر الأمر، الدرسَ الضروري! وهكذا تقول آخر الأمر لبلزاك، الكلمة التي لم يكن ينتظر إلاّها: انطلق إلى إيكس! وبذلك تقرَّر المصير. وفي الثاني والعشرين من آب يرتقي العربة.

لقد ظل بلزاك، طوال حياته أكثر اتسامًا بالسمة الشعبية، وسمة أبناء الفلاحين من أن لا يكون خرافيَّ الاعتقاد بالطريقة الأكثر بدائية على الإطلاق، فهو يؤمن بالأحجبة ويتخذ دائمًا خاتمًا من أجل الحظ عليه إشارات شرقية تنطوي على أسرار، وقبل كل قرار هام في حياته يكون الأديب الشهير مماثلاً على الدقة لفتاة من عاملات الخياطة في باريس، ترتقي السلالم الحلزونية صاعدة تتسلّل إلى قارئة الحظ بورق اللعب، أو عرّافة في الطابق الخامس. وكان يؤمن بالتخاطر (telepathie) وبالرسائل السرية، وبالقوة التحذيرية للغريزة. ولو أنه التفت في هذه المرة إلى أمثال هذه التحذيرات لكان لابُدَّ له أن يقطع رحلته إلى إيكس منذ البداية. ذلك لأنها تبدأ بحادث. فبينما كان ذلك الذي كان في تلك الأيام بدينًا للغاية ينزل عن مقعد الحوذيّ في العربة، يتقدَّم الجوادان مسافة أخرى، ويسقط بلزاك بكل وزنه وتصاب ساقه بجرح على درجة الصعود الحديدية يصل إلى العظم، وكان كل امرئ خليقًا، عندئذ، أن يقطع الرحلة، ويتعهد بالرعاية الإصابة التي تبعث على القلق

على أية حال. ومع ذلك فالعوائق لا تزيد إرادة بلزاك إلاّ مضاعفة، ويدع القوم يواصلون الانطلاق به، مضمَّدًا مؤقتًا للضرورة، وممدَّدًا على ظهره في أرضية العربة، إلى ليون، ومن هناك إلى إيكس، حيث يُجَرِّر ساقيه متوكئًا على عصا، بمشقة، وبذلك يصل في أسوأ وضع بالقياس إلى عاشق يزحف كالعاصفة.

وبحذرٍ مؤثر أَعَدَّت له الدوقة هناك «حجرة صغيرة جميلة»، وكان للحجرة أجمل إطلالة على البحر والجبال، وهي، فضلاً عن ذلك، رخيصة على قدر الإمكان وفقًا لرغبة بلزاك، إذ كان أجرها فرنكان في اليوم، ولم يستطع بلزاك في حياته، قطُّ، حتى الآن، أن يعمل متحرراً مما يكدِّر، إلى هذا الحد، ومرتاحًا، إلى هذا المدى، ولكن هذه الحكمة والتدبير من جانب الدوقة هما في الوقت ذاته حَذَرٌ، إذ لم تكن حجرة بلزاك، مثلاً، في الفندق ذاته الذي تقيم فيه، بل كانت على بعد بضع أزقة منه، وبذلك لا يكون من الممكن إلاّ القيام بزيارات اجتماعية صرفة، ولم يكن من الممكن القيام بزيارات مسائية حميمة.

ذلك لأن بلزاك اشترط لنفسه أنه لا يريد، ولا يستطيع أن يرى الدوقة، إلاّ في المساء. أما النهار فينبغي أن يكون للعمل على سبيل الحصر، بموجب قانونه الصارم، على أن التنازل الوحيد الذي يقدمه هو أنه يَدَعُ، من أجلها، ساعات العمل الاثني عشرة، التي تبدأ في العادة في منتصف الليل، لا تبدأ إلاّ في الساعة السادسة صباحًا. ومع شروق الشمس يجلس إلى منصة كتابته، ولا يفارقها حتى الساعة السادسة مساءً، وكان يُجاءُ إليه بالبيض واللبن مقابل خمسة عشر قرشًا عن كليهما، إلي حجرته، غذاءاً وحيداً. وبعد هذه الساعات الاثنتي عشرة التي يحافظ عليها من دون أيّ تهاوُن، يَفْرَغُ للدوقة التي يكون من المؤسف أنها تظهر له كل صداقة يمكن تصورها، فهي تنطلق به، مادامت ساقه المريضة لم تُشْفَ، في العربة، إلى بحيرة بورجيه وشارتروز، وتحتمل في صبر، وهي تبتسم، ألوان حماسته، برفق وتسامح، وتُعِدُّ له القهوة، بموجب وصفته في أمسيات الثرثرة الطويلة،

وتقدمه في الملهى إلى صديقاتها الأنيقات من طبقة كبار الأرستقراطيين، بل تسمح له أن يسميها، بدلاً من اسمها الأول الرسمي، هنرييت، باسمها الأول الأكثر خصوصية، والذي لا يُسْمَح به إلا لأصدقائها المقرَّبين، وهو ماري، غير أنها لا تسمح له بأكثر من ذلك كثيراً. ولم يُجْدِه شيئًا أنه بعث إليها، وهو بعدُ في إيكس، برسالة لويس لامبير الغرامية اللاهبة بصورة لم يكن لها معها بُدٌّ أن تشعر بكل كلمة على أنها موَجَّهة إليها، ولم يُجْدِ شيئًا أنه أوعز بأن يُرْسَل إليها، على وجه السرعة، من باريس، نصف اثني عشرية من القُفّازات الصفْر، وحُقٌّ من المرهم، وزجاجة من الماء البرتغالي (وهو عطر يستخرج من قشور النارنج). وفي بعض الأحيان يبدو أن وَعْدًا ما يكمن في كونها تقبَّلَت منه، في صبر، بعض أشكال رفع الكلفة، أو حتى استفزته.

«كانت كل مسرّات الحب تتجلّى في مهدها، حتى في نظراتها الطَلْقة، المفعمة بالتعبير، وفي اللهجة المتزلِّفة التي تلوح في صوتها، وفي سحر كلماتها، وكان يتبيَّن للناظر إليها أن ثمة محظيَّة نبيلة تكمن فيها...

بل كانت المسألة تنتهي، خلال نزهة رومانسية على البحر، إلى قبلة مختلسة أو مُباحة، ولكن كان بلزاك كلَّما طالب بالبرهان الأخير على الحب، وأراد شاعر «التروبادور» الكامن في «النساء المهجورات» و«امرأة في الثلاثين» أن يُعطى أجره بعمله «الأقاصيص الماجنة» تحولَت المرأة المرغوبة في اللحظة الأخيرة، إلى دوقة، مرة أخرى. وها هو ذا الصيف ينتهي، وها هي ذي الأشجار تَصْطَبِغ أوراقها، وتتجرَّد من أوراقها، عند بحيرة آنيسي الرومانسية، ومازال سانت بريه الجديد لم يتزحزح، في موقعه، عما كان عليه قبل نصف عام، مع صاحبته هيلواز، في الصالون البارد والعالي، في قصر كاستيلان، في ضاحية سان جيرمان.

وينتهي الصيف، وتقلُّ النزهات على نحو مطرِد، ويتجهَّز عالم النبلاء للرحيل، وتستعد دوقة كاستري للوداع، غير أنها لا تنوي العودة إلى باريس، بل

تريد الذهاب، قبل كل شيء، مع عمها، دوق ڤيتس جيمس، من أجل بضعة أشهر في إيطاليا، وجنوة، وروما ونابولي، ويُدعى بلزاك إلى مرافقة كليهما في الرحلة، ويتردَّد بلزاك، فهو لا يستطيع أن يُغَرَّ عن نفسه، بالوقوع في موقع غير لائق غير طريق خَطْبِ الوِدّ الأبدي، العبثيّ، والتلَهُّف والتهافت من قبله. وإن المرء ليسمع ذلك من اللهجة اليائسة التي يكتب بها إلى صديقته زُلْما كارّو: «لماذا تركتني أذهب إلى إيكس؟»، ثم: «إن الرحلة إلى إيطاليا باهظة التكاليف، بل هي باهظة على نحو مضاعف، لأنها تعني ساعات عمل. وأيام عمل تضيع في عربة البريد»، ولكن، من ناحية أخرى: ياله من إغراء بالقياس إلى فنان، «يُوَسِّع التَّرحال أفق أفكاره، إذ يرى روما ونابولي، وينبغي رؤيتها في صحبة امرأة أنيقة، امرأة يحبُّها المرء، وذلك في عربة دوق.» ومرة أخرى يغالب بلزاك إحساسه الأوَّلي، الداخلي، ثم يُسَلِّم. وفي مستهلِّ تشرين الأول تبدأ الرحلة إلى إيطاليا.

وتكون جنيف المحطة الأولى في الرحلة إلى الجنوب، والأخيرة بالنسبة لبلزاك، فهناك تنتهي المسألة إلى مجادلة مع الدوقة لا نعرف عنها مزيداً من التفاصيل. ويبدو أنه تقدَّم إليها بنوع من الإنذار، ولابُدَّ، في هذه المرة أن يكون الرفض تمَّ بطريقة مهينة، وما من شك في أن الدوقة قد جرحت مشاعره في أكثر النقاط حساسية عنده، أي في شرفه الرجولي أو الإنساني، وكبريائه، بأقسى طريقة. و ذلك لأنه يعود أدراجه، دفعة واحدة، مُسْرِعًا كالعاصفة، مِلآنَ من غَضَبٍ متجهم، وشعور لاهب بالمهانة والعار، وقد صمَّم على الانتقام من هذه المرأة، التي ظلت تهزأ به طوال شهور، والأرجح أنه خطرت بباله منذ تلك الأيام فكرة إصدار جوابه على هذا الإذلال بأن يصفها وصفًا صريحًا، ومن دون تحفُّظ. على أن رواية «دوقة لانجيه» (التي لم تكن موفقة أبدًا)، والتي سمّاها أول الأمر «ارفع يديك عن البلطة»، (Ne touchez pas la hache) سوف تُطْلِع، فيما بعد، باريس كلها على هذه العلاقة الغرامية بأكملها بطريقة ليست مستساغة تمامًا. وبدافع

من السياسة يحافظ كلاهما، مِنْ بَعدُ على علاقة اجتماعية ظاهرية معينة، فيتحمل بلزاك اللفتة الفروسية، المتمثلة في قراءته تلك الرواية على البطلة الحقيقية أولاً، وهو الأمر الذي تردُّ عليه بلفتة أكثر نبلاً من هذا بعد، وهي أنها تُقرُّ شخصها الذي يحظى بشيء من التملّق. أمّا دوقة كاستري فتتخذ لنفسها قسيس اعتراف ونديمًا آخر من عالم الأدب، يتمثّل في سانت بوف، ويصرِّح بلزاك قائلاً بعزم وتصميم.

«لقد كنت أقول لنفسي إنني لا أستطيع أن أُعلِّق حياةً كحياتي على ثوب امرأة، ولا بدّ لي أن أجري وراء قدري بجرأة، وأن أرفع ناظِرَيّ إلى ما هو أعلى قليلاً من مستوى أشرطة ذيل الثوب النسائي».

ويرتحل من جنيف، من دون أن يلامس باريس، إلي نيمور، حيث توجد مدام دي بيرني، كطفل هام على وجهه كالمجنون، على الرغم من كل التحذيرات، فارتطم بحجر، ففزع إلى ذراعي أمه، نازفًا، مجلّلاً بالخزي والخجل. وإنّ في هذه العودة لاعترافًا وخاتمة، في الوقت ذاته. إنه يهرب من تلك التي لا يرغب فيها إلاّ بدافع صلفه وغروره، والتي تَرْبأُ بنفسها عليه بدافع حساب ما، أو بدافع اللامبالاة، إلى تلك التي ضحت من أجله بكل شيء، ووهبت له كل شيء، حبَّها ونُصحَها، و مالها، والتي أنزلته مكانًا فوق كل شيء، فوق زوجها، وأولادها، وفوق شرفها أمام الناس، ولا يدخل في حيِّز وعيه قطُّ بوضوح أكثر من هذا ما كانَتْهُ له هي، الحبيبة الأولى، ومكانها بالقياس إليه الآن، إذ ما عادت تعني بالقياس إليه بعدُ سوى الصديقة الأم، ولم يسبق له قط أن شعر، بمثل هذه القوة، بمقدار ما يترتَّب عليه أن يزجيه إليها من الشكر. ولكي يعرب عن هذا الشكر بأسلوب لائق يختصها بالكتاب الذي ظل طوال حياته أَحَبَّ كتبه إليه، وهو «لويس لامبير»، مع الإهداء على الصفحة الأولى: «إلى التي اصطفيتُها الآن، وإلى الأبد».

الفصـــل العاشر

بلــزاك يكتشـف ســرّه

ولو شاء المرء أن يصدِّق كلام بلزاك نفسه لكانت علاقته بمدام كاستري مأساة أحدثت في نفسه جراحًا لا يُرجى لها شفاء.

ويكتب قائلاً بلهجة رهيبة: «أنا أكره مدام دي كاستري واستفظعها- فلقد حطَّمت حياتي من دون أن تمنحني، بها، حياة جديدة».

بل يُبْلغ مُراسِلة، أخرى، مجهولة، بقوله:

«هذه العلاقة التي ظلت، تبعًا لإرادة مدام دي كاستري، في حدود العلاقة التي لا شائبة فيها، كانت واحدة من أفدح الضربات التي عانيت منها في حياتي».

ولابُدَّ للمرء أن يُوَطِّن نفسه على أمثال هذه الحالات من الإضفاء المفرط للصفة الدرامية في قالب الرسائل، مع إنسان يظل، على الدوام يعيد كتابة حياته بأسلوب الروايات، "vie romancée" وما من شك في أن مدام دي كاستري جرحت، برفضها، الكبرياء الرجوليّ والصَّلَف القائم على التظاهر بالنبالة، عند بلزاك جرحًا عميقًا ولكن هذا الرجل كان يضرب بجذوره في نفسه على نحو أكثر إحكامًا، ويتمركز حول نفسه إلى حد هو أبعد من أن تستطيع عنده كلمة نعم أولاً من قِبَل أي امرأة، أن «تحطم حياته». ولم تكن العلاقة بمدام دي كاستري كارثة، بل كانت مجرد حكاية من الحكايات العابرة في حياته، على أن بلزاك الحقيقي لايصل بحال من الأحوال إلى هذا القدر من المرارة واليأس، كما يصوِّر نفسه في اعترافاته

الرومانسية إلى الصديقات المجهولات، وهو لا يفكر، مثلما يفعل بطله الجنرال مونتريفو، الذي صنع منه صورته المنعكسة في رواية «دوقة دي لانجيه»، في وَصم الغانية الأرستقراطية بالحديد اللاهب، وهو لا يُزْبد ويُرْغي بالانتقام، بل يظل على اتصال معها عن طريق الرسائل، بأسلوب مريح، ويقوم بالزيارات، وما يتجلّى في رواية «دوقة دي لانجيه» في صورة عاصفة وإعصار، وبرق ورعد ومأساة، ينهار في الحقيقة ببطء وهدوء، متحوّلاً إلى «علاقات مهذَّبة فاترة وانية». وبلزاك يكون دائمًا- ونقول هذا مع كل الاحترام- غير صادقٍ دائمًا عندما يصوِّر نفسه، ولما كان يتَّسم، من حيث كونه كاتبًا للروايات بأنه مبالغ، ومُصَعِّد بحكم المهنة، فهو يحاول أن يستخرج من لقاء، أقصى حدود الإمكانات، وسيكون، في الحقيقة، من قبيل العبث، أيضًا، أن يظل الخيال الذي ما يفتأ يبدع، فيه، فجأة، لامباليًا، عاجزًا، وغير منتجٍ حيال ظاهرات حياته الخاصة.

وإذًا فلا بُدَّ لمن يصوِّر بلزاك أن يصوِّره خلافًا لشهادته هو، ولا يجوز له أن ينبهِر بالتصريح الرهيب للأديب، وهو أن رفض كونتيسة له، وهي من قبيل ما يسمّونه في فرنسا «التُرَّهة» (la bagatelle) قد زرع البذرة الخاصة بآلام قلبه القاتلة، كما أكدَّ لأخته. وفي الحقيقة لم يكن بلزاك، في أي يوم من الأيام أَوْفَرَ صحة وعافية، وطاقة وهمّة، ونشاطًا، وأكثر إبداعًا، وأكثر تفتُّحًا للحياة مما كان عليه في هذه السنين. على أَن أعماله يشهدن على ذلك شهادة أفضل من كلامه ورسائله. وإن ما يبدعه في المجال الزمني المكوَّن من السنوات الثلاثة وحدها لخليق أن يكفي وحده ليكون عمل عُمْر، وليجعل منه فنّان عصره الأوَّل. غير أنه يبلغ من طاقته الهائلة وامتناعها على التحطُّم وجسارة جرأته، أنه ينظر إلى هذا كله نظرته إلى بداية وعمل تمهيدي لرسالته الحقيقية (وصّاف الأخلاق في القرن التاسع عشر historien des moeurs de 19 iéme siécle).

ومنذ خطواته الناجحة، في روايات: «الثائر الملكيّ، أو فيزيولوجيا الزواج»، و «جلد الحصان» وروايات ضاحية سان جيرمان الأَرَقّ عاطفة، يعرف

بلزاك أنه يمثل قوة، بل قوة عُظمى. لقد تعرَّف على قوته، وكان ما فاجأه أنه عرف أن الأدب موهبته الحقيقيّة، وأنه يستطيع أن يغزو العالم بقلمه، مثلما غزا نابليون العالم بسيفه، ولكن ما يعنيه مجرد النجاح ولو كان ما يبتغيه مجرد أن يكسب المال، كما يبدو عليه ذلك في بعض الأحيان، عندما يقرأ المرء رسالة، أي ليكسب مئات الألوف، والملايين، لكان عليه أن يقتصر على مجرد مواصلة تغذية جمهور القراء بهذا العلف الذي يروق له. وتظل النساء في كل أنحاء العالم مخلصات له، وكان من الممكن أن يغدو بطل الصالونات، ومعبود أولئك الذين خابت آمالهم، والأثير المفضَّل عند أولئك الذي ظلّوا وحدهم، منافساً ناجحاً لزميليَه الأكثر قناعة، ألكسندر دوماس، وأوجين سو. ولكن حين يتحقق وعي القوة يتوقَّد فيه طموح أعلى، وبغض النظر عن خطر خسارته للقراء الذين لا يرغبون إلاّ في ألوان التشويق الفظة والعواطف الرقيقة التي يستمرؤونها، يتجاسر، في هذه السنين على وجه الخصوص على مواصلة الابتعاد المطَّرد عن جمهور القراء، فهو يريد، وقد فوجئ هو نفسه بقوة التشويق في موهبته، أن يتعرَّف على حدوده هو، إنه يريد أن يعرف ما يستطيعه، وهو نفسه يشعر بالدهشة تتولاّه أثناء الإبداع، ويشعر بمدى حدوده، وبأن هذه الحدود تضم فيما بينها عالمًا بأسره.

وأعمال هذه السنين الممتدة من عام ١٨٣٢، إلى عام ١٨٣٦، تلفت النظر منذ الوهلة الأولى بتباينها. وما كان أحد ليظن، بادئ ذي بدء، أنَّ كاتب «لويس لامبير» و «سيرافيتا» يمكن أن يكون أيضاً ذلك الذي كتب «الأقاصيص الماجنة»، الأكثر استرخاءاً، والتي تكاد تكون فاحشة، ولا ليظنَّ أيضاً، أن هذه الأعمال كتبت بالفعل في وقت واحد، وأن بلزاك كتب بالفعل تصحيحات تجارب الطبع لرواية «لويس لامبير» وأيَّ قصة كانت من الأقاصيص الفكاهية، في يوم واحد. وهذا المجرد الإيضاح، ، بحكم كونه محاولة لاختبار نفسه، وكأنه يتمُّ لتوسيع المجال من أجل الإبداع اللاحق، ولكي يرى إلى أين يبلغ مدى طاقته في الارتفاع وإلى أين يصل في العمق، ومثلما يفعل المهندس قبل أن يختتم المخطط لمبنى مستقبلي إذ

يفحص الأبعاد أوّلاً، ويحْسُب مقدار ما يمكن أن يتحمَّله من التوتُّر، كذلك يقوم بلزاك بعمل حساب تقريبيّ لقواه، ويضع الأساس الذي يمكن أن يقوم عليه بنيان «الكوميديا الإنسانية» الربانيّة.

وفي البداية يختبر بلزاك يده في «الأقاصيص الماجنة». وهذه المهازل والأقاصيص المضحكة مع شيء من الفُحْش، المكتوبة بأسلوب رابليه، «بلغة فرنسية قديمة» يلفقّها بنفسه هي مجرد اصطناع لخرافات، وسَرْد، بل مجرد إعادة لِسَرْد. وفيها يهب لمزاجه ومجونه، مجالاً حراً طليقًا، ولا يلوح فيها أثر ضئيل من الإجهاد ولا تفكير ولا مراقبة، إذ يسود محض العبث بالخاطرة، وقد كتبت بخفة ورشاقة كاملة، وإن المرء ليحس باستمتاعه بهذه السهولة، وما يُعَدُّ فيه فرنسيًا، شعبيًا رُجوليًا، ينثال منه في شهوانية مرِحة، حرة، وهو يستمتع بأن يمسّ الرقابة من وراء طيلسان الراهب الذي ترتديه. وهنا يُفْسح آخر الأمر، ذات مرة، لطبعه، مساراً حراً طليقًا، وهذه الأقاصيص هي أفضل ما يتلاءم، من بين كل أعماله، مع الرجل البدين المكتنز، ذي الوجنتين الحمراوين والفم الشهواني. وهنا يكون ضحكه الذي يتردَّد في الصالونات بوَقع غير مهذَّب ولا مصقول، هذا الضحك الساحق المُرْعِد، مُقَطَّرًا بحيث يتحوَّل إلى شمبانيا. إنه بلزاك في الساعات التي يستخفه فيها مزاجه، ولَوْ أن الحياة لم تعامله بكل هذه القسوة، ولو أنها تركت له مزيداً من المجال للتنفُّس لكان بين أيدينا، بدلاً من العِشْرِيات الثلاثة، أقاصيصه المائة التي أعلن عنها لقرائه في النشرات.

وهذا هو الحد الأدنى، حَدُّ الاسترخاء الأقصى، والحرية وعدم الالتزام، والضريبة التي يؤديها إلى طبعه. غير أنه يلتمس نقطة التصعيد العليا لقوته في تلك الأعمال التي يسميها «أعماله الفلسفية». وذلك أن ثمة طموحًا يدفعه إلى أن يثبت أنه لا يكفيه «نجاح منديل الدموع» (succés de mouchoir)، على النحو الذي أحرزه بشخصياته النسائية ذوات العاطفة الرقيقة. ومنذ أن تعرَّف على نفسه ماعاد

يريد أن يدع الآخرين يسيؤون الحكم عليه، إنه يريد، بعد أن نضج وبات يشعر بقوته الشعور الكامل، أن يثبت أن كاتب روايات بمرتبته تقع على عاتقه مهمة الارتقاء بالرواية إلى مستوى الفن الرفيع، عن طريق معالجة أكثر مشكلات البشرية أهمية، من اجتماعية، وفلسفية ودينية، إنه يريد أن يضع، في مقابل البشر الذين يظلون داخل إطار المجتمع، ويمتثلون لقوانينه، وينسجمون مع مقاييسه، شخصيات تقف خارج إطار العقل المتوسط. وهو يريد أن يصوغ سِمة القيادة الحقيقية والمأساة الحقيقية عند كل أولئك الذين يجرؤون على الخروج من المحيط العام إلي العزلة، أو يحبسون أنفسهم بين جدران أربعة في سجن جنونٍ ما، على أن الحقبة التي يتكبَّد فيها بلزاك هزيمة في حياته، هو، هي في الوقت ذاته، حقبة جرأته وجسارته اللتين وصلتا إلى أقصى حدودهما.

وفي هذه الأعمال يتخذ بلزاك لنفسه مهمة تتمثل في التصدّي لمعالجة شؤون البشر الذين يحددّون لأنفسهم، بأنفسهم، أعلى المسائل، التي تستعصي على الحل في الحقيقة، ويتركّز توتّره الأعلى على البشر الذين يتحطمون من جراء فَرْط التوتّر عندهم، على العباقرة، على تلك الظاهرات التي تفقِد علاقتها بالواقع، وقد كان لويس لامبير يمثل أولى المحاولات في هذا المضمار: إنه الفيلسوف الذي يحاول أن يحل آخر مشكلات الحياة وينتهي في الجنون، وسوف يتردّد هذا الموضوع في كل الأشكال طوال حياته، مع شيء من التنويع، وسوف يرسم، في «العمل الأروع المجهول» (Chef- d'oeuvre inconnu) المصورِّ الذي يعمد، وقد أَلَحَّ عليه دافع الاكتمال، وفي غمرة جنون الوصول بالأمور إلى كمالها، إلى الإفراط في استكمال المكتمل، وإلى أن ينتهي الإجهاد الأقصى إلى ما يشبه إفناء المادة وتبديدها. أمّا موسيقاره، كمبارا فيتخطى حدود فنه، ولا يعود يسمع ضروب التناغم في موسيقاه إلاّ هو وحده، مثلما لايعود يفهم أفكار لويس لامبير إلاّ هو وحده، ولا يعود يرى رؤى فرينهوفر إلاّ هو. أما الكيميائي، كلْي، (Klaes) في «البحث عن المطلق» فيُدَمِّر نفسه وهو يبحث عن العنصر الأول، وهم جميعاً يبحثون عن الحد الأقصى، عن شخصيات إيكاروس (Ikarus) المحلِّقة في عالم الفكر.

وإلى جانب عبقريات الفن والعلم هذه يُصَوِّرُ في الوقت ذاته العبقرية الأخلاقية والدينية في «طبيب الريف» وفي «سيرافيتا». وهو يدين بالفضل على نحو غير مباشر، إلى دوقة كاستري بكتابه «طبيب الريف، وذلك أنه حُدِّث، في نزهة مشتركة إلى الكونتيسة داغول، عن طبيب، هو الدكتور روميل، الذي عَمَرَ شريطًا من الأرض ضائعًا بكيانه وعمله الإنسانيَّيْن، وربّى فئة من الفلاحين أوشك أن يحلَّ بها الخراب، لتعود إلى النشاط الفعال من جديد، وكانت هذه القصة، مع ارتباطها بروعة المنظر الطبيعي، تحدث أثراً شديداً في نفس بلزاك، ومع اقتران ذلك بالمشاهد التي تذكِّر بجان جاك روسو بدا كأن مطمحه الإصلاحي يتداخل مع هذا. وبينما يكون في أعماله الأخرى ناقداً للمجتمع فحسب، يريد هنا أن يعمل عملاً مثمراً، وأن يصمم خطة للكيفية التي يمكن بها حل المسألة الاجتماعية، وهو يريد أن يبيّن أنه يوجد أيضًا إبداع في المضمار الواقعي، وأن الإنسان العبقري بالفعل يستطيع أن يشكِّل من مادة البشر الهشَّة، السريعة العطب، عملاً أنموذجيًا يتخطى العصور، مثلما يشكِّل هذا من الألحان، أو الألوان أو الأفكار.

على أن ماهو أكثر جسارة أيضاً، محاولته التي تحمل عنوان «سيرافيتوس-سيرافيتا». فبينما لا ينسحب الدكتور بيناسيس من العالم، إلا لكي ينشئ عالمًا أفضل منه، يريد بلزاك أن يصف، في هذه الشخصية، إنسانًا ينتزع نفسه انتزاعًا كاملاً من كل ما هو أرضي، ويصعِّد الحب الفكري» إلى حَدٍّ تضيع عنده حتى علامات الانتماء إلى أحد الجنسين. على أن المفكِّر الواقعي الذي كان يحلُّ المشكلات العملية، ممثَّلاً في الدكتور بيناسيس بفيضٍ مدهش من المعارف، يُوَلِّي وجهه هنا صوب حلقات الأفكار الصوفية عند سويدنبورج.

ولم يحقق هذان العملان، وهما «طبيب الريف» و«سيرافيتا» النجاح بأعلى معانيه، ولم يكن الإخفاق، الذي كَدَّر بلزاك أيّما تكدير، بغير وجه حق، وذلك أنهما كُتِبا بقدر مفرط من الخفة والنَزق «وإنه لمن التصنُّع أن ينزع، وهو الإنسان

الواقعي، إلى أن يكون متديّنًا، ثم إنه لا يجوز للأعمال التي يفتَرَض أنها تأتي بالحل لمسائل خالدة، قبل كل شيء، أن تُكْتَب للصحف في تتمّات، لقاء سُلْفة. ولا تُعَدُّ روايتا «لويس لامبير» و «سيرافيتا» أعلى أعماله، بل هما أعلى جهوده، لقد فهم العبقرية ووصفها مثلما يفهم عبقريٌّ عبقريًا آخر فحسب، ولم ينجح في الأعمال التي يصورِّ فيها الفنان بحكم كونه، هو، فنانًا. وسوف تظل رواية «العمل الرائع المجهول» من أنقى روائع الأعمال، ولكن الفلسفة لا يمكن أن ترتبط بالعجلة، والتديُّن لا يمكن أن يقترن بنفاد الصبر وهذه الأعمال لا تكشف إلاّ عن التطوّر الباعث للدهشة، وعن المعرفة التي لم يُسْمَع بمثلها، وعن التعدد الكبير في جوانبه، وعن طاقة التوتُّر في فكره الذي كان ناضجًا لكل شيء، حتى وصل إلى الحد الأقصى، وهو المشكلة الدينية. لقد وصل بلزاك هنا إلى أعلى مراحله.

ويقف المُراقب في الموقع الوسط بين القصاص المحض وبين المفكرِّ- وذلك أن الواقع هو أرضه الحقيقية. وهكذا يجد بلزاك توازنه الكامل في الروايات التي يصبح فيها «مؤرخ عصره». أما نجاحه الكبير الأول فهو «العقيد شابير»، وسيكون نجاحه الثاني في هذه السنين «أوجيني غرانديه». لقد عثر على القانون الذي سيُهَيْمِن منذ الآن على عمله، ألا وهو تصوير الواقع، ولكن بديناميةٍ أقوى. وكان قبل ذلك يلتمس العنصر الروائي فيما هو رومانسي، أي في الأزياء التاريخية من ناحية، إذ كان يتطلَّب من الخيالي، ومن الصوفيّ خدمات المساعد، مثلما يحدث في «جلد الحصان» و «سيرافيتا»، و «لويس لامبير». غير أنه يكتشف الآن أن التاريخ المعاصر يتضمن، إذا ما قُرئ على الوجه الصحيح، ما يعْدل هذا في حدَّته، وأن المسألة لا تتعلَّق بالموضوع، أو الديكور، أو الستائر. بل بالدينامية الداخلية، وإذا تحقق النجاح في شحن البشر بما يكفي من التوتُّر توصَّل المرء إلى المفعول ذاته، وبطريقة أكثر صدقًا وأقرب إلى الطبيعة. على أن أشكال الحدّة ليست متضمنة في التلوين، ولا في الأسطورة، بل في البشر فحسب، دائمًا، وليس هناك مواد: فكل شيء

مـادّة، ولا يوجـد، تحت السـقف المنخـفض عند فـلاح العنب غـرانديه في رواية أوجـيني غـرانديه قَدَرٌ من إمكانيـة التـوتر أقل مما يوجـد في مـقـصـورة في زورق للقرصنة، و في رواية «امرأة في الثلاثين». وذلك أن الصغيرة أوجيني غرانديه، التي هي في حد ذاتها غير ذات شأن، وعلى جانب من السذاجة، تظهر، إذ ترمي، على مرأى من النظرة المُتَوَعِّدة من قبل أبيها البخيل، في قهوة ابن عمها الحبيب، قطعة أخرى من السكر، مثل الذي يَصْدُرُ عن نابليون من الجرأة، إذ يقتحم جسر لودي والراية في يده، كالعاصفة. أما البخيل الشيخ فيكشف، من خلال نزوعه إلى أن يخدع دائني أخيه، عن قدر من الحيلة والمكر، والمرونة، والصلابة، بل العبقرية مثل الذي يصدر عن تاليران في مؤتمرو ڤينا على وجه الدقة، وليس الجَوُّ هو الذي يفصل في الأمر، بل الدينامية. أمّا نُزُل العائلي، في رواية «الأب غوريو»، الذي يقعد فيه اثنا عشر طالبًا من الفتيان معًا، فيمكن أن يكون مركزاً للحِدَّة مثل هذا أيضًا، مثل مختبر لافوازييه أو حجرة الدراسة الخاصة بكوڤييه. وعلى هذا فالصياغة تعني الرؤية الصحيحة، والتركيز الصحيح والتصعيد الصحيح، واستخراج الحد الأقصى، وتعرية الهوى الجامح من خلال كل ما هو عاطفي جامح، وتمييز جانب الضعف في كل قوة، وإخراج القوى الهاجعة، وتعد «أوجيني غرانديه» الخطوة الأولى على هذا الطريق، فالتفاني عند الفتاة البسيطة، التقيَّة يبلغ من تصعيده أنه يوشك أن يتَّسم بالسِمة الدينية، والبخل عند الشيخ غرانديه يغدو شيطانيًا، »شأن إخلاص الخادم الدميمة. وفي رواية «الأب غوريو» يتحول حب الأطفال إلى جانب إبداعي، مثلما يتحوَّل إلى جنون أحادي (Monomanie)، وتتم رؤية كل إنسان على الوجه الصحيح، ويتم تمييزه من خلال سرّه، وليس على المرء إلا أن يدع هؤلاء يلعب أحدهم في مواجهة الآخر، وأن يمزج العوالم، وأن يدع الشرَّ يكون شراً، والخير يكون خيراً، وأن يتناول الجبن والمكر والدناءة، من دون أي توكيد أخلاقي، على أنها قُوى، والحِدَّة هي كل شيء، ومَنْ كان ينطوي عليها في نفسه، ومن كان يعرف كيف يميِّزها ويدركها فهو الأديب.

وفي هذه السنوات اكتشف بلزاك السرَّ الكبير. كل شيء مادة، والواقع منجم لا سبيل إلى استنفاده حين يعرف المرء كيف ينهل منه، ولا يحتاج المرء إلا التأمُّل الصحيح وكل إنسان يتحول إلى ممثل في «الكوميديا الإنسانية»، وليس هناك أعلى ولا أسفل، بل يستطيع المرء أن يختار كل شيء، ومن أراد أن يصف العالم فلا يجوز له أن يهمل جانبًا من جوانبه، ولا بدَّ من أن يكون كل رقم في نظام المراتب الاجتماعية مُمَثَّلاً، سواء في ذلك المصور أم المحامي والطبيب، وفلاح كروم العنب، وزوجة البواب، والجنرال، وحامل البندقية والكونتيسة والمومس الصغيرة في الشوارع، والسقّاء وموثّق العقود والمَصرفي. ذلك لأن كل هذه المجالات يتداخل بعضها في بعض، وكلها يتلامس، ولا بُدَّ، على النحو ذاته، أن تكون كل الشخصيات أو الخصال ممثَّلة، من الحريص على الشرف والمنزلة والحريص فحسب، والمتآمر، والشريف الصادق والمبذِّر، والجَشِع-، كل أنواع جنس الإنسان وكل أنواع عبثه. ولا يحتاج المرء إلا إلى أن يخترع أناسًا جُدُدًا دائمًا، إذ يستطيع، بالتصنيف الصحيح، أن يكرِّر الشخصيات ذاتها، أن يدع طبيبًا أو اثنين يقومان مقام كل الأطباء، ومصرفيًا يقوم مقام كل المصرفيين لكي يحشر هذا الاتساع الهائل في حيِّز عمل منفرد. ويزداد عند بلزاك، على نحو مطَّرِد، اتضاح الشعور، بأنه لا بدَّ له، لكي يهيمن على هذا الفيض، من أن يضع مخططًا، آخر الأمر، مخططًا للحياة، أو مخططًا للعمل، وأنه، لا يجوز له، وهو كاتب الروايات الحقيقي، أن يَرْصُفَ الأشياء بعضها إلى جانب بعض، بل يجب عليه أن يدع الأشياء يتداخل بعضها في بعض، أيْ أنه لابُدّ له أن يكون «والترسكوت + مهندس. ولا تكفي «لوحات تصوير الحياة الفردية»، فالمهم هو، العلاقات والملابسات على وجه الخصوص.

ومازال تصوُّر «الكوميديا الإنسانية» غير ممكن الرؤية تمامًا عند بلزاك، في مداه الكامل، وسوف يستغرق الأمر عَشَرَ سنين أخرى إلى أن يرى الخطة بوضوح، ولكن هذا بات من المستيقن لديه، وهو أنه لا يجوز، في صدد عمله، أن يوضع

الكتاب إلى جنب الكتاب الآخر، مَرْصوفين على مستوى أفقيّ، بل لا بُدَّ من أن تتدرج في درجات صاعدة. وفي ٢٦ تشرين الأول ١٨٣٤ يكتب، وهو مازال لا يعرف الأبعاد التي سوف يتخذها عمله الفعلي:

«في عام ١٨٣٨ ستكون الأقسام الثلاثة من العمل العملاق قد وصلت إلى مدى من الاكتمال يستطيع المرء معه، على الأقل، أن يميِّز البنيان وأن يكوِّن لنفسه حكمًا بصدد الكيفية التي تمّ بها تصوُّر المجموع».

«وينبغي، في «دراسات في الأخلاق»، تصوير آثار الأحوال الاجتماعية، وأنا أُزْمِع أن أصف كل أوضاع الحياة، وكل ضروب السيماء، والشخصيات، من رجال ونساء، وكل ضروب العيش، وكل المهن، وكل الطبقات الاجتماعية، وكل الأقاليم الفرنسية، والطفولة، والشيخوخة، والسن الأكثر نضجًا، والسياسة والحرب، ولا ينبغي أن يُنْسى شيء من هذا كله. وعندما يحدث هذا، ويتمُّ الكشف عن نسيج القلب البشري، خيطًا فخيطًا، وتصوير التاريخ الاجتماعي في كل فروعه، عند ذلك يكون قد تمَّ تأمين الأساس. وأنا لا أريد أن أصف أية أحداث متخيَّلة كانت، فإنّ ما يحدث بالفعل في كل مكان هو موضوعي. ثم تأتي الطبقة الثانية، وهي «الدراسات الفلسفية». وينبغي أن يُعْقِبَ تصوير الآثار وصف العلل. أما في «الدراسات الأخلاقية» فسأكون قد وصفت المشاعر وعَبَثها، والحَياة ونتائجها. وأمّا في «الدراسات الفلسفية» فسوف أتحدث عن أصل المشاعر وعن أسباب الحياة، وسوف أطرح سؤال: أهي القوى الفاعلة والشروط التي يستحيل من دونها وجود المجتمع وحياة الفرد؟ وبعد أن أكون عالجت موضوع المجتمع على هذا النحو سوف أُدَقِّق فيه تدقيقًا مقترنًا بالتوجيه. وفي الدراسات الأخلاقية، يتم عرض الأفراد من البشر، كلٌّ على حدة، في شخصية أنموذجية. وفي «الدراسات الفلسفية» يتم تصوير النماذج في صورة أفراد. وسأظل دائمًا أصف الحياة...

وأخيرًا تأتي، بعد الآثار والعلل، «الدراسات التحليلية» وسيتمثل جزء من هذه بكتاب «فيزيولوجيا الزواج»، ذلك لأنه لابُدَّ لنا، بعد الآثار والعِلَل، أن نبحث عن المبادئ. وذلك أن الأخلاق ترسم المسرحية، والعلل تشكل الكواليس

والآلات. أما المبادئ، أخيراً، فهذه هي المؤلف، ولكن على قَدْرِ ما يكتسب العمل من الارتقاء، كما يحدث في الخطوط الحلزونية، يضيق مجاله ويتكثَّف في الوقت ذاته، وإذا كنت أحتاج، من أجل «الدراسات الأخلاقية»، إلى أربعة وعشرين مجلَّداً، فسوف أحتاج، من أجل «الدراسات الفلسفية» إلي خمسة عشر مجلداً، ومن أجل الدراسات التحليلية إلى تسعة مجلدات أخرى فحسب. وبذلك سأصف الإنسان، والمجتمع، والبشرية، وأحكم على هؤلاء وأُحلّلُهم، من دون عمليات تكرار، في عمل واحد يفترض أن يكون «ألف ليلة وليلة» الغرب. وعندما يكتمل هذا كله... ، وعندما أكون قد أنجزت اللمسة الأخيرة بقلمي-، عند ذلك إما أن أكون على حق وإمّا أن أكون على غير حق، ولكن بعد هذا العمل المكثَّف، وبعد هذا العرض لمنظومة كاملة، سوف أتجه نحو العلم، وأكتب محاولة في القوى التي تحرك الإنسان». وعلى أرضية هذا القصر سأكون قد رسمت، في عبَث طفولي فكاهيّ، الزخرفة العربية الهائلة (Arabeske) المتمثلة في «الأقاصيص المائة المضحكة»!

ويصيح قائلاً وقد أخذته الحماسة والفزع من العمل الذي ينتظره:

«هذا عملي، وهو الهاوية، وفوهة البركان التي تقع أمامي، وهذا هو العمل الذي أريد أن أصوغه على أن معرفة بلزاك هذه، أن ثمة عمل عُمْر ينتظره، تحدد منذ الآن فصاعداً، حياة بلزاك. وهو يبدع، مُنْطَلِقًا من الشعور بقوته الخاصة، وبضخامة المهمة، وهو الذي كان يحس بنفسه قبلَ عام أو عامين بعدُ، أنه مبتدئ، ويُحسُّ ثقة بنفسه فولاذية ما عاد يمكن أن يزعزعها شيء. وفي أيلول ١٨٣٣ يكتب قائلاً:

«سوف أُهَيْمن على الحياة الفكرية الأوروبية! وما هو إلاّ عامان من الصبر والعمل وبعدها سوف أخطو فوق رؤوس كل أولئك الذين أرادوا أن يغلّوا يَدَيَّ، وأن يحولوا دون ارتقائي! لقد أصبحت جرأتي قاسية قسوة الفولاذ من جراء عمليات الاضطهاد وضروب الظلم.

فهو يعرف أن أمامه عملاً، وأن وراء جمهوراً، وهكذا عقد العزم على أن لا يتَّفق مع أحدٍ مِنْ بَعْدُ، وأن لا يتكيَّف مِنْ بَعْدُ مع رغبة الناشرين والصحف. وما عاد للمزعجات والمنغِّصات المتفرِّقة سلطان عليه مِنْ بَعْدُ، فهو يملي على الناشرين شروطه ويستبدل ناشراً بآخر بمجرد أن يعود هذا لا يستجيب كل الاستجابة لرغائبه ومطاليبه، وهو ينهي تبعيَّته لأقوى مجلات باريس حين تستبيح لنفسها الإقدام على أشكال من تجاوز حدود اللياقة، حتى في أوقات المصاعب المالية المريرة إلى أقصى الحدود، ويُوَلِّي ظهره بازدراء للصحفيين الذين يعتقدون أنهم يسيطرون على الرأي العام. ولئن قَدَحوا في العَمَل المُفْرَد فما أشدَّ عجزهم عن أن يحولوا دون إخراج العمل الحقيقي، الشامل، الذي يراه أمامه، في أبعاد تزداد جرأة على نحو مطَّرِد. ولْيُهاجموه، وليسخروا منه، وليتهكَّموا عليه (بمفردات وجيزة يدسّونها هنا وهناك)، وليحاولوا أن يجعلوا منه امرءاً يبعث على الضحك، بالنوادر الخبيثة: وليشحذوا أَسِنَّة الرسوم الكاريكاتورية حوله في صفحات المجلات، فإن انتقامه سيكون انتقاماً إبداعياً، ولسوف يرسم هؤلاء الرهطَ، وهو في سلطانه، وفي عجزه، في الوقت ذاته، في رواياته، ولسوف يرسم، على جدار القرن، في «الأوهام المفقودة»، الفساد المنهجي في الرأي العام، والمتاجرة في البورصة بسمعة الناس، وبالقيم الفكرية، في كتابة لا يَخْمَدُ أوارها، ولْيُبادِرِ الدائنون إليه فينهالوا عليه بالكمبيالات والدعاوى، ولْيَرْهَنوا أثاثه- فإنهم لا يستطيعون أن يأخذوا حجراً، ولا حفنة من تراب، من العالم الذي سوف يشيده. وما مِنْ شيء يستطيع بعدُ أن يَهُزَّه، منذ أن باتت الخطة موجودة، ومعها الطاقة من أجل عمل يعرف عنه أنه هو الوحيد الذي تجاسر على تصميمه، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يتمكَّن منه.

الكتاب الثالث

روايـــة الحيـــاة

الفصـــل الحادي عشر

المجهولـــة

والمهمة التي يراها بلزاك الآن، أخيراً، واضحة أمامه، مهمة هائلة، وبلزاك لا يخدع نفسه في صدد مداها، أو بالأحرى، في صدد المدى الهائل الذي سيكون ضرورياً، «ليتبوأ ذروة سنام الأدب الأوروبي، أيْ المكان الذي كان يتبوآه حتى الآن، بايرون، و والترسكوت، وغوته، وهو فمن».

وبموجب حسابه وتقديره لابُدَّ له أن يبلغ، على الأقل، سن الستين، وخلال هذه السنوات التي تبلغ الثلاثين تقريباً، والتي يستقبلها بين يديه، لا يجوز له أن يكون متعطّلاً عاماً واحداً، ولا شهراً، ولا أسبوعاً، ولا يوماً في الحقيقة، وسوف يضطر إلى تزجية الليالي بعد الليالي على منضدة الكتابة، وإلى كتابة الورقة تِلْوَ الورقة، والمجلَّد بعد المجلد، ولن يتبقى هناك مجال لِلَّهوِ والمتعة أو للراحة، وحتى عندما تكون الديون قد سُدِّدت أخيراً، وأخذت تتدفَّق مئات الألوف التي كان يتوق إليها، لن يتبقى هناك وقت للاستمتاع بها. فبلزاك يعرف الثمن الذي تقتضيه مثل هذه المهمة، من التخليّ، وهو يعرف أنه سيكون عليه أن يعبِّئ دماغه، ونومه، وطاقاته، ومجمل حياته، غير أنه لا يساوره خوف، لأن العمل هو في الوقت نفسه متعته، وفي هذا البَذْل المتواصل للطاقة فحسب يصبح واعياً لحيويته، وَعْياً مقترناً بالاستمتاع، ولكن لكي يستطيع أن يكسب هذا النضال يحتاج إلى شيء واحد آخر، وهو فُسْحة من الأمان تحت قدميه. ويزداد عند بلزاك، على نحو مطرد، سُعار الرغبة، ونفاد الصبر، والتلهُّف على حقائق الحياة البدائية الأولى. أن تكون

له امـرأة، وأن يملك منزلاً، وأن لا تبْهَظَه مِنْ بَعْدُ مطاليب الدم، وأن لا تلاحـقـه الديون، وأن لا يضطر من بعـد إلى أن يناضل الناشرين، وأن لا يستـجـدي سُلَفًا، وأن لا يضطـر إلى أن يبيع مالـم يـكتب بعد، وأن لا يضطر إلى أن يعيش في سرعة أبديّـة، ويكون مُـطارِدًا، وأن لا يبدِّد أكثـر من ثـلـث طاقـته الفكريـــة في الحيل والمراوغـات التي يدافع بها المرء منفِّذي الأحكام القضائية، بل يستخدم كل طاقته في هذا:

«المَعْلَم الذي سيدوم بجسامته والتكدُّس الهائل للمادة، أكثر مما سيدوم من جراء جمال أشكال بنائه».

ولابُدَّ أن تخف حدة توتُّره فيما يتعلق بمظاهر حياته الخارجية، لكي يُركِّز كل التوتُّر على العمل وأن يعيش غيرَ مُعَقَّد في العالم الواقعي، لكي يستطيع أن يعيش في عـالمه الخـاص، الإبداعي من دون أن يكدرُ صـفـوه مكدرٌ، ولكي ينجح في أداء مـهمته لابُدَّ لرغبته القديمة أن تتحقق آخر الأمر: «امرأة وثروة» (Une femme et une fortune)»

وكيف السبيل إلى العثور على هذه المرأة التي يفترض أن تُدْخِل في حياته كل شيء، من تهدئة ثائرة الشهوة، وتسوية الديون، وحـماية العـمل، وإشباع النزعة إلي الظهـور بمظهـرالنبـالة عن طريق الأصل الأرستـقـراطي والسلوك الذي يبـهـر الأبصار، وهي النزعة التي لا سبيل إلى الشفاء منها. وكيف يمكن العثور عليها ما دام لا يتوافر لديه الوقت للبحث عنها وهو الذي يعمل ست عشرة ساعة في اليوم؟ ثم إن بلزاك أكثر فطنة وحدة ذكاء من أن لا يعلم بمقدار تخلُّفه الباعث للتعاسة، في الصالونات عن أرباب الأناقة المحترفين، من جراء مظهره العاديّ المبتذل البعيد عن الرِقّة والتهذيب. أما الآنسة دي تروميللي فقد أعطته جوابًا رافضًا، وأمّا المغامرة مع دوقة كاستري فقد علَّمته أنه حتى حشد كل العواصف الجامحة لا يمكن أن يجعله مُغْوِيًا. وهو بعدُ، في شطرٍ منه أكثر زُهُوًّا بنفسه، وفي شطره الآخر أكثر وَجَلاً من

أن يبدِّد وقته، الذي لا يُعوَّض في عمليات خِطْبة طويلة الأمد. ومن تُراه يفترض أن يبحث عن امرأة من أجله إذا لم يبحث هو نفسه؟ أما الصديقة الطيبة الأولى، مدام دي بيرني، فليست، على الرغم من سنينها البالغة أربعًا وخمسين، بالراغبة في أن تختار خليفة تَخلُفُها، وأما الأخرى، الممتازة لديه، وهي زُلْما كارّو- فأنى لها أن تستكشف له، في محيطها البائس، الريفيّ، المليونيرة، والأرستقراطية؟ لقد كان لابُدَّ أن تحدث معجزة. فالمرأة التي يحلم بها، لابدّ أن تكون في صدد البحث عنه، هو الذي لا يتوفر لديه الوقت، ولا الجرأة، ولا الفرصة، لكي يبحث هنا وهناك، ببصره.

وليس هذا بالأمر المتوقَّع، بموجب قوانين المنطق، ولكن في حياة بلزاك يصبح الأمر غير الراجح، على وجه الخصوص، حقيقة واقعة دائمًا. وذلك أن النساء يتوجَّهْن إلى بلزاك من دون أن يعرفنه معرفة شخصية، أو ربما، على وجه الخصوص. لأنهن لا يعرفن شخصه، وكل ماهناك أنهن يُكَوِّنَّ تصوُّرات مفرطة في الحماسة والاندفاع عن «أديبهن» في إطار رومانسي. وما تفتأ تَرِدُ رسائل من نساء، بل من القارئات اللواتي يكتبن إلى بلزاك، إذ يستبدُّ بهن الفضول، وهُنَّ في بعض الأحيان أيضًا شخصيات مولعة بالمغامرة. ولم تكن دوقة كاستري الوحيدة من معارف بلزاك التي يدين بها بلزاك لساعي البريد. فهناك سلسلة من الصديقات الرقيقات اللواتي لا نعرف عنهن، في أغلب الأحيان إلا الأسماء الأولى، مثل لويزا، أوكلير، أو ماري، وهن اللواتي أعقبن آخر الأمر الرسائل التي كانت في البداية تَرِد إلى بيته غُفْلاً، بأسماء مُرْسليها. على أن واحدةً منهن خرجت من ذلك بطفل غير شرعيّ، ولكن أوَلا يمكن لحب حقيقي أن يتَّخِذ بدايته، على هذا النحو ذات مرة، بدلاً من مجرد العلاقات الغرامية؟ من أجلِ ذلك يقرأ بلزاك، بعناية خاصة، رسائل النساء، فهي تدعم شعوره بمقدار ما يمكن أن يكونه في نظر امرأة، وحيثما تلامس مجرد نَبْرة، أو سطر، فضوله السيكولوجي، يجيب، وهو الذي

يكتب حتى إلى أهمّ معاصريه، بالطريقة السطحية العابرة إلى أقصى الحدود، فحسب، إجابة مفصَّلة. وبالقياس إلى الرجل الذي قيَّد نفسه بالسلاسل إلى منصة الكتابة، والذي تَصدُّ عن ناظريه الستائرُ المُسْدَلَة في حجرة العمل إطلالَه على المدينة، وعلى العالم، يكون ورود رسالة، على الدوام، كأنما تهبُّ نفحة من عبير رَخيٍّ باعثٍ للاسترخاء، في الحجرة. ومع هذه الرسائل، يشعر شعوراً أكثر حسيَّةً من شعوره في حالة ورودها من النقّاد، والتقديرات العمومية، أن ثمة ذبذبة تنبعث منه تعدُّ أكثر العناصر رِقَّة في العالم، على وجه الخصوص، أي النساء، الأكثر استقبالاً لها على وجه الإطلاق.

وفي بعض الأحيان، حين يُلِحُّ عليه العمل، يطرح بلزاك هذه الرسائل جانبًا. وهكذا تبقى أول الأمر الواردة من روسيا، وهي الرسالة المختومة بشعار: من الآلهة المجهولة، والموقّعة بالكلمة الحافلة بالأسرار، «الغريبة»- وقد وصلت في يوم الثامن والعشرين من شباط عام ١٨٣٢، وهو اليوم المشؤوم الذي تلقّى فيه بلزاك من دوقة كاستري أوَّل مرة، طلبًا يتعلَّق بزيارتها في ضاحية سان جيرمان. ولكن هذه الرسالة ستقرر مصير بلزاك بعد ذلك على مدى حياته بأكملها.

وما كان بلزاك نفسه ليستطيع أن يجد، من أجل رواية حب رومانسية بداية أكثر اتساماً بالسمة الكوميدية، ولا أكثر طرافة وغرابة من القصة التي مَهَّدت لهذه الرسالة. أمّا الموقف الظاهِري، الخارجي فهو: قصر في ڤولهينيا، وهو واحد من تلك المنازل الريفية الخاصة بالنبلاء، ذات الامتداد العريض التي يزداد تأثيرها في النفس بكونها تنتصب وحيدة في الخلاء، فما من مدينة بالقرب منه، ولا قرية بالمعنى الصحيح، وإنما هي مجرد الأكواخ المنخفضة التي تتخذ أسقفها من القش، وهي أكواخ الأقنان، ومن حوله حقول، هي الحقول الخصيبة، العملاقة في أوكرانيا الخصيبة، والغابات التي لا نهاية لها، على قدر مدى النظر. وكل هذا يعود للبارون الثَّري، البولوني- الروسيّ ڤينسيسلاف فون هانسكي.

وكان قصر الأسياد في وسط هذا الفقر العبودي مجهزًا بكل الترف الأوروبي، ففيه صور نفيسة، ومكتبة غنية، وسجاجيد شرقية، وأدوات مائدة انكليزية من الفضة، وأثاث فرنسي، وخزف صيني، وكانت العربات والزحّافات والخيل في الحظائر في انتظار الرحلات وركوب الخيل في الخلاء، على أهبة الاستعداد. غير أن كل جيش الأقنان، والخدم والأُجَراء، والقائمين على الحظائر، والطبّاخين، والمربيّات، لا يستطيع أن يحمي السيدفون هانسكي، وزوجته إيڤلينا، من العدو الأشَدِّ بأسًا، وهو الملل في هذه البقعة النائية، ولم يكن السيد فون هانسكي، الذي يبلغ من العمر نحو خمسين عامًاولا يتمتع بالصحة الكاملة، على النقيض من جيرانه، صيّادًا جامحًا، ولا مقامرًا مهووسًا، ولا مدمن خمر منغمسًا في الشهوات، ولم تكن إدارةأملاكه تشغله كثيرًا، إذ لم يكن يعرف على أية حال ما عساه يفعل بالملايين الموروثة. ولم يكن في وسع آلاف «النفوس» التي يملكها، أن تهب لنفسه الباردة مَرَحًا واستبشارًا بالمعنى الصحيح للكلمة، وكانت الزوجة إلى جانبه تعاني ماهو أكثر من ذلك، وهي التي كانت، في سالف الأيام باسم الكونتيسة رزيڤوسكا الجميلة، تعاني من العزلة الكاملة عن كل حافز، ومن المنع من كل تواصل فكري. وقد تحوّل حديثها الثقافي للتسلية إلى حاجة بتأثير بيت والديها، وهو من أكثر بيوت النبلاء البولونيين نبالة، فهي تتحدث الفرنسية، والانكليزية، والألمانية، ولها ميول أدبية، واهتماماتها موجهة إلى عالم الغرب، أي إلى عالم بعيد كل البعد.

ولكن لايوجد، في طول فيرتسخوفنيا وعرضها، إنسان من أجل الحَفْزِ الفكري والمعاشرة الودّية، إذ كان جيران الأراضي من الأجراء غير أولي الفكر والتحضُّر، ثم إن كلتا القريبتين الفقيرتين اللتين اتخذت منهما السيدة فون هانسكا نديمتين في المنزل، وهما: سيڤيرين ودينيس ڤيليسينسكا لا تعرفان إلاّ القليل من الجديد الذي يُرْوى. وكان القصر البالغ الضخامة، الذي تكتنفه العزلة، يقع على

مسيرة ستة شهور في الثلج الأبيض، ولم يكن يأتي ضيف. وفي الربيع يرتحل القوم مرة إلى حفلة راقصة في كييف، وربما ارتحلوا مرة كل ثلاثة أعوام أو أربعة، إلى موسكو أو بطرسبورغ، وفيما عدا هذا كان اليوم ينقضي فارغًا مثل الآخر، وكان الزمن ينقضي وهو يزداد عبثًا ويزداد امتناعًا على الاستعادة، على نحو مُطَّرِد، وقد ولدت إيفافون هانسكا لزوجها، الذي كان يكبرها بنحو خمس وعشرين سنة أو أكثر، خلال أحد عشر عامًا، أو اثني عشر عامًا، سبعة، وفي رواية أخرى خمسة من الأولاد، وماتوا جميعًا إلاّ واحدًا، هو بنت بقيت لها، ولن تقدر على أن تهب للزوج الذي دخل طور الشيخوخة في وقت مبكر، ولدًا جديدًا أيضًا. وكانت هي ذاتها، وهي بعدُ في الثلاثين، امرأة فخمة، مُشْتهاة، ولم يكن أصابها إلاّ قدر يسير من البدانة، غير أنها سرْعان ما تعتريها الشيخوخة، وتنقضي حياتها، من دون أن تعرف من الحياة شيئًا.

ومثلما كان الثلج يمتد في الخارج، في الشتاء، وتمتد الحقول في الصيف، كان الملل ينتشر في هذا المنزل، وكان الحدث الوحيد في الأسبوع هو البريد، ومازالت الخطوط الحديدية غير موجودة وكانت الحمولة الباهظة يؤتى بها بالزحافة أو العربة، مرة كل ثمانية أيام من برديتشيف، من «الغرب الأسطوري، ولكن يا لها من أيام، آنذاك! وكان آل هانسكي، بحكم كونهم أغنياء، يشتركون في الصحف الأجنبيّة، مادامت تسمح بها الرقابة الروسية، ولا سيما الجريدة الباريسية المحافظة (Quotidienne)، وما كان يوجد في فرنسا من مجلات أدبية. وفضلاً عن ذلك يبعث إليه تاجر الكتب، في أوقات منتظمة، بكل المنشورات الحديثة ذات الأهمية. وكان بُعْد المسافة يظل الآن دائمًا يرفع مضمون الأحداث، فكانت الصحف ذاتها التي تمر بها باريس مروراً عابراً، ولاتلقى إليها بالاً، تُقْرَأُ هنا. في النهاية القصوى، من أوَّل كلمة إلى آخر كلمة بانتباه واهتمام، كما يُقْرأ كل كتاب. ولم تكن ثمة صحيفة باريسية تُنْتَقَد فيها المنشورات الجديدة بتفصيل يماثل مايحدث هنا في محيط العائلة البالغ الضيق. وفي المساء تقعد مدام دي هانسكا مع ابنتي حميها ومع

هنرييت بوريل، أخت مربية ابنتها معًا، ويتبادلن الأفكار حول: المطالعة الأخيرة. وفي بعض الأحيان- وليس في الكثير منها- يشارك أيضًا، السيد فون هانسكي في الحديث، أو أخو السيدة فون هانسكا، آدم رز يفوسكي، حين يحل ضيفًا على وجه الخصوص، ويناقشون المحاسن والمساوئ، وكلُّ حدث ضئيل، غير ذي أهمية في مدينة باريس الأسطورية البعيدة يتمُّ تصعيده ليصل إلى درجة الشأن الذي تشتد الحماسة حوله. وكانوا يتحدثون عن الممثلين، وعن الأدباء، والسياسيين، ويحلمون بهم كما يفعلون تجاه كائنات إلهية لا سبيل إلى الوصول إليها. ففي هذا القصر المنعزل هنا ليس المجد مجرد نَفَس يرسله المرء بل انعكاس بريق شيء إلهي، وهنا يذكر اسم الأديب من الأدباء بخشوع فيّاض.

وفي أمسية من هذه الأماسيِّ الشتائية الطويلة، في عام ١٨٣١، يدور النقاش حاميَ الوطيس على وجه الخصوص، ويتنازع القوم في كاتب باريسيّ جديد، يقال له هونوريه دي بلزاك، يأخذ على الناس جميعًا أنفاسهم منذ عام، وإذا النساء على وجه الخصوص متحمسات، وإذا هن يشعرن بالمرارة في الوقت ذاته، فياله من كتاب رائع، ذاك الذي يحمل عنوان: «مشاهد من الحياة الخاصة- Sc`enes de la vie privée» فلم يسبق قطُّ لأديب أن عرف نفس المرأة بمثل هذا القَدْر من العمق. وياله من شعور بالقياس إلى النساء المهجورات، والمتكدرات، والمنبوذات، ويالها من رَوِيَّة مُؤَثِّرة حيال الأخطاء ومواطن الضعف! ولكن هل يمكن فهمُ أنَّ هذا الرجل الذي يبلغ هذا القدر من إرهاف الحس، والتعاطف، هو في الوقت ذاته ذلك الذي استطاع أن يكتب «فيزيولوجيا الزواج» هذا الكتاب البارد الساخر والفظيع؟ وكيف يستطيع عبقري أن يمتهن كرامة نفسه إلى هذا الحد، وكيف يستطيع رجل يعرف كيف يفهم النساء ويدافع عنهن، أن يتهكَّم عليهن ويمتهن كرامتهن إلى هذا الحد؟ ثم تأتي الآن هذه الرواية الجديدة «جلد الحصان»! إنها لرائعة، ما في ذلك شك، ولكن كيف يستطيع بطل هذا الكتاب، هذا الأديب الشاب الجدير بالمحبة، والذي

تحبه فتاة نبيلة مثل بولين، أن يهجرها من أجل غانية باردة، بالمظهر، وكيف بستطيع أن يكون تابعًا مسلوب الإرادة، إلى هذا الحد لإمرأة جديرة بالازدراء، مثل الكونتيسة فيدرا؟ كلاّ، إن عبقريًا مثل هذا السيد دي بلزاك كان ينبغي له أن يتصورّ النساء في صورة أفضل من هذه، وكان ينبغي له أنْ لا يحلل إلاّ النفوس النبيلة، ولا يسيء استخدام موهبته في وصف أمثال هؤلاء الكونتيسات، أو حتى المهرجان المُطْلَق العنان، فوا أسفًا عليه، إذ لا يظل وفيًا لذاته الأفضل! ويلاه، لقد كان ينبغي لامرئٍ ما أن يبدي له هذا الرأي بدقة وعناية!

ونقترح إحداهن في هذه الحلقة قائلة: «وما لنا لا نفعل هذا بأنفسنا؟ فلنكتب إلى السيد دي بلزاك! وينتاب السيدات الفزع أو يتضاحكن، قائلات: هذا غير ممكن، وما عسى أن يقول السيد فون هانسكي إذا ما كتبت زوجته، إيڤيلينا فون هانسكا، المولودة باسم رزيفوسكا، رسائل إلى سيد غريب مجهول كل الجهل؟ ولا يجوز للمرء، بلا ريب، أن ينتقص من اسمه، إذ يفترض أن يكون ذلك المدعو السيد هونوريه دي بلزاك مازال شابًا إلى حد بعيد، ومَنْ كانت لديه سمة الاستهتار التي تحمله على أن يكتب كتابًا في «فيزيولوجيا الزواج» فليس بالذي يوثق به على الوجه الصحيح، ومن يدري كيف يتعامل مثل هذا الباريسي مع مثل هذه الرسالة! وكل هذه التكهنات والمخاوف لا تزيد المغامرة إلاّ ظُرْفًا وإثارة، وأخيرًا يقررن أن يبعثن معًا برسالة إلى السيد هونوريه دي بلزاك في باريس، وما لَهن لا يُرْبكن هذا السيد الحافل بالأسرار الذي يؤلّه النساء حينًا ويهزأ بهن حينًا آخر، نفسَه ذات مرة؟ وعلى هذا فسوف يُحَضِّرن، معًا، رسالة جدّ رومانسية، وجدّ وجدانية، ورهيبة منبرية، ومُحَلاّة أيَّما تحلية بالإعجاب، كلعبة ألغاز المقاطع الصوتية، يفترض أن يُضْنِيَ نفسه بها تمامًا. وكان من البَدَهي أن السيدة فون هانسكالن توقِّع عليها، بل لن تكتبها بخط يدها، بل يُفترض أن يُنْسَخ النص من قبل أخيها أو من قبل الآنسة بوريل، المربية، وسوف يختمون الرسالة بخاتم نُقِشَت عليه عبارة «من الآلهة

المجهولة»، وذلك لكي يجعلن السرَّ أكثر سرِّية وجاذبية بالقياس إلى السيد دي بلزاك، ليعلم أنه موضع التقدير والتبجيل، ويتمَّ تذكيره بذاته الحقيقية، ولا يعلم أن هذا مُرْسَل، مثلاً، من قبل امرأة من أهل الأرض، متزوجة زواجاً أرضياً جداً، هي مدام دي هانسكا.

ومن المؤسف أن هذه الرسالة لم تبق محفوظة لنا. ونحن لا نستطيع إلاّ أن نكوِّن لأنفسنا سوى صورة تقريبية عن مضمونها بموجب التشابة الجزئي بينهاوبين مضمونٍ لاحق أَفْلَتَ مما يسمى بفعل الإيمان (*) الكبير، الذي يرجع، على النحو ذاته، إلى ذلك العصر حيث قامت مدام دي هانسكا بوضع رسائل الغريبة باشتراك هزليّ مع رهط مأدبتها، وأوعزت بأن تنسخها على الورق المربية، الآنسة بوريل. وحين اكتسبت المسألة صفة الجدّية في موضوع المراسلة، لم تُضِفْ مدام دي هانسكا، بلا ريب، بعد ذلك، جُمَلاً، مثل:

«وفي اللحظة الراهنة، إذ قرأت أعمالك، رأيت نفسي في نفسك، بعبقريتك وكانت نفسك تنتصب جلية مضيئة أمامي، فتابعتك خطوة فخطوة»

أو:

«إن عبقريتك لتبدو لي سامية جليلة، ولكن كان ينبغي أن تصبح إلهية»

«ها أنتذا تحيط بكياني كله من خلال كلماتٍ قلائل، وإني لَمُعْجَبَة بموهبتك، و أُجِلُّ نفسك، وأودُّ لو أكون لك أختاً»

وفي إطار طراز هذه اللهجة، حيث يحسُّ المرء عند كل كلمة، بمدى حرارة رهط المأدبة اللواتي كن يصفقن لكل عبارة طنّانة يُوَفَّقن إليها، من الجائز أن تكون وردت أيضاً تلك الرسالة الأولى المجهولة، وربما وُفِّقَت تلك التي تلتهب تبجيلاً، على البُعْد، هناك، إلى صياغة الجانب الخفي على نحو أكثر جاذبيّة بعدُ. ذلك لأن هذا المزيج المركَّب من الإعجاب الصادق، والإرباك والتعمية، والمزاح، حين

(*) هو العبارة التي تقال في الاحتفال المرافق لإصدار الحكم بالموت من قبل محكمة التفتيش على متَّهم.

يصل، بعد طرق ملتوية شتى، في ٢٦ شباط ١٨٣٢، عن طريق الناشر جوسلان، إلى بلزاك، يحقق، على نحو كامل، رغبته في إثارة بلزاك والاستحواذ عليه وفتْنَتِه، وفي العادة لم تكن الرسائل الحماسية المكتوبة بخط نسائي جميل تمثل حدثاً بالقياس إليه، غير أنها كانت تأتي، على أية حال، من محيط الحياة الأقرب، من باريس، وعلى كل الأحوال من الريف. وكانت الرسالة التي تأتي من أوكرانيا، بالقياس إلى كاتب في تلك الأيام، في حد ذاتها، واقعةً أكثر إثارة للدهشة، بكثير، من رسالة تصل في هذه الأيام من بولينيزيا، ومن خلال هذا البعد الذي لا يُسْبَر غوره، يحسُّ بلزاك، وهو مزهوٌّ، باتساع نطاق جناحَيْ مجده الناشئ. ولمّا كان محاطًا بجدران صومعته الأربعة فقد كان، حتى الآن، لا يعي بوضوح أن العالم الخارجي قد بدأ يُشْغَل به، وهو لايُقَدِّر، ولو على أبعد تقدير، أنه غوته نفسه، وهو الشيخ الأسطوري، يتناقش في ڤايمار مع إيكر مَنْ، حول «جلد الحصان»، وبحركة واحدة تردُّهُ الآن هذه الرسالة الحماسية إلى وعيه، إنه يتوغَّل الآن، بهذا العمل حتى في المملكة التي لم يكن بُدٌّ لمنافسه، نابليون، أن يتقهقر عنها مهزومًا، وأنه بدأ يسبقه، وأخذ يؤسس امبراطورية أكثر ديمومة من معبوده ثم إنه يحسّ، مثلما أحسَّ على وجه الدقة في حالة رسالة دوقة كاستري، بجوّ الارستقراطية الذي يُسكِره. هذه لا يمكن أن تكون مربية صغيرة، أو فتاة بسيطة من الطبقة الوسطى، فالأرستقراطيون أولو المقام الرفيع تمامًا في روسياهم وحدهم الذين يستطيعون أن يكتبوا مثل هذه الفرنسية المكتملة، الأسر الثرية كل الثراء هي وحدها التي تستطيع أن تتحمل ترف استحضار كل المنشورات الجرارة بصورة منتظمة من باريس في تلك الأيام كانت رسوم البريد فيها باهضة. وعلى الفور يأخذ خيال بلزاك المستعد للقفز أبدًا، في العمل المفرط. لا بد أن تكون شابة، إمرأة

شابة، وهي امرأة جميلة بلا ريب؟ امرأة نبيلة، كلا، بل من كبار النبلاء! وبعد ساعة يغدو اقتناعه كاملاً، بأن المجهولة» ليست كونتيسة، مثلاً بل أميرة، وفي تَرَنُّحه الأول يتحدث إلى أصدقائه الآخرين على الفور عن «الرسالة المقدسة للأميرة الروسية أو البولونية، ويعرضها على زُلْما كارّو، وعلى بعض الآخرين، أيضًا، بلا ريب.

ولم يبق بلزاك، قطُّ، مديناً للأميرات بجواب، فقد كان خليقاً، بلاريب، أن يجيبها لدى أول دافع، غير أن «المجهولة» التي ستؤكد له بعد ذلك، بوقت بعيد، قائلة:

«أنا، بالقياس إليك، «المجهولة»، وسأظل كذلك طوال حياتي، ولن تعلم أبدًا من أنا» لم يُبَيِّنَّ لها اسم، ولا رمز سرّي، ولا عنوان. فكيف يشكر لها إذًا؟ وكيف يظل على اتصال معها، وكيف يتصل بالمعجبة البعيدة؟ وبحذق كاتب الروايات الذي لا يُستغنى عنه بلا ريب يبتدع بلزاك مخرجًا على الفور. وذلك أن الطبعة الجديدة، المزيدة لكتاب «مشاهد من الحياة الخاصة» كانت قيد التنضيد، وكانت إحدى القصص الجديدة، وهي «التفكير» لم يجرْ إهداؤها إلى أحد بعد، وهكذا يبعث إلى المطبعة، ويوعز بنسخ خاتم «من الآلهة المجهولة» نسخة طبق الأصل، وهو خاتم تلك الرسالة، ويضع تحتها تاريخ ٢٨ شباط ١٨٣٢، وهو اليوم الذي وصلت فيه رسالة المجهولة إلى يده. وعندما تبادر المعجبة الآن إلى فتح المجلد الجديد الذي لا ريب في أنها تتلقاه من تاجر الكتب الذي تتعامل معه، سوف تدرك مدى إرهاف الشعوروالترويّ اللذين يقدر بهما أديب على تقديم شكره لنبيلة مجهولة، وأنه يردُّ على ألوان الولاء الأميري بأسلوب أميريّ.

ويكون من سوء الحظ أنَّ الرفيقة القديمة في سنواته التي لا مجد فيها، وهي مدام دي بيرني كانت تشارك من باب الصداقة، في قراءة تجارب الطبع. وكان يبدو أن ابنة الستة والخمسين حولاً لم تكن تُسَرُّ كثيراً بـ «آلهة جدد»، أو بالأحرى، بآلهات جدد في حياة من يحظى بحمايتها. وبناءاً على رغبتها لا يكون هناك بُدٌّ من أن تختفي عبارة «هذه الإشارة المكتومة الدالّة على مشاعري الخفيّة» من الطبع النهائي، وأن لا تعلم المجهولة ورهط مائدتها، كيف أثَرْن، برسالتهن الحماسية الخفيّة، خيال بلزاك الفيّاض إثارة هي فوق حدود كل التوقُّعات.

غير أن المرسلات الماجنات في ڤيرسخوڤنيا لم يكنَّ أبداً في انتظار ردّ، وكن قد أطلقن هذه الرسالة كما يطلق صاروخ في السماء، فهل تَرُدَّ السماء على الصواريخ؟ ويمرُّ أسبوع وأسبوعان، وربما ثلاثة، وهن يتخيَّلن، في إطار مللهن، المرة بعد الأخرى، الكيفيَّة التي أثَّرت بها هذه الرسالة الحماسية من «المجهولة»، بالخط الجميل للآنسة بوريل، والخاتم اللاتيني، في السيد دي بلزاك، ومازلن يفكرن ويخطِّطْن فيما يتصل بما كان يمكن للمرء أن يبتدع ويضيف إليها، لاستفزاز فضوله على نحوٍ أفضل بعدُ، ولكي يستثرن صلَف الأديب عنده. وفي النهاية يصطنع الرهط رسالة ثانية «من المجهولة»، وعلى الأرجح رسالة ثالثة، وبذلك يملأن، مرة أخرى، بعض الأمسيات، بالمرح والبِشْر. وبدلاً من لعبة «الشدَّة». ولعبة الأمير القديمة، ولعبة الورق ذات اللاعب الواحد، يتوافر للنسوة الآن، في منزل السيدة فون هانسكا، لعبة جديدة، مرِحة: فقد باتت النساء يكتبن رسائل مستغلقة، حافلة بالألغاز، رومانسية، رقيقة، رهيبة، حماسية، إلى السيد دي بلزاك.

وإنها لَلُعبة مرِحة، ولكن كان يدخل في طبيعة اللعبة أنها إما أن تصبح بعد بعض الوقت مملَّة فوق ما يطاق، وإما أن تبدأ في حَفْز النساء إلى بذل جهد أعلى، وشيئًا فشيئًا يأخذ الفضول يستثير رفيقات اللعب لكي يعرفن هل تلقّى السيد دي بلزاك هذه الرسائل التي دبجتها النساء بقَدْرٍ بالغ من الفن، والمكر والمزاح، على وجه الإطلاق. وربما كان في وسع المرء أن يستخلص، بأية حيلة كانت، هل استاء منهن، أم شعر بما يتملَّق شعوره، بل سمح لنفسه في النهاية بأن تنخدع إلى الحد الذي يحمله على تصديق مشاعر هذه «المجهولة»، وفضلاً عن ذلك فإن مدام دي هانسكا تخطط لكي ترحل مع زوجها في الربيع، إلى «الغرب». وربما كان في وسع المرء عندئذ أن يستأنف هذه المراسلة بسهولة أكبر من سويسرا، بل أن يحصل في النهاية على جواب، أي رسالة، أو سطر من يد الأديب الشهير.

على أن الفضول يجعل من المرء امرءاً مخترعًا، على الدوام، وهكذا تقرر مدام دي هانسكا، مع عصبة أخلائها، إرسال رسالة أخرى باسم المجهولة (وهي أول رسالة مما تبقّى محفوظًا لنا)، وبعد الكثير من حالات انبثاق المشاعر، يطرح عندئذ سؤال هل يريد بلزاك أن يتلقى رسائل أخرى من المجهولة، وهل تراه «يتقبَّل اتصالاً من تلك الشرارة الإلهية للحقيقة الخالدة». وبعد كل هذه اللهجة الرهيبة التي تثقُل وطأتها على النفس تقترح عليه مدام دي هانسكا أن يقوم، على الأقل، بتأكيد تلقّيه الرسالة على نحو واضح جلِيّ، ولكن لمّا كانت لا تفكِّر في أن تُسِرَّ إليه باسمها، ولا عنوانها، فهي تقترح عليه طريقة الإعلان في الصحف، وهي الطريقة التي لم تكن مألوفة بعدُ على الإطلاق في تلك الأيام.

«إن كلمة منك في جريدة (Quotidienne) سوف تهب لي اليقين بأنك تلقّيْت

رسالتي، وأن في وسعي أن أكتب إليك دونما قلق، ولتوقِّع على الخبر، على الشكل التالي: Al' E... HdeB. ولا بدَّ أنْ قد كان من بواعث الفزع الغريب بالقياس إلى مدام دي هانسكا، أن تتلقى في ٨ كانون الثاني ١٨٣٣ عدد جريدة «الكوتيديين» الباريسية الصادر في ٩ كانون الأول، وأن تقرأ، في قسم الإعلانات فيه، السطور التالية:

تلقى السيد دي ب الرسالة الموجهة إليه، وقد أصبح اليوم فحسب في الوضع الذي يتيح له أن يؤكِّد ذلك، مستعينًا بهذه الصحيفة، وهو يأسف لأنه لا يعلم إلى أي عنوان ينبغي له أن يوجِّه جوابه، Al' E... H.de B.

وربما أحسَّت، لدى الموجة الأولى من ثوران دمها نتيجة الفزع، بشعور أسعدها: بلزاك، العظيم، الشهير، يريد أن يكتب إليها، يريد أن يجيبها! ولكن لابُدَّ أن الشعور الثاني كان الشعور بالخجل من أن الأديب قد حمل المشاعر التي بالغت في الحديث عنها، هي ورهطها، بالفعل على محمل الجدّ. هل ينبغي لها أن تواصل الكتابة إليه بالفعل أيضًا؟، وينزلق الموقف، دفعة واحدة من الصفة الهزلية ويأخذ في اكتساب صفة الحَرَج، ذلك لأن زوجها الذي كان من أهل النبالة في الريف الذين يهتمون أيما اهتمام بالشرف والانضباط، لم يكن له علم بالمُزاح الذي سمحت زوجه وبنات حميها والمربية لأنفسهن به، والذي ظل مزاحًا بريئًا مادامت هذه «المجهولة» «فبْرَكَةً» جماعية مُغفلة. فإذا حاولت الآن أن تستأنف مراسلة جدية مع بلزاك، فهي لا تستطيع أن تفعل هذا إلا من وراء ظهر زوجها ومن دون علم الرفيقات االلواتي كنَّ حتى الآن. وسوف تضطر إلى أن تمثِّل مهزلة أمام زوجها، وستحتاج، مثلما يحدث في كل ملهاة حقيقية، إلى مُساعِدة خفية، كاتمة للأسرار.

وما من شك في أن السيدة فون هانسكا كانت تساورها أثقل الهواجس وطأة، إذ كانت تحس إحساساً داخلياً بأنها تسترسل، بهذا الاتصال المباشر، في مغامرة لا يمكن التوفيق بينها وبين ما تقتضيه طبقتها الاجتماعية واستقامتها الشخصية. ولكن ياله من إغراء مثير يكمن، من ناحية أخرى، في أن تنتظر من الكاتب الشهير رسالة بخط يده! وياله من إغراء يتمثل في أن تشكل نفسها بحيث تكون شخصية من شخصيات رواية من الروايات.

وتبدو السيدة فون هانسكا، في اللحظة الأولى، غير مصممة كل التصميم، وكما هو أسلوب النساء الحقيقي، ترجئ الحسم في قرارة نفسها، والحق أنها تجيب بلزاك على الفور، غير أنها لهجة أخرى غير تلك التي كانت في الرسائل السابقة، فما عاد ثمة حماسة بالغة، وعائمة مبهمة، ولا عبارات غامضة بل هو مجرد الإخبار بأنها تنوي الرحيل عمّا قريب، والإقامة على مقربة بالغة من فرنسا، وأنها ترغب، في الحقيقة، في التراسُل، ولكن ذلك لا يكون إلاّ عندما تكون في مأمنٍ مِن كل انتقاص أو خروج على قواعد الحذر، أو هتْكٍ للأسرار.

«لقد وَدِدْتُ لو أتلقى جواباً منك، ولكن لابدَّ لي من التزام الحذر البالغ، ولابدَّ للمرء أن يختار الكثير جداً من الطرق الملتوية، حتى إنه لَيَبْلُغ من ذلك أنني لا أجرؤ على أن أرتبط بأي رابطة كانت، غير أني لا أودّ، في هذه الأثناء، أن أظل على غير بيِّنة من أمري في صدد رسائلي، وأنا أرجو منك أن تبلغني في أول فرصة تسنح، عن ماهية الإمكانية التي تراها من أجل مراسلة من دون عائق. وأنا اعتمد في هذا الصدد كل الاعتماد على كلمة الشرف منك، بأنك لن تقوم بأي محاولة

للعثور على من تتلقى رسائلك. وإني لخليقة أن أكون الخاسرة الضائعة لو عرف أحد أنني أكتب إليك، وأنك تلقَّيْت رسائل مني».

لقد تبدَّلت اللهجة كل التبدُّل، إنها مدام دي هانسكا نفسها التي تكتب، وإن المرء ليميِّز أوَّل مرة شيئًا من شخصيتها الحقيقية: المرأة التي تفكر ببرود ووضوح حتى عندما تجرؤ على مغامرة، فإذا ما ارتكبت زلَّة أقدمت عليها مَزْهُوّة بنفسها، مرفوعة الرأس، وبعقل يقظان.

وكان ينجم عن ذلك، بالقياس إلى كبريائها على وجه الخصوص، من جراء هذا، صراع جديد، فكان الفضول، والغرور، والولَع بالعبث، يتزاحَمْن على افتتاح مراسلة شخصية بعد أن أجاب بلزاك في صحيفة "Quotidienne"، غير أن الرسالة الواردة من باريس تعد في ڤيرسخوڤنيا حدثًا أكبر من أن يصل إلى يديها من دون أن يُلاحَظ. فحين يصل ساعي البريد يُسْتَشار البيت كله، وكل امرئ يحسد الآخر على الإرساليات التي يتلقّاها. وعلى هذا فمن المستبعد تمامًا أن تدع رسالة تتوارى من دون أن يراها زوجها وذووها. وعندما تجرؤ على مراسلة سرية فلا بُدَّ لها أن تُدْخِل معها في السرّ شخصية ثالثة، شخصية مؤتمنة، متفانية تفانيًا مطلقًا، مِطْواعة بلا إرادة، ويمكن الاعتماد عليها اعتماداً مطلقًا، تجدها السيدة فون هانسكا في شخصية مربية ابنتها، هنرييت بوريل، وكانت تسمى، في مناسبات رفع الكلفة، ليريت، وتنتمي إلى أسرة متدينة من الطبقة الوسطى في نوشاتيل، وكانت الأقدار قد رمَتْ بها منذ سنين في هذا القصر الأوكراني. ولم يكن إلاّ من الطبيعي أن تتجه الفتاة التي طعنت في السن، ولم تلقَ قطُّ رجلاً، والتي تعيش في الغربة، بعيداً عن أسرتها وأصدقائها، بكل مشاعرها نحو أسرة هانسكي. وحين بدأت

مهزلة الرسالة كانت تنتمي إلى رهط المؤتَمَنات، ولعل في حكم المؤكَّد أن الرسائل الأولى التي كانت ما تزال تكتب على سبيل المُزاح، إنما كتبت بخط يدها. والآن، حين تنتوي السيدة فون هانسكا أنْ تكتب رسائلها شخصياً، ومن وراء ظهر المشاركين الآخرين في اللعبة، لكي تتلقى جواب بلزاك، لا يبدو لها أحد أقل لفتاً للأنظار منها، من حيث كونها عنواناً للتعمية. ومن تُراه يفترض أن رسالة من باريس إلى الآنسة هنرييت بوريل، تأتي من هونوريه دي بلزاك؟ وما من شك في أن ابنة الطبقة الوسطى، المتدينّة، التي تتسم بشيء من السذاجة، تبذُل موافقتها، وذلك، بالطبع، من دون أن تدري إلى أيِّ دَرَكٍ من أدْراكِ القِوادة يمكن أن تُستَدْرَجَ من خلال هذا الصنيع البرئ. وما من شك في أنها ترتكب بهذا الإخلاص المكتوم لمدام دي هانسكا خيانة بحق سيدها فون هانسكي. وهذا الصراع الذي لم يكن قد أصبح شعورياً بعدُ في تلك الأيام، بين واجب وواجب، يبدو فيما بعد، حين بدأت العلاقة بين مدام دي هانسكا وبلزاك تتخذ أشكالاً «آثمة»، كأنه كدَّر صفو ضمير هذه الشخصية البسيطة، الصادقة، كلَّ التكدير. مساعدةً في عملية خداع، وقوّادةً في خيانة زوجيّة، وخائنةً للسيد فون هانسكي، الذي كان يعاملها دائماً معاملة الصديق الواثق. هذا ما سوف تنظر إليه الشقية هنرييت بوريل فيما بعد على أنه ذَنْبُ حياتها. ويبدو كأن تيارات معاكسة من الشعور المناوئ لمدام دي هانسكا قد تطوَّرت بالانطلاق من هذا الصراع الداخليّ، ولا سيما ضد بلزاك الذي يخلِّدها في رواية «ابنة العم ليز بيت» (Tante Lisbeth)، والذي لم تكن تستطيع أن تتغلب على نفورٍ منه في قرارة نفسها. ويصل تعبيرها عن شعورها بالذنب إلى درجة الانفجار عند موت سيدها فون هانسكي، إذ تعلن بعد دفنه مباشرة أنها لا تريد البقاء في المنزل أطول من هذا، وتهرب، لكي تكفِّر عن كونها مُساعِدةً على خطيئة قاتلة،

إلى دير.

وعلى كل حال فعن طريق استعدادها للمساعدة أصبح التَّراسُل المنتظم ممكنًا، وبات في وسع «المجهولة» الآن أن تبلغ بلزاك بعنوان للتعمية، وتنتظر، وقد استحوذ عليها سحر اللعبة المثير كل الاستحواذ، وكان صبرها يزداد نفاداً على نحو مطَّرِد وهي تتساءل هل سيجيب الأديب الشهير بالفعل.

وليتصورَّ المرء الآن اندهاش مدام دي هانسكا حين يصلها، لا مجرد رسالة واحدة بل رسالتان، إحداهما وراء الأخرى، من الأديب الكبير. أمّا الأولى (التي نعرفها، والتي تبدأ بها المراسلة الباقية بين أيدينا، مع «المجهولة»، فقد كُتُبَت لكي تُسْكِر سيدة قصر فيرتسخوفنيا ولتحدث في نفسها شعوراً بالخجل في وقتٍ معًا. وكان بلزاك قد أخذ الرسائل الحماسية المدَّبَرة في الخفاء مأخذ الجد تمامًا، «على الرغم من سوء الظن الذي كان مايَفْتأ يُحافَظ على يقظته من قبل أصدقائي، حيال رسائل معينة كانت مماثلة لتلك التي كان لي شرف تَلَقّيها منك».

ويدع نفسه «تنجرف بحُسْنِ ظنه»، فيصف لها، وهي التي لابُدَّ أنها كانت تتعذّب من جراء الشعور المزعج بأنها هَزِئت به وعبثت، بالفيض والتدفُّق المعهودين، الحماسةَ التي بعثتها رسالتها في نفسه:

لقدكنتِ موضوع أحلى أحلامي!

وفي موضع آخر، إذ يتخذ لنفسه اللهجة المبالَغ فيها، أي لهجة «المجهولة» ويزيدها تصعيداً: «ولو أنكِ رأيتِ كيف كان أثر رسالتك في نفسي لَلاحظت على الفور امتنان عاشق وإيمان قلب، والرِقّة الصِرْفة التي تربط ولداً بأمه... ولأحْسَسْتِ بالاحترام الكامل من قبل شاب لامرأة، والآمال المستعذَبة في صداقة طويلة، لاهبة.

وأمثال هذه العبارات التي تمثل، بالقياس إلينا، بلزاك في أسوأ حالاته وأوْخَمها، وتظهر فيها، إلى حد يبعث على القلق، نكهة الروايات الرخيصة في صباه، لم يكن لها بُدٌّ، بالطبع، أن تكون باعثة للسُكْر بالقياس إلى امرأة غير مفهومة في أوكرانيا المظلمة. فياله من طيب خُلُق! ويالها من حرارة قلب! وياله من تحليق أدبيّ، ويالها من شهامة. أَنْ ينزعَ إلى إهداء رواية إليها، هي المجهولة، في صورة عطاءٍ مقابلٍ! لقد كان الدافع الأول عند مدام دي هانسكا، خليقًا أن يتمثل في أن تقابل رجلاً يهب لها ثقته بهذا القدر من اللاتحفُّظ، بالصراحة ذاتها. غير أن من المؤسف أن هناك ظرفًا خطيراً يكبت سرورها. ففي الوقت ذاته تقريبًا، وربما قبل ذلك إلى حد ما، وربَّما بعد ذلك إلى حَدٍّ ما (ونحن لا نعرف ذلك، إذ لم تُحْفَظ هذه الرسالة) وصلت إليها رسالة أخرى من هونوريه دي بلزاك، وكانت على النحو ذاته، جوابًا عن رسائلها. والرسالة (أ) تشير إلى خَطٍّ مختلف كل الاختلاف عن الرسالة ب. وعلى هذا فأيُّ الرسالتين من بلزاك، ومَنْ عسى أن يكون كتب الأخرى؟ أَمْ هل تكون كلتاهما معًا ليستا من بلزاك، آخر الأمر؟ وهل يكون من الممكن أنه لم يُرِدْ إلاّ أن يخدعها، وهو يوعز الآن بأن تُرسل إليها رسائل من قبل طرفٍ ثانٍ، وثالث، على النحو ذاته تمامًا، من باب الهزل والعبث، مثلما تبعث هي برسائلها؟ أتُراه يعبث بها الآن ويهزأ، وهو الذي أرادت أن تعدَّه مجنونًا؟ أتُراه يمارس عبثه معها، أم تُراه يقصد إلى الجدّ، وما تفتأ تضع الرسالتين، إحداهما قُبالة الأخرى، وأخيراً تقرِّر أن تجيب بلزاك، وتلتمس منه الجواب حول التناقض بين الخَطَّيْن، والتناقض في طريقة التعبير، في الرسالتين اللتين تحملان اسمه.

وقد كان بلزاك الآن خليقًا أن يشعر بالحرج، ولمّا كان مُلاحَقًا على الدوام، وكان يعمل دائمًا تحت الضغط، فقد نسي، حين بعث برسالته إلى مدام دي هانسكا، تلك الرسالة، التي أوعز بأن تُوَجَّه إليها قُبَيْل ذلك. ومنذ أن أصبحت رسائل الإعجاب الأنثوي جمَّة العدد إلى حد بعيد، ابتكر طريقة، لكيلا يُضيِّع وقته

من ناحية، ولكيلا يُكَدِّر مزاج تلك التي تُبَجِّلُه من ناحية أخرى، وهي أن يدع هذه الرسائل يُجابُ عنها باسمه، من قبل زلْما كارّو، الصديقة التي يُعْتَمَد عليها. وكان من بواعث الاستمتاع عند زلْما كارّو، التي لاتعرف غيرة، والتي توفَّر لها، في كوخها الريفي المملّ، كثير من الوقت، أن تصنّف دَفْقات مشاعر السيدات الغريبات وتردَّ عليها بأسلوب صديقها بلزاك، ويبدو أن الرسالة المقدسة من «الأميرة الروسية أو البولونية» دخلت في جدول أعمالها، وفرغت من الرسالة حسب ما يقتضيه واجبها، بالطريقة المعتادة.

ويدرك بلزاك على الفور الغباء الذي ارتكبه، وقد كان أي امرئٍ آخر خليقًا أن يدلي بالحقيقة إمّا مُحرَجًا وإما صادقًا، وفي مقابل ذلك لم يكن بلزاك يتعرّض للحرج أبدًا، كما أنه لن يُدلي، أيضًا، بالحقيقة عن نفسه، أبدًا، أو في حالات نادرة، إلى المجهولة، وسوف يظل كل تبادلهما للرسائل حتى النهاية، غير صادق مثلما بدأ، وبالنسبة لكاتب روائيّ مثل بلزاك لم تكن الأمور غير الراجحة قطُّ تشكل عقبة جدية، وهكذا يمارس ضروربًا شتى من الألعاب البهلوانية في المنطق القليل الحياء، ليقفز من فوق هواجس مُقَدِّمة الرسائل التي انتابها القلق والاضطراب، قائلاً:

«لقد رَجَوتِ مني، مع شيء من سوء الظن بي، تقديم إيضاح بصدد خَطَّيَّ المختلفين غير أن لي خطوطًا كثيرة بقدر ما في السنة من أيام وهذه المرونة تنجم عن خيال يستطيع أن يتصورَّ كل شيء، ويظل مع ذلك محافظًا على نقاء كنقاء العذارى شأن زجاج المرآة التي لا تتلوَّث من جراء أي منعكسِ فيها».

كلا، فلتَثِقْ به، ولا يُساوِرنَّها الخوف من «أن تكون المسألة تتعلق بدعابة». ثم إن الرجل ذاته الذي كان يكتب لتوِّه «الأقاصيص الماجْنة» غير المهذَّبة، يشير إلى نفسه، بجرأة، بصفة «الطفل المسكين، الذي كان حتى الآن، وسيظل في المستقبل أيضًا، المرة، بعد الأخرى، ضحية لشعوره الرقيق حيال النساء، ووَجَلِه، وحسن

ظنه»، وهذا الطفل الوجِل- وهي صفة لم يعرفها الناس في بلزاك حتى الآن- يبدأ الآن، «بسذاجة»، في الإدلاء إلى المجهولة باعترافات، فهو يصف:

«قلبه، الذي لم يعرف حتى الآن إلاّ امرأة واحدة في هذه الدنيا»

وتظل هذه الاعترافات، البالغة الغموض، تتدفَّق مُنْداحةً على مدى عشر صفحات، بل اثنتي عشرة صفحة، بل ستّ عشرة صفحة، فهو يكتب حول أسلوبه، وعمله الذي يرغمه، «على التخلّي عن النساء اللواتي يمثّلن في الحقيقة ديانتي الوحيدة في هذا العالم

ويكتب عن وحدته، ولا بُدَّ للمرء أن يُعْجَب بالإرهاف والصقل الذي يدع به لهجة محبَّبة تأخذ في التردد اليسير في حديثه.

ويكتب قائلاً للمجهولة: أنتِ، التي أتزلَّف إليها مثل وهمٍ مُحبَّب إلي- أنتِ التي تخطرين كالأمل عَبْر كل أحلامي... أنت لا تعرفين ما يعنيه هذا بالقياس إلى أديب، عندما يَبُثُّ الحياة في عزلته بشخصية فائقة الحلاوة تكتسب أشكالها، من جراء ماهو غير مُسْتَيْقَنٍ وغير قابل للتحديد في كيانها، على وجه الخصوص، فتنة وسحراً».

ومازال لا يوجد في يديه، على وجه الإجمال، أربعة رسائل منها، ومازال لا يعرف اسمها، ومازال لم ير صورة لها، وإذا هو يتعرف، منذ الرسالة الثالثة:

«أنا أحبك، أيتها المجهولة! وهذه الحالة العجيبة ليست إلاّ النتيجة الطبيعية لحياة كانت على الدوام مقفرة موحشة، تعيسة... وإذا كان لابُدَّ لهذه المغامرة أن تَعْرُض لامرئ ما، فقد كان هذا أنا».

والشعور الأول عندنا حيال دَفْقات قلب بلزاك هذه المتعجِّلة هو الشعور بعدم الارتياح. فكل هذه المشاعر المزعومة تنطوي على لهجة منتفِشة، غير صادقة. وهي تخلّف المذاق الكريه الذي يتخلَّف في الفم من الرومانسية العاطفية ولا يتخلَّص

المرء من شبهة مفادها أن بلزاك يحشر نفسه بالقوة في نزعة حماسية مازال، إذا ما قصد إلى الصدق، غير قادر أبداً على الإحساس بها. بموجب التجربة الوحيدة التي نعرفها بالاستناد إلى مراسلة مدام دي هانسكا -وقد أحرقت، بعد وفاة بلزاك، رسائلها الموجهة إليه، عن حكمة وتدبير-، لا يمكن لهذه الرسائل أن تكون احتوت إلا على ضروب من التبجيل تصل به إلى السماء، وألوان من الكآبة والانقباض عاطفية رقيقة، ولكن لا يوجد، في رسائلها الأخرى أيضاً، إلى أخيها سطر واحد يشير إلى شخصية لامعة فائقة. ومع ذلك فإن بلزاك، يشرح من دون أن يشعر، بنفسه، وفي كلمة واحدة في رسالته، مالا يمكن شرحه في غير هذا الحال:

«لا بُدَّ لي أن أبتدع لنفسي أهواءاً وعواطف!»

إنه يريد أن يبتدع لنفسه، رواية حياة، وبعد أن كانت دوقة كاستري أفسدت عليه التصورُّ الأول، يجربّ نفسه عبثًا، وخبَطَ عشواء، مع هذه المجهولة الجديدة، وكان بذلك يتصرَّف تصرفُّاً غريزيًا، بأسلوب العصر. وفي سنين الرومانسية لا ينتظر الجمهور الباريسي والأوروبي من آبائه مجرَّد كتابة رواية مشوقّة، بل ينتظر منهم أن يكونوا هم أنفسهم، بصفتهم أبطالاً، في النقطة المحورية من رواية غرامية تدور أحداثها في وسط المجتمع الرفيع المستوى. ولابُدَّ للأديب، لكي يقنع القلوب، أن تكون له قصته الغرامية الكبيرة، التي تكثر مناقشتها، على نطاق الجمهور قدر الإمكان. فقد اكتسب بايرون، من جراء مغامراته وعلاقته بالكونتيسة جويكيولي، وليْسْت عن طريق خطف مدام دارغو، وموسيه وشوبان من جراء علاقتَيْهما بجورج صاند، وألفييري، من جراء حياته المشتركة مع الكونتيسة ألباني، من الأهمية، في نظر الجمهور مالايقل عمّا اكتسبوه منها عن طريق أعمالهم. على أن بلزاك الذي كان طموحه في المضمار الاجتماعي أكثر من طموحه أدبيًا، إلى حد بعيد، لا يريد أن يقُصرَّ عن شأوِ الآخرين، بل يريد أن يفوقهم، وتظل فكرة إقامة علاقة بسيدة عظيمة الشأن تفتنه طوال حياته. وعندما يعمد، بدلاً من الإدلاء

بكلمة شكر مهذَّبة لهذه «الأميرة الروسية أو البولونية» المجهولة، إلى إغداق الاعترافات اللاهبة وضروب المداعبات المموَّهة، عليها، على الفور، فإن هذا لا يحدث بحال من الأحوال «عن سذاجة- »، كما يَدَّعي، بل يحدث مصحوباً بالإرادة الصلبة المصمِّمة، الهادفة إلى إنشاء رواية حياة، وابتداع عاطفة جامحة لنفسه. وكان شعوره يظل دائماً تابعاً لإرادته، مطاوعاً لها، وتظل الإرادة هي الشيء الأوَّل عنده، وهي القوة الأولى، الأصيلة، التي تسيطر على كل القوى الأخرى، وتمسك بزمامها.

وعلى هذا النحو فحسب، يجب أن تُفْهم الرسائل الأولى إلى «المجهولة»: أي على أنها فصل تمهيدي، أو مدخل لرواية سوف تتطوَّر، كما يُؤْمَل، ليس بدافع الوحي والإلهام، هذه المرة، بل من خلال الأحداث. وتتمثَّل إحدى الشخصيات الرئيسية في المجهولة التي يُفْتَرَض إن لا تكتسب شكلها وخطوطها العريضة إلاّ في الفصول اللاحقة ولا تحدث، في البداية الأولى، أثراً تشويقيّاً إلاّ من خلال الجانب السرّي الناجم عن بُعدها، وعُلُوِّ مقام طبقتها، وهي تعيش في قصر بعيد مثل تلك المدعوَّة بياتريس في روايته التي تحمل الاسم ذاته، بعيداً عن العاصمة كل البُعد، غير مفهومة، مثل أريادنا (Ariadne) التي تنتظر تيسويس، المحرِّر. ويضع في مقابل هذه المرأة التي يريد أن يختصَّها بدور الحب الكبير في الرواية المستقبلية، موقفاً انتقاليّاً عابراً من قِبَل أناه، لا ذلك البلزاك الذي يكونه هو بالفعل، بل فتى رومانسيّاً يتوق، عبثاً، إلى حب «نقيّ»، ولم يكن من شأن الحياة حياله، حتى الآن، إلاّ أنها نثرت على دَرْبه الموحش الأشواك فحسب.

وليتابع المرء، تصويره لذاته، مَعْلَماً، على النحو الذي يُرَتِّبه بلزاك للمجهولة. فهو يعيش وحده في المدينة الكبيرة، وليس له أحد في أرض الله العريضة يستطيع أن يُسِرَّ إليه أعمقَ أفكاره وأكثرها خفاءاً. لقد أصبحت كل عواطفه مخيَّبة الآمال، ولم يتحقق حُلُم من أحلامه، وكل امرئ لا يقدِّر طيب قلبه التقدير الصحيح.

«إنما أنا الموضوع الذي تستهدفه كل أقاويل السوء، وأنتِ لا تستطيعين أن تتصورّي ماهية ألوان الشرور والخبائث التي تنهال عليّ، وماهية ضروب التجريح والاغتياب والاتهامات المسعورة»

وما من أحد، ما من أحد، في باريس وفي العالم، يراه الرؤية الصحيحة.

«ليس هناك إلاّ أمر واحد مُسْتَيْقَن: ألا وهو عزُلْة حياتي، وعملي المتنامي على الدوام، وهمّي».

وهكذا رمى بنفسه، في غمرة يأسه، في لُجَّة عمله، مثلما ألقى إمبدوقل بنفسه في بحيرة فوهة البركان التي سيجد فيها المجد.

وهذا «الفنان المسكين» يزدري المال، ويزدري المجد، ولا يتوق بارسيفال ذو الخمسة والثلاثين حَوْلاً، إلاّ إلى شيء واحد، إلى حب.

«إن هوايَ الوحيد، الذي تعرَّض، المرة بعد الأخرى، لخيبة الأمل، هو المرأة... لقد راقبت النساء، ودرسْتُهُنّ، وتعرَّفت عليهن، وتعلَّمت كيف أُحِبُّهن الحبَّ الرقيق. غير أن الجزاء الوحيد الذي جُزيتهُ هو أن القلوب الكبيرة والنبيلة فهمتني على البُعْد. ولم يكن لي بدٌّ، في كتاباتي، أن أطرح رغائبي، وأحلامي، أرضًا.

وما من أحد يريد «الحب، الذي يعيش في قلبي، والذي أتمنّاه لنفسي، والذي يظل أبدًا يُساءفهمه» وفيم يكون سوء الفهم هذا؟ لأنني أحب بقوة بالغة، بلا ريب».

لقد كنت مستعدًا لأكبر التضحيات، وبلغ من المدى الذي ذهبتُ إليه أنني ماعدتُ أحلم إلاّ بيوم واحد مفعم بالسعادة في العالم مع امرأة صبيّة قد تتجلّى لي كالجنِّية، إذًا لكنت راضيًا ومخلصًا. ولكن ها أنذا أقف الآن، وقد بتُّ أكبر سنًا، وبلغت الخامسة والثلاثين، أستهلِك نفسي في الأعمال الشاقة، وقد بذلت في ذلك أفضل سنوات عمري، وفي الواقع لم أبلغ شيئًا.

ولكي يُسَرِّع بلزاك تطورُ الرواية يزجُّ بنفسه، بالمرونة الهائلة في إحساسه، وعلى وجه الدقة، في أجواء تفكير هذه الأميرة المتحمِّسة، التي هي أيضاً على جانب يسير من التديُّن، والتي كانت خليقة أن يقلَّ تفهمهما لرجل بوهيميّ أو رجل مثل كازانوفا، كما أنها تتطلب من الفنان، بلا ريب، «النقاء» و «قابلية الإيمان» وإذاً فلابدَّ للرغبة في الحب أن تتلوَّن بلون الاكتئاب والانقباض، ولابدَّ أن تتجمل تجمُّلاً يسيراً بزينة اللورد بايرون لكي تضفي على التحمُّس الإيقاع الرومانسي الملائم، ولكن بعد هذه المقدِّمات التي فكر فيها وقدَّر فأطال التفكير والتقدير، والتي يجسِّد فيها بلزاك إخلاص قلبه، ونقاءه، وإمكان الاعتماد عليه والرُّكون إليه، على نحو مؤثّر يمسُّ شغاف القلب، ينتقل، في تصعيد سريع لحجم صوته، إلى الهجوم، فهو يعرف، من حيث كونه من أهل التقنية، أن الرواية، إذا كان يُراد لها أن تكون مشوِّقة، فلا بدَّ لها أن تنتقل إلى التحليق على الفور، في الفصل الأول، ففي الرسالة الأولى كانت المجهولة «الموضوع للأحلام الحلوة»، وبعد أربعة عشر يوماً، في الرسالة الثانية «يلاطفها» كأنما يفعل ذلك بـ «صورة من صور الأحلام»، وفي الرسالة الثالثة، أي بعد مالا يكاد يبلغ ثلاثة أسابيع، باتت ترد عبارة: أيتها المجهولة»، وفي الرسالة الرابعة، «بات يحبها حبّاً أعمق، من دون أن يكون رآها أيضاً»، وهو لايرتاب في أنها هي، وهي على وجه الخصوص، مَنْ كانت تُمثِّل تحقيق أهداف حياته التي يحلم بها على الدوام.

«آه لو كنتِ تعرفين بأيِّ هوى جامح أتوجَّه إليك، أنتِ التي طال شوقي إليها، وأيُّ تفانٍ أشعر أنني قادر عليه!».

ثم تأتي، من جديد، رسالتان، وإذا المجهولة تصبح (ويالهذا من خيانة فظة لمدام دي بيرني وزلْما كارّو)، «القلب، الذي وجدتُ لديه العزاء أول مرة». وإذا هو يخاطبها على أنها «حبه الغالي والطاهر»، وعلى أنها «الكنز» و «الملاك الحبيب، وإذا هي الواحدة الوحيدة، من دون أن يكون رأى صورة لها، ومن دون أن يعرف

سنَّها، ومن دون أن يعرف اسمها أيضاً، وإذا هي السيدة، والآمرة الناهية، في مصيره.

«إذا شئت حَطّمتُ من الغد أقلامي، ولن تسمع امرأة في المستقبل صوتي. ولن ألتمس إلاّ الرَّوِيَّة والرفق بـ «العزيزة» فهي بالقياس إليَّ نوع من الأمّ، وقد بلغت الثامنة والخمسين، وأنتِ، التي تتمتع بريعان الصبا، لن تشعري بالغيرة منها! ألا فلتتقبَّلي كل مشاعري ولتستقبليها، ولْتَرْعَيْ أحاسيسي مثلما ترعَين كنزاً من الكنوز! ولتعتمدي على أحلامي- ولتحققّي شوقي!»

وهي، وهي وحدها، التي جعلته يحسُّ بأعجوبة الحب.

«إنها أول من وُفِّقت إلى مَلْء الفراغ في قلبٍ كان يوشك أن يتولاّه اليأس من الحب»

ولا يكاد يطَّلع على اسمها الأول، اطّلاعه علي شيء وحيد عنها على الإطلاق، حتى يسجّله بروحه وجسده- بأدق معاني التسجيل- إلى الأبد.

«أنتِ وحدك التي تستطيعين أن تسعديني، يا إيفا، وها أنذا جاثٍ على ركبتيَّ بين يديك، وحياتي، وقلبي، لك. فلتقتليني بضربة واحدة، ولكن لا تدعيني أعاني! أحبك بكل طاقة روحي- فلا تدَعي هذه الآمال الجميلة تنتهي إلى الإخفاق!»

ويتساءل المرء: فيم هذه الأحوال من الوجد الفائقة الحرارة التي تحدث أثراً يوحي بعدم صدقها، لا بالقياس إلى شعورنا فحسب، بل يمكن أَن تكون جديرة بالازدراء بالقياس إلى امرأة طبيعية بدرجة معقولة؟ ليس في وسع المرء إلا أن يحاول الإجابة: وذلك أن بلزاك يُعِدُّ العدَّة من أجل رواية رومانسية، وكان كلّما اتّسم بمجانبة الواقعية- في «الزنبقة في الوادي»، وفي «بياتريس» وفي «سيرافيتا»- انتابته هذه الحالة الوَجْدية غير الأصيلة، ولكي تتصاعد إرادته الفنية، وإمكانياته إلى

أقصى الحدود، ينتقل إلى الواقع، وهكذا، فمثلما تصورَّ «المجهولة»، تبعًا لطبقتها الاجتماعية، في صورة أميرة، وتبعًا لشخصيتها، في صورة امرأة تعاني معاناة رفيعة المستوى، يصوغ من نفسه ذاتها صورة معدّلة مثالية للفنان النقيّ، المنعزل، الذي نبذه العالم، لكي يجعل توافق الشخصيّتين القطبيّتين أكثر تناغمًا، واتحادهما أكثر قابلية للتصديق. فإذا نظر المرء عن كثب لم يكن من الممكن أن يفوته، أن هذه المُواكبة بالرغبة الرقيقة في الحب تزداد تلوينًا وناريّة كلَّما اقتربت إمكانية اللقاء بالأميرة الحافلة بالأسرار بلحمها ودمها. وفي الواقع فإن السيكولوجيّ المتمرِّس في بلزاك، و المحترف الاختصاصي، الذي يُشادُ به كثيراً، في نفسيّة النساء، قد حسب حسابه على الوجه الصحيح. فقد وفِّق بالفعل، عن طريق اعترافاته المستفيضة، وإفراطه في التعبير عن عواطفه، إلى إثارة فضول المجهولة تجاه شخصية الرجل الذي يكتب إليها رسائل تنطوي على هذا القدر من العاطفة. وكانت قد أعلنت، في رسائلها الأولى، بأسلوب احتفاليّ أيضًا، أنها ستبقى «المجهولة بالقياس إليه»، وستظل كوكبًا بعيداً، لا سبيل إلى بلوغه، ولا اسم له، ومع ذلك فسرعان ما يُحْدِث عَبَثُ رياح الفضول رَفْرَفَةً في حجاب انعدام الاسم. وكان السيد فون هانسكي إذا أَلَحَّ عليه امرأته فجأة في مغادرة القصر الأوكرانيّ، والخروج معها بضعة أشهر أو أعوام، للتجوال والتَّرحُّل يستطيع بلزاك أن يقول متهكّمًا، في رسالة إلى أخته، باستهتار يندر أن يصدر عنه في العادة:

«أليس ظريفًا، أن يدبرِّ المرء مقلبًا لزوج، فيرغم هذا الجبّار على الرحيل مسافة ستمائة ميل عن أوكرانيا نزولاً على رغبة عاشق لا يحتاج إلاّ إلى أن يرتحل مسافة مائة وخمسين ميلاً؟

وفي مستهل عام ١٨٣٣ تنطلق، على طريقة سادة الروس، قافلة كاملة من ڤيرتسخوڤنيا. ويرتحلون بعتادهم الخاص، العائلة مع الخدم وبمتاع لا يقدَّر بقياس، وتؤخذ معهم ليريت التي لا يستغنى عنها، مرافقةً، وذلك، في الظاهر لكي ترعى

آنا، ابنة مدام دي هانسكا، وفي الحقيقة لكي تستأنف التوسُّط على الدوام، في إيصال البريد.

وتكون نقطة الاستراحة الأولى ڤينا، وذلك، على ما يبدو، بناء على رغبة السيد فون هانسكي، الذي أنفق سنوات صباه هنا، وكان له كثير من الأصدقاء في مجتمع ڤينا الأرستقراطي، ولكن ما من شك في أن قرار اختيار نوشاتيل مكانًا للإقامة في الصيف يرجع إلى مدام دي هانسكا. وهذه المدينة تقع من الحدود الفرنسية موقعًا يبلغ من قربه أن بلزاك إذا شاء أن يتعرَّف على «المجهولة فلن يحتاج إلى ارتحال جدّ بعيد. أمّا السيد فون هانسكي، الذي لا علم له بشيء فسوف يتم إقناعه بنوشاتيل، بلاشك، بدافع مؤاداه أن ليريت الطيِّبة تجد مسكن والديها هناك، وهي تودُّ أن تعود لرؤيتهما رؤية كافية تنقع غُلَّتها بعد سنين وسنين من البعاد، ويوافق الزوج النبيل، الشهم، وغير المُبالي أبدًا، وفي تموز تصل القافلة إلى نوشاتيل، وتستأجر هناك ڤيلا أندريه بضعة أشهر.

ولم يكن بدٌّ أن يتم إعلام بلزاك، من نوشاتيل، بسلسلة من الرسائل، ماعادت محفوظة لنا، بالطريقة التي يستطيع بها تدبير لقاء سرّي بأقل الطرق لفتًا للأنظار، ومن دون أن يعلم الزوج. ويبلغه القوم بأن عليه أن ينزل في فندق فوبورج، بالقرب من ڤيلا أندريه، حيث سيجد مزيدًا من التوجيهات، ويتحمَّس بلزاك، ولا يكاد يستطيع أن يتوقّع أن تكتب له الحياة نفسها الآن، بعد التمهيد الرومانسيّ، الفصل الحاسم في روايته التي يحلم بها: اللقاء الجسدي الأول بين النفسَيْن اللتين خُلِقَت كل منهما للأخرى. وعلى وجه السرعة يناشد المراسلةِ البعيدة، قائلاً، أيضًا:

«أي حبيبتي المجهولة، لا تسيئي بي الظن، ولا تصدقي شيئًا من السوء عني، فأنا طفل أكثر طيشًا مما تفترضين، بلا ريب، غير أني نقيّ طاهر أيضًا، كالطفل، مرة أخرى، وأنا أحب حُبَّ الطفل!»

ويصرح باستعداده، لكي يبعد كل شبهة، أن يسافر باسم مستعار، هو اسم المسيو أو المركيز دنتراج، ويتم الاتفاق على ألاّ يأتي إلى نوشاتيل إلاّ بعد أيام قلائل، ليكون بعد ذلك، شهراً في صحبة «الملاك الحبيب» (الذي مازال لا يعرفه)، ومازال من الواجب عليه أن يحتمل إنجاز قطعة فنية قبل ذلك بالطبع: إذ لا بدَّ له أن يضلّل أصدقاءه بصدد الغرض الحقيقيّ لرحلته، فلا يجوز لزُلْما كارّو، ولا للأخرى، التي مازالت غَيْرى، وهي مدام دي بيرني، أن تطلعا على السبب الخفي لهذا الانطلاق المفاجئ إلى سويسرا. ولكن بلزاك لا يظل أبداً مدة طويلة في حالةٍ من الحرج، بحكم كونه كاتباً روائياً بالفطرة، محنّكًا، متمرِّسًا، فيما يتعلّق بالدوافع إلى السفر. ويقول لأصدقائه مخادعًا إنه مضطر إلى السفر إلى بيزانسون ليؤمِّن من هناك نوعًا خاصًا من الورق لطبع كتابه التالي، ثم يلقي بنفسه في عربة البريد ويسافر بتلك السرعة الجنونية، المبالَغ فيها، التي يفعل بها كل شيء، وهو يبدّل الخيل تبديلاً متواصلاً، إلى نوشاتيل، وبعد أربع ليال من التعرُّض لهزّات العربة، يصل إلى هناك في الخامس والعشرين من أيلول، وقد بلغ منه الإرهاق أنه اتخذ، بسبب سهوٍ في النظر، أول الأمر، حجرة في غير الفندق الصحيح. وفي فندق فوبورج المتفق عليه يجد، بعد ذلك، الرسالة المنتظرة مع الشوق، حيث تطلب منه أن يكون في النزهة، في اليوم التالي، أي في السادس والعشرين من أيلول، بين الساعة الواحدة والرابعة، ويلقى هناك «ملاكه الحبيب»، وكان لا يجد على وجه الخصوص سوى القوة التي تكفي لكتابة رقعة للإبلاغ بوصوله، وليتوسّل إليها قائلاً:

«بحق السماء: هلاّ تركتني أعرف اسمك الحقيقي!»

ذلك لأن بلزاك لا يعرف، حتى هذه الساعة، من المرأة التي أقسم أن يحبّها إلى الأبد، لا محيّاها، ولا اسمها.

وهنا لابدَّ أن يرتجف قلب قارئ رواية بلزاك الغرامية المختلفة بمحض الخيال، من فَرْط التوتُّر: فالمشهد الكبير يوشك أن يبدأ- لقاء النفسين الطاهرتين. الآن تتجلّى المجهولة الكبيرة، وأميرة الأحلام، آخر الأمر، في صورتها الأرضية، وسوف تبحث نظرات كلٍّ منهما عن صاحبه، وسيلتقيان في هذه النزهة التي ستحرز شهرة عالمية بجمالها. فما الذي سيحدث؟ هل يُصابُ الأديب بخيبة الأمل، إذ يجد، بدلاً من الشخصية المثالية، وبدلاً من الأرستقراطية ذات المقام الرفيع، مخلوقًا غير ذي شأن، لا يلفت النظر؟ وهل تراها تشعر بخيبة الأمل حينُ يُقْبِلُ عليها فجأة، بدلاً من الأديب الأثيريّ، الناحل الشاحب، الناريّ في شطر منه، وذي النظرات التي توحي بالاكتئاب والانقباض في شطره الآخر، سيدٌ أحمر الوجنتين، مكتنز، أقرب إلى أن يماثل تاجر خمور من التورين، أو واحداً حسن التغذية من أصحاب الرَّيْع اليسير، منه إلى أن يكون مماثلاً لأديب غير المفهومين، السيد دي بلزاك؟ أتراهما يهرب كلٌّ منهما من صاحبه أم يفهم كل منهما صاحبه؟ وكيف سيكون تعرفهما الأوَل، وما هي كلمتهما الأولى؟

من المؤسف أن هذا المشهد الهام على وجه الخصوص في رواية حياة بلزاك لم يُرْوَ لنا. وهناك بضعة من الأساطير. أمّا الأولى فتفيد أنه سبق له أن أبصر عند نافذة فيلاّ أندريه، مدام دي هانسكا، واستحوذ عليه مقدار الشبه الذي رآه بينها وبين رؤياه التنبُّؤية، وأما الأخرى فتفيد أنها ميَّزته على الفور تبعًا لصوره، وأقبلت عليه، وأمّا الثالثة فتفيد أنها لم تستطع أن تكتم شعوراً بصدمة أولى ناجمة عن خيبة الأمل حيال المظهر العاميّ الفظ لشاعر الأغاني البروفنسالية (التروبادور)، غير أن هذا كله ليس سوى إضافات تعسفية، على أن المؤكَّد فحسب هو أنه لابُدّ أن يكون تمَّ، في هذا اللقاء السرّي الأول، اختراع أي طريقة مبتكرة من أجل الكيفية التي تستطيع بها مدام دي هانسكا أن تقدم بلزاك إلى زوجها الذي لا يعلم شيئًا، من دون أن تلفت النظر، على أنه واحد من معارفها في المجتمع. وعلى كل حال فقد تمَّ، حتى في مساء اليوم ذاته إدخال بلزاك على أسرة هانسكي، بأَصَحِّ الطرق، ويُضْطَرُّ بلزاك

إلى الاكتفاء بتحويل تصريحاته الغرامية النظرية «للملاك الحبيب» إلى تصريحات عملية، لتسلية السيد فون هانسكي وابنة الحَمِ التي جاؤوا بها معهم.

وكان السيد فون هانسكي، القليل الكلام، والغريب الأطوار إلى حد ما، رجلاً من أهل الثقافة يُكِنُّ احترامًا كبيراً للكفاءات الأدبية والاجتماعية، وقد تأثَّر تأثُّرًا مستعذبًا من جراء تعرفه على أديب يتمتع بمثل هذه السمعة، وكان مسحوراً بحديثه المتدفق، المتوهّج، الغنيّ بالابتكار، ويدعو السيد بلزاك ليكون معهم في الأيام التالية أيضاً، وبالطبع فإنه لم تكن تخطر بباله فكرة تتصل بالغيرة، وكيف يُفتَرَض أن يستطيع أن يظن أن زوجه، المولودة؛ باسم الكونتيسة رزيفوسكا، يمكن أن تدع رجلاً من أهل الطبقة الوسطى، من هذا الحجم، والاكتناز، لا يمكن لها أن تكون رأته من قبل أبداً، يكتب لها في الخفاء رسائل غرامية لاهبة؟ بل الأمر على النقيض من ذلك، إذ يقابل بلزاك بأحَرِّ لقاء، ويدعوه إلى الفيلا، ويقومان بنزهات مشتركة. وإنهما لتلَطُّف وحرارة يغدوان ثقيلين إلى أقصى الحدود بالنسبة لبلزاك، لأنه لم يرتحل أربعة أيام بلياليها في عربة البريد ليسرد على أسرة هانسكي النوادر الأدبية، بل لكي يشدَّ المجهولة، أو نجمة القطب، فينزل بها من السماء إلى ذراعيه.

وعلى وجه الإجمال لا تُوَفَّق السيدة فون هانسكا إلاّ مرتين، أو ثلاثًا، في الهرب ساعة وجيزة من الإشراف، من دون أن تلفت النظر، ويكتب بلزاك بمرارة، إلى أخته، قائلاً:

«إن زوجًا حلَّت عليه لعنة الرب، لم يدع لنا، خلال خمسة أيام كاملة، ثانية لنا وحدنا. إنه لا يزيد على أن يتذبذب وينوس بين ثوب امرأته، وصُدَيْرِيَّ أنا، جيئة وذهابًا!»

وما من شك في أن العذراء الورِعة، هنرييت بوريل كانت تشد الجدار العازل في هذه الأثناء، وما هي إلاّ لقاءات بين رأسين وجيزة تمامًا، تتمّ في ظل النزهة أو في موضوع خفيّ على ضفة البحيرة، غير أن ما يفاجئه: -

كنت أخشى أن لا أعجبك!-

ويقتنص بلزاك، بفضل الفصاحة العاصفة في منازعات المواقع المتقدمة نصراً ضئيلاً وكانت السيدة فون هانسكا، التي لم يسبق لها بعد أبداً، في عزلتها الأوكرانية، أن رأت نوعًا من البشر ناريًا كهذا، والتي كانت تهيّئ نفسها للاعتذار الرومانسيّ ومفاده أنه لا يجوز للمرء أن يدمر قلب أديب مرهف الحس بقسوته، تتسامح في صدد تصريحات بلزاك الغرامية، بل تسمح بأن تُخْتَلَس منها قبلة في ظل شجرة بلوط ضخمة، وهي أُعْطية عابرة يمكنها أن تدفع، بالنظر إلى حداثة التعارف، رجلاً أقلّ تفاؤلاً أيضًا، مثل بلزاك، إلى الأمل بأنّ من يتهيأ الظفر بها بهذه السرعة سوف تعطيه المزيد في فرصة أخرى، وسوف تَهَبُه له كل شيء.

ويعود بلزاك أدراجه إلى باريس وقد افتُتِن. وكانت الحماسة تواصل إرسال نبضها في دماغه ودمه، على الرغم من أنه لم يكن له بدٌّ أن يقضي الأيام الأربعة بلياليها مؤرَّقًا بين سويسريين جدّ مكتنزين مثله، فوق سقف العربة، ولكن ماذا كانت تعني هذه المزعجات اليسيرة في مقابل النصر الذي أحرزته مقدرته على الإحساس الداخلي، وحدسه الأدبيّ، وطاقته. لقد حدث ما يفوق كل توقُّعاته! فـ «المجهولة تتلاءم تلاؤمًا كاملاً للغاية مع دور بطلة في رواية حياته التي خطَّط لها، كما لم يكن في وسعه أن يبتدعها بصورة أفضل. وذلك أنها لا تبلغ، قبل كل شيء، شأن الشريكات في علاقاته الغرامية السالفة، السن المعياري، ولئن لم تكن في سن السابعة والعشرين، كما قالت تخدعه انتقاماً من مبالغاته هو فهي لا تزيد مع ذلك عن اثنين وثلاثين عاماً، وهي قطعة جسد جميلة "un bel pezzo di carne"، كما يمكن أن يقول عنها الإيطاليون. أمّا أن بلزاك يشيد بها، على أنها (رائعة من روائع الأعمال الجمالية)، فلا ينبغي لهذا أن يثير استغرابنا، بعدُ، عندما نكون في صدد كلام مبالغٍ محترف. وثمة صورة بريشة رسام الصور المنمنمة الممتاز دافنجر، تؤكد هذه المزايا. ولكن صورة دافنجر التي لاشك في أنها أحسن من الأصل إلى

حد يفسح المجال للناظر لكي يتبيّن فيها ميلاً إلى الاكتناز يبعث على القلق، وهو الذي يجعل لها ذقنين، ويجعل ذراعيها مفرطين في الامتلاء، ويجعل الجسد يبدو، في نِسبَه، على شيء من قِصر القامة. أما العينان، الصغيرتان والداكنتان، فتتميَّزان بنظرة قصير النظر، العائمة إلى حدٍّ ما، حين يشتدُّ قِصرَ نظره، وليس هناك مُحيّاً صاف، غير ملتبِس، بل هو، مثل شخصيتها، مفعم بالخلفيّات والأمور المُسْتَخْفِية، غير أن ما يُسكِر بلزاك إلى هذا الحد ليس المظهر الجسدي وحده، وذلك أنه، وهو الذي يحلم دائماً بمغامرة غرامية مع امرأة ذات أناقة باذخة، وجد فيها، بالفعل، «سيدة جليلة Grande dame»، امرأة متحضِّرة، ذات مطالعات، متضلعة باللغات، ذكية- كما تدلّ على ذلك رسائلها إلى أخيها- وذات سلوك باهر، وهي خصال أثَّرت في الجانب المتسم بسمة الطبقة الوسطى من بلزاك أبلغ تأثير، ثم إنها- وهذا وَجْد جديد- تنتمي إلى أنبل الأسر في بولونيا، وكانت واحدة ما، من عمّات عماتها، وهي آنا ليكتسينسكا، ملكة فرنسا، وعلى هذا فالشفتان نفسهما اللتان أتيح له، وهو حفيد الفلاح، أن يطبع عليهما قبلة مختلَسة، لهما- فيما يحلم بلزاك في نفسه على الأقل- الحق، بفضل آصرة القربى هذه، في أن تخاطبا، حتى اليوم، ملك فرنسا، بعبارة «ابن عمي». فياله من صعود! في البداية لم يكن هناك سوى مدام دي بيرني، وهذا لقب نبالة رسمي ضئيل، ثم ما يقارب الدوقة، وهي مدام دابرانتيس، وهذا مازال لقب نبالة عسكري فجاً إلى حد ما، ثم الدوقة الفعلية تقريباً من ضاحية سان جيرمان، وهي دوقة كاستري، والآن حفيدة خُؤولةِ ملكة، بلحمها ودمها! ومع ذلك فمازال هذا بعيداً عن أن يكون فيه ما يكفي من العجائب. فالحق أن السيد فون هانسكي ليس بالكونت ولا بالأمير مثلما كان بلزاك يتعجَّل ذلك في حلُمه. ولكن له مزية أخرى، هي أعلى المزايا في نظر بلزاك: فهو يتمتع بثراء هائل، ويملك الملايين وأضعاف أضعاف الملايين، التي يبتدعها بلزاك في رواياته بهوى جامح، وبالخيال، ممثّلة في سندات حكومية روسية سليمة من الناحية القانونية. وفي حقول وغابات وأراضٍ وأقنان، وذات يوم سوف تمتلكها زوجه-

كلا، بل أرملته. وهكذا، فمثلما يكتشف بلزاك في السيدة فون هانسكا مَزِيّة بعد الأخرى، يجد الآن أيضًا في الرجل النبيل، سلسلة من السمات ذات الأهمية، والملائمة لمزاجه، وأولّها أنه أكبر سنًا من زوجه بمقدار عشرين أو خمس وعشرين سنة، وثانيها أنه لا يخطى بمحبتها كثيرًا، وثالثها أن صحته تفسح المجال للكثير من التمنيات والرغائب، وأن من الأرجح أن يكون من الممكن عما قريب أن تغدو المرأة، المرغوبة، والتي بلغ منها ما يَعْدِل نصف الظفر بها ملكًا خاصًّا به، مع كل ملايينها وارتباطاتها. ومَنْ كان يحلم، مثل بلزاك، منذ أيام الفقر في شارع ليدينيير بمجرد أن ينظم «بخبطة واحدة»، حياته، ويُبَدِّل بالمحنة، والاندفاع السريع وبالخدمة والإذلال، ثروة وترفًا وتبذيرًا، واستمتاعًا بالحياة وإبداعًا حرًا، فنيًا، فلا بُدَّ له، وهذا مفهوم، أن يكون سكران من الحماسة لكي يجعل كل هذه الإمكانات قريبة من التحقُّق بفضل مغامرة رائعة، عن طريق امرأة، بل امرأة تستثيره جسديًا وهو لا يخيِّب أملها. ومنذ هذه اللحظة فصاعدًا سوف يقف كل طاقاته، وهي قوة الإرادة البلزاكية الفريدة في نوعها، والتي لا تُضاهى، وكذلك جَلَدَه، وصبره البلزاكيَّيْن اللذين لايُضاهَيان، من أجل غزو قلب هذه المرأة. والآن بات في وسع مدام دي بيرني، الأثيرة، التي كانت في سالف الأيام، المصطفاة، الآن، وإلى الأبد، أن ترتد لتتوارى في الظل، وما ينبغي أن يخيِّم فوق حياته مِنْ بَعْدُ أيضًا، سوى «نجمة القطب»،

«المرأة الحبيبة، الوحيدة التي توجد في العالم بالنسبة لي».

الفصل الثاني عشر

جنيف

كانت الرحلة إلى نوشاتيل، بمعناها الستراتيجي، رحلة تعرُّف وتمييز، فقد وَطِئ بلزاك أرضاً، وجَسَّها، وقرَّر أن موقعها موات من أجل هجوم حاسم، على وجه الإطلاق، ولكي يجعل الحصن ناضجاً للهجوم، ويرغمه على الاستسلام، لابدّ للتكتيكي الذي يخطط على المدى البعيد أن يعود أدراجه مرة أخرى إلى باريس لكي يأتي بالذخيرة، فإذا كان يريد، في الشهر التالي، أو الشهر الذي يليه، أن يقدم نفسه عاشقاً، وخاطباً لود هذه المرأة المُدَلَّلة، ورفيق مائدة، وصاحب حق مُساوٍ للآخرين في أسرة المليونير، فلا بُدَّ له أن يظهر في مظهر الشهم الكريم، وأن يقيم في فندق لائق، وأن يظهر بمظهر حسن. وبلزاك يعرف الآن ما بات في كفة الميزان، وإلى أي مدى يمكن أن تجديه رواية الحياة والحب مع مدام دي هانسكا بالمعنى المادي والاجتماعيّ، وهي الرواية التي بدأها واعدة بالكثير الكثير. وهكذا يضاعف طاقته التي هي في حد ذاتها لا تُضاهى، وهو لايبالغ عندما يقول:

«إن بعضاً من أصدقائي يُحارون كل الحيرة في أمر قوة الإرادة الضارية التي أكشف عنها أنا في هذه اللحظة».

وأخيراً يُوَفَّق، وهو الذي لا يعرف، كعادته، كيف يتخلَّص من الديون والالتزامات، إلى التقاط أنفاسه مرة أخرى من الناحية المالية، إذ يعثر على ناشر، أو بالأحرى، ناشرٍ أرملة، يقال لها بيشيه، تدفع له سبعة وعشرين ألف مقابل المجلدات الاثني عشر من «دراسات في الأخلاق في القرن التاسع عشر Etudes)

(des Moeurs التي يفترض أن تتضمن، في قسم منها، طبعة جديدة لكتاب "Sc`enes de la vie privée" مع «مشاهد من حياة الريف "Sc`enes de la vie de province"، و«مشاهد من الحياة الباريسية "Sc`enes de la vie parisienne" وهذا في أغلبه بيع مُسْبَق لعمل لمّا يجر إنجازه ولكنه يعدُّ، على أية حال، عقداً رائعًا بالنسبة للأحوال في تلك الأيام.

«سيكون له صداه في عالمنا، عالم الحقد والغيرة، والغباء، ولسوف يرتفع بمستوى ماء المرارة إلى الأعلى عند كل أولئك الذين اعتقدوا، بكل تعاظمهم وعنجهيَّتهم، أن في وسعهم أن يزحفوا في ظلي».

وبذلك يغدو بلزاك في الوضع الذي يمكِّنه من إرضاء الدائنين الأكثر إلحاحًا على الأقل- ولا يدخل في هؤلاء، بحكم البدهية، أمه، ومدام دي بيرني. وعندما يترتَّب عليه، بعد تهليله المتعجِّل، بعد أربعة عشر يومًا، مرة أخرى:

«في يوم الخميس يترتَّب عليَّ أن أدفع خمسة آلاف فرنك، وأنا لا أملك قرشًا واحداً، بكل معنى الكلمة ...».

عند ذلك لا تعود تقتنصه «هذه المبارزات الصغيرة، التي اعتدتُ عليها»

وهو يعلم مقدار ما يستطيع أن يكسبه في شهرين أو ثلاثة، ويعلم أن الأيام التي يقضيها في جنيف يمكنها أن تفصل في مستقبله التالي، وربما في حياته بأسرها: «وعلى هذا فالمسألة تعني الآن: العمل في النهار والليل! ولا بُدَّ لي أن أقتنص لنفسي أربعة عشر يومًا من السعادة في جنيف- وهذه هي الكلمات التي تلوح لي منقوشة على الطرف الداخليّ من جبهتي، لقد وُهِبَت لي الجرأة كما لم يحدث قطُّ من قبل في حياتي».

وفي هذه المرة لا يبالغ بلزاك، وكان من النادر في حياته أن يعمل عملاً أكثر تركيزًا، وفي الوقت نفسه أفضل، مما فعل في غمرة السكر بالشعور المُسْبَق، بأنه لا

يعمل من أجل مجرد أجر واحد، أي من أجل التحرر في اللحظة الراهنة فحسب، بل من أجل رغبته المتناهية في الخفاء والعمق: من أجل الضمان النهائي. ولقد أكدَّت ذلك الأعمال حين يقول:

«أنا أعتقد أن دم قلبي ينسكب عند هذه الفكرة، والأفكار تتزاحم في دماغي، وكل كياني يشعر أنه قد تصاعد، وحين تبث الحياة فيَّ هذه الرغبة فسوف أبدع أجمل الأشياء بلا ريب أبداً».

ولا يحاول بلزاك أن ينجز أكثر ممّا هو متوقَّع منه في هذه اللحظات الراهنة بالمعنى الكميّ فحسب، بل بالمعنى الفني والأخلاقي أيضاً. وقد استفاد من الأحاديث مع مدام هانسكا، ومن رسائلها، أن هناك عدم ارتياح لديها حيال «الأعمال المهلهلة وغير ذات الشأن»، مثل «فيزيولوجيا الزواج» ومن الأفكار المزعجة أنها استطاعت أن تصدر حكمها عليه، وهو الذي يقدِّم نفسه في صورة العاشق الصرف والرومانسي، بعد هنيهة من صدور «الأقاصيص الماجنة». وهو يريد أن يثبت أنه مؤهَّل للمشاعر العظيمة والنبيلة، وأنه مُترَع بالأفكار الإنسانية، بل الدينية. أمّا روايته «طبيب الريف»، هذا العمل الجاد، الذي يُعَدُّ، بالقياس إلى جمهوره الذي كان موجوداً حتى الآن، من الأعمال التي تطرح مطاليب مفرطة في العلُوّ، فيفترض فيه أن يُدلّل على أنه لا يطرح تلك الأشياء الأخرى إلاّ في حالة المزاج المسترخي العنان، وعلى أن قوته الحقيقية تظل تتجه صوب مثالية حقيقية. وفي الوقت ذاته يكمِّل رواية أوجيني غرانديه» وهي إحدى روائعه التي لا تتغير ولا تتبدَّل، وبالنسبة لشخصيَّتها، ولطاقتها الفنية، ولقيمتها الإنسانية يورد، بذلك، شاهدَيْن جديدين من النوع الذي لا يمكن المساس به أو انتهاك حرمته.

وبينما يهيء بلزاك نفسه بهذه الجرأة والهمة من أجل الفصل الحاسم في رواية حبه وحياته، لا يفوته أن يطرق الحديد وهو ساخن، عن بُعْدٍ، لكيلا يبرُد، وفي كل أسبوع يكتب إلى «عروس حبه المخلصة» رسائل لاهبة تحل فيها صيغة رفع الكلفة،

الحميمة، منذ عهد بعيد محل الصيغة الشكليّة المتكلّفة، ويؤكّد لها أنْ قد بدأت الآن فحسب حياةٌ جديدة، مستعذبة للغاية، بالقياس إليه، وأنها هي المرأة الحبيبة والوحيدة التي توجد في الدنيا، بالقياس إليه، ويقول إنه يحب كل شيء فيها: «النبرة القوية إلى حد ما. والفم الذي يتحدث عن الفضيلة وعن المتعة»، ويقول إنه يتولاّه الفزع إذ يلاحظ مدى ارتباط حياته كلها بها: «ماعاد يوجد، في العالم كله، امرأة أخرى، وما عاد يوجد إلاك؟» ويضع نفسه منذ البداية الأولى، في مكانة التابع، «مكانة العبد»، والرجل الطيِّب من عامة الناس، ذلك الذي يجرؤ على أن يرفع طرفه إلى سيدة من أصحاب المقام الرفيع. ويُسْلِم نفسه إليها ويداه مغلولتان، ولوصدَّقه المرء لما أحسَّ بعدُ، منذ بداية العالم أبداً رجل بحب لا حدود له كهذا حيال امرأة. وفي كل أسبوع، بل في كل يوم في الحقيقة، يقذف بأمثال هذه القنابل الحارقة صوب الحصن البعيد.

«إن إعجابي بك ليغدو أفضلَ مع كل يوم يمر، ومع كل يوم تحتلين مزيداً من الحيِّز في قلبي، فلا تبوحي أبداً بهذا الشعور الكبير الذي يتصل بحبّي!

ولكي يُبْعِد هواجس اللا أخلاقية- وكان من بواعث فزعه أنَّ مدام دي هانسكا أَمَّنت لنفسها نسخة من «الأقاصيص الماجنة»- يؤكد لها قائلاً:

«أنتِ لا تعرفين مدى النقاء العذري في حبّي»

ويدلي إليها بالاعتراف، قائلاً:

«أنا أعيش، منذ ثلاث سنين عفيفاً مثل الفتاة الناشئة»، وهو الأمر الذي يحدث انطباعاً أكثر مفاجأة مما كان، حين أَسَرَّ إلى أخته قائلاً وهو مَزْهُوٌّ، إنه قد أصبح أبًا لطفل غير شرعي.

وبينما كان يحاول، بهذا القدر من خُلُوّ البال، تحطيم كل مقاومة لدى المُصْطَفاة بصورة مسبقة، بأثقل مدفع، كان يعمل، في الوقت ذاته، ببراعة، في

محراث ألغام تحت الأرض، يفترض أن يفضي إلى رضى الزوج الثقيل، فهو يكتب، إلى جانب الرسائل الحميمة الموجَّهة إلى «ملاك القلب»، وإلى «حبُي»، أيضاً، رسائل مكتوبة بصيغة التوقير مع التكلُّف والتهذيب، مع عنوان: مدام، وهي مخصَّصة بوضوح، بقصد إظهارها للسيد فون هانسكي، ويفترض فيها أن تثير انطباعًا يوحي بأن السيد دي بلزاك ينطوي على ميل خصوصي لكل الأسرة، بما في ذلك ابنتها، وابنة أختها، والنديمة، وحتى الزوج، وأنه يأتي على وجه الخصوص إلى جنيف ليقضي مع هذا الرهط الجدير بالمحبة بضعة أسابيع، ومن أجل لَفْتِ النظر الخصوصي يبعث إلى السيد فون هانسكي، الذي يجمع الأوتوغرافات، بمخطوط لروسيني، ويلتمس منه، بتواضع مؤثِّر أن يأذن له بأن يهدي إلى زوجته مخطوط «أوجيني غرانديه». أمّا أن هذا المخطوط قد دُوِّن فيه، بقلم الرصاص، بطريقة سرية، على الوجه الخلفي لورقة العنوان، اليوم الذي سيصل فيه بلزاك إلى جنيف، فذلك ما يظل بالطبع خافيًا على الزوج الطيب الذي مازال لايدري أن كلتا المرأتين اللتين تحيطان به منذ سنين، وهما زوجته هو، والأخت الورِعة، المربية، تتعاونان من وراء ظهره في العمل في رواية حياة السيد دي بلزاك.

وفي كانون الأول تكون كل الإجراءات التمهيدية قد اتخذت. ولم ينتظر بلزاك سوى ظهور رواية «أوجيني غرانديه» في باريس، وأصبح الكتاب انتصاراً من الانتصارات، أحرج حتى أكثر خصومه كراهية له، كما ملأ صندوق الرحلة من جديد، بطريقة مفاجئة، وجدّ مرغوبة. ولم يكن بلزاك قطُّ أجْرأ، ولا كان شعوره بالسرور أعظم، ولا كانت إرادته أصلب عوداً، مما كان عليه الحال في الخامس والعشرين من كانون الأول عام ١٨٣٣، إذ يصل إلى جنيف، وينزل في فندق ديلارك، ويجد، تحيةً أولى له، خاتمًا نفيسًا ثُبِّت عليه خصلة من الشعر الأسود الذي يحظى بالكثير من الإعجاب، تثبيتًا غير مرئيّ، وهو خاتم يَعدِ ُبالكثير، ولا يخلعه بلزاك من إصبعه طوال حياته، وكأنه طِلَّسْم.

ويظل بلزاك، على الإجمال، أربعة وأربعين يومًا، في جنيف. ومِنْ كل يوم من هذه الأيام تُخَصص، بالطبع، اثنتا عشرة ساعة للعمل. وفي توقيت متزامن مع الإعلان الذي يضاهي النشيد، عن مقدار السعادة التي ستتاح له في جنيف بفضل القرب من ملاكه أرسل إلى الملاك برنامج ساعاته الذي لا يرحم، وبموجبه سوف يعمل، هو أيضًا، في جنيف، من الساعة الثانية عشرة ليلاً حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً. وبالنسبة لبلزاك العامل لا توجد استراحة حتى في الفردوس، ولا ينبغي أن تخصَّص سوى ساعات ما بعد الظهر لأسرة هانسكي، أو لمدام دي هانسكا، من أجل الحب، أما الساعات الأخرى فتخصَّص لشعور هو على النقيض من هذا تمامًا: وهو الانتقام. وذلك أن بلزاك جاء معه بمخطوط دوقة لانجيه الذي يصف فيه مغامرته غير الموفَّقة مع دوقة كاستري إلى جنيف على وجه الخصوص، لاستكمال العمل فيهاواستدراك جزئيّاته، إلى المدينة ذاتها التي شهد فيها الرفض الحاسم، بل المهيمن من قبل الدوقة، ولم يكن حمله هذا المخطوط معه على وجه الخصوص، ليملأ وقت فراغه به، يخلو من غرض معين. وما من شك في أنه ينوي أن يمارس به ضغطًا نفسيًا على مدام دي هانسكا. فعندما يتلو عليها، أمسية بعد أمسية، كيف يعرف أديب طريقة الانتقام من امرأة عبثت بحبه عبث الغانيات، من دون أن تتيح له أدنى ما يتاح، عند ذلك لا يكون بُدٌّ للمرأة التي يخطب وُدَّها، والتي يطالبها، في صبر نافد، بالبرهان الأخير، أن تتعرّض للتخويف، بصورة شعورية أو لا شعورية، وأن يتولاّها الخوف، وأن توضع، من قبل يَدٍ لا تتعاطف ولا تَرْفُق، كهذه اليد، في مظهر الازدراء العلني. وعندما يقرأ المرء رسائل بلزاك، يدرك مقدار براعته في خلط الأوراق، في هذه اللعبة، ففي الوقت الذي يستعرض فيه، من ناحية، ومن خلال الكراهية- المكشوفة والشديدة التزويق- لدوقة كاستري، أمام تلك التي يخطب ودها- مقدار قسوته ولا هوادته، حيال امرأة لا ترحم، يكشف لها في الوقت ذاته، من خلال الحماسة المخلصة إخلاص الأطفال- والمزوَّقة تزويقًا مفرطًا أيضًا- والتي يتحدث بها عن مدام دي بيرني- إلى أي مدى يمكن أن يعرف

أديب كيف يكون عارفًا لجميل امرأة تتفانى فيه كل التفاني، جسداً وروحًا، من دون هواجس. ومهما يكن من قلة ما نعرف عن الأحاديث الخفية، خلال الساعات المختلسة التي كانت السيدة فون هانسكا تتيحها لبلزاك من وراء ظهر زوجها، فليس هناك شك في أن بلزاك يعمل جاهداً من أجل شيء واحد، هو «أن يرغم الملاك على أن يتنزَّل من السماء إلى الأرض» وأن يبذل له ما لم تبذلْهُ دوقة كاستري في المدينة ذاتها.

وفي البداية تتصدى مدام دي هانسكا الآن لهذه الرغبة الأخيرة- كما يتَبَيَّن للمرء من رسائل بلزاك ومناشداته- بمقاومة تنطوي على الحزم والعزم، ويخرج المرء بانطباع مؤداه أنها تفتقر إلى أدنى ثقة ببلزاك. على أنَّ كُتَّاب السيرة والسيكولوجيون تنازعوا تنازعًا عبثيًا وغير معقول في مسألة هل أحبَّت السيدة فون هانسكا بلزاك على وجه الإطلاق، وفي أي يوم من الأيام، أم لا، وكأنّ مفهوم الحب هذا مفهوم لا لَبْس فيه، وله حدود مرسومة بخطوط عميقة، ولا يمكن أن يطرأ عليه تغيُّر، ولا يخضع للتذبذب، ويتأثر بالعوائق، وضروب المقاومة. ولئن كانت ذات طبيعة شهوانية قوية كما تشهد بذلك حياتها اللاحقة، فإنها لم تكن، مع ذلك، غير مبالية، يغلبها الهوى الجامح، وقد كانت مراعاتها لطبقتها، ولسمعتها الحسنة، ومكانتها الاجتماعية تعوقها على الدوام، وكانت العينان الصغيرتان الداكنتان، القصيرتان النظر تستطيعان أن تَرَيا بوضوح على الدوام، وكان المحيّا المرمريّ، الذي أُعْجب به بلزاك إعجابًا ينم عن الهوى الجامح، يعرف كيف يحافظ على برودة الأفكار، وكانت مدام دي هانسكا حريصة، منذ البداية، على أن تظل هذه المغامرة، التي تواصل تورُّطها فيها، حين أرادت ذلك في الحقيقة، محصورة على الدوام في حدود الشيء غير المُلْزِم، وكانت، بذلك، على النقيض تمامًا من بلزاك الذي يلح على النهائيّ الحاسم. نافذَ الصبر. وتظل طوال حياتها تنظر إلى بلزاك نظرة تنطوي على شعور غير مُسْتَيْقَن، لأنها تحس تجاهه، بأحاسيس تختلف

باختلاف الأجواء، وتحكم عليه حكماً مختلفاً، فهي تعجب ببلزاك الأديب، على كثرة ما ترى من مواطن ضعف متفرقة، وتدرك، في الوقت الذي يضع فيه النقد الباريسيّ، في سرور بالأذى، مصحوب بالتجني، على صعيد واحد مع ألكسندر دوماس وكل الآخرين من كتاب الرواية، عظمتَه التي تبرز من القرن وحدها، غير أنها تنظر، بنظرها الثاقب، الصافي إلى الحد الخطير، أيضاً، إلى الجانب المبالغ فيه إلى الدرجة الكوميدية، من حالات وَجْده الغراميّ، وتكتسب، من أجل ذلك، أذناً يَقْظى، وهي من أجل ذلك، أكثر إرهافاً، تجاه الألوان اليسيرة من عدم صدقه، وأكاذيبه في بعض المناسبات، وتعاني المرأة الارستقراطية فيها من أشكال سوء السلوك، والذوق السيء، ومن الوله بالتظاهر بالعظمة عند ابن الطبقة الوسطى الذي لا يُرجى له شفاء، حتى عندما تُغْلَب على أمرها، بحكم كونها امرأة، أمام زَخَمه الشهواني. على أن كل الحشيش الذي يُخَضِّب به بلزاك رسائله، لا يستطيع أن يرغمها أن تغمض عينيها اليقظاويْن كل الإغماض، فهي تستنشق، في صلَفها، وفضولها، العبير القوي الغريب، من عبارات تغزُّله، ولكن من دون أن تسمح لنفسها بأن ينتابها السكِْر. أمّا مدى الوضوح الذي تُطِلّ به، منذ البداية، على هذه العلاقة بنظرة شاملة، فذلك ما تشهد به رسالة إلى أخيها ترجع إلى أيام نوشاتيل.

لقد تعرَّفت الآن، آخر الأمر، على بلزاك، وسوف تسألني أمازال إيثاري الأعمى له كالعهد به، أم تُراني برئتُ منه. وسوف تذكر أنك كنت تتنبأ على الدوام بأنه خليق أن يأكل بالسكين، ويرفع عقيرته بندائه وأوامره، فاتحًا شدقيه في منشفة المائدة. أمّا الآن فما زال لم يقترف الثانية من هاتين الجريمتين، على وجه الخصوص، غير أنه أدان نفسه بالإقدام على الأولى بالفعل، وبالطبع فإن من المزعج أن أشارك في رؤية هذا، وفي مناسبات شتى، عندما يرتكب الأخطاء التي نحن خليقون أن نعبِّر عنها، تعبيراً مُعَدَّلاً، بمفهوم «سوء التربية»، كنت أشعر بإغراء تصحيح سلوكه، مثلما أكون خليقة أن ألفت نظر آنا، مثلاً، في مثل هذه الحال، ولكن هذا كله ليس إلاّ المسألة السطحية، ففي الرجل شيء يعني أكثر من مجرد

السلوك الحسن أو السيِّء: وذلك أن طبيعته العبقرية تُكَهْرِبُك وترتفع بك إلى أسمى أقاليم الفكر، وعبقريته تخرج بك عن إطار نفسك، فإذا أنت تفهم وتدرك، عن طريقها ما كان ينقص حياتك. وسوف تقول لي الآن، مرة أخرى، إنني «مستثارةٌ قد جمح بي الخيال وفَرْطُ التوتُّر»، غير أني أؤكد لك أن الحال ليست كذلك بحالٍ من الأحوال. وما من شك في أن إعجابي به لا يجعلني على الإطلاق، عمياءَ حيال أخطائه ونقائصه- وما هذه بالقليلة عنده. غير أنه يحبني، وأنا أشعر أن هذا الحب هو أَنْفَسُ ما امتلكتُ في أي يوم من الأيام، وإذا لم يكن لنا بُدٌّ أن نفترق منذ اليوم فلسوف يلعب في حياتي دور مشعل يظل ضوؤه يرسل شعاعه أمام عيني المبهورتين- عينيَّ المسكينتين اللتين ينتابهما التعب حتى الآن كثيراً حينما أفكِّر في كل بؤس العالم واهتمامه بالصغائر، وفي البشر الذي يحيطون بي».

وهذه السطور من المجهولة يستطيع المرء أن يفترض أنها أكثر صدقًا من كل رسائل بلزاك. ولم يكن لها بدٌّ، من حيث هي امرأة، أن تُحس بالزُّهُوِّ لكونها محبوبة من قبل رجل يتمتع بمثل هذه العبقرية، ثم إنها طموحة بما يكفي لكي تفهم أنها ستصبح، بحكم كونها موضوعًا لمراسلة من هذا النوع، خازنة لوثيقة سوف تتخطّى العصر، وتصبح هي ذاتها- وهي المرأة التي لا يحفل بها أحد في ذاتها، وغير المنتجة- ظاهرة تاريخية، وتعدُّ وجهة نظرها في الأساس مماثلة، على نحو يلفت النظر، لوجهة النظر تلك التي تتخذها دوقة كاستري، التي كان من بواعث سعادتها وفخرها، على النحو ذاته، أن يخطب وُدَّها الأديب الشهير، ويحتفل بها ويُؤَلِّهَها، بل يحاصرها، غير أنها لم تكن تحسُّ تجاهه بعاطفة أو هوى، ولا هوس أو جنون كافٍ، بحبه لكي ترتضي إلحاق الضرر بسمعتها من جراء ذلك، ثم إنها تردُّ عليه بالإلحاح عندما يُلِحُّ عليها:

«ألا فدعينا نحبَّ! ولا تأبَيْ عليَّ هذا الذي يعني كل شيء، بلا ريب!»

ومن الواضح أنها تحس بالجانب المحرج والمخزي والمخلّ بالشرف، الكامن في تسلُّلها، من وراء ظهر الزوج ومن وراء ظهر ابنتها، مع علم المربية التي اشتُري ضميرها، متحجِّبةً، إلى حجرة بلزاك في الفندق. وكان يبدو أن بعض أشكال تبجُّج بلزاك، أو ضروب نزوعه إلى الثرثرة، هزَّت ثقتها، وكانت تخاف أن يكشف من خلال ثرثرته عن استسلام من جانبها، أو يستعمله استعمالاً أدبيًا، ولكنه يقسم لها أن استسلامها لن يزيد شعوره وامتنانه، إلا عمقًا.

«سوف ترين أن البذل والتفاني لا يزيد الحب إلاّ عمقًا وقوة... وكيف ينبغي أن أقول لك ذلك فحسب: فأنا امرؤ ينتابني السكر من جراء أدنى رائحة منك، ولو أنى ظفرت بك ألف مرة لما رأيتني إلا أكثر سكْرًا بك».

وهكذا تمرُّ الأسابيع، ويكتب بلزاك منذ منتصف الليل إلى الظهيرة في الرواية المقررة للطبع ويصف دوقة لانجيه وصفًا ينمُّ عن الحنق والغيظ، وهي التي تأبى على عاشقها العطاء الأخير، غير أنه يحاول، بعد الظهر، أن يحطِّم مقاومة امرأة تأبى أن تستسلم.

ولكن في هذه المرة تتحوَّل إرادة بلزاك إلى هوس أو جنون. وأخيراً تُلَوح له السعادة بإصبعها. فبعد أربعة أسابيع من الصدّ العنيد يهبط الملاك إلى الحجرة في فندق ديلارك مستعداً للخيانة الزوجية.

«لقد ظللت أَمّسِ أقول لنفسي طوال الأمسية: إنها لي! فواعجبًا لي، إن أهل السعادة في الفردوس لم يكونوا سعداء كما كنت أنا بالأمس».

لقد وصلت الآن رواية الحب المؤسسة على القواعد الرومانسية والمبنيّة بأسلوب الأساتذة المعلمين من الناحية التقنية، والتي اعتزم بلزاك أن يعيشها، إلى ذروتها. وها قد جعل بلزاك المسألة غير الراجحة حقيقة من الحقائق. لقد حلَم بامرأة لم يرها قط، لنفسه، شابّة، موسرة، أرستقراطية جميلة، وظل على صواب، وطلبها من دون أن يعرفها، وأصبحت عشيقته. لقد انتصرت إرادته ذات

الروعة الشيطانية، وابتدع حبًا من وَهْمٍ وحوَّله إلي واقع. على أن رواية حياته ليست بأقلَّ غنىً بالمفاجآت والأمور المشوِّقة، وغرابة الشخصيات والمواقف، من «الكوميديا الإنسانية».

ولكن الرواية مازالت لم تصل إلى نهايتها، لقد وصلت إلى ذروتها الأولى فحسب. لقد عثر العاشقان كلٌّ منهما على الآخر. إيڤا وهونوريه، وتعانقا، وأقسم كلٌّ منهما لصاحبه قَسَم الحب والإخلاص الأبديّ؛ ولكن ما العمل الآن؟ وبماذا سيبدأ كلا الخياليَّيْن، اللذين جرفتهما مغامرتهما، وأسكرهما هواهما؟ وإلى أين سيهربان، كلاهما، الآن، بحبهما؟ هل تتبعه مدام دي هانسكا الآن إلى باريس، وهل تتخلى عن الشيخ غير المحبوب في محنته؟ أم ستطالب، وهي ذات العقلية الأقرب إلى التفكير المدني، بالطلاق، لكي تصبح زوجة هونوريه دي بلزاك بحكم القانون، وتستبدل بالقصر في أوكرانيا والملايين شرف هذا الاسم؟ وماذا سيفعلان، وهما اللذان يبدو أنهما ماعادا يستطيعان أن يعيش كلٌّ منهما من دون صاحبه؟ وأي حل خيالي سيتفتّق عنه ذهن بلزاك من أجل هذا، وهو الغنيّ بالاختراع والابتكار؟

ولكن بلزاك ليس صاحب أوهام كبير، في رواية حياته، مثلما هو في كل الأمور الأخرى، بل هو في الوقت ذاته واقعيّ يتسم بالوضوح والصفاء. لقد كان وارداً في خطة حياته، منذ البداية: «امرأة وثروة»، وما من شيء يستثيره في هواه حيال مدام دي هانسكا كل هذه الاستثارة، مثل كونها، على أية حال، مدام دي هانسكا، أي أنها أرستقراطية ومليونيرة، وكانت «نجمة القطب» لاتفكر، على النحو ذاته، في أن تؤسس حياتها على أساس مسكن باريسيّ من مساكن أهل الطبقة الوسطى، ويكون عليها أن تفتح الباب في كل يوم لدائني بلزاك المتزاحمين، وبدلاً من أن تنتهي المسألة إلى خطفٍ، أو طلاق، أو مبارزة، أو إلى حلول رومانسية مماثلة، تنتهي، بعد حادثة الخطيئة، إلى اتفاق تجاريّ تقريبًا بين كلا العاشقين، إذ يتواعدان على أن يفضي كل منهما إلى الآخر، في كل يوم بمشاعره

وأحداث حياته، ويُهْدي كلٌّ منهما إلي صاحبه حُقّـاً صغيراً من باب الحَيْطة، لحفظ هذه الرسائل التي يريدان أن يكتباها، كلٌّ منهما إلى الآخر إلى ... ، إلى أن يتفضل السيد فون هانسكي بأن لا يقف في طريقهما مدة أطول، وسوف ينزعان في هذه الأثناء إلي أن يتلاقيا من حين إلى آخر من دون أن يلفتا الأنظار، وذلك، بحكم البدهية، بحيث لا تتعرض المكانة الاجتماعية لمدام دي هانسكا لأضرار ولا يُستثار لَغَطٌ ولا فضيحة. وسيرتبط أبيلار الجديد وهيلواز الجديدة، أحدهما بالآخر، عاشقًا وعشيقة، بمجرد أن تكون مدام دي هانسكا قد أصبحت، من جراء وفاة زوجها، سيدة ڤيرتسخوفنيا، ووارثة الملايين.

وقد تبدو هذه الخطبة، للطبائع العاطفية، بعد هذا التبديد للمشاعر، على شيء من البرود وقائمة على أغراض ومصالح، غير أن بلزاك لا يحسّ بشيء من الجانب المُحرج في هذا الحل في غمرة سكره. وماذا يعني بالقياس إليه عام أو عامان، وكذلك يقول إنّ الزوج السقيم المتكدِّر المزاج من دون سبب، لن يعيش أطول من هذا. ويقول له تفاؤله، بل تفاؤله الذي لا يتزعزع، إنه إذا حدثت المعجزة الأولى فستحدث التي تليها. وهكذا يصافح الزوج الذي لا يدري بشيء، والذي جرفاه كلاهما، بحرارة بالغة، ويشكر له كرم ضيافته والهدايا القيّمة المختلفة، ثم تنطلق مدام دي هانسكا بزوجها وبنيها ومتاعها في رحلة لهو واستمتاع إلى إيطاليا، ويعود بلزاك أدراجه إلي باريس، ليجلس إلى منصة كتابته.

الفصل الثالث عشر

الوداع في ڤينا

وعاد بلزاك إلى باريس، مفعمًا بالحماسة والانتعاش، مشحونًا بالطاقة أكثر مما كان عليه في أي يوم من الأيام. لقد انتقم من الهزيمة التي عانى منها، واحتفظ بالحق، بصفته رجلاً لأول مرة حيال امرأة كارهة كراهة جدّية، ولم يسبق له قطٌّ أَنْ كانت جرأته، وطاقته، أكبر مما كانتا عليه في هذه اللحظة. ولأول مرة يرى إمكانية تنظيم حياته التي مازالت غير آمنة، تتهدَّدُها الأنواء والكوارث على الدوام. وبموجب النزعة الدينامية في طبيعته لن يكون هناك بُدٌّ من أن تظل حياته حياة تضاهي السيل المُنْقض" (Vie torrentueuse). غير أن هذا الطوفان المنقض"، المُزْبِد الهادر المصطخب، المتلاطم، اكتسب، على الأقل، هدفًا واضحًا واتجاهًا واضحًا. ومنذ هذه اللحظة فصاعدًا تتوافر لبلزاك خطة حياة محددة سوف يتابعها، بالصحة والعافية والراحة الخاصة به وحده، والثائرة عليه نفسه، ثورةً لا هوادة فيها، وهي الراحة الناجمة عن الطاقة التي تدوس كل شيء بلا مبالاة، إنه يريد أن يستكمل «الكوميديا الإنسانية» خلال عشر سنين. وهي أكثر الأعمال الأدبية جرأة في القرن، العمل الذي هو خليق أن يتطلب في العادة، عمل حياة عشرة من البشر، ويريد أن يغزو قلب هذه المرأة ويتخذ منها زوجه يفترض أن تهْدِّىء ثائرة شهوته، وترضي صلَفَه الاجتماعي" بنسبها الرفيع، وأن تجعله، بملايينها، مستقلاً عن الناشرين، والصحف، وعن القسر الذي يضطرهُّ إلى الإنتاج المُتَكَلّف، والذي يغدو شيئًا لا يحتمل على نحو مطّرد الزيادة.

ولعل من أكثر الوسائل «التكتيكية، في عبقرية عند بلزاك أنه يعرف كيف يخفي الأسرار الحقيقية الإخفاء الأكثر أمانًا على الإطلاق وراء ولَع بالإفضاء يبدو بريئًا في الظاهر، ووراء ألوان من التبجُّح والهذْر والادّعاء. وعندما يتبجَّح بالأجور الهائلة فإنما يحدث ذلك في الأغلب لكيلا يفسح المجال لمن شاء أن يقدِّر مدى وقوعه تحت عبء الديون، وعندما يضع الأزرار الذهبية على ثوبه، ويقتني عربة خاصة فذلك لكي يحاول أن يموِّه حقيقة أنه لن لكون له بُدٌّ أن يظل مدينًا للخباز بثمن الخبز الشهري"، وعندما يبرهن لغوتييه وجورج صاند، بحجج دافعة، أن الأديب لا يقدر على أن يضفي على عمله الأدبي حرارة لاهبة وطاقة توتُّر، إلاّ بفضل عِفّة مطلقة، فإنما يفعل ذلك ليحول دون أن يشتبه الناس في النساء اللواتي يُلْمِمْن به في الخفاء، وفي الوقت الذي كان فيه الرومانسيون الآخرون يجهرون بعلاقتهم العاطفية على الملأ، ويحرصون على إعلام كل قرّائهم بمسرحيات غرامياّتهم- بأسلوب مسرحي" قدر الإمكان، في كل المراحل، التي سبقت، والتي كانوا فيها، والتي أعقبتها، كان بلزاك يمارس تحفُّظًا وحَذَرًا أنموذجيَّين. ومنذ هذه اللحظة التي يَلْقى فيها «المجهولة» بشخصها، يُخلِد إلى الصمت الكامل، حتى حيال أقرب أصدقائه إليه، وباستثناء تلك الرسالة التي كتبت في غمرة السّكْر الأول، إلى أخته، لا يذكر لأحد بعدها اسمها. أمّا زُلْما كارّو التي كان عليها بعدُ أن تكتب الجواب عن «الرسالة المقدسة» في أيامها، إلى «الأميرة الروسية أو البولونية»، فلا تعود تسمع مِنْ بَعْدُ إشارة منه، لا هي، ولا مدام دي بيرني، أو دوقة كاستري بالأحرى. وهو يحفظ كل رسائلها في حُقٍّ صغير يحمل مفتاحه معه دائمًا. أما إهداء رواية «سيرافيتا فيبلغ من عمومه أنه لا يمكنه أن يلفت نظر أحد إلى جانب الإهداءات الاثنتي عشرة إلى الدوقات والكونتات والأرستقراطيين والأرستقراطيات الأجانب. ويظل أقرب الأصدقاء، على مدى عشر سنين، لا يدركون شيئًا، ولا يحسون بشيء فيما يتصل بوجود مدام دي هانسكا. وبينما يعلن بفخر وانتصار، خطة غزوه للعالم بالكوميديا الإنسانية، يتكتَّم بمثابرة وإصرار،

وبـبـراعـةونجـاح، على وجـود هذه المرأة التي تتلقّى، منذ الآن فـصـاعـداً، كل اعترافاته، وتحفظ كل مخطوطاته، والتي اصطفاها لكي تنقذه من العمل في «زورق المجاذيف القديم الخاص بالعبيد» وتجعل منه رجلاً مستقلاً.

ولن يقول كلمة، ولا سيما لمدام دي بيرني التي يتوجه إليها الآن بُعَيْد عودته من جنيف، وذلك أن «الأثيرة» لا يجوز لها أن تعلم أنه اختار من يُؤْثرُها عليها» إذا شئنا أن نختار عبارته هو. وهو يعلم أنه لابُدَّ له من مراعاتها، ليحفظ عليها هذا الوهم حتى اللحظة الأخيرة، وهْمَ كونها المؤتمنة الوحيدة على أسراره، لأن صحة مدام دي بيرني تدهورت بسرعة، ولم يكن الأطباء يدعون لبلزاك مجالاً للشك في أنها لن تعيش بعد ذلك طويلاً. ويكاد يكون من الأمور التي تبدو ممتنعة على الفهم بالقياس إليه أن هذه العجوز، المتداعية، كانت، قبل وقت قريب، عشيقته.

«وحتى لو قُدِّرلها أن تتماثل للشفاء من جديد- وأنا آمُل ذلك، فسيظل من المؤلم بالنسبة لي أن أنظر إلى التحول الباعث للأسى، إلى الشيخوخة، وتبدو المسألة وكأن الطبيعة انتقمت لنفسها دفعة واحدة، وبضربة واحدة، من الاحتجاج الطويل، الذي كانت هذه المرأة تمتنع به من نواميس الحياة والزمن.

وإنه لأمر يضاهي رمزاً من الرموز: ففي الساعة التي تشرق فيها الشمس يتناب القمر الشحوب. وفي اللحظة التي قرر فيها بلزاك أن يجعل من امرأةٍ معيَّنة، الحاكمة المتفرِّدة المستبدَّة في حياته، ترحل الأخرى، التي وهبت له كل شيء.

وربما يكمن في أساس زيارة بلزاك هذه، لمدام دي بيرني، بعد أيام جنيف شعور خفيٌّ بالذنب. فإذا كان تخلَّص منها فلا ينبغي لها أن تعلم بذلك أو تحس به في قرارة نفسها. وإنما هي لحظة الإخلاد إلى الراحة بعد ألوان التوتُّر، ومرة أخرى يستطيع، في حضورها، أن يسترجع ذكريات الماضي، والطرق المظلمة، والملتوية، والوَعْرة، والشائكة، التي سلكها بتوجيه منها. ولكن يترتب عليه بعد ذلك أن يجتاز الطريق الجديد، الذي يفضي، آخر الأمر، إلى الحرية، وإلى المجد، وإلى

الثروة، وإلى الخلود، ويلقي بلزاك بنفسه في خضّم العمل، وقد اشتدّ أزره، وخَفَّتْ حدة توتُّره، وحَزَم أمره.

وربما لم يسبق له قطُّ في حياته التي ترزح أبدًا تحت وطأة الضغط الفائق وتشتدُّ حرارتها إلى درجة انفجار صمام الأمان، أن أنجز من العمل ما يَعْدِل في ضخامته، وجودته، وفيما اقترن به من الشعور بالسعادة والمجد، مثل الذي أنجز بعد عودته من جنيف، أتُراه النصر، النصر الرجوليُّ الأول الحقيقي، أم تُراها إرادته أن يقنع هذه المرأة بأنها منحت نفسها لرجل يليق بها وواعَدَتْه، أم تُراها الرغبة الأكثر واقعية، في أن يكسب ويجمع خلال عام، من المال، ما يجعله يستطيع، إذْ يخرج على الناس بمظهر الأُبَّهة، أن يرتحل مرة أخرى، في صورة الزوج الذي يتزوج عن حب» (Epouse d'amoure)، قبل أن تتوارى في مملكة الغَسَق الأوكراني؟ وعلى كل حال فإن بلزاك لم يسبق له، حتى خلال إنجازه الهائل، أن أنجز إنجازاً يعدل في ضخامته ما أنجز في هذا العام الواحد. ويذكِّره الأطباء، وقد انتابهم القلق، أن يراعي صحته، وقد انتابه، هو نفسه، الخوف في بعض الأحيان، من انهيار.

«لقد أخذت أرتعد، وأخشى أن يتمكَّن مني الإرهاق، واستنفاذ القوى، والعجز قبل أن أشيد صَرْح عملي».

غير أنه يكتب العمل بعد الآخر، وإلى جانبه العمل الآخر. ويالها من أعمال!

«لم يتحرَّك خيالي قطُّ في أجواء متباينة إلى هذا الحد».

وخلال عام واحد يَفْرَغ من كتابة «دوقة لانجيه»، ويكتب، في «مائة ليلة»، من حزيران إلى أيلول، «البحث عن المُطلَق»، ويكتب، في الوقت ذاته، في تشرين الأول، بداية «سيرافيتا»، وفي تشرين الثاني، وخلال أربعين يومًا، رائعته الخالدة، «الأب غوريو»، وفي كانون الأول، والشهور التالية «مسرحية على ساحل البحر -(Un dram au Bord de la Mer)»، وأجزاءاً أخرى من «امرأة في الثلاثين»،

ويصمّم، في ذهنه، الخطة من أجل «سيزار بيروتّو» و «الزنبقة في الوادي». وسيقول الناس: هذا مستحيل، ولكن ليس المستحيل وحده هو الممكن عند بلزاك، بل هناك ماهو أكثر من ذلك، لأنه يقوم في هذه الأثناء بتعديل الروايات السالفة، فيضفي على روايات «الثّوار الملكيون» و «جلد الحصان» و «العقيد شابير»، أشكالاً جديدة، ويبدأ، بالاشتراك مع جول ساندو، في مسرحية، ويضع «رسالة إلى الكتاب الفرنسيين في القرن التاسع عشر»، ويتنازع مع ناشريه، ويكتب فضلاً عن ذلك، في مواعيد دقيقة، وبإخلاص وأمانة، رسائله ويومياته، التي تقع في خمسمائة صفحة، إلى «الزوجة الغراميّة».

وفي الوقت الذي كان فيه بلزاك يُدَحْرِج، في كل يوم بلا استثناء، وهو سيزيف الأدب، حجر العمل، ويدحرجه، المرة بعد الأخرى، كانت مدام دي هانسكا تقضي فترة من العطالة والتجوال المثالي في إيطاليا، وتتنقَّل القافلة من فندق من فنادق النبلاء إلى آخر، وتقوم مدام دي هانسكا بالنزهات والتسكّع كيفما اتفق، وتدع المصورين يصوِّرونها، وتشتري ما في المحالّ حتى لتكاد المحال تفرُغ، وفي وسع المرء أن يدرك مدى سلطان مشاهدة البندقية وفلورنسا ونابولي، الذي لم يكن بُدٌّ أن يكون غلّابًا بالقياس إلى امرأة ذات تفكير ثقافيّ، قد خرجت حتى الآن من دائرة نفوذ روسيا، وكل ما يستغني عنه بلزاك أو يُحْرَم منه يتوافر لها بفيضه، ولديها الفراغ، والسرور، ولديها المال، وليس في وسع المرء أن يستفيد من المراسلة أيضًا، أدنى العلائم الدالة على أنها تقطع هذا التعطُّل الحُلْو من أجل عشيقها الكبير، وتُهْرَع إلى ذراعيه. وفي مقابل ذلك لا يستطيع المرء أن يغالب، في كثير من الأحيان، شعوره بأن ما يهمُّ مدام دي هانسكا في كل هذه العلاقة يتمثل في رسائل بلزاك أكثر كثيراً مما يتمثل في شخصه. وكانت تطالب على الدوام بهذه الضريبة مطالبة السيِّد الواثق المتمكّن، بينما كانت هي نفسها، وهي غير المشغولة على الإطلاق، والمتعطّلة- وما أكثر ما كان بلزاك يشكو من هذا- لا تقابل ما يبذله من

الجهد الهائل إلاّ في أحوال نادرة وغير منتظمة إلى حد بعيد، خلال عام الرحلة وتظل الآمرة الناهية تستطيع، على مدى عام الرحلة بأكمله، أن تنتظر رسائل صاحبها المسكين الطيب، والمخلص المطيع، في المحطة بعد المحطة.

ولم يكن بُدٌّ، بالطبع، أن تكون صيغة هذه الرسائل، ودرجة حرارتها، مختلفتين بالضرورة الآن. ويبدو أن المراسلة السريّة، كما كانت تذهب إلى ڤيرتسحوفنيا أو نوشاتيل، أو جنيف، لا تعود ممكنة، سواءٌ أكان ذلك بسبب يقظة الرقابة الإيطالية في حالة الرسائل ذات العناوين الموجَّهة إلى مركز بريد محدَّد، أم كان ذلك لأن هذا القدر الكبير من الرسائل الواردة من باريس إلى المربية السويسرية ذاتها لم يكن له بُدٌّ أن يلفت نظر زوج على هذا الجانب من اللامبالاة، والإفراط في الثقة بالناس، مثل مدام دي هانسكي. ولذلك يضطر بلزاك أن يوجه رسائله رسميّاً إلى مدام دي هانسكا ويصوغها بحيث يمكن أن يشارك في رؤيتها السيد فون هانسكي، أي أنه ماعاد يستخدم صيغة رفع الكلفة، ولا لقب «الملاك السماويّ»، ولا لقب «الزوجة الغرامية»، بل يستخدم عبارة «مدام»، التي يُرجى منها في كل مرة، أن تهدي التحية إلى «مارشال أوكرانيا العظيم»، وإلى آنا، والآنسة بوريل، وسائر القافلة. وماعاد ثمة توكيدات للحب الخالد، وماعادت هناك عبارات «العبودية»، وإنما يكتب بلزاك إلى مدام دي هانسكا وكأنه لم يجد فيها، في هذه الأسابيع في جنيف، إلاّ صديقة ذات اهتمام بالأدب، لا تخطئ في مضمار النقد، وهو يبجِّلها من أجل ذلك تبجيلاً لا حدود له، وهو يشعر أنه ملتزم حيالها بأن يروي لها تفاصيل حياته، وكان يفترض أن يثير انطباعًا يوحي، من حيث الظاهر، بأنه اندمج في تلك الأسابيع في جنيف مع الأسرة كلها، إلى حدٍّ بلغ منه أنه بات يحس بالحاجة إلى أن يواصل الثرثرة معها بالكتابة على الأقلّ.

وقد كان بلزاك خليقًا، بالضرورة، أَنْ لا يكون الكاتب العظيم والمحنّك لَوْ أنه لم يُضِفْ سِراًّ، وبهدوء، بين السطور التي يبدو عليها أنها مجرد ثرثرة، رموزًا سرية ضَئيلة لا يفهمها سواها، فعندما يعترف بولعه الحماسيّ بالمناظر الطبيعية السويسرية تعرف هي من هو المقصود بهذه الأشكال من الحنين إلى الماضي، وهكذا يتاح لها، مرة أخرى، العبث المغري بالسرور والخطر.

غير أن هذه الرسائل المُرْسَلَة إلى إيطاليا، وفيما بعد أيضًا، تلك المُرْسَلَة إلى ڤينا، لم تكتب للإبقاء على السيد فون هانسكي في حالة تصوُّره الخاطئ فيما يتصل بالصورة الفكرية والأدبية البَحْتَة لصداقتهما، بل لتبعث الطمأنينة أيضًا في نفس مدام دي هانسكا فيما يتعلق بكونها مازالت حبَّه الوحيد، وأنه سيظل وفيًّا لها، لا يتغيّر حتى في حالة البُعد. ويبدو أن هذه الخطْبة الغريبة، مع تجاوز الزوج الذي مازال حيًّا ثبّطت لدى مدام دي هانسكا مثل هذه الرغبة في بلزاك، أو أنَّ هذا وعدها، بجسارته المعتادة، بأن يعود على الفور، إلى حالته السابقة، حالة العفَّة، وعلى كل حال تتصاعد رسائل بلزاك في توكيدها مدى وحدته، وعزلته، وإلى أيّ مدى يقضي، لا أيامه فحسب، بل لياليه أيضًا، مُعْرِضًا عن العالم، وما يفتأ يتحدَّث، المرة بعد الأخرى عن حياة «الرهبانية» التي يعيشها، ويؤكِّد أنه،

«لم تكن هناك وحدة أكثر كمالاً من وحْدَتي، »

أو:

«أنا وحيد كصخرة في خِضَمّ البحر، وعملي الأبديّ لا يوافق ذوق أحد من البشر» أو، مرة أخرى:

«وها أنذا أقعد هنا، وحيداً على قدر ما يمكن أن تتمنّاه امرأة تعاني من كل الأشواق إلي حبها، دائمًا»

ولكن الأمر الذي ينطوي على الطامّة والشؤم هو أن مدام دي هانسكا تبدو أنها لا تصدق تَوْكيداته كل التصديق، وكانت قد أدركت في جنيف، بحكم كونها امرأة ذكية حادَّة الملاحظة، مقدار قلة الشبه بين بلزاك وبين الصور الذاتية

الرومانسية، المؤثّرة، التي يصممِّمها، عن نفسه، في رسائله، وهي تعرف كيف يكون خياله في كل وقت طوع إرادته. وما من شك في أنها ضبطت مخترع الأقاصيص الذي لا يحمل همًا ولا هاجسًا، عشرات المرات، وهو يروي أمورًا لاصحة لها، وربّما كشفته اللقاءات في حجرة الفندق بجنيف، في صورة مختلفة كل الاختلاف، عن صورة الزاهد الوجِل غير الخبير، والذي لم يتمرَّس بالحب ّإلاّ قليلاً وكان يبدو، فوق هذا، أن ثمة وكالة أنباء قوية للغاية تعمل وراء ظهره وربما لم يكن إعطاء مدام دي هانسكا لبلزاك عند رحيله من جنيف، رسائل توصية إلى الارستقراطية الروسية والبولونية، أمرًا يخلو من قصد معين، ولابدَّ أن أنباءًا وصلت من هذه الأوساط، أوساط آل بوتوكي أوكيسيليف جعلت القول بأنه يمضي وقته في مجرد الحزن على مدام دي بيرني المريضة، وفي عزُلة عمل صلبة كالفولاذ، يبدو لها مشكوكًا فيه. فبلزاك معروف في باريس بدرجة أكبر من أن لا يُرى عندما يظهر مرتين في الأسبوع في «مقصورة النمور»، وذلك دائمًا، في ظل أرستقراطية بالغة الحُسْن ومعروفة في المدينة أيضًا كما أنه لا يمكن أن يظل خافيًا، أن عَبْدَ «قارب المجاذيف القديم المسكين» قد اتخذ لنفسه بالإضافة إلى مسكنه في شارع كاسيني، مسكنًا ثانيًا أيضًا في شارع ديباتييٌ، وأنه اشترى لنفسه، من لَدْن أول صائغ في باريس، تلك العصا الشهيرة، عصا التَسْيار، بسبعمائة فرنك، وهي العصا التي يتحدث الناس عنها، كما يسلِّم هو بذلك، أكثر مما يتحدثون عن أعماله ُكلها. ولا بدّ أن مدام دي هانسكا قد ألمحت له على أيّ نحو من الأنحاء، إلى أنها ليست على جانب من السذاجة بحيث تسمح لنفسها أن تُخْدَع، إذ من الواضح للعيان أن بلزاك يُحْشَر في مأزق، وما يفتأ يؤكدلها- وهذا موُجَّه، في الرسالة الرسمية، نحو الصداقة، غير أنه لا يستطيع ألاّ أن يشير، بمعنى واحد إلى «أن عدم الثبات أو عدم الإخلاص لا يمكن أن يقترنا بطبيعتي» ويحاول، ببراعة، أن يحتاط لنفسه من أجل حالة تتمثل في إمكان أن يكون أحد قد روى لها أية واقعة ثقيلة الوطأة، بكلمة تضاهي حركة بارعة مفاجئة في الشطرنج، إذ يقول: «هناك نساء يباهين بأنهن يعنين

شيئًا ما في نظري، وأنهن يأتين إليّ»، ولكن هذا كله أكذوبة، واغتياب، ومبالغة. وكل ذلك ناجم عن الشعور بوحدته المتناهية في العمق- «ولما كنت متلهفًا على شعرْ، أفتقر إليه وأنت تعرفينه أحسن المعرفة» (وليفكر المرء في اللحن المأخوذ من الفيجارو «هذا ما ستفهمه!» فقد رميت نفسي في خضم الموسيقا. كلاّ، هذا شيء لا يمتُّ بصلة إلى المجتمع، ولا إلى العالم»:

«سماع الموسيقا: هذا أمر يعني أن يحبّ المرء موضوع حبّه بمزيد من العمق فحسب أي: أن يفكر باستمتاع، بأشواقه السريّة، إنه يعني النظر في العيون التي يحب المرء لهيبها، والتي تحب سماع الصوت المحبوب».

غير أن سيدة القصر ماعادت تثق بالرجل «الطيب المسكين»، على الرغم من أنه، أو ربما لأنه، يعرف كيف يصوِّر كل شيء، وكيف يقلب تصوير كل شيء، بهذا القدر من الروعة. ولما كانت علاقتها ببلزاك لا يمكن أن يُكْتَب لها البقاء والثبات إلاّ عن طريق الثقة- ولم تكن مدام دي هانسكا، بحكم كونها سيدة عظيمة، تخاف من شيء مثل خوفها من الحذر والتحفظ من جانبه- فإنه يبدو أن تحفُّظًا وحيطة معيَّنين قد أخذا في الظهور عندها، وباتا يثيران قلق بلزاك. ومع الصيف تنتهي الرحلة الإيطالية، وترتحل القافلة إلى فينا لكي تقضي الشتاء هناك. وفي الربيع سوف يعود السيد فون هانسكي بزوجه من جديد إلى القصر المنحوس عند نهاية العالم المتحضرّ، وعندها تتوارى «نجمة القطب»، هذا الضوء الباعث للأمل في سماء بلزاك، إلى الأبد، وإذاً فمن الضروري أن يكون لقاء جديد على نحو مطلق، وإنعاش، وبَثٌّ للنار، وبَثٌّ للدم في العلاقات الحميمة، إذا كان لا يريد أن يخسر تلك التي ظفر بها ذات مرة، من جديد، ولا يجوز له، في اللعبة الكبرى من أجل حياته، أن يدع أفضل الأوراق الرابحة تفلت من يده، وإذاً فإلى ڤينا! أمّا الذريعة فمن السهل إعطاؤها، ويعلن إلى كل أصدقائه، وإلى السيد فون هانسكي أيضًا، أنه لابُدَّ له، من أجل الرواية التي خطَّط لها «المعركة- La Bataille» أن يرى ميادين المعركة في أسبيرن وواجرام، ومع ذلك ينقضي الخريف، وينقضي

الشتاء، ولا يستطيع بلزاك أن يسافر، وتظل هي العقبة ذاتها، في صور مختلفة، رواية لم تنته بعد، وأجور يحتاج حاجة مطلقة إليها قبل السفر، ودَيْن لابدَّ له أن يسدِّده لكي يستطيع أن يدخل تحت وطأة دين جديد، أكبر، ولكن لكيلا يدع النار التي خمد لهيبها إلى حد ما، تبردُ، وقبل أن يستطيع أن يشعلها بلَهَبها القديم، بعاصفة حضوره، مرة أخرى، يكتب الرسائل بعد الرسائل، ويظل، المرة بعد الآخر، يبعث العزاء والطمأنينة بلقاء قريب متجدِّد.

ويكاد يُحبْطِ حادثٌ ينطوي على سوء الحظ، هذا اللقاء إلى الأبد. ففي نهاية تموز تعود قافلة آل هانسكي أدراجها إلى ڤينا، ولمّا كانت الرسائل السرية إلى هناك تؤدي عملها على نحو لا شائبة فيه، فإن بلزاك يعتقد أن في وسعه أن يبعث برسالة ليست مخصصة للزوج على أنه مشارك في القراءة، تكون ناريّة، إلى مدام دي هانسكا، موجّهة إلى دائرة بريد محدَّدة، وفي هذه المرة ما عاد يوجد لقب مدام، ولا مخاطبة بصيغة التكلُّف والتوفير، ولا تذكار ودي «للمارشال الأكبر»، المسيو دي هانسكي، ولا تحياتٍ إلى الآنسة سيڤيرين وهنرييت بوريل، بل سيول دفَّاقة من الرقِّة اللاهبة:

«أوّاه، يا مَلاكي، ويا حُبّي، ويا حياتي، ويا سعادتي، ويا كنزي، ويا أغلى الغوالي- ما أشدَّ هَوْلَ ما كان عليه هذا التحفُّظ المفتعل! وياله من سرور، أن أتمكَّن من أن أكتب إليك من القلب إلى القلب».

وهكذا تبدأ رسالة بلزاك، هذه الغرامية، الجامحة، العاصفة، التي كانت كأن السرور والرغبة يزلزلانها وهي تعلن أنه سيسافر في العاشر من آب إلى بادنِ تلقاء ڤينا، حيث آل هانسكي.

«سوف أُهْرع إليك في مثل سرعة الريح، أمّا متى، فذلك مالا أستطيع أن أقوله سلفًا، إذ لابُدّ لي أن أبذل جهوداً جبّارة لآتي إلى هناك، غير أني أحبك بعنفوان فوق عنفوان البشر».

وبعد «ستة أشهر من الشوق والحب المختزن» يريد آخر الأمر،

«أن يقبِّل المُحَيا المُبجَّل، وأن يحسّ بالشعر الحبيب»

وإن ثلاثة أيام مجتمعة، معها، لخليقاتٌ أن يَهَبْنَ له «الحياة والقوة على مدى ألف سنة».

ومن المؤسف أن هذه الرسالة تقع الآن في«يد القطة الصغيرة البيضاء العزيزة»، أو رسالة أخرى تماثلها في السمة الحميمة، في يد السيد فون هانسكي، الذي كان حتى الآن لا يعلم شيئًا البتة، ويبدو كأن مشهداً شديد الوطأة قد حدث، ولا نعرف عنه شيئًا. ذلك لأن بلزاك الذي أجَّل رحلته في هذه الأثناء نتيجة لصعوبات مالية، يضطر فجأة إلى تناول القلم لكي يشرح للسيد فون هانسكي ما حمله على أن يبعث إلى مدام دي هانسكا بإعلان الحب، ذلك الإعلان غير المفهوم، وليست هذه بالمهمة السهلة الآن، بالنظر إلى الواقعة الواضحة، ولكن كاتبًا روائيًا يتمتَّع بمثل المقدرة على الاختراع التي يتمتع بها بلزاك، الذي لا يخاف من المسألة غير الراجحة، لا يكلفه اختراع حكاية مُستَطْرَفة، إلاّ قليلاً من الجهد. وبالجسارة نفسها، التي ساق بها في بداية المراسلة، إلى مدام دي هانسكا، قصة الخطوط المختلفة التي يعتمد عليها في أحواله النفسية المختلفة، من دون هاجس أو مبالاة، يُقَدِّم الآن إلى ذي القُرون المُستاء، أسطورة باعثة للبهجة، وهي أن مدام دي هانسكا، «المخلوق المتناهي في طهارته، والطفلة الخالصة الطفولة، والأكثر جدّية على الإطلاق، والأكثر ميلاً إلي الدُعابة والمزاح، والأكثر ذكاءً، والإنسانة الأكثر قدسية وفلسفة، بين مَنْ عرفت في حياتي،»:

قالت له ذات مساء وهي تضحك، إنها تودّ لو تعرف كيف يكون شأن رسالة الغرام الصحيحة»، وأنه ردَّ على ذلك، وهو يضحك: «أتُراكِ تقصدين رسالة مثل رسالة دي مونتيران إلى ماري ديفيرنيي»، وبذلك تقصدين رسالة بأسلوب الشخصيتَّين الرئيسيّتين في روايتي «الثوار الملكيين». وقال إنهما مارسا المزاح في

هذه المسألة ببراءة. وحين ذكرت مدام دي هانسكا تلك الدعابات الماجنة، كتبت إليه من تريستا، تقول: «هل نسيت ماري ديفيرنيي؟» وأن هذا ذَكَّره أول مرة بأنه يريد أن يعرض عليها أنموذج رسالة غرامية صحيحة، وأنه وجه اثنتَيْن من هذا النوع إلى ڤينا- وهما الرسالتان اللتان يبدو أن السيد فون هانسكي عثر عليهما مع اقتران ذلك بقَدْرٍ من المفاجأة يعدل ما اقترن به من السخط. على أن تقديرنا أن مثل هذا التأويل سيكون قابلاً للتصديق بالنسبة لرجل يتسم بالذكاء على أية حال يعني أن نعدَّه غبيّاً، غير أن انعطافة بلزاك التالية تغدو أكثر براعة بدرجة هامة. وذلك أنه يروي، أن مدام دي هانسكا أجابته على الفور وهي متذمرة، بعد الرسالة الأولى- أي قبل اكتشاف كلا الشاهدَيْن اللذين يلحقان الضرر به من قبل مدام دي هانسكا، قائلة:

«أنت لا تستطيع أن تتصورَّ على الإطلاق كم كنت محطَّمة من جرّاء نتيجة هذا المقلب السخيف. لقد أجبتني بأقصى قَدْرٍ من البرود على الرسالة الأولى من رسالتيَّ الهزليَّتين- وقد كنت كتبت بالإضافة إليها ثالثة أيضاً!»

وإذا فبدلاً من أن يعترف للزوج المخدوع، بصراحة، بأنه خدعه، أو يعتذر إليه عن سوء التفاهم هذا، يرجو بلزاك الآن- وهذه لفتة عبقرية حقّاً- من السيد الشهم النبيل، فون هانسكي، أن يقف إلى جانبه، ويساعده في تهدئة ثائرة المرأة البريئة، العفيفة، التي لا سبيل إلى الدنُوِّ منها، في غضبتها عليه. وإنه لمنطق غريب، أن يقول له إن نسيان السيدة فون هانسكا لتلك الدعابة الخاصة برسالة مدام ديفيرنيي، هذا النسيان على وجه الخصوص يثبت أنها تحسُّ بمجرد قراءة رسالة غرامية، حتى وإن كانت تُعْرَض عليها في صورة عيِّنة هزلية، على أنها مخالفة فظّة لقواعد اللياقة والتهذيب.

«إن تَرَوّي مدام دي هانسكا وتبصُّرها يعدُّ برهاناً نبيلاً للغاية، على مدى سخف تصرُّفي، وعلى مدى قدسيَّتها، وهذا ما يُعَزّيني».

ويلتمس من السيد فون هانسكي، («إذا قُدِّر للصداقة التي ربّما أضرَّ بها المزاح، أن تكون مازالت قائمة»)، بحكم كونه وسيطًا طيبًا، أن يُسَلِّم مدام دي هانسكا، المجلد الثالث من كتابه «دراسات في الأخلاق، والمخطوطات. وإذا كانت هي، أو حتى هو، ماعادا يجدان أنَّ من المناسب أن يتلقيًا منه، أي من المُمازِح الذي ليس بأهل لذلك، آيات الصداقة،

«فليتفضَّلا عندئذ بإحراق المجلدات والمخطوطات»

وحتى إذا شاءت مدام دي هانسكا أن تُنْعِم عليه بعفوٍ عام، فلن يستطيع هو مع ذلك، أبداً، أن يغفر لنفسه أنّه أثار حفيظة هذه النفس النبيلة لحظة من الزمان، أوكدَّرها.»

«وما من شك في أن قدري أن لا أراك مرة أخرى أبداً، وأودُّ أن أؤكد لك مقدار أسفي الشديد لهذا. وأنا لا أتمتّع بقدر من العلاقات القلبية الحميمة في وسط معارفي يبلغ من ضخامته ما يجعلني قادراً على أن أخسر واحدة منها من دون دموع».

ومع بُعْدِ بلزاك كل البُعْد، عن أن يعتذر للزوج، يتقرَّب من الزوج المخدوع ببراعة جديرة بالإعجاب، إلى درجة تُمكِّنه من أن يلتمس منه أن يبقى، هو وزوجه، على اتصال، بالرسائل، معه، بعد ذلك، وأن يُصِرَّ على استئناف الصداقة التي تجمع بينهما، من دون تكدير لصفْوِها.

فهل بلغَ السيدة فون هانسكي، بالفعل، هذا القدر من طفولية نفسه لكي يصدق تصوير بلزاك اللامعقول؟ أم هل تُراه تعزّى عزاءً فلسفيًا نتيجة لوعيه أنه سيكون هناك، على أية حال، خلال بضعة أشهر، ألف ميل يفصلن بين زوجه وعشيقها؟- أم حملته مدام دي هانسكا، التي لا تريد أن تتخلّى عن التراسُل النفيس، وعن دور «الحبيبة الخالدة» على اللين والإذعان، وهذا هو الأرجح على

الإطلاق؟ كلُّ ما نعلمه فحسب هو أن كلا الزوجين سايَرا المسرحية الهزلية التي رتَّبها بلزاك في تصديق ظاهريّ لها. ويكتب السيد فون هانسكي إلى بلزاك رسالة (من المؤسف أنها لم تُحْفَظ لنا)، وتُنْعِم مدام دي هانسكا على الخاطئ بصفحها، في شهامة، لأنه يستطيع بعد شهر من هذا أن يكتب قائلاً:

«ها أنذا أستأنف مراسلتنا بموجب تسلسل مرتبة جمالكم (وهذه الكلمة الأخيرة تبدأ بحرف كبير، مثل رِفعتكم، وشرفكم، ومقدرتكم الكبيرة الفائقة، وقداستكم، وسعادتكم، وجلالتكم)- والجمال يلخِّص هذا كله»

لقد عاد الإنسان المسكين الطيب، بعد أن تمرّغ في الرغام على قدر ما ينبغي له، فحظي بالقبول من جانب سيد القصر وسيدة القصر في ڤيرتسخوڤنيا، وبات من حقه أن يُواصل إشاعة البِشْر والمرح في نفوس أصحاب السيادة عن طريق الرسائل، وأن يروي لَوليَّة نعمته صاحبة المقام الرفيع أحداث حياته المتواضعة، بل يُباح له أن يعود إلى ڤينا مرة أخرى، ليحظى بشرف المثول المتواضع في زيارة للتعارف قبل أن تعود قافلة آل هانسكي من جديد إلى أوكرانيا.

أما سوء التفاهم الذي لم يكن، كما نعلم، قابلاً لسوء الفهم على الإطلاق، فقد تمَّت تجليته من حيث الشكل، وبات في وسع بلزاك أن يرتحل إلى ڤينا وينبغي أن يفعل ذلك، ولكن الوقت يغدو تشرين الثاني، ثم كانون الأول ثم يحل كانون الثاني، وشباط، وآذار، ونيسان، وما تفتأ توجد عوائق جديدة. أو بالأحرى، العقبة الكبيرة الواحدة: بلزاك لا يملك المال من أجل الرحلة، لقد عمل بتركيز، ومثابرة، وبإلهام يظل حتى عنده، وهو هذا الجبّار من جبابرة العمل، غير مفهوم. لقد فرغ من «الأب غوريو»، هذا الرائعة الخالدة، وثلاث روايات أخرى، وسلسلة من الأقاصيص، وحقق بذلك أكبر نجاح حتى الآن، وأوفر الأجور، ولكن ماتجمعه اليد اليمنى، الكاتبة، في عملٍ جلْدٍ وسريع مصحوب بالسكر في الوقت ذاته، تبدِّده يدُ المتلاف اليُسرى من دون أن تكون له الخِيَرَةُ من أمره. فالمسكن الجديد

وتجهيزه، اللذان لم يكونا مخصَّصين له على الإطلاق، كما يُستفاد من رسائله إلي مدام دي هانسكا، بل كانا مخصصين لجول ساندو، لم يكونا مدفوعي القيمة إلاّ جزئيًا، وكان تجار المجوهرات والخياطون وتجار البُسُط قد اقتسموا موارد رواية «الأب غوريو» ورواية «سيرافيتا» السيرافيّة (*)، سلفًا فيما بينهم، ومرة أخرى يخرج حساب بلزاك المبني على أن يشتري لنفسه شهراً واحداً من الحرية بخمسة أشهر من العمل الفائق الجبار، حسابًا خاطئًا، ويضطر إلى أن يعترف، قائلاً:

«إنني أشعر بخزْي ومهانه عميقين، إذ أظلُّ مغلولاً بهذه القسوة إلى عبء ديوني، شأن القِنِّ من الأقنان، ولا أستطيع أن أبارح مكاني و لا أملك حرية التصرُّف بنفسي ذاتها»

ولكن يبدو أن مدام دي هانسكا هي التي تأخذ في الإلحاح الآن. ولا تستطيع أن تحمل السيد فون هانسكي الذي يهمُّ بالعودة إلى أملاكه، على البقاء في ڤينا إلى الربيع، بمعاذير شتى، إلاّ بأقصى الجهد. فقد كان نيسان هو الحدُّ الأخير، ولكن بناءاً على الثقة بقبول بلزاك أن يقعد على الفور بعد الفراغ من رواية «سيرافيتا»، ومعه المخطوط المخصَّص لها، في عربة الرحيل، تحصل على تمديدٍ للإقامة حتى أيار، ويُستبعَدُ المزيد من انتظار ذلك الذي لا يُعْتَمَد عليه، والذي ما يفتأ يختلق أسبابًا جديدة للتأجيل. فإذا لم يأت بلزاك الآن فمعنى ذلك أن الرواية قد لقيت خاتمتها على الأرجح، إلى الأبد.

ويدرك بلزاك أنه ماعاد يجوز له أن ينتظر أطول من هذا. ولما كان الزواج بعد وفاة السيد فون هانسكي يبدو أنه يمثل الفرصة الحاسمة في حياته، فليس من حقه أن ينتابه الوجل من بَذْلِ أي شيء. والحق أن رواية «سيرافيتا» قد بيعت ورُهِنَت، غير أنها لمّا تكتمل، ولكن هذا لا يهمّ، فسوف يكملّها في ڤينا، وهو لا يملك المال،

(*) نسبة إلى صيرافيم، ملاك الدعاء في العهد القديم، على شكل أفعى لها ستة أجنحة، وهو عند اليهود من ملائكة الطبقة الأولى ومن حراس عرش الله. «المترجم»

ولكن هذا لا يكدِّره، إذ تُرسل فضيات المنزل في شارع كاسيني بأكملها إلى بيت الرُّهونات، وتنتزع السُّلَف من الناشرين ومن الصحف، ويتم التوقيع على بضع «كمبيالات» جديدة. وفي ٩ أيار يغادر باريس، ويصل إلى ڤينا في ١٦ أيار.

ويتم القيام برحلة بلزاك إلي فينا من أجل تعميق معرفة العبقري بالشخصيات تعميقًا لا يُسْتهان به، ولن يجد المرء مثالاً على ذلك أكثر اكتمالاً من مدى الحماقة التي يمكن أن يكون الدماغ الأفضل تنظيماً، والأكثر استقلالاً على الإطلاق وعلى وجه الخصوص، مؤهَّلاً لها. وذلك أن من شأن الضوء القويّ أن يُلقِي ظلالاً قوية، ولابدَّ، بحكم الضرورة، لكل ضعف، أو طفوليّة يظلاّن عند الإنسان العاديّ لا يلفتان النظر، ويُطْرحان جانبًا بابتسامة ودية متسامحة، أن يحدثًا أثرًا شائهًا في حالة رجَل مثل بلزاك الذي لا تُقارَن معرفته بالعالم إلاّ بمعرفة شكسبير به. لقد تفوَّق بلزاك على نفسه ذاتها بروايته «الأب غوريو»، بل إن أشد خصومه لَدَدًا في الخصومة، وهم الذين كان يقضُّ مضاجعهم ويثير غيظَهم حتى الآن، مجردُ كَمِّ العمل الذي تهيَّأ للعقل إدراكه أو الإحاطة به، يضطرون الآن، خلافًا لإرادتهم، أن يؤدّوا فروض الاحترام لعبقريته، ثم إن الجمهور يبُجِّله، كما أدرك الناشرون وأدركت الصحف قوة جاذبية اسم بلزاك، وكان مجرد الإعلان عن رواية له ينتهي بالطبعة إلى التصاعد، وتأتيه المبايعات من كل المدن ومن كل البلدان، وما عاد بلزاك يمكن أن يخطئ في تقدير أنه بات قوة عظمى، وندًّا لكل أمير من أمراء أوروبا.

ولكن مع كل هذا المجد- وهنا يكمن الموضع الذي تُخيِّم عليه الظلال في دماغ بلزاك المشرق، أقول مع كل هذا المجد، ومع وعيه بتوافر كفاءة لديه على مستوى تاريخ العالم يظل بلزاك يهيمن عليه الطموح الطفولي إلى أن يحدث التأثير الفائق بمالا يتَّسم به على وجه الخصوص وما لا يملكه أيضاً، إذ يريد، وهو حفيد الفلاح، أن يتمّ تقييمه على أنه أرستقراطيّ، وأن يُنْظَرَ إليه، وهو الغارق في ديونه

حتى عنقه، على أنه رجل من أهل الثراء. ويبلغهُ، من خلال الأخبار التي تأتيه من قبل مدام دي هانسكا، أن مجتمع النبلاء في ڤينا ينتظره بفارغ الصبر، وإذا هو يستحوذ عليه الطموح غير المفهوم، والمشؤوم، إلى أن يخرج على هؤلاء الأرستقراطيين وأصحاب الملايين، الذين لا يؤثّر في نفوسهم شيء على وجه الأرض كتأثير العبقرية المستقلة، المتمردة الشامخة، كما يظهر ذلك سلوكهم تجاه بيتهوفن، في صورة ندٍّ لهم، إذْ لا يجوز لآل إستر هازي، وآل شفار تسينبرج، وآل لوبوميرسكي، وآل ليشتنشتاين، أن ينظروا إلى سيد مثل السيد دي بلزاك، آخر الأمر، نظرتهم إلى أديب مسكين، أضناه الفقر، مثلاً وهكذا يتجهَّز بلزاك- كما يقول- بأكثر الثياب أناقة وهنداماً، ولكنه، في الحقيقة، الأكثر اتّساماً بسمة الوصوليين، ويتّخذ لنفسه مؤلف «لويس لامبير» و «الأب غوريو»، أكثر قطع الثياب أُبَّهة وفخفخة، ومنها:

عصاً للتَّسْيار تغدو موضوعاً للحديث اليومي في باريس كلها، و «منظاراً له قبضة بالغ الروعة أوعز إلى أصحابه من أهل السيمياء أن يصنعوه له على وجه الخصوص لدى عالم العدسات في المرصد، ثم أزرار ذهبية على حُلّة الفراك الزرقاء وهي أزرار نقشتها يدُ واحدٍ من الجن.

وكان من البَدَهي أن لا يرتحل زوج المستقبل لتلك المولودة باسم رزيفوسكا- إذ يتوقع بلزاك دائماً أن تكون رغائبه باتت حقائق- في عربة بريد مألوفة، شأن الآخرين من الفانين، إلى ڤينا، بل يطلب السيد النبيل، دي بلزاك، الذي يبلغ منه أنه يسمي نفسه في الطريق مركيزاً، عربة خاصة به تُزيَّن بشعارات أسرة دانتراج التي لا تعود إليه على الإطلاق، ويتخذ لنفسه، في الطريق، خادماً في حلَّة الخدم الرسمية- وهذه حماقة تلتهم وحدها خمسة آلاف فرنك، ولا تلاحظ مع ذلك من قِبَل أحد خلال الإقامة بڤينا، وذلك ما يبعث على الاستياء والغيظ عنده. وعلى وجه الإجمال تكلفه الأسابيع الثلاثة االبائسة من هذه الرحلة، التي يقضي منها

نصفها على منصَّة الكتابة في فندقه، وثلثها في عربة السفر ذات التكاليف الباهظة، خمسة عشر ألف فرنك سوف يضطر إلى كسبها بالعمل في المئات والمئات من ليالي العمل في قارب تجديفه الباريسي الخاص بالأشغال الشاقة.

ولمّا كان آل هانسكي يقطنون في القطاع الثالث في حي الدبلوماسيين النبيل» فقد اختاروا لبلزاك حجرة في فندق «الكمثرى الذهبية»، على مقربة مباشرة منهم، وهي حجرة ذات اختيار متناهٍ في غرابته إلى الحد المضحك، كما سوف يتبيَّن عما قريب، ففي السرير ذاته، الذي سينام فيه بلزاك، كان أطلق النار على نفسه قُبَيْل ذلك، شارل تيرون، أمين سر الكونت رازو موفسكي، والزوج السريّ لزوجة أخيه، الكونتيسة لولو تورهايم، وفي يده اليمنى المسدس، وفي يسراه رواية لبلزاك. ومنذ الخطوة الأولى لبلزاك فوق العتبة، يعرف إلى أي مدى بلغت شهرته وتأليهه في ڤينا- وما كان في حاجة على الإطلاق إلى الخادم في الحُلّة الرسمية، وإلى شعار النبالة العائليّ الزائف، ويتم تعويضه هنا عن كل الإساءات التي لقِيَها في ضاحية سان جيرمان بباريس، ومن قبل رفاقه البغيضين، وتعمل أنبل الأرستقراطيّات على الظفر باستقباله في قصرها ويرجو أعلى الرجال شأنًا في الأمبراطورية، وهو الأمير ميترنيش، المنتصر على نابليون وسيد أوروبا الدبلوماسيّ (وهو، فوق هذا، سلَفُ بلزاك لدى دوقة أبرانتيس) من الأديب الشهير، أن يَقْدَمَ عليه، على الرغم من أنه لم يقرأ له إلا النذر اليسير، ويروي له في هذه المحادثة المستفيضة، نادرة مُستَظْرَفة سيجعل منها بلزاك فيما بعد أساسًا لمسرحيته «باميلا».

وعلى الرغم من أن هذه الأسماء النبيلة التاريخية تعدّ كالمنّ والسلوى بالنسبة لولع بلزاك الجنوني بالأرستقراطية، فإنه لا يستطيع أن يلبّي كل هذه الدعوات، لأن مدام دي هانسكا تصادره من أجل محيطها الاجتماعيّ، ولا تُعير مرافقها ونديمها الاجتماعي المُعْلَن إلاّ لأقرب أصدقائها إليها من النبلاء البولونيين، من آل لوبوميرسكي، وآل لانزكورونسكي، في بعض الأحيان. ولم يتعرّض له، من

الكتاب والعلماء إلا المستشرق، البارون هامَّر- بورجشتال الذي يُهديه هدية، وطلَّسْمًا- يحافظ عليه بلزاك بدافعٍ من اعتقاد خرافيّ، وبخشوع، إلى نهاية حياته- و أَديب ضئيل الشأن هو البارون فون تسيديتس الذي يسقط من كل السموات حين يسمع بلزاك، العظيم، المُبجَّل، الشهير، يتحدث مع استبعاد الأجور والمال.

وتكون هذه الأيام سكْرًا بالقياس إلى بلزاك، فهنا، خارج بلاده، يشهد ويدرك لأوَّل مرة، الانتصار النابليوني لكفاءته الأدبية ومكانته في الأدب، وعلى وجه الخصوص في المحيط الذي هو الأهمُّ على الإطلاق بالقياس إليه، وهو مجتمع الأرستقراطية العليا. وكل هذه الأسماء التي ينطق بها بخشوع، تنحني أمام اسمه. وفي غمرة أمثال هذه الإغراءات يغدو من الصعب، حتى بالنسبة إلي رجل مثل بلزاك، أن يظل مخلصًا لعمله، وأن يواصل، قبل الظهيرة، في حجرة الفندق، كتابة عمل أدبي ينطوي على الكثير من الأسرار ويقتصر على فئة قليلة من الناس، ويتسم بالسمة الدينية الصوفيّة، والإعراض عن الدنيا، مثل «سيرافيتا»، إلى نهايته، ليخرج على الملأ بعد ذلك، من بعد الظهيرة، في إطار «العالم الكبير» في صورة قطعة استعراضية مصطفاة. وينجز بلزاك بعض التصحيحات، ويزور ميدان معركة أسبيرن وإيسلنجن، ليدوِّن الملاحظات من أجل روايته التي خطَّط لها «المعركة»، وينفق كثيراً من الوقت بصفة تابعٍ مرافق لمدام دي هانسكا، ولكن يبدو أن ڤينا ليست ملائمة من أجل الساعات الرَّعَوِية مثلما كانت نوشاتيل أو جنيف. ولابدَّ أن مدام دي هانسكا باتت، بعد الحادثة العَرَضية الخاصة بالرسالة التي تمَّ التقاطها، حَذِرةً إلى أقصى الحدود، وكان مجد بلزاك على وجه الخصوص حارسًا ملائمًا لفضيلته. ويضطر، وقد عَرَتْه الكآبة والانقباض، إلى أن يعترف، قبل رحيل مدام دي هانسكا، قائلاً:

«ما من ساعة، ولا دقيقة، تعود إلينا حقًا. وهذه العوائق تفضي بي إلى حرارة يبلغ منها أن يكون أفضل ما أفعله- ولتصدقيني- هو أن أسارع إلى الرحيل.

وما من شك في أن هناك سبباً مادياً هاماً أكبر من هذه «الحرارة»، يعجِّل، في النهاية برحيل بلزاك عن ڤينا، ألا وهو حساباته غير المدفوعة، وعلى الرغم من أنه سحب، خلافاً للأصول القانونية، في ڤينا، «كمبيالة» على اسم ناشره ڤيرديه، تغدو خزانته، نتيجة للمظهر الأميريّ الزائف، هزيلة على نحو مطَّرِد الزيادة من يوم إلى يوم. وفي الرابع من حزيران، أي في وقت الرحيل، لايعود في وسعه حتى أن يهب للخادم «البقشيش»، ويضطر إلى أن يقترض دوكاتاً من مدام دي هانسكا.

ومن دون أن يتوقف، وبالسرعة الجنونية ذاتها، التي يفعل بها كل شيء، يعود بالقطار الهادر إلى باريس، فيصل إليها بعد سبعة أيام، وهي آخر مرة يرى فيها مدام دي هانسكا، على مدى سبعة أعوام، أما المجلَّد الأول، المشوّق والعاطفي الجامح، في الحقيقة، في قصة الحب التي تمَّ التخطيط لها، لتكون رواية حياته، فقد انتهى، ومثلما كان يحدث في كثير جداً من المرات، خلال أعماله الأدبية، يقطع عمله مدة سنوات لكي يتوجَّه إلى مخططات أخرى، أكثر إلحاحاً وأشد إغراءاً.

الكتاب الرابع

تَأَلُّق الروائيّ بلزاك وبؤسه

الفصل الرابع عشر

١٨٣٦، عام الكوارث

في بعض الأحيان، يحدث في الطبيعة، أن تتصادم عاصفتان أو ثلاث عواصف، قادمة من جهات مختلفة، في مكان ما، ثم تُفَرِّغ شحنتها بقوة عشرة أضعاف قوتها الأولى. وهكذا يحل البلاء ببلزاك من كل حَدْبٍ وصوب، حين يصل إلى باريس من جديد، بعربته الأنيقة الباهظة التكاليف، مع خادمه المُزَيَّن بالأشرطة، عائداً من ڤينا. وبات من الواجب الآن أن يدفع ثمن اللامبالاة وخُلُوَّ البال باحتمال الهموم وبواعث القلق. وكان بلزاك كلما قطع عمله تحوَّل ذلك عنده إلى كارثة، ومثلما يحدث لنزيل سجن قصَّ أصفاده بمنشار وقام بمحاولة للهرب، تُفْرَضُ عليه مقابل كل شهرٍ من الحرية عقوبة عام جديد تحت النير.

وأوَّلُ ذلك أن القَرْحة القديمة، التي اندملت جزئيًا، تنفجر الآن على وجه الخصوص: وتلك هي الأسرة. أما أخته، مدام سورڤيل، فمريضة، وزوجها يعاني من هموم مالية، والأم بلزاك تدع أعصابها تلعب لعبتها، لأن ابنها الأثير، هنري، وهو رجل متعطِّل لا يَصْلُح لشيء دفعوا به، بشقِّ النفس، إلى ماوراء المحيط، عاد من الهند لا يملك شروى نقير، وجاء معه، فوق ذلك أيضًا، بزوجة تكبُره خمسة عشر عامًا. وكان يفترض في هونوريه، الكبير، هونوريه، القادر على كل شيء، أن يؤمِّن له، لامحالة، مركزًا، وأن يَرُدّ، آخر الأمر، إلى أمه ديونها-، هونوريه، الذي لم يكن في جيبه، هو نفسه، قرش واحد، والذي تتحدَّث عنه الصحف بمكر قائلة إنه توارى من باريس لأنه لا يستطيع الوفاء بالتزاماته. وكان كلما أَلْحَفَتْ عليه

الأسرة بمطاليبها، وأثقلت عليها بمآخذها، ونغصَّت عليه أمه حياته، يعمد حتى الآن إلى الهرب إلى أمِّ قلبه، إلى مدام دي بيرني ليجد عندها العزاء. ولكن في هذه المرة باتت التعزية واجبه هو تجاهها، فالعزيزة الغالية مصابة بداء عُضال، وقد تدهورت معاناة قلبها من جراء انفعالاتها المفاجئة، ومات ولدٌ لها، وباتت بنت من بناتها مصابة بمرض عقلي. ولمّا كانت هي نفسها في حيرة من أمرها، ولا طاقة لها فإنها ما عادت تستطيع أن تشير على الصديق الحبيب بشيء، بل تضطر إلى التخلّي عن الوظيفة التي تسعدها، وهي المشاركة في تصحيح ملازم طبع كتب بلزاك، لأن المطالعات تثير أعصابها المُزَلْزَلَة إلى حد مُفْرِط، وبات عليه الآن، وهو الذي ما عاد يعرف كيف يساعد نفسه، أن يساعد الآن المرأة اليائسة، الضائعة.

وفي هذه المرة يكون وضعه سيئًا على وجه الخصوص، إذ لم يكن بلزاك يرزح تحت عبء الديون المالية، وديون السِّلَف، وديون (الكمبيالات)، فحسب- إذ إن هذا خليق أن لا يكون شيئًا غير عادي بالقياس إليه، بل نراه لأول مرة، منذ سنين، يتخلَّف عن الوفاء بالتزاماته في العمل. وكان بلزاك، منذ خطواته الناجحة الأولى، قد اكتسب، في وَعْي كامل منه بمقدرته على العمل، العادة الخطيرة، وهي أن يحْمِل الصحف أو الناشرين على أن يدفعوا له أجور الروايات سلَفًا مقابل الالتزام بتقديمها في موعد محدد، فكان ما يكتبه مرهونًا، حتى قبل أن يبدأ بالسطر الأول منه، ولم يكن لقلمه بُدٌّ من العَدْوِ الجنوني من أجل اللحوق بالموعد الخاص بالسُّلَف، في مطاردة كمطاردة الفرائس. وعبثًا كان أصدقاؤه يحذِّرونه من هذه الطريقة الباعثة للتعاسة، ولا سيما أفضل الصديقات قاطبة، وهي زُلْما كارّو التي كانت تناشده المرة بعد الأخرى، أن يؤثر التخلّي عن بضعة سكاكين من ذوات الريش، مطعَّمة بالذهب وعن بضعةٍ من عُصيّ تسْيارٍ مزخرفة بالحجارة الكريمة، على أن يدع قيمة إنتاجه في السوق تتردّى عن طريق هذا الاستعجال المفرط.

ولكن بلزاك يظل على ممارسته هذه لا يحيد عنها، ولمّا كانت السمعة الأدبية هي السمعة الوحيدة التي يتمتع بها، فقد كان مما يهبُله نوعًا من الاستمتاع بالسلطان، أن يرغم الناشرين على أن يشتروا سَمَكًا في البحر، وأن يقدموا مالاً نقديًا لقاء رواية لم يُنْجَزْ منها سوى العنوان، بل ربما كان يحتاج إلى الارتباط القسري بالموعد، أي إلى السوط وراء ظهره لكي يقْسِرَ نفسه على هذا الحد الأقصى من العمل.

على أن بلزاك الرازح تحت عبء الديون الفادحة يقع الآن، لأول مرة، تحت عبء الدين تجاه نفسه ذاتها. وذلك أنه كان قد حصل، لكي يستطيع أن يتحمل تكاليف الظهور بمظهر الأمراء في ڤينا، قبل رحيله، على أموال وسُلَف حيثما أمكنه العثور عليها فحسب، ولم يكن اقتصر على بيع رواياته التلفيقية القديمة، المكتوبة باسم سان أوبان، من أجل طبعة جديدة، فحسب، بل باع أيضًا، لمجلة Revue des deux Mondes عملاً أدبيًا لم يكن قد كُتِب بعدُ على الإطلاق، وهو «مذكرات شابتَّيْن حديثتَيْ عهد بالزواج» (les Mémoires de deux jeunes Mariées). وفضلاً عن ذلك فقد بدأ بتسليم خاتمة رواية «سيرافيتا» التي لم تكن مدفوعة الأجر منذ عهد بعيد فحسب، بل كانت قد أخذت في الظهور منذ ثلاثة أشهر. غير أن هذا لا يُحَمِّله همومًا أخرى، وكانت خاتمة رواية «سيرافيتا» تقتضي، بموجب حساباته، ثمانية أيام، أو، بالأحرى، ثماني ليالٍ)، وسوف يدونها في ڤينا، في فندقه «الكمثرى الذهبية»، على عجل. أمّا رواية مذكرات شابتين حديثتَيْ عهد بالزواج، فقد قدَّر لها من الوقت أربعة عشر يومًا، وعلى هذا فحين يعود يستطيع أن يأخذ على الفور، سلفة جديدة، مرة أخرى، عن روايته الجديدة.

ولكن بلزاك يغدو، لأول مرة، غير صادق مع نفسه. وذلك أن تقويمه لم تكن فيه أيام عُطَل، وكان من أسباب الطامّة أنه يُدْخِل في ڤينا أيام العُطَل، ويقع ضحية لإغراء حَمْلِ مدام دي هانسكا على أن تُقَدِّمه إلى الأرستقراطية النمساوية

والبولونية، وينطلق معها، في العربة، في نزهات، وينفق الليالي في الثرثرة، بدلاً من أن ينفقها جالساً إلى منصة كتابته، ولا يتم إرسال خاتمة رواية «سيرافيتا»، ويضطر بيلوز إلى التوقُّف عن النشر، الأمر الذي لا يحمله المشتركون لديه على محمل السوء كثيراً، لأنهم لا يعرفون كثيراً ما يبدأون به حيال العمل الأدبي الذي يتسم بسمة الصوفية كما هي عند سويد ينبورغ، وباللهجة المنبرية، على أية حال. على أن ما هو أكثر سوءاً هو أن بلزاك لا يكتب سطراً واحداً من الرواية الأخرى «مذكرات شابَّتينْ حديثتَي عهد بالزواج»، وكان قد فقد ولَعه واهتمامه، وتوتُّره- وتظل الرحلات أبداً تحدث في نفس بلزاك أثراً كأثر الوحي- إذ كانت رواية أخرى، هي «الزنبقة في الوادي» قد أخذت تعزيه، ويقدِّم إلى بيلوز، من باب تسوية حساب الدين، هذه الرواية الجديدة، بدلاً من الرواية الموعودة، ويبعث إليه، من ڤينا، بالتتمَّة الأولى أيضاً.

ويتقبَّل بيلوز هذه المقايضة، ويطبع التتمّة الأولى من «الزنبقة في الوادي»، ولكن لمّا كان بلزاك لم يَفِ بالتزامه بتقديم خاتمة رواية «سيرافيتا» في موعدها الدقيق، فإنه يجد أن من حقه أن يتمسك بدينه ويحافظ عليه بطريقة أخرى ومن دون إلحاق أذى. وذلك أن مجلة تظهر في بطرسبرغ منذ بعض الوقت، وهي Re-vue étrang`ere، التي تطمح إلى أن تنقل إلى القرّاء الروس أحدث ما في الأدب الفرنسي في تزامن مع باريس، وحتى قبل ظهوره في باريس، قَدْرَ الإمكان، وإلى هذه المجلة تنازل بيلوز، نتيجة لاتفاقية معينة، ولقاء دفع مبلغ معين من المال، عن إسهاماته في مجلة Revue des deux Mondes ومجلة باريس، إذ يرسل ملازم تصحيح تجارب الطبع، بائعًا لها، إلى سانت بطرسبرغ. ولمّا كان بلزاك في ذلك الوقت، هو الأكثر ظفراً بالإقبال عليه وقراءة كتبه، في روسيا فإن بيلوز ما عاد يحمل همّاً، ولا هاجساً- فبلزاك مدين له بلا ريب، ولن يجرؤ على مخاصمته- إذ يبيع إلى روسيا أيضاً، ملازم تصحيح طبع «الزنبقة في الوادي».

ولكن بلزاك لا يكاد يطلع على هذا، بُعَيْد عودته إلي باريس، حتى ينقض على بيلوز كالأسدأو كالقذيفة. ولم يكن الجانب الماديّ في تصرُّف بيلوز يُفْعِمه بالمرارة بمقدار ما كان يُفْعِمُه بها شعوره بجرح في ضميره الفنيّ، وبأنه تعرَّض للخيانة. وكان بلزاك قد بعث إلى بيلوز بالمخطوط الخام، وأوعز بيلوز بطبعه في هذه الصورة، وبعث بالملازم إلى سانت بطرسبرغ حيث تبنَّتها «المجلة الأجنبية» من دون أي تصحيح آخر بقلم بلزاك، وباتت ملزمة التصحيح الأولى تمثل الآن، بالقياس إلى بلزاك، مجرد نوع من الخطوط العريضة الأولى التي يبدأ، عن طريقها فحسب، بعمله الحقيقي. وكشأنه دائماً، يطلب من «مجلة العالَميْن» أربعة تصحيحات أو خمسة، وربما أكثر من ذلك بعد، قبل أن يصدر إلى الطابع إيعازه بالطبع. وفي وسع المرء أن يفهم غضبة بلزاك حين تَمْثُلُ أمام عينيه الآن، دفعة واحدة، «المجلة الأجنبية» قادمة من بطرسبرغ، حيث تظهر هذه الفصول بالخطوط العريضة الأولى التي لم يسبق له أن سمح بها قطُّ في هذه الصورة القاصرة، بدلاً من أن تظهر بالصورة المنقَّحة المصقولة، والمعتمدة من قِبَله. وذلك أنَّ ما لم يكن مستعداً في العادة لأن يُطْلِع عليه حتى أقرب أصدقائه إليه، وهو التصورَّ الأول، بكل ما فيه من مواطن الضعف والثقل الفني، باعَتْهُ هنا يَدٌ لصوصية إلى الجمهور على أنه عمله، أي عمل بلزاك الفني. ويشعر بلزاك، وهو على الحق، كل الحق، بأنه تعرّض للخديعة والمكر من جانب بيلوز الذي استغل غيابه، ويقرر أن يقطع على الفور كل العلاقات معه، ويرفع قضية ضد مجلة العالَمين (Revue des deux Mondes).

وينتاب الفزعُ أصدقاء بلزاك ذوي المقاصد الحسنة حين يطّلعون على هذه النيّة. وكان بيلوز يمثل، عن طريق الجمع بين أقوى مجلتين في يده، من حيث إدارة التحرير، قوة عظمى في باريس، فهو يستطيع أن يرتفع بقيمة كاتب من الكتاب في (البورصة) الأدبية مثلما يستطيع أن يُدَمِّره. وكان أربعة أخماس الكتاب

والصحفيين في باريس يرتبطون به ارتباطًا مباشرًا أو غير مباشر، وكان يمارس نفوذًا في إدارات تحرير كبرى الصحف اليومية. وفي حالة نشوب نزاع مكشوف لن يجد بلزاك، وهو الذي قلّما كان يحظى بالمحبة عند زملائه، في أي مكان، جريدةً، ولن يجد، في أي مكان، صديقًا يجرؤ على أن يُسْدِيَ إليه، بالنظر إلى هذا الإرهاب، خدمات تتعلّق بالشهود، أو معونة، ويحذّر القوم بلزاك من أنّ بيلوز يستطيع، بمائة أسلوب، أن يلحق الضرر بمكانته، ويستطيع أن يُضْحِكَ الناس منه عن طريق ملاحظات وألوانٍ من الهجوم، ويستطيع أن يبثّ الخوف في نفوس ناشريه، وأن يؤثّر حتى على تجّار الكتب. ويُلحُّ عليه المستشارون ذوو النوايا الحسنة بقولهم إنه ينبغي له أن ينأى بنفسه عن الدعوى فحسب، لأن هذه الدعوى ستكون خاسرة سلفًا حتى وإن تمّ كسبها من الناحية الشكلية، وذلك أن المرء لا يستطيع، وهو فردٌ، شيئًا، ضد قوةٍ غُفْلٍ من الاسم، متجذّرة بخيوط لا تُحْصى.

غير أن بلزاك لا يعرف الهواجس حيثما يتعلّق الأمر بشرفه الفني. وقد أحس وهو في فينا، أي في الغربة، على وجه الخصوص، بماهيته، وبأن الكراهية والحسد في باريس هما، وحدهما، اللذان يحولان بينه وبين أن يتبوّأ ماهو أهلٌ له من المكانة. وكان بلزاك يعرف قوته، ويعلم أنها قوة لا تتزعزع، وأن الهزائم وضروب الإذلال لا يَزِدْنَها إلاّ قدرةً على التوتّر، وانتصاراً، ولم يحدث له قطُّ أن ردَّ على هجمات متفرّقة، إذ كانت هذه الهجمات عنده أقل شأنًا وأَنْفَهَ من أن يُرَدَّ عليها. غير أن تحدّي العصابة بأسرها، والصحافة بكل فسادها، والخبث وألوان المكر والتصدّي وحيداً، وواقفًا من الخارج، لمواجهة هذا كله، كان يَهَبُه له نوعًا من المتعة، فيرفض كل محاولات الوساطة، ويرفع الدعوى على بيلوز ويدعه، من جانبه، يرفع عليه الدعوى بسبب عدم وفائه بالتزاماته، وكان من البدهيّ أن ينتقل هذا النزاع من قاعة المحكمة إلى الصحف، وإلى ميدان الأدب، ويدع بيلوز كل الألغام تنفجر. وتظهر في مجلة "Revue de Paris" أكثر ألوان القَدْح في بلزاك

فظاظة، ولا تُرْعى حرمة حياته الخاصة، ويتهم علانية بأنه استباح لنفسه الحق في الانتماء إلى النبلاء بغير وجه حق، ويتمُّ الكشف عن تأليفه لبعض الكتب ومشاركته في تأليف بعضها الآخر في سنوات العمل العبوديّ، ويتمُّ التشهير بديونه على الملأ، والسخرية من شخصيَّته وفي الوقت ذاته يعبئ بيلوز جيش حِرْمانه الأدبي - إذ يرغم كاتبًا بعد كاتب على إعلان أنه كان من الشائع بوجه عام، تقديم إسهامات، من دون أي أجر، إلى صحف أجنبية، ولمّا كانت مجلة باريس "Revue de Paris" ومجلة العالَمَيْن (Revue des deux Mondeu) تشكلان المَذاود اليومية لحيوانات بيلوز الأليفة المُدَجَّنة الطيبة التي تومئ برؤوسها إيماءة الموافقة على أثر قعقعة سياطه، مستجيبة طائعة. وبدلاً من أن تقف إلى جانب زميلها وقفة الأخ إلى جانب أخيه، وبدلاً من أن يدافع هؤلاء عن حق طبقتهم بحكم كونهم من الفنانين، يتَّحد هؤلاء، وهم ألكسندر دوماس، وأوجين سو، وجوزلان وجول جانين، واثنا عشرية من الآخرين، من أولئك الذين يعتقدون أنهم يشكلون رأي باريس، وهم لا يدينون بشيء من السمعة في الحقيقة إلاّ لرأيهم الخاص الملفّق، ليصدروا تصريحًا ضد بلزاك، ولا يرفض إسداء مثل هذه الخدمة التي تنمُّ عن التبعية الذليلة المثيرة للاشمئزاز سوى ڤيكتور هوجو، النبيل كشأنه دائمًا، وجورج صاند،

وفي النهاية يحتفظ بلزاك أمام المحكمة بالحق من حيث الجوهر، وتصدر المحكمة قرارها المهمّ بالنسبة لكل طبقة الأدباء، وهو أن الكاتب لا يمكن الزامه بدفع التعويض عن الضرر حين لا يُسَلِّم العمل الأدبيّ الموعود لافتقاره إلى الميل أو إلى المقدرة على إكماله، ويُحْمل بلزاك على ردِّ السُّلَف التي تلقّاها، إلى بيلوز فحسب، ويكون انتصار، ولكنه انتصار أقرب إلي الهزيمة. وكان بلزاك قد ضيَّع في هذه المنازعات الأسابيع بعد الأسابيع، مع المحامين والمحاكم والمجادلات، وأثار على نفسه، فوق ذلك أيضًا، كل عصابة الصحفيين الذين تواثبوا إلى عنقه، وحتى أقوى الناس قاطبة يستهلك قوته عندما يخوض القتال على الدوام وضد الناس جميعًا.

وعلى كل حال: فإذا كانت القضية قد تمَّ كسبها بالمعنى القضائي، فهي تمثِّل شَدّاً لأَزْرِ بلزاك، لأنها خبرة وتجربة. لقد أدرك مجدَّداً كم كان أبطاله على حق، وهم آل ڤوتران ودي مارسيه، وآل راستينياك، وآل روبامبريه، حين يمثلون، من دون تحفُّظ، القصيدة القائلة: «فلْتُؤَمِّن لنفسك القوة والسلطان، وعندئذ سيحترمك الناس». فلتؤمِّن لنفسك قوة، كائنةً هذه القوة ما كانت، القوة عن طريق المال، والقوة عن طريق النفوذ السياسيّ، والقوة عن طريق الانتصار الحربي، والقوة عن طريق الإرهاب، والقوة عن طريق الصلات والعلاقات، والقوة عن طريق النساء، ولكن فلتؤمِّن لنفسك القوة على أية حال، ولا تعيشَنَّ من دون سلاح، وإلاّ فأنت خاسر مُضيَّع. ولا يكفي أن تكون مستقلاً، فلا بُدَّ للمرء أن يتعلم كيف يجعل الآخرين مرتبطين به، ولا يغدو المرء سيداً على الناس وحاكماً إلاّ عندما يشعر الناس أن في وسعه أن يمسك بهم من نقطة ضعفهم، وعندما يكون المرء مُهابَ الجانب.

وكان بلزاك يقول حتى الآن إن الاستحواذ على القوة يكون بفضل أتباعه وزمرة قُرّائه، ولكن هذه الزمرة متناثرة فوق كل بلدان الأرض، كما أنها ليست قوة مسلَّحة، ولا منظمة، ولا تبث المهابة في نفوس الآخرين، بل تثير حسدهم فحسب، أما عشرات الألوف، ومئات الألوف، من القراء الأوفياء، فلا يستطيعون، على ماهم عليه من عدم الدراية، أن يناصروه ضد الطغمة التي تأتلف من أربعين أو خمسين من المداهنين والثرثارين، الذين يتألف منهم الرأي العام في باريس ويتم التحكُّم فيه من قِبَلهم، ولذلك فقد حان الوقت لانتزاع الاستقلال بالكفاح، لنفسه، بحكم كونه أعظم كتاب فرنسا وأكثرهم إطلاعاً، كما يعلم هو، في قرارة نفسه. وهكذا يقرِّر بلزاك أن يستحوذ هو نفسه على صحيفة، وبذلك يحرم من الماء المجلات، هذه الحصون التي تفرض الرأي العام، والتي أخرجته، واحتمت منه بأكياس نقودها، وسخِرَت منه.

وبات يوجد الآن، منذ عام ١٨٣٤، في باريس، جريدة صغيرة، هي: حوليات باريس. تظهر مرتين في الأسبوع، وذلك، في الحقيقة، من وراء ظهر الجمهور. أما أنها كانت ذات اتجاه سوداوي ونزعة شرعية إلى أقصى الحدود، فلم يكن ذلك يكدرٌ صفو بلزاك على الإطلاق. وأمّا أنه لا ينتقل من عدد إلى عدد إلاّ وهو يجرّ رجليه بشقّ النفس من الناحية المالية وهو جاثٍ على ركبتيه، وأنه لا يحظى بشيء من الاحترام والاهتمام، فذلك ما لايعني عقبةً بالنسبة إليه، وذلك أنه مقتنع بأن صحيفة يكتب فيها هونوريه بلزاك بصورة منتظمة، ويعهد إليها بأعماله الأدبية، لابُدَّ أن تكون مطهَّرة بصورة مسبقة. وبَعْدُ فيالها من رِكاب هو موضع الترحيب فيها، إذ يدخل المرء، آخر الأمر، حلبة السياسة وهو راكب فيها ذلك لأن بلزاك يظل، على الرغم من كل ضروب الإخفاق السياسيّ، يحلُم أبداً بأن يغدو نائباً، وعضواً في طبقة كبار النبلاء في فرنسا، ووزيراً، ومازالت السلطة السياسية تجتذبه، وهي السلطة التي يمكن الإحساس بها ماديّاً، مع كل ما فيها من ضروب التوتّر، وتقلُّبات الأجواء.

ولمّا كانت الأسهم في «حوليات باريس– Chroniques de Paris» لا قيمة لها في حد ذاتها فإنه يحقق نجاحًا في لَمِّ شمل نوع من المجتمع المحيط به وتأمين الأغلبية. وما من شك في أنه يأخذ على عاتقه، مع هذا العمل المعقَّد إلى أقصى الحدود، والمقترن بالتفاؤل المعتاد، أيضًا، الالتزام الثقيل الوطأة، بتحمُّل تكاليف الاستمرار، ولم تكد الاتفاقية يتمُّ إبرامها حتى زجّ بلزاك بكل طاقته في المشروع، وتتجمَّع هيئة التحرير على عجل، من المواهب الشابة، وهي الهيئة التي لن يتبقّى له منها سوى رجل وحيد، وهو تيوفيل غوتيَيه، صديقًا، ومكسبًا حقيقيًا من مكاسب حياته، أمّا أمناء السر فيوظِّف منهم اثنين من شباب الأرستقراطية العليا، إذ كان، كالعهد به دائمًا، يستسلم لنزعته الانتقائية أكثر مما يثق بنظرته النقدية، وكان هذان هما المركيز دي بيلو، والكونت دي غرامون، ولكن المتعاونين والمحررين وأمناء

السر يمثلون في الحقيقة مسألة هامشية عندما يكون لدى المرء رئيس في مقام بلزاك، يقوم وحده مقام اثني عشر رجلاً بطاقة إنتاجه الهائلة. وفي طور التحفزُّ الأوَّل، ومادام النشاط الجديد يستثيره بعدُ يستأثر بلزاك بنصّ الجريدة وحده تقريبًا فهو يكتب كل شيء يمكن تصوره، متداخلاً بعضه في بعض، من المقالات السياسية، والأدبية، ومقالات الجدل المذهبي، ويزيِّنها، فوق ذلك، بسلسلة من أفضل أقاصيصه. ويكتب، من أجل العدد الأول بقيادته، في كانون الثاني ١٨٣٦، في ليلة واحدة (قدّاس الملحدين)، هذه الرائعة من روائع المسرحيات الخفيفة، وتليها «الحَجْر» (l' Interdiction) و «خزانة التُّحف» (Le Cabinet d' Antiques) و (هذا هو الإنسان) "Ecce homo, الشهداء المجهولون Facine cane ." وكان يقتحم إدارة التحرير في كل ساعة من ساعات اليوم، ليستفسر، ويستحث، ويقترح، ويثير، ويبعث الكهرباء، وفي الوقت نفسه يعبّئ دعاية مستفيضة سخيّة، بدافع الولع بالسلطة، وربما أيضًا بدافع الرغبة الانتقامية في إحراز قصب السبق على المجلات الأخرى بقفزة واحدة. وفي العاشر، والرابع عشر والسابع عشر، والثاني والعشرين والرابع والعشرين، والسابع والعشرين من كانون الثاني، يقيم في منزله، في شارع كاسيني، مآدب غداء مع كل مظاهر الترف والخمور التي تنصب انصبابًا، ويدعو إليها أهم العاملين معه، وذلك على الرغم من أنه مازال مدينًا بالأجلين الأخيرَيْن من آجال فوائده، ومع اضطرار صاحب البيت إلى أن يدع منفِّذ الأحكام القضائية ينتزع منه مبلغ ٤٧٣ فرنكًا، و٧٠ سنتيمًا.

ولكن هذا لا يعد إلاّ استثمارات بالقياس إلى نزعة بلزاك إلى التعلُّق بالأوهام، أي أنها استثمارات ستعود بعائد يبلغ مائة ضعف أو ألف ضعف، ويُسكِرهُ الفضول الذي ستتلقىّ به باريس صحيفته به، على نحوٍ كامل، وبعد أربعة أسابيع من صدور العدد الأول، ينفخ في بوق إحدى رسائله التي تبشِّر بالنصرمُبَكِّرة، إلى مدام دي هانسكا:

«هاهي ذي مجلة «حوليات باريس» تستغرق كل وقتي، وما عُدْتُ أنام سوى خمس ساعات، ولكن إذا كانت أمورك وأمور السيد فون هانسكي تسير على ما يرام فأنا أستطيع أن أقول عن نفسي إن أعمالي تأخذ في التطوُّر على نحو رائع. فالمشتركون يتدفَّقون علينا بأعداد سحريّة تمامًا، وبلغت أسهمي في الجريدة خلال شهر ٩٠,٠٠٠ فرنك في صورة رأس مالٍ أساسي أو فعلي.

على أن هذا التقييم لأسهمه في مجلة (حوليات باريس) بمبلغ تسعين ألف فرنك لا يعدُّ، بالطبع، سوى تقدير مبنيّ على البورصة الخصوصية الخاصة بآماله، وهي البورصة التي هي أبعد المؤسسات عن إمكان الاعتماد عليها، وبات بلزاك يرى نفسه في أحلامه سيد باريس: وسرعان ما سيزحف بيلوز بظهره المُحْدَوْدِب قادمًا إليه، ويضع على منصته مائة ألف فرنك مقابل وعد بالتخلّي عن مجلة «حوليات باريس»، والعودة إليه من جديد، وسَرْعان ما سيخطبُ وُدَّ الصحيفة الأكثر نفوذًا كل الزملاء الذين كانوا قبَيْل ذلك يسخرون منه ويناصبونه العداء، وسوف يضطر الوزراء والنوّاب إلى تبنيّ سياسة السيد دي بلزاك وجعلها سياسة لهم.

ولكن ما كان ينطوي على الطامَّة أن هؤلاء المشتركين المتحمسين، المتدفقين لم يكونوا إلاّ من صنع خيال بلزاك الأدبي، وكانت تقارير الخزينة تنبئ عن أرقام أكثر تواضعًا إلى حد بعيد. أما مالكو الأسهم الآخرون، الذي لم يكونوا يتّسمون بعبقرية بلزاك، بل كانوا أوضح رؤية منه، فيتخلَّصون من أسهمهم بكل سكينة وهدوء، ويضطر بلزاك إلى أن يبيع أسهمه بجزء من سعرها الأصليّ، ولا يكاد يشعر أن المشروع لا يحقق تقدُّمًا على الوجه الصحيح، حتى يفارقه زخمه الخاص، ويأخذ في الشعور بالملل من إدارة التحرير، ويقلُّ ظهوره على نحو مطرد الزيادة أمام العاملين معه، وأمام زملائه، كما تقلُّ إسهاماته في التحرير. وهكذا ينتهي، في العام ذاته، هذا المشروع، كما تنتهي كل مشروعات بلزاك في مملكة الأرض بانهيار شامل وازدياد في عبء الديون. ولم تَعُدْ عليه ستة أو ثمانية من شهور

العمل الجنوني المضحك، بحكم كونها متناقضاتٍ، أو بعبارة أصح، بحكم كونها نجاح بلزاك البدهي بزيادة في الثروة، ولا بالوفاء بالالتزامات القديمة، بل عادت عليه بأربعين ألف فرنك من الديون الجديدة. لقد كانت رحلة حول العالم، يقضيها في التعطُّل والاستمتاع، خليقة أن تكون عملاً أفضل من مضارباته هذه الأحدث عهداً، ولكنها ليست بالأخيرة وكان بلزاك كلَّما ابتعد عن الإخلاص لجوِّه الخاص قَصَّرت به عبقريته وقَصَّر به عقله ذو النظرة الصافية. ولمّا كان في ميدانه بطلاً كأنتاوس (*)، فإنه يغدو موضوعًا للتهكم عند الأقزام عندما يتوجَّه إلى منطقة غريبة، وبعد بضعة أشهر فحسب يضطر، وهو الذي قال مُبَشِّرًا: «في عام ١٨٣٦ سأكون غنيّـًا»، إلى أن يعترف قائلاً: «لم أتقدم في عام ١٨٣٦ عمّا كنت عليه في عام ١٨٢٩».

غير أن القضية المرفوعة ضد بيلوز، وإخفاق مجلة «حوليات باريس» ليسا سوى القطع المتألِّقة في مجموعة هذه السنة الكاملة، كما ترد في التقويم، والتي يكاد كل يوم فيها يحمل إليه إزعاجًا جديداً، فثمة قتال، على أثر قتال، مع كل الناشرين أولاً وكانت «مدام بيشيه الممتازة» قد تحولَّت، فجأة إلى «مدام بيشيه البغيضة»، التي تُطالب، مَغيظة مُحْنَقَة، بالمجلدات الباقية، منذ أن استقل الموظَّف السابق عندها المسيو ڤيرديه، واستمال بلزاك إليه وانتزعه منها. ولم يكن ڤيرديه، بدوره يملك ما يكفي من رأس المال، لكي يُمَوِّل بلزاك الذي كان قد سحب، من ڤينا، من دون هاجس أو مبالاة، (كمبيالات) عليه. ولكي يجد بلزاك لنفسه متنفَّسًا، يحاول أن يطبع الطبعة الجديدة من «أقاصيص ماجنة» على حسابه الخاص، بدلاً من أن يهاب النار بحكم تعرُّضه السالف للاحتراق، ولكي ينفض يديه من أمثال هذه الأعمال بحكم كونه ناشراً مفلسًا. ويشتري الورق بالدين، ويوعز بطبع الطبعة الجديدة من «الأقاصيص الماجنة» بالدين. وكانت صفائح الورق ترقد

(*) Anfaus من أبطال الأساطير اليونانية ، المترجم.

جاهزة، وإذا النار تشبُّ في حجرة المستودع، وتتبخر ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك كان يحتاج إليها الآن على وجه الخصوص أكثر مما احتاج إليها في أي وقت مضى، في شكل دخان، بالمعنى الحرفي للكلمة.

وماعاد بلزاك يعرف إلى أين يذهب لينجو بنفسه من دائنيه، فيسدُّ المنفذ إلى باب بيته في شارع كاسيني، ويوعز، في ساعات الليل، بنقل أثمن قطع أثاثه وكتبه إلى مسكن جديد في شارع دي باتييّ، كان قد استأجره قبل هذه الرحلة باسم أرملة تدعى دوران. ويكون هناك، كما في شارع كاسيني، سلَّم سرّي يستطيع أن يهرب عليه، إذا ما وُفِّق منفِّذ أحكام قضائية، أو أي زائر آخر ثقيل، إلي التغلغل حتى باب المسكن. غير أن الوصول إلى باب مسكن الأرملة «دوران» يتطلب براعة خصوصية أو بهلوانية، وعن طريق ولَعِه الفني الصبياني بإضفاء السمة الرومانسية والأسطورية على كل الأشياء المحيطة بحياته، يخترع نظاماً خاصاً به يتألف من شعارات أو كلمات سر، يتم تبديلها على الدوام، ولا يستطيع أن يأمُل في اختراق السور المؤلف من ثلاثة جدران إلا من يقدر على أن ينطق بكلمة السرِّ في حالة من الحالات أي بما يماثل عبارة «افتح ياسمسم». ومثال ذلك، كما يروي صديقه غوتييه، أنَّ من يريدالدخول إلى مسكن «الأرملة دوران» الحافل بالأسرار، في اليوم المَعْنيّ، فلابُدَّ له أن يقول للبواب: «حان وقت الخوخ» وعند ذلك فحسب يدع حارسُ الباب الأسطوري الزائر يعبر العتبة، ولكن هذه ليست إلاّ الاختبار الأول. ففي نهاية السلَّم ينتظر خادم بلزاك الذي يُعْتَمَدُ عليه، والذي لابُدَّ للمرء أن يهمس له بكلمة السر الثانية: «لقد أتيت بشخصيات لها شأنها من بلجيكا»، ولا تسفر «الأرملة دوران» عن وجهها وهي تضحك، في صورة بلزاك إلاّ عندما يستطيع المرء أن يقدِّم، على الباب، التوكيد الذي يفيد «أن مدام برتران تتمتع بأفضل صحة».

على أن كل الحِيَل الفنية المبتكَرة التي يصفها بلزاك في رواياته، والكمبيالات المحولّة على أسماء طرف ثالث أو رابع، وأساليب المكر، من أجل التوصل إلى

تأجيلات لجلسات المحكمة، أو لإحباط قبول الدعوات المسبقة إلى المحكمة، بأن يجعل المرء وصول الناس إليه عن طريق البريد متعذِّرًا، والمئات من الفنون لمماطلة الدائنين ومُدافعتهم، كما رفعها صاحبه لابال فيرين إلى مستوى الأستاذية، سبق اختبارها وتجربتها من قبِلَه هو، وكانت معرفته الدقيقة بالقوانين، وبراعته الفنية، وجسارته التي لا يَصحبها هاجس، كل هذا كان يعود عليه في كل يوم بخطوات نجاح جديدة، وكانت كمبيالاته تجول عائمة لدى الناشرين، والمرابين والمصارِف، ولا يوجد منفذ أحكام قضائية في باريس ليس لديه تكليفٌ برهْنٍ ضد السيد هونوريه، ولكن ما من واحد من هؤلاء يُوَفَّق إلى رؤيته وجهًا لوجه، فضلاً عن أن يظفر بالتسديد.

ولكن بلزاك يثير على نفسه، بدافع الكبرياء، وربما بدافع الغرور أيضًا، تجاه كل متعقِّبي آثاره، سلطة أخرى، ليدع هؤلاء المتعقبين ينهشوا جسده، إذ كان يتنكَّر للقانون علانية، فبموجب أمر إداري جديد يلتزم كل مواطن بأداء الخدمة بعض الوقت بصفة حارس لدى الحرس الوطني، ولكن بلزاك لا يعترف بهذا الالتزام. وذلك أن الملك المدني لويس فيليب يُعَدُّ بالنسبة إليه، بحكم كونه من ذوي النزعة الشرعية الصارمة، مغتصبًا للسلطة ليس من حقه أن يُصْدِر الأوامر، وفضلاً عن ذلك فإن مما يؤسفه أن يهدر وقته الباهظ الثمن، وهو يحسُّ، بحق، أن ممّا لا يليق به أن يضطر إلى أن يقف هنا وهناك، في أي ركن من الأركان، متنكِّبًا بندقيته في حلة جنديّ، بينما تكون المطابع، والصحف، والناشرون في العالم بأسره، في انتظار كتبه، والأرجح أنه كان من الممكن، عن طريق التفاوض بروح طيبة، العثور على طريقة، لتحرير مواطن من حجم بلزاك الجسدي وفي مثل مكانته الأدبية، من هذا الواجب، ولكن بلزاك لا يريد حلاً وسطًا. فإمّا أن يستجيب بدخول الثكنة، وإمّا أن لا يستجيب أبدًا، ويتم استدعاؤه ثلاث مرات بأجل، لكي يبرِّر موقفه، وحين لا يجشِّم نفسه عناء احترام هذه الدعوات، تحكم عليه لجنة الانضباط في الحرس

الوطني بثمانية أيام في السجن ويضحك بلزاك ضحكته الطيبة، على غرار رابليه حتى يهتز بطنه. يا لها من وقاحة! أن يؤدِّبوه، وهو بلزاك، مارشال الأدب الأوروبي، وأن يضعوا يديه في الأصفاد لأنه يأبى أن يتناول بندقية بيده! والآن لابأس، فليجرِّبوا ذلك، فإن مما يستثيره أن يمارس مع الشرطة المكلَّفة باعتقال الرافض المشاكس لأداء الخدمة، لعبة قط وفأر ممتعة، فليعتقلوه! ولكن لابُدَّ لهم أولًا الأمر أن يعثروا عليه! ولسوف يرى الأغبياء ذوو الرِقاع والمراتب على بزّاتهم أنهم ليس لديهم من الدماغ تحت قبعاتهم ما يكفي لكي يستغفلوه.

ويظل بلزاك أسابيع وأسابيع متواريًا. وعبثًا يقتحم مبعوثو اتحاد حماية المدن المقدس شارع كاسيني في كل ساعات النهار، إذ يكون السيد دي بلزاك على سفرٍ، دائمًا، ولا يُعْرَف مكان إقامته-، وهو السيد دي بلزاك نفسه الذي كان يجمع السُّلَف من ناشريه، ثم يظهر في المساء نفسه بعدُ في شرفة المسرح الإيطالي. أما مدى السرور الذي يعلم به، من الخادم الطيب، عدد مرات إلصاق الشوارب في هذه الأثناء، أو يستمع، وهذا هو الأفضل بعدُ، إلى الكيفية التي كانت تُدَسُّ بها وراء باب مبطَّن بالبساط، وكيف كان المغفَّلون يقدمون استطلاعاتهم عن ذلك الذي لا يمكن العثور عليه بجدٍّ بهيميّ، فذلك ما سوف يضفي الحرارة واللهيب على الرواية التالية، التي يستلهمها على نحو ممتاز من أجل كفاح ڤوتران وباكار مع كورينتين وبايْراد وكلاب المطاردة الأخرى. ولكن ذات صباح، في السابع والعشرين من نيسان، ينتصر الملك لويس فيليب: فبمَأمورَيْن من رجال الشرطة واثنين من رجال التحرّي، كمنا له طوال ساعات، يتغلغلان وراءه في شارع كاسيني، وبعد نصف ساعة تنتهي به العربة الخضراء ذات السمعة السيئة، إلى سجن الشرطة الذي أَلِف الشعب أن يسميه «فندق الفاصولياء». أمّا أنه يضطر إلى أن يقضي عقوبته كاملة فذلك ما يكشف، على أية حال، عن مدى هوان شأن سمعته العمومية في فرنسا على وجه الخصوص. وذلك أن الرجل نفسه الذي تعمل

كل الطبقة الأرستقراطية في الخارج، جاهدة من أجله، والذي يُستَقْبَل في كل المفوّضيات، والذي دعاه إليه ميترنيش، سيد أوروبا الدبلوماسيّ، يضطر إلى البقاء في سجن الشرطة من ٢٧ نيسان إلى ٤ أيار، من دون أن يحظى بأدنى مراعاة، ويقعد هناك، في صالة عملاقة، في وسط عصابة من المُداينين الذين يَصْطَرِخون، ويعبثون، ويتضاحكون، ويَجْأرون بالشكوى، من أدنى طبقات المجتمع. ويكون معظمهم من العمال الذين أَبَوْا أن يُضَحّوا بالخدمة المفروضة على المواطنين مدة يومين، لأن الزوجة والأولاد سوف يتعرَّضون للجوع أثناء قضاء فترة هذه الخدمة، ويكون الشيء الوحيد الذي يحققه بلزاك أنَّه يحصل على منضدة وكرسي، وبعد ذلك لا يهمُّه كل شيء، وبالتركيز ذاته الذي كان يعمل به في عزلته الرهبانية، في حجرة عمله ينجز تصحيحاته في هذا الجحيم. أمّا أن مزاجه لم يكن متكدرًا بحال من الأحوال فذلك ما يكشف عنه وصفه المَرِح في الرسالة الموجهة إلى السيدة فون هانسكا. وأمّا أن القوم يحتجزونه فذلك مالايمكن أن يجرح شعوره بأنه امرؤ شريف، بل كان هذا أقرب إلى أن يبعث الروح في ولَعه الفرنسي بالمهزلة (Farce)، كلاّ، بل نراه يتمتَّع، تمتُّعًا مصحوبًا بارتياح معين، بالأمن، على مدى ثمانية أيام، من كل الدائنين ومن كل منفِّذي الأحكام القضائية، إذ يكون مَحْمِيًا من قبل الدولة، ولما كان ممن قضوا حياتهم كلها محكومًا عليهم بالعمل في التجديف في قارب المجاذيف القديم، بحكم كونه مدينًا إلى الأبد، ومطاردًا إلى الأبد، فقد اعتاد ماهو أسوأ من السجن في «فندق الفاصولياء». وكان التحرر يعني بالقياس إليه الاضطرار إلى الكفاح من جديد، يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة.

ويظل بلزاك، نصف عام، صامدًا في وجه ضربات الهراوات هذه، وكان يتنهَّد أحيانًا وهو يقول:

«إني لأقتل نفسي، بالمعنى الحرفي للكلمة».

أو:

«إن رأسي ليتدلَّى إلى أسفل، كجواد أصابه الإعياء»

بل تتلقى بنيتــه الحـديدية، لأول مــرة، إشــارة إنذار: وذلك أن نـوبة دُوار تداهمه. وينصح له الطبيب المخلص بمراعاة نفسه، بإلحاح، ويقول إنه ينبغي له أن يذهب إلى الريف شهرين أو ثلاثة، ويستجمّ، ويتبع بلزاك نصيحته، ولكن بشطرٍ منها فحسب، ويتوجه إلى موطنه في التورين، حيث أصدقاؤه آل مارغون، في المنفى القديم، ومع ذلك فلم يكن ذلك لكي يستجمّ كما أمره الدكتور ناكار، بل على النقيض من ذلك، أي لكي يعمل، بجموح وتركيز وعصبية يَصِلْن إلى حد الإفراط كما لم يعمل هو ذاته، في حياته كلها إلاّ فيما ندر. ويظل بلزاك يدرك، المرة بعد الأخرى، أن ما يمكن أن ينقذه من أوضاعه اليائسة ليس المضاربات، ولا الصفقات، ولا الزواج من امرأة موسِرة، بل عمله الحقيقي الواحد، أي الفن الذي ولد من أجله، وأقسم يمين الولاء له. وبالقياس إلى الفنان ليس هناك سوى وسيلة واحدة لا يقدر طبيب على أن يصفها لمرضاه الآخرين، وذلك أنه يستطيع، هو وحده، أن يصرف عن نفسه ألوان الكرب والضيق بأن يصفها، ويستطيع أن يُحَوِّل التجاريب المريرة إلى صيغة تهزُّ النفوس، وأن يُحَوِّل ماهو بالنسبة إليه قَسْرٌ شديد الوطأة في حياته، إلى حرية إبداعية، ويكون بلزاك رازحًا تحت وطأة مثل هذا القسر حين يأتي إلى ساشيه. وقد توصَّلت الأرملة بيشيه، التي تمتثل، بعد زواج جديد، لأوامر زوج بارع في التجارة والأعمال لا رحمة في قلبه، إلى قرار من المحكمة يقضي بأن يقوم بلزاك خلال أربع وعشرين ساعة بتوريد المجلديّن اللذين لم يجر توريدهما بعدُ بالحجم الثُماني من كتاب «دراسات في الأخلاق»، مع خمسين فرنكًا عن كل يوم من تأخير التوريد. ويريد بلزاك الآن

«أن يكتب لهذه المرأة مجلَّدَيْها خلال عشرين يومًا»

ويحرر عنقه من هذا العبء، وكانت تحدث المعجزة حيثما يكون لإرادة بلزاك دور في اللعبة، ويتبيَّن له أن عليه أن يقوم بأمرين:

«لا بُدَّ لي أن أحقق ما جاء في عقدي الأخير، وأن أكتب، فضلاً عن ذلك، كتابًا جميلاً» ويُوَفَّق إلى هذين كليهما، ولم يحدث قطّ أن أبدع بلزاك عملاً أروع مما كان يبدعه في ساعات ذروة الضيق والحَرَج. ففي ثمانية أيام يبتكر «الأوهام المفقودة» ويكتب الجزء الأول بأسره.

«لقد كانت كل قوايَ مشدودة متوتِّرة، وكنت أكتب عشر ساعات في اليوم وكنت أنهض قائمًا مع شروق الشمس، وأعمل، إلى أن يحين وقت الغداء، من دون أن أتناول شيئًا سوى القهوة السوداء»

ويغدو هذا الكتاب على وجه الخصوص، وهو الذي كُتب في سباق مع الغرامة النقدية، عملاً مركزيًا، ويبدو وكأن بلزاك قد استخرج ما في أعمق أعماقه بسَوْطٍ غاضب مُحْنَق، ورَصَفَ أشد رغائبه، وأكثر الأخطار التي تُحْدِق به خفاءً، تلقاءه، ليَعْجِم عودَها.

و «الأوهام المفقودة» تمثل صورة للعصر تَتَّسم بواقعية واتساع في أفق الحياة لم يعرف مثلهما الأدب الفرنسيّ مثيلاً حتى الآن، ولكن يوجد إلى جانب ذلك، وفي أعمق الأعماق، جدَلَ بلزاك الحاسم مع نفسه، وهو يصوِّر، من خلال شخصيتّين ما يمكن أن يصير إليه أديب عندما يلازم جانب الصرامة والإخلاص مع نفسه وعمله، أو عندما يستسلم لإغراء شهرة سريعة وغير لائقة. ويمثل لوسيان دي روبَمْبريه أكثر أخطاره عمقًا واستبطانًا، كما يمثل دانييل دارتيز أكثر مُثُله عُمْقًا واستبطانًا. على أن بلزاك يعرفِ ازدواجيّة طبيعته، ويعلم أن ثمّة أديب كامن فيه، يطمح إلى الحدود القصوى طموحًا لا يتزعزع، ويأبى على نفسه كل تنازل، ويرفض كل حل وسط، ويكون وحيداً كل الوحدة في وسط المجتمع- غير أنه يدرك، على النحو ذاته طبيعته الثانية، وهي إنسان المتعة الكامن فيه، المبذِّر، المُبدِّد، وعبد المال، الذي يظل، المرة بعد الأخرى يسقط فريسة لألوان من الصلف والخيلاء، ويظل امرءًا لا دفاع له حيال إغراءات الترف. ولكي يُصلِّب عودَه الآن،

ولكي يستعرض أمام عينيه الخطر، بإلحاح، أي لكي يستعرض الخطر الذي يحدق بأديب يخون فنه من أجل نجاح عابر صائر إلى الزوال، يرسم لنفسه، من باب التحذير لها، صورة مثل هذا الأديب الذي لا يصمد، فيستسلم للإغراء حينًا، ويفقِد كل ألوان التماسك. أمّا بطله، لوسيان دي روبَمْبريه، الذي يُدْعى في الحقيقة شاردون، ويضيف إلى اسمه لقب النبالة، على النحو ذاته، بمجرد دافع الرغبة في استكمال أسباب قوته، فيأتي، مثاليًا شابًا، بمجلدٍ من القصائد- وهو كروميل بلزاك- إلى باريس، يحدوه الأمل في أن يفرض نفسه عن طريق موهبته وحدها. وتدخله ضربة حظ في محيط «شلّة من ذوي المشارب المتماثلة»، من الشباب الذي يبدأون طريقهم طلابًا فقراء في حجرة سقيفة في الحي اللاتيني، ويمثلون، بفضل تضحيتهم في سبيل الرسالة التي تلوح لهم، نخبة فرنسا المستقبل. إنهم أصدقاء لويس لامبير. أمّا دارتْيز فأديبهم، وأمّا بيانشو فطبيبهم، وأمّا ميخائيل كريسّان ففيلسوفهم، وكلهم يشمئزّ من النجاح اليومي، نجاح اللحظة الراهنة، من أجل الإنجاز المستقبليّ الذي تعاهدوا عليه، وعن طريق دانييل دارتيز الذي يصوِّر بلزاك فيه أناه الخاصة، الأفضل في إطار قوة شخصيته وصبره القائم على الاعتداد بالنفس، يتم تَقَبُّل لوسيان دي روبَمْبريه في محيط هؤلاء الشباب الذين يتميزون بصدقهم ونقائهم، ولكن بدلاً من أن يظل مخلصًا لنبلاء الفكر، من رفاقه، يسمح لنفسه بالوقوع فريسة للإغراء لكي يحدث أثرًا بالغًا في النبلاء بالوراثة في ضاحية سان جيرمان. وهو يريد النجاح السريع، ويريد المال، والإعجاب، والتوفيق في محيط النساء، والسلطان في مضمار السياسة، ولمّا كانت الأشعار لا يمكن تقييمها بهذه العملة فهو يبيع نفسه إلى الصحافة، ويمارس بموهبته مهنة العُهْر- مثلما كان يفعل بلزاك في سالف الأيام- في أعمال تلفيقيّة، موقوفة على الساعة الراهنة وحدها، ويصبح قوّادًا لجريدة، وقوّادًا أيضًا في خدمة امرأة، وبينما يرتقي من حيث الظاهر، عن طريق أوجه نجاحه اليومية، في نظر الرأي العام فُقَاعةً من الفقاعات التي لا تحصى في مستنقع الإنتاج الأدبي، يزداد تَرَدّيه، في الحقيقة عمقًا

على نحو مطرد. وبالمعرفة القاسية التي تهبُها له سنوات عمل السخرة في خدمة الصحف، وبكل المرارة التي يتجرَّعُها حتى تبلغ جوفَه من جرّاء كراهيته للطغمة، يكشف بلزاك النقاب عن كل مؤسسة الرأي العام، وعن المسارح، والأدب، في باريس، وعن هذا العالم الذي يُسانِد بعضه بعضًا لأنه هَشٌ متداعٍ من الداخل، ويتنابذ أهله بالعداوة، في الوقت ذاته، من وراء الظهور. وعلى الرغم من أن المقصود هنا ليس إلاّ أنموذجًا مأخوذًا من باريس ذلك العصر، ومن ذلك الوسط الأضيق فإن «الأوهام المفقودة تعدّ صورة كاملة يسري مفعولها على كل العصور، وهي تمثل كتابًا في الاعتداد بالنفس والتمرُّد، وتذكيراً للمرء بأنَّ عليه أن لا يتردَّى في دَرْك الوَضاعة بدافع نفاد الصبر والرغبة واللهفة، وأن يظل قويًا ويزداد قوة على نحو مطَّرد من جراء المقاومة المضاعفة. ويظل بلزاك، يجد لنفسه، على الدوام، في ساعات الكَرْب الأقصى على وجه الخصوص، الجرأة الحقيقية، وهو يبدع أكثر أعماله اتّساماً بالسمة الشخصية، وأروعها، على الخصوص في غمرة أكبر الكوارث في حياته.

الفصـل الخامس عشـر

الرحلة إلى إيطاليا

وهذه السنة، سنة الكوارث، بكل ما فيها من دعاوى، ورُهون، وشكاوى، وإفلاسات، وصعوبات، وبما فيها من الساعات التي يقضيها في سجن الدولة، والساعات الأخرى، التي لا تُحصى في سجن العمل، يصفها بلزاك، في رسائله إلى مدام دي هانسكا بمتعة من يجد المتعة في ضرب نفسه بالسَوْط، على وجه الخصوص، وفي بعض الأحيان بلهجة منبرية رهيبة آسِرة، غير أن المرء لا يتخلّص من شبهةٍ مؤدّاها أن الأسلوب التفصيلي الذي يقدِّم به نشرة همومه وهزائمه أسبوعًا بعد أسبوع، لم يكن يقصد بها إلاّ أن تحجب حقيقة أنه يكتم من حياته، عن الصديقة البعيدة أموراً حقيقية وجوهرية للغاية. ومع ذلك فما من شيء يكشف عن الحيوية الهائلة، الفريدة في نوعها، عند بلزاك كشفًا أكثر عُمقًا وتَغَلْغُلاً، من كونه يجد، وهو يبدع، في هذا العام على وجه الخصوص، حيث تطارده بالفعل كل الكلاب، وفي غمرة الصخب والجَلَبة، أربعًا أو خمساً من روائع أعماله، بعدُ وقتًا لكي يحيا حياة خاصة، بل مترفة وحافلة بالمغامرات. وما من شيء أكثر انطواءاً على الخطأ من أن يحسب المرء أن بلزاك الذي يصف نفسه في أحوال عِدّة زاهداً، وعاملاً من عمال السخرة ينهار في ساعات فراغه مُسْتَنْفَد القوى. وكان في الحقيقة لا يعيش إلاّ في تلك الفترات الوجيزة التي تُبقيها له صفقاته وأعماله، على وجه الخصوص، بالطريقة التي هي الأكثر نأيًا عن الهموم، والأكثر تركيزاً، وبصفته مبالغًا ومُبَذِّرًا، هنا وهناك. ولا يفهم المرء بلزاك الإنسان إذا كان لا يعرف سِرَّه

الأخير: وهو لا مبالاته الناجمة عن شعور هائل بالأمن، تجاه ما يُسَمى، على وجه العموم، بالقدر ومِحن القدر. وكان ثمة شيء فيه- وربما كان هذا هو المادة الأكثر عمقًا وباطنية في كيانه- ليس له إسهام على الإطلاق في مصائب حياته الظاهرية، وهو ينظر إلى هذه العواطف بالفضول المتوتِّر ذاته الذي ينظر به المرء، في إطلالة من اليابسة على بحر هائج إلى الحد القاتل. وما من مرة ستعوقه حقيقة أن منفِّذي الأحكام القضائية سيطرقون بابه، عن شراء حاجة تافهةكل التفاهة، وفائضة عن الحاجة من تاجر مجوهرات. وفي هذا العام على وجه الخصوص، أي في عام ١٨٣٦، حيث ارتفع مستوى ديونه إلى مائة وأربعين ألف فرنك، وكان يضطر إلى أن يجمع، بالاقتراض من خياّطه وطبيبه، النقود من أجل غدائه، بالمعنى الحرفي لهذا الكلام، يطلب، بالإضافة إلى «عصا المسيو دي بلزاك» الشهيرة، وهي تلك الهراوة التي اصطنعت منها مدام جيرار دان رواية من الروايات، عصا ثانية أيضًا، من قَرْن الكركدن، بستمائة فرنك، وسكينًا ذهبية ذات ريش، وهِميانًا للنقود- وهي مشتريات أجدر بغانية نهبت لتوِّها رجلاً موسراً باذخًا منها برجل طيب مسكين، أو عبد من عبيد العمل، وزاهد عقد العزم على التقشُّف. وكان ثمة قوة خفية مضادة، فيه، تعمل على إحداث التوازن الدائم؛ فكلما ازداد وقوعًا تحت عبء الديون ازدادت رغبته في إيهام نفسه بالترف عن طريق هذه الألوان من سَقَط المتاع الباهظ الثمن، وكانت الظروف كلما! أَلَحَّت عليه بفداحة وَطْأتها ازداد ارتفاع مستوى التمتع بالحياة عنده، كما يرتفع مستوى الزئبق في ميزان الضغط الجوي، وكلما ازدادت وطأة ضغط حجر الرحى عليه، ازدادت الرغبة في الاستمتاع شدة عنده ولولا هذه الأطروحة ونقيضتها لكانت حياته حياة جنونية، وبها وحدها تغدو حياته عظيمة جليلة الشأن: إنها انسكاب أبدي لعنصر مشحون بشحنة بركانية إلى حد مفرط، لا يستطيع أن يستكمل حياته إلاّ في إطار من الانفجارات والاندفاعات.

ومن أجلِ ذلك يكون عام ١٨٣٦، وهو عام أفدح أزماته، عام أشدّ حرائق الشمس سخونة، وعام أشد العواصف عنفًا، عام سكْرٍ خصوصي، للترف والشهوات في حياة بلزاك، ولا يمكن للمرء، أبدًا أن يُعْجَب باستمتاعه بالتعمية وطمس الحقائق بالمغالاة على نحو جسور، وهما الأمران اللذان يتجاوزان كل إمكانيات التصديق بما فيهما من الألعاب البهلوانية، أكثر مما يحدث له عندما يقارن بين صورة حياته في سيرته الذاتية كما يفضي بها إلى مدام دي هانسكا في رسائله، وسيرته الحقيقية. ومِنْ ذلك أنه يروي لـ «زوجته الغرامية»، في رسالة إلي ڤيرتسخوڤنيا التي كان من حسن الحظ أنها بعيدة كل البعد، أنه اتخذ لنفسه، لكي ينسحب إلى أعمق أشكال العزلة، فضلاً عن مسكنه في شارع كاسيني، «حجرة في سقيفة» يعيش فيها وحيدًا في النهار والليل من دون أن يكتشفه أقرب أصدقائه، راهبًا شيخًا مُرْهَقًا وخط الشيب شعره- «صومعة مفتوحة لكل من يشاء، حتى لأسرتي».

وهذه «السقيفة» في الواقع، أي هذه «الصومعة» التي يقال إن بلزاك أخذها مستأجرًا، من صديقه جول ساندو بدافع الرثاء والتعاطف، هي المسكن الأكثر ترفًا، والذي لا يتهيب من بذل أية تكاليف لتجهيزه، وعلى الرغم من وجود أثاث كثير في شارع كاسيني يكفي لأربع حجرات، يتمُّ، لدى بائع السجاجيد الباهظة، مورو، في شارع كبوسين، تأمين كل شيء جديد، وحتى أوغست، خادمه، يحصل على حلة جديدة، زرقاء، مع صديري أحمر، يدفع بلزاك ثمنها ثلاثمائة وثمانية وستين فرنكًا، أو، بالأحرى، يظل مدينًا له بهذا المبلغ. أما الحجرة التي تتوِّج صومعة الراهب المزعومة فهي مخدع أكثر ملاءمة لـ «غادة الكاميليا» منها لأديب. ولكن تكديس النفائس على وجه الخصوص، والنزعة الحسِّية في الألوان يثيران حماسة بلزاك إلى الحد الذي يحمله على أن يقدِّم وصفًا دقيقًا لذلك في رواية «الفتاة ذات العينين الذهبيّتين»:

«كان المخدع يرسُم، في أحد شطريَه، قوسًا رخيًّا، مُستَظْرَفًا يتعارض مع الشطر الآخر، ذي التربيع الكامل، تلتمع في وسطه مدفأة من المرمر والذهب. وكان الداخل يدخل من باب جانبي يغطّيه ستار عليه الكثير من صور العفاريت، يُواجه النافذة. وكان المخدع المُكَوَّن على شكل حُدْوَة الحصان بأريكة تركية نفيسة، وهي سرير مُنجَّد يستقر على أرضية الحجرة مباشرة، غير أنه كان حَشيَّة منَّجدة تبلغ حجم السرير في ضخامتها- وكانت أريكة يبلغ مداها خمسين قدمًا، في قماش من الكشمير الأبيض. وكانت الأريكة مزدانة بأهداب من الحرير الأسود والأحمر القاني، مرتَّبة على أشكال شبيهة بالمعين، وكان مِسْنَد الرأس في سرير الاستراحة العملاق هذا يرتفع بضعة أشبار فوق سلسلة من الوسائد كانت تغنيه فوق هذا بنماذج مفعمة بالذوق. وكان القماش الذي يغطي الجدران في هذا المخدع يتألف من قماش أحمر رُكِّب عليه الموسلين الهندي بنوع من التخطيط كذلك الذي يكون في عمودٍ كورنثي ّتتعاقب عليه الثَّنْيات الغائرة والمُكَوَّرة. وكان كساء الجدران هذا محفوظًا بحافَّة من القماش الأحمر القاني يكشف عن زخارف ونقوش عربية سود، وكان اللون الأحمر القاني في كساء الجدران يتعرَّض للإضعاف من جراء الموسلين الموضوع فوقه، إلى درجة اللون الورديّ، وكان لون الحب ّذاته يعود فيتكرَّر في ستائر النوافذ التي كانت تتألف من الموسلين الهندي، المُوَشّى بقماش التَّفْتا الوردي، والأهداب المكوَّنة من الحرير الأحمر القاني والأسود. وكان ثمة شمعدانات ستة قائمة على الجدران، أرجوانية اللون، تتضمن كلٌّ منها شمعتين، موضوعة على الجدار مع وجود مسافات فاصلة متساوية بينها، وكانت تضيء الأريكة، وكان السقف الذي تتدلى منه ثريّا بلون أرجواني باهت، يتلألأ بالأبيض البرّاق، مُوَشىً، في وجهه الجانبي، بالذهب. وكان البساط يضاهي شالاً شرقيًا، وكانت نماذجه الزخرفية تذكّر المرء بالأشعار الفارسية، وتحمله على أن يتصوَّر أيدي الإماء اللواتي صَنَعْنَه، وكان الأثاث مغطّى بالكشمير الأبيض، وعليه الرسوم ذوات اللون الأحمر القاني والأسود، وكانت ساعتا المكتب والشمعدان يحيط بهما

المرمر الأبيض والذهب، وكانت المنضدة الوحيدة الموجودة مزدانة بغطاء من الكشمير الأبيض، وكان ثمة حمّالات للأزهار أنيقة تحوي وردًا من كل الأنواع، أو أزهارًا أخرى، بيضًا وحُمْرًا.

أمّا نحن فيذكّرنا هذا، تذكيرًا يبعث على القلق، بزينة السجاد عند ريتشارد ڤاجنر، الذي لم يكن يشعر بجوٍّ الإلهام الصحيح إلاّ في وسط أمثال هذه الأشكال من تراكم للحرير والكشمير، غير أن بلزاك لا يحتاج إلى هذا، بحال من الأحوال من أجل الإلهام الأدبي- الذي كان يَتَنَزَّل عليه وهو جالس إلى أي منضدة كانت من المناضد البسيطة-، بل كان يحتاج إليها من أجل أغراض أكثر واقعية إلى حد بعيد وحين يعرض على صديقه ڤونتاني هذه «الأريكة» البيضاء المشهورة، ينزلق من فمه، وهو الذي كان في العادة متحفظًا حَذِرًا، الاعتراف الضاحك، إذ يقول:

«لقد أوعزت بأن يُصْنَع ذلك لي، إذ كان عليّ أن أستقبل سيدة من أعلى فئات المجتمع، سيدة حقيقية! وكنت أحتاج من أجلها إلى أثاث جميل، لأنها أَلِفَتْ أمثال هذه الأشياء، وفي وسعي أن أقول إنها لم تكن، بحال من الأحوال غير راضية، قريرة العين باستعمال هذه الأريكة».

ولكن حتى لو لم يُدَوِّنْ مونتانيي هذا التصريح على الفور بعناية وحرص، في يومياته لكان في وسع المرء أن يفهم ذلك بالاستناد إلى مجرد نوع المسكن الجديد. وذلك أن بلزاك كلما تجهَّز بجهاز جديد، واعتزم أن يتحول إلى امرئ أنيق، يكون في حالة عشق، وحين يجهِّز لنفسه حجرة تتسم بسمة حِسِّية، أو شهوانية، يكون في انتظار عشيقة. وكانت مشاعره، مثل همومه، تعبِّر عن نفسها أبدًا بحسابات كبيرة. ومِنْ ذلك أنّه اقتنى، في أيامه، عربة، وسائس خيل، حين كان يخطب ودَّ دوقة كاستري، ومن أجلها اشتُرِيَت الأريكة الأولى، ومن أجل مدام دي بيرني زُيِّنَت حجرة النوم في شارع دي ماريه، ومن أجل مدام دي هانسكا أوعز بأن يُرْسَل، في أثره، إلى جنيف، أيضًا، اثني عشرية من القفافيز والمراهم،

وتمَّ استئجار المركبة الفخمة الخصوصية من أجل الرحلة إلى ڤينا، و إذًا فهو التناقض الجديد مع كل الآخرين: ففي العام الذي ألزم فيه نفسه إلى الأبد تجاه «الزوجة الغرامية»، في هذا العام على وجه الخصوص، انتاب بلزاك العشق بعنفوان لم يعرف مثله في أي وقت من الأوقات. وفي العام الذي يصنف فيه عذاب عفته في كل رسائله، في هذا العام على وجه الخصوص إذ شرع في أكثر علاقاته حرارة وجموحًا وخُلُوًّا من الهواجس والهموم، وكتابة رسائل الغرام التي تتدفق بالرَّوْعة، إلى «الوحيدة» التي قرأت جيلاً بأسره، في تأثُّر، كانت هذه الرسائل مكتوبة بعد قضاء الساعات الرَّعويَّة مع امرأة أخرى، وقبلها.

وهذه العشيقة الجديدة التي تلعب في حياة بلزاك دورًا كبيرًا بمقدار ما هو محجوب بعناية، تعرَّف عليها بلزاك، على نحو يتجلّى فيه التناقض، تعرُّفًا غير مباشر، عن طريق مدام دي هانسكا. وذلك أن مدام دي هانسكا كانت، عند رحيلها من جنيف، قد أدخلت عشيقهاو وزوجها الموعود في الخفاء، على الكونتيسة أبونييّ، زوجة السفير النمساوي في باريس، ويبادر بلزاك الذي كان، مع كل انشغاله، بالعمل، وفي غمرة هوسه بالأرستقراطية، يظل لديه على الدوام وقت للأميرات والكونتيسات، على الفور إلى زيارة للسفارة. وفي إحدى السهرات الكبرى، وفي عام ١٨٣٥، تلفت نظره امرأة في الثلاثين تقريبًا، ذات جمال غير عاديّ، طويلة، شقراء، ممتلئة، تخطر في حرية وشهوانية بكتفيها العاريتين، وتدع من يشاء يُعْجب بها ويخطب ودّها من دون أيّ شيء يشير إلى عدم ارتياحها، ولكن جمال هذه المرأة ليس هو وحده الذي يثير حماسة بلزاك. وذلك أنه يظل، إلى درجة معينة، فظًا إلى الأبد في شهوانيّته، مهتمًا على الدوام بالمركز الاجتماعي، وهو يَحْفِل بالاسم الارستقراطيّ للمرأة أكثر مما يَحْفل بشخصها. فهو لا يحتاج إلاّ أن يسمع أن هذه «المجهولة» الجديدة هي الكونتيسة جويد وبوني- فيسكونتي لكي يستعر اللهيب فيه، وكان آل فيسكونتي دوقات

ميلانو، وهم من أوائل أسر النبلاء في ميلانو، وعلى هذا يعدُّ، حتى آل ريزوفسكي ممن يُقَصِّرون عن شأوِ هؤلاء الحكام النبلاء في شجرة نسبهم التي ترجع إلى عصر النهضة، ويدنو بلزاك من هذه المرأة الجميلة، مندفعًا، غيرَ قادر على أن يكبت مشاعره، وقد نسي كل النسيان أيمانه وما أقسم عليه من الإخلاص الأبديّ.

وإذا هو يتبيَّن له، حين يمعن النظر، أن هذه الغريبة الجميلة لا هي بالمولودة كونتيسة ولا هي بالإيطالية، إذ تدعى باسمها الأصلي، سارة لوويل، ويرجع أصلها، وهي المولودة في إيبول بارك، في لندن، عام ١٨٠٤، لأسرة غريبة ذات مسحة من خفة العقل الإنكليزي، ينتشر فيها الانتحار والأهواء العاصفة انتشار الوباء. أما أمُّها، التي كانت مثلها، مشهورة بالجمال، فتضع نهاية لحياتها بمجرد أن تشعر بأنها أخذت تشيخ، وكذلك تسير الأمور بالنسبة لواحد من إخوتها، ويهلك أخ آخرُ لها، من جراء الشراب، وتعاني أختها الصغرى من جنون ديني. أمّا الكونتيسة الجميلة فيقتصر هواها، بصفتها الطبيعية الوحيدة في هذه الأسرة ذات التوتُّر المفرط، على مملكة الشهوة، وكانت كما تبدو باردة من الطراز الإنكليزيّ، شقراء، متوازنة، متماسكة، تستسلم لكل مغامرة تغريها من دون رادع داخلي، ومن دون تأثُّر عميق. أمّا أنها كان لها زوج يتمثَّل في الكونت إميليو جويدوبوني-فيسكونتي، فذلك ما كان يحلو لها أن تنساه كل النسيان، ولم تكن تكدِّر صفوها غيرة من هذا الزوج الساكن المتواضع الذي لابُدَّ أنها تزوَّجته في رحلة ما من رحلاتها.

وكانت لإميليو جويد بوني- فيسكونتي، من جانبه، أهواءٌ لم تكن تتقاطع قَطُّ مع أهواء زوجه الفضائحية إلى حَدٍّ ما، فهو يحب الموسيقا على أنها محبوبة حياته الحقيقية، وهو خليق بذلك أن تخلِّده أقصوصة من أقاصيص ي. ت. أ. هوفمن. وعلى الرغم من كونه سليل قادة المرتزقة الكِبار، فهو لا يعرف متعة أعظم من أن يجلس إلى القِمَطْر في وسط الموسيقيين الآخرين، من الفقراء، ذوي الأجور

اليسيرة، ويُباح له أن يعزف على الكمنجة. وكان لآل جويد بوني- فيسكونتي، إلى جانب قصرهم في باريس وقصرهم في ڤينا، منزل في ڤرساي، وإلى هنا كان يتسلل مساءً بعد مساء إلى القِمَطْر، ومهما كانت المدينة التي يدخلها، فهو يرجو أن تتاح له خُطوة المشاركة في العزف في الفرقة الموسيقية، بحكم كونه الهاوي الذوّاقة المثالي. أمّا في النهار فيُسَلّي نفسه بأن يلعب دور الصيدلي، فيخلط، في عبث طفولي، مثل أهل السيمياء في العصور الوسطى، كل العناصر المكوِّنة الممكنة، ويعبئها في زجاجات، ويلصق عليها قصاصات الورق النظيفة أما الذهاب إلى السهرات فيمثل عبئًا بالقياس إليه، فهو لا يشعر بالارتياح إلا حين يكون في الظل، وبذلك لا يقف قط عقبةً في طريق عُشّاق زوجه الجميلة بحال من الأحوال ويكون من أهل المودة تجاه كل واحد منهم، متلطِّفًا لهم، لأنه يظل، على هذا النحو، مع موسيقاه الحبيبة، من دون أن يكدِّر صفوه مكدِّر.

أما بلزاك، الذي يسعده الحظ الآن- بعد السيد دي بيرني، والسيد فون هانسكي- للمرة الثالثة- بأن يلقى زوجين ينطويان في شطر منهما على اللامبالاة، وفي شطر آخر على الروح الفروسية، ويتيح لزوجه كل إمكانية لكي تدع أديبًا شهيراً ينهال عليها بعبارات التبجيل، متحمِّسًا، فينطلق إلى هدفه بكل الحرارة ونفاد الصبر اللذين يتّسم بهما وفي الحقبة التالية تغدو كل ساعات فراغه مخصَّصة، على سبيل الحصر، لآل جويد وبوني فيسكونتي، فيزورهم في نويّي، وينطلق خارجًا إلى ڤرساي، ويشاطرهم المقصورة في المسرح الإيطالي. وفي أبريل من عام ١٨٣٥، ولمّا ينقضِ رُبعْ عام على عودته من جنيف يروي لا لمتلقِّية اعترافاته العامة، مدام دي هانسكا، بحكم البدهية، بل لِزُلْما كارّو التي يُعْتَمَدُ عليها ويوثَقُ بها:

«لقد وقعتُ، منذ بضعةَ أيام، فريسةً لسحرِ امرأة ذات سلطان كاسح بصورة كاملة. ولست أعرف على الإطلاق كيف ينبغي لي أن أصون نفسي منها، وأنا لا أجد القوة التي تمكنني من رفض ما يروق لي، شأن البنات الصغيرات المسكينات»

ولكن الكونتيسة مازالت تتردَّد، من جانبها في أن تتيح لبلزاك الاستحواذ عليها. والحق أنها كانت هجرت لتوِّها عشيقها الذي كان لها حتى الآن، وهو الأمير كوزلوفسكي، الذي أنجبت، عن طريقه ولداً، لزوجها المولَع بالموسيقا، غير أنها مازالت غير مستيقنة فيما يتصل بمسألة هل ينبغي لها أن تُؤْثِر الكونت ليونيل دي بونڤال، وهو زيْر نساء كبير في المجتمع الباريسي، على بلزاك، ليكون أوَّل خلف له. ولم يكن في وسع بلزاك، من ناحية أخرى، أن يكرِّس نفسه لموضوع حماسته الجديد، بالعنفوان والحماسة الكاملَيْن، لأن الروايات تتطلَّب أن تكتب، ولابُدَّ من خوض الكفاح مع الدائنين، وهو لا يريد، فضلاً عن ذلك، أن يدع الحديد الاخر يَبْرُد. لقد تمّ إبلاغ مدام دي هانسكا عن طريق الأصدقاء الروس والبولونيين، وآل كوزلوفسكي، وآل كيسيليف، والوَشّائين الاخرين المستعدِّين لإسداء العون، بولَع بلزاك المفاجئ بالموسيقا، وهي تعلم أن مقصورة أولمب- بيليسيير، غير ذات الخطر، والعائدة لعشيقة روسيني قد تم استبدالها بمقصورة فيسكونتي، ولمّا كانت عقدت عزمها على أن تلعب، في نظر العالم الذي سيأتي من بعدها دور السيدة الأولى في حياة بلزاك، فهي تتهمّه في رسائلها بعدم الصدق وعدم الإخلاص، ويبدو أنها تطالب بلزاك، مع وجود هذه الخطبة الغريبة، من فوق رأس الزوج اللامبالي الذي مازال حيّاً، ولا يدري شيئاً، بالإخلاص المطلق، ولم تسمح له، من أجل تخفيف مالديه من حده التوتُّر إلاّ بـ «البنات»، أي «أية بنات صغيرات- أي بنات لا توكيد على جانب النفسية عندهن أبداً، ولا يلحقن الضرر بمكانتها من الوجهة الاجتماعية. وهي تعرف بلزاك بما يكفي لكي تعلم أنه سيكتب إلى كونتيسة تحمل اسم جويدبوني- فيسكونتي رسائل تفيض بالعواطف الجامحة، والبهرجة، وتدفُّق المشاعر على نحو لا يقل عما يكتبه إليها، وهي التي كانت تحسب أنها حققت لنفسها احتكاره عن طريق استسلامها له. وأخيراً لا تتبقى هناك إمكانية أخرى لتهدئة ثائرتها- ومن شأن المرء أن لا يتخلّى، بلا مبالاة كاملة، عن أرملة تملك الملايين، من أجل المستقبل- ما دامت لا تكلفه سوى أن يقوم بتلك الرحلة الباهظة

التكاليف، والتي يمتزج فيها الخيال والأحلام بالواقع، ليؤكِّد لمدام دي هانسكا أخرى، أنها الواحدة، والوحيدة التي استحوذت على قلبه، ثم يأتي ذلك الصيف في ساشيه، حتى يؤدي، بالعمل، التزاماته. ففي آب عام ١٨٣٥، يبدأ، من جديد، السباق مع ليونيل دي بونفال، من أجل الظفر بالكونتيسة الجميلة، ويحظى بلزاك بالنصر، ويصبح بلزاك عشيق الكونتيسة فيسكونتي، وتشير كل الظواهر- إذا جازلنا أن نصدق ذلك الكتاب المُغفَل الاسم، والذي ينطوي على معلومات واسعة تثير الشبهة، بعنوان «بلزاك متجردًا»- إلى أن بلزاك كان أيضًا والد ذلك المدعو ليونيل ريتشارد جويد وبوني- فيسكونتي، الذي يولد في ٢٩ أيار، عام ١٨٣٦، وهو أحد أولئك الأولاد الثلاثة الذين يولدون لأب مجهول، والذين لم يرثوا اسم والدهم، ولا عبقريته.

وعلى الرغم من أن الكونتيسة جويدو بوني- فيسكونتي ظلت، خلال خمسة أعوام، العشيقة، والصديقة المُضحيّة، والمغيثة في كل المِحَن والشدائد، فهي تتراجع في كل تصاوير بلزاك لحياته، إلى الخلفية، تراجُعًا غير لائق، وذلك في الحقيقة من جراء ذَنْبِها هي. وكما يحدث في كثير من الأحيان في الحياة، فإن ما يُعَوَّل عليه ليس ما أحدثه المرء أو ما أنجزه، بل مقدار حُسْنِ إنجازه ومقدار ما بذل في ذلك من الهمّة والنشاط، ولم تكن الكونتيسة فيسكونتي تلتمس الشهرة الأدبية اللاحقة أبدًا، ولذلك دخلت صورتها بصورة كاملة في ظل مدام دي هانسكا، الأكثر صلَفًا وخيلاءً، والأكثر طموحًا إلى هدف معين، إلى حد بعيد، والتي كانت، منذ البداية، تعمل جاهدة على الظفر بدور «العشيقة الخالدة» لبلزاك. وما كان بلزاك ليكون بلزاك لو أنه لم يكتب إلى مدام فيسكونتي أيضًا، في أيام الهوى الجامح، رسائل تلتهب حماسة، غير أنها لم تُرَقِّمْها، ولا حفظتها للطبع بصورة مسبقة في حُقٍّ صغير، وسواءٌ أكان ذلك بدافع الخمول الذهني أو اللامبالاة، أم لأنها لم تكن، في غمرة اعتداها السِيادي بنفسها، تتعلَّق بموته وموتها، ولم تكن

تريد أن تتسلّى بذلك، فإنها تخلّت منذ البداية عن كل نوع من أنواع الشهرة في تاريخ الأدب، لكي تتفانى في خدمة الحَيّ بحرارة أكبر، وصراحة أكبر، وأكثر بُعْداً عن القلق والهَمّ، غير أنها تخفّفَت بذلك من عبء كل ما يؤلم ويزعج، أي عبء علاقة مدام دي هانسكا ببلزاك، وهي تلك العلاقة التي تلتصق به على نحو باعث للغيظ الشديد عند إمعان النظر. وحتى في أيام الهوى الكبير المزعوم كانت هذه الأرستقراطية الذكية والطموحة مهتمة على الدوام «بمركزها» وبموقعها الظاهري في العالم وبمكانها في تاريخ الأدب. ويظل المرء، على مدى عشرين عاماً، يحس بخوف مدام دي هانسكا الذي لا ينقطع، من أن تتعرَّض للانتقاص، من أجل بلزاك، أو عن طريق بلزاك، وتظل على الدوام تريد الحفاظ على حرارة مكانتها المُشرّفة في حياته، من دون أن تصدر عنها هي الحرارة الحقيقية. إنها تريد أن تحتفظ ببلزاك عشيقاً لها، وشاعراً غزلياً من شعراء (التروبادور)، ولكن في الخفاء، والسر، بحيث لا يطّلِع على ذلك ذوو قرابتها من النبلاء، وتريد رسائله، ومخطوطاته، ولكن من دون لَفْتٍ للأنظار، ولا فضيحة. وهي تَنْسَلُّ إليه في الفندق، وتتحدث علانية، في لَوْمٍ بارد، عن السيد دي بلزاك، الغريب الأطوار. وتمثّل أمام السيد فون هانسكي دور الزوجة المخلصة، بينما تَعدُ بلزاك، في إطار ترمُّلِها المتوقَّع لتحتفظ به عشيقاً، وهي لا تتخلّى عن زوجها وملايينه، ولا تجازف بذرَّةٍ من سمعتها التي لا تشوبها شائبة، وحتى عندما تتحرر لا تستطيع أن تعتقد عزمها حقاً على أن تتحول إلى زواج لا يليق بطبقتها، ويظل المرء على الدوام يحسُّ بالغرض، والحساب، والتقدير، والاهتمام بصغائر الأمور، والحذر والتروّي في سلوكها، بل إن استسلامها مرة واحدة، أو مرتين، في جنيف، يبدو أقرب إلى أن يكون صَدَقَةً وعملاً من أعمال الفضول تُقْدِم عليه على مضض وسرعان ما تندم عليه، منه إلى أن يكون استسلاماً حراً، واعياً، وبَذْلاً تبذيرياً، لذاتها.

وإذا قارنّا بهذه العلاقة الحافلة بانعدام الصدق، والمناكفة المبنيّة على الغيرة، والعبث البارد علاقة الكونتيسة فيسكونتي التي هي لا أخلاقية في الظاهر، وجدناها

سمحة كريمة، وقائمة على السيادة. وذلك أنها لا تكاد تعقد العزم على أن تمنح نفسها لبلزاك حتى تمنحه نفسها كلَّ المنح وبهوى جامح- وصورتها في «الزنبقة في الوادي» شاهد على ذلك- وهي لا تحفل البتّة بأن تطلّع على ذلك كل باريس، وتثرثر به، وتظهر معه في مقصورتها، وتأخذه في بيتها حين لا يعرف كيف ينقذ نفسه من الدائنين، وتسكن معه في جوار مباشر بين البابين في الجاردي. ولا تمثل بين يَدَيْ زوجها، بحال من الأحوال، المهزلة غير المستساغة، مهزلة الزوجة المخلصة، ومثلما لا تحتمل منه غَيْرة، لا تعذب من جانبها بلزاك أيضًا بأشكال من الحذر والانتباه والغيرة ذات الأفق الضيق، مما يدل على الاهتمام بصغائر الأمور، وهي تدع له حريته، وتضحك من مغامراته، وهي لا تكذب، ولا تضطرّه إلى أن يجتهد في الكذب، مثلما كان يضطر إلى فعل ذلك أمام الأخرى، على الدوام، في رسائله. وعلى الرغم من أنها لم تكن تتمتع بعُشْرِ ثروة آل هانسكي، فهي تسعفه اثنتي عشرة مرة، بالتوصيات حينا، وبالمال النقدي حينًا آخر، لكي يتجاوز الصعوبات التي يواجهها، فهي عشيقة حقيقية وصديقة في الوقت ذاته، تكشف في كل اللحظات عن جسارة، وصراحة، وحرية، على نحو لا يتهيّأ إلا لامرأة لا تخضع لمجتمع، ولا لأخلاق جامدة، ولا لنظام للمراتب، بل تعيش حياتها حرة، صريحة، وَفْقًا لإرادتها.

وكانت هذه الصراحة، بالطبع، لا تُمَكِّن بلزاك، أيضًا، من كتمان علاقاته بمدام دي هانسكا، وربما وُفِّق أيضًا، إلى أن ينكر أن تكون المشاهد الغرامية التي تكشف عن الهوى الجامح عند الليدي دَدْلي، في رواية «الزنبقة في الوادي»، مأخوذة، في وصفها، أخذاً مباشراً عن حالات الوجد الأولى التي شهدها مع الكونتيسة- «أوَلا يزعم الناس أنني صوَّرت مدام فيسكونتي؟»، وهذا ما يكتبه إلى مدام دي هانسكا في اندهاش ساذج في الظاهر من سوء هذا العالم، غير أنه لا يستطيع، بلا ريب، أن يحظر التقارير الخطية للمراسلين البولونيين والروس، إلى

ڤيرتسخوفنيا، التي تنقل الوضع المعروف على نحو مكشوف بكل تفاصيله التي يمكن تصورُّها. وكان من البَدَهي أن تمطر السماء بـ «الرسائل الحافلة بالشكوك والمآخذ»، ولكن بلزاك، الذي مازال يحسب الحساب لموت السيد فون هانسكي وملايينه، يواصل الكذب بشجاعة، قائلاً إنها مجرد صديقة مثالية يمكن أن تؤتمن على نحو رائع، ولكي يبدو مخلصاً يترنم، بطريقة مهذَّبة منمَّقة، بالثناء على هذه «الصداقة التي تواسيني في مِحَني الجَمّة»، ويكتب إلى مدام دي هانسكا، قائلاً:

«السيدة دي فيسكونتي، التي تذكرينها، واحدة من أجدر الناس بالمحبَّة، فهي تنطوي على فضيلة لا نهاية لها، مصطفاة منتقاة، وهي ذات جمال رقيق أنيق، تعينني على احتمال الحياة، ثم إنها رقيقة دَمِثة، وهي مع ذلك مفعمة بالصلابة، لا تتزعزع، ولا تقبل المصالحة فيما يتصل بنظراتها وميولها، وهي تتسم بالثقة البالغة في معاشرة الناس، ومع ذلك فلم تكن سعيدة كل السعادة، والأحرى أن ظروفها وظروف الكونت لم تكن تأتلف كل الائتلاف مع الاسم الرائع الذي يحملانه...

غير أن بلزاك لا يكتب نشيد الثناء هذا، إلاّ لكي يختتمه بالتنهُّدة التي تنطوي على مَرْثيّة: «ومن سوء حظي أنني ما عدت أراها إلا نادراً».

والأرجح أنه يعرف أن مدام دي هانسكا، التي تملك معلومات يعتَمد عليها بدرجة أكبر كثيراً مما تحصل عليه من رسائله، لن تصدقه كثيراً، غير أن هذا ربما لم يكن يعني كثيراً بالقياس إليه، من حيث الباطن، وكان ثمة شيء من بريق «نجمة القطب» قد أخذ يبهت في تلك السنين، مادام، بعد أن أصبح بعيد المنال، يرسل ضوءه من بُعْدِ ألف ميل إلى حدود آسيا، ومادامت صحة السيد فون هانسكي تثبت أنها صلبة طويلة العمر. ومثلما يحتفظ الأحياء، في التاريخ، بالأولوية على الأموات يحتفظ الأقربون، في الحب، بالأولوية على الأبعدين. والكونتيسة فيسكونتي قريبة، وهي امرأة صبيّة، جميلة، جامحة العاطفة، شهوانية، مستعدة له على الدوام، لاتكدِّره ولا تُثْقِل عليه أبداً. وهكذا يعيش معها في الأعوام التالية

حياته الواقعية، بينما يروي، في الوقت ذاته، ويكتب، لمدام دي هانسكا، عن حياته الخيالية، من أجل الحُقّ الصغير، ومن أجل العالم من بعده.

وكانت إيڤيلينا فون هانسكا تنطوي على طموح يدفعها إلى أن تكون المرأة التي يفهمها بلزاك أكثر مما يفهم أي امرأة أخرى، طموح إلى أن تكون مُوَجِّهته، ومستشارته، وكان من الممكن أن تتفوّق، بذوقها الأدبي، وبقدرتها على إصدار الأحكام النقدية، مائة مرة على الكونتيسة فيسكونتي، ولكن الكونتيسة فيسكونتي تفهم فهمًا أفضل، ما يحتاج إليه بلزاك الإنسان. فهي تدرك وتفهم حاجة هذا الفنان المطارَد، المُلاحَق، الذي يئن تحت وطأة الالتزامات التي تنقطع، إلى الحرية، لقد رأت، معه، ماعادت به سنة الشقاء والنَّحْس هذه على بلزاك، وهي ترى مقدار إرهاقه، وإنهاكه، وإفعامه بالرغبة في تخفيف حدة توتره وتسليته. وبدلاً من أن تمسك به الآن لديها، في غَيْرتها، شأن تلك الأخرى، تُعدّ العدَّة الآن، في فهم عبقري قائم على شعور القلب، للشيء الوحيد الذي يستطيع أن ينعش بلزاك ويردّه إلى الإبداع من جديد: إنها رحلة إلى إيطاليا يتوق بلزاك إليها منذ تلك المغامرة غير الموفقة مع مدام كاستري، تَوَقًا بالغ الحرارة، وهي في الحقيقة رحلة لا تكلّف بلزاك شيئًا.

وكانت للكونت جويد وبوني- فيسكونتي، من تركة أمه، مطاليب في إيطاليا يصعب تحصيلها، ولمّا كان هو نفسه غير بارع أو مؤهَّل لأقل المفاوضات التجارية شأنًا، فقد تخلى ذلك الموسيقي المُعْرِض عن الدنيا عن الكفاح من أجل ميراثه. هنالك تجد الكونتيسة، أو تبتكر الآن، التوليفة المبنية على الفهم، إذ يفترض أن يرسل بلزاك، صديقهما المشترك، الذي يعرف طاقته، وبراعته في أمور التجارة والأعمال، إلى إيطاليا، لتسوية المسألة. ويوافق الزوج الطيِّب. أما بلزاك، الذي يعود أدراجه لتوّه من ساشيه، وهو لا يعرف إلى أين يذهب لينقذ نفسه من دائنيه،

فقد سُعِد بلا ريب، ويتم تسليمه التفويض عند موثق العقود، كما يتم تسليمه أيضاً مبلغاً من المال مقابل تكاليف الرحلة. وهكذا يستطيع آخر الأمر أن يرتقي كرسِي عربة البريد، ويشرع في الرحلة التي طالما كان يحلم بها، إلى «بلاد الحب».

على أن الكونتيسة فيسكونتي تضيف إلى هذه المَكْرُمَة الان مَكْرُمَةً أخرى. أمّا أنها لا تصحب بلزاك في هذه الرحلة فذلك أمر مفهوم، مادامت أصبحت قبل شهر فحسب، أمّا لذلك المَدْعو ليونيل ريتشارد، والذي يستطيع المرء، بلا ريب أن يَعُدَّه عربون حبه. ولكن الأمر الذي ينطوي على مزيد من المفاجأة، كما يعدّ شاهداً على المروءة في شعورها، أنها لا تتقدم بأي اعتراض على مرافق عشيقها في الرحلة، وهو فتى وسيم ذو شعر أسود قصَّرته الحِلاقة، يقال له مرسيل، ولم يسمع به قطُّ أصدقاء بلزاك الآخرون بعدُ. والوحيد الذي يستطيع أن يدلي بالمعلومات عنه هو خياط بلزاك، بويسّون الذي كان بلزاك قد ظهر لديه قُبَيْل ذلك في صحبة امرأة صبية داكنة اللون، ليفصِّل لها حُلَّة رجالية، وإزاراً أشهبَ (ريد نجوت) (طويلاً يمكن أغلاقه بالأزرار حتى ذيله يلائم، بعد ذلك، الصبيّة على نحو ممتاز وينسجم على جسدها، ولكن ذلك لم يكن بالطبع ممتازاً إلى الحد الذي لا يُمكِّن النظرة الأكثر حِدَّة من أن تَحْدِس الجنس الأضعف. وبدلاً من أن يبحث بلزاك عن المغامرات في «بلاد الحب»، يجعل الرحلة حافلة بالمغامرات عن طريق هذه المسرحية التنكُّرية الجريئة.

وكان بلزاك الكثير الشواغل قد اقتنص عشيقته هذه الجديدة، مثلما كان يحدث في حالة كل صديقاته وعلاقاته، عن طريق التراسل، وكانت، مرة أخرى، مثل كل صديقاته، امرأة متزوجة، هي زوجة زوج مريح. وذلك أن مدام كارولين ماربوتي ينتابها الملل في «ليموج» بحكم كونها زوجة لموظف رفيع المستوى في سلك القضاء. وكذلك تكتب إلى بلزاك، المحامي العمومي لكل النساء المخيِّبات الآمال، وغير المفهومات في فرنسا، رسالة رومانسية، ولم يكن لدى هذا المحامي العمومي

في تلك الأيام، على وجه الخصوص أي في عام ١٨٣٥، وقت ليجيب عن رسالتها. ولذلك تلتمس العِوَض، وحين تواصل استعراض اللائحة الأبجدية، فتصل إلى Be بعد Ba، تصل- مثلما وصلت دوقة كاستري على وجه الدقة- من بلزاك إلى سانت بوڤ الذي تجد لديه مودة أكثر. فيطلب إليها المجيء إلى باريس، وتأتي، حسناءً، ناريّةً، صبيّة، وكان من المؤسف أن سانت- بوڤ الجاف، ذا الأُبَّهة، يثبت أنه ليس موافقًا لذوقها، ولا يجديه فتيلاً أنَّه يقرض فيها الشعر بسوناتا دفّاقة. وتُؤثِر أن تجرب مرة أخرى أن تقرع الباب الآخر. وإذا بلزاك الذي كان أخذ، منذ نجاحه لدى مدام دي هانسكا، يعرف كيف يقدِّر النساء اللواتي يصغُرْنه سنًا، لا يلعب بحال من الأحوال دور النبي يوسف أمام مدام فوطيفار هذه، ذات النزعة العدوانية، وإذا زيارة التعارف الأولى تتوسَّع إلى المخدع المشهور في شارع دي باتييّ، لتدوم ثلاث ليال وإذا الصبية الناضِرة تتلاءم مع ذوقه وشهيَّته إلى حد يبلغ منه أنه يقترح عليها أن يرتحلا معًا إلى التورين، ولا تستطيع السيدة ماربوتي أن تعقد عزمها على ذلك، لأسباب شتى.

ولكن حين يقترح عليها، بعد عودته من ساشيه، أن تسافر معه إلى إيطاليا على حساب صديقته الأخرى تعلن، بحماسة، استعدادها لهذا العبث، وهو أن تصحبه متنكِّرة في ثياب خادم فندق فتى في حلة رسمية، إذا لابُدَّ لرحلة إلى البلاد الرومانسية أن تكون، منذ البداية، رومانسية.

ولم يكن ثمة شاهد على هذه الكوميديا التنكرية سوى صديق واحد من أصدقائه، وهو جول ساندو، الذي كان قد جِاء إلى شارع كاسيني، لكي يكون يكون في صحبة بلزاك، فيرى فجأة صبيّة ذات شعر قصير الحِلاقة، تتقدَّم في عربة ذات جوادين، وتصعد في معرفة ظاهرة بالمكان، السلالم إلى حجرة نوم بلزاك. وكان ما يزال يبتسم ابتسامه الرضى في قرارة نفسه لهذا المكسب الجديد الذي ظفر به صديقه الذي اعتاد أن يثني في وسط المجتمع بفصاحة بالغة، على العفَّة على أنها الشرط الأوَّلي للإنتاج الفني، حين ينزل على السلالم ذاتها، بعد دقائق قلائل، من

الحجرة ذاتها، شابٌ أنيق في إزار أشهب، وسوط الحوذيّ في يده، ضاحكًا، ومعه سلَّة صغيرة تحتوي على الملابس الداخلية من أجل ثمانية أيام، وعلى ملابس نسائية أيضًا للطوارئ، يدسُّها في كرسيِّ عربة البريد، وكان يضرب الأرض بقدميه وراءه، في مثل سعادة الأطفال، لما وُفِّق إليه من مَقْلَب، بلزاك نازلاً على السلالم، ويقعد إلى جانب خادم الفندق الفتى، وبعد دقيقة تدرج العربة منطلقة إلى إيطاليا

وهذه انطلاقة ساحرة. وفي الطريق تنجم عن هذا الخلط بين شخصية وأخرى أَمْتَعُ المغامرات. أما رهبان الكنيسة الشارتريّة الكبرى فلا ينخدعون بالإزار الممتلئ (الريد نجوت) والسراويل المشدودة على الصبيّة مرسيل، بحال من الأحوال، ويرفضون دخول تلك المنتمية إلى الجنس الخطير، إلى الدير، وتعوِّض الحوريّة الشابة ذلك بأن تغتسل اغتسالاً مرتجلاً من جداول الألب في موقع قريب وليس على جسمها سوى ذلك الإزار الطويل ذي الأزرار، ولكن كثيراً من الأمور يحدث على حساب بلزاك، صاحب الأقاصيص الماجنة، وبعد رحلة سريعة إلى حد بالغ الجسارة فوق جبل سنيس يصل الزوجان الشابان، أو بالأحرى، المسيو دي بلزاك مع خادم غرفته، إلى تورين.

وقد كان كل امرئ عاقل خليقًا أن يدع مسرحية التنكُّر الهزلية غير ذات الخطر، تنتهي إلى غايتها، أو تأوي، كما يليق بزوج من العشّاق غير شرعي، إلى أي فندق منعزل، لكيلا تلفت الانتباه إلى نفسها، غير أن بلزاك يحب أن يدفع بالأمور إلى ذروتها. ويتوجَّه، من دون عوائق، إلى أكثر الفنادق نبالة في المدينة، وهو «فندق أوروبا» الذي يقع قبالة نوافذ القصر الملكي مباشرة، ويحتل، لنفسه ولمرافقته، معًا، أجمل الحجرات. وكان من البَدَهي أن تعلن مجلة «غازيتا بيمونتيز» وصول الكاتب الشهير في اليوم التالي مباشرة. وعلى الفور يستبدُّ الفضول بالمجتمع الأرستقراطيّ كله، إلى رؤية بلزاك وعصا تَسْياره الشهيرة التي كان نجاحها لا يقل ضخامة عن نجاح أعماله، كما يروي، وقد «أوشكت أن تبلغ

أبعاداً أوروبية» وكان العاملون في خدمة منازل النبلاء يوزعون الدعوات، وكلُّهم يتسابق إلى التعرُّف على بلزاك، بل كانت توضع، عن طريق توسُّط الأرستقراطيين المصادقين له، من أجل النزهة، الخيول المأخوذة من خطائر الخيول والعربات الملكية، تحت تصرُّفه.

على أن بلزاك الذي لا يستطيع قطُّ أن يقاوم إعجاب الأميرات والكونتيسات، والمركيزات، يقبل دعوة الأرستقراطية البيمونتية طائعًا مختاراً. وبعد أن لبث، على مدى الشهور والسنين، لا يستقبل، دائماً، سوى الدائنين ومنفِّذي الأحكام القضائية، بات يتملَّق غروره أن يتم استقباله في القصور التي كان يتعذر دخولها على أهل الطبقة الوسطى في العادة، مع كل مظاهر التوقير والتكريم التي يتم إيلاؤها لأمير أجنبيّ، ولكن الشيطان يركبه إذ يغريه بأن يأتي معه، إلى هذه المنازل النبيلة بالمرأة الريفية الضئيلة المتنكِّرة، في ثيابها الرجالية، ويخلق بذلك تعقيداً جديداً على نحو ما يصف ذلك هو ذاته في رواياته وصفًا لا يمكن ابتكار ما يفوقه مجونًا. ولا يستغرق الأمر وقتًا طويلاً قبل أن يدرك الناس في الصالونات الأرستقراطية أن هذا الشاب المدعو مرسيل، إنما هو سيدة متنكِّرة، على غرار ابن عمها في الاسم الذي ينتمي إلى هوجنوت مايرزبير، ولمّا لم يكن هناك أحد يستطيع أن يَعُدَّ الوقاحة التي لا حَدَّ لها، ممكنة، وهي أن بلزاك يُدْخِل إلى منازل نبلاء بيمونت أية شريكة فراش، متنكِّرة، فقد نشأت شائعة تلتفت الأنظار، ويحيط القوم علمًا بأن رفيقة بلزاك الشهيرة، جورج صاند، ذات حِلاقة قصيرة، تدخن السيجار والغليون، وترتدي السراويل، وتبدِّل عشاقها أكثر مما تبدِّل مناديل جيبها، وقد كانت منذ عهد قريب مع ألفريد دي موسيه في إيطاليا، فلماذا لا ينبغي لها أن تأتي هذه المرة مع هونوريه دي بلزاك؟ وهكذا تجد السيدة المسكينة، ماربوتي، نفسها فجأة وقد تزاحم عليها السادة والسيدات من كل حَدْب وصوب، يثرثرون معها حول الأدب، ويستمعون، قبل كل شيء، إلى كلمات مستظرفة، ويريدون، قدر الإمكان، أن يفوزوا بـ «أوتوجراف» جورج صاند.

والآن تغدو النكتة غير مريحة شيئًا فشيئًا حتى بالقياس إلى رجل من حجم بلزاك، ويحتاج إلى كل حضور ذهنه وبراعته ليحل اللغز المعقّد من جديد. ويعترف، في الخفاء، للمركيز فيليكس دي سان- توماس بالتنكُّر وهو يموِّه ذلك بالطبع، في الوقت ذاته بإهاب أخلاقي، بأشد الطرق عناية.

«لقد أَوْكَلَت أمر نفسها إليّ لأنها تعلم أن ثمة هوىً آخر يستغرقني في الحقيقة من رأسي إلى قدمي، ويملأني تمامًا.

وعلى كل حال فقد كان بلزاك يشعر أنْ قد آن الأوان للفراغ من هذه النكتة، قبل أن تتحوّل إلى فضيحة، فينجز، بتوفيقٍ بالغ، أمور صديقته من آل فيسكونتي ويغادر المدينة على عجل حيث كان، لأول مرة في حياته، سعيدًا كل السعادة. إنما هي ثلاثة أسابيع من دون عمل، ومن دون صراع مع الناشرين، ومن دون مَلازِم تصحيح، أو دائنين، أو رفاق بغيضين! ولأول مرة ينظر إلى العالم الواقعي بعينين تشرقان بمتعة الحياة بدلاً من أن ينظر إلى مجرد العالم الذي يصطنعه من بنات أفكاره.

وكان من آخر المحطات جنيف، هذه المدينة التي تمثل قَدَرَه. فهنا نظرت إليه دوقة كاستري نظرة الاشمئزاز، وهنا غزا قلب مدام دي هانسكا، وهنا ينام الآن قريرَ العين مستبشرًا، مع السيدة الضئيلة، مدام ماربوتي. ولو صَدَّق المرء رسائله إلى مدام دي هانسكا أقلَّ تصديق لكان خليقًا أن لا يفعل شيئًا في جنيف سوى التعلُّق بالذكريات القديمة الحلوة، والتفكير المقترن بدموع الكآبة بتلك التي توارت. على أن الواقع أقل رومانسية إلى حد بعيد، غير أنه يُعَدُّ، في مقابل ذلك، أَحْفَل بالسرور. وبينما كان بلزاك في العادة يوعز، في غمرة صبره ولهفته على العودة إلى العمل، إلى الحوذيين بأن يستحثّا جواديهما، حتى لقد أشرفا على الموت وهما ينطلقان من جنيف إلى باريس، في خمسة أيام بلياليها، يدع لنفسه، هذه المرة، إذ كانت ترافقه السمراء الصبيّة التي لا تشعر بشفقة أورثاء، عشرة أيام كاملة من أجل

العودة، ويستقران كلَّ ليلة في مكان مختلف. وليس من الممكن أن يفترض المرء أنه أنفق هذه الليالي، على سبيل الحصر، يستعرض أفكاره العاطفية الكئيبة المتعلّقة بـ «نجمة القطب» القَصِيّة، فحسب.

وفي الحادي والعشرين من آب يصل بلزاك إلى باريس، وتنتهي الحقبة السحرية بضربة واحدة، وكانت تلتصق على الأبواب رقاع منفذي الأحكام القضائية، وترقد على المنضدة في صورة رزمات، الحسابات غير المُسَدَّدة، ويعرف منذ الساعة الأولى، على الفور أن ڤيرديه، ناشره يتجه نحو الإفلاس، ولم يكن هذا كله مواتيًا لإثارة دهشة بلزاك أو انفعاله على وجه الخصوص، فهو يعرف، وسيظل يعرف المرة بعد الأخرى أن يد القدر تمسك بخناقة مقابل كل نَفَسٍ من الحرية يتيحه لنفسه، بمزيد من الغيظ والحَنَق. ولكن ههنا ترقد تحت رزمة الرسائل الثقيلة التي لا تعنيه، أيضًا، رسالة مؤَطَّرة بالسواد: وذلك أن ألكسندر دي بيرني يبلِّغه أن أمه قضت نحبها في السابع والعشرين من تموز. ويشعر المرء. من خلال كل رسائل بلزاك، بمدى العمق الذي زَلْزَلَه به هذا النبأ وبمدى صدقه في ذلك. وكان قد أَعَدَّ نفسه منذ شهور لتحمُّل هذه الخسارة، وكان قد زار هذه «المصطفاة» حتى قبل رحيله، ووجدها أكثر فتوراً من أن تتمكن من أن تَقَرَّ عينًا بتصور هذا الامتنان الذي عرضه للعالم في صورة مدام دي مورتسوف في رواية «الزنبقة في الوادي».
ولكن أيُّ خجل وأيُّ ألم لابدَّ أنه أحسَّ به من جرّاء تَجْواله، خَلِيَّ البال، مستبشراً، في رحلة غرامية مع تلك التافهة، كارولين ماربوتي، في إيطاليا، بينما كانت هي راقدة على فراش الموت، ومن جرّاء عدم وجوده عند سريرها، وسماعه كلماتها الأخيرة، وربما كان يتندَّر ويضحك، في صالونات تورينو، غير عالم بشيء، بينما كانوا يُوارون الثرى تلك التي كانت أول من أحبَّته، وكان حبها أفضل من حب أية امرأة أخرى. ومنذ الأيام التالية يغادر باريس وينطلق ليرى قبرها، ويقول له إحساس داخلي إن حقبة من حياته قد انتهت، وإنه قد دفن شبابه هو مع هذه المتوفّاة.

الفصل السادس عشر

عامُ التحوُّل

ويمثِّل موت مدام دي بيرني مَعْلَمًا من المعالم الفاصلة الكبرى في حياة بلزاك. إذ ما عاد هناك وجود لتلك التي ربَّته وحفظته وعلَّمته الحب والثقة بالنفس، وهي «المصْطفاة»، والأم الحقيقية، ماعادت هذه موجودة لتحميه ولِتُظلَّه بظلها وتشجِّعه. وعلى الرغم من وجود الحبيبة النائية في أوكرانيا، والقريبة، في الشانزلِيزيه يقف وحيداً، وحيداً أكثر مما كان عليه في أي وقت مضى من حياته، ويأخذ شيء جديد يستيقظ في حياته مع هذا الموت، شعور لم يسبق لهذا الإنسان الذي يفيض بالحيوية، ويتسم بالتفاؤل، ويؤمن بنفسه، أن عرفه من قبل أبداً: إنه الخوف، بل خوف حافل بالأسرار، لا يُسْبَر غوره، وهو كثير المعاني والدلالات. الخوف من أن لا يَّصل بقواه إلى العمل الأدبي الهائل الذي كان يقصِد إليه، والخوف من أن يقضي نحبه في وقت مبكّر، والخوف من أن يُفَوِّت على نفسه فرصة الحياة الحقيقية بسبب العمل. ويُسائل بلزاك نفسه: ماذا صنعت من حياتي، وما الذي يُفتَرض أن تصير إليه؟ وينظر في المرآة: فإذا شعر أَشْيَب، خصلة كاملة في اللِّبْدة المسترسلة التي باتت مشوبة بالبياض الشديد، وهذه هي الهموم، والكفاح اليومي والمطاردة المنحوسة من عمل إلى عمل، والوجنتان ضاربتان إلى الصفرة، منتفختان والذقن مزدوجة، والجسد مكتنز بالدهن: وهذه هي الليالي التي لا نهاية لها بين النوافذ ذات الستائر المُسْدَلَة، ووراء منصة الكتابة، والأسابيع التي ينفقها في سجن أنشأه لنفسه بنفسه، من دون هواء، ولا حركة، ولا حرية. لقد مضى على هذا الآن

سبعة عشر عامًا، يومًا بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وإذا هي عشرة آلاف، بل مائة ألف من الصفحات المكتوبة، وخمسة أضعاف المائة ألف من تجاريب الطبع المصحَّحة، وكتاب، ومن بعده كتاب، مرة أخرى. وما الذي وصل إليه؟ لم يصل إلى ما يكفي، أو إلى ما يكفيه هو على الأقل. أما «الكوميديا الإنسانية»، هذا العمل الذي يُرادُ له أن يغدو صرحًا شامخًا واسع المدى، مثل كاتدرائيات فرنسا، فلم تُشيَّد منه سوى بضعة أعمدة، ومازال السقف غير موضوع، السقف المقبَّب من فوقه، ولَمّا ينتصب بعدُ برج من الأبراج التي يراد لها أن تشمخ إلى السماء! فهل تراه يستطيع أن يفرَغ من البنيان في يوم من الأيام. أَلَن ينتقم لنفسه البُنيان المُخْتَلَس الرهيب الذي يشيده منذ سنين بقواه؟ لقد سمع، ثلاث مرات، صوت الأطيط والتكسُّر في الآلة، وأشكال من الإرهاق غير المتوقّع، مع النوم الذي يضاهي نوم الأموات، وتشنجات المعدة، الناجمة عن سوء الاستعمال الذي لاحدّ له للقهوة السوداء الكثيرة التسخين. أولَم يئن الأوان للتوقُّف، ولكي يعيش المرء كما يعيش الآخرون، وليستريح ويستمتع، بدلاً من هذا الإبداع المتواصل الذي لاهوادة فيه، والمواظبة عليه، هذا الاستخراج الأبدي من نفسه والاغتراف من ذاته، بينما يتلقى الآخرون، السعداء، الذين لا يحملون همّاً، من الحياة ما يتلقَّوْن، ويدعون الآخرين يُهدون إليهم ما يُهدون؟ ومن تُراه حَمَدَله هذه التضحية الجنونية بذاته، وهذا التخليّ عن نفسه إلى هذه الدرجة الجامحة، باستثناء تلك المُتَوفّاة؟ وما الذي عاد عليه به ذلك العمل؟ شيء من المجد، بل كثير من المجد، ولكن ما أكثر ما اقترن به هذا من الكراهية، ومن الحسد؟ وما أكثر ما اقترن به من ألوان المَقْت والبغضاء! ومع ذلك فلم يقترن بشيء واحد، هو الأهم على الإطلاق، وهو الأكثر جوهرية، وهو أكثر ما تتوق النفس إليه: ألا وهو الحرية، والاستقلال. لقد بدأ قبل سبع سنين، بداية جديدة، بدَيْن يبلغ مائة ألف فرنك وطَفِق يعمل مدة عشر سنين، وعشرين، مختلِساً نومته، مُنْهِكاً قواه. وكتب ثلاثين رواية. فهل زال عنه العبء؟ كلاّ، بل أوشكَ أن يتضاعف! ولابُدَّ له أن يبيع نفسه في كل يوم، من جديد،

للصحف والناشرين، وأن يتسلق السلالم الحلزونية إلى الطابق الخامس، إلى المُرابين القَذرين، وأن يرتعد فَرَقًا بين أيدي منفذي الأحكام القضائية، شأن اللص. ففيمَ العمل، كل هذا العمل، ما دام المرء لا يتحررَّ عن طريق هذا العمل. ويدرك بلزاك في عامه السابع والثلاثين، في عام التحولُّ هذا، أنه عاش بطريقة خاطئة، لأنه لم يستمتع إلاّ بالقليل القليل، وضحى بحياته كلها في سبيل العمل الذي ترك أحَرَّ رغائبه من دون إشباع.

فَلأَعِشْ حياةً غير هذه الحياة! كذلك يقول الآن صوت داخليّ فيه مذكِّرًا ومحذِّرًا بإلحاح: ولا اكتفاء بعد الآن بترك النساء يتحمَّسْ له ومِنْ حوله، مع البُعْد عنه، بل هو الاستمتاع بأجسادهن البضّة، الشهوانية! ولا قعود بعد الآن إلى منصة الكتابة إلى الأبد، بل هو الرحيل، وإنعاش العين، العين المُرْهَقة، بصورة جديدة، وإسكار النفس، النفس المُسْتَنفَدَة القوى، بالمتعة، وهو تمزيق أغلال قارب المجاذيف الخشبي الذي يُسَخَّر فيه العبيد، والقذف به وراءه، واستنشاق هواء التسكُّع الفاتر بدلاً من الحرارة المحمومة الناجمة عن المُضيّ المتواصل، الذي لا ينقطع، إلى الأمام! ولا ابتدارَ للشيخوخة قبل أوانها، ولا تَرْكُ النفس تُعَذِّبها ألوان المكاره والشدائد! بل هو الهرب، وقبل كل شيء: الإثراء، والإثراء على جناح السرعة، بأي أسلوب كان، لا عن طريق هذه الكتابة التي لا نهاية لها، والكتابة بعد الكتابة. وكذلك يستحوذ على ابن السبعة والثلاثين حَوْلاً رغبة في الحياة جديدة كل الجدة، وأكثر جموحًا وجسارة إلى حد بعيد، مما سبق له أن عرف قبل هذا في أي يوم من الأيام. ومنذ ذلك النجاح الأول مع مدام دي هانسكا، يستيقظ فيه الآن فحسب، على الوجه الصحيح، الإنسان الشهوانيّ، وهو الذي كان يقذف بكل هواه الجامح في لُجَّة العمل الأدبي. وباتت المغامرة تُعْقِب المغامرةَ الآن: ففي عام واحد يجمع حوله من النساء أكثر مما جمع قبل ذلك خلال عقد من الزمان. ويحاول أن يجتذب إلى جانب الكونتيسة جويد وبوني- فيسكونتي، كارولين ماربوتي، الضئيلة،

ومعها في الوقت ذاته بريتونية نبيلة، صبيّة، تدعى هيلين دي ڤاليت، وفتاة مجهولة يقال لها «لويزا»، بطريقة التراسل المعتادة، ويحل ضيفًا دائمًا في مآدب عشاء معينة دسمة تشهدها أنبل الغانيات الباريسيّات، على شاكلة صاحبته توربيي ّ وأكويلينا، اللواتي لا يبخلْن بمفاتنهن وفنونهن، ويبدو له العمل الذي كان ذات مرة كل شيء بالقياس إليه، ضئيل الشأن، دفعة واحدة، منذ أن رأت عيناه سماء إيطاليا اللاّزوردية، واستراحت يده ودماغه بضعة أسابيع من التعطُّل السعيد. السفر، والحياة، والاستمتاع، أمور أصبحن يمثّلن رغبة بلزاك وحُلُمه منذ العام السابع والثلاثين، فلا عمل بعد اليوم، ولا مجد، والآن فحسب، إذ يستقر الظلُّ بارداً على قلبه، تنبثق الرغبة كاملة فيه، الرغبة في المتعة، والعبث، والحرية.

وكان مما يشرِّف الكونتيسة جويدوبوني فيسكونتي أنها تفهم رغبة بلزاك هذه، وبدلاً من أن تشد عشيقها إليها بالأغلال كأنه عبد من العبيد، تمكّنه، مرة أخرى، من السفر إلى إيطاليا بالذريعة ذاتها. فهي تعلم أنه ما عاد يستطيع أن يُخَلِّص نفسه من الدائنين في باريس. وكان منفّذو الأحكام القضائية الذين لبثوا طوال شهور يبحثون عنه عبثًا في شارع كاسيني، قد استكشفوا الآن، أخيراً، المسكن السري، في شارع دي باتيي ّ، حتى إنه ليضطر إلى الهرب إلى فندق مؤثَّث (مسكن مفروش)، في شارع بروڤانس، ولكن حتى إلى هناك أيضًا يلاحقه رسل المحكمة، وهي ترى كم كان مُسْتَنْفَدَ القوى، وكم كان مُتْعَبًا من هذا الكفاح الخالد، وكم يَشُقُّ عليه أن يعيش مرة أخرى، فترة قصيرة من حياته التي تتعرَّض للمطاردة أبدًا، من دون أن يحمل همّاً وبدلاً من أن تتخذ منه موقف المُعَلِّم أو تثْقِل عليه بغيرتها، تَهَبُ له ما يحتاج إليه هذا الذي لا سبيل إلى تعليمه حاجة أكثر إلحاحًا من حاجته إلى النصائح الطيبة: وهو أن يكون هو ذاته بضعة أشهر، أي أن يكون رجلاً حراً لا يحمل همًّا، ويُحْمَلَ الكونت مراراً على أن يعهد إلى بلزاك أيضًا بالتسوية النهائية لشؤونه، وفي الثاني عشر من شباط ١٨٣٧ يعبر الأديب جبال

الألب، وحده هذه المرة، لأنه تعب، منذ عهد بعيد من مدام ماربوتي المِلْحاحة إلى حد ما، ولم يكن بُدٌّ لتيوفيل غوتييه الذي يفترض أن يصحبه، أن يَعْدِلَ عن موقفه في اللحظة الأخيرة.

وما هي إلا ستة أيام في عربة البريد خلال مقاطعة تيسين، مروراً بأروع المناظر الطبيعية في أوروبا-، وإذا كل الهموم تتبخر في السماء الزرقاء! ومثلما يعد بلزاك عبقريَّ الاستيعاب والاحتفاظ يعدُّ أيضًا عبقري النسيان. وفي وسع المرء أن يفهم أنه يخلِّف وراءه الديون والأزمات والمحن، والالتزامات، وصنوف التعذيب، وراءه في اللحظة التي ينزل فيها في فندق ڤينيسيا الجميل في ميلانو، لأنه يُعَدُّ هنا امرءاً غير ذلك الذي يكونه في دياره. هنا لا يعود من بَعْدُ، المسيو هونوريه دي بلزاك المحكوم عليه، بموجب حكم المحكمة، بأن يدفع كذا وكذا من الفرنكات هنا، وكذا وكذا من الفرنكات هناك، إذ يُرْغَم، تحت وطأة التهديد بحبس المَدين، إلى التسلُّل هاربًا من الأبواب الخلفية، عندما يقرع خدم المحكمة الأبواب من الأمام-، أمّا هنا فهو الكاتب الشهير الذي تعلن الصحف عن وصوله إعلانًا ينمُّ عن الاحترام، كما تعلن عن ذلك بعد ساعتين الضجّةُ في المدينة. وتقوده الكونتيسة ما فيي ّللنزهة، وفي مقصورة الأمير بورشيا يزور مع أخته، الكونتيسة سينزيفيرينو، السكالا، وتدعوه الأميرة بلجيويوزو، والمركيزة تريڤولزيو، إلى بيتهما، وينحني أمام اسمه كل العظماء، ذوي الأسماء الرنّانة، المخلَّدين في التاريخ، وتنحني أسماء إيطاليا لاسمه، ولم يكن أقل من ذلك تدليل الطبقة العسكرية النمساوية له، إذ يدعوه المحافظ إلى الطعام، ويضع آمر القوات نفسه تحت تصرفه، كما يلتمس أوَّل مَثال في المدينة، بوتيناتي، أن يتاح لهِ شرف السماح له بعمل تمثال له، يُهديه بلزاك عندئذ، لا لمدام دي هانسكا، بل للكونتيسة فيسكونتي. ثم إن الأمير الشاب، بورشيا يُغْدق عليه الهدايا، ويمتثل لكل رغبة من رغباته ولكل إشارة منه. ويستطيع المرء أن يتصوَّرَ زهوَّ بلزاك وسعادته، وهو الرجل الشعبيّ، المنتمي إلى الطبقة

الوسطى، الذي لا سبيل إلى شفائه عندما يضطر، بناءاً على ألوان من الرجاء من جانب الأمراء أنفسهم، بلحمهم ودمهم، إلى التوقيع هنا على سجل التشريفات، بدلاً من التوقيع على السندات المالية والكمبيالات في باريس.

وكان يتصرف بقدر من البرود النسبيّ الكُتّاب الذين يشعرون أنهم يتعرَّضون للإزاحة جانباً إلى حد ما من جراء العبادة التي يمارسها الناس مع الرجل الغريب، ولم يكن بلزاك الذي كانت تُسكِره كل تلك الألقاب النبيلة، يصغي إلى أسمائهم إلاّ بشطر من سمعه. على أن ثمّة لقاءاً مع مانزوني لا ينتهي إلى نهاية سعيدة على وجه الخصوص. وذلك أن كاتب رواية «الأب غوريو» لا يعرف، مادام لم يقرأ رائعة هذا الأديب «المخطوبة»، ما يتحدث به إليه سوى عن نفسه.

وفي غمرة كل هذه المشاهدات، والدعوات والاحتفالات، لا ينسى بلزاك، بالطبع، مهمته الحقيقية، وهي تسوية مسألة ميراث الكونت فيسكونتي، ولما كانت له دراية بأمور الأعمال والتجارة- وهو أمر مفهوم ما دامت المسألة لا تعود على شؤونه هو، فإنه يُوَفَّق إلى تسوية المسألة بالطريقة المرغوبة، ولمّا كان كل شيء ينتهي إلى نهاية ودية بالنسبة إليه في هذه المرة، فإنه يضطر، من أجل اختتام الصفقة بأكملها، إلى التوجُّه إلى البندقية على وجه الخصوص، وهي المدينة التي أراد أن يزورها أول الأمر مع مدام دي هانسكا، وها هي ذي مدينة روايته "Facino Cane" تناديه الآن.

ويكون اليوم الأول خيبة. فليست البندقية بذات الألوان، فهناك المطر، والضباب، وهناك الثلج، ولكن مع بزوغ الشمس الأولى تنبثق العاطفة الفنية الجامحة بأسرها في بلزاك، ويكون حاضراً في كل مكان بما ينطوي عليه من التركيز الفريد في نوعه، على ملامسة الأشياء الجديدة، وامتصاصها، وهو يرى كل شيء، من المتاحف، والكنائس، والقصور، والمسارح وما من شيء يثبت قدرته العظيمة على التحسُّس والتلمُّس مثل أسلوبه الذي يمتص من خلاله، في بضعة أيام عابرة،

الجوَّ، والتاريخ، والعادات، وروح المدينة، إلى داخله. ويظل في البندقية تسعة أيام على وجه الإجمال، يقضي شطرها بالأعمال والزيارات، ومع ذلك، فعلى الرغم من وجود الألوف من الروايات، وعشرات الألوف من النصوص في وصف البندقية، لم يتهيأ لأديب- ولا لبايرون، ولا لجوته، ولا لستندال، ولا لأنونزيو- صياغةٌ للمدينة فيها من السُّطوع مثْلُ ما في صياغة بلزاك في أقصوصته "Massimilla Dovi" التي تعدُّ في الوقت ذاته من أكمل التفسيرات للموسيقا. ولا يمكن إدراك الكيفية التي تقدِر بها عينٌ واحدة على أن تستوعب الجوهريّ إلى هذا المدى وهي في حالة طيران، مثلَ رجل لا يعرف من الإيطالية أكثر من بضع كلمات قلائل، وعرف كيف يجسِّد روح إيطاليا والنزعة الشهوانية عند نبلائها ويُعْلِيها إلى هذا الحد. ويظل المرء يدرك المرة بعد الأخرى، أن التأمُّل والنظر كانا يعنيان، بالقياس إلى بلزاك، التغلغل في الوقت ذاته، بل كانا يعنيان معرفةً من دون تَعَلُّم، أيْ معرفة عن طريق السحر.

وبهذا الأسبوع الواحد في البندقية، الذي تمَّ تخليده تخليداً رائعًا فيما بعد، في عمله الأدبي، تمَّ تجاوز ذروة الرحلة الإيطالية. ويلقي، عند دعوته إلى ميلانو، استقبالاً أكثر برودًا. وكان، وهو الذي لا يبالي، كعهده دائمًا، ويثرثر، لأنه في مزاج حسن، ومن دون سوء ظن، قد أفرط إلى حدٍّ ما، في الحديث في البندقية، في إحدى السهرات، وبقدر غير قليل من الاستهتار، ومن دون هدف محدد، وعَمَدَ، بموجب عادته السيئة، التي سبق أن لفتت الأنظار على نحو غير مستحسن، إلى الإفراط، إلى حدٍّ ما، في الحديث عن المال، وعن أجوره وديونه. على أن ما كان أكثر إزعاجًا بعدُ، حديثه، من نظرة فوقية استعلائية إلى حد بعيد، عن لامارتين، ومانزوني. ولم يكن أمام أحد الكتاب الحاضرين شيء يعمله أدعى إلى العجلة من الإفضاء بملاحظات بلزاك المستهجنة حول مانزوني إلى صحيفة في ميلانو، حيث شعر القوم بالمرارة القصوى من الردّ السيء على كرم ضيافتهم.

ووجد بلزاك أن من المستحسن أن يعجِّل بالرحيل، ولكن كان ينتظره الآن، بعد كربه الأول، كربٌ ثانٍ. ففي جنوة، التي أراد أن يعود منها عبر الريڤييرا، إلى نيس، يُفْرَض عليه الحجر الصحي بسبب وباء من الأوبئة التي كان يخشى منها- وهذا في الظاهر واحد من المنغِّصات اليسيرة التي سوف ينجم عنها بعد ذلك منغِّصٌ أكثر إزعاجًا إلي حدٍ بعيد. أمّا لماذا يغيِّر بعد ذلك نيَّته، ويسافر إلى ليڤورنو بدلاً من باريس، ومن هناك إلى فلورنسا، فذلك مالا نعرفه.

وفي الثالث من أيار فحسب، أي بعد ربع عام تقريبًا، يصل بلزاك إلى باريس، مرة أخرى. وهو أول ربع عام في حياة بلزاك لم يكتب فيه سطرًا واحدًا، ولا قرأ ورقة واحدة من أوراق تصحيح ملازم الطبع، ولا لَمَس قلمًا، بل عاش فيه، وتعلَّم، واستمتع.

وتكون لحظة عصيبة بالنسبة لبلزاك حينَ تقترب عربة بريد من منطقة حماية باريس. فهو يعرف ما ينتظره بعد هذه الأسابيع من السعادة القائمة على التعطُّل الحُلْو (Dolce far mionte)، ويعلم أن الحسابات غير المدفوعة لابُدَّ أنها تكدَّست على مكتبه رزُمًا، وأن القوم قد رهنوا عربته ذات العجلتين، وكل ما وصلت إليه أيديهم فيما عدا ذلك، وأن رواية «منزل نوسنجن» و «المرأة المتفوِّقة»، اللتين حمل «الصحافة» على أن تدفع أجورهما سلفًا، لم يجر تسليمها حتى الآن، وأن الخمسين ألف فرنك التي أكد له ناشره الجديد بوهان قبل رحيله أنه سيفوز بها، تبخرت منذ عهد بعيد، ولكن مازال ينتظره ماهو أسوأ. ففي تفليسة ناشره السابق، ڤيرديه جرت المطالبة بالكمبيالات التي حرَّرها بلزاك بسخاء مفرط، وربما أعلن فيما بعد أنها «كمبيالات تَفَضُّل أو معروف»، ونفذ الدائنون حكمًا بالاعتقال، وإذا ظفر القوم به، فلا بدَّ لبلزاك، وهو الذي كان بالأمس فحسب، ضيف الأمراء والمركيزات، أن يدخل سجن المَدينين.

ولذلك كانت المهمة الأولى أن لا يدع أحدًا يمسَّه. وكان لبلزاك في هذا

الوقت ثلاثة مساكن، أحدها في شارع كاسيني، ومازال يحمل اسمه، وقد تمَّ إنقاذ الأثاث منه، والثاني في شارع البافييّ، ويعود إلى أرملة مزعومة يقال إنها «الأرملة دوران»، أو لرجل يدعى الدكتور ميجيه، ثم، في المقام الثالث، مقر النزول في شارع بروفانس. ولكن مثلما تعلَّمت القوات النمساوية والبروسية التكتيك النابليوني بعد خمسة عشر عامًا من الحرب، كان الدائنون الآن قد وقفوا على كل خطوات تسلُّله، وما عادت تهب الحماية كل كلمات السر والإبلاغات الزائفة، وبالفعل ماعاد لبلزاك، على الرغم من كل مساكنه الثلاثة، سقف يُظِلُّه، ويضطر أديب فرنسا الشهير إلى الاختباء مثل عبد آبق محكوم عليه بالعمل في قوارب السخرة القديمة ذات المجاذيف، وكان يودُّ لو يقايض بشهرته التي استمتع بها في إيطاليا أيَّما استمتاع، شخصية لا اسم لها مطلقًا، وحتى الهرب إلى آل كارّو، في فرابيسل، حيث يكون في حِرْز أمين لا ريب فيه، وحيث يكونِ هناك، على الدوام، حجرة جاهزة، ينطوي على الخطر المُحْدِق، وكان خليقًا أن يُعْرَف وصوله قبل أن يترجَّل نازلاً من عربة البريد.

وفي غمرة محنته يتوجه إلى أمين سره السابق في مجلة «حوليات باريس»، وهو الكونت الشاب بيلوا، ويتوسَّل إليه من أجل:

«حجرة يفترض أن تظل في سرِّية كاملة، ومن أجل خبز وماء، مع شيء من السَّلَطة ولحم الخروف، ومحبرة، وسرير».

وما عاد ثمة ستائر حريرية، ولا أرائك من الدمقس، ولا سكين ذهبية مزدانة بالريش، ولا عُصيّ تَرْحال من قرن الكركدن، بستمائة فرنك: بل هي مجرد منضدة للعمل، وسرير للنوم، لقد ارتدت عقارب الساعة إلى الوراء سبعة عشر عامًا، إلى السقيفة في شارع ليدنيير.

ولكن بيلوا لا يستطيع أن يتيح له المأوى، لأسبابٍ ما، كائنة ما كانت. وفي

هذه اللحظة الخطيرة تنقذه، للمرة الثانية، الصديقة الأمينة، الكونتيسة جويدوبوني، فيسكونتي. ولمّا كانت جسورةً جسارة تختلف عن مدام دي هانسكا التي ستظل، وهي في الخمسين، تخشى أقاويل المعارف والأصدقاء. فهي تقبل عشيقها في مسكنها رقم ٢٤ بشارع الشانزليزيه، حيث تفرض عليه أشد أشكال العزلة والمراقبة، فلا يُباح له أن يجرؤ على الخروج إلى الشارع، ولا أن يُظْهِر نفسه لزوّار المنزل وأصدقائه، بل يلقي نظرة، بحرص وعناية وهو ممدَّد وراء الستار، على الربيع الباريسيّ، ولكن صومعة الراهب ليس فيها شيء مخيف بالنسبة لبلزاك، ولا سيما عندما لا تبعد سوى مسافة باب عن حجرة نوم عشيقة ممتلئة باذخة. ويلقي بنفسه في خضم العمل باندفاع رائع، وفي مدة لا تكاد تبلغ الشهرين يفرَغُ هناك من: «بيت نوسنجن» ومن «المرأة المتفوقة» و «الأقاصيص الماجنة الأخيرة»، ويأخذ في تشكيل أقصوصة «غامبارا».

وكانت الكمبيالات غير المسدَّدة، والدائنون المُلْحِفون قد أحدثوا أثرًا إلهاميّـًا أقوى في الإنتاج الأدبي، الذي كانت الهموم والديون لا توجد بالنسبة إليه، إلاّ ما دامت تشتعل على جلده، والأرجح أن بلزاك كان خليقًا أن يواصل إبداعه وهو في أفضل مزاج. وإذا منفِّذو الأحكام القضائية يقرعون هذا الباب المقدس أيضًا ذات يوم، وكما يحدث دائمًا تكون دليلةٌ هي التي تخون شمشون. وذلك أن واحدة من أسلاف الكونتيسةفيسكونتي، وربما كانت هي كارولين ماربوتي التي لم تُؤخَذ معه إلى إيطاليا في المرة الثانية، والتي تأبى أن تتيح لشريكتها في عشق الضيف المقيم في البيت الزوجي، هذا الضيف، فتفضي إلى الشرطة بمكان إقامته، وبات منفذو الأحكام القضائية يقفون الآن في صالون الكونتيسة فيسكونتي، ويضعونه أمام أحد الخيارَيْن، فإما التسديد الفوري للديون، وإما النقل إلى سجن المدينين، ويثبت كرم الدوقة فيسكونتي حُسْن بلائه مرارًا، وتسدِّد الدين على الرغم من أنها ليست غنية بحال من الأحوال، ويضطر منفذو الأحكام القضائية إلى الانسحاب.

ويكون من المؤسف ومن بواعث استياء بلزاك أنَّ هذا الافتداء للعشيق لا يظل

سراً. إذ تتسرَّب من مجلة المحاكم (Gazette des Tribunaux) هذه المسألة المحرجة إلى الصحف، ويضطر بلزاك، الذي مازال يستأنف اللعبة العبثيّة، وهي تصويره نفسه لمدام دي هانسكا، على مسافة ألف ميل، على أنه الإنسان الشقيّ المنكود، والوحيد، إلى أن يروي لها:

«لقد عثر عليّ الرجال الذين يقع عليهم عبء سوق المدينين إلى السجن، نتيجة لتبليغ خِيانيّ، ولقد حزَّ في نفسي وآلمني أن أتنقَّص من قَدْر مضيفَيّ اللذين بلغ من شهامتهما أنهما أتاحا لي المأوى والملاذ، ولم يكن لي بُدٌّ، لو لم أشأ أن أدخل السجن، من تدبير المال في حالة ڤيرديه، وكنت مُرْغمًا على أن أُثْقِل بذلك على أولئك الأصدقاء الذين بذلوه لي».

أمّا اسم السيدة التي أنقذته، وهي مراسلته الغيْرى، فذلك ما أمسك عن ذكره، بالطبع، وفيما يتصل بالعلاقة بين بلزاك والدوقة ڤيسكونتي، كانت الجرأة، والشهامة، إلى جانبها وحدها، على الدوام.

وقد كانت النساء يَظْلَلْن، المرة بعد الأخرى، هُنَّ اللواتي ينقذن بلزاك من أكبر المخاطر التي تحدق به، والآن، إذ يتم، على الأقل، تسديد تلك الديون التي هي الأكثر مجاوزة للحدود وانفلاتًا من الفنان، أي تلك «الديون الصارخة»، بات في وسعه أن يعود، مرفوع الهامة، من دون أن يختبئ، إلى مكان عمله في المورغون، في التورين الحبيبة إليه، حيث لا يُثْقِل عليه أحد بإلْحافه، وحيث لا تكلف الإقامة شيئًا ومرة أخرى يكون الجواب على كل صنوف المُناكدة والتعذيب، رائعة من روائع الأعمال: سيزار بيروتّو». وأية مادة كان يمكنها أن تلائم ذلك الذي تمَّ إنقاذه من سجن المدينين، ملاءمة أفضل من رواية مَدين يتورّط، خلافًا لإرادته، بل من جرّاء قابليته للتصديق السهل، في مضاربات، ثم يتعرَّض للملاحقة والتعذيب والإهانات، وإلى الحطّ من قدره وامتهانه، من جراء كل الطرق العملية عند المحامين والدائنين، والمحاكم؟ وكل ما يعانيه في الشهور الأخيرة، وفي

السنوات الأخيرة، معاناة مباشرة، من أشكال الجري العبثي وراء القروض، وعدم إمكان الاعتماد على الأصدقاء، وما تنطوي عليه الكمبيالات، وسندات الديون، من اللارحمة، وانتقام المال الجحيمي من كل من لا يخدمه بكل روحه، كل ذلك تتم صياغته في هذه الملحمة الكبرى الخاصة بأهل الطبقة الوسطى، إنه عالم لم يسبق الكشف عنه قطُّ من قبلُ في الأدب الفرنسي. وهذه القصة الخاصة بتفليسة عرضية تمامًا، من عالم البورجوازية الصغيرة، تضع في مقابل الروايات الكبرى، ذات الأبعاد الفائقة، في كثير من الأحيان، في الكوميديا الإنسانية، أثرًا مقابلاً، وترفع بذلك مستوى مصداقية عالمه واكتماله. لقد نجح، مرة أخرى، في التنفيس عمّا في نفسه إزاء كل ما كان يُثْقِل عليه بالأمس، من خلال صياغةٍ متفوِّقة.

ويعود بلزاك، حراً، منشرح الصدر، معافىً، في الخريف، إلى باريس.

الفصل السابع عشر
مناجم الفضة في سردينيا

لقد كان العامان، ١٨٣٦ و ١٨٣٧ ، عَامي ألوان التوتُّر والكوارث في حياة بلزاك. وكان لابدّ للعام ١٨٣٨ ، إذا جاز للمرء أن يحسُب أيَّ شيء كان، في حياة بلزاك بالمقياس الطبيعي، أن يأتي بنقطة التحوّل أخيراً. وفي الصيف تولّت الكونتيسة فيسكونتي تغطية الديون التي كانت تَبْهَظُه، وتعود رواية «سيزار بيروتو»، التي يفرغ منها فيما لا يكاد يبلغ الشهرين، بأعلى أجر له حتى الآن، إذ يدفع له عشرون ألف فرنك نقداً، وهو مبلغ يعد هائلاً على وجه الخصوص في العصر الذي يتميز بقيمة للنقد أعلى كثيراً، مع عدم وجود الضرائب، مقابل مجرد الطبع في الجريدة. وترتفع أسهم بلزاك ارتفاعًا يبلغ منه أنه يغدو في وسعه أن يكسب بسهولة، مع مقدرته التي لاتضاهى، على العمل، ومع توافر مخزونه من المادة غير المستهلكة، ما يتراوح بين ستين ألف فرنك ومائة ألف فرنك في العام، ويغدو من الممكن، في إطار الحياة المريحة، تسديد الديون من دون وتيرة العمل المحكومة بالمطاردة الفائقة السرعة، ولم يسبق له من قبل، في أي يوم من الأيام أن أتيحت له فرصة أفضل مما أتيح له الآن، إذ باتت تزداد عائدات رواياته من عام إلى عام، وكان يجري إعداد الطبعة الكاملة الكبيرة، لأعماله، وأخذ مركزه الأدبي يكتسب سمة أوروبية، لإدخال النظام على حياته المحكومة بالمطاردة الفائقة. ولكن المغزى العميق لحياته يتمثل في أنه لا يريد نظامًا، وفي أنه يستَجلِب على نفسه عواصف متجددة أبداً، وذلك على وجه الخصوص، كلما أخذت السماء تصحو

وتصفو، بدافع العبث والمجون، وهو في أعمق أعماقه إرادة أصيلة أولى في طبيعته. وحين ترى السفينة الميناء على وجه الخصوص ينعطف بدفَّة القيادة عائداً أدراجه إلى البحر العاصف، وعلى وجه الخصوص في العام الذي تبدو فيه حياته كأنها أخذت تنتظم، يبعث فيها الفوضى بحماقتين لاحدود لهما، قسراً، من جديد.

وللحماقات عند بلزاك خصوصية أنموذجية بالقياس إليه، وهي أنها تكون في بدايتها معقولة كل العقلانية. وكل مصارباته تنطلق من ملاحظات سليمة، واضحة، وهي محسوبة حساباً صحيحاً ودقيقاً. وقد كانت المطبعة وورشة التنضيد، والمشروعات التي أعقبتها، من المشروعات التي تعود بأرباح، وكان من الممكن لصحيفة «حوليات باريس»، مع وجود العاملين المتألقين إلى حد بعيد، معه، أن تغدو الصحيفة الأولى في باريس. على أن ما يفسد على بلزاك أعماله ومشروعاته التجارية هو أنه يضفي الأبعاد الفائقة، المفرطة، قبل أوانها، ولا يقدر على الإمساك بشيء ضمن حدود نِسبه المحسوبة سلفاً، والمعتدلة، وهو الذي يتسم بنفاد الصبر بسبب هواه الجامح، كما يتسم بجموح الهوى بسبب نفاد الصبر. والتصعيد إلى درجة العظيم الجليل، هذه القوة الأصيلة في عبقريته في الرواية، يتحوَّل، حيث لا يكون للمرء بدٌّ أن يحسب حسابه بوضوح، بل أن يُدخِل في حسابه صغائر الأمور، إلى طامَّة.

وكذلك كان مشروع بلزاك الجديد، في البداية، منطقياً على وجه الإطلاق، وقد نشأ عن تَوْقٍ لدى الفنان صادقٍ بمقدار ماهو مفهوم، إلى أن يهيّئ لنفسه ولعمله، آخر الأمر الهدوء الذي طالما حَنَّ إليه. وكان ما يفتأ، منذ سنين، يراود خياله الحلم الأبديّ عند كل المبدعين: منزل صغير، منعزل، في مكان ما وسط الخضرة، يستطيع المرء أن يعيش فيه حياته كلها لرسالته الداخلية، من دون أن يكدِّر البشر صفوه، فيللا للسرور، (Villa Délices) كبيت ڤولتير، أو منزل مونت

مورينسي (كبيت جان جاك روسو، أو بيت كبيت بيتراركا في مقاطعة فوكلوز. وقد كانت باريس رائعة بالنسبة للفنان الناشئ مادام يستطيع أن يعيش ويلاحظ هناك وهو غير معروف بعد، ولا يحفِل به أحد. أمّا الآن إذ بات الناس يلاحظونه هو، ويحملون إلى الصحف كل تفصيل من تفاصيل حياته الخاصة، وبات الصحفيون والدائنون يكادون ينتزعون جرس باب مسكنه من يده، فيشعرُ بلزاك أنه معوّق في حريته الشخصية، وأنه قد لحق الضرر بتركيزه، وإذاً ففيم البقاء بعد هذا في باريس؟ لقد ولت تلك الأيام التي كان يضطر فيها إلى زيارة إدارات تحرير الصحف، والناشرين، ومثلما يتحكَّم ملوك فرنسا في مملكتهم من بلْوا وفرساي، يستطيع هو أيضاً أن يتحكم في جمهوره وفي الصحافة من المكان المنعزل الذي يروق له، وكان، من ناحية أخرى، قد تعب من السكنى، في كل صيف، بصفة ضيف عند آل مورغون حيناً، وعند آل كارّو حيناً آخر، وعند أصدقاء آخرين، طوراً آخر، ومثل كل فلاح، ومثل كل متقاعد ضئيل الشأن، يريد بلزاك. الذي بات الآن في الثامنة والثلاثين، بيتاً خاصاً به، صغيراً ومتواضعاً، وكان قد مضى عهد طويل للغاية وهو ينوي أن يحصل على مثل هذا البيت الريفي الصغير La Grenadi`ere في التورين، ليكون مكان عملٍ له، من دون أن يتخلى من أجله عن مسكنه الباريسيّ. ولكنه لم يستطع قطُّ أن يجمع المال اللازم لذلك. وأصبح بلزاك الآن مقتصداً- وكانت مغامراته الأكثر جنوناً تبدأ، دائماً، بمحاولاتٍ لتخفيض ميزانيتّه-، وهو يغيِّر القرار السابق. فلماذا البيت الصيفي في الريف، مع المسكن في باريس؟ أليس من الأفضل، والأرخص أن يلتمس لنفسه، في أي موضع جميل من حيث المنظر الطبيعي، في ضواحي باريس، منزلاً صغيراً يسكن المرء فيه عاماً بعد عام، في عزلة عن المطاليب المتعبة للمدينة الكبيرة، مع قربه، مع ذلك، بما يكفي للسير في كل لحظة إلى العمل أو إلى التسلية في باريس؟

ولا يحتاج بلزاك إلى التفكير طويلاً ليكتشف المكان الصحيح. وذلك أن رجلاً يتمتع بمثل ذاكرته الشيطانية، يتذكر، طوال حياته، كل رابية وكل منزل بمجرد

أن يَعلَقَ به طَرْفُه مجرد دقيقة، مع الاهتمام، وهكذا بقي عالقًا بذاكرته جيدًا من رحلاته التي لا تحصى، إلى فرساي، حيث زار، أوّلاً، دوقة أبرانتيس، ثم الكونتيسة فيسكونتي، وزار وادي سيفر وڤيل دافريه، وهنا كان يرى أنه:

«يعثَرُ من جديد على كل نضارة الظلال، وعبير الوادي السويسري ونضارته، فما أروع أن يسرِّح المرء الطرف هناك، من روابي سيڤر، بعد عمل مُرْهِق، عبر المنظر الطبيعي الفسيح، والشريط المتلوّي الفضيّ لنهر السين، ولا يكون جيرانه سوى كروم العنب والبساتين والحقول، وأنه يكون، مع ذلك، قريبًا من باريس هذه التي أقسم على أن يسيطر عليها، وأن يشيد منزلاً صغيراً هناك، بأكثر الأشياء ضرورة، وأن يكون ملائمًا للعمل ملاءمة القفاز لليد، منزلاً صغيراً يرفع عنه، مرة وإلى الأبد، عبء الإيجار وهمومه في كل ربع سنة.

ويشرع بلزاك، وقد عقد العزم على وجه السرعة، كشأنه دائمًا، على أن يظفر، في هذه القرية المظلمة، كما يكتب قائلاً لمدام دي هانسكا، «بكوخٍ بسيط كل البساطة. وفي أيلول ١٨٣٧، يتم التوقيع على عقد مع الزوجين ڤاليه، يشتري بموجبه بلزاك، أرضًا مساحتها ثمانمئة متر وثمانية وعشرين سنتي آر مع منزل صغير، ومبانٍ تابعة له، بمبلغ أربعة آلاف وخمسمائة فرنك، وتعدُّ هذه، إذا ما قيست بالأبعاد البلزاكية، مضاربة ضئيلة للغاية، وإذا نظرنا إليها من الناحية التجارية الصرفة، كانت مضاربة ذكية على نحو مطلق. وبالقياس إلى رجل يكسب في العام خمسين ألف فرنك إلى ثمانين، فإن الحصول على مثل هذا المَحْضر الصغير، ذي الموقع الممتاز، بمبلغ أربعة آلاف وخمسمائة فرنك، لا يقع في الميزان موقعًا ثقيلاً أبدًا، وماهي إلا ثمانية أيام، وأربعة عشر يومًا، ويتم تسليم المبلغ، ويتم بذلك تحقيق حلم الكثير من السنين.

ولكن حيثما يمسُّ بلزاك المال يتدخَّل الشيطان، وهو الشيطان نفسه الذي يضطرُّ اللاعب، حياله، إلى أن يضاعف أوراقه التي يحشدها، مرتين، وأربعًا،

وعشرة، فلم يكد بلزاك يحظى بقطعة من الأرض حتى غدت غير كافية بالنسبة إليه. فقد علم، بطريقة ما، كائنةً ماكانت، أن الخط الحديدي الذي تمَّ التخطيط له إلى فرساي سوف يفتتح محطة سيڤر في موقعٍ هو تحت أرضه تماماً. وعلى الفور يقول بلزاك في نفسه بحدس صادق مراراً إن الأراضي الواقعة بالقرب من هذه المحطة لابدَّ أن تتصاعد قيمتها خلال وقت غير بعيد. إذاً فليبادر إلى شراء الأراضي! ويشتري بلزاك في غمرة لهفته ونفاد صبره، إذ فقد كل مقياس بحكم البدهيِة، الأراضي عن اليمين وعن الشمال من صغار الفلاحين والمالكين الذين سرعان ما يلاحظون أن هذا الرجل الملهوف سوف يدفع لهم، في غمرة استعجاله ولهفته، كل سعر. وبعد بضعة أسابيع يكون بلزاك الذي نسي منذ عهد بعيد حلمه بالمنزل الصغير، وبات يرى بعين الفكر أشجار فاكهة، وزراعات كاملة تنشأ في مُتَنَزَّهه الرائع، من دون أن يستشير، ومن دون أن يتفقَّد الأرض ويشاهدها عن كثب فحسب، أو يدع الخبراء يفحصونها، قد حصل على أربعين آراً (أربعة دونمات)، وأنفق ثمانية عشر ألف فرنك من أجل مجرد الأرض، ومازال لا يوجد حجر مبني من المنزل، ولمّا تزرع شجرة، ولمّا يُشَيَّد جدار.

ولكن النفقات لا تعد، عند بلزاك، نفقات، مادامت ديوناً بعد، فيظل يرتع في مراتع شهر عسل متعة التملُّك. ولماذا يهرُش رأسه ويتعب دماغه في مسألة الكيفية التي تدفع بها نفقات البيت قبل أن يبني البيت؟ وفيم يملك المرء ريشته، هذه الآلة السحرية التي تحوِّل الورق المكتوب، بسرعة الطائر إلى أوراق العملة المطبوعة من فئة الألف فرنك؟ ثم إن أشجار الفاكهة التي سيزرعها في الأرض- التي مازالت مُقْفرة تماماً لا بُدَّ أنها ستعود عليه وحدها بثروة، كأن يؤسس المرء، مثلاً، مزرعة أناناس؟ ولم يسبق لأحد في فرنسا أن توصَّل إلى فكرة تربية الأناناس تحت هذه الشمس الطيبة، الدافئة، في بيوت زجاجية، بدلاً من تركها تأتي في السفن من بلدان نائية. ومِنْ هذا يستطيع المرء، إذا تناول المسألة على وجهها الصحيح- كما

يحسُب ذلك أمام صديقه تيوفيل غوتييه- أن يكسب من هذا وحده، مائة ألف فرنك، أي ثلاثة أضعاف ماسيكلفه هذا المنزل. وفضلاً عن ذلك فإن المنزل لن يكلفه شيئًا على الإطلاق، إذ حمل أصدقاءه المخلصين على الإسهام في صفقة الأراضي الباهرة هذه، وبينما يقوم هو ببناء منزله الصغير الجديد، يقومون هم بتشييد الكوخ القديم إلي جانبه من جديد، وسوف يدفعون له مقابل ذلك الفائدة الملائمة، وإذًا فلا داعي للقلق!

وفي الواقع لم يكن بلزاك يحمل همًّا- بل كان الهم الوحيد أن يفرَغَ من ذلك بسرعة. وباللَّهْفة ذاتها، التي يشيد بها المصائر في الرواية، يريد أن يتم إنشاء بيته. ويزحف جيش بأسره من العمال، بنائين، ونجّاري أثاث، ونجّاري حجرات، وبستانيين، ودهّانين، وصانعي أقفال، ويتم الشروع في كل شيء في الوقت ذاته، فهنا يشاد جدار بأقصى السرعة يُقصَد به أن يدعم الأرض، وهناك تحفر الأرض من أجل الأساس للشاليه البلزاكيّ، وهناك تُشَق طرق وتفرش بالحصباء، وهنا، مرة أخرى تزرع أربعون شجرة تفاح، وثمانون شجرة كمثرى وشجرة فاكهة نامية. وبين عشية وضحاها تتحولّ المنطقة المحيطة بـ «القرية المظلمة» إلى تلك الأشياء المتداخلة التي يحتاج إليها بلزاك لتكون مقويًا يشد طاقة توتّره، من أجل حياته، ويظل يرتقي الرابية، أسبوعًا بعد أسبوع، جاثيًا على ركبتيه، يستحث العمال، مثلما كان يستحث عربات البريد في رحلاته ويدفع بها إلى الأمام، وليْكلّفْ ذلك ماشاء أن يكلف، ففي ربيع عام ١٨٣٨، لا بُدَّ أن يكون تمَّ الفراغ من كل شيء، بل كان أحبَّ الأمور إلى بلزاك أن يرغم أشجار الفاكهة على أن تؤدي ثمارها في هذا الأجل المرسوم، بدلاً من الخريف.

ويمضي هذا، أسابيع من بعد أسابيع، إلى أن بلغ من الشتاء موقعًا متقدمًا، وترتفع الجدران وتعلو، وترتفع معها النفقات. وشيئًا فشيئًا يتسلل إلى بلزاك شيء يسير من عدم الارتياح، فها هو ذا أجر سيزار بيروتّو يُدْفن في الأرض. أما

الناشرون فقد استحلَب منهم آخر نقطة، وما عادوا يمنحون سلفة جديدة. وأما عمله هو فلا يحقق تقدماً نتيجة للَّهفة التي ينتظر بها بيته الجديد، ويظل على الدوام، بموجب القانون الذي يعلنه هو نفسه، يمتص هوسٌ من الهوس الاخر طاقته. وعاد بلزاك، مرة أخرى، يُصعِّد، مثلما فعل في حالة المطبعة، مضاربات سبق وضع الأسس لها على نطاق ضيق، لتصل إلى أبعاد لم ينضج لها. ومثلما توصَّل في أيامه إلى إضافة مسبْك الحروف إلى المطبعة، ليتجاوز جنونًا بجنون أكبر منه، يتوجَّه الآن إلى تجارة جديدة يفترض أن تنقذه من إتجاره بالأراضي. وذلك أن المرء لا يستطيع تغطية ديون جديدة تبلغ مائة ألف فرنك، عن طريق الاقتصاد والتوفير، بل لا يستطيع ذلك إلاّ بأن يكسب مليونًا بضربة واحدة أمّا الأدب فلا يستطيع المرء أن يتوصَّل به إلى توفيق سريع، ولابدَّ للمرء أن يخترع طريقة جديدة، وكان بلزاك يعتقد أنه وجدها. وهكذا يتوارى بلزاك فلا يخلِّف أثرًا، قبل أن يبدأ الربيع الذي يفترض أن يدخل فيه بيته وبستانه، وما من أحد يعلم إلى أين ذهب، ولا يكشف من خطته سوى قوله:

«سأكون حراً، ولن أحمل هموماً بعد هذا، ولا هواجس مادية، فسوف أكون غنيًا!».

وهذه القصة التي تتحدث عن رغبة بلزاك في التحوُّل إلى مليونير بضربة واحدة، ضربٌ من جنون ذي أبعاد بلزاكية على وجه الخصوص، وتبدو بعيدة عن التمتع بالأرجحية إلى حَدٍّ يجعل المرء خليقًا أن يرفضها وهي في إطار رواية، على أنها مجانبة لأصول علم النفس، وعلى أنها قصة أُسيء اختراعها، ولوْلم تكن كل تفاصيلها مُوثَّقة بالشواهد لما توفرت للمرء الجرأة على إعادة سرد هذه النزوة الجنونية التي تصدر عن عبقري ولكن ظاهرة التناقض تظل تتكرَّر في حياة بلزاك بدقة رهيبة يبلغ منها أن الدماغ الواحد ذاته، الذي يطلُّ، في إطار ضروب إبداعه الفني، على كل موقف بنظرة شاملة تنطوي على الثقة المطلقة، وهذه النظرة تؤدي عملها في

سذاجة و إيمان بالواقع كإيمان الأطفال. ولمّا كان أستاذًا في الحساب وعلم النفس لا مثيل له مادام يترتَّب عليه أن يصف رجلاً مثل غرانديه، أو نوسنجن، فإنه يغدو في الواقع فريسة لكل قنّاص من الفلاحين، ويدع النقود في جيبه تُغري بالاستخراج بسهولة أكبر من استخراجها من جيب مقامر قديم. وهو يقف في مواجهة الموقف ذاته الذي نضج له من حيث هو فنان، في حياته الخاصة، من دون تعليم من قِبل أحد، ومن دون أن يكون قابلاً للتعليم. ولا يكاد يوجد، في كل مسيرة حياته، مَثَل خصوصيّ على هذا الإشراق والسطوع وتخييم الظلال، في وقت معًا، وفي الدماغ ذاته أيضًا، سوى هذه الحكاية، عن التنقيب عن الكنز.

ففي صيف عام ١٨٣٦ يكتب بلزاك حول هذا الموضوع إحدى أكثر أقاصيصه عبقرية، إنها جوهرة خالدة في الفن القصصي: فاسينوكاني، وهو يصف كيف يلفت نظره، في عرس لأناس من البورجوازية الصغيرة، بين الموسيقيين وعازفي اليراعة، شيخ في الثمانين، قد كُفَّ بصره، جليل الهامة يحسّ فيه، على الفور، بنظرته السحرية، بوجود قدر ينطوي على أسرار، ويأخذ في حوار معه، ويُسِرُّ عازف اليراعة الشيخ، بعد أن بعث النيران فيه بضعة أقداح من الخمر، أنه السليل الأخير لـ «كاني» وهو عضو سابق في مجلس شيوخ البندقية، وأنه أنفق سنين في السجن. وعند هربه عبر جدران السجن وقع على حجرة الكنوز السحرية لكبار موظفي الدولة في البندقية، الذين ينتخبون الدوق، حيث يرقد ذهب الجمهورية وفضتها مكدَّسَيْن، ملايين إلى جانب الملايين. وهو وحده الذي يعرف المكان، غير أنه لا يستطيع رفع الكنز نتيجة لحبسه خلال السنين الطوال، إذ كُفَّ بصره، ومع ذلك فهو يعرف الموضوع على وجه الدقة، وإذا شاء أَحد أن يجرؤ على القيام معه بالرحلة إلى البندقية فسيكونان، كلاهما، أغنى رجال الأرض ويمسك بالقصاص، أي ببلزاك من ذراعه ويناشده أن يذهب معه إلى إيطاليا.

وكان الناس، من حولهما يتضاحكون من هذا المجنون، وكان كلا الموسيقيَّيْن الآخرين قد سمعا القصة من قبل، ولم يصدِّقاها، وحتى بلزاك،

قصّاص هذه الأقصوصة لا يفكر في أن يتبع فاسينوكاني إلى البندقية ويدفع له تكاليف الرحلة، ولا يباشر هذا العمل الخياليّ، ويدع المجنون المسكين يقضي نحبه في دار المكفوفين، من دون أن يحاول أن يرثَه، وفي إطار الأقصوصة المخترعة يتصرَّف بلزاك تصرّفًا عقلانيًا تمامًا كما يجدُر بكل إنسان متعقّل أن يتصرَّف. ولكن ما أكثر ما تختلف الحكاية التي كان يحلُم بها سلفًا حين يتناولها بعد ما لا يكاد يبلغ العام، بالفعل الآن. ويحدث الموقف ذاته، خطوة فخطوة، كما صاغه بقلمه.

وذلك أن بلزاك يصاب، لدى عودته من رحلته الثانية إلى إيطاليا، بمصيبة تتمثل في احتجازه في جنوة، في المستشفى، بالحجر الصحيّ، والحجر الصحي من أكثر الأشياء إثارة للسأمة والملل، فهو نوع من السجن، من دون جدران، ويكون المرء حراً وليس بالحرّ مع ذلك، ولا يستطيع أن يعمل، ولا أن يتنزّه، ويظل عمله الوحيد حديثه مع رفاقه الذين يتفق أن يشاطروه المصير من طريق المصادفة. على أن واحداً من رفاق مصيبته، ولم يكن في هذه المرة عازف يراعة مكفوف البصر، بل تاجراً بسيطًا يدعى جويسيبّي ريتزي يتحدث، بطريقة عرضية تمامًا. ومن دون أدنى رغبة، بلا شك، في استغفال بلزاك أو استدراجه إلى مضاربة، عن ماهية الكنوز التي يمكن استخراجها بعدُ من وطنه، ويقول إنه يكمن، في سردينيا، مثلاً، مناجم الفضة القديمة مهجورة، لأن القوم يروْن أن الرومان استغلّوها كل الاستغلال، وفي الحقيقة لم يكن الرومان يعرفون، بتقنيتهم غير المكتملة، سوى استخراج قدر يسير من الفضة، من الرصاص، وأن الرواسب التي بقيت هناك راقدة في أكوام كاملة، على أنها شيء لا قيمة له وهي مازالت تتضمن في الحقيقة نسبة عالية من الفضة تستطيع التقنية الحديثة أن تستغلها. ومنْ يحصلَ على الامتياز الخاص بذلك- وما من شك في أن الحصول على هذا ممكن بسعر يبعث على السخرية- خليق أن يغدو موسرِاً في أقرب وقت.

وهكذا كان السنيور الطيب، ريتزي يتحدث على المائدة، وكان ما يتحدث به صحيحًا في الحقيقة. وفي الواقع فإن التعدين الحديث يعرف كيف يستخرج نَسَبًا

مئوية مختلفة كل الاختلاف من المعدن الكريم من فلزات مختلطة، وثمة حفر لا تحصى، هُجِرَت قبل ألفي عام على أنها غير منتجة، مازالت حتى اليوم قابلة للتشغيل مع العائد الكبير، إلاّ أن هذا الرجل الطيب، جويسبِّي ريتزي، لا يعرف في أي برميل بارود يلقي بشرارته، ويحسب ُبلزاك الذي يرى الأشياء، بمقدرته على الرؤيا السريعة، في اللحظة التي يُروى له فيها شيء ما، هذه الأشياء ماثلة متجسِّدة أمام عينيه، على غير إرادة منه، وأنه بات يرى الفضة تنحلُّ منفصلة عن الرصاص، ببريقها الأبيض، خارجة من الرواسب ذات اللون الأشهب، وهي تتشكل في طبقات، وتُصَكُّ في تالَرات مضغوطة، مئات الألوف، والملايين، والمليارات، وإذا هو ينتابه السّكْرُ من مجرَّد الفكرة، إنها كما لو أن امرءاً يقدم إلى طفل قدحًا من البراندي، ويُلِحُّ على ريتزي، السليم النوايا في وجوب قيامه بفحص المخلَّفات على الفور، من قبل أوائل الكيميائيين، ويقول إن جمع رأس المال يعدُّ لعبة أطفال بالقياس إليه، من أجل عمل مضمون كهذا. وكل عمل يعد مضمونًا بالقياس إلى المتفائل المتوقِّد، بمجرد أن يُعْرَض عليه- ويقول إنهما سيؤمِّنان لنفسَيْهما معًا، حصة كبرى، ويغدو كلاهُما غنيًا، غنيًا إلى حد الجنون، على أن السنيور الطيب، ريتزي الذي استثيرت دهشته من جراء الحماسة الجارفة عند هذا السيد المجهول من باريس، يغدو أكثر تحفُّظًا إلى حد ما، غير أنه يعدِ ُبلزاك بالاهتمام بهذه المسألة، وبأن يبعث إليه، في باريس، بالاختبارات المعدنية المرغوبة.

ومن هذه اللحظة يتسمَّم بلزاك بهذا الجنون الذي يوحي إليه أن مناجم الفضة في سردينيا خليقة أن يكون فيها إنقاذه، ولن تقتصر المسألة على تسديد تكاليف المنزل الجديد (ليجاردي)، بل سيشمل ذلك ديونه، وتحوِّله آخر الأمر إلى رجل حر. وبينما كان يرى، في الموقف المُخْتَرَع في رواية (فاسينو كاني)، في المُنَقِّب عن الكنوز مجنونًا، يتحوَّل هو نفسه الآن إلى مجنون بهذه الفكرة، وما عاد أمامه سوى الفراغ، على وجه السرعة، من رواية (سيزار بيروتو). وفي هذه الأثناء سيكون

السنيور ريتزي قد بعث إليه باختبارات المعدن، ثم يدخل على الفور في العمل الكبير، برأس مال وخبراء!

ولكن الأسابيع تنقضي، وتنقضي الشهور، وقد تمّ الفراغ من سيزار بيروتو منذ عهد بعيد، ولمّا يبعث السيد جويسبي ريتزي باختبارات المعدن. وينتاب بلزاك الاضطراب. لقد نبَّه في النهاية، هو بنفسه، هذا الغبيَّ عن طريق حماسته، إلى ماهيّة الصفقة ذات الملايين التي تظل معطَّلة هنا، وهذا الوغد يحاول الآن أن يحصل على الامتياز وحده، من دون أن يَشْرَكَه هو فيه؟ هنا لا توجد إلاّ وسيلة واحدة، وهي أن يسبقه، وأن يتابع المسألة بنفسه، وبناظريه، في سردينيا! وكان من المزعج أنه يفتقر، من أجل هذا العمل المستقبليّ الذي يدرُّ الملايين إلى بضع مئات من الفرنكات تكون رأس مالٍ استثماري من أجل الرحلة، وبلزاك مازال لا يعرف كيف يؤمنها في الوقت الحاضر. لقد كان في وسعه الآن أن يذهب إلى أصدقائه من آل روتشيلد، أو إلى آخرين من كبار المموّلين، ويعرض عليهم خطته، ولكن بلزاك، الساذج، بل لابدّ للمرء أن يقول إنه غبي كالعهد به دائماً، عندما تتعلق المسألة بصفاته الخاصة، يعتقد أن السيد ريتزي لم يُفْضِ بالسر الكبير إلاّ إليه وحده، وإذا أدلى بأي شيء إلى امرئٍ ما فسوف تُسْرَق الفكرة من قبل كبار الرأسماليين أيضاً مثلما سُرِق من بطله دافيد سيشار في «الأوهام المفقودة» سِرُّه الخاص بالورق الرخيص. على أنه يفضي بسره إلى المقدَّم كارّو وحده. ففي خيال بلْزاك الدافق يُعَدُّ هذا الضابط الطيب، الذي أُخْرِج من الخدمة مستهلَكًا، والذي يقوم في بعض الأحيان بتجاريب صغيرة لتزجيه الوقت، كيميائيًا كبيراً. «يعرف طريقة سرية تمكِّنه من فصل الذهب والفضة، في أية خلائط كانت، عن المواد الأخرى وذلك في الحقيقة من دون تكاليف خصوصية».

على أن كارّو، الطيِّب النوايا، يجد الفكرة قابلة للمناقشة على وجه الإطلاق، غير أنه لا يظهر استعداداً للرحيل معه، ولا لاستثمار المال. ولا يستطيع

بلزاك أن يقترض بضع مئات من الفرنكات إلاّ من أمه التي ما تفتأ، بحكم كونها مضاربةً قديمة، تستخرج النقود من جرابها أمّا الباقي فيستدركه من الدكتور ناكار ومن خياطه. وفي منتصف آذار ١٨٣٨ ينطلق هونوريه دي بلزاك بالفعل إلى سردينيا ليستغلّ مناجم الفضة لنفسه.

أمّا أن هذه الرحلة كانت رحلة دون كيشوتية كأشد ما تكون بعض أنواع الرحلات عبثيةً، ولم يكن لها بُدٌّ أن تنتهي نهاية تجرُّ عليه العار، فذلك أمر جَلِيٌّ لا لبس فيه. ذلك لأنه حتى لو كان المشروع ذا مستقبل حافل بالآمال- وهنا كان حدس بلزاك يرى الرؤية الصحيحة، مرة أخرى- فكيف يفترض في كاتب لم يسبق له قطٌّ أن رأى منجماً في حياته، أن يتمكن من الحكم على مردوده خلال يومين أو ثلاثة؟ ولم يكن بلزاك يحمل معه أجهزة قياس، ولو كان معه مثل هذه الأجهزة لما عرف كيف يحدد الكميات والمحتوى بالنسبة المئوية، ولم يتشاور مع خبير فعلي، ولا يعرف الإيطالية بالقدر الكافي، ولايقدر على التفاهم مع أهلها على الوجه الصحيح، ولم يكن يحمل معه رسائل توصية لأنه لم يشأ أن يولي ثقته أحداً، ولم يكن معه مال من أجل تأمين المعلومات، ثم إنه لا يعرف إلى أي مراجع أو جهات مختصة يجب عليه أن يتوجه لكي يحصل على الامتياز، ولو عرف لافتقر بلا ريب إلى الأوراق والمستندات التجارية، ولافتقر قبل كل شيء إلى رأس المال. والحق أنه يقول:

«حَسْبي أن أؤمِّن لنفسي عيِّنة من هذه المادة»

ولكن أين توجد هذه «المادة» في الحقيقة، وما هي؟ أتُراها أكوام الرواسب التي ترقد في مكان ما، قد غَشِيَتْها الأدغال منذ عهد بعيد، أم هي الفِلِزّ في المناجم المنطمرة؟ وحتى مهندس المناجم الخبير خليق أن يحتاج إلى شهور من أجل تقرير الواقعة التي يثق بلزاك بمقدرته على تقريرها بالاعتماد على نظرته السحرية وحدها.

ولكن بلزاك لا تتوافر لديه حتى هذه الشهور لنفسه، لأن الوقت عنده يعني المال، ولأنه لا يملك المال فهو مضطر إلى الإسراع. ومنذ البداية يبدأ عمل الوتيرة البلزاكيّة المألوفة. وسوف ينفق خمسة أيام بلياليها في اجتياز المسافة من باريس إلى مرسيليا، من دون نوم، على مقعد القيادة في عربة الجياد، على أن وسائله المالية تبلغ من الضيق ما يجعله يتغذى في كل يوم بلبن تبلغ قيمته عشرة قروش. ولكن الواقع لا يظهر استعداده لمجاراة الوتيرة البلزاكية. وفي مرسيليا يبلغه أنه لن تقلع سفينة إلى سردينيا خلال المستقبل المنظور من الزمان، وأنه لا يتوافر من الإمكانيات سوى سلوك الطريق الملتوي عبر كورسيكا التي ربما يستطيع المرءأن ينتقل منها بعد ذلك إلى سردينيا.

وهذه هي الضربة الأولى التي تُوَجَّه إلى مستودع آماله السريع العطب ويواصل بلزاك رحلته تحدوه آمال قد انتابها البرود إلى حد بعيد، إلى طولون، بعد أن كتب إلى صديقته كاروّ الكلمات المفعمة بالكآبة والانقباض:

«لقد بلغ من سوء حظي أنني سوف أفقد وهمًا من أوهامي خلال أيام قلائل، ومن شأن المرء أن تسير أموره على هذه النحو دائمًا: ففي اللحظة التي يغدو فيها المرء قريبًا من الحَسْم يبدأ في فقدانه إيمانه»

وبعد رحلة بحرية عاصفة على نحو غير مألوف، يصل إلى أجاكسيو وقد أصيب بدوار البحر إصابة فادحة، ويكون هناك اختبار متجدد لنفاد صبره: خمسة أيام من الحجر الصحي، إذ يقال إن الكوليرا قد فَشَت في مرسيليا، وبعد هذه الأيام الخمسة بضعة أيام من خسارة الوقت العبثية، مرة أخرى، لأنه يضطر إلى أن ينتظر إلى أن يتفضَّل أي قارب بنصب أشرعته للإقلاع إلى سردينيا، ولمـّا كان أكثر قلقًا واضطرابًا، وذهولاً من أن يستغل هذا الوقت في العمل فهو يخبط في أجاكسيو خبط عشواء، ويتفقَّد مسقط رأس منافسه الكبير، نابليون، ويلعن جويسيبي ريتزي الذي أغراه بهذه النزوة الجنونية. وفي الثاني من نيسان يستطيع آخر الأمر أن يعبر

البحر في قارب لصياد من صيادي المرجان، إلى سردينيا، من دون غذاء آخر سوى الأسماك التي يتم اصطيادها في الطريق. وفي ألغيرو تكون إقامة جديدة وتعذيب جديد لنفاد صبره، وخمسة أيام جديدة من الحجر الصحي. وأخيراً، وفي الثاني عشر من نيسان، يُتاح له أن يدخل البلاد التي تخبّئ ملايينها للمستقبل بغَيْرَةٍ بالغة. لقد ضاع شهر بأكمله سدى، ولم يرَ حتى هباءة من الفضة.

وإذاً فلْينطلق الآن إلى المناجم! إنها لا تبعد سوى ثلاثين كيلو متراً، ولكن كل الطرقات توارت منذ أيام الرومان، فلا توجد طرقات، ولا عربات في هذه البلاد التي لا يتمتع سكانها من الحضارة بأكثر مما يتمتع به أهل بولينيزيا أو قبائل الهون. فالبشر أنصاف عراة، في مِزَق وأسمال، والمنازل ليس فيها مدافئ، وليس هناك استراحات ولا مطاعم أو فنادق، ويضطر بلزاك، الذي لم يَمْتَطِ حصاناً منذ سنين، إلى أن يدع وزنه البالغ مائة كيلو غرام يترجْرَح طوال أربع عشرة ساعة إلى خمس عشرة ساعة، على سَرْج الجواد، وحين يصل بعد ذلك إلى نورا، يجد آماله كلها مدمَّرة تدميراً نهائيًا حاسماً، وحتى لو كانت مناجم الفضة منتجة فإنه ما عاد في وسعه أن يحظى بها. لقد جاء بعد فوات الأوان. وذلك أن رفيق مائدته السالف، جويسبِي ريتزي، الذي اشتعل حماسة من جراء حماسة بلزاك استغل هذا العام ونصف العام في هذه الأثناء، واعياً لهدفه. والحق أنه لم يكتب رواية خالدة، ولم يُشيِّد منزلاً له حديقة مزروعة بالأناناس، بل لبث زمناً طويلاً للغاية يُلِحّ على الدوائر والمراجع المختصة والدواوين، إلى أن حصل، عن طريق مرسوم ملكي، على الحق في استغلال الأكوام المهجورة وإذاً فقد كانت رحلة بلزاك عملاً لا لزوم له البتة، ومثلما يعود نابليون بعد واترلو، ما عاد يريد بعدُ سوى العودة إلى باريس بأسرع ما يستطيع، إلى «جحيمه الحبيب» غير أن نقود السفر ما عادت تكفيه إلى هذا المدى، ويضطر إلى الانتقال بعدُ من جنوة إلى ميلانو، ليقترض من هناك نقود السفر إلى باريس، على اسم آل فيسكونتي وتكون في هذه المرة إقامة حزينة، من

دون أمراء، ولا كونتات، ولا استقبالات ذات فخامة وأبَّهة، ويصل المفلس الأبديّ، في حزيران، إلى باريس، من جديد، مُرْهَقًا يحس بالمرارة، غير أنه مازال لم يلحق الأذى بطاقته.

وتكون مُحَصِّلة المغامرة: أن بلزاك خسر عمل ثلاثة أشهر، وبَدَّد مالاً بغير طائل، من أجل كسب المال، وعَرَّض للخطر صحته وأعصابه، بغير جدوى، من أجل مغامرة عبثية، أو بعبارة أصح، من أجل مغامرة كانت عبثية بالقياس إليه. ذلك لأن مما يبعث على السخرية أن بلزاك كان يحسب الحسابَ الصحيح في كل مشروعاته، كما كان شأنه في حالة المطبعة وفي حالة ورشة التنضيد، وفي حالة المضاربة بقِطَع الأراضي، وببيته (ليجاردي)، ولم تكن نظرته الحدسية خاطئة. وفي الواقع كان المشروع الذي يُفْتَرَض أن يجعله غنيًا، يفضي إلى إثراء آخرين. فبعد بضعة عقود من الزمان، نجد مناجم الفضة التي رآها أكوامًا عديمة الفائدة، في حالة تشغيل كامل وارتقاء. وفي عام ١٨٥١ تُشَغِّل ٦١٦ عاملاً، وبعد تسع سنوات، أي في عام ١٨٦٠، يجري تشغيل ٢٠٣٨ عاملاً، وبعد تسعة أعوام مكررّة، يجري تشغيل ٩١٧١ عاملاً، وتجني شركة مناجم الفضة بالعملة النقدية الحقيقية، الملايين التي كان يحلم بها. ويظل التشمُّم والاستشعار عند بلزاك صحيحين، ولكن هذين يظلاّن لا يرحمان إلاّ الفنان، ويضلِّلانه بمجرد أن يحاول تجاوز حدود جوِّه الحقيقيّ، وعندما يحوِّل بلزاك خياله إلى مجال العمل يبدع له مئات الآلاف من الأعمال الفنية التي هي، فضلاً عن ذلك، أعمال خالدة، غير أنه إذا هَمَّ بتحويل أوهامه إلى مال كانت النتيجة أنه لا يزيد على أن يضاعف ديونه، ويضاعف عمله بذلك، عشرة أضعاف أومائة ضعف.

أما انطلاقه في الرحلة فقد كتب عنه بلزاك إلى صديقته كلمة تنبُّؤية:

«أما الرحيل فلا أخشاه، غير أني أخشى العودة إذا ما قُدر لخطتي أن تنتهي إلى الإحباط» فهو يعرف أن ما ينتظره هو الشيء ذاته عند كل رحلة عودة:

التذكيرات، والحسابات والقضايا، والمآخذ، والمطاليب، والعمل بلا نهاية، وكل هذا، في هذه المرة، مضاعف ضعفين، أو عشرة أضعاف. وفي غمرة هذه الأحاسيس السيئة المُسْبَقة، لم يَهَبْ له الجرأة إلاّ شيء واحد: وهو أنه يستطيع أن يهرب على الفور إلى بيته الجاهز، «ليعوّض هناك الوقت الضائع». ولكن ثمة ألواناً جديدة من خيبة الأمل. ما من شيء جاهز. فالأرض «جرداء نظيفة مثل راحة اليد»، وما زال البيت من دون سقف يُظلُّه، فهو لا يستطيع أن يشرع في عمله لأن المهندسين والبنّائين والعاملين في الأرض كانوا يعملون باسترخاء وخمول مفرطَيْن، ونسي بلزاك، مرة أخرى، أن الآخرين من البشر لا ينطلقون في عملهم بمثل الوتيرة البلزاكية. غير أن نفاد صبره يحلُّ عليهم الآن، فيستحثهم بحُمَيّاه وجنونه، وقبل أن يتم تثبيت لوح السقف الأخير ينتقل إلى البيت على الرغم من حظر طبيبه الذي يعدُّ الإقامة في مبنى جديد مُضِرًا، ومازال أثاث بيته لم يجر إنقاذه من شارع دي باتيي، ومازال يُسْمَع طرق المطارق وصوت المناشير طوال النهار، لأن البيت القائم في الحديقة للكونتيسة فيسكونتي يجري تشييده لها من الأساس أيضًا، ويجري فرش الطرقات بالحصباء، وتزفيتها، كما تقام الجدران حول المحضر بجلَبَة كبيرة، وبسرعة قصوى- تنطوي على طامّة. ولكن بلزاك، صاحب الأوهام الذي لا يُرْجى له شفاء، يستمتع بالإنجاز الجديد ومازال في حالة العماء. ويصف بيته الجديد في غمرة الحماسة الأولى، قائلاً:

«يقع بيتي على سفح جبل أورابية، هي رابية سان كلو التي تصل حدودها، بنصف الارتفاع، في الاتجاه الجنوبي، إلى متنزّه الملك. أمّا الإطلال على الغرب فيشمل كل ڤيل دوفري التي تمتد على طوال الرابية إلى أن تبلغ مبتدأ متنزّه فرساي. وكأن عيناي تسرحان باتجاه الشرق فوق سيفر، وتحيطان بأفق هائل، تقع وراءه باريس، وكان بخار المدينة الكبرى يحجب حاشية السفوح الشهيرة، سفوح ميدون وبيلڤو. أمّا على الجانب الآخر فأطلُّ، على سهل مونتروج وطريق أورليان الذي يفضي إلى تور. وإنه لمنظر طبيعي مُتْرَع بالتفرُّد الغريب والتناقضات الجارفة. وأمام مُلْكي، تقع، على مقربة بالغة، محطة الخط الحديدي باريس- فرساي الذي يمتد

سَدُّه الترابي على طول وادي ڤيل دوفريه، من دون أن ينتقص، بأي طريقة من الطرق، من إطلالي. وبذلك أستطيع، خلال عشر دقائق، ولقاء عشرة قروش، أن أنطلق من (ليجاردي) إلى المادلين، وحتى وسط باريس! أما الانطلاق من شارع دي باتيي، أو من شايو، أو من شارع كاسيني فيكلفني أربعين قرشًا على الأقل، ويستغرق ساعة. ونتيجة لهذا الوضع المُواتي لن يكون شراء (ليجاردي) نزوة حمقاء أبدًا: إذ لابد أن يرتفع سعر هذا العقار ارتفاعًا هائلاً، وتبلغ مساحة العقار ما يعادل المساحة التي تُفْلَح في صباح يوم من الأيام، وتُخْتَتَم من ناحية الجنوب بمصطبة يبلغ ارتفاعها ١٥٠ قدم، وهي محاطة بجدران. وحتى الآن لم يُزْرع شيء، غير أننا سنصنع في الخريف، من هذا الركن الصغير من الأرض، جنة عدن حقيقية، بما فيها من النبات والشجيرات، والروائح الذكية. ففي باريس وما يجاورها يستطيع المرء أن يحصل على كل شيء، مقابل المال، ولذا فسأحصل على أشجار المانوليا التي يبلغ عمرها عشرين عامًا، وعلى أشجار الزيزفون البالغ عمرها ستة عشر عامًا، وعلى أشجار الحور البالغ عمرها اثني عشر عامًا، وعلى أشجار البتولا، إلخ. ويتم نقل هذه الأشجار مع كتل من التراب حول جذورها، وكذلك أشجار الكرمة التي تأتي في السلال، وتؤتي أكلها حتى في هذه السنة. أجل، فالخضار رائعة: أمّا اليوم فما زالت الأرض جرداء بالطبع، كراحة اليد، ولكنها ستبدو في صورة مفاجئة، في أيار، ولابُدَّ لي أن أشتري بعدُ، في المناطق المجاورة، أرضًا تبلغ مساحتها ما يُفْلَحُ في صباحَيْن، من أجل بساتين الخضار والفاكهة، إلخ. وأحتاج، فوق ذلك، إلى ٣٠,٠٠٠ فرنك، وأريد أن أكسبها خلال الشتاء، والمنزل ضيق، وسامق، كعود في قفص ببغاء، ثلاثة أدوار بعضها فوق بعض، في كل دَوْرٍ حجرة، ففي الدور الأرضي حجرة طعام وصالون، وفي الدور الأول حجرة هندام وحجرة نوم، وفي الثاني حجرةُ عملي. ومن هنا أكتب إليك، في منتصف الليل، هذه الرسالة. ويربط بين هذه الأدوار دَرَج يكاد يبدو كالسلَّم، وتمتد حول المنزل صالة مغطاة يستطيع المرء أن يتنزَّه فيها، وتصل إلى

الدور الأول، تحملها أعمدة من القرميد. والجناح الصغير بأكمله، الذي يبدو إيطاليا، مطلي بلون الآجر. والأركان مبنية بالحجر. والملحق مع بيت السلالم أحمر. المكان المتوافر في البيت لا يزيد على أن يتَّسع لي وحدي. ويقع المبنى الاقتصادي على مسافة ستين خطوة نحو الخلف باتجاه حديقة سان كلو، ففي الدور الأرضي مطبخ وحجرة للخدم، وحجرة للطعام، إلخ. وحظيرة للخيل، وحجرة خشبية للعربة، وحجرة لأدوات المطبخ، وحمام، وحجرة للحطب، إلخ. وفي الدور الأول مسكن كبير يستطيع المرء أن يؤجِّره في بعض الظروف، وفي الدور الثاني توجد حجرات السُّعاة، وحجرة ضيوف للأصدقاء، ويوجد تحت تصرفي مصدر للماء لا يقل جودة عن مصدر الماء في ڤيل دوفريه، لأنه يعود إلى طبقة المياه الجوفية ذاتها، وتحيط بالعقار من كل الجهات ممرات للنزهة، ولا توجد حجرة مؤثَّثة بعدُ، ولكن كل أملاكي ستصل من باريس إلى هنا شيئًا فشيئًا. وسأظل هنا إلى أن أكون صنعت سعادتي، وإن المكان هنا ليعجبني منذ الآن إلى حَدٍّ يبلغ منه أنني أعتقد أنني سأختتم هنا ذات مرة أيامي بسلام بمجرد أن أحوز المال الضروري لكي أُخْلِدَ إلى الراحة، وعندها سأودِّع كلَّ آمالي وخططي الطموحة من دون تطبيل ولا تزمير.

وهذا ما يقوله بلزاك. على أن روايات الأصدقاء والزائرين تبدو مختلفة، وهي تتسم، بلا استثناء بنبرة سيئة مُحْرِجة تَدُلّ على ضحك لا يكبته مَنْ يكبته إلاّ بشقّ النفس، وحتى أفضل أصدقاء بلزاك، وأَسْلَمَهم طَوِيَّةً، يجدون مشقَّة في التزام الجدية الكاملة عندما يشرح لهم، بطلاقة لسانه المُسْكِرَة، جوانب الروعة في العقار الذي يملكه. وذلك أن المنزل الصغير، الذي يستبق، على نحو يلفت النظر، الأفكار المعمارية عند لي كوربوزييه ومدرسته، يماثل إلى حديثير الهواجس، قفصًا للطيور فارغًا. أما الحديقة التي يُحَوِّلها بلزاك، في حلمه، إلى فردوس، فتوجد فيها، هنا وهناك شجيرات فاكهة هزيلة ترفع أذرُعَها الصغيرة نحو السماء، ومازال لا يَخْضَوْضِرُ عشبٌ هنا فوق الأرض الطينية، ويحلّ تشرين الأول وتشرين الثاني،

ومازال رهط العمال الصاخب يتنقَّل على الأرض، هنا وهناك، لأن بلزاك يتفتَّق ذهنه في كل يوم عن تزويق مختلف، فهو يخطط حينًا لبيوت زجاجية لأشجار الأناناس عنده، إذ يعتزم أن يبيع الأناناس في باريس بربح هائل ويريد، حينًا آخر، أن يزرع الكرمة الهنغارية، لينتج خمراً ينطوي على ناريّة لم يُعْرَف مثلها قط، ثم يُطْلَبُ، مرة أخرى، باب حجري عليه عنوان كبير محفور بقوة (ليجاردي)، يفترض أن يفضي المرء منه، عبر ممر يمتد تحت تكعيبة خضراء، إلى المدخل. وفي الوقت ذاته يسهر بلزاك على إنشاء بيت الجيران للكونتيسة فيسكونتي التي تلحق، بالفعل، بعشيقها، على الرابية «المنعزلة» التي تتسم في الحقيقة بالجَلَبة الشديدة. ومازالت الحسابات غير مسدَّدة، وهي: ثلاثة وأربعون ألف فرنك للأعمال الإنشائية، وأربعة آلاف فرنك لبائع البُسُط، وألف لبائع الأقفال، وعشرات الآلاف الأخرى من أجل مشتريات الأراضي الإضافية ومازال لا ينمو في الحديقة الفردوسية شيء سوى عبء الفوائد على الرُّهون، وهنا تبدأ الكارثة.

وذلك أن بلزاك كان، أثناء شرائه للأراضي، أفرط في الثقة بالنظرة السحرية البلزاكية، كما أفرط في البدء بالوتيرة البلزاكية، وكان قد قَصَّر، في غمرة انشغاله بالإطلالة الجميلة والأحلام المُتَعَجِّلَة، ببساتين الفاكهة المزدهرة وعنب الخمر الناريّ، في طلب فحص الأرض من قبل خبير، وهي الأرض التي تتألف من طين ليّن زَلِق. ويستيقظ ذات صباح على دَوِيّ رعد، فيندفع نحو النافذة، وتكون السماء صافية كل الصفاء، وما من عاصفة، في طول السماء وعرضها، ولم يكن ما يَدْرُجُ رعداً، بل جدار التدعيم العالي، الذي تداعى، وينتاب بلزاك اليأس.

ويكتب إلى زُلْما كارّو قائلاً: «إليكِ، يا شقيقة الروح، أستطيع أن أفضي بآخر أسراري، فأنا أقعد في وسط بؤس مريع. لقد انهارت كل جدران «ليجاردي»، وهو ذنب البنّاء، إذ لم يضع الأسس الصحيحة، وكل هذا ترجع جريرته الآن إليَّ، على الرغم من أنه ذنبه، وليس لدى الرجل قرش واحد، وكنت أعطيته حتى الآن ثمانية آلاف فرنك عربونًا.

غير أنه لا يستطيع أن يستغني عن هذه الجدران، فهي عنده رمز لاعتزاله العالم، كما أنها تبعث في نفسه الشعور بالتملك، ولذلك فلا بُدَّ أن يعود العمال، ويشيدوها من جديد، ثم تمضي بضعة أيام من جديد، أو بضع ليالٍ ماطرة، ويعود الرعد الذي ينطوي على الطامَّة: ويتكرر استرخاء الأساس الليِّن مراراً وينهار الجدار مراراً، ويضاف إلى ذلك باعث للغيظ جديد، وذلك أن الجار الذي درجت على أرضه الكتل المنهارة يرفع شكوى، ويهدد برفع دعوى «من كانت له أرض فلا شيء له "Qui terre, guerrea-"، وتعد «هموم مالك الأرض» موضوع روايته «الفلاحون»، ولم يكن بُدٌّ لبلزاك أن يعاني هذه المعاناة العميقة، مثلما عانى فيما سلف، من «الأوهام المفقودة»، ويضاف إلى ذلك بعدُ سرور باريس كلها بما لحق به من الأذى، وتمتلئ صحف باريس بالنوادر عن البيت الذي نسي بلزاك فيه بناء السلم، بحكم كونه، مهندساً معمارياً عبقرياً، ويعود زوّاره أدراجهم يتضاحكون ويروون كيف يضطرون إلى شق طريقهم بالتسلُّق بين أكوام الحجارة المتدحرجة معرضين حياتهم للخطر. على أن النوادر، من حقيقية ومخترعة، تنطلق بمزيد من الكثافة على أشجار بلزاك وأزهاره، ولا يجديه شيئاً أنه يزيد من صرامة عزلته ولا يدعو ضيوفاً. وذلك أن أولياء ثقته القدماء، من شارع كاسيني وشارع دي باتييّ، ومنفذي الأحكام القضاء، وموظفي دائرة التنفيذ، لا يتورّعون عن ارتقاء الطريق إلى ذروة الرابية الصخرية، تحدوهم الرغبة الصادقة في أن يفسحوا لبلزاك شيئاً من المكان في منزله الضيق، إذ يُخْرِجون أنفس قطع الأثاث من الحجرات. وحتى في هذا المُعْتَزَل، الذي يريد بلزاك أن لا يعيش فيه إلاّ للمنظر الطبيعي وللعمل، تبدأ اللعبة القديمة، ولكي يُفْسِد بلزاك على خلصائه متعة الزيارات يبادر، كلما تم إبلاغه من قبل أحد المَراقِب أن امرءاً غريباً مشبوهاً يقترب منه، إلى نقل أَمتعته ذات القيمة، إلى عشيقته. فإذا صفا الجو من جديد، وانسحب منفِّذ الأحكام القضائية الذي لم يجد، في قفص الببغاء الذي هو بيت بلزاك، شيئاً سوى منضدة كتابة،

وسرير حديدي، وبضعةً من قطع الأثاث التي لا قيمة لها، مُخيَّبَ الأمل، أعيد نقل قطع الأثاث الجيدة، وسط الضحك.

وهذا العبث مع الدائنين الذي يسبب لبلزاك سروراً طفوليًا، والذي يمثل سروره الوحيد في غمرة الكفاح الذي يمتد طوال حياته، يظل ناجحًا على مدى بضعة شهور غير أنه يصطدم آخر الأمر بنكتة حقيقية ربما علَّمت، من خلال رواياته، فن الإمساك بالمدينين المخادعين. وذلك أن هذا المرابي يتقدم بشكوى تكون من بواعث سرور باريس المولعة بالفضائح، ولم تكن ضد بلزاك، ولا ضد عشيقته، بل ضد الديّوث المغفَّل الواقع في الحيرة الكاملة، وهو الكونت جويدو بوني- فيسكونتي. ويقال إن هذا الكونت عمد:

من ناحية: بحكم كونه مخبِّئًا لجزء من الأثاث المذكور العائد للسيد دي بلزاك، إذ أخفى ذلك في حرْز أمين، مأخوذاً من عقار «ليجاردي»، ثم إنه أسهم، عن علم ومعرفة، في حرمان دائني السيد بلزاك من مبالغ لا يستهان بها تمثل الرهن المقابل لمطاليبهم، وبذلك ألحق بهم الضرر الذي لابُدَّ له أن يُعَوَّض عنه».

وبذلك ينتهي حلم «ليجاردي»، وما عاد بلزاك يستطيع أن يواصل العمل في شيء. لقد كلّفه «الكوخ» مائة ألف فرنك، أي أكثر مما يكلفه منزل في الشانزليزيه، وحتى الكونتيسة فيسكونتي سئمت من ذلك، إذ كدَّرت المسائل المالية المتواصلة العلاقات بينها وبين بلزاك تكديراً نهائيًا، وهجرت «ليجاردي».

أما بلزاك نفسه فلا يستطيع أن يعقد العزم على أن يودِّع هذا الجنون الوداع الكامل، أي جنون كونه مالكًا لبيت، ويجرِّب، مرة أخرى، حيلة البيع الظاهري مقابل خمسة عشر ألف فرنك على أمل أن يتمكن من العودة ظافراً خلال بضع سنوات، ولكن هذا الأمل أيضًا لن يتحقق، شأن كل أحلامه الأخرى، ويضطر مراراً إلى أن يخرج ليلتمس مخبَأً جديداً، فيعثر على مسكن في منزل في شارع دي باسي، وهو المنزل الوحيد من بين كل المنازل الذي تبقّى لنا، والذي مازلنا نعرفه حتى اليوم، ونقدِّره، على أنه «بيت بلزاك».

الفصل الثامن عشر

المضاربات في المسرح

«لقد بات كل شيء أسوأ حالاً، العملُ والديون»- في هذه الجملة الوجيزة المُحكَمة، يلخِّص بلزاك موقفه وقد بلغ الأربعين. أما السنوات الثلاث التي يقضيها في عقاره الريفي «ليجاردي»، فلم تكن سوى محاولة واحدة، يائسة، تنتهي إلى الإخفاق المرة بعد الأخرى، لتسديد ثمن «ليجاردي». ولم يعمل بلزاك قط عملاً محموماً أكثر من هذا، ومع ذلك فلم يكن له بُدٌّ أن يدرك أن الديون التي يبلغ رقمها ست خانات لا يمكن محوُها ولو بخمس روايات في العام، وعبثًا يستخرج من كل الأدراج أعمالاً مبدوءاً بها، أو يلفِّق لمعلم من معلمي الصناعات طيب القلب يسرُّه أن يحصل على وسام جوقة الشرف، مجموعة مبادئ نابليون، ليكون، وهو في ذروة مجده، ألعوبة في أيدي أهل الصلف والغرور وأشكال العجز. على أن أمثال هذه المبالغ التي يحتاجها لا يمكن أن تُجْتنى بعدُ بالكَدْح، ولابد من استحداثها بالسحر، ولمّا كانت مناجم نوراً ضنَّت عليه بفضَّتها، فهو يحاول الآن أن يحفر منجماً جديداً للذهب.

ولا يقسرُ بلزاك نفسه على المسرح إلاّ مع اقتران ذلك بأقصى درجات الامتعاض والكراهية وخلافًا لهوى قلبه على وجه الإطلاق، فهو يعلم، على وجه الدقة أنْ ليس عليه أن يكتب الكوميديا، بل هو المصطفى لوضع «الكوميديا الإنسانية»، وتقول له غريزة في داخله إن موهبته الحقيقية لا يمكن أن تصل أبداً إلى التطوُّر الكامل في القالب المسرحي. وما يميِّز رواية بلزاك ليس المشاهد الكبيرة، بل

التبدُّلات الكيميائية البطيئة، في الشخصيات وارتباطها ببيئتها وإطارها الطبيعي. وهو لا يستطيع أن يكتب إلاّ كالتيار المتدفّق، ويحتاج إلى الاتساع والفيض، وليس من قبيل المصادفة أن كل عمليات تحويل الروايات البلزاكية إلى مسرحيات أخفقت. وذلك أن كل شخصية من شخصياته تبدو في إطار القطاع الضيق من الكواليس غير طبيعية، إذ يُفْتَقَد التمايزُ الدقيق بين اللُوَيْنات، ومنطق أشكال الانتقال وألوانه.

ومع ذلك: ففي حالة الإرادة المركَّزة، والطاقة المُسْتَجمَعة، كانت عبقرية بلزاك خليقة، على الأرجح أن ترتقي، بالعمل والجهد، إلى مراتب الأستاذيه كشأنها في الرواية، غير أن بلزاك لا يفكرٍّ على الإطلاق في تركيز إرادته على هذا، وتعبئة كل طاقته من أجله. لقد ولَّت منذ عهد بعيد أحلامه السالفة العائدة إلى شارع ليدينيير، بأن يغدو راسين الجديد أو كورنييْ الجديد. أما في اللحظة الراهنة فهو لا ينظر إلى المسرح إلاّ على أنه وسيلة لكسب المال خارج نطاق الأدب- وهيٍ مضاربة باردة لا يبالي بها في قرارة نفسه، ولا يقدٍّرها من الوجهة الفنية، تقديراً أعلى من غراس الأناناس، أو صفقات البورصة التي تتعامل بأسهم الخط الحديدي الشمالي. وبأسلوب ساخر لاذع وبارد للغاية، يكتب، قبل رحلته إلى سردينيا، إلى مدام كارّو، قائلاً:

«إذا لم أفلح في هذا المشروع فسوف ألقي بنفسي في خضمّ المسرح» وماعادت المسألة بالنسبة إليه سوى «وسيلة إغاثة أخيرة» وهي «أقرب إلى أن تعود بالأرباح، من كتبي»، ويحسُب، بقلم الحساب، أن المسرحية الناجحة يمكنها أن تعود بمائة ألف، أو مائتي ألف من الفرنكات، وليس من المؤكّد بحكم البدهية أن يخرج المرء على الفور، من الضربة الأولى، بمثل هذا النجاح. ولكن عندما يكتب المرء عشر مسرحياتٍ، أو عشرين في العام فمن الممكن أن يحسُب المرء بدقة رياضية كيف يخرج ذات مرة بالنصيب الأكبر.

على أن هذه الطريقة في الحساب، أي عشرين إلى ثلاثين مسرحية في العام. تكشف سلفاً عن مدى قلة استعداد بلزاك لبذل الجهد في مسرحياته، فهو يفكر في

القـذف بهـا بالحـركـة السـهـلة ذاتهـا التي يلقي بهـا المرء لـويزيّة ذهبيـة على منصـة الروليت، وذلك أنَّ ما يحسم المسألة ليس الاستحقاق، بل المصادفة، وتصوُّر بلزاك لإنتاجه المسرحي المقبل واضح كل الوضوح، لا لَبْس فيه. أمّا العمل الرئيسي، الأكثر أهمية، والأكثر إرهاقًا، فهو العثور على مدير مسرح يستطيع المرء أن يعقد معه اتفاقية تنطوي على مزايا وفوائد قدر الإمكان، ويستطيع أن يحمله على أن يدفع سلفة كبيرة إلى أقصى حد ممكن. ولا بدَّ من أجل هذا العمل الذي هو الأصعب على الإطلاق، من تعبئة كل الطاقة التي يتمتع بها اسمه، وإرهاف بلاغته وفصاحته، وكل مقدرته على الابتكار. فإذا تمَّ الفراغ من هذا لا يبقى سوى أداء العمل الهامشي، وهو تقديم المسرحية خلال الأجل المتفق عليه، وهي لعبة أطفال حقيقية إذا ما قورنت بالعمل الهِرَقْلي، ثم يكون تحصيل عشرة آلاف أو عشرين ألفًا من الفرنكات. أما الأفكار فلدى بلزاك منها المئات، وفضلاً عن ذلك فهناك في مكتبته اثنا عشرية من محاولات أيام الصبا، وعلى هذا فسوف يتخذ المرء لنفسه «زنجيًّا»، فتى صغيراً رخيصاً، كائنًا مَنْ كان، يروي له الأسطورة المسرحية، ثم يضفي على عمله بعد ذلك، خلال ليلة يسيرة أو ليلتين، ببضع جرّات قلم، بهاءً وحرارة ولهيبًا. وبهذه الطريقة يستطيع المرء أن يَفْرَغ، على نحو مريح، من عشر مسرحيات أو عشرين في العام، بيده اليسرى، من دون أن يُكَرِّس أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة للمسرحية الواحدة، بينما تكتب اليد اليمنى، بالعناية القديمة، والهوى القديم، الأعمال الحقيقية، أي الروايات.

وتبدو، بالقياس إلى بلزاك، مهمة «فبْرَكة» مسرحية تعود عليه بمائة ألف فرنك، مهمة يبلغ من هوان شأنها أنه لا يُجَشِّم نفسه على الإطلاق مشقة اختيار عاملٍ يتعاون معه، مدرَّبٍ حقًا، بل يأخذ أوّل من يصادفه، أو يعرض له في الطريق، وهو شارل لاسييّي، البوهيميّ المنحل كل الانحلال، والذي لم يسبق له بعدُ اشتغال بالمسرح أبدًا، والذي لم يستطع أيضًا أطيب النقاد قلبًا أن يكتشفوا فيه هَباءَةً من موهبة. أمّا أين عثر على هذا العصابي المهزول- وهو صورة كاريكاتورية

لرجل متشرِّد له وجه محزون، وأنف كبير إلى حد خيالي، ودَغْل من الشعر يتدلّى بما يوحي بألم المعاناة والحرمان، فذلك مالا يعرفه أحد. وربما لقيه في الطريق، أو في مقهى، غير أنه يجر معه، على أية حال، الضحية المذهول كل الذهول، من دون أن يستفسر عن مزاياه وخصاله، وليستضيفه وليكون هو العامل معه، إلى «ليجاردي»، بهدف الشروع حتى في اليوم ذاته، بمسرحية تراجيدية، ولكن الذي يبدأ هو ذاته الكوميديا في الحقيقة، وهي من أشد المسرحيات الكوميدية إضحاكًا وإيغالاً في الأحلام، في حياة بلزاك.

ذلك لأن شارل لاسيبي، المسكين مازال لا يعرف، ولو بأدنى مقدار من المعرفة ماينوي بلزاك أن يصنع به، حين يخرج به هذا، بلسانه الطلق العاصف، إلى ڤيل دوڤريه، يجره جراً، وليس لديه فكرة من أجل مسرحية، ولا أدنى تصورٌ للكيفية التي يترتب على المرء أن يكتب المسرحية بها. ثم إنه لا يُطْلب منه أمثال هذا في البداية أيضًا، بل يحصل الفتى المسكين الذي يتضَوَّر جوعًا، أول الأمر، ذات مرة، على ما يشبعه من الأكل كل الإشباع، بعد أن كان بلزاك أطلق عليه في الطريق ناراً هادرة كالطبل، تأتلف من مئات المشروعات والخطط. وساعة الأكل عند بلزاك هي الخامسة، ويقدَّم على المائدة أكل كثير، وتضاف الخمور للبوهيمي الحزين، وهي خمور لم يشرب مثلها بعدُ أبداً. وحين يرمقه بنظرة تنبسط أسارير مزاجه، وربما كان الآن مستعداً بالفعل لكي يتشاور مع بلزاك بما يشبه الإيحاء، ولكن ما فاجأه أن بلزاك ينهض في الساعة السادسة، بعد الفراغ من الغداء، ويأمره بالإخلاد إلى النوم.

أما لاسيبّي الذي لا يبدأ اليوم الحقيقي عنده، كما هو الحال عند كل البوهيميين، إلاّ في المساء، والذي لا يذهب بعدُ إلى فراشه منذ طفولته، على الأرجح، أبدًا، في الساعة السادسة، فلا يجرؤ على المعارضة، ويدع صاحبه يقوده إلى حجرته، وينسحب ممتثلاً للأمر ويرقد في السرير وينام أعمق النوم بفضل الخمور التي استمتع بها بكثرة.

وينام، ويظل مستغرقًا في النوم، ولكن حين يكون في أحلى نوم له، أي في منتصف الليل، يهزُّه امرؤٌ ما من نومه. وكان يقف أمام سريره، كالشبح، بلزاك في طيلسانه الأبيض، ويأمره بالنهوض، قائلاً إنه قد آن الأوان للشروع في العمل.

وينهض لاسيّي المسكين الذي لم يكن معتاداً على قَلْبِ بلزاك لمواعيد النهار والليل، متنهّداً، فلا يجرؤ على مقاومة سيده ومُغذّيه الجديد، ويضطر، وهو على ماهو عليه من النعاس والتشوُّش، إلى أن يدع بلزاك يتلو عليه خطته، حتى الساعة السادسة. وفي هذه الساعة يسمح له بلزاك بالذهاب إلى فراشه مرة أخرى، وفي النهار، وبينما يعمل بلزاك في روايته، يفترض فيه هو أن يصمِّم المشاهد الأولى لكي يقوم بعد ذلك، في الليل، بعرض النصّ الأول من أجل المعالجة المشتركة.

في منتصف الليل! لقد انتاب لاسيّي المسكين الخوف، وساءَ نومُه، وساء عمله، بالطبع، بدرجة أكبر بفعل مجرد الخوف من هذا الأجل اللامعقول. وفي جلسة منتصف الليل يُرْفَض النصُّ الفاجع الذي يأتي به، ويُؤْمَر بعمل جديد. وعبثًا ينهك لاسيّي دماغه المستنفدَ القوى بضعة أيام، ولكن الطعام الجيد ماعاد مستساغًا بالقياس إلى العبد المسكين، إذ حُرِمَ النوم من جراء وعيه أنه سيضطر إلى المناقشة منذ منتصف الليل إلى الصباح، وذات ليلة، وكان بلزاك يتقدم من سريره يكون العامل معه قد هرب، ويجد بلزاك، بدلاً منه، رسالة على منضدته.

«إنني أشعر بأنني ملتزم بالتخلي عن عمل خَصَصْتني به بثقة فائقة منك. لقد أجهدت نفسي الليلة بأسرها، ولكن لم يخطر ببالي شيء يمكن أن يكون له قيمة فيستحق أن يُدَوَّن ويكون متماشيًا مع الشروط المسرحية الخاصة بمشروعك، على أني لم أجرؤ على أن أقول لك هذا بنفسي، ولكن ماعاد يجدي أن آكل خبزك، فأنا يائس كل اليأس، إذ ثبت لي أن عقلي عقيم. لقد كانت فرصة جميلة للغاية، وكانت لديّ الإرادة المثلى التي تحملني على أن أتحرَّر بخبطة واحدة، ومن دون أيّ توقُّع، من كل صعوباتي.

ويأتي هذا الهرب من الخدمة مفاجئًا إلى الحد الذي لا يدع لبلزاك وقتًا للبحث عن متعاون معه، ولذلك يضطر بلزاك إلى أن يستكمل بنفسه مسرحية «الآنسة الأولى Premi`ere Demoiselle» أو كما ستسمى فيما بعد «مدرسة الفنون التوفيرية L'École des ménages»، لكي يُحَصِّل السلفة الموعودة البالغ قدرها ستة آلاف فرنك من مسرح النهضة (Renaissancetheater). وبينما يكون في صدد العمل في الفصل الأخير، يبدأ مالا يقل عن عشرين منضِّدًا، في وقت واحد، في تنضيد الفصل الأول، لمجرد أن يتمكَّن من إبرام العقد على جناح السرعة، وبذلك يستطيع أن يقدِّم الولادة المبكِّرة بعد أيام قلائل، ولكن لا يكون لبلزاك بُدٌّ أن يعرف أن مدراء المسرح لا يحفِلون على الإطلاق بمجد كاتب روائيّ، وأنهم يحسبون حسابًا للتقارير القادمة من صندوق شباك التذاكر على نحو مماثل لما يفعل بلزاك إذ يُدْخِل في حسبانه مبالغ السُّلْفة التي سيحصل عليها، ويرفض المدير ببرود قبول المسرحية. وتضيع المائة ألف فرنك التي يحلم بها، هباءً منثوراً، مراراً، إذ تُسْفيها رياح الواقع، ولم يكتب بلزاك شيئًا آخر سوى حكاية جديدة من «أوهامه المفقودة».

وقد كان أي امرئ سواه خليقًا أن يشعر بالإذلال والمهانة، وتفتر عزيمته، ومع ذلك ففي حالة بلزاك لا تسفر ألوان الإخفاق إلاّ عن استفزاز طاقات تتضاعف ضعفين، بل عشرة أضعاف. وهل كان غير ذلك في رواياته؟ أَلَم يُرْفض أوَّل الأمر أيضًا، وأُغْرِيَ، على مدى السنين، بتثبيط همته؟ بل إن طبيعته الخرافية ترى في هذا الإخفاق الأوَّل ضمانًا معينًا للنجاح في المستقبل. «سوف أمشي في مساري في المسرح، على نحو مماثل لتقلُّبي في مراتب الأدب، إذ يُرْفَض عملي الأول».

وإذًا فليبادِرْ إلى كتابه مسرحية جديدة! وليبرم عقداً جديداً!».

على أن المسرحية الجديدة لن تكون أفضل مع وجود أسلوب بلزاك الذي لا يقبل أن يتَّعظ أو يتعلَّم، وهو أن يضفي القالب المسرحيّ على روايات وأحاديث

بدلاً من أن يكتب مسرحية حقيقية ولكن العقد أفضل في هذه المرة، وذلك أنه حين حنكَّته تجربته الأولى ماعاد يعرِّض نفسه للإذلال المتمثل في ردٍّ مخطوط له، إذ يترتَّب على مدير مسرح بورت سان مارتان، هاريل، أن يلتزم سلفًا بقبول العمل الجديد الذي لم يكتب بعدُ أبدًا، وعَرْضِه على الفور. وقد بلغ بلزاك من خلال مصادفة سعيدة، أن هاريل في حاجة مُطْلَقة وملحة، وسريعة، إلى مسرحية جذّابة للجمهور، ولذلك يقترح عليه تحويل روايته «ڤوتران» إلى مسرحية، ويشتعل هاريل على الفور حماسة. وكان ڤوتران شخصية بالغة الشعبية بفضل «الأب غوريو» و «الأوهام المفقودة، حتى إنها لم يكن لها بُدٌّ أن تثير حماسة جارفة حقيقية ولا سيما حين يمثلها فريدريك ليميتْر. وأخيراً تآلف وَهْمان، وهم الكاتب المسرحي، ووهم مدير المسرح، تآلفًا أخويًا، ويتم التوقيع على عقد، وبات كلٌّ من المضاربَيْن يقدِّر لنفسه ربحًا يقدر بالألوف التي لا تحصى.

وفي هذه المرة يُقْبل بلزاك على عمله بطاقة وهمَّة أكبر، ولكي يظل ممسكًا بزمام مدير المسرح بيده، يغادر مسكن «ليجاردي» بضعة أسابيع، ويتخذ لنفسه مسكنًا لدى خيّاطه بويسون في شالرع ريشيليو، على بعد خمس دقائق من المسرح، ليستطيع أن يشهد كل تجاريب مسرحيته، ويُعِدَّ العُدة للنصر الكبير على نحو موضوعي، ويهيّئ الصحافة سلفًا، ويوعز بإعداد إعلانات ضخمة، ويتشاور مع الممثلين، ويبادر كل شيء «بشجاعته التي تتجاوز حدود البشر». وكان الناس يرونه في كل يوم في ثوب عمله، من دون قبعة، في سراويل رديئة فضفاضة، وقد تدلَّت الألسنة الجلدية من النعلين، وجثا على ركبتيه ليتشاور مع الممثلين في المشاهد المؤثِّرة بوجه خاص، أو ليحجز لنفسه مقاعد لدى أمين الصندوق، من أجل كل معارفه، لأنه يبني حسابه منذ البداية على أن حفلة العرض الأول يفترض أن تَحْشُدَ كل باريس الأرستقراطية والفكر. ولا ينسى إلاّ مسألة صغيرة واحدة في وسط هذه الجَلَبة: وهي أن يكتب المسرحية ذاتها. وكان قد سرد على المدير الأسطورة على

وجه التقريب وعلَّم كل ممثل على حِدة، ولكن بات من الواجب الآن أن تبدأ التجاريب بصورة جديّة، ومازال لا يوجد في يد هاريل مخطوط، وما من ممثل رأى النصّ، ويعِدُ بلزاك بأن يحصلوا على الأمرين معًا خلال أربع وعشرين ساعة، ويقول إن كل شيء جاهز منذ عهد بعيد ومن شأن كل ما تمّ تصميمه أو التخطيط له أن يبدو في نظر بلزاك دائمًا، حقيقة وواقعًا ويقول إن من الممكن أن تبدأ التجاريب غداً.

أما كيف يريد بلزاك أن يَفْرَغ الآن من كتابة مسرحية في خمسة فصول خلال أربع وعشرين ساعة فذلك ما يصفه صديقه المخلص، تيوفيل غوتييه، وهو أحد القلائل الذين لا يستطيع المرء أن ينظر إلى أقاصيصهم نظرته إلى أقاصيص مشحونة بأمور هي فوق ما تحتمل، فقد دعا بلزاك هيئة أركانه المقرَّبين، المؤلفة من أربعة أو خمسة من أصدقائه الذين يعتمد عليهم، إلى مقرِّه الخاص عند الخياط بويسّون من أجل مناقشة مستعجلة مُلِحّة. وكان آخر من ظهر تيوفيل غوتييه الذي يحييه وهو يضحك ضحكة عريضة، بعد أن كان نفد صبره، وأخذ يروح ويجيء في طيلسان الراهب، كالأسد في القفص، قائلاً:

«وأخيراً ها أنتذا أقبلت، يا صاحبناتيو! أيها الكسلان، المتسكِّع، يا نَؤوم الضحى-، ألا فلتعجِّل الآن! لقد كان ينبغي لك أن تكون هنا قبل ساعة! ينبغي لي أن أقرأ في الغد، على هاريل مسرحية كبيرة في خمسة فصول!»

ويلي ذلك الآن مشهد مُسَلٍّ ممتع رواه غوتييه في كتابه «صُوَر»:

ونجيب قائلين: «وإذاً فأنت تريد الآن أن تستمع إلى نصيحتنا المبنية على الخبرة الفنيّة؟». ونقعد على نحو مريح شأن أناس يستعدّون لتلاوة طويلة، وقد قرأ بلزاك، من خلال موقفنا، ما نفكرُّ فيه، غير أنه لم يزد على أن قال وعلى وجهه أكثر الملامح براءةفي الدنيا: «المسرحية لمّا تُكْتَب بعدُ على الإطلاق»، ورددْت عليه بقولي: «اللعنة على الشيطان، إذاً فلا بدَّ من تأجيلِ ستة أسابيع»، وقال بلزاك

«كلاّ، فسوف نُفَبْرِكها الآن بسرعة لكي نستطيع أن نسحب المال. وعليَّ التزام مُلِحّ لا بُدَّ من تغطيته». «ولكن هذا لا يمكن أن يتمْ حتى الغد، فليس لدينا الوقت حتى من أجل نسخ المخطوط» «لقد رتَّبْت كل شيء: سوف تكتب أنت فصلاً، و أورلياك يكتب الفصل الثاني، ولوران- جان يكتب الفصل الثالث، و دي بيلوا يكتب الفصل الرابع، وأنا أتولّى الفصل الخامس، وفي ظهيرة الغد سأتلو المسرحية على هاريل حسب الاتفاق. والفصل الواحد يتألف، على أبعد تقدير، من أربعمائة سطر إلى خمسمائة، وهذه السطور يمكن أن يكتبها المرء، على نحو مريح، في يوم وليلة». وقلت له، وقد اعتراني الذهول إلى حدٍّ ما:

«إذًا فلتَسْرُدْ علينا الحدث ولْتُفَصِّلْ لنا المخطط، ولترسم لنا الخطوط العريضة للشخصيات وسوف أُقْبِلُ على العمل بعد ذلك».

وصاح بلزاك قائلاً، بروْعة غلاّبة، وازدراءٍ للتفاصيل يفرض الاحترام: «لو كان عليَّ أن أسرد الموضوع أوّلاً لما انتهينا أبدًا!»

ولم نكن قَصَدْنا، بسؤالنا عن المضمون، إلى حماقة أوطيش أو إفشاء سِر. ولكن بلزاك أحسَّ بذلك، على ما يبدو، إحساسه بمسألة تنطوي على العبث والمكر. وأخيراً اضطرَرْناه، بجهد بالغ، إلى أن يفضي إلينا ببعض اللَّمَحات حول الموضوع، ثم تمت صياغة شكل مائع من أشكال السيناريو، بأسلوب الهواة غير المختصين، لم يتبقَّ منه إلاّ كلمات قلائل، بالصياغة النهائية. على أن المسرحية لم تُقْرَأ، كما يستطيع كل امرئ أن يتصوَّر، عند ظهر اليوم التالي. ولم يعرف أحد من المتعاونين ماذا فعل الآخرون، ولكن الوحيد الذي كانت يده في اللعبة على نحو جدِّي فعلاً، كان لوران- جان، الذي جعل بلزاك إهداء المسرحية إليه.

ويستطيع المرء أن يتصوَّر، بعد هذه المقدمة، كيف ستكون نتيجة المسرحية. فخلال مائة عام من المسرح الفرنسي لم يجرِ تلفيق مسرحية بائسة كمسرحية «ڤوتران» هذه التي كان هاريل قد بَشَّر بها، سلفًا، على أنها رائعة كبرى من

الروائع، لكي يتفادى الإفلاس. وعبثًا يشتري بلزاك نصف المقاعد. ففي الفصول الثلاثة الأولى يظل مزاج الجمهور باردًا كالجليد، بل منزعجًا متضايقًا، على أن الأصدقاء الحقيقيين يشعرون بعدم الارتياح إذ يعلمون أن اسم بلزاك يرتبط بهذه المهزلة المصحوبة بكل الضجة، و «المُفَبْرَكَة» بأسلوب فجّ متبذَل، كما يزعجنا حتى اليوم أن نرى بعدُ هذا التشويه المضحك لشخصية عظيمة مطبوعًا في المجموعة الكاملة بلزاك. وفي الفصل الرابع تنفجر عاصفة السخط والاستياء على نحو مكشوف. وعند ظهور ڤوتران جنرالاً مكسيكيًا اختار فريدريك ليميتر شعرًا مستعارًا يضاهي الشعر الحقيقي للويس فيليب إلى حد يثير الشبهة. ويأخذ بعض الملكيين في الصفير، ويغادر أمير أورليانز مقصورته بأسلوب استعراضي، وينتهي العرض بجلبة مطلقة العنان.

وفي اليوم التالي يحظر الملك المسرحية التي ما كان يجوز لبلزاك أبدًا أن يسمح بعرضها، ولكي يُحْمَل بلزاك على الصمت يعرض عليه مدير وزارة الفنون الجميلة، سرًا، تعويضًا يبلغ خمسة آلاف فرنك مقابل الحظر، فيرفضها بلزاك بإباء على الرغم من أن الديون تطارده، ليستنقذ، على الأقل، انتصارًا أخلاقيًا من هذه الهزيمة الباعثة للتفجُّع، ولكن حتى هذه الكارثة لن تستطيع أن تُعَلِّم ذلك الذي لا سبيل إلى تعليمه. وسيجرب حظه مرة أخرى، وستسقط أيضًا مسرحيتا «الوسائل المساعدة للوغد اللئيم» و «باميلاجيرو». وهما أفضل بمقدار درجة، وفي حالة المسرحية الوحيدة «النصّاب» التي لا تعد لائقة بعبقريته تمامًا، لا يشهد بعدُ عرضها. وفي كل مرة تنتقم الأعمال لنفسها عند ما يبحث عن أعمال خارج نطاق عمله الحقيقيّ. وهو يفكر، وقد انتابته الكآبة، كم كانت حكيمة كلمة هاينه الفكاهية، وكان هاينه قد نصح له، حين لقيه في الشارع العريض المشجَّر، قبل عرض «ڤوتران»، نصيحة الصديق، بالبقاء في إطار الرواية:

«ألا فلتحاذرِ! فإنّ من اعتاد الاستحمام في حمام بريست لا يطيب له ذلك في حمّام طولون. ولا بُدَّ لك أن تظل في حدود حمّامك القديم».

على أن بناء «ليجاردي»، ومناجم الفضة في نوراً، و «فَبْركة» المسرحيات- هذه الحماقات الثلاث الكبرى يُظْهِرْن أن ابن الأربعين حولاً ظل ساذجًا، مغتبطًا بالثقة بنفسه، وغير قابل للتعلُّم، مثلما كان ابن العشرين والثلاثين، وقد أصبحت حماقاته، مثل عمله الفني، أقرب إلى أن تكون متفاقمة في أبعادها، وأَحْفَلَ بالخيال، وأكثر توجُّهًا بالغريزة، وأكثر عناداً وإثارة للضحك وأكثر شيطانية. أمّا نحن، الذين تُسَهِّل المسافة عليهم وضوحَ النظر، فلا يليق بنا أن نكون مثل معاصريه الذين لم يولُوه الاحترام، إذ أنساهم غرورهُ نظرته الثاقبة ورؤيته الواضحة وأَنْسَتْهم حماقاتُه المدمِّرة أعماله الإبداعية. وذلك أن بلزاك هو نفسه يستأنف، في السنوات ذاتها التي كانت الصحف فيها تحفل بالنكات اللاذعة حول مزارع الأناناس في «ليجاردي»، وكان رسّامو الكاريكاتير والصحفيون والجمهور يستمتعون فيها بضروب إخفاقه في المسرح، إبداعَه في عمله الرئيسي، «الكوميديا الإنسانية»، ويواصل، في غمرة المضاربات بالعقارات، تأسيس جريدة جديدة، ويستأنف، فيما بين الدعاوى والقضايا، بناء عالمه الخاص، برباطة الجأش ذاتها، والجَلَد ذاته، وفي الوقت الذي كان العمال فيه يضربون بمطارقهم، وكانت جدران مبنى «ليجاردي» تنهار فيه، يفرَغ من القسم الثاني، العظيم، من «الأوهام المفقودة»، ويعمل في الوقت ذاته في تتمّة «تألُّق المحظيّات وبؤسِهِن»، وفي «حجرة التحف- Cabinet des antiques»، وفي رواية «بياتريس» البعيدة المدى، التي لم تكن موفَّقة كل التوفيق. وهو يكتب أعمالاً بالغة الاكتمال، مثل الرواية السياسية «قضية غامضة- Une ténébreuse affaire»، والرواية الواقعية الصيادة في الماء العكر « La Rabouilleuse»، ورواية «مذكرات امرأتين حديثتَيْ عهدٍ بالزواج- Les Mé-moires des deux jeunes- mariées» وإلى جانب ذلك الرائعة القصصية الموسيقية «ماسّيمليا دوني»، و «العشيقة الزائفة La fausse Maitraisse» و «أورسولا ميروييه- Ursula Mirouet» و «ز. ماركا، بيريت» و «ابنة حواء»، و «سر الأميرة دي كادينيان» و «إلهة الشعر في الريف» و «الشهيد الكالڤيني» و

«بيير غراسّو»، وفوق ذلك اثني عشرية من المقالات، وفضلاً عن ذلك أعمالاً تمهيدية من أجل «خوري القرية» و «شذَرات من حياة صغار البائسات في الحياة الزوجية». وفي مرات عديدة تشتمل أربع سنوات عاصفة على عمل فني يمكن أن يعني لدى كاتب آخر، في حجمه ووزنه الأدبي، الإنجاز المجيد خلال حياةٍ بأسرها. وما من شيء من البلبلة الخارجية يتسرَّب إلى حلم اليقظة الإبداعي في هذا العمل، ولا يمكن الإحساس بطَوْرٍ واحد من الأطوار الغريبة التي يكثر الضَحِك منها، في كيانه، في إطار ما تنطوي عليه أفانين إبداعه من التركيز الكامل، وهي التي يتفوَّق بعض منها على كل ما سبقه في إحكام التأليف وترابطه، والإمساك بزمام الأسلوب الذي يكون في العادة، وفي كثير من الأحيان، مهلهلاً يتسم بالإطْناب، ومن هذه: «ماسيميليا دوني» و«بيير غراسّو» و «قضية غامضة» و «إدارة منزل العزّاب» و «العشيقة الزائفة»، وتبدو المسألة كما لو أن المرارة الخفيَّة من جراء خيبات الأمل وألوان الإخفاق كانت تمتصُّ، شأن الحمض الباعث للارتياح والتفريج، ماهو حلو وعاطفيّ، في كل مكان، رُوَيْدًا رويداً، وهو الحلو العاطفيّ الذي يَدَعُنا نشارك في الإحساس، في أعماله الأولى، بمذاق العصر، المُجانِب للحقيقيّ من حيث نزعته الرومانسية، وكلّما أوغلت خطواته في الحياة ازدادت القسوة التي تتعرَض الحياة له بها، وازداد بلزاك واقعية، وهو يتغلغل في الأحوال والعلائق، بنظرة تزداد حِدَّةً وإرهافًا وسوءَ ظنٍّ على نحو مطرد، ويُطِلُّ على الملابسات والسِياقات بمعرفة تزداد تنبؤية على نحو مطرد. ويُعَدُّ بلزاك، ابن الأربعين أقرب إلينا اليوم منه في الثلاثين، إذ قَرَّبته السنوات العشر إلينا قرنًا من الزمان.

ولكن حتى بهذه الأعمال، أي منجزات العمل العملاقة هذه، مازالت طاقة التوتُّر وقوة الشكيمة والهمة والعزيمة لم تُستَنْفَدا بعدُ في تلك السنين. وحين يكون بلزاك حبيس الجدران الأربعة في عمله، يرى ما وراء ستائره المُسْدَلَة رؤية أكثر يقظة من كل الآخرين في الدنيا. وتستثيره مرتين أو ثلاث مرات، فكرة اختبار فعاليته

ونشاطه على محك هذه المادة الحية. وفي باريس حاول، آخر الأمر، بعض الكتاب، أن يتحدوا للحفاظ على حقوقهم، وأسَّسوا جمعية أهل الأدب، وهي رابطة صغيرة ضئيلة لا حَوْلَ لها، كانت تجتمع في بعض الأحيان حول مائدة، وتدوِّن قرارات على الورق، تظل نتيجة لخمول المشاركين، مجرد حبر على ورق يعلوه الغبار في خزائن أضابير الوزارات. وبلزاك أول من يدرك أن الكتاب، إذا اتحدوا بالفعل وكانوا واعين لرسالتهم، يمكنهم أن يمثِّلوا قوة، ويحاول، بطاقته ذات العنفوان، أن يُكَوِّن من هذه التركيبة المهلهلة سلاحًا جِدِّيًا لحماية الحقوق الأدبية- وهنا أيضًا يستبق عصره، كما هو الحال في كل تصوُّراته، عقوداً من الزمان، بنظرته المرهفة الثاقبة إلى العصر.

ولا يكون بلزاك أبدًا أكثر انطواءًا على الطاقة وأكثر وعيًا لهدف، مثلما يكون حين يشعر بالمرارة. وقد كان لديه سبب يحمله على الشعور بالمرارة، بصفته الشخصية. وذلك أن كل كتاب يُعْمَدُ إليه، وهو بعدُ طَرِيٌّ من أثر الطباعة، فيُعاد طبعه في بلجيكا من قبل القراصنة الذين لا يدفعون له قرشًا من الأجور، ويُغْرِقون العالم كله بهذه الطبعات الأرخص، لأنها متحررة من دفع الأجور للكاتب مع تنضيد حروفه بطريقة تنطوي على أقصى قدر من الإهمال والتهاون. ولكن بلزاك لا يتناول هذه الحالة بشخصه، فما يهمه هو شرف الطبقة ومركزها أمام العالم، فيصمم القانون الأدبي لجمعية رجال الأدب الذي ظل، في جمهورية الأدب، وثيقة تحاكي، في مكانتها التاريخية، وثيقة إعلان حقوق الإنسان الخاصة بالثورة الفرنسية، ووثيقة إعلان الاستقلال الخاصة بالجمهورية الأمريكية، وهو يلقي المحاضرات في روان، ويحاول، المرة بعد المرة، أن يَلُمَّ شمل الكتاب من أجل تصرُّف موحَّد، ولكن أشكالاً من المقاومة تنجم، وتنشأ منازعات حول سفاسف الأمور، وينسحب بلزاك من المجتمع الذي لم يكبُرْ بما يكفي ليتلاءم مع أفكاره ولم يكن فاعلاً بما يكفي ليتلاءم مع دافعه وعنفوانه، وإنما هو تكرار لا يتغيَّر: ففي عالم الواقع يظل هذا الرجل الذي هو الأشدُّ بأسًا في قرنه على الإطلاق، من دون أثر.

وكان مقدَّرًا لبلزاك أن يَبْلُوَ هذا مرة أخرى أيضًا في هذه السنين. وذلك أن رجلاً ما، من موثِّقي العقود، يُقال له باتيل، وهو شخصية غامضة، حُكم عليه بالإعدام بالمقصلة من قبل المحلَّفين بسبب قتله زوجته وخادمه، وكان ذلك بحق، كما تشير كل العوامل المُرَجِّحة. ولمّا كان باتيل يجد نفسه، على الدوام، في أشكال من الحرج المادّي، فقد لجأ في النهاية، وهو صحفي سابق، إلى الزواج من إمرأة حَوْلاء، ولكنها مَيْسورة الأحوال، يُقال لها كريولين، ولكن كانت الشائعات غير السارّة تدور حول حياتها السابقة، بل كان يقال إن خادم والديها كان عشيقًا لها، وتُقْتَل معه ذات ليلة لدى عودتها إلى البيت من مكان مجاور، ويُضْطَر باتيل، الذي يُشَدَّد عليه النكير في الاستجواب، إلى الاعتراف بأنه قتل الخادم، على أن قتل العشيق كان من الممكن أن يُعْذَرَ فيه، ولكن المحلَّفين يتفقون على رأي مفاده أن باتيل استغل الفرصة السانحة للتخلص من زوجته ليستحوذ على ميراثها.

وكان بلزاك قد عرف باتيل هذا، في بداياته، زميلاً في مجلة «لوڤولير» معرفة جيدة وتثير هذه القضية اهتمامه من الناحية السيكولوجية. وربما استثاره أيضًا مسألة متابعة التقليد الذي استهلَّه ڤولتير في حالة كالاس، وزولا بعد ذلك في حالة دريفوس بروعة بالغة: الأديب الفرنسي بصفته من روّاد الكفاح من أجل الحق، ومدافعًا عن الأبرياء والتعساء، فيتخلى عما يمثل عنده التضحية القصوى، وهو عمله، ويرتحل، مع غاڤارني إلى بيلّيه، ليتحدث إلى المحكوم عليه، ويقنعه خياله الذي يتسم بسهولة الالتهاب بأن طلقات باتيل إنما صدرت دفاعًا عن نفسه، على سبيل الحصر، ولم تصب الزوجة الهاربة إلاّ من طريق المصادفة. وعلى الفور يكتب مذكرة يسلمها إلى محكمة الاستئناف، وهي قطعة من الروائع في إرهاف حسِّها القضائي، وفي منطقها الخاص بعلم الجريمة، غير أن محكمة الاستئناف تنظر إلى التقديم الذي لم يحدث من قبل جهة رسمية على أنه شيء لا وجود له، ولا تنجز سوى الشكوى الخاصة بالبُطْلان المقدَّمة من قبل المدافع المُعَيَّن، ويُوَجَّه اللوم إلى هذا

أيضًا، كما يوجه إلى التماس الرحمة المقدَّم إلى الملك. ويتكبَّد بلزاك الذي بذل الوقت والمال، وكل حماسته وعاطفته من أجل هذه القضية، هزيمة جلية واضحة. ويُعْدَم باتيل.

ويُقَدَّر، مرةً ثالثة، للرجل الذي يظل الفهم عنده صعبًا على الدوام، في إطار عاطفته وهواه، أن يُلَقَّن الدرس مراراً، لكيلا يجرِّب طاقته التي لا تكون فعّالة إلاّ في إطار ماهو غير واقعيّ، في الواقع. وكانت السنوات الأربع اللواتي انْصَرَمْن كافياتٍ لكي يُنْسِينه كارثة «حوليات باريس»، والفرنكات البالغ عددها خمسة عشر ألف فرنك أو عشرين ألف فرنك التي كلفته إياها جريدة النَّحْس هذه. على أن بلزاك لا يستطيع أن يقمع على المدى البعيد، إرادته التي تنزع إلى الإفصاح، في الوقت الملائم مباشرة، عن أفكاره السياسية، والأدبية، والاجتماعية. ولما كان، من ناحية أخرى، متعبًا من التوجُّه المرتبط بالصحف، إذ يعلم أنَّ كل كلمة مستقلة يجري تشويهها، وتحريفها، أو كتمانها، إذ كان قد استعدى عليه، بموقفه المستقل، المحررين، وأعضاء هيئات التحرير، فإنه يضطر، لكيلا يغرق من جراء الفيض والطوفان، إلى أن يتخذ لنفسه بوقًا من حين إلى آخر.

وفي هذه المرة يسميه «المجلة الباريسية- Revue Parisienne»، ولا يشك في النجاح، إذ عقد العزم على أن يحرر المجلة كأنه وحده تقريبًا. أَوَلَن تسمع باريس، ولن يصغي العالم حين يُفْصِح هونوريه دي بلزاك، السياسي والمفكر الوحيد، الحر، المستقل في فرنسا، عن آرائه السياسية في كل أسبوع، وعندما يتحدث هونوريه دي بلزاك، ماريشال الأدب، بنفسه، عن كل الكتب والمسرحيات الجديدة ذات الأهمية، وعندما ينشر بلزاك، الروائي الأول في أوروبا، هناك، أقاصيصه ورواياته؟ وبهذه الطريقة فحسب يمكن أن يتحقق النجاح- أي عندما لا يَدَع شيئًا للآخرين. وما يقتضي في العادة عمل خمسة من البشر، يتولاه بلزاك وحده، بينما يُجري، في الوقت ذاته، تجاريب في المسرح، ويكتب الروايات أيضًا، ويتولى

الإدارة المالية، ويحررِّ الصحيفة وحده، ويكتبها وحده، ويقرأ تجاريب الطبع، ويتفاوض مع الطابعين، ويلاحق المنضِّدين ويستحثهم، ويتفقد التنفيذ في إدارته، وهو يتصبَّب عرقًا من الصباح الباكر إلى الليل، في ثوب مفتوح، ويتصاعد منه البخار، وهو يخبط الأرض بخطواته القصيرة، نازلاً من حجرة التحرير إلى ورشة التنضيد، ثم عائداً، صاعداً من ورشة التنضيد إلى إدارة التحرير، في غمرة الجَلَبة، ليكتب، وهو يقعد إلى منضدة متَّسخة، في أكمام قميصه، على وجه السرعة، مقالة، وليصدر التوجيهات في الوقت ذاته، ويعرف أحدُ الزوَّار مصادفة واتفاقًا أن ذلك الرجل البدين المُرَبْرَب، المتَّسخ، في ثيابه المهلهلة، الذي يقرأ وهو جالس إلى المنضدة، تجاريب الطبع، والذي يحْسَبُه عامل تنضيد ضئيل الشأن، هو بلزاك، الكاتب الشهير وسيد القصر الأسطوري، قصر ڤيل داڤريه.

ويظل بلزاك ثلاثة أشهر يعمل بهذه الطريقة، وما يكتبه من أجل هذه الصحيفة خليق في ربع السنة هذا، أن يملأ وحده، ثلاثة أو أربعة من المجلدات العادية. ولكنه سرعان ما سيفقد وهمًا من أوهامه، فلا باريس، ولا العالم، يريد أن يعرف ماهية تفكير هونوريه دي بلزاك في السياسة، كما أن نظراته الأدبية والفلسفية، والاجتماعية، لا تثير الاهتمام على وجه الخصوص. وبعد ثلاثة أشهر يتخلى بلزاك عن صحيفته، ويضيع سُدىً، مرة أخرى بَذْلٌ للطاقة لا مثيل له.

ومع ذلك فلم يكن هذا عبثًا خالصًا، ولم يكن بغير نتيجة على الإطلاق، لأنه لو لم يَرِد في الصحيفة الباريسية، خلال الشهور الثلاثة شيء سوى مقالة بلزاك الواحدة عن «ديربارم» لستندال "Chartreuse de parm" لكان لها فضلها الكبير على الأدب الفرنسي، ولم يسبق قطُّ لأسلوب بلزاك السَمْح، والشهْم، وللنظرة الثاقبة المرهفة الباعثة للدهشة في فهمه للفن أن تجلَّتا على نحو أكثر عظمة وجلالاً مما هما عليه في هذا الإعلان الذي يضاهي النشيد عن كتاب لا يُعْرَف عنوانه البتَّة، لمؤلف لا يُعْرَف اسمه على الإطلاق، ولا نملك، في الأدب العالمي، إلاّ القليل من

الأمثلة على مثل هذه الرِفاقية الحَدْسيّة (Intuitive Kameradschaft) . ولكي يتمكَّن المرء من إيلاء التقدير اللائق لتلك العفوية التي يُسَلِّم بها هنا الروائي الأكبر في فرنسا قاطبة، أكبر رفاقه في الكفاح، في مضمار الرواية، عن رضى وطيب خاطر، قصب السَّبْق، ويحاول- وهو يستبق الزمن هنا أيضًا بمقدار مائة عام أن يرتقي به إلى المقام الرفيع، الذي يليق به، لابد للمرء أن يقدِّر المكانة الظاهرية لكلا الرجلين في إطار عصرها حقَّ قدره. ففي عام ١٨٤٠ تمتد شهرة بلزاك من إحدى نهايتَي أوروبا إلى النهاية الأخرى، وفي مقابل ذلك يكون ستندال مجهولاً كل الجهل حتى إن القوم ليسمّونه، عند رثائه، على قدر ما تستطيع الصحف أن تنجز هذا الرثاء على وجه الإطلاق، باسم ستنهال، بدلاً من ستندال، ويذكرون اسمه الحقيقي على أنه بيل، بدلاً من بايل. أما في إحصاءات الكتاب الفرنسيين فلا يذكر بينهم على الإطلاق، ويذكرون بالثناء والتمجيد، والمديح واللَّوْم، والوصف الكاريكاتوري، أسماءاً مثل ألفونس كار، وجول جانين وساندو، وبول دي كوك، وكُتّابًا من أهل الجدِّ والاجتهاد، ماعاد أحد يعرف اليوم شيئًا من كتاباتهم وبينما تباع من أعمالهم المصطنعة، عشرات الآلاف من النسخ، يباع من كتاب ستندال «عن الحب»، اثنتان وعشرون نسخة، حتى إنه ليسميه، هو نفسه، من باب التهكم، «كتابًا مقدَّسًا، لأن أحدًا لا يجرؤ على مَسِّه. على أن كتاب «الأحمر والأسود» لا ينتهي، في أيام حياة ستندال، إلى طبعة ثانية.

وكل النقاد المحترفين يمرّون بستندال مرور الكرام في جملة من يمرّون بهم، ويقرأون لهم. على أن سانت بوف لا يجد أن مما يستحق بذل الجهد أن يعرب عن رأيه عند ظهور رواية «الأحمر والأسود»، وحين يفعل ذلك فيما بعد، يحدث ذلك بطريقة تنطوي على الازدراء البالغ. «شخصياته خالية من الحياة، وهي مجرد آلات ذاتية الحركة (Automat) تمَّ تركيبها بالتكرير والتنقيح والتهذيب». أما مجلة «غازيت دي فرانس، فتكتب قائلة: «المسيودي ستندال ليس مجنونًا، على الرغم من أنه

يكتب كتبًا تنطوي على الجنون، أمّا ثناء جوته في أحاديثه مع إيكرمَن فلا يُعْرَف إلاّ بعد موته بزمن طويل، غير أن بلزاك لاحظ، بنظرته الثاقبة، حتى في أعمال ستندال الأولى، الذكاء الخصوصي وأستاذيّة هذا الرجل وتفوقُّه في علم النفس، وهو الذي لم يكن يكتب الكتب إلاّ في بعض الأحيان، بصفته «هاويًا»، من أجل متعته وتسليته، ويطبعها من دون طموح حقيقيّ، وينتهز بلزاك كل فرصة لكي يقدِّم فروض الاحترام لذلك المجهول: ففي «الكوميديا الإنسانية» يذكر «عملية التبلور» في الحب، التي كان ستندال أول من وصفها، ويشير إلى كتبه من رحلاته في إيطاليا، ولكن ستندال أكثر تواضعًا من أن يدنو من بلزاك، الكاتب الكبير، بالاستناد إلى هذه الإشارة الودية، بل لا يبعث إليه حتى بكتبه، وكان من حسن الحظ أَنْ تَوَلّى هذا صديقه المخلص، ريمون كولومب، لكي يلفت نظر بلزاك إليها مع رجاء التفضُّل بقبول هذا الكاتب الذي يجهله الناس جميعًا، ويجيبه بلزاك على الفور (في ٢٠ آذار ١٨٣٩):

«لقد قرأت لتوي، في مجلة (Constitutionel) مقالة فيها شاهد من «ديربارم» ولقد أفعمت نفسي بحَسَدٍ دائم. والحق أن حمّى الغيرة استحوذت عليَّ أثناء مطالعة الوصف الرائع، والصادق، لمعركة. لقد ظللت أحلم على الدوام بشيء كهذا من أجل كتابي «مشاهد من الحياة العسكرية»، وهو الجزء الأكبر صعوبة من أعمالي، وقد أثارت هذه القطعة حماستي، وبعثت في نفسي المزاج السوداوي، وسحرتني، ودفعتني إلى اليأس. وأقول لك هذا بصراحة كاملة.
وأرجو أن لا يتولاّك العجب إذ لم أنزل على رجائك أول الأمر بعدُ. ولابُدَّ لي أن أعمل على تأمين الكتاب كاملاً، ولتكن على يقين من إخلاصي وصدقي، وسأقول لك ما الذي أفكر فيه في هذا الصدد، لقد جعلتني هذه الشَّذْرة كثير المطاليب».

وقد كان خليقًا أن يثير حفيظه كل امرئ لم يُؤْت هذا القدر من العظمة، أن يرى نفسه يُسْتَبَق إلى وصف المشهد الرئيسي من روايته المُقْبِلة، وهو وصف معركة

نابليونية، من قبل امرئ آخر بمثل هذا القدر من الأستاذيّة والبراعة الفائقة. وكان بلزاك يحلم، منذ عشر سنوات، بهذه الرواية، رواية المعركة (La bataille)، وكان هو أيضًا، يريد أن يقدّم آخر الأمر وصفًا واقعيًا، مستقيمًا، تاريخيًا، يتمتع بالمصداقية، ويكون في الوقت ذاته مع ذلك، مرئيًا، بدلاً من الوصف البطولي، العاطفي، ولكن ستندال هو الذي فعل ذلك الآن، ويأتي هو متأخراً، بعد فوات الأوان. ومن شأن الغنى الداخلي أن يجعل الفنان شهمًا سَمْحًا، ومَنْ كان يشعر أنه مازال أمامه مائة خطة ومائة عمل فني، فلن يكدِّره، ولن يمسَّ حبه لنفسه أن يبدع معاصر آخر، على النحو ذاته، عملاً من الروائع، ويشيد بلزاك بـ «دير بارم» على أنها عمل من الروائع، هو الأكبر في عصره، ويطلق عليه اسم رائعة الأدب الذهني التأمُّلي (La littérature a idée)، ويدرك، إدراكًا صحيحًا كل الصحة، أنَّ:

«هذا العمل الكبير لم يكن من الممكن ابتداعه وتنفيذه إلاّ من قبل امرئ يبلغ من العمر خمسين حولاً، في سن فيض الطاقة الكاملة عنده، ونضج كل موهبته.

ويقدم تحليلاً فائق البراعة للحدث الداخلي، ويبْرِز مدى الروعة التي وصف بها بلزاك الروح الإيطالي في كل أشكاله ومتغيِّراته. ومازالت كل كلمة من كلماته تتمتع بالمصداقية والاعتبار حتى يومنا هذا.

ومما يؤثر في النفس اندهاش ستندال وفزعه، حين يشعر، وهو في قفره الموحش في سيڤيتا ڤيكشيا، حيث يؤدي عمله قنصلاً، وهو لا يعرف شيئًا عن هذا المقال، بما يود المرء أن يصفه بأنه غارة عليه، ولا يصدِّق عينيه في البداية، وكان قد اقتصر، حتى الآن على مجرد اللّفظ اليسير، المتواضع، حول عمله، وفي هذه المرة يكون ذلك صوتُ رجل يبجِّله، وهذا الرجل يحييه تحية الأخ للأخ، ويحسُّ المرء بتشوُّشه الكامل من خلال الرسالة التي يوجهها إلى بلزاك إذ يَقْسُر نفسه على أن يجعلها متحفظة:

«لقد كانت هذه مفاجأة، مساء أمس، يا سيدي. ولم يحدث قط، فيما أعتقد، أن نوقش كاتب في مجلة النحو. لقد تبنَّيْت طفلاً يتيماً، كان مُلْقىً في وسط الشارع، وهو يشكر لكم مقالتكم التي هي أدعى المقالات التي تلقّاها، في أي يوم من الأيام، كاتب من كاتب آخر، للدهشة».

ولكنه يتقبَّل الأخوَّة المعروضة عليه بالرؤية الواضحة التي تستشرف المستقبل، والتي تضاهي رؤية بلزاك من الوجهة الفنية، وهي أُخوَّة ذلك الذي رُفِض قبوله في الأكاديمية، مثلما رفض قبوله، هو نفسه، بازدراء، وهو يحس بأن كلَيْهما يبدع من أجل عصور أخرى، غير عصرهما.

«وبعد الموت نتبادل الأدوار مع أولئك الناس. وما دمنا أحياء فإن لهم سلطانًا على جسدنا الفاني، ولكن في لحظة الموت يكون قد طواهم النسيان إلى الأبد».

وإنها لإشارة رائعة، تلك الكيفية التي يعرف بها فِكْرٌ ما، الفكرَ الآخر دائمًا بفضل التشابه الخفيّ في المادة، ومن الرائع أن يسمع المرء بالكيفية التي ينظر بها هذان كلاهما، أحدهما في عيني الآخر، بسكينةٍ وهدوء، واطمئنان، ويقين متفوّق، في تجاوز لطنين أدب العصر الكادح المجتهد وجلَبته. وقلَّما تجلَّت نظرة بلزاك السحرية على نحو أروع مما تجلَّت به هنا، حيث يُميِّز، من بين الألوف المؤلفة من كتب عصره، هذا الكتاب الواحد، المجهول أكثر من كل ما سواه، ويشيد به. ولكن الدفاع عن ستندال لم يحقق نجاحًا، مثلما كان الحال في الدفاع عن باتيل، فمثلما يُدان هذا من قبل المراجع القضائية، يُدانَ ذاك من قبل كل المراجع الأدبية، ويُدَسُّ في التراب، بلا مجد. وهنا أيضاً ظلت المرافعة اللاهبة مهملة لا يُلْتَفَتُ إليها، وكانت عبثًا، مادامت كل مأثرة أخلاقية عظيمة يمكن أن تكون تسميتها من قبيل العبث، سواءً أصابت نجاحًا أم لم تُصِبْه:

عبثًا! عبثًا! عبثًا! لطالما قال بلزاك هذه الكلمة لنفسه، ولطالما عاشها وعاناها. لقد بات الآن في الثانية والأربعين، وقد كتب مائة مجلَّد، وأبدع ألفي

شخصية، بينها خمسون أو مائة لا يتطرَّق إليهن النسيان، من دماغه الذي لا يقِرُّ له قرار. لقد شيَّد عالمًا، ولم يَهَبْ له العالم شيئًا لِقاءه، وهو الان، بسنواته الاثنتين والأربعين، أكثر فقراً مما كان عليه في شارع ليدينيير، قبل عشرين عامًا. لقد كانت تراوده في تلك الأيام أوهام من فوقها أوهام. أمّا الآن فقد تبدَّدت، إنها ديون تبلغ ضعف المائة ألف فرنك: وهذه محصِّلة عمله. لقد خطب ودَّ نساء فلم يجُدْن بأنفسهن له، وبنى منزلاً فارتهنوه وأخذوه، وأسس صحفًا فانهارت وجرَّب أعمالاً وتجارات فأخفقت وبارَت، ونازعته نفسه إلى أن يتبوأ مكانًا في الإدارة البرلمانية لبلاده، فلم ينتخبوه، ورشَّح نفسه للأكاديمية، فرفضوه، وكان كل شيء عبثًا أو يبدو عبثًا ما يقوم به. فهل يستطيع الجسد، والدماغ الذي أثقلته الحمى، والقلب الذي تنهال عليه السياط، أن يصمد بعدُ زمنًا طويلاً، لهذه المزايدة على نفسه والإفراط في التشديد عليها وتحميلها الأعباء؟ وهل تتوافر له بالفعل أيضًا، المقدرة على استكمال عمله الفنيّ، الكوميديا الإنسانية؟ وهل يستطيع أن يخلد إلى الراحة مرة أخرى، شأن الآخرين من البشر، وأن يضرب في الأرض، ويكون خالي البال؟ ولأول مرة ينتاب بلزاك فقدان الجرأة، ويفكر ويقدر جاداً، في مغادرة باريس، وفرنسا، وأوروبا، والهجرة إلى البرازيل، ويقال إن ثمة امبراطوراً هناك يقال له دوم بيدرو، سوف ينقذه ويعرض عليه مُستقراً ومقُامًا. ويطلب بلزاك أن تُرْسَل إليه كتب عن البرازيل، ويحلُم، ويفكِّر. ذلك لأنه يشعر أن الأمور ما عادت تستقيم على هذا النحو، ولا بُدّ أن تحدث معجزة لإنقاذه من عمل السخرة العبثي، ولابد أن يأتي شيء ما، بين عشية وضحاها، يحرره من عمل السخرة العبوديّ في قارب المجاذيف الخشبي القديم، ويهب له التحرُّر من التوتر، بعد فيض التوتر الذي طفح به الكيْل فما عاد يُطاق.

أتراها تأتي، في الساعة الأخيرة بعدُ، هذه المعجزة؟ وحتى بلزاك، صاحب الأوهام الخالد، ماعاد يجرؤ على الأمل، وإذا الخادم يدخل عليه، ذات صباح، في

الخامس من كانون الثاني عام ١٨٤٢، حين ينهض عن مكتبه، بعد ليلة حافلة بالعمل، بالرسائل، وبينها الخط الذي كان مألوفًا لديه تمامًا، ولكن المظروف مختلف عما كان عليه في العادة: مجلَّل بالسواد، ومختوم بالأسود، فيفضُّه. لقد كتبت إليه مدام دي هانسكا تقول إن السيد فون هانسكي قد مات، والسيدة التي خُطبَت إليه والتي بات مخطوبًا لها، أرملة ووارثة ملايين، وتحقق الحلم الذي بات نصف منسيّ، فجأة. وهنا تبدأ حياة جديدة. الآن تبدأ الحياة، الجديدة، السعيدة، الوادعة، الخالية من الهموم. لقد بدأ وَهْمُ بلزاك الأخير، الأخير الذي سيعيش من أجله والذي سيموت فيه.

الكتاب الخامس

كـاتب الكوميديـا الإنسانيـة

الفصـل التاسـع عشـر

الكفـاح من أجل مدام دي هانسـكا

وتعد رسالة الخامس من كانون الثاني عام ١٨٤٢ المنعطف الكبير، الأخير في حياة بلزاك فها هو ذا الماضي يتحول، مرة واحدة، إلى حاضر ومستقبل، واعتباراً من هذه الدقيقة تندفع إرادته الهائلة صوب هدف واحد: وهو أن يجدِّد الارتباط القديم بمدام دي هانسكا ويحوِّل الخطبة إلى زواج، والوعد إلى إنجاز.

وهذه الرغبة تقتضي على أية حال، تعبئة غير عادية، ذلك لأن علاقاته بمدام دي هانسكا كانت تغدو شكلية، باردة وبعيدة عن الصدق، على نحو مطَّرِد الزيادة، ولا سبيل إلى قَسْرِ الطبيعة على المدى البعيد. وكان بلزاك ومدام دي هانسكا لم يرَ أحدهما الآخر طوال سبع سنين، ولم يستطيع بلزاك أن يأتي إلى ڤيرتسخوفنيا نتيجة لمصاعبه المالية، وربما نتيجة لارتباطه بالكونتيسة فيسكونتي، ولم تستطع مدام دي هانسكا، بدورها، أن تحمل زوجها على رحلة جديدة، كانت خليقة أن تمكِّنها من لقاء مع عشيقها، أَوْ لم تُرِدْ ذلك. ولمّا كان الحب يحتاج، على مرِّ الزمن إلى حضور الحبيب وقربه، مثلما يحتاج اللهب إلى الأوكسجين الذي يبعث فيه الحياة، فقد كانت العلاقة تَفْقد صفتها العاطفية شيئًا فشيئًا. وعبثًا يجتهد بلزاك، في رسائله، في العثور على لهجة الوَجْد القديمة، إذ لم تكن تبدو لهجة أصيلة كل الأصالة، وما من أحد يحسّ بالحرارة المصطنعة إحساساً أوضح من إحساس مدام دي هانسكا، إذ تعلم، عن طريق أقربائها ومعارفها في باريس أن الكونتيسة فيسكونتي تقيم إلى جانب بلزاك بحيث يقع بابها قبالة بابه، في مبنى

«ليجاردي». وكان الهرب مع مدام ماربوتي قد لفت الأنظار إلى حد مفرط. والناس يتفهّمون استياء مدام دي هانسكا من عدم صدق بلزاك الذي يحاول، بشكاواه اليائسة من الوحدة، ومن ديونه، وهمومه، ثم بتوكيداته، مرة أخرى، لإخلاصه الأبدي، أن يُبْعِد عن نفسه، أمامها، هذه الحقائق بخفة ساحر أو رشاقة بهلوان. وشيئًا فشيئًا تخالط مراسلتها نبرة من المرارة، ويبدو أن مدام دي هانسكا لا تستطيع أن تخفي سخطها واستياءها من أنَّ بلزاك يطلب منها أنْ تصدّق بالفعل أيضًا أفانين وصفه لحياة الرهبنة، والإعراض عن الدنيا، والاقتصاد، التي يعيشها، ويبدو أنها عبَّرت عن شكِّها في صدقه تعبيراً واضحًا إلى حد بعيد، لأن بلزاك، المطارَد من قبل دائنيه، والمستَنفد القوى من جراء عمله، وربما أيضًا، في إطار وعيه أنه لا يمارس معها لعبة نظيفة كل النظافة، يردُّ على الضربة بعنف. فهو لا يستطيع أن يحتمل أن تُعَرِّض له امرأة تعيش حياة مريحة ناعمة مع زوجها، وربما كانت حياتها مملّة، ولكنها هادئة مع ذلك وخالية من الهموم، بـ «أفانين شططه ومجاوزَتَه للحدود، بل يصرخ في وجهها غاضبًا:

«أنا أرجوك، دَعي عنك نصائحك وألوان تقريعك، وماذا عسى أن يجدي هذا مَنْ كان الماء يتلاطم فوق رأسه، ومن يُضْني نفسه لكي يعود فيعوم على السطح! ألا إن الأغنياء لا يفهمون أبدًا البشر التعساء»

بل يردُّ بما هو أعنف، ذات مرة، عندما تتحدث عن «الاستهتار «الطبيعي» في شخصيته: «ولماذا أُعَدُّ من أهل الخفة والاستهتار؟ أتُرى ذلك لأنني أمضي قدمًا، ومن دون راحة، في عملي الأدبي الذي لا تُحَدُّ أبعاده بحدود؟ أم لأنني لا أعرف منذ عشر سنين، سوى علاقة غرامية واحدة، أم لأنيّ أعمل في الليل والنهار، منذ اثني عشر عامًا، لكي أسدِّد دينًا هائلاً حَمَّلَتْنيه ُأمي بحساباتها المبنية على عدم التفهُّم؟ أوَ أُعَدُّ من أهل حياة الاستهتار لأنني لم أختنق بعد على الرغم من كل التعاسة، ولمّا أَحرِقْ دماغي، ولم أرمِ بنفسي في الماء؟ أتراني، حقًا، شخصية

تعيش حياة الاستهتار! إنك لتقولين هذا بالفعل مثلما يقوله بورجوازي يرى نابليون في ميدان المعركة وهو يتلفَّت يمينًا وشمالاً، وإلى كل الاتجاهات، لكي يتعرَّف على الأرض، يقول هذا: «هذا الرجل لا يستطيع أن يظل في مكان واحد! إنه لا يحمل فكرة ثابتة!»

وفي النهاية أصبحت هذه المراسلة مراسلةً بين عاشقَين لم يرَ أحدهما الآخر على مدى سبع سنوات، وانفصل كل منهما عن الآخر في حياته الخاصة ووَطَّن نفسه على هذه الحياة منذ عهد بعيد، وكان لمدام دي هانسكا ابنة ناشئة صاعدة، وبذلك أتيحت لها صديقة كانت تثق بها ثقة أكبر مائة مرة من ثقتها بالمُبالغ الناري، وما عادت في حاجة إلى مجادلة، ولم يكن لديها ما ترويه عن حياتها المضمونة، والمحدَّدة بحدود دقيقة، ويبدأ بلزاك، النافد الصبر الكبير الذي أضناه طول الانتظار، في نسيان الخطبة، التي يبدو أنها لن تصل إلى غايتها أبداً، وفي عام ١٨٣٩ يكتب إلى زُلْما كارّو يلتمس منها أن تفكرّ فيه إذا ما عثرت، في مكان ما على امرأة تملك ضعف المائة ألف، أو مجرد مائة ألف من الفرنكات «مع افتراض إمكان جعل الدوطة ذات سيولة من أجل أعمالي». وكان الحلم بالأميرة قد انتهى بالنسبة إليه، لأن ملايين السيد فون هانسكي تظل لدى السيد فون هانسكي بحزم وتصميم. وبات يريد، بدلاً من نجمة القطب، أية امرأة، أية واحدة تسدِّد عنه ديونه، وتتسم بمظهر لائق، وتكون ملائمة لأن تكون سيدة المنزل في «ليجاردي». لقد تراجع الواقعيُّ في عامه الأربعين، عن شطحاته الخيالية، وما عاد إلى مطلب أيام صباه القديم: «امرأة وثروة».

والحق أن المراسلة خليقة أن تكون الآن منتهية، وكان من الممكن أن ينضب معينها كتلك المراسلة مع الأمينة المخلصة زُلْما كارّو التي أصبحت غير مريحة بالقياس إلى بلزاك، على النحو ذاته لأنها كانت تطالبه بقَدْرٍ من الصدق أكثر مما ينبغي، ولكن كلتيهما، أي مدام دي هانسكا التي ربما كانت تحب المراسلة مع بلزاك

أكثر مما تحب بلزاك، والتي تحولَت هذه الخدمة الذليلة التي تؤديها في كل يوم، شأن عامل المُياومة، لأكبر أديب بين الأحياء إلى ما يقارب أهمَّ شيء في حياتها، والأخرى، لم يكن لديها سبب لقطع هذه العلاقة، أما بلزاك فقد تحوَّل التصوير الذاتي المتواصل، عنده، إلى عادة، فهو يحتاج إلى من يستطيع أن يَسْرُدُ عليه همومه، ويصف أعماله، ويحسُبَ له ديونه، مع الإيضاحات. ومثلما كانت هي تفكر على نحو مبهم، في الحفاظ على هذه المراسلة، يستمتع هو أيضًا بأن يطمئن إلى بقائها في أي مكان سرِّي، ولذلك يظل كلاهما يكتب إلى الآخر، وذلك، بالطبع، مع تضاؤل تواتر الرسائل، وازدياد نُدْرَتها على نحو مطرد، فكان بلزاك يشكو، حينًا، من «ندرة رسائلها»، ومن «المسافاة الفاصلة بين رسائلها»، وتشكو هي، حينًا آخر، بدورها، من نُدْرَة الحالات التي يكتب فيها، وعلى أثرَ ذلك ينطلق مرة أخرى، قائلاً: كيف يمكن أن تكون مراسلتها موجودة على الإطلاق، وتضاهي مراسلتَها بمراسلته. ويقول إنها تعيش في شكل من أشكال الوحدة متناهٍ في عمقه، ومن دون أن يكون لديها ما تصنعه، بينما يُضْطَرُّ هو، الذي يظل يعاني أبدًا من ضيق الوقت، مرهقًا، منهكًا من الكتابة والتصحيح على مدى خمس عشرة ساعة، إلى أن يختلس كل صفحة من رسالة له، من عمله الفني، أي من عمله المأجور، ومن نومه، ولا يتردَّد، وهو رجل الأعمال الذي لا سبيل إلى شفائه، في أن يبلغها، أن رسالة مُطوَّلة إليها، هي المليونيرة، تكلِّفه، وهو الرازح تحت عبء الديون، مائتين، أو ثلاثمائة، أو خمسمائة من الفرنكات يمكن أن تعود عليه بها الكمية المماثلة من الصفحات المكتوبة في صحيفة أو في كتاب، ويقول إنه، بناءً على ذلك، ليس بالكثير أن تكتب إليه كلَّ أربعة عشر يومًا. وحين تجيبه، على أثر ذلك، على ما يبدو، بأنها لا تكتب إذا لم يكتب إليها، رسالةً مقابل رسالة، يهدرُ في وجهها مُرْعِدًا:

«واعَجبًا لك، إني لأجد أنك معنية بصغائر الأمور إلى حد فائق، ومن هذا يتبيَّن لي كم أنتِ في الأساس ذات تَوَجُّه ماديّ. أنتِ لم تكتبي إليّ لأن رسائلي

أصبحت أَنْدَر. وقد كنت، بلا ريب، قد أصبحت أكثر ندرة في رسائلك، وذلك، ببساطة، لأن المال لم يكن مُتاحًا لي لكي أدفع أجر الرسالة، وهذا مالم أكن أريد أن أقوله لك. أجل لقد بلغت بي الأمور إلى هذا المدى، بل إلى ماهو أسوأ، وفيها ما يكفي من إثارة الفزع والأسى، ولكنها الحقيقة- التي لاشك فيها مثل وجود أوكرانيا التي تعيشين فيها. أجل، لقد كان ثمة أيام كنت ألتهم فيها، وأنا مفعم بلَذْعِ الجوع، كِسْرة من الخبز في الشارع العريض المُشَجَّر.»

وكانت المهاترات اليسيرة بينهما تزداد حدة على نحو مطرد، كما يزداد طول فترات التوقُّف بين الرسالتين، ولأول مرة- وعلى وجه الخصوص قبل تلك الرسالة الحاسمة- ينقضي ربع عام، من دون أن يتناول بلزاك قلمه ليكتب إليها، ويُحِسُّ المرء أن كليْهما مستثار ضد صاحبه، وأن كلاً منهما قد أخذ يجد الآخر خاليًا من المحبَّة، أو خاملاً، أو غير صادق. وكلٌّ يلقي باللوم على الآخر فيما يتصل بمسألة أنَّ هذا التراسُل، الذي يبدأ بنبرة عالية، بالغة العنفوان، سريعةٍ، لَهْفى، قد فَقَد حرارته وحُمَيَّاه، وهو يهدِّد بالنضوب البطيء.

وفي الحقيقة لم يكن الذنب يرجع إلى هذا ولا إلى ذاك، بل كانت مجانبة الطبيعة وعدم الصدق تكمنان في جوهر علاقتهما، التي كان يُقَدَّر لها في البداية فترة وجيزة، ثم ارتباط نهائي قريب. وفي إطار هذه الخطبة الغريبة التي تتمُّ من وراء ظهر الزوج، الذي سيظل بعد ذلك على قيد الحياة، فرضت مدام دي هانسكا على بلزاك شرط الإخلاص، أو طالبته، على الأقلّ، بإشباع حاجاته الجسدية عن طريق المحترفات، وأن لايسترسل. بحال من الأحوال في أية علاقة غرامية جدِّية ولو بصفة جزئية، مع امرأة أخرى، وقد كانت مثل هذه المصادرة ممكنة التحقيق في حالة الأجل الذي يمتد ثلاثة شهور، أو ستة، غير أنها تصبح عبثية، أولا معقولة، في حالة خطبة ذات مدى زمني غير محدود، على أن غَيْرة السيدة فون هانسكا وهي الغيرة التي لم تكن تمثِّل في الأساس شيئًا سوى تمرُّد كبريائها، تأخذ في إثارة الشعور بالمرارة في نفس بلزاك.

ويكتب إليها بعد كذب ولفٍّ ودوران وصمت طويل، قائلاً:

فلنواجه الأمور ذات مرة بوضوح.

«الرجل لا يكون، في النهاية، امرأة. فهل يستطيع المرء أن يتوقع منه أن يظل يحيا حياة العفة الكاملة من عام ١٨٣٤ إلى عام ١٨٤٣؟ وأنتِ تعلمين من هذه الأمور ما يكفي لكي تفهمي أن هذا خليق أن يؤدّي، من الوجهة الطبية الصِّرفة، إلى العجز والتبلُّد، لقد قلتِ في وقتها: «لااعتراض لي على أية فتاة كانت»، وقد كان هذا خليقًا أن ينتهي بي إلى حالة كتلك التي تعرَّض لمثلها صديق جورج في روما، وإذا شئت أن تقدِّري المسألة تقديراً منصفًا فسيكون عليكِ أن تدخلي في حسابك مدى إلحاح الضرورة التي لابد أن تتسم بها الحاجة إلى التحويل والإلهاء بالنسبة إلى إنسان من أهل الخيال، مع عمله الأبدي، وبؤسه، إلخ. وليس أمامك في الأساس ما تأخذينه عليَّ إلاّ القليل من الأخطاء، وتريدين أن تعاقبيني عليها بقسوة بالغة! وإذا أردتِ أن تتحدثي عن هذه الأشياء التي سَلَفَت فلا ينبغي لك أن تفعلي ذلك إلاّ لكي تشكي من أننا كنا منفصلين. وها نحن أولاءِ قد التقينا من جديد، ونحن نتحدث فلا ينتابنا الكلل.

ولكن عبثًا. فمدام دي هانسكا التي أتيحت لها، بلا ريب، فرصة لكي تستيقن بشخصها من أصالة هذا العشيق المهجور تظل، في إطار هذه العلاقة، قابلة للاستثارة على نحو غير معقول، وبدلاً من أن تغفر، من دون مضاعفات، لابن الخمسة والثلاثين حَوْلاً، وللرجل ابن الأربعين، الذي لا يُعَدُّ آخر الأمرزير نساء محترف، بل يُشْهِد العالَم كله، بعمله العملاق، وجدِّيته، على تفانيه الفكريّ، على أن علاقتَه بالكونتيسة فيسكونتي، ومن باب أولى، علاقته من خلال رحلات الهَرَب، مع مدام دي ماربوتي، وهيلين دي ڤاليه، وبعض النسوةِ غيرِ معروفاتِ الأسماء، تشهد على عدم ثباته، واستهتاره، على نحو لا ينقطع. وكانت المرأة ذاتها، التي تعيش مع زوجها في بُلَهْنِيَة العيش، والتي لم تقدِّم أدنى تضحية منذ

سنين، تطالب الفنان المُسْتَحَثّ المُطارَد، المترنّح في سكْر أبديّ، من عمل إلى عمل، بأن يعيش عَيْش الرهبان فيما يتصل بالجنس، وعَيْش موظف ضئيل الشأن، في البريد، فيما يتصل بالجانب المادي، وأن لا يجودَ على نفسه بتخفيف لحدة التوتر ولا ترف، ولا مغامرة، بل هي الكتابة، والكتابةُ من بعدِ الكتابة، والانتظار من بعد الانتظار، إلى أن تقرر، ربما، ولكن ربما فحسب، بعد موت الفارس فون هانسكي، أن تكافئ شاعر التروبادور المفعم حرمانًا، على صبره واحتماله. وما من شك في أن مدام دي هانسكا على الحق في كثير من الجوانب. فبلزاك غير مستقيم إلى الحد الفائض في الرسائل الموجَّهة إليها، وبدلاً من أن يصرّ، بوضوح وصراحة، على حريته الرجولية، والإنسانية، وبدلاً من أن يعترف بحقه في أن يعيش حياته وفقًا لنواميس طبيعته، يتكتّم في رسائله، على كل ماهو حقيقي وجوهري، ويتَستَّر منها ليخرج في صورة أكثر المنعزلين عزُلَة، ويلُفّ ويدور في صدد علاقته بالكونتيسة فيسكونتي كما يفعل تلميذ في مدرسة يخشى تأديب المعلم. إنه لا يعرف كيف يضع، في مواجهة تبعية لا سبيل إلى تفسيرها، وفي مقابل مطاليبها التحكُّمية، الجرأة الرجولية الحَقّة، وفي مواجهة ألوهيَّتها الريفية الأرستقراطية، كرامةَ الفنان. ولكن بلزاك ينطق بالحقيقة في وسط كل مَساربه وأكاذيبه، بلا ريب، عندما يؤكد لمدام دي هانسكا، المرة بعد الأخرى، أنه لا يبتغي مغامرات، بل على النقيض، إذ يتوق إلى الخروج من عالم المغامرات في حياته، ويحِنُّ إلى السكينة والثبات. ويأخذ إرهاق يسير يَفُتُّ في عضد ابن الأربعين حَوْلاً، إذ يَشمئزُّ من الكفاح الأبديّ مع الناشرين، ومدراء التحرير، والصحفيين، وماعاد يريد أن يضطر، في كل شهر، وفي كل أسبوع، إلي أن يحسُبَ ويساوِمَ، ويطيل الأمد ويصرّ من جديد. إنه يريد الآن وهو الذي ظل، منذ عشرين عامًا، يُطَوَّح به في الأعالي ويُقْذَف به في الحضيض، في وجه العاصفة دائمًا، في وجه الخطر دائمًا. لقد شبع من النساء اللواتي لا يستطيع أن ينالهن، على وجه الخصوص، إلاّ في فترة توقُّف قصيرة، مختَلَسة من العمل، وسئم من هذه المغامرات مع الاختباء

والتخفّي، وكان يتعرّض في العادة، فوق ذلك، للتسمُّم من جراء الأعمال والتجارات ويعيش في ظل وجود زوج متلطّف مجامل، أو لايدري شيئًا. ويكتب، في الرابع من أيلول عام ١٨٣٨، إلى الصديقة زلْما كارّو، قائلاً: «أقْسم لك على أنني ودَّعت كل آمالي، وكل حاجاتي المُتْرَفة، وكل مطامحي! أنا أودُّ أن أعيش حياة قسيس القرية، حياة بساطة كحياة أهل الريف. وإن امرأة في الثلاثين تأتي معها بثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف من الفرنكات، وتحبني، لخليقة أن تجدني على استعداد للزواج منها، على أن تكون رقيقة رفيقة، حسنة المظهر. وإنها لخليقة أن تسدِّد عني ديوني، وأنا خليق أن أجنِي بعملي، خلال خمس سنوات، هذا، المال من جديد.

وكان يحلم بأن تكون هذه المرأة، في الحقيقة، إيڤلينا دي هانسكا.

ولكن كان يغدو من المستحيل، شيئًا فشيئًا، أن يظل مدة أطول من هذا، يقف كل حياته لعشيقة تقيم على مسافة ألف ميل منه، وربما ما عادت، منذ عهد بعيد، هي ذاتها التي رآها قبل ست سنوات أو سبع، ونالها، وذلك أن نجمة القطب أبعد من أن تضيء حياته وتبعث فيها السكينة والسلام. وفي عام ١٨٤٢، أي في عامه الثالث والأربعين، ماعادت الخطبة التي ارتبط بها في عام ١٨٣٣ حقيقية. ومن دون أن يُلاحَظ ذلك تأخذ «الزوجة الغرامية» تكتسب، من جديد، صفة «المجهولة»، أو «امرأة الأحلام» التي يصف لها الحياة التي يحلم بها، وحتى هذا ما عادَ له ذلك السحر الذي كان بالأمس، لأنه تحوّل إلى عادة، إذ ما عاد يمارس ذلك بعدُ إلاّ في بعض الأحيان، وبما يشبه اللامبالاة تقريبًا، وحتى هو، صاحب الأوهام الأكثر جموحًا في عواطفه، ماعاد يؤمن بوهَم الارتباط بمدام دي هانسكا. لقد ولّى، وانقضى أيضًا، هذا الحلم بالحب والملايين، ألا بُعْدًا له، وليَذْهب مع «الأحلام المفقودة» الأخرى.

وإذا هذه الرسالة تأتيه، فجأة، في صباح الخامس من كانون الثاني، مختومة

بالأسود، وتبلغه أن السيد فوْن هانسكي رحل عن هذه الدنيا في العاشر من تشرين الثاني عام ١٨٤١، هذه الرسالة التي تدفع الدم إلى قلبه بضربة واحدة وتهزُّه هزة يبلغ منها أن يديه ترتجفان. لقد حدث ذلك الذي لا يمكن تصورُّه، أو، بالأحرى، هذا الذي ماعاد يجرؤ على التفكير فيه منذ سنين، والمرأة التي وعد نفسه بها، أصبحت فجأة حرة، فهي أرملة تملك كل الملايين التي كان يحلم بها. إنها الزوجة المثالية له، النبيلة، الشابّة، الذكية، الأنموذجية، المرأة التي ستحرره من ديونه، وستردُّه إلى عمله من جديد، وستربيّه ليكون قادراً على الإنجاز الأقصى، وترفع من شأن سمعته، وتهدِّئ ثائرة نزعته الشهوانية، المرأة التي أحبَّته وأحبَّها، والتي عاد يحبُّها من جديد ذلك الحب الجامح القديم، في هذه الثانية التي تبعث الكهرباء في أوصاله، بعد نسيان طويل. هذه الصفحة الواحدة من الورق تغيِّر حياته، وإنه ليحسُّ بذلك على الفور، وكل ما كان يأمله، ويحلم به، وينتظره، يكتسب، فجأة، شكلاً وقواماً، إنه شخصها، وإنه ليعلم أنه ماعاد أمامه سوى شيء واحد يعمله، وهو أن يُحْرِز هذه المرأة، التي سبق له أن نالها ذات مرة، فينالها الآن إلى الأبد.

إنها هذه الاستثارة والانفعال العميق-، وإن المرء ليشعر بذلك من خلال الرسالة التي يجيبها بها. وبلزاك لا يتصرَّف بصدق وذكاء ورجولة فحسب، بل بما هو أكثر من ذلك، فهو يتصرف تصرُّف المستقيم المخلص، حين لا يعلن، بعد هذا، فجأة، عن ميل كبير إلى الراحل، ولا يحاول، بالرياء أن يعزي عن الخسارةِ الزوجةَ التي يعلم عنها أنها لم تكن تحب الزوج إلاّ حبًا فاتراً، أَوَلَم تكن تحبه على الإطلاق، ولا يُشيد، بكلمات متكلّفة، بأية مكْرُماتٍ للراحل، بل يَرُدُّ عن نفسه شيئًا واحداً، وهو أن يكون تمنى موت هذا الغريب على الرغم من كل رغبته في زوجته.

«أمّا أنا، يا معبودتي الحبيبة، فإن هذا الحدث يسمح لي، بالطبع، أن أفكر في الهدف الذي لبثت أتوق إليه منذ عشر سنين، غير أني لا أستطيع، على الرغم

من ذلك، أن أقول أمامك، وأمام الله، بإنصاف، أنه لم يكن في قلبي قطُّ فكرة أخرى سوى الاستسلام الكامل للقدر، وأنني لم أُلَوِّثْ قط نفسي بالرغائب الدنيئة، حتى في أشد التصوُّرات قسوة. وبالطبع فإن المرء لا يستطيع أن يكبت انفعالات معينة لا شعورية. ولقد طالما قلت لنفسي: «كم ستكون الحياة سهلة- معها!». وذلك أن المرء لا يستطيع أيضًا، ببساطة، أن يغالب إيمانه، وقلبه، ومجمل كيانه الداخلي».

ولم يكن هناك سوى شيء واحد يحسُّ به على أنه سعادة في هذه الانعطافة، وهو أنه بات في وسعه، منذ الآن فصاعداً، أن يكتب إليها «بقلب مفتوح، وهو يؤكِّد لها أنه لم يتغيَّر فيه شيء، وأنها حياته، منذ أيام نوشاتيل، ويتوسَّل إليها، قائلاً.

«أكتبي إليَّ، وقولي إن وجودك كله يعود إليَّ، وأننا سنكون الآن سعداء، سعداء لا تخيِّم على سمائنا سحابة».

والآن باتت الرسالة تقفو الرسالة. وبالقياس إلى بلزاك عادت الخطبة حقيقة من جديد بين عشيَّةٍ وضحاها. وانبثق الحب الذي كان مندثراً على نحو بالغ السوء، فجأة، متحولاً إلى هوى جامح. وأيُّ شيء يمكن أن يقف بعدُ في طريق ارتباطهما النهائي؟ وبات يرى كل شيء، دفعة واحدة، بعينين مختلفتين، وحتى نفسه ذاتها، وهو الذي كان وصف نفسه، حتى قبل عام، في رسائله التي كانت تعزف، في اللاشعور، على وتر الكآبة والوحدة، بأنه شيخ، أدركه المشيب وتَعِبَ، وبات بدينًا، غير قادر على الإمساك بزمام فكرة، يعاني من نوبات دماغية واحتشاءات، يرسم أناه للعروس التي يحلم بها بأكثر الألوان إغراءًا، ويتوارى شعر المشيب، والتعب دفعة واحدة.

«وفي رأسي، على أقصى تقدير، بضع شعرات بيض متفرّقة، فقد حفظني عملي فأَحْسَنَ حفظي، بغض النظر عن امتلائي، ولكن هذا أمر لا سبيل إلى

اجتنابه على أية حال في حالة رجل يمارس طريقة الحياة قاعداً، ولا أعتقد أني تغيَّرت منذ أيام ڤينا، أما قلبي فقد ظل شابّاً وأمّا جسدي فقد حافظ على حسن حاله مع حياة الرهبان الصارمة التي أعيشها، وأخيراً فإن أمامي خمسة عشر عاماً تظل تنتمي إلى الشباب بمعنىً ما، كما هو الحال عندك، يا حبيبتي، وإني لخليق أن أتخلى، بسرور، عن عشر سنوات من عمري، إذا أمكن لهذا أن يؤدي إلى أن تأتي ساعة التقائنا من جديد خلال أجل أقرب!»

وكان خياله بات يتمرَّس بالعمل بالسرعة المعتادة على مدى حياته المستقبلية بأسرها. أما ابنتها فينبغي أن تلتمس، على وجه السرعة، «زوجاً ذكياً وبارعاً» وأن يكون زوجها «غنيّاً قبل كل شيء، لكي تسمح ثروته لهما بالاعتماد على مبلغ ثابت فوق حقوقها» وقال إنها «تغدو بذلك حرة من حيث المادّة، مثلما هي الآن حرة له من ناحية القانون والأخلاق، ومن أجل حياة مشتركة، كما كان يحلم بها، بل أجمل مما كان يجرؤ على الحُلُم به، ولكن لا ينبغي للمرء الآن أن يفوِّت وقتاً فحسب، ولا شهراً، ولا أسبوعاً، ولا يوماً!، إذ إنه يريد أن يرتِّب على الفور أموره كلها، وينتقل إلى درسدن، ليكون أقرب إليها هي المحبوبة بلا حدود، ويقول إنه على استعداد كما لم يكن أبداً، في أي وقت مضى، وإنه يحبها، كما لم يُحْبِبْها بعدُ أبداً! وإن المرء ليشعر بأن شيطان اللَّهفة هذا لم ينتظر شيئاً في حياته، مثل هذا الانتظار الملهوف، كما انتظر الكلمة الوحيدة أن تخرج من بين شفتيها: «تعال!».

وأخيراً، وبعد ستة أسابيع، أي في الحادي والعشرين من شباط، يأتي الجواب. ونحن لا نعرفه بنصّه، فقد أُتْلِفت هذه الرسالة مع كل الرسائل الأخرى الخاصة بالمجهولة، غير أننا نعرف ما يتضمنه، إنه «لا» صريحة، لرغبته في المجيء إليها على الفور. وبرزانة جليدية تفسخ السيدة فون هانسكا الخطبة، على وجه الخصوص في اللحظة التي يتلهَّف فيها بلزاك على الموافقة المسلَّم بها تلهفُّه على أمر بَدَهيّ، فهي تكتب إليه قائلة بوضوح حاسم: «أنت حر!»، وتسوق بالتفصيل،

على ما يبدو، أسباب هذا، إذ تقول إنها ما عادت تثق به، وإنه لم يستجب قطُّ، خلال سبع سنوات، لرغبته في رؤيتها، غير أنه كان يملك الوقت والمال، ليسافر مراراً إلى إيطاليا ويضاف إلى ذلك أنه لم يكن وحده، وأنه، بهذا، وبما عداه أيضاً، ضَرَبَ عرض الحائط بشروط خطبتها، وأن المسألة انتهت، على نحو نهائي حاسم، وإنها لا تريدُ، من بعدُ، سوى أن تعيش لابنتها، وأن لا تهجرها أبداً، ولو أن بنيَّتي المسكينة انتزعت مني إذًا لَمِتّ!» إنها لا تريد أن تقسِّم نفسها. ولابدَّ أن هذا كان، كما يحسُّ المرء بذلك من جواب بلزاك اليائس، جواباً قاسياً كالبلطة التي تحطم، بضربة واحدة، كل آماله من جذورها.

أوَكانت هذه الـ «لا» من قبل مدام دي هانسكا. صادقة وحاسمة، أم كانت مجرد وسيلة لاختباره، أم هي حيلة المرأة المزهُوَّة بنفسها والمغرورة، لكي يزداد إلحاحًا في التماسها فحسب؟ إنه سؤال خطير يصعب البتُّ فيه، يفضي إلى صميم العلاقة المعقَّدة بأسرها ويضطر المرء إلى البحث في مشكلة موقف مدام دي هانسكا من بلزاك، بدءاً من الأساس!

إنه البحث المصحوب بكل الحذر والترَوِّي السيكولوجي، وليس بالطريقة المبتذلة البعيدة عن الدقة والإرهاف، أي بالطريقة التي تنزع إلى رد العقدة بأكملها إلى الخيار المبتذل: أكانت مدام دي هانسكا تحب بلزاك؟ أمَ كانت لاتحبه؟ وذلك أنَّ أمثال وِجْهات التبسيط هذه مريحة بمقدار ماهي أحاديّة الجانب، كما تعدُّ، من أجل ذلك، غير صحيحة، وغير منصفة في صدد علاقة كانت، في ظاهرها وفي باطنها، حافلة بالمعوقّات والتناقضات. وذلك أن الحب الجارف، الجامح من قبل امرأة يقتضي، قبل كل شيء، مقدرة لا حدود لها، على التفاني والتضحية، وبهذا المعنى لم تكن مدام دي هانسكا مؤهَّلة لحب- أو على الأقل لحب بلزاك. ولمّا كانت ذات كبرياء يرتبط بنبالتها، نزّاعةً إلى التحكُّم، واثقةً من نفسها، كثيرة النزوات، متسرِّعة، قليلة الصبر، فهي تقتضي، بالإنطلاق من شعورها بتفوقّها الاجتماعي،

الحبَّ ضريبةً مستحقة أو إتاوة لازمة فإمّا أن تقابلها بسماحة وشهامة وإما أن ترفضها، واستسلامها أو تفانيها يرتبطان ارتباطًا لا ينقطع، بأشكال من التحديد والتقييد، كما يستطيع المرء أن يتابع ذلك في الرسائل، إنها علاقة تتوجَّه، سلفًا، من أعلى إلى أسفل، وثمة تفضُّل يكمن في المنح والإيلاء عندها، وبلزاك يقبل، منذ البداية، بالمكانة الأدنى التي توليه إياها. وعندما يسمى نفسه مَوْلاها الطيب والقِنّ (*) التابع لها، وعبدها فإنما يتمّ التعبير بهذا عن مِسْحة ماسوشية معينة في موقفه في اللاشعور. وكان بلزاك الذي يقف في إطار كل علاقاته بالنساء، موقف الخادم، ومن دون وعي رجوليّ لِذاته، يدخل، في مواجهة إيفيلينا دي هانسكا، منذ البداية، في علاقة هي علاقة الخضوع الكامل. وكان الجُثُوُّ الدائم على الركبتين، والتبجيل العبوديّ المقترن بالوَجْد، والتضحية الكاملة بقيمته هو وبشخصه هو، يجعلان رسائله إلى مدام دي هانسكا، في كثير من الأحيان، مزعجة تحمل الملاحظ المحايد على أن يتبرَّم بها ويضيق بها ذرعًا، إذ يستاء المرء ويغتمُّ حين يرى واحداً من أشد الرجال بأسًا وعبقرية في كل العصور ينحني مُكِبّا على وجهه، على مدى سبع سنين على الدوام، بين يَدَيْ أرستقراطية من الريف لا تتجاوز المرتبة الوسطى على أقصى تقدير في الأساس، بلا ريب، ليُقَبِّل قُبْقابها، وهو يكاد يذوب من الذل والخنوع، ممتهنًا كرامته إلى درجة التفاهة أو العدَم، وحين يحدث شيء يجرح مشاعر شخصية مدام دي هانسكا، ويبعث سوء الظن في حسّها المرهف- وهو ذلك الحسُّ الذي يُشادُ به أيّما إشادة من قبل المدافعين عنها- عند ذلك تكون المسألة هي أنَّها لا تصبر على خضوع بلزاك لها، شأن العبيد فحسب، بل تشجع هذا التأليه الوَجْدِيّ، بل ربما تطالب به مطالبه. ونحن نشعر على الدوام بأن المرأة التي يُفْتَرَض أنها عرفت عظمة بلزاك حقًا كان لابُدَّ لها أن ترفض هذه العلاقة، علاقة التابع لها، على أنها باعثة للاستياء وغير لائقة، وأن ترفعه من وَضْعِيّة الجُثُوّ

(*) القِنُّ، بكسر القاف واحد الأقنان، وهو العبد ابن العبد، وفي الاصطلاح الإقطاعيّ الأوروبي من يكون تابعًا للأرض يُباع ويُشترى معها، ويعمل فيها بلا أجر «المترجم»

هذه إلى وضعية ملامسة الجبين للجبين، بل تجعل نفسها تابعة لرغائبه وإرادته، ولكن مدام دي هانسكالم تكن مؤهَّلة لمثل هذا النوع من الحب، ولايوجد شك في هذا. لقد كان مما يُمْتِعها ويرضي كبرياءها، أن تدعه يُؤَلِّهُها، وهو الرجل الذي كانت تشعر بعبقريته، على هذا النحو. وكانت قد استجابت لهذا الحب أيضاً بقَدْرٍ معيّن. غير أن ذلك كان دائماً، من الأعلى إلى الأسفل- وهذا هو الأمر الحاسم، إذ كانت تتخذ موقف المُنْعِمة، المتفضِّلة بكرمها وشهامتها. على أن عبارات مثل «بلزاك الطيب» أو «بلزاكَ المسكين»، هذه اللهجة في رسائلها إلى ابنتها- وهي الوحيدة التي تسلك معها سلوك الصدق- تُعبِّر في الحقيقة عن كل شيء. لقد كانت من الذكاء بما يكفي لكي تميِّز قيمة هذا الرجل، وكانت ذات نزعة شهوانية بما يكفي لكي تستمتع بالعنفوان العاصف في شهوته الجنسية، وكانت، مع كل معرفتها بمواطن ضعفه والأشكال التي يتجلى بها عدم إمكان الوثوق به أو الاعتماد عليه، تنطوي على تعاطف مطلق معه، ولكن مدام دي هانسكا لم تكن، في الأساس الأخير، تحب، على الدوام، إلا نفسها، ولم تكن تحب بلزاك إلا بمقدار ما كان بلزاك يتملَّق حبها لنفسها: من جراء المغامرة التي جعل منها بطلة لها، ومن جراء بعث الحيوية في حياتها التي كانت حتى الآن عادية مبتذلة، ومن جراء السكْر والفيض اللذين لم تكن طبيعتها الخاصة، الذكيةُ، في موضوعية، مؤهلةً لهما أبداً. وماكان لشخصية أضفت عليها القسوةَ إلى هذا الحد الأحكامُ المسبقةُ الخاصة بطبقتها، مثل شخصية مدام دي هانسكا أن تتمكَّن من أن تكون لينة العريكة، أو مطاوِعة، أو متساهلة، وحيث تحب حباً مطلقاً يكون هذا، بدوره، مجرد حُبٍّ لنفسها: في شعورها تجاه ابنتها. وحتى في السنين التي عاشت فيها مع بلزاك، لم يكن هو أقرب المؤتمنين إليها، بل تكون المؤتمنة دائماً هي الابنة الصغيرة، الغبية، الخالية البال من أي فكرة، والتي تأتمنها ائتماناً كاملاً، بينما تظل هناك، في مواجهة بلزاك، الفظ الخشن، الدخيل، الغريب، قلعة أخيرة من قلاع قلبها، موصدة على الدوام في وجهه.

وعلى كل حال فقد كان عشيقها، وقد منحته نفسها، والأرجح أنها وصلت

بهذا إلى الحد الأقصى من الاستسلام الذي تعدُّ طبيعتها المُتَرَوِّيَة، الذكية التي تحمل الهواجس، مؤهَّلَةً له على الإطلاق. لقد استسلمت له إلى الحد الذي تستطيع أن تصل إليه زوجة، أرستقراطية لا تريد أن تفسد علاقتها بزوجها، ولا تريد أن تتعرَّض للانتقاص بين يَدَيْ رفيق طبقتها. على أن المشكلة الحقيقية، وهي الاختبار الدقيق، دقة اختبار الذهب في الخلائط، يبدأ، من أجل ذلك، في اللحظة التي تصبح فيها حرة من جرّاء موت السيد فون هانسكي، إذ يُفْتَرَض فيها، وهي المولودة باسم الكونتيسة رزيفوسكا، ووريثة فيرتسخوڤنيا، أن تقرر هل تتزوج صاحبها المسكين الطيب، الذي هو عبقريٌّ في الحقيقة، غير أنه مثقل بالديون، ولا يوثق به، ومبذِّر متْلاف، وهو في سلوكه شاعر «تروبادور» من الطبقة الوسطى، لا سبيل إلى شفائه، وأن تختار بين الأرستقراطية الأولى، أرستقراطية الدم والمال، والارستقراطية الأخرى، أرستقراطية العبقرية والمجد.

وكانت مدام دي هانسكا تخشى، في سرِّها، على الدوام، من هذا الحَسْم وثمة رسالة من رسائلها إلى أخيها لمّا تُمَحَّص أُصولُها حتى الآن، تعبِّر التعبير الكامل عن موقفها النفسي:

«أنا أشعر في بعض الأحيان بكل الرضى إذ لم أُضطَر إلى أن أحسم أمري وأقرر هل ينبغي لي أن أتزوّج رجلاً أنت خليق أن تنظر إليه على أنه صهرك نظرة مشوبة ببعض الشك، كما يبدو لي، أم لا أتزوَّجه. وأنا أعرف بالطبع أنني أحبه، وربما كنت أحبُّه أكثر مما تعتقد، ورسائله هي الحدث الكبير في حياتي الموسومة بالعزلة. وأنا في انتظارك، وأتوق إلى الإعجاب الذي يتحدث إليّ من جانبك، وأنا مفعمة بالزُّهُوّ بمقدرتي على أن أكون شيئًا ما، لم تَكُنْه امرأة أخرى بالنسبة إليه، لأنه عبقريّ، واحد من أكبر العباقرة الذين أنجبتهم فرنسا، وعندما أفكر في ذلك يتبدَّد كل تفكير آخر، ولا تعود نفسي مفعمة بعدُ إلاّ بفكرة مؤدّاها أنني ظفرت بحبه، على الرغم من أنني جدُّ بعيدة عن أن أكون لائقة به، ومع ذلك: فعندما

يخلو أحدنا إلى صاحبه لا يكون لي بدٌّ أن أرى أشكالاً معينة من عدم الانسجام والتوافق، وأعاني من فكرة مؤداها أن ثمة آخرين أيضاً يلاحظونها، ويستطيعون أن يستخلصوا نتائجهم من هذا. وفي أمثال هذه اللحظات أكون خليقة أن يكون أحبَّ الأمور إلى نفسي أن أصرخ بصوت عالٍ مُجاهِرَةً بحبي وهواي، وأن آخذ على كل هؤلاء البشر موقفهم، بينما لا يكون عندي إلاّ واضحًا كل الوضوح أن هؤلاء لديهم ما يبرر موقفهم، على أنني أوثر أن لا أفكر على الإطلاق في الوضع الذي أتعرَّض له إذا ما قُدِّر للسيد فون هانسكي أن يموت. وأنا آمل أن أظل على الدوام أؤدي واجبي، وأن أكون عملت على الدوام جاهدة على أدائه مثلما علَّمنا إياه أبونا، ولكن ربما كنت راضية في قرارة نفسي إذ لم أكن مضطرة إلى اتخاذ قرار. وفي لحظات أخرى، أنسى، مرة أخرى، كل شيء في الدنيا مقابل الفكرة الوحيدة، وهي أنَّ هذا الرجل العظيم مستعد لأن يضحي من أجلي بكل شيء، وأنني لا أستطيع، في الأساس، أن أبذل في سبيله، مقابل ذلك، إلاّ القليل.»

فالخِطبة ذاتها، التي يعلِّق بلزاك كل آماله عليها، هي عندها موضوع للقلق الدائم والاكتئاب.

ومن أجل ذلك فليس هناك شيء أكثر طبيعية من أن تعمد، باديء ذي بدء، إلى تأجيل كل قرار، وأن لا تدع الرجل المندفع الجامح الذي تخشى من طبعه الجارف، يأتي إليها. ولم يكن موقف مدام دي هانسكا واضحًا كل الوضوح، ويتسم بخُلُوّ البال، كما يتصوَّره بلزاك من باريس، ولم يحررها موت السيد فون هانسكي إلاّ في الظاهرفحسب، وفي الحقيقة لم تَزِدْها وفاته إلاّ مزيداً من الوقوع في دائرة نفوذ أسرتها. وذلك أن الأعمام والعمّات والأخوال والخالات في الأملاك المجاورة، وبنات الأخ وبنات الأخت في المنزل، والأقرباء في بطرسبرج وباريس، كل هؤلاء يعرفون صداقتها الرومانسية مع السيد دي بلزاك، وكل هؤلاء يجمع شملهم الخوف من إمكانية وقوع الأرملة الجميلة في فيرتسخوفنيا، والملايين

الكثيرة التي كانت للسيد فون هانسكي، في يد فرنسي، أو أي أديب متهالِك يدير رأس الأرملة الموسرة بالعبارات والرسائل الرومانسية. وعلى الفور يبدأ أحد الأقرباء عملية ما، فيلتقط وصية السيد فون هانسكي في شيوع الملكية، مع زوجته، وتُحَوَّل القضية إلى كييف، ويتم خسارتها بالنسبة لمدام دي هانسكا، وتضطر إلى السفر إلى بطرسبرج، لتستأنف الدعوى لدى المحكمة العليا، وأمام القيصر، لكي تستحوذ على حقوقها. وفي هذه الأثناء يحاولون إقناعها، من كل الجهات، وبألوان الثرثرة والتحريض، بالتحوُّل عن بلزاك، ولا سيما العمة روزالي ذات السمعة السيئة التي يكرهها بلزاك، شأن كل الفرنسيين، كراهية قاتلة، ولسبب وجيه، وذلك أن أمها أُعْدِمت بالمقصلة أثناء الثورة الفرنسية بتهمة التجسُّس، وكانت قد عرفت وظيفة الحاجبة وهي طفلة، وكانت فكرة إمكانية زواج واحدة مثل رزيفوسكا من ابن عضو في الكومونة الحمراء تضفي على تحذيراتها وتأثيراتها المتواصلة اندفاعًا وعنفوانًا ينطويان على الخبث: وحتى لو أرادت مدام دي هانسكا ذلك بالفعل لما كان وسعها أن تحمل بلزاك على المجيء إلى روسيا الآن، إذ كان هذا خليقًا أن يفسد قضيتَّها، ويُلْحِق الضرر بمركزها، وربما كان الأسوأ من هذا بعدُ أن من الممكن أن يجعلها مثيرة للضحك والسخرية، عندما يظهر، على نحو مفاجئ، السيد البدين المُرَبْرَب، بسلوكه السيء وألوان بَذْخه الطفولي، في أوساط نبلاء بطرسبرج، ويُمَكِّن القوم من رؤيته بين أقربائها المتعاظمين. وبذلك لا يتبقى لها اختيار آخر سوى إبلاغه بإلغاء لقائه بها بقوة وحزم. أمّا أنها تفعل ذلك في قالب بالغ القسوة وينطوي على الإهانة فربما لم يكن ذلك إلاّ وسيلة تختبر بها صدق تعلُّقه بها وثباته عليه.

أما بلزاك فيكون لهذا الإلغاء عنده وَقْعٌ كوقع الصاعقة. وكان، بحكم كونه صاحب أوهام، اعتاد أن يستعرض في ذهنه رغائبه وأحلامه إلى أن يصل إلى آخر التفاصيل، قد أَعَدَّ العدة للرحلة إلى درسدن، بل ربما حاول تدبير المال اللازم لهذا،

واقترح على مدام دي هانسكا اقتراحات بصدد الكيفية التي تضمن بها الثروة لابنتها، وتضمن بها لنفسها، في الوقت ذاته، ألفوائد. وكان قد استعرض في خيالــه العرس والرحلات، والمنازل والقصور، هذه التي ربما كانت مجهزَّة حتى الصورة الأخيرة والجهاز الأخير. وإذا هو تأتيه الآن هذه الرسالة بعبارتها الباردة، المقتضبة، الواضحة «أنت حر Vous êtes libre مقرونة بكلمة «لا» المجرَّدة، الحاسمة.

ولكن حين يكون بلزاك قد عبّأ إرادته، لا يعود يتقبَّل رفضًا، فقد اعتاد ضروب المقاومة وألِفَها. وذلك أن ضروب المقاومة هذه تستثيره ولا تزيد طاقته إلاّ تصعيدًا. ففي كل أسبوع وفي كل يوم تقريبًا، يكتب رسائل تُلْحِفُ عليها وتناشدُها، وتَضْرَعُ إليها. ويُغْدِق على مدام دي هانسكا ضروب التوكيد لإخلاصه، وحبه ويبدو ذلك الفيض والوجد الذي كان في رسائل تلك الأيام إلى نوشاتيل وجنيف، وقد عاد يتعالى، من جديد، دفعة واحدة، بعد أن تطامنت اندفاعات الهوى الجامح على نحو ملحوظ في السنين الأخيرة.

«أنت لا تعرفين مدى قوة تعلُّقي بك وقربي منك، وإنما تلعب دورها في هذا كلُّ العواطف الإنسانية: من الحب، والصداقة، والطموح، والمقدرة، والكبرياء، والصَّلَف والذكرى، والسرور، واليقين، والإيمان بك، ذلك الإيمان الذي أضعه فوق كل شيء».

ويُقْسِم أن كل ما كتبه منذ ذلك الوقت لم يكتبه إلاّ من أجلها، وبأفكاره حيالها: «لم يَجْرِ إبداع هذا كله إلاّ باسمك».

ويعلن أنه مستعد لكل تنازل. فليس من الواجب أن تنتهي الخطْبة إلى غايتها غدًا، ولا بعد غد، وليس عليها إلاّ أن تضرب له أجلاً، أيَّ تاريخ فحسب، ولتحدِّد يومًا أو عامًا، يستطيع فيه أن يتعلَّق بآماله.

«حقًا، يا ملاكي الحبيب، أنا لا أطرح مطلبًا كبيرًا على حوّائي. وكلُّ ما أريد أن تقولي لي: بعد ثمانية عشر شهرًا، أو بعد عامين، سنكون سعداء، ولا أريد

سوى أن أعرف موعداً محدَّدًا». ويناشدها قائلاً إنه ماعاد يستطيع المُضِيَّ في طريقه مالم تمنحه أملاً، آخر الأمر، ومالم يأتِ، آخر الأمر، «أنتِ والسكينة».

«أنا ما عدت أطيق هذه الصراع الأبديَّ وحدي، بعد خمسة عشر عامًا من العمل الحثيث الدائب. أن أبدع، وأبدع دائمًا! والله نفسه لم يستنفد في الخلق سوى ستة أيام»

على أن مجرَّد فكرة اجتماع شملهما، يُسكِرُه، ويجعله مجذوبًا من المجاذيب:

«أوآه، يا حبيبتي، ألا ليتنا استطعنا أن نعيش معًا آخر الأمر، قلبًا إلى جانب قلب، وكلٌّ منا لصاحبه، من دون قيود! وهناك لحظات تجعلني فيها هذه الفكرة مجنونًا كل الجنون، وأسائل نفسي، كيف تجاوزنا هذه الشهور السبعة عشر، على وجه الإطلاق، أنا هنا، وأنت هناك، في الأسفل من أوكرانيا. أيُّ قوة هذه التي يتمتَّع بها المال! ويالها من مسرحية كئيبة، أن يرى المرء كيف ترتبط به أجمل المشاعر! أن يرى المرء نفسه مقيَّدًا، مسمرًا في باسّي، بينما يمكث القلب في الحقيقة على بعد خمسمائة ميل! وفي بعض الأيام استسلم بكل ذاتي للأحلام، فأتصورَّ أن كل شيء قد تمت تسويته، وأن حكمة «مليكتي»، وذكاءها وترويِّها قد انتصرْن، وقالت لي الكلمة الواحدة: «تعال!» وأنا أصورِّ نفسي، كيف أُهْرَعُ إليك. وفي أمثال هذه الأيام لا يمكن التعرُّف عليّ، ويسألني الناس: مابك، وماذا دهاك؟ فأقول: «همومي ستنتهي الآن، أنا أرى أملاً يلوح لي» ويقول الناس: «قد أصابه مسّ!»

ولا يكاد يسمع أنها انتقلت إلى بطرسبرج لترتِّب هناك أمور قضيَّتها حتى يشرع في الحساب، كم يومًا تستغرق هذه الرحلة، وكم تكلِّف، أربعمائة فرنك من الهافر إلى سان بطرسبرج وأربعمائة فرنك للإياب، ومئتا فرنك من الهافر إلى باريس، ويخترع، بأسرع ما يستطيع، أكثر المعاذير عبثيّة، ليضفي على رحلته مظهر

الضـرورة، فـيُعْلن أنه كـان من الواجب عليـه منذ عـهـد بعـيد أن يرتحل إلى سـان بطرسبرج ليقوم هنا بالتحضير لمسرح فرنسي. ثم تكون المسألة، مرة أخرى، شركة ملاحة يريد حموه أن يؤسسها ويستطيع أن يبني السفن بأسعار رخيصة على وجه الخصوص، وأن هذه الشركة كلَّفته بعرض أرباح في روسيا! وفجأة يكتشف- ربما في إطار افتراض أوّلي مؤدّاه أن رسائله كانت تطّلع عليها الرقابة- ميلاً إلى قيصر روسيا، لأن هذا هو الحاكم النبيل الحقيقي الوحيد بين الحكام، ويعلن أنه لا اعتراض لديه على أن يغدو من الرعايا الروس».

وتسير الأمور على هذا المنوال، رسالة بعد رسالة، هي نار الطبول الدالّة على فراغ الصبر والجموح. وينتظر أيام شباط، وآذار، ونيسان، وأيار، والصيف والشتاء، وربيعًا آخر، وصيفًا، ومازالت الكلمة لا تأتي- وبعد عام ونصف من وفاة السيد فون هانسكي تأتي الكلمة التي طال شوقه إليها «تعال- !Viens»، أخيراً، في تموز، ويصل الإذن، والنقود مجموعة من أجل الرحيل، بعد عقد من الزمان على وجه الدقة، مضى منذ أن رآها آخر مرة، وفي تموز ١٨٤٣، يصل، من دنكيرشن إلى سان بطرسبرج، ويكون طريقه الأدنى إلى منزل كوتايسوف، حيث تقيم مدام دي هانسكا، ومما ينطوي من الرمزية على ما يكفي أنه يقع في شارع المليون العظيم.

الفصل العشـرون

الكوميـديــا الإنســانيـــة

وفي سن الثالثة والأربعين، حين أضنى بلزاكَ الكفاحُ وبلغ منه الجُهد فوق ما يطيق، ماعاد يرى إلاّ هدفًا واحداً، إنه يريد أن ينظّم حياته، ويطرح عن كاهله عبء الديون، ويستكمل عمله العملاق في سكينة وهدوء من دون ملاحقة وطِراد، وهو يعلم أنْ ليس هناك إلاّ شيء واحد يستطيع أن يمكّنه من هذا، وهو أن يحصل على مدام دي هانسكا، وأن يحصل، على الأقل، على جزء من ملايين السيد فون هانسكي، وكان ذلك الذي وقف مائة مرة عند مائدة القمار في وجه القدر، خاسراً على الدوام، يجازف المرة بعد الأخرى، من جديد، يراهن بكل شيء على ورقة واحدة، هي هذه المرأة، ويظل خلال العام ونصف العام اللذين قضاهما قبل أن يُباح له المجيء إلى بطرسبرج، يحاول محاولة اليائس، أن يستغل هذا الوقت لكي يجعل نفسه أكثر أنموذجيَّة بصفته خاطبًا، في نظرها، وفي نظر أسرتها، وهو يعلم أن آل رزيفوسكي وكل العصبة الأرستقراطية التي يعكسون فيها كبرياءهم، سيظلون على الدوام ينظرون إلى هونوريه بلزاك الذي أضيفت إلى اسمه كلمة (de) زوراً يظل دائمًا مجرد حفيد فلاح ينتمي إلى طبقة تابعة، ذات مستوى أدنى، حتى ولو كان أعظم أدباء القرن. ولكن كيف سيكون الحال مع وجود اسم المسيو دي بلزاك الذي يتمتع بنفوذ سياسيّ، مع تصديق كلمة "de" من قبل الملك، أو حتى إذا التمس تَجْلية اسمه بلقب كونت؟ أو كيف سيكون الحال مع لقب: المسيو دي بلزاك، عضو الأكاديمية الفرنسية؟ وإنما يكتسب المرء بالصفة الأكاديمية، كثيراً من

المكانة الرسمية، بحيث لا يمكن أن يبدو، بعدُ، باعثًا للسخرية والضحك، وفضلاً عن ذلك فإنه ماعاد مفلسًا لا يملك شروى نقير، إذ يجني ألفي فرنك في العام، وإذا انتخب ليكون عضواً في لجنة القاموس، وهو منصب يدوم مدى الحياة، فسوف يحصل حتى على ستة آلاف فرنك في كل عام، وسوف يرتدي، فوق ذلك، حلة الفراك النخيلية، لكيلا تضطر حتى واحدة من المولودات باسم رزيفوسكا في الميزليانس إلى أن تشعر بالعار، أو كيف سيكون الحال مع بلزاك المليونير، الرجل الذي يكتب ست مسرحيات في العام، ويشغل بهذه المسرحيات أكبر ستة مسارح في باريس على مدى العام كله، ويجني بذلك نصف مليون، بل ربما مليونًا خلال اثني عشر شهراً؟

ويجرِّب بلزاك كل هذه الإمكانات لينتزع، بالكفاح، مكانة الندّ الاجتماعي لمدام دي هانسكا. وتنازِعه نفسه إلى أن يرتقي على كل السلالم الثلاثة، ليصل إلى أجواء آل رزيفوسكي التي تمتنع عليه، ولكن الرجل البدين، المربْرَب، النافد الصبر تَزِلُّ به القدم فينزلق عن كل السلالم. أما الانتخاب للبرلمان فيفوت أوانه لأنه لا يستطيع أن يؤمن رأس المال الأساسي الذي يعتبر شرطًا أوَّليًا للتسجيل في لائحة الناخبين. وكذلك لايحالفه الحظ في الأكاديمية (وسيحظى به هناك في المستقبل)، وسوف يجد القوم مائة ذريعة لاستبعاده، إذ لا يجرؤون على أن ينازعوه حقّه بأسلوب جدّي، إذ يقال له، حينا، إن أحواله المالية مضطربة مشوَّشة، وإنه ليس في وسع القوم أن يُحلّوا تحت قبة البرلمان المقدَّسة رجلاً سوف ينتظره وراء الباب، في الخارج، منفِّذو الأحكام القضائية، والمرابون، ويتعلَّلون، حينًا آخر، بكثرة تغيُّبه، وأكثر ما يكون ذلك صدقًا حين يعبِّر عَدُوٌّ له لدود، وحاسد له في السرِّ، عن الموقف المتمثل في قوله: «المسيو بلزاك أكبر حجمًا من أن تتسع له مقاعدنا!». وكان خليقًا أن يدفع بهم إلى الجدار جميعًا باستثناء ڤيكتور هوجو ولا مارتين.

وإذا فليبادرْ على وجه السرعة إلى كتابة «كتلتين من المسرحيات-- dramo-ramas» ليتخلَّص، على الأقل، من أكثر الديون مَجْلَبَةً للفضائح (الديون

الصارخة) التي تصل أصداؤها حتى الآن، إلى بطرسبرج وڤيرتسخوڤنيا. أمّا المسرحية الأولى وهي «باميليا جيرو- Pamélia Giraud»، وهي مسرحية تتناول الطبقة الوسطى، يدع أربعة أخماسها ينجزهن «زنجيّان خاليان من الموهبة»، فَتُقْبَل في مسرح ڤودفيل، وأما الأخرى، وهي: «الوسائل المساعدة للوغد اللئيم- les Resources de Quinola» فيتم التحضير لها من قبلُ، في مسرح الأوديون، ويصمّم بلزاك على أن يوازن بذلك هزيمة ڤوتران سولان، ويجعل منها نجاحًا هائلاً.

على أنه لا يضع جهده في الموضع الصحيح، كما جرت العادة، أي في العمل، ويتم الشروع في «البروڤات»، قبل أن يتمَّ الفراغ من الفصل الخامس، الأمر الذي يملأ نفس الممثلة الرئيسية، مدام دورڤالّي، الشهيرة، بالمرارة إلى حد يحملها على التخلّي عن دورها. وكان أكثر ما يثير اهتمامه أن يجعل من الأمسية الأولى أكثر الأمسيات التي عرفتها باريس في أي يوم من الأيام، بهاءًا وتألُّقًا، ويحولّها إلى انتصار لا مثيل له، وكان لابُدَّ لكل من يتمتع، في باريس بالاسم والسمعة، أن يُرى في أكثر الأماكن تعرُّضًا للرؤية، ولم يكن يُباح لعدوّ، أو صافرٍ أن يتسلل إلى المسرح ليغير مزاج الجمهور بالصيحات العارضة أو الصفير، كما حدث في مسرحية فوتران. ولتنفيذ هذا يتفق بلزاك مع مدير المسرح على أن لا تُوَزَّع إلاّ تذاكر الدخول التي تخرج من يديه. أمّا الوقت الذي كان من الخير له أن يقضيه على مكتبه لينقّح المسرحية نصف الناجزة، فيقضيه الآن في حجرة شباك التذاكر، وفي مكتب المسرح.

ويجري إعداد خطة المعركة بشهامة بلزاكيّة أصيلة، إذ يفترض أن يقعد في مقصورة مقدمة خشبة المسرح (proszenium) المبعوثون والوزراء، وأن يحتل مقاعد الأوركسترا فرسان القديس لويس، والأنداد (pairs). أما النواب والعاملون في الدولة فيفترض أن يكونوا في القاعة الثانية، ورجال المال في الثالثة، والبورجوازية

الغنية في الرابعة- وفضلاً عن ذلك يفترض أن تزدان القاعة بالنساء الجميلات في المواضع التي يقع عليها البصر كثيرًا، ويُطْلَب الرسامون المصوِّرون لتخليد هذه الأمسية المتألّقة.

وفي البداية يتكهَّن بلزاك- كشأنه دائمًا- تكهُّنًا صحيحًا، وذلك أن الشائعات حول الأمسية المتألقة الوشيكة تلفت الأنظار في باريس، ويتزاحم الناس على شباك التذاكر، بل يعرضون أسعاراً مضاعفة، مرتين وثلاث مرات، للتذاكر، ولكن الآن، يحدث، بمنطق قاس، ما يحدث كلّما تكهَّن بلزاك: فهو يشدُّ القوس إلى أن يُحَمِّله فوق طاقته، ويكسره في هذه الأثناء. فبدلاً من أن يأخذ من المال الضعفين، والثلاثة أضعاف يوعز، لكي يزيد الاهتمام أكثر من هذا، بنشر أقوال مفادها أن المسرح كله قد بيع بأسره، حتى لقد قرر الناس أن يصبروا وينتظروا العرض الثالث أو الرابع لهذه المسرحية المثيرة للضجة، وحين يفترض بعد ذلك أن يزحف جمهور التألُّق والأُبَّهة، في مساء التاسع عشر من آذار، عام ١٨٤٢، يتبيَّن أن ثلاثة أربع المقاعد ظلت خالية من جراء تكتيك بلزاك الخاطئ، وبذلك تكدَّر مزاج الجمهور ليُعْجبَ بعضه ببعض، إعجابًا متبادلاً، سلفًا. وعبثًا يرسل مدير المسرح ليرو، في اللحظة الأخيرة، سِربًا من المصفقِّين المأجورين، إلى القاعة، وكل من شاء يحصل، على عجل، على تذكرة تُسلَّم له مجانًا، فما عاد يمكن وَقْفُ الهزيمة، وكلَّما ازداد تحوُّل المسرحية إلى الوجهة المأساوية، ازداد تصرُّف المتفرجين مَرَحًا واستبشاراً على أن العروض التالية لم يكن يشهدها الناس إلاّ لأن الجمهور كان يريد أن يشارك بنفسه في التمثيل في المشاهد الفضائحية، ويعزف بالمزامير، والصفارات، ويجرِّب الغناء في جوقة:

«إن السيد بلزاك هو الذي أحدث كل هذا التحوُّل».

ثم إن بلزاك نفسه لم يُسْتَدْعَ مرةً واحدة، ولو فعلوا ذلك أيضًا لكان عبثًا، كما كان خليقًا أن يكون عبثًا أيضًا، لأن الجهود التي بُذلت لتزيين المسرح على الوجه

الصحيح استنفدت قواه إلى حدٍّ بلغ منه أنه رئُي بعد اختتام العرض، نائمًا في مقصورته، ولا يعلم إلاّ فيما بعد، أن المائة ألف فرنك التي كان يحلُم بها، تبدَّدت من خلال اختفاء المسرح- مرة أخرى- بل للمرة الرابعة!- وما يفتأ القدر يردُّه، بهذه الضربات القاسية إلى مصيره، وعندما يشكو إلى مدام دي هانسكا، يائسًا، قائلاً إنه لابُدَّ له، إذا ما سقطت «الوسائل المساعدة للوغد اللئيم»، أن يكتب أربعة مجلّدات من الروايات، فنحن لا نشاركه في هذه الشكوى، لأن الروايات والأقاصيص التي كتبها بلزاك تحت قَسْر الوضع الذي كان يعاني منه في هذه السنوات، من ١٨٤١ إلى ١٨٤٣، هي من أكثر أفانين إبداعه شموخًا، وربما لم تُتَحْ لنا لو قُدِّر النجاح لمسرحياته الميلو درامية الرديئة.

وفي هذه الروايات العائدة إلى أكثر الحقَب يتلاشى شيئًا فشيئًا، الجانب الدنيوي المبتذل، جانب الهوَس بالأرستقراطيّ الذي يجعل أعمال بلزاك في الحقبة السابقة مزعجة حقًا، إذ كان قد تعلَّم، شيئًا فشيئًا، كيف يتغلغل بنظره فيما يسمى بالمجتمع العظيم الذي كان يؤلّهه بالخشوع الباعث للاشمئزاز، والذي ينطوي عليه ذلك الذي ولد ابنًا للطبقة الوسطى. وكانت صالونات ضاحية سان جيرمان قد أخذت تفقد سحرها على نحو مطّرد بالقياس إليه، وماعادت ألوان الصلف والغرور، والمطامح الصغيرة التي ينطوي عليها الكبار، أو المطامح الكبيرة التي ينطوي عليها صغار المركيزات والكونتيسات. تستثير طاقته الإبداعية، بل العواصف الكبيرة، وكان بلزاك كلما ازداد مرارة من جراء التجربة والمعاناة وألوان خيبة الأمل ازداد صدقًا وأصالة. أما النزعة العاطفية الرقيقة المستعذبة المُسْتطابة التي كانت تلحق الضرر بأفضل أعمال شبابه، مثلما تلحق الضرر بالثوب النفيس بقُعَ الزيت، فتأخذ في التبخُّر والتلاشي. وكان المنظور يزداد اتساعًا، ويزداد، في الوقت ذاته، دقة، على نحو مطَّرِد. ففي رواية «القضية الغامضة» يسقط بريق ضوء صارخ على خلفيّات السياسة النابليونية. وفي رواية الصيّادة في الماء العكر

"La Rabouilleuse-" يكشف عن جسارة في المعرفة الجنسية لا يجرؤ عليها أحد من معاصريه. وذلك أن مشكلة الشذوذ والاستعباد الجنسي لم يتناولها أحد بمثل الجسارة التي تناولها بها بلزاك، وهي تتمثَّل في شخصية الدكتور الشيخ روجيه الذي يُربِّي (الصيادة) ذات الثلاثة عشر ربيعًا لتكون عشيقة له، ويالها من شخصية، تلك التي يتميز بها فيليب بريدو، وهو الذي لا يقل عن ڤوتران، غير أنه ماعاد ميلو دراميًا، ولا طَلْقَ اللسان اللاّ أخلاقيّ مِهْذاراً، ولا صاحب لهجة منبرية، بل يتميَّز بصدق رهيب لا يُنْسى. ويضاف إلى ذلك بعدُ استكمال «الأوهام المفقودة»، اللوحة الجصيِّة الكبرى التي تحمل صورة عصره، ثم إنه يطرح فيما بين ذلك، رواية «أورسولا ميروييه»، وهي تتسم بشيء من مجانبة الصدق من جراء ألوان التكلّف ذات النزعة الروحانية، غير أنها قابلة للتصديق على نحو رائع في كل شخصية من شخصيّاتها، ورواية «العشيقة الزائفة، و «مذكرات شابتين حديثتَيْ عهد بالزواج»، و «ألبرت ساڤارو» و «بداية في الحياة» و «هونورين» و «إلهة المقاطعة- La muse de Departement»، واثنَيْ عشرية من الشَّذَرات. ومرةً أخرى ينجز ذلك الذي لا يعتريه الكلل، والذي لا مثيل يضاهيه، ماهو خليق أن يعني عمل حياة بأسرها عند غيره.

وشيئًا فشيئًا يبلغ فيض الإبداع من الحجم ما تتعذَّر معه الإحاطةُ به بنظرة شاملة، وكان بلزاك الذي يريد أن ينظِّم حياته تنظيمًا حاسمًا، يفكِّر الآن أيضًا في تنظيم لعمله الفنيّ. وعلى الرغم من إلْحاف دائنيه عليه فقد كان يحتفظ على الدوام، باحتياطي أخير، من باب الحذر: ألاَ وهو طبع مجموعة أعماله الكاملة فحتى في أسوأ حالات الضيق كان يُحاذر على الدوام، من بيع حقوقه في كتاب واحد، على مدى الحياة، ولم يتفاوض قطُّ على أكثر من طبعة واحدة أو بضع طبعات. وظل مالكَ حقوق النشر. وعلى الرغم من كونه متْلافًا في كل وجهه، فقد حافظ مع ذلك على هذا الذي هو أفضل ما يملك، سليمًا لَا تشوبه شائبة، في انتظار اللحظة المناسبة التي يعرض فيها، في نظرة إطلالة شاملة تنطوي على الزُّهو

بالنفس، للأصدقاء والأعداء، ما أبدعه

وجاءت هذه اللحظة الآن: فسوف يشير، وهو يخطب أرملة المليونير ڤينزيسلاف فون هانسكي، إلى ثروته الخاصة، لأنه يُعَدُّ هو أيضًا مليونيرًا، فلديه مليون سطر، على الإجمال، وخمسمائة طَلْحية من ورق الطبع، وعشرون مجلدًا. ولم يكد يعلن عن رغبته هذه في طبعة كاملة حتى اتّحد ثلاثة من الناشرين، وهم ديبوشيه، وفورن، وهيتْسِلْ، ليظفروا معًا بالعمل الجبّار الذي سيزداد في كل سنة قادمة أيضًا ويموّلوه ويتم إبرام العقد في الرابع عشر من نيسان عام ١٨٤٢، ويمنح الناشرين «الحق في نشر طبعتين أو ثلاثٍ من الأعمال التي نشرها المؤلف حتى الآن، تبعًا لاختيارهم وفي الموعد الذي يرونه مناسبًا لهم. والشيء ذاته على الأعمال التي يُقَدَّر لها أن تخرج أثناء ظهور هذه الطبعة الكاملة. ويُفْتَرَض أن يبلغ حجم الطبعة الأولى ثلاثة آلاف. نسخة، وأن يكون قياسها بالقطع الثُّمُن، وأن يشمل نحو عشرين مجلّدًا، تبعًا للحجم الذي سيحتاج إليه العمل الكامل.

ويحصل على خمسة عشر ألفًا من الفرنكات عربونًا. أمّا تسوية باقي المدفوعات الخاصة بنسبة أرباح تبلغ خمسين سنتيمًا عن المجلد، فيُفتَرَض أن تتم بعد بيع المجلّد رقم (٤٠, ٠٠٠).

وبذلك حَصَّل بلزاك من عمله الذي تحقق الآن رَيْعًا جاريًا لابُدَّ أن يرتفع من عام إلى آخر، بحكم الضرورة، وبصورة آلية، ويَهَب له حرية أكبر فيما يتعلق بكتبه المستقبلية. وكان القيد الوحيد الذي يشعر بثقل وطأته في العقد، قيدًا تبنّاه بمحض إرادته: إذ يلتزم بأن يدفع من جيبه تكاليف طبع التصحيحات الإضافية على أن لا تتجاوز الخمسة فرنكات عن الطلحية الواحدة، وسوف يدفع بلزاك، الذي لا يستطيع أن يقاوم إغراء تصحيح عمله من حيث الأسلوب مرارًا، وللمرة السادسة عشرة، وللمرة السابعة عشرة، ثمنًا لهواه هذا، مبلغ خمسة آلاف ومائتين وأربعة

عشرين فرنكًا وخمسة وعشرين سنتيمًا، ويتقدم الناشرون باعتراض وحيد، إذ لايروق لهم عنوان «مجموعة الأعمال» لأنه مفرط في العموم، قليل الجاذبية. أفلا يستطيع المرء أن يعثر على عنوان يعبِّر عن أن هذا العمل الكامل يشكل في الأساس وحدة بشخصياته التي تتكرر، وبعالمه الذي يحيط بالمجتمع في أطوار ارتقائه وتردّيه؟

ويوافق بلزاك، وكان قد أحسّ هو نفسه، قبل عشرة أعوام حين كتب إلى فيليكس دافان المقدمة الأولى لمجموعة روايات، بأن كل رواية على حِدة لا تعني، في إطار تلك الرؤية للعالم التي تلوح لناظريه مُوَحَّدة وكاملة، سوى جزءٍ من كلٍّ لا يتجزأ. ولكن كيف يمكن العثور على عنوان يعبِّر عمّا هو شامل في هذه الرؤية للعالم؟ ويتذبذب بلزاك ويتردد، وإذا مصادفة سعيدة تسعفه. وذلك أن صديقه وأمين سر التحرير السابق، دي بيلو كان عاد لتوِّه من رحلة إلي إيطاليا، حيث أكثر من الاشتغال بالأدب الإيطالي، وقرأ «الكوميديا الإلهية»، في نصِّها الأصلي، وإذا الفكرة تنبثق متوقِّدة: لماذا لا يضع، في مواجهة الكوميديا الإلهية، الكوميديا الأرضية، وفي مواجهة البنيان اللاهوتي، البنيان السوسيولوجي؟ لقد وجدتُها! وعثرنا على العنوان: الكوميديا الإنسانية.

ويتحمَّس بلزاك، ولم يكن الناشرون أقل سروراً، إلاّ أنهم يرجون منه أن يكتب مقدمة لهذه الطبعة الكاملة، يشرح فيها للجمهور هذا العنوان الجديد الذي يطرح على أية حال كثيراً من المطاليب، ولا يظهر بلزاك كثيراً من الميل إلى هذا: ومن الواضح أنه لا يريد أن ينفق وقته الثمين في جهد قليل العائد كهذا، وينبغي للقوم، بلا ريب، أن يلتمسوا من فيليكس داڤان، الذي يعود إليه هو تسعة أعشار العنوان، أن يستقي هذه المقالة من «دراسات في الأخلاق في القرن التاسع عشر، لكي يشرح للقراء أهدافه ونواياه. ثم يقترح أن تتفضَّل صديقته الطيبة، جورج صاند، بالتمهيد للطبعة الكاملة، بما تتحلى به من ذكاء وتُؤَدة، ثم يتم تعديل موقف

بلزاك على إرادة منه، آخر الأمر، برسالة بارعة من قبل ناشره هيتسلِ الذي يذكِّره بأن علــيه، بصـفـته أبًا شـريفًا صادقًا، أن لا يتنكَّر لابنه، ويعطيـه مع ذلك إيماءات قيِّمة حقًا.

«فلتتحدث بموضوعية وتواضع قَدْرَ ما في وسعك. وهذا هو الموقف اللائق الذي يتلاءم مع اعتـداد المرء بنفسه، عندما يكون المرء أنجز عـملاً كالذي أنجزت، ولتتحدَّث بطمأنينة وراحة بال، على نحوٍ كامل، ولتتصوَّر، مثلاً، أنك طعنت في السن ونشأت المسافة الفاصلة الضرورية التي تفصِلك عن نفسك، ولتتحدث كما تتحدث شخصية من شخصيات رواياتك أنت، وسوف تخرج بشيء قيِّم لا يُسْتغنى عنه، ولتقْبِل على عـملك بهـذا الروح، يا أبي البـدين (mon gros pére) ولْتَغفِر لناشرٍ ضامر هزيل أنه جَرُؤَ على الحديث عن بدانتك بلسان سليط كهذا، فأنت تعلم أنه لم يفعل ذلك إلاّ بأحسن نيّة.

وهكذا تنشأ المقدمة الشهيرة للكوميديا الإنسانية، وقد كُتِبَت في الواقع بأسلوب أكثر هدوءاً وموضوعية، وبُعْداً عن الهوى مما كان يحق للمرء أن يتوقَّع من بلزاك. لقد عرف، في ذكائه العملي، الجانب العقلاني في تذكير هيتسلِ، ووجد الوسطِ الصحيح بين رحابة الموضوع والتواضع الشخصي، ولم يكن من الجائز أن يكون هناك مبالغة من المبالغات المألوفة، عند ما يعترف لمدام دي هانسكا، بأن هذه المقدمة التي لا تكاد تملأ ست عشرة صفحة، كلفته من الجهد أكثر مما تكلفه في العادة رواية كاملة. وفي هذه المقـدمة يصمم بلزاك نظاماً لعالمه يشبهه بنظام جودفروا سانت- هيلير، وبوفون، فكما يحدث، في الطبيعة أن تتطور الأنواع الحيوانية تبعًا لبيئتها، في أشكال شتى، يتطورَّ البشر داخل إطار المجتمع. وعندما يريد المرء أن يكتب «تاريخًا لقلب البشر بالاستناد إلى ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من الأفراد، فلا بُدَّ له أن يستعرض كل طبقات المجتمع، وكل القوالب، وكل العواطف والأهواء بما لا يقل عن ممثل واحد لكلّ حالة. وسوف تحتاج المسألة إلى طاقة الابتكار عند الفنان، للربط بين الحكايات والشخصيات المتفرقة، بحيث يشكّلن معًا «تاريخًا

كاملاً» يعدُّ كل فصل من فصوله رواية، وتمثل كل رواية حِقْبَةً من حقَبه».

وإنما يحتاج الفنان- وهذا هو البرنامج الحقيقي- مع الاختلاف الذي لا نهاية له في الطبيعة البشرية- إلى الملاحظة فحسب، لأنَّ، «المصادفة هي الكاتب الروائي الأكبر على الإطلاق في العالم: فلكي يكون المرء مبدِعًا لا يترتَّب عليه إلاّ أن يدرسها. وينبغي للمجتمع الفرنسي أن يكون المؤرخ الحقيقي، وأنا لم أُرِدْ إلاّ أن أكون المُوَجِّه لكتابته. وحين التقطت ما يوجد فيه من الفضائل والرذائل واخترت أهم أحداث المجتمع، وشكَّلت الأنماط عن طريق الجمع بين عدد من الشخصيّات المتماثلة نوعًا، ربما استطعت أن أتوصَّل إلى أن أكتب تاريخ الأخلاق الذي نسيه عدد هائل من المؤرخين.

وكان جهده يتمثل في أن ينشئ مثل هذا العمل الذي ما كانت لتنشئه روما، ولا أثينا ولا ممفيس، ولا فارس ولا الهند، لسوء الحظ، لفرنسا القرن التاسع عشر، ويقول إنه يريد أن يصف مجتمع قرنه، ويكشف في الوقت ذاته عن القوى التي تُحرّكه. وبذلك يعترف بلزاك، بصراحة، بالواقعية، رسالةً للرواية، غير أنه يضيف قائلاً بصريح العبارة، إن الرواية ينبغي لها أن تعبِّر، في الوقت ذاته، عن النزوع إلى عالم أفضل، على الرغم من أنها لا تعني شيئًا سوى أن تكون حقيقية في كل تفاصيلها، ويعرض خطته قائلاً، بالخطوط العريضة:

«أما «المشاهد من الحياة الخاصة» فتصف سن الطفولة والصبا بعثراته وزلاّته وأما «المشاهد من حياة الريف» فتصف سن العواطف والأهواء، والحسابات، والمصالح والطموح.

وأمّا المشاهد من الحياة الباريسية فتعرض، في النهاية، صورة الأهواء والرذائل، مع كل أشكال انفلات العنان التي تتميَّز بها أخلاق العواصم- فهناك يلتقي الخير والشر بأشد أشكال تأثيرهما.

وبعد أن وصفت في هذه الانطباعات الثلاثة، الحياة الاجتماعية، بقيت أمامي بعدُمهمة عرض أشكال الحياة الاستثنائية، الشاذّة التي تتوافق فيها مصالح الناس، بعضهم أو كلهم وتلك الأشكال التي هي خارج إطار الشرائع، إن صح التعبير: وهذا ما أفضى بي إلى «مشاهد من حياة السياسة». وبعد الفراغ من هذه الصورة الهائلة للمجتمع، ألم يكن من الواجب عليّ أن أكشف عنه في حالته الأكثر حفُولاً بأنشطة العنف، حيث يخرج عن إطار نفسه، ليدافع عن نفسه- أو ليغزو؟ وهذه هي «مشاهد من الحياة العسكرية» وهذا هو القسم الذي يُعَدُّ، على الأقل، أقلَّ الأقسام اكتمالاً في عملي، ومع ذلك فقد أفسحتُ له، في هذه الطبعة، مجالاً، لكي أستطيع أن أضيفه، بمجرد أن أكون فرغت منه، وأخيراً تأتي «المشاهد من الحياة الريفية»، وهي أمسية عملي اليومي الطويل، إذا جاز لي أن أسمي المسرحية الاجتماعية بهذا الاسم. وفي هذا القسم توجد أنقى الشخصيات، كما توجد الاستفادة من مبادئ النظام الكبرى، في السياسة والأخلاق.

ويختتم حديثه بالانسجام القوي:

«إن استحالة سبْرِ غور الخطة التي تشمل، في الوقت ذاته، تاريخ المجتمع ونقده، وتحليل مفاسده ومناقشة مبادئه، كلُّ هذا يَهَب لي الحق، فيما أعتقد، في أن أعطي عملي العنوان الذي يظهر تحته اليوم: «الكوميديا الإنسانية». فهل يُعَدُّ هذا مفرطًا في التطاول؟ وهل يوجد له ما يبرِّره؟ هذا ما ينبغي للملأ من الناس أن يقرروه حين يكتمل العمل.

وقد قرَّر العالم من بعده أن هذا العنوان لا ينطوي على الكثير من المقتضيات، على الرغم من أن العمل، كما يوجد بين أيدينا اليوم، ليس إلاّ قطعة مُجْتَزَأة من كُلّ كامل أعلى شأنًا، إذ انتزع موت بلزاك الإزميل من يَد المثّال. وبموجب عادته الدائمة، المتمثلة في إعطاء «الكمبيالات» إلى أجل لاحق، كان هذا الأديب يستبق الوقائع عندما يتحدث عن ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف من الشخوص. فالكوميديا

الإنسانية تتضمن، كما توجد اليوم بين أيدينا في حالة غير مكتملة، ألفين من الشخوص فحسب، وإن المرء ليتولاه الخجل من أن يقول كلمة «فحسب» هذه. ولكن وجود تلك القوالب والأشكال من الحياة البالغ عددها ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف في حجرة دماغ بلزاك التي لا ينضبُ معينُها يكشف عنه فِهْرستٌ محضرٌ من عام ١٨٤٥، يذكر، إلى جانب الروايات المكتوبة، الروايات التي لم تُكْتَب بعد، إسماً فاسماً، والتي يقرأها المرء بأسىً لا يقل عن ذلك الأسى الذي يشعر به حين يقرأ فهرست مسرحيات سوفوكل التي ضاعت، وفهرست صور ليونارد والتي لم تصل إلينا، على أن الأعمال التي لم يتمكَّن بلزاك من تنفيذها لا تقل عن خمسين عملاً من بين الأعمال التي وردت على الإجمال، والبالغ عددها مائة وأربعة وأربعين. ولكن الخطة تظهر أية هندسة متمكِّنة متفوِّقة جبّارة صمَّم بها تعدُّد أشكال الحياة في قرارة نفسه سلفاً، بكل تفصيل من تفاصيلها.

وكان يفترض أن تكون الرواية الأولى بعنوان «الأطفال»، والثانية والثالثة، «نُزُل البنات العائلي» و «مدرسة الرياضة الداخلية»، وكان يفترض أن يكون لعالم المسرح مجلَّده الخاص به، كما كان يفترض أن تتم تغطية الدبلوماسية، والوزارات، والعلماء والمفكرين والانتخابات، ومناورات الأحزاب في الريف وفي المدينة، بكل تقنياتها. وكان يفترض أن يتمَّ، في أكثر من اثنتي عشرة رواية، لم تكتب منها سوى رواية (الثوار الملكيون- LesChouans) عرض إلياذة الجيش الفرنسي في أيام نابليون: الفرنسيون في مصر، ومعارك أسبيرن و واجرام، والإنكليز في مصر، وموسكو، ولا يبتسيغ، وشمبانيي في فرنسا، وحتى الجسور المشكَّلة من السفن (Pontons)، والجند الفرنسيون في الأسر، وكان ثمة مجلَّد مخصَّص للفلاحين، وللقاضي، وللمخترع، وكان يفترض أن يأتي فوق هذه الدراسات الاستعراضية الوصفية، الدراسات التحليلية في صورة دراسات تفسيرية أيضاً: فمنها «علم أمراض الحياة الاجتماعية» و «تشريح الجسد التعليمي» و «حوار فلسفي وسياسي حول تكامل القرن التاسع عشر».

وليس هناك مجال للتساؤل فيما يتعلق بأنّ بلزاك كان خليقًا أن يستكمل هذه الأعمال لو كان أمد حياته طويلاً بما يكفي. وذلك أن ما كان متوافراً في خياله كان يتحوّل، مع وجود طاقة الرؤيا عنده دائمًا، وعلى نحو لا مناص منه، إلى واقع ويكتسب شكلاً وقِوامًا. ولم يكن ينقصه إلاّ شيء واحد، وهو الذي كان ينقصه دائمًا في حياته الغاصّة بما فيها والمُتْرَعة الطافحة: ألا وهو الوقت.

ولابُدَّ أن الإعلان عن عمل بلزاك قد وَهَب لبلزاك شعوراً بالطمأنينة المفعمة بالزُّهُوّ. لقد أظهر للعالم، لأول مرة، ما يريد، وعزل نفسه عزلاً واضحًا عن كل أولئك الذين كانوا حوله، وهم الذين لم يكن واحد منهم يملك الجرأة، والحق في أن يعقد العزم على أن ينهض بمثل هذه الرسالة التي لا يُسبر غورها ولا تحدُّها حدود. أمّا هو فقد كان صاغ منها وشكَّل أربعة أخماسها. ويضع لنفسه أجلاً يتمثل في بضع سنين، خمسٍ أو ست- وإذا كل شيء قد أُنْجِز: النظام في الداخل، في عمله، والنظام في الخارج، في حياته، على حد سواء، ثم الإنطلاق بكل طاقته إلى مهمة لم يجرِّبها من قبلُ أبدًا تجربة جديّة، حيثما فَزِع إليها ملامِسًا إياها، ولم يكن يتمكَّن منها حتى الآن: وهي الإخلاد إلى الراحة، والعَيْش، والاستمتاع، وأن يكون سعيداً.

الفصل الحادي والعشرون

الانهيار الأوّل

وفي تشرين الثاني من عام ١٨٤١ كان السيد فون هانسكي قد مات، وكان بلزاك يأمل، في تفاؤله الذي لا يتزعزع، أن تكون الأرملة لا تنتظر إلاّ نهاية عام الحداد لكي تحقق غاية الخطبة، ولكن الشهر ينقضي بعد الشهر، وتظل تدافعه المرة بعد الأخرى، عندما يزورها في سان بطرسبرج، حيث تتابع قضية إرثها، ويضطر إلي أن ينتظر عاماً ونصف العام، إلى صيف عام ١٨٤٣، إلى أن تلين قناتها لإلْحافه آخر الأمر. وما من شك في أن الوضع لم يكن بسيطًا بالقياس إليها. وذلك أن رجلاً مثل بلزاك أشهر من أن يتمكن من المجئ إلى روسيا من دون أن يلفت النظر. ولم يحدث قطٌّ منذ أيام القيصرة كاترينا، أنْ وُجِد كاتب فرنسي ذو شهرة عالمية حقيقية في مدينة نهر النيفا، وكان وصول بلزاك خليقًا أن يلفت الأنظار إلى حد بعيد، وكان خليقًا أن يُلاحَظ، وسوف ينطبق الشيء ذاته عليها هي، التي كانت لا تتردد إلاّ على مجتمع النبلاء على سبيل الحصر، وكان يستقبلها حتى القيصر. ولم يكن هناك بُدٌّ من أن يكون ثمة لَغَط. فما دام السيد فون هانسكي على قيد الحياة كان من الممكن تفسير زيارة بلزاك أمام العالم على أنها زيارة ودية للعائلة كلها، بالقول إنه ضيف رب المنزل، وكان هذا خليقًا أن يحمي قدومه من كل تفسير باعث للهواجس، غير أن الزيارة لأرملة خليقة أن تعني نوعًا من الخِطْبة الرسمية، وحتى لو كانت مدام دي هانسكا ترغب رغبةملّحة قَدْرَ إلحاح بلزاك، في الزواج- وهو الأمر الذي لايطابق الواقع بحال من الأحوال- فإن تحقيق هذه الإمكانية لا يدخل

أبدًا في إطار تقديرها الحر وكانت القوانين السارية المفعول تفرض أن يعطي القيصر إذنًا منه بالزواج من أجنبيّ، ولم يكن من الجائز نقل قِيَم الثروة إلى الخارج من دون إقرار خاص. وعلى هذا فلم تكن مدام دي هانسكا، بحال من الأحوال، مستقلة كل هذا الاستقلال، ولم تكن ذات ثراء عريض بالقَدْر الذي كان بلزاك يحلم به، أو بالقَدْرِ الذي كانت عليه في أي بلد آخر بعد موت زوجها. وكان ما تملكه هو «روبلات مجمَّدة»، إذا شئنا أن نستعمل مصطلحًا حديثًا، وهي روبلات لا تستطيع أن تحررِّها إلاّ بطريق غير شرعي، وتأتي بها إلى فرنسا. ويضاف إلى ذلك بعدُ مقاومة ذويها، إذ كانت عائلتها، ولا سيما العمة روزاليا، لا يرَيْن في بلزاك العبقريَّ، أو الإنسان النابغة، بل يرَيْنَ فيه رجلاً مُثقلاً بالديون، سيّء الأخلاق يعيش في باريس حياة الاستهتار مع كل النساء اللواتي يتُحنَ له، ويحاول أن يُدير رأس الأرملة الموسرة، ليعيد الصحة والسلامة إلى أحواله المالية المُقَلْقَلَة. وربما كان لدى مدام دي هانسكا من الحزم والعزم ما يكفي لكي تتغلّب على كل هذه الأشكال من المقاومة من قبل ذويها الأرستقراطيين، ومَنْ يدري؟ ولكن لا بُدّ لها، فضلاً عن ذلك، أن تدخل في حُسبانها ابنتها غير المتزوِّجة، التي تحبها حبًّا جارفًا، ولم تَدَعْها وحدها يومًا منذ ولادتها. وكانت خليقة أن تجعل الزواج غير المتكافئ مستحيلاً في المجتمع الروسي، لا هي وحدها فحسب، بل ومعها الكونتيسة آنا، وتفسد كل أمل لها في الزواج.

وإذًا فليس في المسألة فساد طويّة، أو برود أو إعراض، كما يُفَسَّر ذلك في كثير من الأحيان تفسيرًا خاطئًا، عندما تدع مدام دي هانسكا بلزاك ينتظر كل هذا الوقت، بل كان، على النقيض من ذلك، عملاً من الأعمال المنطوية على الشجاعة، سماحُها له، على وجه الإطلاق، بالمجيء إلى بطرسبرج، وهو الأمر الذي يُعلن للعالم كله، على الأقل، عن إمكانية وجود رغبة لها في الزواج. ولكن السفر يعني تضحية بالنسبة لبلزاك أيضًا. ففي عصر عربة البريد تبعد روسيا عن

باريس أكثر مما تبعد اليابان اليوم. والوقت يمثل، بالنسبة لبلزاك، مالاً كما لا يكاد يمثله بالنسبة إلى أي إنسان آخر، بل إنه لا يستطيع أيضًا، كما هو مألوف، حتى أن يؤمِّن السيولة النقدية من أجله، وهو مضطر إلى التأجيل وتغيير المواعيد. وهو يعرف أنه لابدَّ له من الحديث إلى مدام دي هانسكا بشخصه، وأنه لا يستطيع تغيير موقفها النفسي، في كل الأحوال والظروف، بالرسائل وحدها، ولابُدَّ له من المجيء بنفسه وإقناعها والتمكُّن منها كما حدث في تلك الأيام، في جنيف.

ويبيع بلزاك ما يوجد بين يديه من المخطوطات، كما يبيع فوق ذلك، بعض المسرحيات غير المُسْتَكْمَلَة، ويفرغ، على وجه السرعة، ودونما جهد، من مسرحية «باميلا جيرو»، على أمل أن يحصل بعد ذلك على نسبة مئوية من الأرباح لدى عودته، من المسارح. وفي صيف عام ١٨٤٣ يستطيع أن يتوجَّه للإبحار بالسفينة في دُنكيرشِن، وفي السابع عشر من تموز يصل، بعد رحلة بحرية سيئة، إلى بطرسبرج.

ولابُدَّ أنه كان لقاءاً غريبًا، في الصالون الأنيق، في قصر كوتايسوف، في شارع الجراند مليون، حيث تقيم مدام دي هانسكا. لقد انقضى ما يقارب العقد من الزمان منذ لقائهما الأول، ومضت ثمانية أعوام لم يرَ فيها أحدهما الآخر. ولم يتغير بلزاك في هذه الأيام، بل أصبح أكثر بدانة، وظهرت بضع خصلات رمادية في شعره، غير أن حِدَّته هي ذاتها، وللطبائع التي تعيش بالخيال شباب خالد في ذاتها. غير أن السنوات الثماني تعني الكثير في حياة امرأة. وكانت الصورة التي رسمها لها مصور المنمنمات دافينجر في ڤينا، والتي لاشك في أنها كانت مقترنة بنيّة مهذَّبة، قد جعلها تبدو، وهي الأم لسبعة أطفال، غير شابّة، وتماثل سيدة ذات رزانة كرزانة المتقدمات في السن. أمّا بلزاك فلم تكن تغيَّرت بالقياس إليه، إذا جاز للمرء أن يصدق رسائله، بل كانت أوفرَ حظًا من الصبا والجمال مما كانت عليه في أي يوم مضى، وكان حبه لا يزداد في تصرُّفاته إلاّ لَهْفَةً وعَصفًا من الناحية

الشهوانية، بعد الفراق الطويل. وربما كانت السيدة فون هانسكا تأمل أن يصرف النظر عن مشروعه حين لايراها في صورة امرأة الأحلام التي يحلُم بها، بل يراها في واقع سنِيِّها الأكثر نضجًا. ولكن هذا لا يحدث بحال من الأحوال، فهو يندفع إلى الزواج، وكان قد فرغ من إعداد كل خططه، وجاء حتى بالتوصيات الضرورية ليطلب إتمام إجراءات الزواج أمام القنصل.

ولكن السيدة فون هانسكا تبذل له الوعد بإنجاز هذا في أجل لاحق، ويبدو أنها لم ترفض كل الرفض، ويبدو أنها أبلغته، فحسب، أنها لا تستطيع أن تمضي في إجراءات الزواج ما دامت ابنتها لم تتزوَّج بعد، وقد وُضِع لذلك أجلٌ على أية حال، ولا يمكن أن تستغرق المسألة إلاّ عامًا فحسب أيضًا أو عامًا ثانيًا بعده. ومثلما لبث يعقوب ينتظر راحيل، تابعًا لها ومرتبطًا بها، كذلك يفعل بلزاك مع السيدة فون هانسكا، لقد قضى السنوات السبع الأولى في انتظار موت زوجها، والآن تأتي فترة الانتظار الثانية، إلى أن تعثر الابنة على زوج.

ولا نعرف الكثير عن أيام بطرسبرج هذه. ففي الصيف تكون الأرستقراطية الروسية في مرابعها في الريف، والمدينة خالية، ويبدو أن بلزاك لم يرَ إلاّ القليل، وهو لا يذكر مرابع الآيرميتاج وصورها في المُتَنَزَّهات بكلمة واحدة، ومن الواضح أنه لم يكن يعيش، في إطار هوَسه وجنونه، إلاّ من أجل الهدف الواحد، وهو أن يغزو قلب الحبيبة أخيراً، وأخيراً يعود أدراجه، على الطريق البرّي، عبر برلين، ومعه وعد.

وفي تشرين الثاني يكون بلزاك في باريس، من جديد، وكانت عودته تعني، كشأنها دائمًا، سقوطًا في دُوّامة قاع البحر، على أن خسارة وقت يبلغ الأربعة أشهر تعني وحدها كارثة بالقياس إلى رجل تمثل حياته سباقًا متواصلاً مع الزمن، وينفلت الجحيم بأسره من عقاله مرة أخرى، أما الأم التي كانت تدبِّر أمور البيت أثناء غيابه «فتواصل تعذيبي وكأني شيلوك حقيقيّ.» وقد راهن، مرة أخرى، بكل شيء على

ورقة واحدة. لقد اعتقد، وهو صاحب الأوهام الذي لا سبيل إلى إصلاحه، بأن مسرحيته «باميلا جيرو» ستقوم بالعمل بدلاً منه في غيابه، وكان يفترض أن يعود عليه كل يوم بمبلغ يَعْدِل ما يستهلكه هناك، في روسيا، في أسبوع، وأنه سوف يستطيع أن يخلد إلى الراحة بعد العودة، غير أن صاحبه يبلغه، وهو بعد في طريق السفر، أن هذه المسرحية أيضًا سقطت، ولم تكن مبتذلة مثل مسرحية «ڤوتران»، بل هي أكثر حيوية ومطابقة للواقع من «الوسائل المساعدة للوغد اللئيم»، ولكن الصحفيين لم يغفروا له هجماته على فساد الصحافة الباريسية، فهاجموا العرض في مسرح الغاييتّيه بعنف بلغ منه أنه لم يكن هناك بُدٌّ من وَقْفِ عرضها.

كل شيء ضده، فأما أسهم خط الشمال الحديدي التي اشتراها من باب المضاربة (وليس من المعلوم بأية أموال» فقد هبطت، وكانت تصفية الأملاك في الليجاردي تثير القلق، وأمّا ترشيحه لمقعد في الأكاديمية فينتهي إلى الإخفاق، ومرة أخرى يقف قاب قوسين أو أدنى من الانهيار الشامل، ويُضْطَرُّ، مرة أخرى، إلى أن يدفع ثمن كل نَفَسٍ حرٍّ يتنفّسه، لياليَ من العمل.

ولكن ما يمثل سوء حظه يغدو سعادتنا، وحين يعجز المسرح أو يُقَصِّر، إذ كان المتابع المُنافِح لمسرحيتي «الدراموراما» يتكبَّد الهزيمة الأخرى، فقد اضطرّ إلى أن يعود إلي الرواية من جديد، ولم يكن له بُدٌّ أن يذهب مجددًا إلى عمله الرئيسيّ. وهوالكوميديا الإنسانية، التي يخرج منها الآن، في تسلسل سريع، المجلد إثر المجلّد (وذلك أول الأمر بطبعات جديدة منقّحة من «مشاهد من الحياة الخاصة» و«مشاهد من الحياة الباريسية). ويتفاوض مع المجلدات والصحف ويتفق على نشر «الفلاحين» التي يفترض أن تغدوا إحدى أعماله الرئيسيّة، وكان بلزاك قد عمل في هذه الرواية طوال سنين، ولكن يظل هناك، دائمًا خطر من ناحيــة الخطط التي يؤجلها وقتًا مفرطًا في الطول. وكان قد حَسَبَ لنفسه مقدار العائد الذي سيعود به عليه هذا العمل: أربعة عشر ألف فرنك مقابل الطبع التمهيدي في (لابريس) (وكان

هذا أكبر أجر له في صحيفة حتى الآن، بواقع ستين سنتيماً عن كل طبعة كتاب، أي بالإضافة إلى ستة وعشرين ألفاً. وكانت صحيفة (لابريس) قد أعلنت عن هذا العمل، وكان قد كتب نحو ثمانين ألف سطر، وإذا كل شيء يتعثَّر بغتة. وما عاد بلزاك يستطيع أن يواصل. لقد دارت العجلة فوق طاقتها، وحتى طاقة العمل الهائلة عند رجل مثل بلزاك. لها حدودها، وحتى حيويّته لا تستطيع أن تصمد لمثل هذا الاستنزاف لكل طاقاته، وقتاً أطول من هذا. لقد بدأ التآكل والتداعي رويداً رويداً. ومازال جذع الشجرة ينتصب عملاقاً، ومازال يحمل فيضاً من الثمار ومازال تاج الشجرة الأخضر يتجدَّد في كل عام، ولكن الدودة تنخر في النواة، في القلب. ويظل، على نحو مطّرد الزيادة والتواتر، يشكو من صحته المتداعية. وهكذا يكتب في نيسان عام ١٨٤٤:

«لقد غرقت في فترة من النعاس الذي لا يُقاوَم، والباعث للارتياح والتفريج. على أن طبيعتي تأبى المُضِيَّ والمواصلة، إنها تُخْلِد إلى الراحة، وماعادت تستجيب للقهوة، ولقد سكبتُ منها ألواناً من الفيض كاملة، لكي أفرغ من «مينيون المتواضعة- Modeste mignon» وكانت المسألة كما لو كنت أشرب الماء. وأنا أستيقظ في الساعة الثالثة وأغفو، وأتناول إفطاري في الثامنة، وأشعر بالحاجة إلى استئناف النوم، وأنام.

ويعاني من تقلُّص في الوجه، وأورام، وآلام في الرأس واختلاجات عصبية في عينيه، ويأخذ في الشك في أنه ستُتاح له المِقدرة على كتابة القسم الثاني من «الفلاحين»:

«لقد دخلت في طور من المعاناة العصبية الفظيعة، ومعاناةٍ في المعدة تنجم عن الاستمتاع المفرط بالقهوة، ولابُدَّ لي أن أُخلِد إلى الراحة الكاملة، فإن هذه الآلام الفظيعة الحادة التي لا مثيل لها، تعذبني الآن منذ ثلاثة أيام، وقد اعتقدت لدى النوبة الأولى أن المسألة تتعلق بمجرد مصادفة!. ويلاه، إني لَمُرْهَق إرهاقاً لا

يوصف. وفي صباح هذا اليوم أَجْرَيت حساباً تقريبياً لما أنجزت من عمل في السنتين الأخيرتين: أربعة مجلدات من «الكوميديا الإنسانية»، وخلال عشرين يوماً أو ما يزيد عليها بضعة أيام، بعد هذا اليوم، لن أعود صالحًا لشيء سوى القعود في عربة البريد ومواصلة السير.

ومرة أخرى:

«ها أنذا الآن، مُستَنفَدَ القوى مثل يعقوب بعد أن اصطرع مع الملاك، وثمة مجلدات ستة يترتَّب عليَّ أن أكتبها، راقدة أمامي، أو ما يزيد عليها أيضًا! ولقد وجهت فرنسا كلها أنظارها وأَصغَت بآذانها إلى هذا العمل، ويُستفاد هذا من أخبار المسافرين، والمكتبات، ومن الرسائل التي أتلقّاها، بالإجماع، لقد حصلت صحيفة «لابريس» فوق هذا، على خمسة آلاف مشترك، والقوم في انتظاري- وأنا أشعر كأنني كيس فارغ».

ولكنه ليس تعب الجسد فحسب، فقد لَقِيَت النفس ُما يكفيها «الإخلاد إلى الراحة»، والظفر بالراحة ذات مرة فحسب، وأن يعيش المرء ذات مرة، فحسب، وأن يخرج أخيراً من إسار العبودية الأبدية. ويخامره الشعور بأنه ليس له من منقذٍ إلا مدام دي هانسكا، وأنه لا يستطيع أن ينظِّم حياته إلاّ معها.

«هناك لحظات يفقد المرء فيها عقله بكل معنى الكلمة من جرّاء الانتظار، وأنا الآن أُكابِد هذه الحالة، لقد لبثت، طوال حياتي بأسرها أَشُدُّ نفسي إلى هذا الهدف حتى غدوت أشعر بأنني محطَّم من الداخل»

وبات الأدب لا يكاد يعنيه بعدُ، ولم تكن أفكاره تواكب عمله، ومن أجل ذلك يكتب فيسيء الكتابة، وماعاد يحلم بشخصيات عير شخصيته، بل بات يحلم بصياغة حياته هو.

«في عام ١٨٤٦ سنمتلك منزلاً من أكثر المنازل سحراً في باريس، ولن أكون مدينًا بعدُ بقرش واحد، وبدلاً من هذا سأكسِب، شيئًا فشيئًا، ٥٠٠,٠٠٠ فرنك

بعملي في الكوميديا الإنسانية، ومع ذلك فإن هذا لا يُدْخِل في الحساب استثمار هذه المسألة بعدُ. وهو يمثّل ما يعادل هذا القَدْر أيضاً، ولذلك فأنا، يا سيدتي الجميلة، طرفٌ في زواج ومعي مليون وما يربو عليه، إذا لم أقضِ نحبي، ولئن كنت لا أتزوج، حين أتزوَّج منكِ. فتاة فقيرة على وجه الخصوص، كما عبّرتِ عن ذلك، فأنت لا تتزوجين، إذا ما تزوَّجتِ مني، فتى فقيراً، ولسوف نكون زوجين ساحرين، متقدِّمين في السن، غير أن هذا لايلعب دوراً في الحب، كما هو الأمر في حالة سيسموندي وزوجته. وليس هذا بمصيبة إلا بالقياس إلى من يبقى حيًّا! إذ ستكون الحياة مريرة بالقياس إليه»

غير أننا مازلنا في الوقت الحاضر، أي في العام ١٨٤٤ وما من شك في أنه قد لاح بصيص من أمل. وكانت مدام دي هانسكا قد عقدت عزمها على أن تجيء من قَفْرِها الموحش إلى درسن. وكانت ابنتها، الكونتيسة آنا قد خُطِبَت، في تموز، إلى أرستقراطيّ غني، هو جورج فيتسيش، وبذلك تمَّ التخلُّص من كل عقبة- فيما يرى بلزاك، الذي يُسْعَد بالثقة أبداً، وحان الوقت الذي يسوق فيه يعقوب راحيل إلى بيت الزوجية، ولكنَّ هناك خيبة أمل جديدة فحسب. فالحق أن مدام دي هانسكا ترتحل في كانون الأول إلى درسدن لتقضي الشتاء هناك مع ابنتها ومع الصهر المستقبلي. وتذهب توسُّلات بلزاك أن يباح له أن يزورها هناك، أدراج الرياح. أتُراها تخاف من المجتمع الروسيّ، أم من ذوي قرباها الذين ربما التقوا بها هناك؟ أم أن صحبة بلزاك بلحمه ودمه ليست مستحبَّة عندها؟ وهل تعتزم تأجيل الزواج على وجه الإطلاق؟ هذا مالا يُعْرَف. وعلى كل حال فهي لا تسمح له بالمجيء. وتكون الإشارة الوحيدة التي يتلقّاها منها في هذه الحقبة أمراً باعثاً للانزعاج.

غير أنها تبعث إليه. بدلاً من المجيء إليه بنفسها، بتلك المؤتمنة على أسرارها، وجَليستها، هنرييت بوريل التي كانت تدعى «ليريت» في مراسلاتهما،

وكانت الفتاة بوريل قد أعلنت فجأة أنها تريد أن تغادر منزل آل هانسكي وتدخل دَيْراً، وهو قرار باعث للدهشة بالنسبة لكالڤينيّه سويسرية، ومن الواضح أن قضيّة ما، غامضة تدور أحداثها هنا. ويبدو أن موت السيد فون هانسكي أحدث في نفسها صدمة بالغة، إمّا لأن العذراء المتقدمة في السن كانت مرتبطة بالسيد فون هانسكي بطريقةٍ ما، وإما لأنها كانت تشعر بالإثم لقيامها بدور المتواطئة في الخيانة الزوجية التي أقدمت عليها السيدة. وعلى كل حال فقد ظهر توتُّر مناوئ لمدام دي هانسكا يتصاعد إلى عداوة خفيّة، وتتحوّل المؤتَمَنة على الأسرار إلى كارهة، وإلى ذلك تشير أيضاً لَمَحات في رواية بلزاك «العمة بيت» التي قامت بدور الأنموذج لها. وعلى كل حال فقد انتهى دورها بصفتها مؤتمَنَةً على الأسرار، وما عاد القوم في حاجة إليها. وباتت المهمة غير المريحة، وهي الإشراف على الفتاة المتقدمة في السن التي باتت ذات مزاج هستيريّ موكلة إلى بلزاك، وبات من الواجب عليه أن يعاملها معاملة المتلطّف المُداري، لأنه ملتزم بها ومُكلَّف، من قبل مدام دي هانسكا باتخاذ كل الخطوات الضرورية من أجل التمهيد لهذا التحوُّل، ويبدِّد وقته بزيارات لكبار رجال الدين، وللأديرة الواردة في الحُسْبان، وأخيراً يفرض كل شيء، ويشهد بنفسه مراسم الكِساء، وبذلك تختفي آخر مُطَّلِعة على فصل البداية في رواية «المجهولة».

وأخيراً، وفي ربيع عام ١٨٤٥، تأتي الرسالة التي تفيد أن السيدة فون هانسكا ترغب في رؤيته، وعلى الفور يلقي بلزاك بمخطوطاته في دُرْجِه، غير عابئ بأن الآلاف من القراء ينتظرون استئنافها، وبأن إدارات التحرير التي استكملت دفع أجوره يشعرون بالمرارة من جراء عدم إمكان الركون إليه والاعتماد عليه، فهو لا يحفل بالأدب، ومجال حياته يناديه، لقد عمل بما فيه الكفاية، ومن حقه أن يستريح، ويهدأ. ولابُدَّ أن ثمة اشمئزازاً كان يشعر به من هذا الإلحاح الأبديّ من قبل عمله الفكريّ، ومن دناءات الأعمال والصفقات، والديون وآجال التسديد.

ويحطِّم أغلاله مثل عبد من العبيد ويتوارى، غير آبه بما يمكن أن يحدث وراء ظهره بعد ذلك. وكان يُفترَض في أمه أن تناضل الدائنين. أما رئيس التحرير، جيراردان فَلْيُسَوِّ أموره مع مشتركيه كما يشاء، وأمّا السادة أهل الكوميديا الإنسانية الذين أوعزوا بالتزلُّف إليه وانتظاره، فلينتظروا إلى الأبد. أما الآن فهو لا يريد إلاّ أن يحيا، أن يعيش كالآخرين!

ولسنا نعرف الكثير عن هذا المُقام في درسدن، إذ تنقصنا رسائل بلزاك، مادام يظل في كل يوم مع مدام دي هانسكا، غير أن المرء يحسُّ أنه لابُدّ أنه كان وقتًا سعيدًا طافحًا بالبِشْر خِلْوًا من الهموم، ويُوَطِّن بلزاك نفسه توطينًا ممتازًا على الحياة مع العائلة، ولم يكن الخطيب الشاب، حسيب الكونتيسة، وهو الكونت فيستسيش، رجلاً ذكيًا أو دَمِثًا من أهل اللياقة على وجه الخصوص، وهو على شيء من الحُمق، يجمع الحشرات بهوى جارف، غير أنه طيب القلب. أمّا عروسه، الكونتيسة آنا، ففتاة غير ذات شأن، مولعة باللهو والاستمتاع، وكانوا جميعًا يحبون الضحك والاستمتاع، وفي وسع المرء أن يتصوَّر ماكان بلزاك يعنيه بالقياس إليهم في إطار سأمهم، وكان هو أيضًا يضحك بدلاً من أن يعمل، فهو أيضًا يستمتع بهزْلِ الحياة، وفي تذكُّرٍ منه لمسرحية هزلية رآها في باريس، يطلق على هذا الوسط الصغير، اسم «فرقة المُجّان». وهم يغدون ويروحون هنا وهناك، مثل فرقة للتمثيل، إلا أنهم لا يقدمون عروضًا، بل يدعون العالم يُسْمِعهم ويعزف لهم.

ذلك لأن المسألة لا تظل ضمن حدود المُقام في درسدن، بل يرتحلون معًا إلى مَرْبَع كان، وإلى كارلسروهه، وإلى شتراسبورغ، ويبلغ من نفوذه على الأسرة أنه يستطيع أن يقنع مدام دي هانسكا أن تقدم تمثيلية الفرقة الزائرة في باريس أيضًا، باسم مستعار، بلا ريب. وكانت باريس في حد ذاتها أرضًا محرَّمة على الرعايا الروس، وكان القيصر لا يسمح لرعاياه بالإقامة في فرنسا التي تحرّكها دوافع ثورية، ولكن بلزاك أستاذ في التخلُّص من صعوبات من هذا النوع، وتحصل مدام

دي هانسكا على وثيقة سفر على أنها أخته، وتُقَدَّم الكونتيسَّة آنا على أنها ابنة أخته، أوجيني، وفي باريس يستأجر لهم في شارع باس منزلاً صغيراً، وبات يستمتع الآن استمتاعًا لا يوصف، إذ يُتاح له أن يُرِيَهم باريس، ومَنْ تُراه يستطيع أن يقوم بدور الدليل في باريس مثلما يقوم به هو ؟ ويتولى الشرح والتفسير، ويستمتع أثناء ذلك بباريس، شأن الزائر الغريب. وفي آب ينطلقون معًا إلى فونتنْبلو، وإلى أورليان، وإلى بورج، ويريهم تور، مسقط رأسه، ومن هناك يذهبون إلى روتردام، ولاهاي، وأنْفِرْس، وبروكسل. وهناك تكون استراحة هنيهة من الزمن، ويتولى جورج منيسيتش مرافقة السيدتين بينما يعود بلزاك أدراجه إلى باريس. غير أنه يعود، في أيلول، مرة أخرى، إلى بادن- بادن حيث يقضي معهم أربعة عشر يومًا، ثم تتوجه فرقة المُجّان المشعوذين (Saltimbanques) غير آبهة، في رحلة إلى إيطاليا، ويرتحلون، بالزورق، من شالون إلى ليون، ومن هناك إلى أڤينيون. وفي نهاية تشرين الأول يكونون في مرسيليا، ثم يمتد الطريق إلى نابولي ويأخذ في التحقُّق حلمه القديم برؤية إيطاليًّا في صحبة حبيبة له، وما أَبَتْهُ عليه دوقة كاستري يُتاح له الآن من قبل الكونتيسة رزيڤوسكا.

وفي كل هذه الرحلات لا يكتب بلزاك، ولاجرة قلم، وهو الذي يجلس في العادة ست عشرة ساعة إلى منضدة الكتابة، لايكتب حتى الرسائل، وما عاد يوجد بالقياس إليه أصدقاء، ولاناشرون، أومحررون، ولاديون، ولايوجد إلاّ هذه المرأة والحرية، أما الكوميديا الإنسانية فقد نسيها، وبات الخلود لايهمه، ولايعنيه، ولابُدَّ أن بلزاك استمتع، بحكم طبيعته، استمتاعاً هائلاً، وكان بلزاك الذي لبث، على مدى عشر سنين، يعطي من نفسه، ويَسكُبُ منها ويتدفَّقُ عطاؤه كأحسن ما يستطيع ذلكَ امرؤٌ من أهل هذه الأرض، يعود فيمتصُّ من جديد، ويجمِّع طاقاته، وكان السعيدُ يُخْلِد إلى الصمت. إنه أحد الفنانين الذين لا يبدعون إلاّ بالانطلاق من المِحْنة.

وماذا عن الديون، والالتزامات التي كان أخذها على عاتقه؟ لقد أُرْخِيت عليها السدولُ فجأة. وعلى قدر ما يستطيع المرء أن يتابع ذلك بالحُسبان والتقدير (ومامن أحد أتيح له أن يوغل في متاهة التصرُّف البلزاكيّ بالمال، في أي يوم من أيام، كلَّ الإيغال) فإنه ليس من الجائز أن نَحْسب أن المال الذي كان يُصْرَف منه على هذه الرحلات كان ماله. ويبدو أن ثمة شراكة مالية معيَّنة قامت منذ تلك الأيام بين كلا الطرفين. ولم تكن السيدة فون هانسكا عقدت عزمها على الزواج منه، غير أنها كانت على استعداد أن تشاطره حياته، ومصيره، وماله أيضًا، بضع سنين، من دون أن تلتزم التزامًا نهائيًا حاسمًا، وكان، وهو العبقري، يشعر بأنه ابن الطبقة الوسطى. وكانت، وهي الأرستقراطية، تشعر أنها أكثر حرية. وكانت ترى أن من الرائع أن يلتئم شملها معه، ومع الابنة والصهر المستقبليّ، ويكونوا معًا بلا هموم، وربما كانت لا تخشى إلاّ شيئًا واحدًا، هو أن تُضْطَرَّ إلى أن تكون معه وحده.

الفصل الثاني والعشرون

بلزاك، الجَمّاع

ولو أنَّ امرءاً وضع رسائل بلزاك العائدة إلى عامَيْ ١٨٤٥ و ١٨٤٦، من دون توقيع بين يَدَيْ رجل ممن يتحلَّوْن بالنزاهة، وسأله عن مهنة كاتبها وميله الباطني لأجاب ذلك الرجل بلا ريب: إنه جَمّاع تحف، أو جمّاع صور، وربّما كان مضارباً بالأراضي أو سمسار بيوت، وعلى كل حال فما كان ليَحْزِر أنه كاتب روائي. وفي الواقع كان استكمال «الكوميديا الإنسانية» في تلك الأيام يشغل بلزاك أقل كثيراً مما يشغله المنزل الذي يريد أن يشيِّده لزوجة المستقبل من الأموال التي ينتظرها من ميراثها المقبل ومن أعماله. والآمال لا تلبث، على الدوام، أن تتحوَّل، عند صاحب الأوهام الذي لا سبيل إلى شفائه، على نحو رائع، إلى أشكال من اليقين. وهكذا يشدُّ، هذه المرة أيضاً، العربة أمام الحصان، أو، بالأحرى، يشدُّ العربة الفارغة أمام المكان الخالي الذي يفترض أن يكون الحصان واقفاً فيه ففي عام ١٨٤٥ لا يملك بلزاك منزلاً، ولا موضعاً للبناء يمكنه أن يشيد عليه منزلاً جديداً، وكان لا يملك، من باب أولى، المال، لكي يشتري لنفسه موقع البناء من أجل القصر الجديد، غير أنه يشرع في تجهيز المنزل الذي مازال غير موجود على الإطلاق، بهمة ونشاط. وكان جنون جديد قد دَهَمه: هو جمع المتاع المستعمل، ولم يكن بُدّ للمنزل الذي يفترض أن يُؤوي امرأة مثل رزيفوسكا حفيدة حفيدة أخ الملكة، أن يكون حجرة كنوز وقاعة للصور، بل متحفاً، ويمضي هذا الخيالي العظيم، بكل الجد، وهو الذي يُرْهن متاعه مرة في كل شهرين من أجل مائتي فرنك

أو ثلاثمائة، يصنع ما يصنعون في اللوفر، أو المباني التي تقام في المتنزهات، أو متاحف الصور، أو في قصور الملوك والأباطرة، فهو أيضًا يريد هولْباين الخاص به، ورافائيله، وسيباستيانو ديل بيومبو، وفان ديك الخاصَّيْن به، ويريد واترو ورامبرانت الخاصَّين به، وروائع الأعمال من كل العصور، في قاعته، معلَّقين على جدرانها، وينبغي أن تقوم في صالونه أنْفَس قطع الأثاث الأثرية، وأروع قطع الخزف الصيني اصطفاءاً من الصين وسكسونيا، وأروع النقوش على الخشب، ويفترض أن يتحوَّل إلى صورة من صور الأحلام مثل قصر علاء الدين.

وأنَّى لبلزاك الآن أن يؤَمِّن صوراً لهولباين أو تنتوريتّو من أجل بيته، من دون رأس المال الضروري، إنها مسألة بالغة البساطة، وذلك بأن يجمع بالشراء من باعة المتاع المستعمل، وصغار التجّار، أنواعًا شتى من اللوحات القديمة ذات الجلود الغليظة الخنزيرية، وما يسمى بعروض المناسبات، ثم يَنْسِب هذه بعد ذلك إلى هولباين وتنتوريتّو. وكان ميله إلى المضاربة الذي ورثه عن أمه يبحث فجأة عن مجال يخترقه من خلال هذا الاقتناص للتُّحف، ولم يكن يهمُّه المكان الذي يقيم فيه: إذ لابُدَّ له أن ينقِّب في كل مدينة، لدى تجار المتاع القديم، وكان هذا قسراً مغناطيسيًا لاحيلة فيه على وجه الخصوص. فهنا يشتري الأُطُر، وهناك يشتري المزهريّات، وهنا يشتري الشمعدانات ذوات الأذرع المتعدِّدة. ويظل طوال أيام يبحث هنا وهناك في محالّ الأمتعة القديمة. وكانت الصناديق الملأى بالكنوز تأتي من نابولي، ومن جنوة، ومن درسدن، ومن هولندا، من قبل أن يعلم إلى أين وعلى الأغلب من دون أن يستطيع دفع ثمن الشحنة- من أجل قصر بلزاك المستقبلي. ومن البَدهي أنه لا يتمتع، على الرغم من عبقريته، بأدنى مقدار من الفهم للقيمة الحقيقية لهذه الأشياء، وكان أقل التجار شأنًا يتفوَّق عليه، غير أنه يتصرَّف في جوٍّ من السكْر، ومثلما تنتاب المحموم الهَلْوسَات، كان بلزاك يرى في هذه المشتريات أرباحًا تتصاعد تصاعداً جنونيًا على نحو ثابت. ويُقدِّر ممتلكاته من

هذا المتاع بأربعمائة ألف وخمسمائة ألف من الفرنكات، وهو المتسوّل، والمَدين الأبدي، منذ عام ١٨٤٦، وتتضمن رسائله إلى مدام دي هانسكا، على الدوام، نشرات حول الضربات الصائبة الجديدة الرئيسية في مشترياته.

على أن مدام دي هانسكا نفسها لم تكن مطبوعة على الاقتصاد على وجه الخصوص، بل كانت هي أيضًا، وابنتها، يستحوذ عليهما جنون التسوُّق، وقد كان لتجار المجوهرات في شارع لاباكس، فيهما، زبونتان لابأس بهما، وكانت، قبل كل شيء، تحيط بها أمتعة الهندام التي تتمتع بأفضل المواصفات التي يُؤْثِرُها القرن، في نقوش ذهبية نفيسة إلى حد مبالَغ فيه، بطريقة التطعيم، غير أنها مازالت على أية حال، تَحْسُب وتقدِّر، وإن كان ذلك بمبالغ كبيرة. وكانت وضعت تحت تصرفه، على ما يبدو، مبلغًا قدره نحو مائة ألف فرنك- وهو ما يسمى باسم الدُعابة «حبيبي الذئب- Trésor loup- loup) تبعًا لاسم الدعابة الخاص بمراسلَتَها، لشراء المنزل وتجهيزه والفكرة الأساسية صحيحة، كما هو الحال دائمًا عند بلزاك، فهو يريد أن يجهِّز منزلاً وأن يشتري من أجل ذلك أثاثًا أثريًا، ولو كان يعرف كيف ينتظر إلى أن تسنح فرص ملائمة، لأمكنه أن يشتري بمبلغ الفرنكات المائة ألف، المتواضع المرسل من السيدة فون هانسكا، منزلاً جميلاً، وأن يؤثثه على نحو مريح، بل بإنفاق سخيّ، غير أن بلزاك لا يستطيع الانتظار، إنه لا يستطيع أن يتوقف، وينشأ عن مجرَّد المشتري بالمصادفة، على الفور، جمّاع، ومضارب أصابه مسٌّ من الجنون. وعلى حين يستطيع هو أن يقول عن نفسه بحق إنه يحق له أن ينافس، بصفته أديبًا، كل معاصر له، يكون من البلادة والحِمق أن يقيس نفسه، بصفته من مشتري الصور، إلى الملوك والأمراء، وأن تنازعه نفسه إلى إنشاء ما يضاهي اللوڤر، خلال عامين أو ثلاثة أعوام، وهذا أمر مفهوم جيداً، ومن دون مال تقريبًا. ويظل على الدوام يسري في حياته خيط دقيق يسير بين العقل والجنون، وفي بعض الأحيان ينتاب مدام دي هانسكا القلق، وتذكِّره بوجوب الحذر، وعندها يثبت لها

بلزاك بحسابات معقَّدة، مقدار ذكائه حين ينطلق إلى عمله، ومقدار حسن تدبيره لأمور بيته وبراعته في ذلك، وفي بعض الأحيان ينتاب المرء التعب من هذه المغالطات المتواصلة لنفسه.

ولكن من الممتع كل الإمتاع أن نتابع ذات مرة صفقات بلزاك هذه ونرى كيف يكسب المال هذا الذي سيكون في المستقبل مالك صالة التحف. فها هو ذا يشتري، ذات مرة. مثلاً، مجموعةً لأدوات المائدة من الطراز الصيني القديم لتسعة أفراد، ويقول بلهجة المنتصر.

«لقد حصلت على هذا مقابل ثلاثمائة فرنك، وقد دفع دوماس أربعة آلاف من أجل مثل هذه المجموعة، وتبلغ قيمة مجموعتي ستة آلاف على الأقل.

وبعد بعض الوقت يُضْطَرُّ، بالطبع، إلى أن يقرر قائلاً، بصوت متطامِن، إن الخزف الصيني مصنوع في هولندا:

«ليس صينيًا إلاّ بمقدار كوني أنا صينيّـًا»

ويصنف قائلاً بأسى:

«صدقيني، إن جمع المتاع المستعمل علم من العلوم»

على أن هذا لا يحـول، بالطبع، بينه وبين أن يستـأنف دراسـة هذا العلم الثقيل، وهو مسرور، ولينظر المرء فحسب في مقدار الأعمال والصفقات الممتازة التي يتولى القيام بها في يوم واحد (هو الخامس عشر من شباط ١٨٤٦).

«لقد ظللت أروح وأجيء هنا وهناك ثلاث ساعات، واشتريت مشتريات، أولها: فنجان أصفر (بخمس فرنكات، وتبلغ قيمته عشر فرنكات على الأقل. وهو عمل فني (أشبه بمعجزة)، وثانيها: فنجان من خزف سيڤر الأزرق، طراز الأمبراطورية عرضوه على تَلْما، يتميَّز بغنى في الألوان لا يُصَدَّق، مع باقة أزهار، لابدَّ أنه يكلِّف وحده خمساً وعشرين من الدوكات (والسعر عشرون فرنكًا)،

وثالثًا: ستة مقاعد ذات تنفيذ غني، ملكيّ على وجه الخصوص، وسوف احتفظ بأربعة منها، وأطلب أن يُصنع من اثنين منها أريكة صغيرة لشخصين، ألا إنها لأبَّهة ذهبية! وبذلك نكون حصلنا على ما يقارب التجهيز اللازم للصالون الصغير على الإجمال (مقابل ٢٤٠ فرنكًا).

وفي اليوم ذاته يجد أيضًا، ودائمًا في حالة التجوال والتسكُّع:

مَزْهَرِيتين من خزف سيڤر- لابدّ أنهما كلفتا خمسمائة إلى ستمائة فرنك (واحتفظي بالسر لنفسك، فقد حصلت عليهما بخمسة وثلاثين فرنكًا) وهذه فرصة لم أشهد مثلها بعدُ أبدًا. الناس لا يعرفون باريس على وجهها الصحيح. ويستطيع المرء، بالوقت والصبر أن يعثر هنا على كل شيء، ورخيصًا فوق هذا. ولو رأيت الفنجان الأصفر الملكي الذي حصلت عليه بخمس فرنكات لأَبَيْتِ أن تصدقيني.

وفي الوقت ذاته يتفاوض بعدُ من أجل ثُرَيّا:

«إنها تعود إلى ممتلكات الأمبراطور الألماني، وتَزِن مائتي رطل، وهي من البرونز الثقيل القوي، والبرونز وحده تبلغ قيمة ٢ فرنك و ٢٠ سنتيم مقابل كل كيلو غرام، وسوف أحصل على الثريا مقابل مجرّد قيمة المعدن: أي ٤٥٠ فرنك- أي مجانًا بكل معنى الكلمة، وسوف تسكنين مثل سُكْنى الملكة، محاطة بكل ما تستطيع الفنون أن تقدمه من بذل أميريّ، متمتعة بكل ما يمكن الوصول إليه من الغنى والأناقة، وتظل قيمة رأس المال، فضلاً عن ذلك، محفوظة لنا».

ذلك لأنه على يقين أنه المتسوّق الذي يشتري بأرخص الأسعار على وجه الأرض:

«وأريد أن أن تعترفي أنتِ أيضًا بمدى براعة صاحبك العزيز في الإدارة، والأسفار والاقتصاد، فأنا أُنَقِّب في كل أركان باريس وزواياها، ومن يوم إلى يوم تتضاعف أسعار الأشياء المستحسنة حقًا».

وفي بعض الأحيان تحدث أيضًا مصائب يسيرة، يلاحظها حتى بلزاك نفسه.

«لقد عثرت على صورة من المنمنمات لمدام دي سيفيني، من عصر لويس الرابع عشر بسعر مائة فرنك، فهل تريدينها؟ إنها من روائع الأعمال الفنية».

وفي اليوم التالي يصحح كلامه قائلاً:

«هذه المنمنمة مثيرة للاشمئزاز»

ولكن من حسن الحظ أنه حقق ضربة رئيسيةً أخرى، من جديد:

لقد اكتشفت صورة لعمتك الأولى، ملكة فرنسا، ماري ليسينكا، مماثلة لها على نحو فائق، وبريشة كويبيل، أو من مرسمه على كل حال. لقد قلت لنفسي إنه ينبغي لك أن تؤمّنيها، يا عزيزتي، وقد اشتريت هذا الأثر بمجرد قيمة إطاره.

وبعد أسبوع يتَبيَّن له أن هذا ليس كويبيل، بل هو مصورٌ يقال له لانكريه، ومن حسن الحظ أن الإطار تَعْدل قيمته ثمانين فرنكًا وحده فيما يقال، بالقياس إلى تاجر، وهو لم يُنْفِق، مقابل كل هذا، سوى مائة وثلاثين فرنكًا، وفي بعض الأحيان يوشك المرء أن يرتاب في عقله، عندما يُدَوِّن على هذا النحو قوله من دون تردُّد.

«المنظر الطبيعي من لوحات رويز دائيل، وميلقل يحسدني على لوحتي لناتورا ولهولباين مقابل ٣٥٠ فرنك»

وعندما يُدْخِل المرء في حُسْبانه أن بلزاك نفسه، يصف، في الوقت ذاته، في روايته «أولاد العم بون- Cousins pons»، القيمة الهائلة للَوحة من لوحات هولباين، فلا بُدَّ له عندئذ أن يتساءل ألم يخطر بباله، مرة واحدة، فكرة مؤداها لماذا يُفْتَرَض في تجار الصور المخبولين أن يَدَعوا له، هو على وجه الخصوص، لوحات هولباين مقابل ثلاثمائة فرنك؟ غير أنه لا يطرح هذا السؤال، فهو يحلُم، ويكتب رواياته، ويشتري، وعند كل ناصية شارع تنتظره صفقة رائعة ما، من الصفقات:

«لقد زُرعت أرض باريس مباشرة بأمثال هذه الفرص!»

على أن الوجه المعكوس لهذه الصفقات الرائعة لن يتجلّى إلاّ عند البيع في المزاد في فندق دْرووّ، بعد موت زوجته، إذ يرسم خطوط الميزانية التي لا ترحم. ولم يسبق للقوم قطُّ أن سمعوا شيئًا أكثر من هذا عن لوحات هولباين ورويز دائيل، ولا يوجد، في أي مجموعة «من ممتلكات بلزاك» صورة تستحق الذكر على أيّ نحوٍ من الأنحاء مصحوبة بعبارة دالّة على الأصل والمصدر ثم إن الأسعار التي تحققت لأكبر لوحاته الفخمة تمثّل اندحاراً، ولم يشهد هذا أيضاً، ولكن حتى في أيام حياته يمرّ بتجربة، وتاريخ أثاثه الفلورنسي يكشف له- أو كان خليقًا أن يكشف له- مدى الفرق بين سهولة الشراء وصعوبة البيع. وكان ينبغي له في الحقيقة أن يتعلّم هذا الدرس، حتى من المضاربة بعقارات «ليجاردي» التي اشتراها بمائة ألف فرنك واضطر إلى التخلّي عنها بخمسة عشر ألف فرنك.

وفي الحادي والعشرين من كانون الأول ١٨٤٣ يرى، عند تاجر متاع مستعمل، كائنًا ما كان، منصة كتابة و «كومو دينة قديمة». وكانت كل المرجّحات تفيد أنها متاع يعرض كثيراً في كل مكان، من الطراز الإيطالي. ولكن سرَعان مايقول الآن عن هذه القطع من الأثاث التي ينظر إليها بتلك النظرة التي يتميَّز بها أصحاب الخيال، والتي كان يُميِّز بها في أيامه على الفور أي ساعة في محل من محالّ المتاع المستعمل، على أنها ساعة الملكة هنرييت ملكة انكلترا، مايلي:

«هذه قطع فخمة من قصر، والمسألة تتعلّق بالخزانة ذات الأدراج و (الكومودينة) اللتين صُنعتا لماريادي ميديتشي، وهما تحملان شعاراتها، وكلتا القطعتين من خشب الآبنوس الضخم الصلب، المُطَعَّم بالصَّدَف، تتميَّزان بغنى ورِقّة وإرهاف حس ودقة وجمال في الرسم إلى حد يبلغ منه أن المصطاف السعيد المسرف في الاصطياف كان خليقًا أن تنتابه الغيبوية من جرّائه. وتولاني ذهول كامل، هذا شيء يليق به أن يكون في اللوفر!

والآن يستطيع المرء أن يقرِّر بالاستناد إلى مثال من المدرسة، مدى الارتباط الذي لا تنفصم عراه عند بلزاك، بين الحدس والمضاربة. ومع الحماسة يستيقظ فيه الولَع بعقد صفقة، وكانت الغريزة الأولى مازالت بعدُ غريزة جمالية، بل كانت مرتبطة بمزيج من الوطنية يخالطها:

«لابُدَّ للمرء أن ينقذ هذه القطعة التذكارية التي تذكِّر بآل ميديتشي، وبالملكة التي كان روبان يرعاها، من أيدي البورجوازية! ولسوف أكتب في ذلك مقالة في عشرين صفحة».

غير أنه يضيف، في الوقت ذاته، قائلاً:

«ومن وجهة النظر الخاصة بالمضاربة يمكن كَسْبُ ألف فرنك من هذه»

وفي اليوم التالي، أي في الثاني والعشرين من كانون الأول، حصل بلزاك على قطعتي الأثاث بمبلغ ١٣٥٠ فرنك (وكان من حسن الحظ أنها تدفع، في معظمها، على مدى عام) ويكون وهم جديد، أكبر عبثية من معظم الأوهام السابقة، يأخذه مجانًا في إطار عمليه الشراء. «لقد اكتشفت اكتشافًا تاريخيًا رائعًا، وسوف أقرِّر الحقائق غداً بدقة أكبر. لم يكن يعود إلى ماريا دي ميديتشي سوى (الكومودينة). أمّا الخزانة ذات الأدراج فتحمل شعارات آل كونسيني ودوق إيبرنون، ولكنْ على هذه الخزانة نقشت حروف الميم في تعانق يتلوى على نحوٍ مستحب! وهذا يبرهن على العلاقات الحميمة لماريا ميديتشي، بهذا أو ذاك من الذين يتمتَّعون بالحظوة لديها، فقد وهبت له «كومودينتها»، وأوعزت، فضلاً عن ذلك، بأن تُصْنع له خزانة ذات أدراج، وأوعز المارشال دانكر - وهو شخصية مضحكة بلا ريب من حيث كونه مارشالاً، بأن تطَعَّمَ الخزانة ذات الأدراج، بالصَّدف، في أشكالِ مدافعٍ ورموز حربية أخرى.

وفي هذا التاريخ الخيالي يصح مقدارٌ يبلغ من كثرته أن كونيني، وهو الذي يُقال له فيما بعد، المارشال دانكر، كان بالفعل من ذوي الحظوة لدى الملكة ماريا،

وكل ما تبقى بعد ذلك فهو إضافة قصصية، بحكم البذهية، ولكن كلتا القطعتين أصبحتا، بالقياس إلى بلزاك، خلال يوم واحد، أَنْفَس إلى حد بعيد، كما أنه بات يعرف السعر الجدي وكان يضع نصب عينيه مُشْتَرِيًا:

«الكومودينة وحدها تبلغ قيمتها أربعة آلاف، وسأبيعها للملك، من أجل متحف سومر آرد، وسأحتفظ لنفسي بالخزانة ذات الأدراج. وسأعرض الكومودينة أولاً في القصر، لأن هذه القطعة تليق بمتحف اللوڤر.

وهذا الربح الذي لمّا يتحقق بعدُ أبدًا، مخصَّصٌ، في خيال بلزاك، بحكم البدهية، لمجرد عقد صفقات رائعة وسهلة:

«عندما أَظْفَرَ من لويس فيليب بثلاثة آلاف فرنك مقابل الكومودينة، سأكون عندها راضيًا كل الرضى، فبذلك أكون حققت ربحًا قدره ١٤٥٠ فرنك، وهذا صندوق نقدٍ صغير يستطيع المرء به أن يواصل تَجْواله في عالم المتاع المستعمل، ويزيد من كنوزه!

وما من شك في أن مدام دي هانسكا لا تصدق كل التصديق، روعة هذه الصفقة، وهذا من غرائب أمرها، وتلوم بلزاك على «جنونه بالأثاث». وعلى أثر ذلك يكتب إليها بلزاك قائلاً:

«لقد أصدرت تكليفًا ببيع إحدى قطعتي الأثاث الشهيرتين بالسعر الذي كلَّفتْنيه كلتاهما معًا وبذلك أكون حصلت على الأخرى مجّانًا، وأحتفظ، فضلاً عن ذلك بمبلغ يتبقىَّ لي أستطيع به أن أدفع ثمن شمعدان.

وبحكم كونه رجل أعمال متمرِّسًا، مُحنَكًا، يحاول تشجيع هذا البيع عن طريق ملاحظات إعلانية في الصحافة:

«أتوقَّع أن تَرَيْ في الصحف، في الأيام التالية، أيَّ ضجَّة أثارها اكتشافي!».

وفي الحادي عشر من شباط، يظهر بالفعل، في «المِسّاجير» الوصف الموضوع من قبل بلزاك:

اكتشف أحد كُتّابنا الأكثر شهرة، والذي هو من هواة التحف، بمحض المصادفة، قطعة أثاث ذات قيمة تاريخية قصوى، والمسألة تتعلّق بكومودينة كانت تزدان بها حجرة نوم ماريا دي ميديتشي. وهذه القطعة من الأثاث التي هي من أروع الأعمال الفنية التي يستطيع المرء أن يتصورها فحسب، مصنوعة من الآبنوس الغليظ الصلب.

ولكن الملك، على ما يبدو لا يمكن كسبه إلى جانب شراء قطعة الأثاث الفخمة من ممتلكات واحدة من أسلافه الأشراف، وأخيراً يأتي بضعة تجار أغراهم إعلان الصحيفة، فيهلّل بلزاك هاتفاً:

«لقد حضر مُشْتَرٍ، وهو يريد أن يعطي في كلتا قطعتي الأثاث الفلورنسيتَيْن، عشرة آلاف فرنك، ثم يبيعها إلى التاج بعشرين ألف فرنك، وقد وعد دوفور، التاجر، بألف فرنك، لقاء السمسرة، غير أني لا أريد أن أعطي إلاّ الكومودينة، والناس يُهْرَعون من كل حدب وصوب، وحتى تجّار التحف، والناس يُعْجَبون بقطعتي الأثاث بالإجماع، وبأكبر قَدْرٍ من الحماسة.

وحين ينظر المرء عن كثب يبدو له أن المشترين والمعجبين عادوا فانسحبوا، ولم تكن المسألة قد اختتمت في آذار بعدُ، وكان كل امرئ سواه على يقين من خطأه. أمّا بلزاك فكان، بدلاً من ذلك، يرفع الأسعار في خياله بمقادير لا يستهان بها.

«الآن توجد لديَّ إحدى قطعتَيْ الأثاث التي أريد أن احتفظ بها، وهي أعلى من أن يَقَدِّرها ثناءٌ حقَّ قدرها، بل لا يستطيع المرء على الإطلاق أن يصف مقدار روعتها، على أنني لن أحتفظ، بالطبع بأيٍّ من القطعتين، نهائيًا. وقد قدَّر أشهر

تجار التحف لدينا قيمة هذه القطعة بأربعين ألف فرنك. أما نجار الأثاث الذي جدَّدها، فيقول إن الخزانة ذات الأدراج فيها من العمل ما تصل قيمته إلى خمسة وعشرين ألف فرنك، ويقول إنه يكمن في هذه القطعة ما لا يقلُّ عن ثلاث سنوات أو أربع من العمل اليدوي، وإن نقوش الأرابيسك التي طُعِّمت بها جديرة أن تكون لرجل مثل رافائيل. وسوف أرى ألَن يعطيني فيها دوق سوندرلاند في لندن، أو رجل يقال له «بير»، أو أي رجل يقال له روبرت بيل، ٣٠٠٠٠ جنيه ستيرليني وفي مقابل ذلك أُعطي القطعة، وعندئذ أستطيع أن أسدِّد ديوني، غير أني أحتفظ بها إلى أن يتم هذا، في مسكني. وينقضي الشهرُ المرة بعد الأخرى، ولم يظهر جنيه واحد من الجنيهات البالغة ثلاثين آلفاً، ولكن بلزاك لا يتراجع، وبمثابرة جديرة بالإعجاب، يدبِّر مشروعًا جديداً، فسوف يأتي إلى «متحف العائلات» بصورة لقطعتي الأثاث هاتين الملكيتين ويفترض أن تدفع له الصحيفة خمسمائة فرنك مقابل حق النشر، وبذلك لا تعود القطعتان تكلِّفانه ألفًا وثلاثمائة وخمسين فرنكًا، بل ثمانمائة وخمسين فرنكًا فحسب.

ولكن الربيع ينقضي، وينقضي الصيف، ولم تظهر الصورة، وما من مشترٍ يظهر، وفي تشرين الأول يلوح بريق من أمل:

«شيء جديد عظيم! روتشيلد مهتمٌّ بقطعتَيَّ من الأثاث الفلورنسي، ويريد أن يزورني، ولا شك في أن ذلك سيكون لمشاهدة القطعتين في مسكني، وسوف أطلب ٤٠,٠٠٠ فرنك.

وهذا يعني أنه بعدَ أنْ لم يحقق بلزاك، على الرغم من كل الإعلانات، نجاحًا خلال عام، في كَسْبِ الفرنكات الثلاثة آلاف من تَسَوُّقه هذا، يبادر على الفور، وعلى أثَر كلمة مهذَّبة عابرة، إلى رفع الرقم، من جديد، إلى أربعين ألفًا، وما عاد المرء يسمع شيئًا عن زيارة روتشيلد. وهنا يدور الحديث عن دوق ديفونشاير:
ويتنفَّس بلزاك الصعداء:

«ألا ليت شيئًا ما يحدث! إذًا لكان فيه انعطافة!»

ولكن هذا لا يفضي إلى شيء بحكم البدهية، فليس هناك «انعطافة»، ولن تكون هناك «انعطافة». ويقوم بمحاولة أخيرة في السنة التالية، مع ملك هولندا، وفي غمرة يأسه يذكر الآن الرقم اللامعقول أبدًا، وهو سبعون ألف فرنك، أي سبعة أضعاف السعر الذي لم يتمكن من الوصول إليه في باريس، بل يعبِّئ صديقه، تيوفيل غوتييه من أجل هذا المشروع.

«أنا أحتاج إلى غوتييه من أجل مقالة في ركن الأدب والفن عن قطعتَيَّ من الأثاث الفلورنسي، وليس أمامنا من الوقت إلاّ ثمانية أيام لتحضير الصُّور، سوف أبعث بالصور عندئذ إلى ملك هولندا، وسوف يُحْدِث هذا ضجة!

ولكن هذه الضجة يتبدَّد صداها أيضًا- ولم يرَ السبعين ألفًا من الفرنكات، ولا الخمسين ألفًا، ولا الخمسة آلاف، في أي يوم من الأيام، مقابل هاتين القطعتين من الأثاث الملكي ولم يُوَفِّر إلاّ الموت، أن يعرف السعر الباعث للتهكُّم، الذي تحققه القطعتان عندئذ في المزاد في فندق دْروّو.

وتتكدس قطع الأثاث، والصناديق والكومودينات، من أجل بيت المستقبل وليس من السهل رعاية هذه الكنوز، لأن الدائنين يتربَّصون ببلزاك من قبلُ ومن بعد. وإذًا فقد آن الأوان، قبل كل شيء، للتفكير في البيت، الذي لاشك في أنه سيُسَجَّل باسم مدام دي هانسكا، وبذلك يفترض أن يكون غير قابل للاقتحام. وحتى هنا يُعدُّ مخرج بلزاك متواضعًا نسبيًا أول الأمر.. فبموجب خطته سيعيشان في باريس «حياة بسيطة إلى حد فائق»، وحتى هذه «الحياة البسيطة تمامًا» ستكلِّف، بالطبع، على الأقلّ، أربعين ألف فرنك. ويصرِّح بأنه ليس من الممكن جعلُ الحياة أرخص من هذا، لأن فيكتور هوجو الذي ينفق عشرين ألفًا إنما يعيش بهنّ «حياة كحياة جرُذ».

على أن شراء المنزل لا يعني عند بلزاك، كما يعنيه عند الآخرين من البشر، أي الرغبة في الحصول على مبنى يستطيع المرء أن يسكن فيه. فالشراء يعني عند بلزاك، على الدوام، إرادةَ إبرامِ صفقة جيدة.

«لقد كانت فكرة امتلاك منزل تراودني منذ ثلاث سنين، وقد أَوْحَت إلي بها، قبل كل شيء، حسابات وتقديرات اقتصادية. والاختتام الحسن بشراء منزل، فكرة لاشك في أنها تمثل تفكيراً طبيعيًا.

وهكذا ينظر حَوَالَيْه، وكلما رأى شيئًا أوحى إلى نفسه بسعر أدنى من سعره. وكان يفتَرض أن يكلِّف المنزل في باسّي مائة ألف فرنك، ولكن هذه التكلفة لا تزيد في الواقع، تبعًا لحسابه وتقديره، على ٦٠,٠٠٠ فرنك:

«ذلك لأن المرء سينشئ في باسّي، شارعًا جديداً، بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ فرنك، ليلتفّ حول الجبل. وسوف يفضي الشارع إلى مادون صخرتنا بمقدار اثني عشر قدمًا، وسوف تضطر الجهة الرسمية إلى شراء قسم منه. وفي مقابل ذلك سيكون من الممكن، كما قالوا لي، الحصول على تعويض قدره عشرة آلاف فرنك. وفضلاً عن ذلك فقد يكون من الممكن أن يبيع المرء الأرض في شارع فرانكلين بثلاثين ألف فرنك.

وفي كانون الأول يرى قطعًا من الأراضي في موسّو:

«قد يكون من المُسْتَيْقَن أن نضاعف رأس مالنا بذلك»

ثم يكتشف منزلاً في شارع المونبارناس:

«إنه خليق أن يلائمنا مثلما يتلاءم القفاز المنسجم على اليد»

ولا ضرورة هناك إلاّ لأمر يسير:

فلا بد للمرء أن يهدمه جزئيًا.

ولا يكون هناك بُدٌّ من تغيير بنيانه علي نحو كامل، وهذا خليق أن يكلِّف ١٢٠,٠٠٠ فرنك. وهذه التكاليف الهائلة يمكن تأمينها، مرة أخرى، بسهولة بالغة، وذلك في الحقيقة بأن يشتري بالإضافة إليه، محاضرِ أخرى يكسب المرء منها. إنه النظام القديم العائد إلى سنوات بدايته، حين يضيف إلى دار النشر شراء المطبعة، ويضيف إلى المطبعة مَسْبَكَ الحروف.

وفي الربيع تشرد عيناه بعيداً، إلى الريف، وهناك لا يعيش المرء مجانًا تمامًا فحسب، بل يستطيع أيضًا، بكل راحة وهدوء، أن ينتظر ارتفاع قيمة الأرض: إذ يكون رأس المال استثماراً يَغُلُّ عائداً. ألا ما أبسط الحياة!

«إنَ كَرْم عنَب في ڤوفريه لخليق أن يعود علينا بكل قُوتِنا، وهو يكلف، على أقصى تقدير من ٢٠,٠٠٠ إلى ٢٥,٠٠٠ فرنك».

ولكن ما أشدّ غباء شراء كرم عنب حيث يستطيع المرء، بلا ريب، أن يحصل في التورين على قصر كامل، مع بساتين عنب، وأشجار فاكهة، ومصاطب، وإطلال رائع على نهر اللوار. أوَلا يكلف هذا ٢٠٠,٠٠٠ فرنك، أو ٣٠٠,٠٠٠ فرنك؟ فبلزاك يحصل عليه مجاّنًا، وهو يحسُب هذا على وجه الدقة:

«سوف تقفزين في الهواء من فَرْط السرور! أما كَرِشي فمعروضة للبيع! وهو حلم رأيته منذ ثلاثين عامًا، سوف يتحولّ إلى حقيقة، أو ربما أصبح حقيقة بالفعل.

ولا يحتاج المرء إلاّ إلى أن يدفع ٢٠,٠٠٠ فرنك نقداً، ثم يبيع المرء قسمًا من الأرض بالتجزئة. فكُروم العنب في الأرض تعني وحدها- بموجب كل الحسابات الأكثرتوكيداً على الإطلاق، وهي الحسابات التي تستند إلى متوسط عشر سنين- دخلاً من الفائدة لرأس المال مضمونًا بنسبة خمسة بالمائة، كما يستطيع المرء، بسهولة، أن يتخلص من مقدار فِلاحة عشر صباحات من هذه الكروم، ويحقّق لقاء ذلك، كسبًا يتراوح بين ٤٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠ فرنك. وبذلك تتم تغطية سعر الشراء بأكمله، وفي خاتمة الرسالة يعود، مرة أخرى، إلى الأسلوب الغنائي:

هل تتذكَّرين، هذا القصر الصغير الجميل الذي يقوم عليه برجان صغيران ينعكسان في نهر اللوار؟ إنه يطل على التورين بأكملها.

«والمَحاضِرِ الصغيرة مرتفعة الأسعار إلى حد غير معقول، لأن هناك أعداداً لا تحصى من الناس ذوي الثروات الضئيلة، وإذا أراد المرء أن يُقْدِمِ على صفقة كبيرة، فلا بُدَّ له أن يختار شيئًا كبيراً بالفعل».

وإذًا فلماذا لا يكون هذا هو قصر سان جراسيان؟ وهو يعود إلى السيد دي كوستين الذي دَمَّر نفسه مثلما فعل بلزاك في «ليجاردي».

«لقد كلفه قصر سان جراسيان ٣٠٠,٠٠٠ فرنك، وقد حدثني بأنه سيبيعه بمبلغ ١٥٠,٠٠٠ لدى أوَّل عرض. وفي النهاية سوف يضطر إلى التخلّي عنه مجانًا.

ولكن السيد دي كوستين ليس مثل بلزاك، ويبدو أنه ليس مضطراً إلى التخلي عن هذا الملك مجانًا، ويضطر بلزاك إلى مواصلة البحث، ولا يعثر على البيت النهائي آخر الأمر إلاّ في خريف ١٨٤٦ وهو جناح بوجون في شارع فورتونيه. ويرجع إلى القرن الثامن عشر، وكان يعود إلى واحد من أثرياء المستأجرين العامّين (الذين يؤَجِّرون لمن عداهم، بدورهم) من عصر ما قبل الثورة الكبرى. إلى هناك سوف تنقل الآن الفناجين الملكية، والكومودينات والخزائن ذات الأدراج الأميرية، واللوحات الأصلية لهولباين ورويز دائيل، ومئات الأرطال من الشمعدانات الثقيلة. وإنما يفترض أن يكون هذا «متحف بلزاك»، و «اللوفر» العائد إليه، وأن يكون مَعْلَمًا من معالم الفن، وأن يُخْرِج من اللاشيء روائع الأعمال. ولكن حين يشاهد المنزل فيما بعد صديقهُ غوتييه، يصرخ قائلاً وقد تولاّه العَجَب، إنه لابُدَّ أنه أصبح في هذه الأثناء مليونيراً، يعارضه قائلاً، وهو متكدِّر:

«كلاّ، ياصديقي، فأنا أفقر مما كنت في أي وقتٍ مضى، فما من شيء من هذه الأُبَّهة كلها يعودِ إليّ، وما أنا إلاّ حاجبِ وحارس لهذا القصر».

ذلك لأنه يظل أول الأمر، من باب الحَذَر من الدائنين، قاطنًا في الصومعة المتواضعة في بارسّي، حيث تنتصب منصة كتابته، وهذا المنزل البسيط، بما فيه من مخطوطات، هو بالقياس إلينا «متحف بلزاك» الحقيقي، وليس السجاجيد وقطع البرونز والشمعدانات الشائهة في جناح بوجون. فإن من نواميس الحياة أيضًا أن البشر، وحتى أولي الطبائع الأَوْفر حظًّا من العبقرية، لا يضعون اعتدادهم بأنفسهم في إنجازهم الحقيقي، بل تنازِعهُم نفوسهم إلى إحداث الأثر الكبير في النفوس، وإلى أن يكونوا موضع الإعجاب والتقدير من جراء أمور هي أرخص وأسهل كثيراً. وما بلزاك الجمَّاع إلا مَثَلٌ على ذلك متميز.

الكتاب السادس

الاكتمـال والنهـايــة

الفصل الثالث والعشرون

روائع الروايات الأخيرة

لقد كانت سنوات ١٨٤٣ و ١٨٤٤ و ١٨٤٥، سنوات اللّهفة ونفاد الصبر في قرارة النفس. وإن المرء ليحسّ بأن هذا الهوس الأحادي بالعمل، أي هذه القوة الأصيلة الأولى عند بلزاك، قد انصدَعت، أو، بالأحرى، انقطعت. لقد بات، وهو الذي لبث يمارس النشاط الإبداعي من دون توقّف على مدى عَقْدٍ ونصف العقد من الزمان، جمّاعًا في المقام الأول في هذه السنين- جمّاعًا بالمعنى الحرفي للكلمة وبالمعنى المُصَعَّد، على حد سواء. ولم يكن يجمع الساعات والخزف والصور أو الأثاث، بل كل ما قصّرت الحياة عليه فيه حتى الآن: من ساعات التعطُّل والتسكُّع، والنزهات مع امرأةٍ ما، وليالي الحبّ الطويلة التي لا يهددها أحد، في أرض غريبة وإعجاب المُبَجِّلين له من النبلاء. وكانت انتاجيّته كلها قد تعرضت لانعطافة. وبدلاً من أن ينتهي بمخطوط رواية من رواياته إلى نهاية سعيدة يحاول أن ينتهي برواية حياته إلى نهاية سعيدة.

أمّا أن حيوية بلزاك في تلك السنين توجّهت نحو الحياة وأُزيحت عن الجانب الإبداعيّ فذلك ما يشعر به المرء من خلال فنه. ففي عامي ١٨٤١ و ١٨٤٢ كان أبدع أيضًا أعمالاً بالغة الروعة، مثل «القضية الغامضة- Ténébreuse Affaire»، وهي تلك الرواية السياسية، التي تقدّم، على الرغم من بعض أشكال متفرّقة من عدم الصدق، صورةً متجسِّدة لا تُضاهي لمكيدة سياسية، أو رواية "La Rabouilleuse-" (الصّيادة في الماء العكر) التي لا يُقَدِّر معاصروه حداثتها،

وعمق نظرتها في مشكلة الاستعباد الجنسي. ثم إنه أنهى بعد ذلك «الأوهام المفقودة»، التي تمثل مقطعاً عرضياً يمر عبر عالم الفن والمسرح في باريس، وهو عالم الفن والخطوات الفنية الناجحة، ويلي ذلك «حالات تألّق المَحْظيّات وبؤسهن». وهنا يرتبط عالم الأدب بعالم المال. وتعود شخصية بطله ڤوتران من جديد، ويؤلّف بين موضوعات أعماله السابقة مثلما يحدث في بانوراما كبرى. وعلى الرغم مما يعرض له، في بعض الأحيان، من حالات الانزلاق إلى التلفيق أو «الفبْرَكة»، ومجالات الروايات البوليسية فإنه يحيط، في هذا الكتاب، أكثر مما يفعل في أيّ كتاب آخر، بباريس وبالمجتمع الباريسيّ. وهنا انتقم الأديب من الصحافة بكل ما فيها من أخطار، ومن المال الذي ما يفتأ يغريه المرة بعد الأخرى، مثلما يفعل بشخصياته.

غير أنه لا يستطيع أن يَفْرَغ حتى من رواية «الفلاحين»، التي يفترض أن تصوِّر مقاومة المدينة للريف، كما يفترض فيها أن تناقِش مشكلة كبرى في علم الاجتماع. وذلك أن الصراع الذي انبثق لهيبه في سوق الأوراق المالية أو في الأدب، كان له في الريف، عند الفلاحين، قالبه الأصليّ الأول، البدائي، فهناك لا تتعلّق المسألة بقِيَم غير مرئية أو غير ملموسة، بل بالأرض، الأرض الزراعية، وبكل شريط من الأرض. ويظل بلزاك، على مدى السنين، يعمل في هذا المجلد، إذ يقسر نفسه، فينشر القسم الأول، غير أنه يضطر إلى أن يتوقَّف. ثم يشرع في أشياء جديدة في هذه السنين، أشياء أصغر وأقل أهمية، فهو يُلْصِقُ برواية بياتريس- التي لا يمكن أن يكون الاعتبار فيها إلا للفصل الأول، بصفته عملاً فنياً- نهاية مصطنعة، عاطفية، لا حياة فيها. ويكتب أموراً غير ذات شأن، مثل «جوانب البؤس في الحياة الزوجية Les Mis`eres de la Vie conjugale» وهو، بلا شك، تسخين مُتَبَّل بالكثير من الفكاهة والسحر والظُرْف، لكتابه القديم «فيزيولوجيا الزواج». أما أقصوصة مينيون المتواضعة Modeste Mignon» التي استُمِدَّ موضوعها من مدام دي هانسكا، والتي أُهْدِيت فيما بعد إليها (إلى بولونيّة) أيضاً،

فمن الممكن أن تكون منحولة من قبَل أحد مقلّديه. فما من موضع يشعر فيه المرء بمخلب الأسد، وبالحدة الحقيقية للأديب. لقد أعاد إقامة قانون الهوَس الأحادي في صدد كل إنجاز حقيقي، وبات يقدِّم الآن، بروح سلبيّ، بنفسه، توكيدَ ذلك، وباتَ، وهو الذي قال ذات مرة، إنه لابُدَّ للفنان أن يُعَوِّد نفسه على الكتابة من جديد إذا ماظل بعيداً عن عمله وقتًا طويلاً، وهجر ورشته وقتًا مفرطًا في الطول. ولا يستطيع المرء أن يكتب حين ينفق نصف النهار باحثًا عن البيوت وينقِّب هنا وهناك عن التُّحف عند تجار التحف. ولا يوجد في رسائله العائدة إلى هذه الأيام، وعلى مدى صفحات بأكملها، كلمة عن عمله، أو حتى عن مجرَّد خطط عمله أيضًا ولا يدور الحديث إلاّ عن الأثاث، والشركات، وسفاسف الأمور. لقد انتُهِك قانون التركيز.

وكان بلزاك يشعر بهذا بنفسه. وذلك أنه يعرف معصمه وهو الكاتب الأكثر اكتمالاً على الإطلاق. إنه يعلم أنه فقد سروره بالعمل، منذ أن تعرَّف على السرور الآخر، الذي يجده في «الخمول والاسترخاء اللذين ينجمان عن الاستسلام لمجرد الحياة». وفي كانون الثاني ١٨٤٦ يكتب إلى مدام دي هانسكا، في نابولي:

«إن فكري وعقلي لا يبْديان حراكًا. وكل شيء يبعث على الملل والسآمة عندي، وهو غير مستعذَب بالقياس إليَّ».

أمّا أن رواية «الفلاحون» ما عادت تحقق تقدُّمًا، ولا «البورجوازيون الصغار» فذلك أمر ماعاد يستثيره. وما عاد يعمل مِنْ بعدُ إلا لتصفية ديونه. وفي بعض الأحيان ينتاب المرء الشعور بأن جانب الفن ماعاد يثير اهتمامه على الإطلاق. ومن الممكن أن يأتي هذا فيما بعد عندما يكون قد تمَّ تجهيز المنزل. وفجأة يدع كل شيء على حاله، حيث هو، وينطلق انطلاقة العاصفة، في آذار، إلى روما.

وحين يعود أدراجه، يبعث، مرة أخرى، بالرسالة على أثر الرسالة، إلى مدام دي هانسكا، مع البلاغات المألوفة التي تفيد أنه «سيكون عليه أن يعمل عملاً

هائلاً»ومرةً أخرى يعتقد أنه إذا ما ظل يقعد إلى عمله ليلَ نهار، طوال ثلاثة أشهر (من دون انقطاع، ومع فترة توقف لا تزيد على أربعة عشر يومًا، نستطيع أن نتزوج فيها) فلا بُدَّ أن يحقق نجاحًا في تسديد الديون التي تبقَّت في ذمته، وقَدْرُها ستون ألف فرنك، ومازلنا لا نسمع، بالطبع، شيئًا عن ألوان الإلهام الفني.

وأخيرًا، في الأول من حزيران، يُبَلِّغ قائلاً:

«أنا أحسُّ، منذ أربعة أيام، كيف يتملّكني نشاط يأتي علي. ، وفي الثاني عشر منه:

«أنا أعمل في خطة «الفلاحون» وفي أقصوصة، فضلاً عن ذلك.

وفي ١٤ حزيران يكون قد نشأ عن هذا، الخطوط العريضة لعملين جديدين:

«سوف أكتب مايلي: أولاً: أقاصيص الأقرباء الفقراء، المؤلفة من: «النبيل بون» التي تملأ ثلاثة صحائف من الورق أو أربعة في الكوميديا الإنسانية، ، «العمة بيت» التي ستأتي في ستة عشر طَلْحية، وأخيرًا «المُنكرات التي اقترفها مفوَّض من قبل الملك، وقد نشأ عن الأقصوصة الواحدة اثنتان، ولكن بلزاك نفسه مازال لا يعرف مدى اتساع مخططه وعمقه، إذ مازال يعتقد، كما يشير إلى ذلك الحجم المُعْلَن عنه للقطعتين- أن هذه ستكون قصصًا قصيرة لا روايات.

ولم يكن حسب حتى الآن سوى الحجم، وحين يفعل بلزاك هذا فذلك يعني أنه ينظر إلى الكتب، ببساطة، من وجهة النظر الخاصة بالمقدار الذي ستعود عليه به، وكان قد حسب أن رواية «الفلاحون» و «البورجوازيون الصغار» و «العمة بيت» سوف تعني الآن، أخيرًا، نهاية تدبر الديون، ولكن الطموح القديم ينبعث فيه بغتَةً من جديد. وكان، حين تصوَّر الأعمال، قد أحسَّ بالرسالة الفنية وبمتعة الإبداع، والطموح إلى الإنجاز الحقيقي، يغلبان عليه- أخيرًا! وفي اليوم ذاته، أي في السادس عشر من حزيران يطرح على نفسه المهمة التالية:

«إن اللحظة الراهنة تقتضي أن أنجز عملين أساسيَّيْن أو ثلاثة يفترض أن تطيح بأولئك الآلهة الزائفة لأدب أولاد الزنا، وتبيِّن لهم أنني أكثر فُتُوَّةً ونضارة وأكبر مما كنت عليه في أي وقت مضى. و «الموسيقى الشيخ»، أي «ابن العم بون»، هو «ذو القربى الفقير» التي يقهره الشقاء، وهو الرجل والقلب النقي. و «ابنة العم بيت» هي «ذات القربى الفقيرة»، التي يلاحقها الشقاء على النحو ذاته، وهي تعيش في كنف ثلاث من العائلات أو أربع وتنتقم لكل آلامها.

ولعلَّ مما يبعث على الارتياح والتفريج أن يرى المرء، بعد كل هذا اللغو عن شؤون المال والمضاربات بالأراضي، وأسهم خط الحديد الشمالي، ومجموعات الخزف، إرادة الصياغة الفنية الحقيقية تعمل عملها. وبموجب نظامه القديم المنطوي على الكوارث، يتفاوض بالطبع، حتى قبل أن يرى، بنظرة شاملة، حجم الروايات، مع الناشرين، على السعر. ولكنه يُكِبُّ على العمل منهمكًا فيه بعد ذلك، ويتم إدخال ساعات العمل القديمة من جديد. ويجد المرء ملاحظة مفادها أن كثرة حالات الإشغال والإلهاء، والانفعالات المرتبطة بالحياة الخارجية، مع وجود الإرساليات المتواصلة من تجار التحف تغدو ثقيلة عليه الآن.

«لقد وَدِدْتُ لو أن كل صناديقي أُفْرِغَت آخر الأمر. فالأشياء الجميلة التي أنتظرها وتَشَوُّقي للإطلاع على الحالة التي تصل بها، كل هذا يحدث في نفسي أثراً باعثًا للحيوية، ولا سيما وأنا في حالتي الراهنة المستثارة، إذ تجرفني معها حمى الوحي والأرق. وآملُ أن أكون فرغت من «الموسيقي الشيخ في يوم الاثنين إذا كنت أنهض من فراشي كل صباح في الساعة الواحدة والنصف، كما فعلت اليوم. وهكذا وصلت، من جديد إلى توقيت عملي القديم!

ويقوم، دفعة واحدة، في سرعة رائعة حتى بالقياس إلى بلزاك، بتصوُّر الرواية. وفي العشرين من حزيران يجد المرء الكلمة النادرة عنده:

«لقد رضيت كل الرضى عن «الموسيقيّ الشيخ». أمّا «ابنة العم بيت» فلا بُدّ أن يخترع من أجلها كل شيء».

ثم لا يسمع المرء، مرة أخرى، سوى أن إحدى الصور التي وصلت أصابها خدش، وأن الثريا البرونزية (Bronzino) التي اشتراها، ليست من البرونز الحقيقي، ويجري الحديث عن الديون وتفصيل الملابس. ولكن في الثامن والعشرين من حزيران يكون الفراغ من «ابن العم بون، ويطلق بلزاك صرخة تهليل لم تُسْمَع منه منذ سنين:

«يا حبيبتي الغالية، ها أنذا أختم، لتوّي، المجلّد الذي أريد أن أسميه «الطفيلي»، لأن هذا هو العنوان النهائي للمخطوط الذي كنت أُسَمّيه حتى الآن «الرجل الطيب، بون»، و «الموسيقيّ الشيخ»، إلخ. وهو، على الأقل بالنسبة لي، واحد من تلك الأعمال الأساسية التي تتميَّز بأقصى قَدْرٍ من البساطة وتشتمل على القلب البشري بأسره. وهو يَعْدِل في عظمته «خوريّ تور»، وأَوْضح ُبعد ُمنه، كما أنه يضاهيه في الاستحواذ على مجامع القلوب، وإني لمتحمِّس كل الحماسة، وسوف أبعث إليك بملازم تجاريب الطبع على الفور.

والآن أُقبِلُ على رواية «ابنة العم بيت» وهي رواية رهيبة، لأن الشخصية الرئيسية ستكون مزيجًا من ملامح أميّ ومدام ديسبورد- ڤالمور» وعمتك روزالي، وسوف يسرد الكتاب تاريخ سلسلة كاملة من العائلات».

وكان غضبه على أمه، ومصير ليريت، المُطَّلِعة على بدايات رواية حبه لمدام دي هانسكا، كل هذا كان يلعب دوره في الرواية. وفي الوقت ذاته يبادر ابن العم بون، بجملة ما وهو ما يعني، في إطار العمل عند بلزاك، أن يكتبها مرة أخرى. على أن نفاد صبر الفنان يرتبط بنفاد صبر التاجر، وذلك أنه مازال لا يعمل، من أجل مطاليبه، بالسرعة الكافية:

لقد أصبحنا في الخامس عشر من تموز، فوا أسفاه!

وإذا هو يئن ويتوجَّع- بدلاً من أن يشكر السماء على أنه أنجز مثل هذه الرائعة من روائعه خلال أربعة عشر يومًا- :

وسوف أفرغ، بشِقّ النفس، من «ذوو القربى الفقراء»! وسوف أجني بذلك مايقارب عشرة آلاف فرنك، بما في ذلك طبعة الكتاب.

ومن البَدَهي أن هذه الآجال اللامعقولة لايمكن التقيّد بها أو المحافظة عليها. وفي الثاني عشر من آب، يكتب، في يوم واحد، أربعة وعشرين صفحة، ولم يكد يفرغ من المخطوط الخام حتى انهمك في العمل في التصحيحات، ويظل يعمل إلى درجة استنفادٍ كامل للقوى البدنية، وينتاب طبيبه الفزع، كما يروي بلزاك نفسه:

«إنه لا يملك، لا هو، ولا أحد من رفاقه في المهنة، وزملائه في الطب، تصوُّرًا مؤدّاه أن في وسع المرء أن يعرض الدماغ لمثل هذه الألوان من الإرهاق المفرط، لقد صرَّح لي بأن هذا سينتهي إلى عواقب وخيمة، وهو يكرِّر عليَّ هذا وعليه سيماء التجهُّم، ويناشدني أن أُدخِل على «هذه الألوان من شطط الدماغ وشروده»، كما يسمي ذلك، فترة توقف على الأقل. ولقد تولاّه الفزع من أشكال الإجهاد عندي التي سببتها رواية «العمة بيت». وكنتُ ارتجلتها في ستة أسابيع. لقد قال لي: لابدَّ أن ينتهي هذا، بالضرورة، وعلى أيّ نحو من الأنحاء، بكارثة. وأنا أشعر بالفعل أن شيئًا ما يحدث لي. وأنا أُضطر، أثناء الحديث، إلى البحث عن الأسماء، وفي بعض الأحيان يَشُقُّ عليَّ ذلك كثيرًا، لقد آن الأوان بالفعل لكي أُخْلِد إلى الراحة!

وفي غمرة العمل في تصحيح تجارب الطبع يرتحل في أيلول إلى فيزبادن، لكي يستمد طاقات جديدة لدى مدام دي هانسكا، غير أنه يستطيع بعد ذلك أن يُخْلِد إلى الراحة بالفعل، إذ أنجز في هذا الصيف روائع أعماله.

ذلك لأن هاتين الروايتين «ابن العم بون» و «ابنة العمة بيت»، اللتين انبثقتا من المخطط الأصلي لرواية «ذوو القربى الفقراء»، هما إنجازه الأكبر على الإطلاق. ويصل بلزاك، في ذروة حياته، هنا، إلى الذروة القصوى من ذُرى الفن، ولم يحدث قطُّ أن كانت نظرته أكثر صفاءً، ولا كانت يده أثبت وأكثر إحكامًا، وانطلاقًا بلا هوادة. لقد كتب هذه الروائع بلزاك الذي استوفى حظه من الراحة والاستجمام، ولم يكتبها الكاتب المُطارَد والمُنْهَك. لقد تبدَّدت فيها تلك المثالية الزائفة، وتلك الرومانسية المُسْتَطابة التي تجعل بعض أعماله الأولى مفرطة في البعد عن الواقع، وتجعلها من جرّاء ذلك غير مؤثِّرة. وإنما تكمن مرارة الكثير من التجاريب في هذه المجلدات، وهي المعرفة الواقعية بالعالم. فقد كتبها رجل ما عاد ثمة شيء يؤثر في نفسه التأثير الكبير، سواء أكان ذلك متمثلاً في خطوات النجاح الظاهرية، أم في الترف والأناقة. ولئن كان يوجد، حتى في «الأب غوريو» وفي «الأوهام المفقودة»، شيء من خيبات أمل الملك لير، فإن هذه الروايات الأخيرة تنطوي على كل الحِدة القاطعة التي يتسم بها كوريولان (Coriolan). ويظل بلزاك، دائمًا، أكبر ما يكون، حيث ينتصب فوق العصر، وحيث لا يريد أن يحظى بإعجاب عصره، بل يبدع أعمالاً مطلقة، فرواية «ابنة العم بيت» ورواية «ابن العم بون» لا تدور أحداثهما في باريس إلاّ بمحض المصادفة، ولا تدور أحداثهما في النصف الأول من القرن التاسع عشر، إلا بمحض المصادفة، وربما كان في وسع المرء أن ينقلها إلى انكلترا، أو ألمانيا، أو فرنسا، أو أمريكا المعاصرة، وإلى كل البلدان، وإلى كل العصور، لأنها تصف أهواءً وعواطف ابتدائية أوّلية. ففي متحفه الخاص بأولي الجنون الأحادي يوجد الآن المجنون بالشهوة، البارون هولو، والجمّاع بون-فيالها من شخصيات. وبعد شخصية تورفيل المرسومة بقدر مفرط من التقليد لأسلوب غادة الكاميليا، والمأخوذة من «ألوان التألُّق والبؤس عند المَحْظيّات»، أَيْ من الفتاة التي سقطت بطريق الامتياز، والمُحَضَّرة وَفْقًا للذوق الباريسي، بعد هذه المحظية التي تعد ذات سمة مسرحية إلى حدٍّ ما، نجد الآن العاهر الحقيقية، بحكم

ميلادها، هذه المدعوَّة مدام مارنيف، زوجة الرجل المنتمي إلى الطبقة الوسطى، التي تبيع نفسها لكل من يشاء، وإلى جانبها ابنة العم بيت التي لا مثيل لها، وهذه الـ (ليريت) المنقولة إلى العالم الشيطاني، العانس التي لا تستمتع، بل تحسدُ فحسب، والتي تمارس عمل القوّادة بدافع من متعة خبيثة خفيّة، وإلى جانب ذلك أيضًا مأساة «ذات القربى الفقيرة» عند ابن العم بون، الذي يُصْبَرُ عليه مادام يلوح عليه شيء من الرَّوْنق والبهاء. وقوة الرغبة الدافعة عند ربّة المنزل سيبو، وكل الماكرين، والأوغاد الذي يَجْرون وراء المال، ويخدعون أهل الطُهْرِ والنقاء وذوي النوايا الطيبة. وما يعلنه ڤوتران في الصياغات السابقة، ربما بطريقة مفرطة في لهجتها المنبرية: يُقَرَّرُ هنا دراميًا بأكبر قَدْرٍ من الحِدَّة. وفي هذه الروايات الأخيرة تمَّ الوصول إلى واقعية، وإلى صِدْقٍ في الشعور، وإلى تسليطٍ للضوءِ على العواطف والأهواء لم يتفوّق عليه الأدب الفرنسي بعد ذلك أبدًا.

ولم يُوَدِّع فنان فنَّه وداعًا أروع مما فعله بلزاك في هذه الأعمال المتأخرة. ويستطيع المرء أن يقدِّر بالاستناد إليها، ما كانت «الكوميديا الإنسانية» خليقة أن تصير إليه إذا ما أتيحت لها بعدُ أيضًا مجرد عشر سنوات عمل كاملة القيمة، أو حتى خمس سنوات، ففي رواية «الفلاحين» كان خليقًا أن يُجْرِيَ المحاورة الحاسمة بين المدينة والريف، ويعرض الفلاح الواقعيّ مثلما عرض باريس الواقعية- لا الريف المُعَطَّر الذي عرضه رجل مثل جان جاك روسّو، بما فيه من أهل الفطرة الأنقياء. أما في «المعركة»، وفي الروايات الأخرى المأخوذة من الحياة العسكرية، فقد كان خليقًا أن يصوِّر الحرب، الحرب كما كانت بالفعل، لا الحرب في قالبها الغنائي الذي تغني فيه، في أيامه، في رواية «طبيب الأرياف» بنابليون. لقد أظهر، حتى في «القضية الغامضة» إلى أي مدى استطاع أن يتجاوز الفهم الأسطوريّ للتاريخ، ليتقدَّم نحو وصف أكثر واقعية، وكان خليقًا أن يكشف عن عالم المسرح، وعن مرحلة الطفولة الباكرة، وعن الحياة في النُزُل العائلي للبنات والصبيان، وعن

أهل العلم والديبلوماسيين، وعمل النّواب، والثورة في الڤانديه، وعن الفرنسيين في مصر، والانكليز في إسبانيا، والحروب الاستعمارية في الجزائر- وليس من الممكن أن نستقصي بتصوُّرنا كلَّ ما كان الرجل خليقًا أن ينجزه بعدُ، وهو الذي كأنما صاغ من العدم، خلال عشرة أسابيع، «ابنة العم بيتْ»، و«ابن العم بون». وحتى في المسرح، حيث كان حتى الآن يتابع نماذج رديئة، وهو متعثِّر أبدًا، كالمُسَمَّر، في إطار الميلو دراما، كان يوشك أن يتحرر بعد هنيهة، وتعدُّ مسرحيتا «النصّاب- Le Iaiseur»، ثم «ميركاديه- Mercadet» وهي الكوميديا التي ينتصر فيها مَدينٌ على دائنيه، أولّ إنجاز مستقل له في هذا المضار. وأصبحت هذه المسرحية بعد موته تمثل النجاح المسرحي الوحيد الكبير للمسرحية البلزاكية، ولم يسبق أن كانت طاقاته مجمَّعة، مركَّزة، على نحوٍ أروع. وإن المرء ليحس أنه يعرف الآن فحسب، حقًا، ما يجب عمله في الرواية وفي المسرح على حدٍ سواء، وأنه أدرك الآن فحسب الجانب الجوهري في رسالته.

ولكن الجسد، والنفس أيضًا، باتا الآن مُسْتَنفَدي القوى على نحو نهـ[illegible] حاسم. ولم يكد بلزاك يفرغ من هذين العملَيْن حتى ألقى كل شيء وراءه، إنه ير[illegible] الإخلاد إلى الراحة، الراحة العميقة والجوهرية الأساسية، إنه يريد الابتعاد، قَدْ[illegible] في وسعه، في زيارة ليست بالقصيرة. إنه يشعر أنه توصَّل بهذه الرَّمْيَة الأخير[illegible] الكبيرة، إلى حق في الراحة، وهكذا يغادر فرنسا ويرتحل إلى أوكرانيا، إ[illegible] ڤيرتسخوڤنيا، حيث توجد مدام دي هانسكا.

الفصل الرابع والعشرون

بلزاك في أوكرانيا

وفي خريف عام ١٨٤٦ كان يبدو، لحظةً من الزمان، كأنَّ حياة بلزاك المضعضعة والمعرَّضة للمطاردة المفرطة، بات يفترض أخيرًا أن تنتهي إلى الراحة. وكانت الحجة التي تظل مدام هانسكا تُعلّلُ بها الأديب، المرةَ بعد الأخرى: وهي أنها لا بُدَّ لها أولاً أن تُزَوِّج ابنتها الحبيبة قبل أن تفكِّر في زواجها الجديد، قد سقطت، إذ يتزوَّج الكونت منيسيّستش من الكونتيسة آنا في الثالث عشر من تشرين الأول ١٨٤٦، في فيزبادن. ويشهد بلزاك الزواج، وقد عاد مفعمًا بالأمل من جديد. وكان قد أمَّن، من باب الحيطة أوراقه الرسمية الخاصة بحجة أنه يحتاج إليها لتقديمها من أجل وسام جوقة الشرف. وكان قد قام بأعمال تحضيرية واسعة النطاق لكي يجري عقد الزواج سراً في ميتس حيث لا يعرفه، ومدام دي هانسكا إلا القليل من الناس. وتمَّ كسب تأييد عمدة ميتس للمشروع، إذ كانت تربطه به بعض العلاقات، وكان يفترض أن يتم التسجيل الرسمي- الذي لا يسري مفعوله إلاّ في فرنسا وحدها- في مجلس المحافظة، ليلاً، في سرِّية كاملة، وكان يفترض أن يأتي، للقيام بدور شهود العقد اثنان من باريس: أحدهما ابن الصديق والطبيب، الدكتور ناكار، والثاني رجل آخر من معارفه، لهذا الغرض. وسوف تبقى مدام دي هانسكا حتى هذا اليوم الحاسم على الأرض الألمانية في ساربروكن ولن تأتي إلى ميتس إلاّ عند المساء، ويفترض أن يتم عقد الزواج الكنسيّ بعد ذلك في ألمانيا: ويستطيع أسقف ميتس أو القسيس في ڤيزبادن أن يتم إجراءات الزواج. ومن

الواضح أن التحضيرات المعقدة من الوجهة الرومانية ضرورية، لأن الزواج لا يجوز الاعتراف به في روسيا، ويلحّ بلزاك قائلاً:

«أنا في انتظار جوابك التالي، وأقول لك، إنني أعيش فيك في كل ساعة، وهذا الآن حقيقي صادق بمعنى مزدوج».

ذلك لأن ثمة ظروفًا معينة تجعل عقد الزواج القريب مسألة أكثر إلحاحًا بعد فما من شك في أن الأسابيع الإيطالية الجميلة قبل الزواج لم تَبْقَ من دون نتائج، وكانت السيدة فون هانسكا تنتظر طفلاً، على الرغم من سنيِّها البالغة خمسًا وأربعين، وكان بلزاك، المُعْجَل والمتفائل كشأنه دائمًا، على يقين أنه لابُدَّ أن يكون ولدًا، وكان قد وجد اسمًا أيضًا: ڤيكتور هونوريه.

غير أن السيدة فون هانسكا لا تستطيع أن تحزم أمرها، فهي لا تريد، الآن أيضًا، أن تنفصل عن ابنتها، وبدلاً من أن تتزوج هي ذاتها، تفضل أن تصحب ابنتها في رحلة الزفاف، ويضطر بلزاك إلى أن يعيد أوراقه التي دبَّرها بشِقّ النفس إلى حقيبته، وأن يتخلى عن كل المخطط الذي حاك خيوطه بعناية، وأن يعود بخُفَّيْ حنين، إلى تصحيح ملازم طبع «ابن العم بون» و«ابنة العم بيت»، في باريس، وليتصوَّر الناس ما عساهم يتصورون في صدد مسألة هل كانت مدام دي هانسكا تحبُّ بلزاك بالفعل، فثمة شيء واحد لا ريب فيه على أية حال، هو أن قرار الحسم في صدد الاختيار بين ابنتها وبين بلزاك كان يخرج دائمًا لصالح ابنتها، فلا زواج ابنتها، ولا زواجها هي فيما بعد، أمكنه أن يصرم حبل العلاقة الحميمة بين الأم وابنتها في أي يوم من الأيام، وكان عشاقها وأزواجها يعاملون كلتا هاتين باستخفاف، في نظرة فوقية.

وهكذا يُضْطَرُّ بلزاك، بعد ذلك أيضًا، في شباط من العام التالي إلى الرحيل فورًا إلى فورباخ، حين عقدت السيدة فون هانسكا عزمها على المجيء إلي باريس. وهكذا يكون الحال دائمًا في هذه العلاقة، فحين ترحل يضطر إلى مرافقتها، وحين

تريد المجيء يكون عليه أن يأتي بها. وكان قد تبنى، مرّة وإلى الأبد، دور المسكين الطيب الذليل المستضعف، والخادم، ويضطر الرجل الذي يعني كل يوم بالقياس إليه شيئًا كثيراً لا نهاية له، والذي يُعَدُّ عمله ذا أهمية بالقياس إلى عالم بأسره، أن يظل في انتظار إشارة منها في إذعان واستسلام. وعلى الفور يطرح عنه كل شيء، وينطلق كالعاصفة، إلى جنيف، وإلى نابولي، وإلى نوشاتيل، وڤيينا، أو فورباخ، مرتحلاً عبر الأيام والليالي ليبذل لها صحبته.

وتظل زيارة مدام دي هانسكا الثانية لباريس محاطة بالسرِّيَة الكاملة. ويقومان معًا بإعداد الخطط للمنزل الجديد، ويخرج الطفل إلى الدنيا، ويكون ذلك إجهاضًا، أو يموت على الفور، فالظروف لم تَجْرِ تجليتُها تمامًا، كما يمكن أن يُفهم ذلك بسهولة، بالطبع، وكان الطفل بنتًا، ويكتب بلزاك، بكل اللامبالاة الساذجة التي تصدر عن أبٍ، قائلاً إن هذه الحقيقة خفَّفَت من وطأة كربه:

«لقد وَدِدْتُ، في لهفة مُلِحّة، أن يكون هذا ڤيكتور هونوريه، وذلك أن ولداً مثل فيكتور هونوريه ما كان ليفارق أمه، وكنا خليقين أن نحتفظ به حوالينا على مدى خمسة وعشرين عامًا إذ سيكون علينا أن نعيش معًا كل هذا الوقت»

ولكن الآن أيضًا تؤجل مدام دي هانسكا الخطوة الحاسمة، وتظل، المرة بعد الأخرى، تجد ذريعة ما، وتظل، المرة بعد الأخرى، تحتاج إلى فترة جديدة لالتقاط أنفاسها، وإن المرء ليخامره الشعور بأن الخوف من الارتباط النهائي به يتنامى، كلما ازدادت معرفتها به عمقًا.

ففي هذه المرة تزعم أنها مضطرة، على نحو مطلق، إلى العودة إلى ڤيرتسخوڤينا، لتسوية أمورها هناك، ويصحبها بلزاك، في طاعة وامتثال، مرة أخرى، إلى فورباخ، ثم يعود أدراجه بنفسه، إلى منصة كتابته في باريس.

وكان بلزاك، المتفائل الخالد، يأمل أن يتمكن من اللحوق بها خلال أجل قريب، ولم يكن بقي أمامه سوى الفراغ من كتابة «الفلاحون»، التي كان أجرها قد

دُفِع سلفًا وكان يُفْتَرَض أن يتمّ، عن طريق مسرحية من المسرحيات، تغطية دينٍ ثان قدره ١٥٠٠٠ فرنك كان تعهَّد بتسديده لأصدقائه القدامى، آل فيسكونتي، ولكن عُضْويته، أو جسده، ماعاد يطيعه، لأول مرة، ولابُدَّ أن هذه كانت معاناة رهيبة بالقياس إلى بلزاك، ولم يكن من الممكن أن تتكرَّر أعجوبة «ابنة العم بيت». وينذره الأطباء، وكان هو ذاته لا يشعر بالإطمئنان. كما يسوء ظن الناشرين والمحرِّرين به، وكان محرر «لابريس» جيراردان قد أسلفه أجره على رواية «الفلاحون» منذ سنين، وكان قد أخذ، مرتين، في نشر الرواية في صحيفته، وكان ذلك ثقةً من المحرر بطاقة بلزاك الشهيرة في كل باريس، إذ لم يتخلَّ بلزاك قطُّ عن صحيفة أو ناشر، وفي أسوأ الأحوال كان يقايض نتاجًا بنتاج، إذا لم تَسْتَقِم له الأمور على الإطلاق.

وفي هذه المرة أعلن جيراردان أنه لابُدَّ له أن يستلم المخطوط برمته قبل أن يتمكن من الشروع بالنشر مرة أخرى. والآن يضطر بلزاك، أوَّل مرة في حياته، إلى الاستسلام في المضمار الأدبي، ولأول مرة في حياته يضطر إلى أن ينطق بعبارة «لا أستطيع!».

ولكي يغطِّي هزيمته أمام نفسه يُدبِّر شيئًا من المال- ولا يعرف أحد من أين وكيف، ويرد السُّلْفة إلاَّ قليلاً منها، إنه مبلغ الافتداء الذي يؤدّيه من أجل التحرر من السجن الذي ظل يمارس فيه أعمال السخرة على مدى ربع قرن، ثم يهرب بعيداً، إلى النهاية الأخرى من العالم، إلى ڤيرتسخوڤنيا، ليأتي من هناك بالعروس، وليتزوَّج، وليعود، أخيراً، أخيراً، زوجًا ومليونيراً، وليعيش خَلِيَّ البال، مستقلاً، في المنزل الجديد، ماعاد ثمة شيء آخر يشغله أكثر مما تشغله هذه الفكرة الخاصة بسعادته المستقبليّة، أو، بالأحرى، هذا الحلم بصياغة نهائية لحياته. ومن أجل هذا البيت يعقد أيضًا نوعًا من الصلح مع أمه التي يكرهها في الحقيقة، والتي لايستطيع، في رسائله، أن يفصح عما في نفسه تجاهها بما يكفي من المرارة، ويَعْهَد إلى ذات السبعين حولاً، وهي الوحيدة التي تعرف نواياه، والتي يستطيع الاعتماد على يديها القاسيتين واقتصادها الفلاحي، بمهمة السهر على ملكه النفيس، على نحو مماثل بدقة، لتعبئته إيّاها حينما اضطر إلى الهرب من دائنيه، من مسكنه في شارع

كاسيني، وكان كلّما احتاج إلى امرئ يُعْتَمَدُ عليه حقاً يلجأ إلى العجوز، ويصدر إليها تعليمات غريبة تبدو كأنها من عالم الأقاصيص، في صدد وظيفة الحارس التي تتولاها، إذ يقول إنّ عليها أن تُفزِع الخادم، من حين إلى آخر بنبأ مفاده أن السيد دي بلزاك يُنتَظر عودته في الأيام التالية، وأن عليها أن تفعل هذا في كل أسبوع، ويقول: «إن هذا سوف يشغلُ الناس ويلْهيهم»

ويقول إن عليها أن تحرس المنزل الصغير "Petite maison" بعناية، إذ كُدِّست فيه كل الكنوز:

«مدام دي هانسكا تخامرها أكبر الهواجس بصدد هذا المسكن الذي يضم بين جنباته الكثير جداً من الثروات، وهي نتاج اقتصاد وتوفير على مدى ست سنين، ومن الممكن أن يُسرْق شيء ما، أو تحدث مصيبة ما، عدا هذا،»

وهكذا يكتب إلى أخته، ويلاحظ في صدد أمه وهو مغتبط راضٍ، أنه:

«لاأحد من الساعِيين يعرف القراءة أو الكتابة، وأنتِ الوحيدة التي تعرف خطّي وتوقيعي!» وفي هذه اللحظات فحسب يتبيَّن له أخَيراً أنه ليس له، في الأساس، أحد سوى هذه العجوز ثم يشرع في الرحلة الطويلة.

والرحلة إلى ڤيرتسخوڤنيا في أيام بلزاك مغامرة، ويستطيع أن يقول بحق:

«لقد عبَرْتُ ربع محيط الأرض، ولو ضاعفت رحلتي لكنت الآن على الطرف الآخر من الهيمالايا.

وكان المسافر العادي يحتاج في تلك الأيام، من أجل بعثة كهذه إلى أربعة عشر يومًا على الأقل. على أن بلزاك الذي يتميَّز بالطموح إلى إنجاز ما هو غير مألوف، ينطلق بسرعة جنونية دفعة واحدة، من دون توقُّف، ولا تكاد تنقضي ثمانية أيام حتى يصل إلى الهدف، وينزل، بغتة، في منزل أصدقائه، وقد سبق رسالته هو، تلك الرسالة التي تعلن عن وصوله، بمقدار عشرة أيام.

على أن انطباعه الأول ينقله إلى حالة من الوجد، وذلك أن نفسيّة بلزاك التي يسهل بعث اللهيب فيها، تتحمَّس دائمًا بسرعة من جرّاء كل شيء، ولكن ما من شيء يمكنه أن يُسكِرْه كالثروة، وما من شك في أن ڤيرتسخوفنيا هذه غنية، فهو يرى، الآن فحسب، بأمّ عينيه، في أية أبعاد للثروة الحقيقية يعيش أصدقاؤه. أمّا القصر فيبدو له، بعدد غُرَفِه نوعًا من متحف اللوڤر، وأما العقار فليس بالعقار المألوف، إنه يكاد يعدل في حجمه مقاطعة من مقاطعات فرنسا، على وجه الدقة. وهو يُعْجَب بأرض أوكرانيا الشَّبْعى، الثقيلة، التي تثمر القمح، من دون أن يجري تسميدها في أي يوم من الأيام، وبالغابات الواسعة التي تعود إلى ممتلكات آل هانسكي، وبزُمَر الخدم، ويلاحظ الجانب الرجعيّ في بلزاك، بارتياح، أن السُّعاة:

«يرتمون، بالمعنى الحرفي للكلمة، على بطونهم المسطَّحة، ويضربون بجبهتهم الأرض ثلاث مرات، ويقبّلون قدميه. ألا إنّ المرء لايعرف إلاّ في الشرق، معنى الخضوع الحقيقي. وهنا فحسب تعني كلمة «القوة» شيئًا ما بالفعل.

ثم يرى الفيض الهائل من الفضة والخزف الصيني، والفيض من الترف بكل أنواعه، ههنا لا توجد هموم، ويحسّ إحساسًا داخليًا، بالكيفية التي نشأ بها هؤلاء البشر، من آل رزيڤوسكي أو آل منيستسيش، الذين كان أجدادهم يمتلكون أقاليم بحجم نصف فرنسا. ومازال لدى هذا الكونت المدعو منيستْسيش، في أراضيه، أربعون ألف «نسمة» كما كان يشير إلى فلاّحيه، غير أنه يحتاج في الحقيقة إلي أربعمائة ألف إذا أراد أن يستصلح أراضيه بالفعل. وكل شيء هنا مبنيٌّ على التبذير والتبديد- فالناس يعيشون في أبعاد كبرى، كما كان بلزاك يحلم. ففي هذا القصر يشعر أنه في بيته.

ولأول مرة في حياته لا يحتاج بلزاك في الحقيقة، إلى التفكير في المال. فكل ما يمكن أن يتمنّاه موجود، له، من حجرات وخدم، وخيل، وعربات وكتب، ولا يأتي هنا دائنون يمكنهم أن يكدِّروا صفوَه، ولا تكاد تصله الرسائل. غير أن الإنسان

لا يستطيع أن يهرب من طبيعته وبالنسبة لبلزاك يُعَدُّ التفكير بعقلية المال ضرورة لا مندوحة عنها. ومثلما يتحوَّل الشعور أو الحالة النفسية عند المؤلِّف الموسيقي إلى موسيقا، كذلك تتحوَّل عنده كل نظرة أو تأمل إلى حِساب، ويظلُّ المضاربَ الذي لا سبيل إلى شفائه، وكان لمّا يصل بعدُ إلى ڤيرتسخوڤنيا، بل كان قد سار لتوِّه عبر غابات الممتلكات الهانسكية، وإذا هو يرى الأشجار في صورة مشروع تجاري بدلاً من أن يراها ممثَّلة في أُبَّهة الأوراق الخضر ذوات الحفيف والهفيف وإذا هو يداهمه الحُلُم القديم، بأن يكون في وسع المرء أن يضرب، دفعة واحدة، ضربة واحدة كبرى، أما ضروب الإخفاق في المطبعة، ومسبك الحروف، ومناجم الفضة في سردينيا، وأسهم روتشيلد في خط الشمال الحديد- فهذا كله لم يُجْدِ فتيلاً. لقد رأى بلزاك خشباً، وعلى الفور يقترح على صهره المستقبلي، منيستسيش، مضاربة بالخشب. وكان يجري، منذ هنيهة، إنشاء الخط الحديدي على الحدود الروسية، وهو الخط الذي يفترض، أن يربط، خلال أجل قريب، بين فرنسا وروسيا، ويتولى بلزاك، الملهوف كشأنه دائماً، تصوير الاتصال بهذا الخط بين غابات أصدقائه وسوق الخشب الفرنسي، بقلم الرصاص:

«يحتاج الناس في الوقت الحاضر، في فرنسا، إلى كميّات هائلة من خشب البلوط من أجل عوارض الخط الحديدي، وفي هذا الصدد نفتقر إلى خشب البلوط. وأنا أعلم أن خشب البلوط تضاعفت أسعاره تقريباً، من أجل أغراض البناء أو من أجل النجارة».

ثم يحْسُب ويقدِّر، مراراً، إذ لا بد للمرء أن يُدْخل في حُسْبانه الشحن من برودي إلي كراكاوْ، ومن هناك يفضي الخط الحديدي إلى باريس مباشرة، ولكن مع بعض حالات التقطُّع، وذلك أنه ليس ثمة جسور يمكن عبورها فوق نهر الإلْبه عند ماجديبورج وفوق نهر الراين، وهذا يعني أنه لا بُدَّ للمرء أن ينقل عوارض البلوط الأوكرانية الرخيصة عن طريق قوارب العبور فوق كلا النهرين.

ويقول إن «نقل ستين ألف كتلة خشبية، لن يكون بالأمر اليسير»- ذلك لأنه لا يحْسُبُ، أو يحلم إلاّ بنسبة هذا الحجم.

ويتبين له، حتى بمجرد تقييمه، أن كلاً من هذه الكتل البلّوطية سيكلف شراؤها عشر فرنكات، وعشرين فرنكًا في الشحن، غير أن القوم سيعمدون بعد ذلك إلى تقطيع الكتل، أو الجذوع، إلى عوارض لا يتجاوز طولها العشرة أقدام، بالمناشير وسوف يجتذب القوم رجال المصارف الذين تهمهم إدارة خط الشمال الحديدي، والذين ربما يعملون على خفض تكاليف الشحن من أجل مصالحهم الخاصة، وعند يتم التوصُّل إلى مجرد ربح مقداره خمسة فرنكات عن كل كتلة خشبية، حتى في هذه الحالة يتحصَّل، بعد طرح كل التكاليف والمصاريف، ربح قدره ٤٢,٠٠٠ فرنك.

«وهذا خليق أن يستحق الجهد الذي يُبْذَل من أجل شيء من التفكير»

ولعل من نافلة القول أن نذكر أن مضاربة بلزاك هذه الأخيرة أيضًا بقيت حبراً على ورق.

ويَدَعُ بلزاك نفسه، في هذه الأشهر في ڤيرتسخوڤنيا، تحظى بالتدليل، فهو يرتحل مع السيدات إلى كييف، وهو يتحدث في تقرير له عن هذه النزهة، وكيف يُغْدِق القوم عليه ألوان الاهتمام. وكان ثريّ من أثرياء الروس يُشْعِل شمعة له في كل أسبوع، ويعِدُ سُعاة مدام دي هانسكا بعطاءات سخيّة إذا ما باحوا له بالموعد الذي يعود فيه بلزاك لكي يستطيع أن يراه. وفي القصر يسكن بلزاك:

«شُقّةً ساحرة، تتألف من صالون، وحجرة للكتابة، وحجرة للنوم مزدانة بزخارف جصية ورديّة، وتحتوي على مدفأة جدارية، وسجاجيد رائعة، وأثاث مريح، كما تتألف من ألواحٍ من زجاج المرايا كبيرة لماعة بحيث أستطيع أن أطِلَّ على المنظر الطبيعي من كل الجهات» ويخطِّط لمزيد من النزهات والرحلات، إلى أن يبلغ

القرم والقوقاز، ولا يستطيع المرء إلاّ أن يأسف لأنها لم تتحقق. غير أنه لا يصنع شيئًا، أو هو في حكم من لا يعمل شيئًا ولم يكن عملٍ َقطٌّ في السنوات الأخيرة في حضور مدام دي هانسكا، على الوجه الصحيح. وبالقياس إليها، وإلى ابنتها وإلى صهرها، كان بلزاك «المهرِّج»، بينما كان القوم في بيوت أصدقائه الآخرين، مثل آل كارّو أو آل مارغون، يُولونَ الفنان فيه أعلى درجات الاحترام، فلا يستأثرون بوقته، ولا يلتفتون إليه أو يحفِلون به إلاّ حين يرغب هو ذاته في ذلك. وهناك كان يعمل، ولكن الأمر هنا يختلف، فثمة شيء ما في هاتِه السيِّدات الخاملات، اللواتي أفسدهنَّ التدليل، واللواتي لم يُحَرِّكْن أنملة في حياتهن قطّ، وهو الأمر الذي يتناقض مع جوّ العمل الحقيقيّ، الجادّ. ثم يرتحل بلزاك فجأة، في كانون الثاني، في وسط شتاء متناهٍ في قسوته، عائداً إلى باريس. ويضطر إلى القيام بالرحلة مع درجة برودة قدرها ثمان وعشرون درجة تحت الصفر، ويُقال إن الدفعة اللاحقة من أجل أسهمه غير الموفَّقة في خط الشمال الحديدي، هي التي طاردته وحملته على العودة المفاجئة إلى هذا المدى، وربما استحوذ عليه قلق جديد على بيته، وبحكم البدهية تدعه مدام دي هانسكا ينطلق وحده، ولا يجري الحديث بعدُ بكلمة واحدة عن الخطبة والزواج، وكانت كلما طالت معرفتها به ازداد تردُّدها. فهي تعلم أنها تعيش هنا، في أوكرانيا، متمتعة بأكبر قَدْرٍ من الأمان، غنية، ومن دون أي همّ، والأرجح أنها أدركت أنها ما كانت لتنتهي قطُّ إلى الهدوء والسكينة مع هذا المبذِّر المتلاف والمُضارب الميؤوس منه، وهكذا تَدَعُه، تَدَعُ المُتَوَعِّك السقيم يخرج من دون أن ينتابها الكثير من الهواجس، ولا تزيد على أن تضع على كتفيه فراءًا روسيًا غليظًا عند الوداع.

وكان بلزاك ينتظر، عند كل عودة له من رحلة طويلة، في كل سِنيٍّ حياته، بمجرد وصوله إلى باب منزله، وحتى قبل أن يتخطّى العتبة، كوارث- وهي كوارث يجرها على نفسه بنفسه. وفي هذه المرة لا يكاد يطأ الأرض الفرنسية حتى تنشب

ثورة ١٨٤٨ في شباط . وإذا الملكية تُجْتَرَف بعيداً، وبذلك تتبدَّد بالقياس إليه، وهو الملكي المؤمن بالملكية، بل صاحب النزعة الشرعية (legitimiste)، كل فرصة سياسية. والحق أنه كان خليقًا أن يطرح نفسه في ١٨ آذار، علانية، نائبًا في الجمعية التأسيسية لو طُلِب إليه ذلك، غير أنه لا يتلقى، بالطبع، دعوة جدية، ولم يكن هناك إلاّ نادٍ باريسي، هو نادي الإخاء العالمي (Fraternité- universelle) يظهر بعض الميل لإدخاله في لائحة المرشَّحين، إذا ما كان على استعداد لعرض مذهبه السياسي، غير أنه يرفض هذا بأنفة وإباء : فإنَّ من أراد أن يتخذه نائبًا لم يكن له بدٌّ أن يستقي، منذ عهد بعيد، من مجلدات أعماله الكاملة ماهية معتقده السياسي. ومن الأمور الأنموذجية بالقياس إليه، أنه، مع كونه هو الذي يتنبأ، في المضمار الأدبي بالتغيُّرات الاجتماعية في رؤية بالغة السطوع والإشراق، ويبرِّرها، يقف، في مضمار السياسة العملية، في الجانب الخاطئ دائمًا، مثلما يفعل في أعماله وتجاراته.

وحتى فيما عدا ذلك توجد خيبات أمل بعضها فوق بعض. أمّا أسهم خط الشمال الحديدي فتُواصِل الهبوط، وأما الخطوات الناجحة المأمولة أبدًا في المسرح فلم تظهر، ولم يُقَدِّم مسرحية بيير وشاترين الموعودة منذ عهد بعيد. وفي مقابل ذلك يأتي معه بمسرحية أخرى من روسيا، هي «المسرحية الحميمة- drame in-time» [زوجة الأب]، ويتم عرضها بالفعل، في الخامس والعشرين من أيار، في المسرح التاريخي، غير أنها لا تُحْدِث، في عصر القلاقل السياسية، تأثيراً حقيقيًا. وأمّا أهم مسرحياته، وهي «ميركاديه- Merkadet» فيتم قبولها بالإجماع من قِبَل الكوميدي فرانسيز، غير أن العرض يتخلَّف مؤقتًا، ولا يُسمع شيء تقريبًا عن الروايات من هذه الحقبة، ويبدو أن المسرح استحوذ عليه كل الاستحواذ. وهو يحلم باتحاد يجمع كل الكُتّاب المسرحيين الكبار الذي يفترض أن يكتبوا مسرحياتهم كتابة مشتركة وبذلك يُغْنون المسرح الفرنسي.

غير أن الأرجح أن هذا كله ليس مهماً عنده حقاً. لقد ولّت أيام الطموح الأدبي. وماعاد مهماً عنده سوى بيته. وكان قد تمَّ عَمَلُ الكثير هناك في غيابه، غير أنه مازال لم ينتبه. وكان التعارض بين الترف الذي يتجلى هناك وبين فقر بلزاك الشخصيّ، هائلاً. وما عاد في وسعه أن يستخرج شيئاً من الناشرين الذين باتوا لا يثقون به، ولم يكن عنده مخطوطات جديدة يعرضها، وكان مازال يرزح تحت وطأة الكثير من الديون تجاه ناشره الأخير، سوڤيران. أما الصحف فكان يناصبها العداء. وفي بعض الأحيان لا يكون له بُدٌّ أن يساوره الشعور بأنه بات نَسْيًا منسيًّا، ولكن للكراهية ذاكرة هي أفضل من ذاكرة الحبّ، فها هو ذا إميل دي جيراردان الذي كان ردَّ إليه، قبل رحيله، السلفة على رواية (الفلاحين) باستثناء مبلغ مُتَبَقٍّ يسير، هو ٧٢١ فرنكاً و٨٥ سنتيماً، يُبْلِغ في اليوم الأول أنه أحاط علماً بعودة بلزاك، من أجل هذا المبلغ، وبعد أربعة عشر يوماً يرفع دعوى ضد بلزاك، ويُحكم على بلزاك بدفع المبلغ. لقد ولّت تلك الأيام الرائعة التي كان يستطيع فيها أن يطلب ستين سنتيماً عن السطر. ويضطر إلى التنازل عن أقصوصة (المُطَّلع الخبير- L,initié) بسعر يبعث على التفجُّع، لـِ «متحف العائلات» لمجرد أن يتمكّن من دفع ثمن طعامه. لقد بات أفقر مما كان عليه في أي وقت مضى، ونضب معين كل الموارد. لقد لبث بعيداً أطول مما ينبغي، ثم بات يستحيي بعض الاستحياء من اقتراض المال، بينما كان يجري إنفاق أكثر النفقات عبثيّة ولا معقوليةً، في الوقت ذاته، من أجل «المسكن المتواضع»، وهو القصر القائم في شارع فورتونيه. وهنا يوعز بأن يُشَدَّ الدِّمَقْسُ الذهبيّ على الجدران في حجرة الاستقبال، وأن يُنْقَش على خشب الأبواب أو تُطَعَّم الأبواب بالعاج. على أن مكتبته وحدها، وهي خزانة كتب كانت تُعَدّ فظيعة بالقياس إلى مفهوماتنا، كانت مصفَّحة بدروع السلاحف، تكلّف خمسة عشر ألف فرنك. وبعد موت مدام دي بلزاك لا تكاد تجدُ، إلاّ بشقِّ النفس، مشترياً في فندق دْروّ، بخمسمائة فرنك. وحتى السلم لابُدَّ أن يُفْرَش

بالسجاجيد النفسية وكانت تقوم في كل مكان مزهريّات صينية، وقطع من الخزف، وأطباق من المَلَكيت (فلز النحاس) وكل أشكال الترف الممكن، من أصيل وزائف، تشغل الأماكن، وكان كبرياء بلزاك يتجلّى في «المتحف الكبير»، ومن أجله اختار المنزل الذي كان له في الحقيقة مَسْقِط أفقي بعيد عن البراعة كل البعد، ومن أجل ذلك لم يكن من الممكن بيعه إلاّ لمثل هذا المتعلّق بالأوهام، ويتمثل في دائرة أفقية متطاولة مغطّاة بالزجاج، والجدران مطلية بالأبيض والذهبي، وينتصب في هذه الدائرة أربعة عشر تمثالاً أمّا الأمتعة المستعملة فتوجد في خزائن من خشب الآبنوس، حيث تُرْصَف أشياء الفن ومتاعه التي جمعها بالشراء في درسدن، أو هايدلبرج، أو نابولي، في ساعات التسكُّع، إذ يختلط الأصيل والزائف، والخالي من الذوق، والمفعم بالذوق، بعضهُ ببعض. وقد عُلِّقت على الجدران صور متحف بلزاك السبع والستون، وصورة ذلك المدعو سيباستيانو ديل بيومبو، ومنظر طبيعي لهوبيّما، وصورة يصرّح بلزاك دونما تردد بأنها من لوحات «دورر».

ولم يكن بُدٌّ للتعارض بين التبذير الجنوني المضحك من أجل هذا القصر، وتعرّض شخصه لعبء الديون والفقر، أن يفضي، بالضرورة، إلى أشكال من التوتُّر مع عائلته. ولم يكن في وسع بلزاك أن يسلك السلوك المستقيم حيال ذويه، فهو يُضْطَرُّ، المرة بعد الأخرى، إلى العثور على تفسيرات جديدة لتأجيل مدام دي هانسكا عقدَ الزواج، المرةَ بعد الأخرى، إذ يروي حينًا، أنه كتب إلى القيصر مباشرة، والتمس موافقته، غير أنه أباها عليه. على أن الأغلب الراجح أن القصة ملفَّقة برمتها. ثم يتحدث عن قضايا معقَّدة حبست مدام دي هانسكا في روسيا. ويظل يحاول دائمًا أن يعرضها في صورة توحي بأنها تتخبط في ضائقات مالية خانقة، إذ يقال ذات مرة إنها حولّت كل ثروتها إلى ابنتها، وما عاد في وسعها بعدُ أن تتصرَّف فيها أبدًا، ثم يقال إن المحصول احترق بأسره. أما الحقيقة فهي أن مدام دي هانسكا ظلت طوال حياتها من ذوات الثراء الفاحش، غير أن بلزاك يحاول

دائمًا أن يخفِّف من وطأة عدم التوافق بين أحوالها وأحواله أمام ذويه. فثمة عائلة تقف تلقاء عائلة: فهنا آل رزيفوسكي، وفيهم العمة روزالي التي لاترحم، والتي تظل تصرف ابنة أخيها عن بلزاك على الدوام، وتصوّر الكاتب الباريسيّ في صورة المبذِّر المِتلاف الذي لا يعتمد عليه والمجنون الذي لا يُرجى له شفاء، والذي سوف ينتقص منها ويبدِّد ثروة آل هانسكي، وهناك السيدة بلزاك العجوز، وأخت بلزاك اللتان لا تريان في خطيبة الابن والأخ إلا أرستقراطية متكبِّرة مغرورة، وشخصية باردة أنانيّة تنزل به إلى دَرْكِ الخادم لها، وتلاحق الزوج المعتلَّ السقيم، ذاهبة به وآيبةً في طول الأرض وعرضها.

وكانت بلزاك الأم، السيدة ذات السبعين حَوْلاً، قد توكّت، صابرة، وظيفة الحراسة والإشراف على استكمال إنشاء القصر في شارع فورتونيه، وكان عليها أن تقوم بالمهمة المجهدة التي لا تبعث على الرضى، وهي الشجار مع المُوَرِّدين ومساومتهم، ومدافعة الدائنين، وضبط عمل السعاة، والقيام بدور أمين الصندوق. وكانت العجوز تأخذ هذا على عاتقها بشجاعة وبراعة، غير أنها تحس إحساسًا دقيقًا أن سيادتها في البيت الجديد لن تدوم إلاّ مادام التجهيز لم يَجْرِ الفراغ منه، وهي تعلم أنها لم تُسْتَدْعَ إلاّ للمساعدة، وهي على بيِّنة من أن القوم لن يفسحوا لها مجالاً ولا بحجرة خلفية إذا طاب لهذه الأميرة البولونية أو الروسية، بصورة جدِّية، أن تنتقل إلى هنا، وسوف تُكْنَس على الفور من القصر مع آخر ذرَّة من غبار، ولن يُباح لها أن تستقبل زوجة ابنها حتى عند باب المنزل الذي طالما حرسته- وكانت الوقائع قد أعطتها الحق في هذا التخوُّف، إذ لم تتفضَّل مدام دي هانسكا حتى بأن تحيط علمًا بوجود أم حبيبها وخطيبها، ولو بمجرد سطر في رسالة، فضلاً عن أن تشكر لها ما بذلت من الجهد.

وكان يتجمَّع قدر كبير من المرارة التي كان لها ما يبرِّرها، ولم يحدث مرة واحدة، بل حدث نحو اثنتَيْ عشرة مرة، مثلاً، أن طُرِح سؤال هل تستطيع

العجوز، ذات السبعين حَوْلاً، أن تركب الحافلة من شارع فورتونيه إلى سورسنيس، حيث ابنتها. وبالنسبة إليها فإن القرشين يعنيان إنفاقًا لا يُستهان به. أما القصر الذي تدير شؤونه كما تفعل ربّة المنزل، فتصل فيه الحسابات إلى الآلاف وعشرات الآلاف. وكان يجري الإعداد لحياة أميرية لن يكون فيها مكان لمدام بلزاك المنتمية إلي الطبقة الوسطى في أقصى أحوالها. وإذًا فقد كانت الأسرة تقف في مواجهة هذه القريبة الروسية المنتمية إلى الطبقة الأرستقراطية العليا نظرة التشكك الأقصى، وكانت تَعْجب عُجَبًا لا يخلو كلّ الخلوّ من وجه حق، مِنْ أنّ وارثة الملايين لا تفكر حتى في مجرد ردّ الديون التي يدين بها خطيبها لأمه العجوز، أو تُرَتّب لها، على الأقل، معاشًا موثّقًا عند موثّق العقود يسري مفعوله مدى الحياة مقابل مطاليبها، ولا يمكن أن يغيب عن ذهنها، على الرغم من كل توكيدات هونوريه، أن مدام دي هانسكا تتردَّد في الزواج، وكانت تتكهّن، وهي على حق، بالكبرياء الكامن وراء هذا الرفض، ولكن مدام دي هانسكا تواجه، من جهة أخرى، وبلا ريب، أقوى العقبات التي تحول دون انتقالها إلى باريس، حيث تضطر عندئذ إلى التعامل مع هذه الأم العجوز، ومع الأخت، وابن حميها، ومع كل هذا الرهط من الرّعاع من أهل الطبقة الوسطى، أو إلى مجرد العيش مع الاتصال الوثيق معهم. ولم يكن القصر، بكل تَرَفِه الذهبيّ يسبّب لبلزاك إلا المنغّصات؛ إنه لن يستطيع أبدًا أن يستمتع بهذا. وكان بلزاك كلما نازعته نفسه إلى الاستمتاع عاقبه القدر على هذه النزعة.

وربما كان بلزاك يأمل، خلال كل هذه الأشهر، أن تأتي مدام دي هانسكا الآن، إذ أصبح المنزل في حكم المكتمل، ولكن كان يتّضح، المرة بعد الأخرى، أن المشاعر الرقيقة والرغبة في ارتباط دائم كانت أحاديّة الجانب إلى حد بعيد، أي من جانب الأديب الكبير فحسب، وأن سيدة القصر في فيرتسخوفنيا لا تنطوي على أدنى ميل إلى الانتقال إلى المنزل القائم في شارع فورتونيه. ولذلك يضطر بلزاك

إلى أن يعقد العزم، طوعًا أو كَرْهًا، على أن يطوي، مرة أخرى، ربع محيط الكرة الأرضية، في نهاية أيلول، قبل أن يبدأ برد الشتاء الذي عانى منه في رحلة العودة، في كانون الثاني، ليقوم بمحاولة جرّ الحبيبة ذات الجفاء والصدّ، إلى الهيكل، مراراً- وما أكثر ما فعل ذلك حتى الآن!

على أنه يعمل، قبل ذلك، على الظفر بمقعد في الأكاديميّة، وكان موت شاتوبريان، وآخر من الخالدين [إذ كان المنتخبون يظلّون في الأكاديميّة مدى الحياة] بات اسمه اليوم طيّ النسيان منذ عهد بعيد، قد أخلى مقعدين في الأكاديميّة، وكان بلزاك أعلن ترشيحه، وكان من الضروري الآن، حسب التقاليد الباريسية، القيام بزيارات للأكاديميين الثمانية والثلاثين الباقين الذين يساندون الطلب، غير أن بلزاك ماعاد يتسع وقته لهذا، إذ لم يكن له بُدٌّ أن يعود إلى روسيا قبل حلول الشتاء، ولذلك يُسْلِمُ نتيجة الانتخاب للقدر. ويكون مخرج هذه المسألة باعثًا للأسى والتفجُّع- بل باعثًا للتفجّع بدرجة أكبر بلا ريب، بالانطلاق من وجهة نظرنا، بالقياس إلى الأكاديميّة أكثر مما يتسم بهذه الصفة بالنسبة لبلزاك- : إذ يتمُّ الخروج بصوتين على الإجمال، لصالح مبدع الكوميديا الإنسانية. ويحصل على المقعدين وعلى حلة الفراك النخيلية سيدٌ يقال له دوق دي نوايّيْ وسيد آخر ماعُدنا نتذكّر مآثره الخالدة. ولابُدَّ أن يقال، من باب التمجيد لبلزاك، إنه تقبَّل هذا الرفض الثالث أيضاً بما يحفظ عليه كرامته وتفوقُّه. ولا يلتمس بصراحة إلاّ من أحد أصدقائه أن يستطلع مَنْ كان الجريئان اللذان تجاسرا على التصويت له لكي يتمكن من تقديم شكره إليهما.

وفي تشرين الأول يصل بلزاك، من جديد، إلي ڤيرتسخوڤنيا. ،لكن إيقاع حماسته يتطامن في هذه المرة على نحو ملحوظ، إذ ما عادت ڤيرتسخوڤنيا فردوسًا، بل «صحراء»، ويكتب إلى أمه:

«واعَجَبًا، لو أنك كنت هنا، في أوكرانيا لبدا لكِ شارع فورتونيه فاتناً».

ويظل يؤكِّد، المرة بعد الأخرى، فيما يقارب الخوف، مهما يكن ضيفًا موضع الترحيب الكبير، قائلاً:

«ألا إنّ الناس الذين أعيش معهم هنا، ليتسمون باللطف والدماثة على نحو ممتاز، تجاهي، غير أني ما عُدْت ضيفًا يحظى بالتدليل المبالَغ فيه، وصديقًا بالمعنى الصريح للكلمة، وإن القوم هنا ليعرفون كل أفراد أسرتي، ويشاطرونني كل همومي بأكبر الاهتمام، ولكن ماذا يستطيع المرء أن يفعل حيال المستحيل؟

وإذًا فهؤلاء «القوم»- وفي هذه الرسائل لا يشير بلزاك إلى مدام دي هانسكا وذويها باسم آخر سوى هذا- يتفضّلون الآن بأن يحيطوا علمًا بأن له هناك، في باريس، أمًّا وأختًا، ولكن يُقْرأ بين السطور، بل في الحقيقة بصراحة تامة في النصّ، أن مافي ڤيرتسخوفنيا ليس على ما يرام. أما «المستحيلات» فيبدو أنها هي، قبل كل شيء، النفقات المستحيلة التي أنفقها بلزاك في باريس، ومن الجائز أن تكون مدام هانسكا استُثير َفزعُها، استثارة لم تكن تخلو من وجه حق، من جرّاء المبالغ الجنونية التي أُنْفِقَت على منزل لا تريد، على الأرجح، أن تسكنه أبدًا، وإذا بلزاك يريد الآن، فجأةَ، أن يُمْسِك ويحجم، ويكتب إلى باريس قائلاً:

«يكفي أن أقول إن التضحيات التي يعتزم القوم تقديمها، لها حدود، ولا يجوز للمرء أن يكون باعثًا لسآمة آخر، حتى ولو كان هذا الآخر أقرب الناس إليه. على أن هذه الديون الأبدية المترتِّبة على المنزل لم تَخْلُ من إحداثِ انطباعٍ غير مُواتٍ، ولو أضيفت إلى ذلك بعدُ أية حكاية جديدة، لأمكن، في ظروف معينة، أن يغدو مستقبلي كله موضع الشك».

ويبدو كأنّ مشاهد عنيفة حدثت.

«لقد استاء القوم من إنفاق مبلغ ضخم إلى هذا الحد».

ولم يكن بُدٌّ لمدام دي هانسكا أن يتبين لها أن فنون بلزاك في الحساب تحتاج

إلى ضبط أكثر دقة. فالمنزل الذي قيَّمه أول الأمر بمائة ألف فرنك، يكلِّف الآن مع تجهيزه وتأثيثه ثلاثمائة ألف. ولم يكن بُدٌّ لهذا أن يغدو غير مُريح حتى بالقياس إلى امرأة موسرة تملك الملايين، مثل مدام دي هانسكا. وإذا قابلية الاستثارة التي تسود في ڤيرتسخوڤنيا تنتقل وتفشو، إذ يكتب بلزاك إلى بيته مستاءاً، وتجيب أمه مستثارةً. وتقع إحدى هذه الرسائل في يد مدام دي هانسكا، وتكون صعوبات جديدة، ويحاول بلزاك أن يُنْحي باللائمة كلها على أسرته، وأن يحمِّلها المسؤولية إذا لم يتحقق الزواج، وإذا الحديث يرِدُ عن أن مدام دي هانسكا ربما تعتزم بيع المنزل في شارع ڤورتونيه، من جديد، ببساطة:

«إنها تتمتع هنا بالغنى والمحبة والاحترام، لا تفتقر إلى شيء. أما هناك فهي تتردد في الذهاب إلى بيئة لا ترى فيها إلاّ الاضطراب والقلق، والديون والنفقات والوجوه الغريبة وأولادها يرتعدون خوفًا عليها».

وحتى بلزاك يتملكه الخوف، ويقوم بمحاولات توفير لا معقولة، إذ ينبغي أن يتم صرف الخادمة، فجأة، فقد غدا مُرتَّبها والطعام لها فوق ما ينبغي، فجأة، ولا ينبغي الإبقاء إلاّ على الخادم، فرانسوا، فهو فتى لا يستغنى عنه لحراسة الكنوز المكدَّسة، على أن بلزاك يقع ضحية لحدود قصوى، أدهى وأَمَرّ. إذ يكتب، من وسط أوكرانيا الأكثر تجهُّمًا، إلى أخته في سوريسنيس، يسألها هل يمكن أن تبعث إليه، بعد عودته، في كل صباح، بطبّاختها ويُقْصَد بذلك أن تطبخ له، وللخادم، لحم البقر من أجل أسبوع كامل ليكون مؤونة له، وإذا هو الذي كان يحسُب حساب الملايين، يجمع الآن أكثر الأرقام تواضعًا:

«لم يتبقَّ لديّ سوى مائتا فرنك، ولن يكون معي بعد ذلك شيء على الإطلاق حتى عوائد المسرح، أيضًا، أرى أنْ ستنتهي المسألة إلى أنْ لا يجني المرء مالاً، حتى من وراء الأعمال الفنية الرئيسية.

ومثل هذا القنوط والانكسار جديد على بلزاك، إذ يظهر أَنْ قد فُتَّ في عضده، وأنه ماعاد هو ذاته. لقد تكبَّدت حَيَويَّتهُ ضربةً قاصمة، وها هو ذا الجسد ينتقم، وكانت إشارات الإنذار تأتي من كل حَدْبٍ وصوب، ولم يسبق أن ألقى إليها بالاً بما يكفي. أمّا الآن فقد تعرَّضت كل أعضائه لزلزال، وما عاد في حاجة بعدُ إلاّ إلى مجرد صدمة، ولا يكون أمام بنية بالغة القوة والجبروت كبنيته سوى أن تنهار.

وكانت الرحلة التعيسة إلى ڤيرتسخوڤنيا، في حد ذاتها عملاً منافيًا للذكاء، إذ لم يكن بلزاك متعودًا على درجات الحرارة الروسية، بحكم كونه فتى التورين، وينبثق لديه التهاب شعُبَيّ، ويشير هذا في الوقت ذاته، مرة أخرى، إلى تردّي حالة قلبه الذي كان صديقه الأمين الدكتور ناكار، قرّر، منذ عام ١٨٤٢ أن حالته تثير القلق والهواجس، وحين يُباح له أخيراً أن يغادر الفراش تكون مرونته ومقدرته على الحركة قد أدبرتا إلى غير رجعة، فهذا نَفَسُهُ يتعثَّر عند كل خطوة، وحتى الحديث يُجْهدُهُ، وقد «وصلتُ من الهزُال إلى مثل ما كنتُ عليه في عام ١٨١٩، لقد جعل مني المرض طفلاً».

ولا سبيل إلى التفكير في أي عمل، كائنًا ماكان.

«لم أَكْسِبْ شيئًا منذ عام كامل».

ولعل مما يبدو ذا دلالة رمزيّة أنه يضطر حتى إلى أن يخلع طيلسان الراهب الذي هو ثوب العمل المحبوب عنده:

«لقد كنت أرتدي، أيام مرضي، ثوب نوم- يقوم الآن، وعلى نحو دائم، مقام الطيلسان الأبيض».

ولم يكن من الممكن التفكير في عودةٍ خلال الشتاء الروسيّ، ويضطر إلى التخلّي حتى عن الرحلات التي تمّ التخطيط لها، إلى كييف وموسكو، ويعالجه

طبيبان ألمانيّان، هما الدكتور كنْوته، وابنه. ويجرِّبان ذلك بعلاج مبنيّ على الليمون ويبدو حديثًا إلى حد يلفت النظر، ولكن هذا لا يعود عليه إلاّ بتخفيف عابر لوطأة المرض، وكان الجسد يأبى أن يعود مِنْ بعدُ إلى إجهادٍ للقوة حقيقي، فكان هذا العضو يعجز حينًا وذاك العضو يعجز حينًا آخر، وتنتابُ العلة العينين ذات مرة، ثم يصاب مجدَّدًا بالحمى، ثم يعاوده التهاب في الرئتين.

أما سلوك مدام دي هانسكا فلم نأتِ إلاّ على تلميحاتٍ إليه، غير أن الأمر المؤكَّد هو أن العلاقات لم تكن على أحسنِ ما يرام. لقد كانتْ أول الأمر مفعمة بالحماسة للأديب الشهير، وكانت ترتضي توسُّلَه إليها إذ كان يتملّق غرورها، ثم بات «المهرِّج» الممتع المُسَلّي، والنديم الطَلْق الأسارير أبدًا، ورفيق السفر المُسْتَظْرَف في فرقة «سالتيم بنك». أما الآن فقد بات عبئًا، ببساطة. وكانت كلتا المرأتين الظامئتين إلى السرور والتسلية، وهما الابنة وأمُّها، قد سرَّهما السوق السنوي الكبير في كييف، وتمَّ استئجار مسكن في المدينة، كما تمَّ إرسال قطع التجهيز سلفًا، واشترى القوم العشرات من «أطقم التواليت»، ولم يكن هناك بُدٌّ الآن، بسبب مرض بلزاك- وربما أيضًا بسبب رداءة الطرق- من تأجيل المشروع المرة بعد الأخرى، وكان سرور بلزاك الوحيد يتمثَّل في أن كلتا السيدتين تعرضان عليه، وهو راقد في فراشه، في مرضه بالتهاب اللوزتين، من حين إلى آخر، هندامهما الجديد الذي تريدان الانطلاق به إلى ألوان تسليتهما.

أمّا في رسائله فكان مازال، بالطبع، يواصل تحمُّسه لصاحبته إيفا و كأنه يتحمَّس لكائن من عالمٍ فوق هذه الأرض، مثلما يتحمس لابنتها السطحية والساذجة تمامًا. ولكن لابُدَّ أن نطاقًا حديديًا من الوحدة كان يحيط به في تلك الأيام- ولابُدَّ أنه كان يشعر بغربة كاملة وسط هاتِه النسوة المُدَلَّلات اللواتي لا يفكِّرن إلاّ في متعتهن، ذلك لأنه كان يسترجع، دفعةً واحدة، ذكرياته مع أصدقائه القدامى، وكانت مدام دي هانسكا قد ظلت، طوال سنين، تزيح جانبًا كل علاقاته الأخرى، وكان لايكاد يكتب رسالة جديدة إلى زُلما كارّو، الأكثر إخلاصًا، وتفهُّمًا

صديقاته، ورفيقة صباه. والآن فحسب يتذكَّر من جديد كيف كانت تشمله برعايتها، ويتصوَّر كيف كانت خليقة أن تحرسه وترعاه بلا ريب، في مثل هذا الوضع.

وبالطبع! فإنه لبث زمنًا طويلاً لا يفكر فيها من بعدُ، حتى لقد باتت صيغة الخطاب بقوله: «عزيزتي "cara, chére" لا يجري بها قلمه، ولذلك يبدأ بمخاطبتها وكأنه يخاطب واحدة من معارفه باتت غريبة عنه حقًا، إذ يقول: «سيدتي زُلْما المحبوبة جدًا والطيبة جدًا، غير أنه سَرْعان ما يجد الإيقاع القديم المألوف، ويحسُّ المرء بالكآبة في سطوره:

«لقد نقلت إليَّ بنات أختي، مرتين، أنباءًا مُكَدِّرة للغاية عنك، ولئن لم أكتب فإنما حدث ذلك لأنني لم أكن، ببساطة، في وضع يمكِّنني من هذا. لقد كنت على شفا حفرة من الموت. والمسألة تتعلق بداء في القلب باعث للفزع، نشأ خلال خمس عشرة سنة من ضروب الإجهاد المفرط. وهكذا أعيش هنا منذ ثمانية أشهر، تحت إشراف طبيب كان من بواعث دهشتي بما يكفي، وجوده هنا، في قلب أوكرانيا، وهو طبيب كبير ربط نفسه بالقصر وبممتلكات الأصدقاء الذين أقيم عندهم، وقد تعرَّضت المعالجة للانقطاع من جراء نوبة من نوبات الحمى تلك الفظيعة، التي يسمونها الحمى المولداقيّة. وهذه تأتي من المستنقعات الواقعة على جوانب نهر الدانوب، وتهاجر إلى أوديسا وتغزو، بالانطلاق من هناك، العتبات والسهوب. أمّا النوع الذي أُصِبْتُ به فيسمى عدوى المخ المتناوبة وقد دامت شهرين، ولم أصل إلاّ من ثمانية أيام إلي المدى الذي يمكن عنده استئناف معالجة مَرَضي القلبيّ المزمن، وقد بعثت إليَّ، أَمْسِ الأول، بنات أختي برسالة جاء فيها أنك تأملين، يا عزيزتي زُلْما، أن تحتفظي بمنزلك في فرابيسل على الرغم من أنك تبيعين بيتك الريفي هناك.

وهذه الكلمات: فرابيسل، ومدام كاروّ، تبعثن الحياة في كل ذكرياتي من جديد بأقصى قدر من القوة، وعلى الرغم من أن كل إجهاد محظور عليَّ،

حتى كتابة الرسالة، فقد أردت أن أقول لك مع ذلك لماذا لم أستطع أن أكتب إليك شيئًا منذ شباط المنصرم، باستثناء بعض الكتابات المتصلة بالأعمال والتجارة، ولم يكن لي بُدٌّ أن أقول إنه لا ينبغي لك أن تصدِّقي أن المرء ينسى أصدقاءه الحقيقيّين، وينبغي لك أن تعلمي أنني لم أتوقَّف قطُّ عن التفكير فيكِ وفي محبَّتك، وحتى عن الحديث عنك هنا، حيث يعرف القوم صديقنا المشترك بورجيه منذ عام ١٨٣٣!.

ألا ما أشدَّ اختلاف الصورة التي تتجلَّى بها الحياة من مستوى ارتفاع الخمسين! وما أكثر ما ابتعدنا بلا ريب، فأَوْغلنا في البعد عمّا كنا نأمل! أتُراك مازلت تذكرين فرابيسْل، وكيف هدأت هناك أعصاب مدام ديجريه؟ وأنا أعتقد أنني هدَّأت منذ ذلك الوقت أعصاب كثير من الناس، ولكن ما أكثر ما اطَّرحت جانبًا، وما أكثر ما تخليت عنه من الأوهام منذ الوقت، نهائيًا! ولْتُصَدِّقيني: فبصرف النظر عن الميل الذي مازال ينمو على نحو مطرد، لم أحرز منذ ذلك الوقت وحتى اليوم كثيراً من التقدم، ألا ما أشد السرعة التي ينطلق بها الشرُّ المستطير إلى عنان السماء، وما أكثر العوائق التي تقف على الدوام في طريق سعادتنا! والحق أن المرء ليشعر بالقرف والاشمئزاز من الحياة، لقد كنت منذ ثلاث سنوات في صدد بناء عُش، ولقد كلَّفني ثروة حتى الآن، والشكوى إلى الله-، ولكن أين الزوجان من الطيور؟ ومتى يكون الانتقال؟ ثلاث سنوات تولّي الأدبار، ونحن نشيخ وكل شيء يذوي، ويشحُب، حتى الأقمشة والأثاث في عُشي. فأنت ترين ياعزيزتي أَنْ ليس كل شيء ورديًا، حتى بالقياس إلى أولئك الذين يبدو أنهم في أحضان السعادة. . ».

كما يكتب الآن إلى مدام ديلانوا التي طالما أسعفته بإخراجه من الديون التي كان يزرح تحت أعبائها، والتي لم يشكر لها حق الشكر. وكان يبدو أن مَنْ لايستطيع أن يسدِّد ديونه بالمال أبداً فهو ينطوي على رغبة غامضة في محو الديون بالمحبة والامتنان قبل فوات الأوان. وربما بات بلزاك يعرف بنفسه أنه رجل خاسر مُضيَّع.

الفصل الخامس والعشرون

الزواج والعودة إلى الوطن

ربما كان بلزاك يعرف ماذا أَلَمَّ به، ولكن مامن شك في أن الأطباء يعرفون أنه لا سبيل إلى إنقاذه، ولابُدّ للمرء أن يفترض أنهم أعربوا لمدام دي هانسكا عن رأيهم بصراحة. والآن، إذ أصبحت على يقين أن الزواج لن يكون إلاّ قصير الأجل، تعقد عزمها على أن تنجز للرجل الذي لبث يخطب ودّها كلّ هذه السنين، هذه الرغبة الأخيرة، التي هي أعز الرغائب في حياته، فهي تعلم أنه ماعاد يرتبط خطر مابهذه الخطوة، فلن يستطيع أن يبدِّد الكثير من بعدُ، هذا البلزاك الطيب تحوّل الآن إلى بلزاك المسكين، ويستحوذ عليها رثاء معين، كذلك الذي ينتاب السيدات تجاه الخادم المخلِص الذي طال عليه الأمد عندما يرقد في مرض الموت. وهكذا يتم الإعداد للزواج آخر الأمر في موعد يحل في آذار ١٨٥٠

وكان يفترض أن يتم الزواج في بريد يتسيف، أول مدينة كبيرة من مدن الإقليم، ويعتزم الزوجان بعد ذلك الذهاب، في الربيع، إلى المنزل الذي تمّ استكماله آخر الأمر، وما من شيء يستطيع أن يجسِّد لهفة بلزاك، الإنسان المتعلّق بالخيال تجسيداً أوضح من التوجيهات التي يصدرها منذ الآن من أجل الاستقبال من مسافة بعيدة، وترد إلى الأم نشرة دقيقة:

«سوف تجدين في الطبق الصيني الكبير الذي يوجد فوق الخزانة البنية، في الحجرة الأولى، بالدور الأعلى، إلى جانب الصالون المُطعَّم، عنوان بائع أزهار في الشانزليزيه، وكان قد زارني منذ عام ١٨٤٨، وناقشنا مسألة توريد أزهار على مدى

أربعة عشر يوماً لتزيين المنزل، وعرض عليَّ سعراً يَعْدِل سعر الاشتراك السنوي، والمسألة تتعلق بستمائة فرنك إلى سبعمائة فرنك في العام. ولما كنت مضطراً إلى الرحيل فقد أرجأت هذا الإنفاق إلي أن يتوافر المال الكافي وتكون المعنيّة بالأمر قد وافقت. إنها تحب الأزهار، وهذا ما أعلمه. وعندما يكون بائع الأزهار قد فرغ من تزيين المنزل ذات مرة يكون قد توفَّر لنا ما تستطيعين التفاوض على أساسه لكي تحصلي على سعرمناسب، ولْتَحْرِصي على أن يقدِّم أزهاراً جميلة حقًا، ولْتكوني دقيقة جداً معه.

وهذه هي التزيينات التي يجب القيام بها: أولاً منصة الأزهار في الحجرة الأولى، ثانيًا: المنصة القائمة في الصالون الياباني، ثالثًا: حمّالتا الأزهار في الحجرة ذات القبة، رابعًا: منصات الأزهار الصغيرة المصنوعة من الخشب الإفريقي فوق المدفأة الجدارية، في الحجرة الرمادية تحت القبة. خامساً حمّالتا الأزهار الكبيرتان فوق بَسْطَة السُّلَّم، في بيت الدَّرَج، وسادسًا: حافظتا الأزهار الصغيرتان الخشبيّتان الموجودتان في الطبقين اللذين ركَّبهما فوشير.

وهكذا يُصْدِر تعليماته، حتى قبل أن يتزوج، وقبل أسابيع من انتقاله إلى المنزل الجديد. ويرى المرء مقدار الروعة التي يعمل بها الخيال عمله في المريض بعد، ومدى الدقة التي تؤدي بها ذاكرته عملها، والتي تشمل حتى أدق التفاصيل، فهو يعرف كل قطعة من قطع الأثاث، ويحيط علماً بكل مزهرية، ويعرف أين تقوم كل حمّالة زهر، وقد بات هناك، بأفكاره، في شارع فورتونيه، مُستبقاً زواجه ورحلة العودة الطويلة.

وفي الرابع عشر من آذار يتم عقد الزواج في كنيسة القديسة بربارة، في حاضرة الريف الأوكراني، بيردتيسيف، وكان يفترض أن يتم الاحتفال بهدوء كامل، إذ يريد القوم أن يتجنَّبوا كل لَفْتٍ للأنظار، ولم يُدْعَ أحد، ولا تمَّ إفهام أحد، وفي الساعة السابعة صباحًا، ومازال انبلاج الصباح في منتصفه، يتم إجراء

الطقوس، ولم يأت أسقف شيتومير الذي كان القوم يأملون ظهوره. ولكن بلزاك يَقَرُّ عينًا مع ذلك، على الأقل، بأن أباً من آباء الكنيسة ينتمي إلى الأرستقراطية العليا، هو الكونت تساروسكي، يقوم بمباركة الزواج، ولم يحضر من الشهود سوى أقرباء الأب الكنسي والكونت منيستسيش الذي بات الآن صهراً لهما، وبعد الاحتفال مباشرة ينطلقان عائدين إلى ڤيرتسخوڤنيا، ويصلان متعبين تعبًا قاتلاً، في المساء، حوالي الساعة الحادية عشرة، إلى المنزل.

وفي أحد الصباحات التالية، يجلس بلزاك إلى منصة كتابته- وكأن السعادة ردَّته إلى العافية، ويكتب، مرة أخرى، بالأسلوب النابليوني الفخم، بيانات انتصاره، يكتب إلي أمه، وإلى أخته، وإلى الصديق والطبيب، الدكتورناكار، وإلى مدام زلما كارّو.

فأما الصديقة العجوز، صديقة صباه، زُلْما، التي يكرر عليها في هذه الرسالة قوله:

«كنت إذا سئلت عن صداقاتي السابقة، كان اسمك أول ما يرد على لساني» فيروي لها:

بتُّ الآن متزوجًا منذ ثلاثة أيام، من المرأة الوحيدة التي أحببتها، والتي أحبُّها أكثر مما أحببتها في أي يوم من الأيام، والتي سأظل أحبها إلى أن أموت. وهذا الاتحاد، فيما أعتقد، هو الجزاء الذي أَعَدَّه الله لي احتياطًا ليكون جزاءً وِفاقاً على كل ما احتملت من الشدائد والمكاره، وعلى كل سنوات العمل ذوات العدد الجمّ، والصعوبات التي لم يكن لي بُدٌّ أن أواجهها، والتي تغلَّبت عليها. لم أتمتع بطفولة سعيدة ولم يكن ربيعي مزدانًا بالأزهار، وسوف يكون لي الآن صيف مُشْرِق، وخريفٌ هو الأحلى بين أمثاله من الفصول قاطبة. وربما يبدو لك زواجي السعيد، إذا ما نظرت إليه من وجهة النظر هذه، كأنه عزاء شخصيّ، فهو يبيِّن لك أن العناية الإلهية تُعِدُّ، بعد صنوف الآلام الطويلة، الكنوز التي تمنحها في النهاية.

ويختم الرسالتين. ولا يكون عنده بعد ذلك إلاّ فكرة واحدة: أن ينطلق على أثر الرسالتين، ويرحل أخيراً إلى دياره.

ولم يكن ثمة رسالة ولا سطر من زوجته يواكب هاتين الرسالتين. وحتى في هذه اللحظة لم يفلح في حملها على أن تظهر علامة من علامات المجاملة والتلطُّف، ويضطر بلزاك إلى أن يبعث إلى أمه بالاعتذار التالي الذي يَقْسِرُ نفسه عليه كثيراً:

«كانت زوجتي تنوي أن تُلْحِق بعض السطور بخاتمة هذه الرسالة، ولكن ساعي البريد ينتظر، ولابُدَّ لها أن ترعى أمر السرير وقد تورَّمت يداها من الروماتيزم حتى ماعاد في وسعها أن تمسك بالقلم، وسوف تبلغك، في رسالتي التالية، بولائها وإخلاصها.

ولم يكن بُدٌّ لبلزاك أن يدفع غاليًا ثمن كل سعادة، فهو لا يستطيع الرحيل؛ فالطرق مازالت مكسوَّة بالثلوج، وغير صالحة للاستعمال، وحتى لو استطاعت الانطلاق فإن حالته الصحية تجعل كل سفر مستحيلاً. لقد طلب الأزهار للمنزل في شارع فورتونيه في موعد مبكر أكثر مما ينبغي. وتنتاب الجسد الذي أصابه الخَوَر نوبات جديدة عنيفة:

«لقد تعرَّضت لنكسة فادحة في مرض قلبي والتهاب رئتي. لقد خسرنا الكثير، مرة أخرى وقد كان يبدو كأننا حققنا خطوات من التقدم. وأنا أشعر بغشاوة سوداء تلقاء عينيّ تأبى أن تنقشع، وتغشى كل شيء، وهذا أمر يمنعني من الكتابة. وهذه أول مرة أتناول القلم فيها، بعد هذا البرق من سماء مشرقة.

وكان من المفروض أن يتوقع المرء أن تقوم السيدة إيڤا، الآن على الأقل، بتوجيه بضع كلمات إلى الأم لكي تهدِّيء قلقها بصدد مرض ابنها، ولكن بلزاك يضطر إلى أن يضيف قائلاً وقد أُفعِم قلبه خوفًا:

«إن زوجتي لا تتوافر لها دقيقة من الوقت، وفضلاً عن ذلك فيداها متورمتان إلى حد باعث للفزع، وهذا يرجع إلى الرطوبة.

وبعد أربعة عشر يومًا، أي في الخامس عشر من نيسان، يضطر بلزاك إلى أن يستجمع كل طاقته، مراراً، لكي يتمكَّن من كتابة رسالة إلى أمه:

«إنني لا أكادأقدر على تمييز الحروف لكي أبعث إليك بهذه الرسالة، فإن جَفْنَيَّ لا يسمحان لي في الحقيقة بالقراءة، ولا بالكتابة»

وما زالت تلك المولودة باسم رزيفوسكا لا تستطيع أن تعتقد عزمها على أن تبعث إلى العجوز ببضعة سطور. ومرة أخرى يضطر بلزاك إلى أن يورد حجة عرجاء: وفي هذه المرة تكون الابنة هي التي تظل الأم مقيَّدة بسريرها، وهي ترجو فحسب «أن تزجيَ إليكِ احترامها». ثم يضطر إلى أن يقول عن نفسه معترفًا:

«حالتي ليست على ما يُرام على الإطلاق، لا في قلبي، ولا في رئتي. ونَفَسي يتعثَّر مع كل حركة.

وأخيراً يعقدان العزم على الانطلاق مع ذلك، وتكون رحلة رهيبة. ومنذ برودي الواقعة على الحدود البولونية، يصل بلزاك إلى أقصى حالات الوَهَن، وما عادت له شهية وبات يعاني من انبعاثات عرق غزير كانت تزيد من تردّي حالته على نحو مطَّردِ، وكان المعارف الذين يرونه لا يكادون يميِّزونه من جديد، ثم يروي، بالانطلاق من درسدن، في الحادي عشر من أيار، عام ١٨٥٠

لقد احتجنا إلى شهر بطوله لكي نقطع هذا الطريق الذي يستغرق في العادة ستة أيام، ولم تتعرَّض حياتنا للخطر المباشر مرة واحدة، بل مائة مرة. ولطالما احتجنا إلى خمسة عشر رجلاً أو ستة عشر مع استخدام المِرْفاع، لكي يستخرجونا من وِهاد المستنقعات التي كنا نُدْفن فيها إلى أن تبلغ نوافذ العربة، غير أننا وصلنا في النهاية مع ذلك، ومازلنا أحياء، غير أننا مرضى ومرهَقون، وإن رحلة كهذه لخليقة

أن تجعل المرء أَسَنّ مما هو عليه بمقدار عشر سنين، وفي وسعك أن تتصوري ما يعنيه هذا، حين لا يكون هناك بُدٌّ للمرء أن يتولاه الخوف من أن يموت الواحد منا بين ذراعَيْ الآخر- وهذا إذا كان الطرفان متحابَّيْن كثيراً.

ويصل إلى هذه المحطة في رحلته وقد استَنْفِدَت طاقته استنفاداً شاملاً، وما عاد في وسعه أن يرتقي سُلَّمًا، وبات يشك في أنه سيستطيع أن يواصل المسير إلى باريس على وجه الإطلاق:

«صحتي في حالة تبعث على التفجُّع. لقد زادت هذه الرحلة المُفْزِعة مرضي سوءاً على سوء.»

ولم يكن له بُدٌّ، على الرغم من عجز عينيه، أن يكتب الرسالة بنفسه، ويضطر، مرة أخرى، إلى أن يحمي زوجته من غائلة نقص اهتمامها.

«إنها شديدة الامتنان لكل ما تقولين عنها في رسائلك، غير أن حالة يديها لا تسمح لها الآن، علي أية حال بالكتابة إليك بنفسها.

على أن الغريب في الأمر أن الروماتيزم الرهيب الذي يشل أصابع السيدة إيفا لا يمنعها أن تُنَقِّب في محالّ باعة المجوهرات، وأن تشتري لنفسها سلسلة من اللؤلؤ جميلة منتقاة بخمسة وعشرين ألف فرنك، وكانت، وهي التي لم تكن تستطيع أن تكتب مجرد سطر واحد، لأم بلزاك، ولا لأخته، في كل هذه الشهور، على أَتَمّ الاستعداد لأن تُخْبِر ابنتها، بحروف واضحة مُحكَمة، بعملية الشراء. أمّا أنها لم تكن تفكر، في هذه اللحظة التي يرقد فيها بلزاك في حجرته بالفندق مشلول العينين، في شيء آخر، سوى سلسلة اللآلئ هذه، فذلك ما يشير بلا ريب، إلى جفاء وقسوة صريحة لا لَبْس فيها، وكان من الأمور المميِّزة أنه ما عاد يشار إليه في هذه الرسالة، إلاّ بعبارة «الصديق الطيب الغالي»- على أنه عبء تجرُّه معها الآن حيثما ذهبت، لأنها تعلم أنه ما عاد من الممكن أن يمتدّ به العمر.

أمّا ماهيّة ألوان الصراع التي ربما حدثت في هذه الأيام في درسدن فأمر لا يستطيع المرء إلاّ أن يقدِّره من طريق الإحساس الداخلي فحسب، ومن وراء هذه السطور التي تنطوي على اللامبالاة، ولكن بلزاك مضطرٌّ إلى أن يواصل القيام بدوره إلى النهاية، فهو يصدر إلى أخته التوجيه التالي:

«أنا أحسُب حساباتي بالاستناد إليك: يجب عليك أن تُفْهمي أمك أن عليها أن لا تكون في شارع فورتونيه عندما أصل».

فهو يخاف خوفًا صريحًا من اللقاء بين المرأتين، ويستخدم الحجة الركيكة:

«قد تعاني كرامة أمِّنا إذا كانت حاضرة عند تفريغ كل متاعنا، واضطُرَّت إلى إسداء العون»

وتظل العجوز على حق في سوء ظنها. لقد لبثت طوال كل هذه الشهور تحرُس الكنوز بأمانة وإخلاص، وتراقب السُّعاة، وتتفاوض مع المُوَرِّدين، لقد عرفت أن الأميرة الروسية المتكبِّرة ستأبى أن تراها بعد ذلك في بيتها، ولم يَدَع القوم لها بعدُ سوى مهمة واحدة: أَنْ تُعِدَّ زينة الأزهار من أجل الاستقبال، ثم يترتَّب عليها أن تنصرف في صمت، قبل أن يبتدر الزوجان باب المنزل. أما فرانسوا، الخادم فينبغي له أن يقف لدى الباب، ويواكب تلك المولودة باسم رزيڤوسكا عند دخولها بيتها الباريسي" الأميري" وينبغي أن تكون كل الأضواء موقدة، في الحجرات، وفوق السلالم، وينبغي أن يكون استقبالاً احتفاليًّا، ولكن السيدة بلزاك العجوز كانت توجَّهت منذ وقت بعيد، من دون جلَبَةٍ أو جعجعة، إذ كانت تحسُّ إحساسًا داخليًا مُسْبَقًا بهذه الأمور، إلى ابنتها في سوريسنيس.

ومرة أخرى تحلُّ اللعنة على عودة بلزاك الذي لا يكون له بُدٌّ أن يدفع ضريبته مقابل كل سعادة يحلُم بها، في الواقع، ويظل أبدًا، لا مجرد الكاتب، بل يكون أيضًا البطل يعاني من «أوهامه المفقودة.» ويتحوَّل الوصول إلى باريس أمام المنزل

في شارع فورتونيه إلى مشهد ما كان ليستطيع، هو نفسه، أن يخترع ماهو أقسى منه في رواية من رواياته، وكانا قد قطعا المسافة الأخيرة بالخط الحديدي، وتأخَّر القطار، وفي ساعة متأخرة من الليل، يتقدَّمان في العربة، وبلزاك مفعم بالتوتُّر الدالّ على نفاد الصبر، إذ يتلّهف على رؤية هل نفذت تعليماته بدقة حتى الحرف الأخير منها.

لقد بيَّن كل التفاصيل بدقة: فهو يعلم أين يجب أن تنتصب كل حمّالة زهر، وكم من الأضواء يجب أن يكون موقَدًا، وكيف يترتَّب على الخادم أن يستقبلهما وفي يده شمعدان في صورة أزهار.

وأخيراً تتوقف العربة. وكان فرانسوا قد التزم بكلمته، فكان المنزل مضاءاً من أعلاه إلى أسفله، ولكن لم يكن أحد واقفًا أمام الباب، ويقرعون الجرس، فلا يجيب أحد، ويظل بلزاك يشد الجرس شداً عنيفًا، مرة بعد أخرى، ولكن المنزل المضاء يظل صامتًا لا يجيب، ويتجمَّع بعض الجيران، ويتساءل الناس هنا وهناك، ولكن الحِيَل تضيق بهم وتظل السيدة دي بلزاك في العربة بينما يحث بلزاك الحوذيَّ على أن يأتي بصانع أقفال يفتح الباب، ومثلما افتعل زواجه افتعالاً يقتحم منزله الآن بالعنف.

ثم يلي ذلك مشهد كمشهد الأشباح، إذ يعثر القوم على فرانسوا، الخادم في إحدى الحجرات. لقد أصابه مسٌّ من الجنون. وفقد عقله في هذه اللحظة على وجه الخصوص وبات من الواجب أن يؤخذ إلى مستشفى المجانين حتى في منتصف الليل. وبينما يتمكَّن القوم من ذلك الذي جُنَّ جنونه وينقلونه، يأخذ بلزاك تلك المولودة باسم رزيفوسكا إلى البيت الذي كان يحس بشوق لاهب إليه.

الفصل السادس والعشرون

النهايــة

ويظل قانون قَدَر بلزام يتكرَّر دائماً من جديد حتى النهاية: وهو أنه لا يستطيع أن يصوغ أحلامه إلا في الكتب، أما في حياته الخاصة فلا يقدر على ذلك أبداً. لقد جهّز هذا البيت بجهد لا يمكن تصوُّره، وبتضحيات يائسة، وانتظار لاهب، ليعيش فيه مع الزوجة التي ظفر بها آخر الأمر «خمساً وعشرين سنة»، غير أنه لا ينتقل في الحقيقة إلا لكي يموت فيه، وقد شكَّل حجرة عمله وَفْقًا لرغباته تمامًا، ليستكمل فيها «الكوميديا الإنسانية»، وكانت توجد بين يديه المخططات لما يربو على خمسين عملاً جديداً، غير أنه لن يكتب بعدُ سطراً واحداً في حجرة العمل هذه، فقد أدرك العجز عينيه الآن تمامًا وإن الرسالة الوحيدة التي هي في حوزتنا منه، والتي تعود إلى شارع فورتونيه، لتهزّ النفوس هزاً، وهي موجَّهة إلى الصديق تيوفيل غوتييه ومكتوبة بخط الزوجة إيفا، ولم يُكْتَبْ، بأسلوب «الخربشة»، وبجهد كبير، بيد بلزاك، إلاّ سَطْرٌ واحد:

«ماعدتُ أستطيع أن أقرأ، وأكتب»

وكان قد طلب أن تُشيَّد له مكتبة بأغلى الخزائن المطعَّمة، غير أنه ماعاد في وسعه أن يفتح كتابًا. وصالونه مفروش بالدمقس الذهبي: هنا كان يريد أن يستقبل مجتمع باريس الرفيع. ولكن مامن أحد يأتي لزيارته، وباتت كل كلمة بالنسبة إليه أكثر مما ينبغي: والأطباء يحظرون عليه جُهْدَ الكلام اليسير. لقد جهَّز المتحف العظيم بالصور الحبيبة ليفاجئ باريس كلها بالضجة واللغط حول المجموعة التي لا

تضاهى والتي نشأت هنا بكل هدوء. وكان يتصوَّر كيف سيعرض على أصدقائه، وعلى الأدباء والفنانين روائع الأعمال الفنية، صورةً فصورة ويشرحها، ولكنَّ ما كان يحلُم به قصراً للفرح والسرور يغدو بالقياس إليه سجنًا للأشباح، إذ يرقد وحده في المنزل الكبير وفي بعض الأحيان فحسب تدخل أمه على وجل، كالظل، لتتفقَّد أحواله لأن زوجته- وهذا ما يرويه كل الشهود بروايات متوافقة- تُظْهِر ذلك النقص في الرعاية الحقيقية، وتلك اللامبالاة القاسية اللذين تجلّيا بوضوح منذ الرحلة، ولدى الإقامة في درسدن.

ويتبيَّن موقفها على نحو لا سبيل إلى نقضه أو دحضه، من رسائلها إلى ابنتها، إذ يجري الحديث فيها، في ثرثرة ساذجة، عن أشكال (الدانتيل)، والملابس الجديدة، ولايكاد يلوح من سطر واحد من السطور قلق حقيقيٌّ على «المهرِّج» المحتضر كما كانت تسميه في أيام الفرقة التمثيلية (سالتيم بنك) المفعمة بالسرور- وهكذا كانت تسمي الآن أيضاً الرجل الذي يوشك أن يُكَفَّ بصره تمامًا، والذي لا يستطيع أن يرتقي السلَّم إلاّ جاثيًا على درجة من درجاته، يجرُّ نفسه جراً.

«لقد وصل المهرِّج إلى هنا في حالة كانت أشد سوءاً، وأسوأ كثيراً مما كان عليه في أي وقت مضى. وما عاد يستطيع المشي، وهو يتعرض لنوبات إغماء متواصلة»

أمّا أن بلزاك بات الآن رجلاً مُضيَّعًا خاسراً فذلك ما يعرفه كل من يراه، ولم يكن هناك إلاّ واحد لا يصدِّق ذلك، أو لا يريد أن يصدِّقه: ألا وهو بلزاك نفسه، فقد اعتاد أن يهزأ بالصعوبات، وأن يجعل المستحيل ممكنًا، ولذلك لا يتخلى، في تفاؤله الهائل، الذي لا يُقْهَر، الآن أيضًا، عن الكفاح، ويجد صوته من جديد. ثم ينهض متماسكًا ويتحدث إلى أحد الزوّار الذين يأتون لتفقُّد أحواله، ويناقش في المسائل السياسية ويظهر الثقة والاطمئنان، ويحاول أن يخدع الآخر كما يخدع نفسه، وكان يُفْتَرَض في كل امرئ أن يصدِّق أنه مازال فيه بقية احتياطية كامنة فيه، من طاقته القديمة. وفي بعض الأحيان يتخطى طبعُه المتين المتماسك الحواجز بالفعل مرة أخرى.

ولكن في مستهل الصيف لا يتبقى هناك شكٌّ بعدُ. وذلك أن جماعة من عشرة أطباء، هم الدكتور ناكار، ولويس، و رو، وفوكييه يتم استدعاؤها، ويتبيَّن من تقريرها أن القوم ماعادوا يعتقدون في الحقيقة إلاّ بالوسائل المخفِّفة، والمنبِّهات الخفيفة من حين إلى آخر، وبهذه المناسبة يبدو أن القوم تخلّوا عنه مُسلِّمين. أمّا ڤيكتور هوجو الذي لم يتقرَّب منه إلاّ في السنين الأخيرة، والذي أثبت في هذه الأسابيع أنه صديق بطريقة رائعة، فيجده بات ممدَّدًا بلا حراك، ووجهه محموم وماعاد ثمة حياة إلاّ في العينين. والآن يأخذ بلزاك في مباشرة أموره بنفسه والاهتمام بها، فهو يشكو من أنه لا يستطيع أن يستكمل «الكوميديا الإنسانية» ويتحدث عمّا ينبغي أن يحدث لأعماله بعد موته، ويُلِحُّ على طبيبه، الأمين الدكتور ناكار أن يقول له بصدق كم بقي أمامه من الوقت، ويتبيَّن له من خلال وجه الصديق القديم، واقع حاله. ربما كان هذا حقًا بالفعل- وربما كان أسطورة ذات روح ديني: فالقوم يتحدثون بأنه نادى، في غمرة اضطرابه وتشوُّش ذهنه، هوراس بيانشون، وهو الطبيب الذي يَدَعُهُ يقترف عجائب العلم في كوميدياه الإنسانية:

«لو كان بيانشون هنا، إذًا لأنقذني!»

غير أن الانحلال يمضي قُدُمًا دونما توقُّف، ويغدو موتًا رهيبًا، أشدَّ هَوْلاً مما وصف في حالة أحد أبطاله. ويصف ڤيكتور هوجو زيارته له وهو على فراش الموت، في ذكرياته:

«وقرعت الجرس، وكان القمر يبث أشعته خلال السحب، والشارع مهجور. ولم يظهر أحد، فقرعت الجرس مرة أخرى، فانفتح الباب، وظهرت خادم تحمل شمعة: «ماذا يريد سيدي؟». وكانت تبكي. وذكرتُ اسمي، فأدخلوني الصالون الذي كان في مستوى الأرض وكان ينتصب فيه، على حاملٍ قُبالة المدفأة الجدارية، تمثال نصفيّ هائل لداڤيد دانجر من المرمر، من تماثيل بلزاك، وكان يتَّقد ضوءٌ فوق المنضدة الغنية بالزخرف في منتصف الصالون، والتي كان

يشكّل هيكلها ستة تماثيل مذهّبة تنطوي على ذوق بالغ الإرهاف. وأقبلت امرأة أخرى. والدموع في عينيها أيضاً، وقالت: إنه يُحْتَضَر، وقد انسحبت السيدة إلى حجرتها، وتخلى عنه الأطباء منذ أمس، وفي ساقه اليسرى جرح، وأضيف إلى ذلك الغنغرينا، ولا يعرف الأطباء ماذا ينبغي لهم أن يفعلوا، ويقولون إن الاستسقاء أدى إلى التشحُّم، وبات اللحم والبشرة متشحِّمين، ولذلك ماعاد في وسع المرء أن يقوم بعملية بَزْل. وقبل شهر أصيب سيِّدي بجرح من جرآء زخرفٍ في الأثاث. وما عاد ينطق منذ الساعة التاسعة صباحاً. وقد أمرت سيدتي باستدعاء كاهن وقد جاء ومنح سيدي مسحة ما قبل الموت، وقد أعطى سيدي إشارة مؤدّاها أنه يعلم ما يحدث، وبعد ساعة صافح السيدة دي سورفيل، أخته، وهو يحشرج منذ الحادية عشرة، ولن يمتدَّ به العمر إلى ما بعد هذه الليلة، وإذا رغبتَ فسوف آتي بالسيد دي سورفيل. إنه لم يُخْلِد بعدُ إلى النوم». وغادرتني المرأة، وانتظرتُ بضع لحظات، وكان الضوء لا يكاد يكشف عن أثاث الصالون واللوحات الزيتية الفخمة المعلّقة على الجدران لبوربو وهو لْباين، وكان التمثال النصفي المرمري يتذبذب في الغسق شأن شبح الرجل الذي كان يُحْتَضَر وهو راقد، ورائحة الجثمان تملأ المنزل، وظهر السيد دي سورفيل، وأكّد صحة كل ما قالته الخادم.

وعبرنا بخطواتنا ممراً، وارتقينا صاعدين في بيت سلالم مفروش بالسجاد الأحمر ومزخرف زخرفةً غنية بالأعمال الفنية، والتماثيل، والمزهريات والصور والأطباق المطلية بالميناء، ودخلنا، من جديد، عبر ممر لاحظت فيه باباً مفتوحاً. وسمعت حشرجة عالية تنبئ عن شر مستطير. وكنت في حجرة بلزاك، وكان سريره قائماً في وسط الحجرةوكان سريراً من الماهاجوني، وله قوائم عرضانية وأحزمة، وكانت قد وُضعت عند أقدامه ورؤوسه مجموعة أجهزة مخصصة لتحريك المريض. وكان بلزاك يرقد في هذا السرير، وقد أُسْنِد رأسُه إلى كتلة من الوسائد المنجَّدة وضع القوم عليها أيضاً وسائد الدمقس الحمر العائدة إلى أريكة

الحجرة، وكان وجهه بنفسجيّاً، يكاد يكون أسود، مائلاً صوب اليمين، ولحيته غير محلوقة، وشعره أشيب، قصير الحلاقة، والعين مفتوحة وجامدة. ونظرت إليه نظرة جانبيّة: كان يشبه الامبراطور. وكانت ممرضة عجوز وخادم يقفان على جانبي السرير، وكان ضوء يتّقد وراء المهجع على المنضدة، وضوء آخر على (الكومودينة) لدى الباب، وكانت تنتصب مزهرية فضيّة على منضدة السرير الصغيرة. وكان الخادم والمرأة صامتين في نوع من الفزع يصغيان إلى حشرجة المُحتَضر العالية. وكان الضوء القائم إلى جانب المهجع يسطع ببريق مفعم بالحيوية فيضيء، لدى المدفأة الجدارية، الصورة المعلَّقة لشاب ورديّ اللون، يبتسم. وكانت رائحة لا تُطاق تنسكِب من السرير، ورفعت الأغطية، وأمسكت بيد بلزاك، وكان العرق يَغْشاها، وضغطت عليها، فلم يَرُدَّ على الضغطة بمثلها.

وقالت لي الممرضة: «سوف يموت عند انبلاج الصباح». ونزلتُ وأنا أحمل معي، في ذهني هذا الوجه المتقع، وحين خَطَوْت في الصالون وجدت التمثال النصفي من جديد، لا يُبْدي حراكاً، ولا حِسَّ فيه، سامياً جليلاً، يُشِعُّ منه بريق غير محدَّد، ولم يكن لي بُدٌّ أن أقارن بين الموت والخلود.

ويموت بلزاك في الليلة الواقعة بين الثامن عشر والتاسع عشر من آب ١٨٥٠، وليس عنده إلاّ أمه، إذ كانت السيدة دي بلزاك قد اعتزلته منذ وقت بعيد.

وفي الحادي والعشرين من آب يتمُّ الدفن، ويقام القدّاس في كنيسة سان فيليب دي رول، ويُغْدى بالجثمان إلى المقبرة تحت وابل من الأمطار. ويرى الناس مدى قلة معرفة زوجه بأعمق رغائبه، إذ تُحْمَل أطراف ملاءة المحفَّة من قبل فيكتور هوجو، وألكسندر دوماس، وسانت- بوف، والوزير باروش، وباستثناء ڤيكتور هوجو لم يكن أحد من هؤلاء الأربعة قريباً من بلزاك في أي يوم من الأيام، بل لقد كان سانت- بوف عدوَّه الألَدْ، والأشدَّ مرارة على الإطلاق، بل كان الوحيد الذي كان يكرهه حق الكراهية. واختيرت له مقبرة الأب لاشيز. وكان بلزاك يحب هذا

المكان دائماً. ومن هنا كان بطله راستينياك يُسَرّح طرفه فوق المدينة ويحدث باريس عن الكفاح. إنها مثواه الأخير، والوحيد الذي بات فيه في مأمَنٍ من دائنيه ووجد فيه الراحة والسكينة.

وتكون الكلمة الآن لڤيكتور هوجو- فهو وحده الذي يتحلّى بالكرامة والعظمة اللتين تتماشيان مع هذه الساعة.

«إن الرجل الذي نواري الآن تابوته في القبر ينتمي إلى أولئك الذين يشيِّعهم حزن الجماهير بأسرها. ففي الأيام التي نعيشها تثبت كل الأخيلة أنها سراب وقَبْضُ الريح. ولسوف تتوجه الأنظار منذ الآن فصاعداً، لا إلى هامات الحاكمين بل إلى هامات أهل الفكر، وإن البلاد بأسرها لتعتريها الزلْزلة كلما توارت إحدى هذه الهامات. أمّا حدادَ الشعب: فهو اليومَ الألمُ الناجم عن موت رجل ذي موهبة. وأما حِداد الأمة: فذلك هو الكَرْب الذي يُلمُّ بها لرحيل عبقريّ. ولسوف ينصهر اسم بلزاك، يا سادتي، في الأثر الوَضّاء الذي سيَدُلّ على حقبتنا ذات مرة في المستقبل.

لقد أفزع موته فرنسا. لقد عاد إلى الوطن منذ بضعة شهور. ولمّا كان يشعر بدنوّ الأجل فقد نازعته نفسه إلى أن يرى وطنه من جديد مثلما يأتي امرؤٌ، عشيةَ رحلة كبرى، مرة أخرى، ليعانق أمه. لقد كانت حياته قصيرة، غير أنها حققت أهدافها، وكانت أغنى بالأعمال منها بالأيام. فواعجباً لهذا الشامخ الجبّار، والعامل الذي لا ينتابه الكلل أبداً، ولهذا الفيلسوف، وهذا المفكر، الأديب. لقد عاش هذا العبقري بيننا تلك الحياة الحافلة بالعواصف وألوان الكفاح التي كتبت لكل عظماء الرجال. والآن يرقد في سلام، وبات الآن فوق النزاع والجدل والكراهية. وفي اليوم الواحد ذاته يثوي في قبره ويستوي على مقعد المجد، وسيكون منذ الآن فصاعداً فوق السحب التي تجري فوق هاماتنا، وسيتألَّق تحت نجوم وطننا. ولسوف تشعرون جميعًا، يا مَنْ تقفون ههنا بما يغريكم أن تحسدوه.

ولكن مهما يكن من جسامة الألم الذي نحسّ به إزاء خسارة كهذه: فنحن مُسَلِّمون بالكارثة، فلنتقبَّلها بكل ما فيها من القسوة وإثارة الحزن والأسى، وربّما كان مما ينطوي على الخير، وربما كان من الضروري، في عصر كعصرنا، أن يعود موتُ عظيم، من حين إلى آخر، على العقول المفعمة بالمِرْية والشك، بهزَّةٍ دينية. وإن العناية الإلهية لتعلم ما تفعل، حين تضع، بذلك، العامة، في مواجهة أعلى الأسرار شأنًا، وتحملهم على التفكُّر في الموت الذي يمثل المساواة العظمى، كما يمثِّل الحرية العظمى. فإنه لا يستطيع أن يملأ كلَّ النفوس إلاّ الأفكارُ الجادّة، الرهيبة، عندما ينتقل فكرٌ سامٍ، جليل، بجلاله، إلى حياة أخرى، وعندما ينشر كائن لبث عهداً طويلاً يسبح في الهواء فوق جمهور الناس، بأجنحة العبقريّ المرئية، فجأة، تلك الأجنحة الأخرى التي لا يستطيع المرء أن يراها، ويتوارى في المجهول. كلاّ، فما هو بالمجهول! لقد سبق أن قلتُ ذلك في مناسبة مؤلمة أخرى، ولن يتطرَّقَ إلي الكَلَل من ترديدها: إنه ليس بالليل- ولكنه الضوء. وليس بالعدم- بل هو الأبد. وليس بالنهاية- بل هو البداية. أوَليس هذا صحيحًا، يا مَنْ تسمعونني، أنتم جميعًا، وهو أنَّ التوابيت التي تضاهي هذا التابوت هُنَّ آياتٌ على الخلود. .»

وهذه هي الكلمات التي لم يتَنَاهَ إلى سَمْعِ بلزاك مثلُها قطٌّ وهو حيٌّ، ولسوف يغزو، من مقبرة بير لاشيز، هذه المدينة، مثلما فعل بطلُ عملِهِ.

حلب في ٦ تشرين الأول ٢٠٠٣

محمد جديد

حياة بلزاك وأعماله

نظرة عامة

حياته	أعماله
الأسرة في الأصل من بالسا (Balsa) أو (Balssa) في ألبيجوا (Albigois)	
الأب: برنار- فرانسوا (١٧٤٦ حتى ١٨٢٩)	
زواجه: في عام ١٧٩٧	
الأم: وُلِدَت باسم آن- شارلوت- لورسالامبييه (توفيت عام ١٨٥٤)	
هونوريه: وُلِدَ في تور، في شارع الجيش الإيطالي، في ٢٠ أيار ١٧٩٩	
التربية: معهد (oratoriens) فاندوم.	هذا موصوف في رواية «لويس لامبير»
معهد لبيتر (Lepître)، باريس، ومعهد غانزير Ganser وبوزلان Beuzelin بباريس.	
١٨١٦- تلميذ في مدرسة الحقوق، وفي الوقت ذاته أجير تحت التمرين عند المحامي الأستاذ غيّونيه- ميرفيي	

١٨١٨- عند موثق العقود باسّيه	المحاولات الأولى: ملاحظات في لا أخلاقية النفس. ملاحظات حول الفلسفة والدين.
١٨١٩- الامتحان الأول من أجل الثانوية العامة في الحقوق قراره أن يصبح كاتباً السكنى في باريس، رقم ٩ شارع ليدينيير، في حجرة في سقيفة.	هذا موصوف في رواية «جلد الحصان– La peau du chagrin محاولات في الشعر: سان لويس، روبيردي نور ماندي، كتاب الغبي" (Le Livre de Job) مأساة سيللا" مشروعات في الرواية: كوكسيجرو، ستيني، مأساة كرومويل، شذرة روائية: (Falthurne)
١٨٢٠- يتعرف على الكاتب أوغست لوبواتفان دي ليجرفيل	
١٨٢١- يبدأ بداية مشتركة مع لوبواتفان، بتحرير الروايات باسم مستعار. ويتعرف على مدام دي بيرني ذات الأربعة والأربعين حَوْلاً، والمولودة باسم هينر (١٧٧٧-١٨٣٦)	الهكتوران، تأليف أوغست دي ڤيليجريه وشارل بوانتيل، بالاسم المستعار ذاته وبلزاك ينكر الروايتين كلتيهما.
١٨٢٢- متابعة إدارة «مصنع الروايات» مع لوبوا تفان. الخطط الأولى للمسرحية	وريثة بيراغ– L'Heriti`ere de Biraguc تأليف دي ڤيليجريه ولورد رْهون بالاسم المستعار ذاته؛ جان- لويس وكلوتيد لوزينيان، بالاسم المستعار: هوراس دي سان أوبان، وروايتا Le vicaire Le Ardeunes Centennaire
١٨٢٣- في الصيف زيارة للتورين	الجنية الأخيرة– La derniére Fée لهوراس دي سان- أوبان

١٨٢٤ - أفكار تتعلق بالانتحار بعد الإخفاق في الكتابة التلفيقية

رواية أنيت والمجرم، لهوراس دي سان- أوبان

كتيِّبات: في قانون الشيخوخة، تأليف م. د. التاريخ غير المتحيِّز لليسوعيين. من دون ذكر اسم المؤلف، فان كلور- من دون ذكر اسم المؤلف

١٨٢٥ - ظهور آخر رواية تلفيقيّة والتعاون مع الصحفي موراس ريسون، بدء سلسلة "Codes"

قانون الأشراف- codes des gens honnêtes- لهوراس ريسون

المشاركة بالمال الذي تقرضه إياه الأسرة ومدام دي بيرني لمشروعات دار النشر، مع الناشر أوربان كانيل واثنين آخرين من الرفاق.

موليير- الأعمال الكاملة، مع مقدمة بقلم بلزاك، لافونتين- الأعمال الكاملة مع مقدمة بقلم بلزاك، عن دار نشر هـ. بلزاك وسوتليه، وكل من هذين في مجلد واحد مع نقش عرائش كرمة بريشة ديڤيريا.

إخفاق المضاربة بدار النشر.

كتيِّبات: القاموس الوجيز النقدي القصصي، للرموز والشعارات العائلية في باريس بقلم أحد مُبَلِّطي الشوارع.

١٨٢٦ - التعرُّف الأول على دوقة أبرانتيس، حلّ شركة تجارة الكتب مع خسارة ١٥٠٠٠ فرنك، بلزاك يقرر تأسيس مطبعة برأسمال جديد، باسم مؤسسة لوران، ويحصل في حزيران على الترخيص بصفته طابع كتب، ويطبع روايات، وكتيِّبات ونشرات.

١٨٢٧ - أيلول، انهيار المطبعة، بلزاك يؤسس، برأسمال جديد، مرة أخرى، مسبكًا للحروف.

كتب أخرى في القوانين والأصول: فن وضع الكرافات، فن تسديد الديون.

١٨٢٨ - في الربيع: تصفية مسبك الحروف، والانهيار النهائي للمضاربات التجارية، وحوالي ٩٠ ألف فرنك من الديون. بلزاك يسكن في شارع كاسيني، باسم مستعار، ويجهّز بيته تجهيزاً مترفاً، ويبدأ بالكتابة من جديد.	القانون المدني، المرجع الكامل في قواعد اللياقة والتهذيب ثم: قانون العقوبات وقانون الظُرف والظرفاء وقانون الزواج، وقانون وكيل الأعمال الجوّال، وكل هذه بالاشتراك مع هوراس ريسون.
١٨٢٩ - في آذار: ظهور أول رواية كاملة الاعتبار باسمه الحقيقي - التعرُّف على زلْما كارّو	البومُ الأخير (وفيما بعد: ألبومات بقلم هونوريه بلزاك، وفيزيولوجيا الزواج، بقلم شاب عَزَب
١٨٣٠ - بلزاك يغدو معروفًا، التردُّد على الصالونات الباريسية، النشاط الصحفي المفعم بالحيوية الإسهام في صحيفة جديدة، هي ركن الأدب والفن في الصحف السياسية وفي الصيف نزهات في الريف.	مشاهد من الحياة الخاصة، مجلدان (وفيهما: La Maison du chat qui pelote — La Vendetta؛ ومقالات وأقاصيص في: اللص، الموضة، الكاريكاتير — Gobseck, Le Bal de sceaux, Gloire et Malheure
١٨٣١ - بلزاك يبدأ بحمل لقب النبالة، مسكن جديد، شارع كاسيني، رقم ١، مع عربة وخادم المطامح السياسية الأولى، الرسالة الأولى من المركيزة دي كاستري إلي بلزاك الإقامات في ساشيه عند السيد دي مارغون في أنجوليم عند أسرة كارّو.	جلد الحصان، بقلم المسيو دي بلزاك، روايات وأقاصيص فلسفية، ٣ مجلدات (طبعة جديدة لجلد الحصان بتقديم بقلم ف. شاسل، و١٢ قصة، فيها: ساراسين Sarrasine؛ Jéus-christ en Flandre — ElVerdugo؛ اسهامات في جريدة الكاريكاتير، اللص، ريفو دي باري؛ كتيبات: بحث في سياسة الوزيرين — Le chef- d'oeuvre inconnu

١٨٣٢ - العلاقة بالمركيزة دي كاستري، والاحتكاك بالمجتمع الأرستقراطي، الرسالة الأولى من السيدة فون هانسكا، أي «المجهولة» من أوكرانيا

في آب: في إكس - لي - بان، مع المركيزة دي كاستري الفراغ من التخطيط للرحلة المشتركة إلى إيطاليا، ثم قطع الرحلة في جنيف، في تشرين الأول. بلزاك يهرب بطريق البر إلى مدام دي بيرني ويكون في باريس من جديد في كانون الأول

الأقاصيص الماجنة، القصيدة العَشْرية الأولى Premiere Dizain امرأة في الثلاثين، المعلم كورنيليوس، مدام فيرمياني، لويس لامبير، خوري تور، إسهامات في الصحافة: الكاريكاتير، ريفودي باري، رينوفاتير.

١٨٣٣ - من نيسان إلى أيار، مرة أخرى عند آل كارّو. في أيلول: اللقاء الأول مع السيدة فون هانسكا في نوشاتيل.

في كانون الأول: زيارة لجنيف مع السيدة فون هانسكا.

الأقاصيص الماجنة، القصيدة العَشْرية الثانية طبيب الريف، البدء بسلسلة روايات جديدة: دراسات في الأخلاق في القرن التاسع عشر، وفيها: مشاهد من حياة الريف (مع: أوجيني غرانديه، والرسالة، و L'Illustre Gaudissart وقصص أخرى، وفي الصحافة: إسهامات في صحيفة أوروبا الأدبية.

١٨٣٤ - حتى مستهل شباط في جنيف

في نيسان: في فرابيسل، عند آل كارّو.

في تشرين الأول: في ساشيه عند السيد دي مارغون

مشاهد من الحياة الباريسية، في سلسلة: دراسات في أخلاق القرن التاسع عشر، أقصوصة الثلاثة عشر البحث عن المطلق، دوقة لانجيه، وفي ريفودي بارى: رسالة إلى الكتاب الفرنسيين.

١٨٣٥ - بلزاك يسكن في باريس، ١٣ شارع دي باتاي تحت غطاء اسم الأرملة دوران، ومنذ أيار إلى حزيران رحلة إلى ڤينا لزيارة السيدة فون هانسكا في كانون الأول: حريق في مسكن بلزاك، وخسارة قسم من الأقاصيص الماجنة.

البدء في سلسلة دراسات فلسفية مقدرةً على أساس ٢٠ مجلداً، مسرحية على ظهر البحر، الأب غوريو، سيرافيتا، عقد الزواج.

١٨٣٦ - تأسيسه حولية باريس، من ٢٧ نيسان حتى ٤ أيار في السجن بسبب رفضه الخدمة في الحرس الوطني رفع دعوى على بولوز بسبب إعادة طبع «الزنبقة في الوادي» من دون تفويض. العلاقة مع الكونتيسة سارا جويدو بوني فيسكونتي، والسفر إلى إيطاليا من أجل إنجاز أعمال لأسرة فيسكونتي (تورين) في صحبة كارولين ماربوتي.

١٨٣٧ - في الربيع، شهران في إيطاليا، مرة أخرى بتكليف من آل فيسكونتي (ميلانو، البندقية، فلورنسا) تفليسه ناشره ڤيرديه، تجرف معها بلزاك من جراء كمبيالات، الهرب إلى بيت آل فيسكونتي ٥٤ شارع الشانزليزيه.

استئناف الدراسات في الأخلاق والدراسات الفلسفية: الفتاة العجوز، الأوهام المفقودة، القسم الأول، قدّاس الملحد عاطفة في الصحراء، سيزار بيروتّو، الأقاصيص الماجنة، العشَرة الثالثة.

إخفاق «حولية باريس»

١٨٣٨ - المضاربة بمناجم الفضة في سردينيا، في آذار: في مرسيليا، ومن هناك، عبر أجاكسيو إلى سردينيا.

منزل نوسِنْجِن، مع «المرأة المتفوِّقة»، وفيما بعد: «المستخدَمون» و «الطوربيد- La Tor-pille» (فيما بعد: تألُّق المحظيّات وبؤسهن، القسم الأول).

١٨٣٩ - آذار، انهيار أسوار حديقة المبنى الجديد في ليجاردي

الوقوف إلى جانب موثِّق العقود بيتال الذي يحكم عليه بالإعدام بسبب جريمة قتل.

حجرة التحف، مع «غامبارا»، ابنة حواء، مع «مسّيمليا دوني» بياتريس، القسم الأول والثاني، رجل عظيم من البروفانس

١٨٤٠- السكن عند خياطه في شارع ريشليو، ثم في رقم ١٩، شارباسّ، باسي آذار: العرض الأول لمسرحيته ڤوتران في مسرح بورت سان مارتان تموز: تأسيس الريفو باريزيين.	بييريت، بييراغراسّو، ڤوتران، الأميرة الباريسية (فيما بعد أميرة كارينياك). قانون الحقوق الأدبية المقترح على جمعية أهل الأدب
١٨٤١- موت السيد فون هانسكي.	فيزيولوجيا المستخدم، ز. ماركُا خوري القرية تقديم طلب يتصل بقانون حقوق الطبع والنشر
١٨٤٢- آذار العَرْض الأول لمسرحية Les Resources de Quinola في الأوديون إبرام عقد من أجل نشر المجموعة الكاملة لرواياته تحت عنوان «الكوميديا الإنسانية»، بلزاك يكتب مقدمة جديدة.	أورسولا ميروييه، مذكرات شابتَّين حديثتَيْ عهد بالزواج ظهور المجلدات الثلاثة الأولى من الكوميديا الإنسانية.
١٨٤٣- الرحلة إلى بطرسبرج، من أجل السيدة فون هانسكا تموز، آب، أيلول. أيلول: العرض الأول لمسرحية باميليا جيرو في مسرح الغاييتيه، طلب ترشيحه للأكاديمية يُقابَل بالرفض.	قضية غامضة متحف القسم، الشهيد الكالڤيني (فيما بعد: كاترين دي ميديتشي، القسم الأول). ظهور أربعة مجلدات أخرى من الكوميديا الإنسانية. Un D'but dans la vie
١٨٤٤- مشتريات الأثاث والتجهيز من أجل مسكن مشترك مع السيدة فون هانسكا، إصابة شديدة باليرَقَان	هونورين، تألق المحظيّات وبؤسهن، القسم الأول والثاني، ظهور ٣ مجلدات من الكوميديا الإنسانية، Modeste Mignon، نشر القسم الناجز من «الفلاحين».

١٨٤٥ – شباط : السيدة فون هانسكا وابنتها في درسدن، حيث يزورها بلزاك في أيار ويسافر معهما إلى كانشتات، وباريس، وبلجيكا، وهولندا. الوداع في بروكسل. وفي الخريف رحلة مشتركة إلي إيطاليا، وفي نهاية العام في باريس من جديد.	بياتريس، القسم الثالث، أوجه البؤس اليسيرة في الحياة الزوجية مجلدان من الكوميديا الإنسانية.
١٨٤٦ – رحلة جديدة إلى إيطاليا مع السيدة فون هانسكا، عيد الفصح في روما : المثول بين يدي البابا	المجلدات الأربعة الأخيرة من الكوميديا الإنسانية. تألُّق المحظيات وألوان بؤسهن، القسم الثالث
أيلول الأعمال التحضيرية للزواج في ميتس.	
السيدة فون هانسكا تنتظر طفلاً، بلزاك يشتري للسيدة فون هانسكا جناح بوجون في شارع فورتونيه.	
كانون الأول : ولادة قبل الأوان لطفلة في درسدن	
١٨٤٧ – بلزاك يجهِّز المنزل في شارع فورتونيه، ويؤوي هناك السيدة فون هانسكا في الربيع، خلال شهرين ونصف شهر.	تألُّق المحظيات وألوان بؤسهن، القسم الرابع : الأبوان الفقيران، ابنة العم بيتّ، ابن العم بون.
تشرين الأول : الرحلة إلى ڤيرتسخوڤنيا، في أوكرانيا، إلى السيدة فون هانسكا. زيارة كييف، والإقامة أربعة أشهر في روسيا	
١٨٤٨ – العودة إلى باريس قبيل ثورة شباط ٢٥ أيار : العرض الأول لمسرحية La Marratre في المسرح التاريخي. الخريف : الرحلة الثانية إلى أوكرانيا.	

١٨٤٩ الإقامة في ڤيرتسخوفنيا على مدى العام بأسره، المرض.

١٨٥٠- في ١٤ آذار عقد زواجه من السيدة فون هانسكا في كنيسة الأبرشية في سانت بربارا في بيرد يسيف

نيسان: رحلة الزوجين إلى باريس، بلزاك يعاني من داء عضال.

آب: زيارة ڤيكتور هوجو. بلزاك يموت في الليلة الواقعة بين ١٨ و ١٩ آب (في الساعة ٣٠, ٢٣) الجنازة في آب، كلمة ڤيكتور هوجو عند قبره.

١٨٨٢- موت السيدة دي بلزاك، وبيع المخلّفات في فندق دْروّو الأعمال التي خلّفها.

١٨٥١- العرض الأول لمسرحية (Mercadet)، في المسرح الرياضي (Gymnase)، إعداد دينِّري. قصة الغزالة (La Filandi`ere) (من الأقاصيص الماجنة)، الأعمال المسرحية الكاملة، المجلد الأول. (Le Deputé d'Arcis) أكملها شارل رابو.

١٨٥٤- البورجوازيون الصغار (إعداد شارل رابو، على الأرجح).

١٨٥٥- الفلاحون، ثلاثة مجلدات من المخلَّفات العائدة للكوميديا الإنسانية.

١٨٧٢- أربعة مجلدات من الأعمال الكاملة، فيها أقاصيص ومقالات، وقصص قصيرة ومقالات صحفية، المجلد ٢٠/ ٢٣ من الأعمال الكاملة

١٨٧٦- المراسلات، المجلد الأول.

منذ ١٨٩٩ رسائل إلى المجهولة (الرسائل الموجهة إلى مدام دي هانسكا)، ٣ مجلدات.

منذ ١٩١٢ الأعمال الكاملة، تحقيق مارسيل بوترون.

منذ ١٩٢٣ الدفاتر البلزاكية، تحقيق م. بوترون (مراسلات، قصص قصيرة، مشروعات)

١٩٢٥- كرومويل، طبعة نسخة طبق الأصل، تحقيق و. س. هاستنج، برنستون.

أدبيات

لم يكن من الممكن أن نورد هنا، من أدب بلزاك المستفيض للغاية إلا بعض أهم أعماله. وقد قام بالتجميع الكامل وليام هوبَرْت رويس: سيرة بلزاك، شيكاغو، ١٩٢٩ (مع إضافات وملاحق وتكملة، ١٩٣٠/ ٣٧). أما ببليو غرافيا أعمال بلزاك والمعرفة بنشأتها المعقَّدة إلى حد فائق فقد وضع الأساس لهما الفيكونت دي سبول بيرش دي لوڤنجول، منذ عام ١٨٧٩، وهو الأساس الذي مازال لا يُسْتغنى عنه حتى اليوم، وهو: (Histoire des Oeuvres de H. de Balzac)، الطبعة الثالثة، باريس ١٨٨٨ ونحن ندين لسبول بيرش دي لوڤنجول أيضاً بإنقاذ الجزء الأكبر من مخلفات بلزاك بعد موت أرملته، وخلّف المادة المجموعة من قبَله للأكاديمية الفرنسية، وهي الآن محفوظة في قصر شانتللي.

وقد ظهرت مجموعة أعمال بلزاك أول الأمر في عشرين مجلداً، في باريس ١٨٥٣ - ١٨٥٥، ثم ظهرت في صورة طبعة نهائية في أربعة وعشرين مجلداً (١٨٦٩ - ١٨٧٥). أما الطبعة النقدية التي يُعَوَّل عليها اليوم والتي حققَّها مرسيل بوترون. وهنري لونيون، فتظهر منذ عام ١٩١٢ عن دار كونار، باريس (حتى الآن ثمانية وثلاثون مجلَّدًا). وقد تمَّ تحقيق أعمال الصبا منذ أعوام ١٨٦٦ - ١٨٦٨ في باريس مجدَّدًا، في عشرة مجلدات، وفي عام ١٨٦٨ في طبعة مصوَّرة، في مجلَّدين، طباعة جديدة.

المراسلات: المجلد ٢٤ من الطبعة النهائية، باريس ١٨٧٦ رسائل إلى المجهولة (مدام دي هانسكا)، المجلد الأول. باريس ١٨٩٩، المجلد الثاني، ١٩٠٦، المجلد الثالث، ١٩٣٥، رسائل إلى أسرته ١٨٠٩ - ١٨٥٠، بتحقيق

و. س. هاستنج، برنستون University press، ١٩٣٤ المراسلات غير المطبوعة مع مدام زُلْما كارّو، بتحقيق مرسيل بوترون، باريس ١٩٣٥ وقد نشر مرسيل بوترون فضلاً عن ذلك سلسلة من مجموعات المراسلات الأقل حجماً (مع مدام دي بيرني، والمركيزة دي كاستري، ومع طبيب بلزاك، الدكتور ناكار، ومجموعات أخرى)، وكذلك الرسائل الموجَّهة إلى بلزاك في الدفاتر البلزاكية، صدرت منذ عام ١٩٢٣ وفي هذه السلسلة أيضاً طبعت مسرحيات متفرقة، غير منشورة، من مخلّفات بلزاك (منها أقصوصة أخيلة جينا، وشَذْرة من الأقاصيص الماجنة، ورسالة عن كييف، مستمدَّة من رحلته إلى أوكرانيا في عام ١٨٤٧).

١- المعاصرون

حقَّقت مدام دي سورفيل، أخت بلزاك، أول الأمر، مجلَّداً مصوَّراً بعنوان، نساء بلزاك، باريس ١٨٥١، ونشرت في عام ١٨٥٨ بلزاك، حياته وأعماله، وَفقاً لمراسلاته، ونشر سانت بوف: مقالة عام ١٨٥٠، مطبوعة في: أحاديث الاثنين: Causerie de Lundi، المجلد الثاني، أما خطبة فيكتور هو جو الرثائية في بلزاك فمطبوعة في «نساء بلزاك، ١٨٥١»، وأمّا وصفه لسرير الموت، ففي: أشياء رأيتها: Choses Vues، باريس ١٨٨٧، ولتيوفيل غوتييه كتاب: هـ. دي بلزاك، باريس ١٨٥٩، ولناشر بلزاك، ڤيرديه (E.Werdet): صورة حميمة لبلزاك، باريس ١٨٥٩، ل. جوزلان، بلزاك في خفيّن، باريس ١٨٥٩، ل. جوزلان، بلزاك في خفين، باريس ١٨٥٦، و «بلزاك في منزله، ١٨٦٢، وللكاتب H. Taine مقاله الذي يميِّز الحقبة في عام ١٨٥٨، في «مقالات في النقد والتاريخ، باريس.

٢- المنشورات اللاحقة

شبول بيرش دي لوڤنجول: قصة حب (مدام دي هانسكا)، باريس، ١٨٩٩؛ نشأة رواية، (الفلاحون)، ١٩٠١، صفحة مفقودة، ١٩٠٣، أ، سيرفبير و: ج، كريستوف: فهرست الكوميديا الإنسانية، باريس ١٨٨٧ (قاموس الشخصيات في عمل بلزاك الروائي مقدمة بقلم: ب. بورجيه). الدكتور ١ كابانيه، بلزاك المجهول، باريس ١٨٩٩، ي، بيريه، هونوريه دي بلزاك، بلزاك، باريس ١٨٩٧، ف. ويدمور: بلزاك، لندن، ١٨٩٠ (كتاب عظام). ف. ويدمور: بلزاك، لندن، ١٨٩٠ (كتاب عظام). ف. برونتيير. بلزاك، باريس ١٩٠٦، ج. هانوتو، وفيكير، شباب بلزاك، باريس ١٩٠٤، ج روكستون: محبوبة بلزاك الغالية (مدام دي بيرني)، باريس ١٩٠٩، أ. ليبرتون: بلزاك، الإنسان وعمله، باريس، ١٩٠٥

٢- أحدث الأدبيّات

ل. ج. أرّيجون: البدايات الأدبية والسنوات الرومانسية عند بلزاك، باريس ١٩٢٤، ١٩٢٧

ب، أبراهام: بلزاك، باريس ١٩٢٧، أبطال بلزاك، باريس ١٩٣١

ي. ر. كورتيس، بلزاك، بون، ١٩٢٣

ج. هـ. فلويد: النساء في حياة بلزاك، باريس ١٩٢٦

ي. بريستون، أبحاث في تقنية بلزاك، باريس ١٩٢٦

أ. بريول: بلزاك قبل الكوميديا الإنسانية. باريس ١٩٣٦

ر. بوڤييه: بلزاك، رجل الأعمال. باريس ١٩٣٠

ر. بوڤييه و ي. مينيال: الحسابات المسرحية عند بلزاك، باريس ١٩٣٨

أ. بيلي: حياة بلزاك، باريس ١٩٤٤، مجلدان.

تعقيب المُحَقق

وأنا أودُّ، بصفتي محققًا لهذا الأخير من أعمال صديقي الراحل، أن أُقَدِّم، بين يَديْ هذا الكتاب، بعضَ الكلمات التوضيحية، وأنا سائر على الطريق. وذلك أن المخطوطات التي عُهِدَ إليَّ بها من قبل ذوي قُرْبى ستيفان تسفايج وورثته، بعد موته، كانت تشكل مخلّفات كبيرة الحجم حقًا. وفي البداية نشرتُ منها، ونحن مازلنا في أيام الحرب، أي في عام ١٩٤٣، مجلداً من المقالات والمحاضرات، بعنوان «العصر والعالم»، ثم انطلقتُ، من خلال النظرة المتعمِّقة في المادة، إلي «بلزاك».

وقد كان «بلزاك الكبير»، كما كان ستيفان تسفايج يسمي هذا المشروع، في إطار الاستعمال المنزلي- في تمييز له عن المحاولات السابقة، الأضيق نطاقًا- يفترض، تبعًا لإرادة الكاتب، أن يصبح عمله الأساسيّ، أو الأعظم "magnum opus". وكان يعمل في المخطوط منذ عشرة أعوام، وكان يريد، مع هذا العمل، أن يحشد مجموع تجاريبه في الكتابة ومعرفته بالحياة. وكان بلزاك يبدو له الموضوع الأكبر، السهلَ المتناوَل بالقياس إلى موهبته الخصوصية والمحفوظ له على وجه الخصوص. وكان يعيش، منذ بداياته في ڤينا، مع أعمال بلزاك ومع الأسطورة البلزاكيّة. وربّما جاز للمرء أن يُذَكِّر بأن ڤينا لعبت في تاريخ مجد بلزاك الأوروبي دوراً خصوصيًا تمامًا. فمن ڤينا انطلقت، بصورة جوهرية تمامًا، تلك الموجة الثانية الكبرى من الحماسة لبلزاك التي غرست، في وعي الرأي العام، ذلك الروائي الفرنسي، غَرْسًا نهائيًا حاسمًا. وفي ڤينا كان بلزاك الذي مازال حيًّا يرزق، أحسَّ لدى زيارته لها في عام ١٨٣٥، لأول مرة، بالاعتراف الكامل من قبل جمهور

أوروبي واستمتع به من أعماق قلبه. وكان هوجو فون هو فما نزتال المتحدث باسم مدرسة الشعراء الشباب في ڤينا عند منعطف القرن، وهي المدرسة التي كان ستيفان تسفايج ينتمي إليها أيضًا. وكتب هو فما نزتال في تمهيده لمجموعة أعمال بلزاك، أجمل صياغة جديدة تتعلق بموضوع بلزاك وجدت باللغة الألمانية. فبالقياس إلى هؤلاء الشباب من أهل ڤينا لم يكن بلزاك أستاذ الرواية الكبير إلى هذا الحد الفائق- وهو الذي كان قالبه يبدو لهم في الحقيقة موضعًا للشبهة إلى حدٍّ ما- بل كان، من وجهة نظر أكثر عمومية إلى حد بعيد، «عالمًا يَعُجُّ بالشخصيات. كان خيالاً كبيرًا، ماديًا إلى حد لا يوصف، بل هو الخيال الأكبر والأكثر مادية منذ أن وُجِد شكسبير. وكان بلزاك يعني بالقياس إليهم تجسيد الطاقة الأدبية في حد ذاته، إنه «كامِن الأدب» "Potentiel de Littérature" إن صح التعبير، وهو الكامن الذي لم ينضب ولم يستهلك استهلاكًا كاملاً أبدًا، والذي كان يفضي بالمرء إلى أن يكتب من بعده في الأدب ويحلم. وفي هذا الإدراك يترسَّخ تصوُّر ستيفان تسفايج لبلزاك. وقد ظل شيء من حماسة الشباب في ذلك العصر عند منعطف القرن حيًّا بعدُ في عمل ابن الستين حَوْلاً

وقد حاول تسفايج في تلك السنين التي كان يختبر فيها طاقاته بحكم كونه وسيطًا ناقلاً للأدب الفرنسي، بأساليب شتّى، أن يقارِب موضوع بلزاك، فعمد في بادئ الأمر إلي تحرير مختارات من بلزاك، مع كتابة تمهيد لها، وكتب مقالات، ثم كتب المقالة الكبرى «بلزاك» التي شكَّلت مع مقالة «دوستوييفسكي، و «ديكنز»، الأساتذة الثلاثة، ومهَّدت تمهيدًا مبرمجًا لسلسلة «بُناة العالم». وكان مقدَّرًا أن يكون «بلزاك الكبير» خاتمة سلسلة التراجم التي وضعها تسفايج بهندسة تنطوي على العناية والتروّي، إلى جانب هذه السلسلة من المقالات وسلسلة أقاصيصه «السلسلة- Die Kette» لتتوِّج عمل حياته.

وكان العمل قد تمَّ التخطيط له على نطاق عريض، وكان يتحدث في بعض الأحيان عن أنه سيقع في مجلَّدين، ولكن مثلما سارت الأمور في حالة الأستاذ

نفسه، أي في حالة «الكوميديا الإنسانية» سارت أيضًا مع هذا العرض: فلم يُتَحْ له أن يُخْتَتَم، وبدا كأن شيئًا من الاضطراب البلزاكي الذي لا يقرُّ له قرار، سرى من العمل والوثائق إلى كاتب سيرَة الحياة، وفي المخططات الخاصة بفصلٍ تعقيبيٍّ والتي تعدُّ، مع الأسف أكثر تشذُّراً من أن تُنْشَرَ في سياق هذا المجلد، يصف تسفايج كيف استحوذ على الأرملة وعائلتها، على نحو غريب، الشعور بولع الراحل بالتبذير، وكانت ملايينها الأوكرانية التي كسبتها بالجهد والمشقة، تذهب أدراج الرياح من دون عائق، وهكذا سار أيضًا السليل اللاحق سيراً ليس فيه أي اقتصاد في التصرُّف في وقته. ولم يكن ستيفان تسفايج في حد ذاته إنسانًا بخيلاً أبدًا، لا في المجال الماديّ ولا في مجال الفكر، ولكنه كان قَسَرَ نفسه خلال سنين طوال على نظام في العمل مُجْدٍ ومفيد للغاية، ويتَّسم بحسن التدبير، ما كان ليستطيع، من دونه أن ينشئ عمل حياته الغني. على أن هذا كله أصبح الآن، في مواجهة موضوع بلزاك كأنه لاشيء. وكان يجري المرةَ بعد الأخرى، إعداد حقيبة أوراق جديدة، وقد أتيحت لي في بعض الأحيان الفرصة لملاحظته وهو مشغول بهذا، ولأضع نفسي تحت يده، وكانت تظل تنجُم، أبدًا، جوانب جديدة، فكان ما تم الفراغ من كتابته يُصار إلى تعديله على نحو متواصل. وكان تسفايج يملك، ضمن مجموعته الجميلة من «المطبوعات» العائدة إلى كبار الأساتذة، أحد المجلَّدات القيِّمة العائدة إلى بلزاك مع ملازم تصحيح تجارب الطبع المخروزة المجلَّدة، التي لا يمكن الإحاطة بها بنظرة شاملة، وكانت هذه التصحيحات المبعثرة التي تأبى أن تنتهي، تنبعث منها إيحاءات حافلة بالأسرار، وكانت هذه تُغْذي مخطوط كاتب سيرة الحياة. وكانت الأوراق المُرفقة تتراكم حول النواة الحقيقيّة التي لم يكن بُدٌّ من نسخها المرة بعد الأخرى من قبل زوجه والعاملة معه اللتين لا يعتريهما الكلل، وكانت تنشأ كرّاسات خصوصية، وكُتُبٌ من الملاحظات، وكان يجري وضع فهارس وجداول ولوائح. وكانت طبعات كتب بلزاك وكتب الدراسات مترعة بالعلامات والخطوط، والحواشي، وقصاصات الورق والإشارات. وتحولَت حجرة العمل الصغيرة في

منزل ستيفان تسفايج في (باث) الذي اتخذه لنفسه قبيل نشوب الحرب، إلي متحف لبلزاك ومحفوظات خاصة ببلزاك، وديوان خاص ببلزاك.

ولم يكن له بُدٌّ أن يخلِّف هذا كله وراءه حين ذهب، في صيف عام ١٩٤٠، في رحلة إلى أمريكا التي لم يكن مقدَّرًا له أن يعود منها بعد ذلك، واستكمل بعدُ، في سكينة ملجأه، في عاصمة البرازيل الصيفية، بيترو بوليس، سيرته الذاتية، وروايته «أقصوصة الشطرنج». وقبيل موته قام بمحاولة أخيرة للتوجه نحو بلزاك من جديد، فكتب إليَّ، فأرسلت إليه، في صورة منسوخة، شطرًا من ملاحظاته، غير أن هذه الإرسالية لم تصل إليه وعادت مع إشعار يفيد أن المرسل إليه قضى نحبه. أما النسخة الخاصة بجزء من المخطوط، والتي كان أخذها معه، فقد عثِر عليها ولمّا تُمَسّ، حين تفقّد منصة كتابته كلا الرجلين اللذين عُهِدَ إليهما بتنظيم الأوراق المتبقية في بيتروبوليس، وهما ناشره البرازيليّ والكاتب ڤيتّوفسكي. وكان قد أدركه إرهاق مفرط، وبات يعتقد أنه ماعاد في وسعه أن يختتم هذا العمل من دون المادّة التي خلّفها في لندن وفي باث، ومن دون نسَخه المكتوبة بخط اليد، بل وصل به الأمر، في غمرة ما خيَّم على أيامه الأخيرة من الاكفهرار والتجهم، إلى حَدٍّ إعلان أنه ليس من الممكن على الإطلاق أن يحيط المرء بعملاق مثل بلزاك كلَّ الإحاطة: إذْ انتهى كل من حاول ذلك إلى الإحباط من جرّائه.

وحين انتقلتُ إلى تصفُّح المادة، كانت تساورني في البداية الهواجس في صدد مسألة ألا تتوافر بالفعل قطعة مجتزأةٌ واحدة. غير أن الحال لم تكن كذلك. فقد كان الكتاب قد تمَّ الفراغ منه- على أنه لم يكن مكتملاً في كل الفصول، ولم يكن في صورته النهائية دائمًا، غير أنه كان مكتملاً مع ذلك في كل أقسامه الجوهرية. ولا أستطيع هنا أن أسجِّل تقييمًا فيلولوجيًا دقيقًا للنص مع إدخال كل الأوراق المرفقة المستعملة في الحُسبان، فإن هذا خليق أن يقتضي دراسة قائمة بذاتها، ولا أريد سوى الإدلاء ببعض الكلام حول النص: وذلك أن الجزء الرئيسي

من الأوراق المرفقة كانت تشكله نسخة ستيفان تسفايج الخاصة بالاستعمال الشخصي، والتي كُتِب على غلافها إشعار بالإنكليزية يفيد أن من الواجب إرسالها إلى الناشر، وكانت تمثل الصياغة الثالثة على وجه التقريب. وكان هو ذاته قد تصفّح المخطوط أيَضًا بالاشتراك مع زوجه التي لم يكن نشاطها يقتصر، بحال من الأحوال، على العمل الآلي في النسخ، وكانت أسئلتها الواضحة والموضوعية، وحواشيها، يشكّلْن في كثير جداً من الأحيان تصحيحًا باعثًا للارتياح بالنسبة لخيال الأديب الشارد من وجهة غنائية (Lyrisch)، والذي يدع المرء في بعض الأحيان، تسوقه قدماه، من جراّء الموضوع المغري، إلى ما ينتهي به إلى أن يترنم بنَغَم أو لحن (Arie)، كما كان يسمي هذا. وكثيراً ما كان تسفايج نفسه يغيِّر أو يشطب. ولم يكن هناك بُدٌّ، في الحالات الأخرى، من أن أقرِّر أنا وأَحْسُم، ولم يكن من النادر في هذا الصدد أن تخطر ببالي ذكرى المرأة الهادئة، لوتّه التي كانت تشاطره عمله وحياته بما تميَّزت به من عدم لَفْتٍ للنظر يكاد يتسم بسمة الهوى الجارف، والتي ذهبت معه، على النحو ذاته، إلى الموت، بحكم البدهية. ولعل مما يُفْهَم من تلقاء ذاته أنني تركت أسلوب هذا العمل ولهجته وإيقاعه من دون أن أمسَّه على الإطلاق. وفي بعض الأحيان كانت تُفْتَقَد صفحات وإضافات كان من الممكن استدراكها من الصياغات السابقة، ومن الجهاز اليدوي. أما الفصول الأخيرة التي لم تكن موجودة بين أيدينا إلاّ في صورة تصميم أولّي خام، فقد عدلّتُها. وفضلاً عن ذلك فقد استعملت المادة المستفيضة المذكورة آنفًا، من كراريس، وقصاصات، ودفاتر للملاحظات، ورجعت إلى الطبعات التي كان تسفايج ينقل عنها. وكانت نسخته الخاصة بالاستعمال الشخصي، إلى جانب طبعة بوترون الفرنسية النقدية الكاملة، والطبعة الألمانية الجميلة للكوميديا الإنسانية الصادرة عن دار (إنْزِل) التي أوعزت بسحب نسخة خاصة به عليها إشعار يفيد أن «هذه النسخة قد طبعت زيادة على الطبعة من أجل ستيفان تسفايج». وكانت هذه المجلّدات ترافقه منذ عام ١٩٠٨ وقد تم استدراج رسائل من أصدقاء ومساعدين بالاستناد إلى مراسلاته.

وهي الرسائل التي تَمُتُّ بصلة إلي عمله (بلزاك)، وأودُّ، في هذه المناسبة، أن أتقدَّم، باسم صديقي الراحل، بالشكر إلى كل أولئك الذين شجَّعوا عمله.

وربما يحق لي أن أدلي بكلمة أخرى حول الظروف الخارجية الخاصة بعملية المراجعة هذه التي لم تكن بسيطة كل البساطة، إذ كانت المرفقات موزَّعة ومتناثرة بطريقة معقدة، فمنها هنا في لندن، ومنها في باث (Bath)، وكان بعضٌ منها مودعًا في المصارف، في خزائن فولاذية وحين استطاع تسفايج أن يفرغ من المخطوط حتى في الشهور الأولى من «الحرب غير الفعلية»، كان عليَّ أن أقوم بالنظر فيها في وقت كان واقع الحريق العالمي فيه قد اقترب منا أيَّما اقتراب. ولم يكن لي بُدٌّ أن أُبدِّل مسكني ثلاث مرات من جرّاء التأثير المباشر لهذا الواقع، إذ كان المسكن القديم قد دمَّرته القنابل. وفي مرتين تمَّ انتزاع المخطوط المخصّص للاستعمال الشخصيِّ الذي كنت أعمل عن طريقه، من يَدَيّ بالمعنى الحرفيّ للكلمة، وأُلْقِي به عبر الحجرة. وانهار السقف ودفَن الملاحظات. وما زالت تَعْلَق حتى اليوم بين الصفحات، هنا وهناك، بقايا ضئيلة من شظايا الزجاج، وفُتات المَلاط. وقد سقطت في الدهليز الساكن في منزل تسفايج في باثْ، الشظايا في إحدى «غارات طائرات بيديكر»، أيضًا. وكان من حسن الحظ أن إحدى القنابل التي سقطت على مقربة شديدة من جدار حجرة دراسته تبيَّن أنها قذيفة لم تنفجر، وحتى المتحف البريطاني الذي كنت التمس منه المشورة من حين إلى آخر، لم تُرْعَ حرمته. ومع ذلك فقد ترك، بطريقة تستحق الإعجاب، على مدى كل هذه السنين، الحجرات المضيافة مفتوحة في «مكتبته الشمالية». ولذلك فقد كان العمل لا يسير ضمن ظروف طبيعية عادية، إذا شئت أن استخدم «أسلوبًا إنكليزيًا في التواضع في التعبير. وأنا لا أذكر هذه الأمور التي لم تكن تمثل بالقياس إلينا، نحن أبناء القارة القديمة المُحنَكين، شيئًا استثنائيًا على الإطلاق، لأسباب شخصية، بل يفترض أن تكون ملاحظة توثيقيّة.

غير أن القوى الغامضة التي أخرجت ستيفان تسفايج من وطنه ودفعت به إلى الموت، ظلت غير مُحقّة تجاه هذا العمل أيضاً، مثلما كان شأنها في كل شيء. وتمَّ الفراغ من الكتاب، على أنه لا يمثل على نحو كامل ما كان ستيفان تسفايج ينوي عمله، غير أني أعتقد، مع ذلك، أنه يجوز لي أن أقول، وضميري مرتاح، أنه يمثل خاتمة لائقة لعمل حياته. ويبدو لي أن من العلاقات التي تحفل بما يبعث على الأمل في عصرنا الذي يحتاج أشدَّ الحاجة إلى العزاء، أن هذا الكتاب الأخير لأوروبي طيِّب ومواطن عالميّ، بات في وسعه أن يسلك طريقه الآن، من جديد، ومن دون عوائق، وأن يزور في كل البلدان، أصدقاءه الذين ظلوا على ولائهم له في سنوات سيادة الظلام الطويل.

لندن، في كا نون الأول ١٩٤٥

ريتشارد فريدنتال

طريق ستيفان تسڤايغ إلى بلزاك

«وفي لندن أريد الشروع في العمل من جديد، وربما قمت بعمل كبير يشغلني منذ صباي الأول - كتاب ضخم، في سيرة حياة بلزاك ونقده، وإني لأعلم علم اليقين أنه سيقضي ثلاثة أعوام، وأربعة أيضًا، غير أني أودّ أن أخلّف شيئًا له اعتباره، عملاً يدوم أكثر من بضعة عقود من الزمان، وأنا بلزاكيّ مثلما أنّك بيتهوفني. لقد قرأته منذ ثلاثين عامًا، وظللت أقرأه المرة بعد الأخرى من دون أن أفقد إعجابي». لقد عقد ستيفان تسڤايغ عزمه على هذا خلال الرحلات، وفي القطار بين تورونتو ونيويورك، وأبلغ به على الفور، رومان رولان، في الثامن والعشرين من شباط ١٩٣٩

ففي أية حقبة من صباه وقع على فكرة كتابه «بلزاك»؟ ومن خلال أية رواية بدأ يتحمّس له؟ هذا السؤال لم تجرِ الإجابة عليه بعدُ بالتفصيل، ولم يجر العثور على المصدر بعد وفي الخامس عشر من نيسان ١٩٠٦، بات يتمتع، على أية حال بمعرفة بأعمال بلزاك سمحت له بأن يشير إلى العمل الجدير بالثناء جدًا من الوجهة الفنية في الحقيقة، والمتمثل في طبعة ترجمة لأعمال بلزاك تمّ التخطيط لها على أن تقتصر على عشر مجلدات، من قِبَل دار فرانتس ليدرَمَن في برلين: «ذلك لأن عمل بلزاك ليس بالخليط المتنافر الذي يُضَمُّ بعضه إلى بعض، بل هو مُرَكَّبٌ يتداخل بعضه في بعض. وهنا كان أيضًا، لأول مرة بلا ريب، صدور كلمته التي يظل يلجأ إليها المرة بعد الأخرى، وهي «نابليون الأدب الفرنسي»، في كتابه «لقاءات مع الكتب»، فرانكفورت المارين. دار س. فيشر للنشر، إذ يرِدُ ذلك في مقالته «ملاحظات حول بلزاك، في هذا الكتاب. ومن الممكن أن يكون ستيفان تسڤايغ اكتشف لنفسه عمل «أكبر نزّاعٍ إلى الأوهام بين الأدباء المحدثين»، ثم توقّف، وذلك

خلال عمله في قصة حياة مدام دي بْري ووفاتها التي نُشِرَت فيما بعد في كتاب بعنوان «تاريخ انحطاط» (Amoklaufer)، فرانكفورت الماين: دار س. فيشر للنشر، ١٩٨٤، ص ٧- ٤٩، الذي يبدو أنه كان بدأه ليكون سيرة وجيزة. ولابُدَّ أن هذا كان بعد الأوَّل من تموز عام ١٩٠٥، وهو اليوم الذي كان كتب فيه إلى إيلين كايْ يبلغها برغبته في إخراج عرض «هذه الشخصية المحفوفة بالأسرار إلى حد بعيد» في كتاب، ولكن ربما لم يكن يقصد عرضه في باب تجارة الكتب، بل في طبعة محدودة فحسب. (ثم نُشِرَ ذلك في صورة قصة من الواضح أنه تمَّ التدرُّب عليها بالاستناد إلى أنموذج يُحتذى، في أيلول ١٩١٠ في مجلة Neue Freie Presse، في ڤينا). وفي صيف عام ١٩٠٧ تَمَّ الإعداد للطبع في كتاب لمسرحيته المأساوية (Tersites) على وجه الخصوص من قِبَل دار إنْزِل للنشر، وشَغَلَتْه مسرحية غبرييلا دانّو نزيو (حقّ البخور- La Nave) (التي ترجمت بعد ذلك، في عام ١٩١٠، من قبل رودولف ج. بندينغ). وكان قد حَظِي، عن طريق مقاله في هذا الصدد، «بالمتعة الناجمة عن رؤيتها أثراً يُنْظَرُ إليه نظرة الاحترام في الصحف الإيطالية»، كما أبلغ بذلك فرانس سيرڤايس (F. Servaes)، ويضيف قائلاً بلهجة لا تخلو من زُهُوٍّ معين بنفسه: «لقد أصبحت الآن وكلّي بلزاك، وأنا أساعد أيضاً، بنصيحتي، دار إنْزِل للنشر في طبعتها الجديدة التي تقع في خمسة عشر مجلداً التي قَدَّم لها هوفمانزتال والتي أصبحت مسروراً بها سروراً هائلاً. أما الأسلوب الذي يفعل به ذلك فيتَّضح، مثلاً، من رسالته، المؤرَّخة في ١٦ شباط ١٩٠٨، إلى هوجو فون هوفمانزتال: «لقد خطر ببالي، إذ تناولت القلم ذات مرة، أنك قد لا تعرف كتاب شبولبرج لوڤينجول الممتع وتاريخ أعمال بلزاك، الذي طلبته لنفسي لتوّي من باريس، والذي يتضمن المخطَّط الكامل للكوميديا الإنسانية الذي ربما كان مجهولاً بالقياس إليك، وتعداد الروايات التي لم تُكْتَب (موسكو، سهل وإجرام، إلخ. .). فإذا رغبتَ في ذلك أرسلته إليك على الفور على النحو الذي يتوافر به بين يَديَّ. على أن مقالي لا يَعْدِلُ في أهميته مقالَك، وهو يقتصر، بالمناسبة، كل الاقتصار على محاولة في فلسفةَ بلزاك، وأنا أعذِّب نفسي على أية حال في البحث

عن عنوان يشير إلى هذا التحديد على سبيل الاعتذار. أما المحاضرة، التي سألقيها في الأسبوع القادم حول بلزاك، فلن ألتمس منك على الإطلاق حضورك: وذلك أنها ستحاول أن ترسم، بأوسع الخطوط، فيض الموضوع وغزارته، لكي أوقظ، بهزَّة مني، الاهتمام بالطبعات الجديدة في ڤينا.

وإذا كنتَ اختتمت مقالك، أو كنت تعرف من قبل كتاب شبولبرج، فسينحصر كل ما أردت أن أقوله لك اليوم، في كلمة واحدة: شكراً من أعماق القلب، وإني لمقيمٌ على العهد، وفاءً مني وتقديراً لهذا ولكثير من التوصيات التي تَنِمُّ عن الإخلاص!».

وقد صدرت المجلدات الثلاثة الأولى- من المجلدات البالغ عددها ستة عشر على وجه الإجمال- من طبعة «الكوميديا الإنسانية- die Menschliche Kanodie» ذات الورق الرقيق، بترجمة فيليكس باول جريف وآخرين، في عام ١٩٠٨ وعلى نحو مستقل كل الاستقلال عن هذا أَعَدَّ ستيفان تسڤايغ، في الوقت ذاته، من أجل دار روبرت لوتس في شتوتجارت، مجلد بلزاك الخاص بالحكم والأقوال المأثورة- صورة العالم في نظره من خلال أعماله، على أن هذه المجموعة المتماشية مع مبدأ السلسلة التي ظهرت فيها (من العالم الفكري لكبار المفكرين، مجموعة من مجلدات المختارات، تحرير لوتار بريجر- فاسَّر فوجل)، فرضت سلسلة من الشواهد والنُّقول: من دون بيان المصادر مرتَّبة حسب الموضوع، يمكن البحث فيها عن طريق كشّاف هجائي للمواد- مع مقدمة لها مهَّدت للمقال المذكور في الرسالة المنقولة آنفًا. وكان قد عدَّ، حتى قبل عامين من هذا، في نقده الوارد في ملاحظات حول بلزاك، مشروع الطبعة ذات الملجدات العشرة «بداية مُهَلهَلَة للغاية ومع ذلك فهي ذات مظهر يوحي بالأهمية» وكأن القوم أرادوا أن يتحدثوا، في مقالة، عن بلزاك الذي كان المبتدأ والنهاية، والمُنْطَلَق والمَعاد، والمَغْدى والمراح، لا في مجرَّد أدب الرواية الفرنسيّ فحسب».

ومثلما لفت ستيفان تسڤايغ أنظارَ المراجعين العلميين في دار إِنْزِلْ للنشر، التي كان الكاتبَ فيها منذ عام ١٩٠٦، عند تحضير طبعة بلزاك، نقدهُ الوارد بعنوان

«ملاحظات حول بلزاك»، في عام ١٩٠٦، لم يَغِبْ عن بالهم أيضًا هذا الكتاب: ويبدو أنهم طرحوا عليه، لكي يستفيدوا من معلوماته، سؤالاً حِسيًا عمليًا أجاب عنه في ١٦ تشرين الثاني ١٩٠٨ على بطاقة بريدية من برلين، فقال: أستميح عفوكم أيها السادة الموقَّرون إذا لم يكن في وسعي أن ألبّي استفساركم بصدد بلزاك، عن الرحلة، حيث أفتقر إلى كل الوسائل الاحتياطية، وربما كنت خليقًا أن أوصيكم بالدكتور في الحقوق أنطون بيتلهايم في فينا بحكم كونه أفضل العارفين ببلزاك، وهو في صدد إعداد ترجمة له كما سمعت» (بلزاك، سيرة حياة، لأنطون بيتلهايم، صدر في عام ١٩٢٦، عن دار C.H.Beck في مونيخ) كما أنه لم يكن لديه الآن فراغ الوقت لكي يكرِّس نفسه لكاتبه: وفي السادس والعشرين من تشرين الثاني تم تقديم العَرْض الأول لمسرحيته "Tersites" في درسدن وكاسل في وقت واحد، وعلى أثر ذلك مباشرة انطلق في مرحلته التي دامت خمسة أشهر إلى شرق آسيا؛ وبعد عودته كانت تشغله قبل كل شيء دراسته لصديقه البلجيكي، إميل فيرهيرن، كما كانت تشغله القصائد والمسرحيات التي ترجمها، والتي صدرت معًا في ثلاثة مجلدات في آذار ١٩١٠، عن دار إنْزِل للنشر. وعلى نحوٍ موازٍ لذلك لابد أن يكون اشتغل بمقاله عن تشارلز ديكنز، لأنه طُبِع، في قسمين، في كانون الثاني وفي حزيران ١٩١٠، في مجلة «المستقبل» لمكسيميليان هاردن.

ولئن لم يستطع ستيفان تسڤايغ أن يركِّز على بلزاك أثناء هذه الحقبة أيضًا فقد كان هذا حاضراً في الخلفية على الأقلّ. وهذا ما يبيِّنه آخر الأمر جوابه العائد إلى ١٧ تشرين الثاني ١٩١٠ على استفسار من دار إنْزِل للنشر حول تقديمه إسهامًا في مجلة «المستقبل»: من البَدَهي أنه يسرنُّي أن آذنَ لك بطبع المقال عن بلزاك الذي ظهر في عددين متعاقبين من مجلة «المستقبل». ولا أريد أن أسجِّل فوق ذلك بعدُ إلاّ أن هذا المقال هو التمهيد لمختارات من الحكم والأقوال المأثورة لبلزاك، وهو «ورة العالم في أعماله» الذي حقَّقْته في دار ر. لوتس. وأودُّ أن أرجو منك أن تذكر هذا بأية صورة كانت لكيلا يكون من الممكن أن تثار صعوبات بأي شكل من الأشكال». ويُظَنُّ أن استفسار دار النشر الذي لم يبق محفوظًا لم يُذْكَر فيه اسم

ديكنز، بحيث ربط ستيفان تسفايغ، بصورة تلقائية عفوية، بينه وبين مقاله «بلزاك» الذي طبع هناك في تموز وأيلول عام ١٩٠٨ ومن الواضح أنه كان يُقْصَد به إلى دلالة أخرى. وذلك أن مقال «ديكنز» تمَّ قبوله ليكون تمهيداً في المجلد الأول «داڤيد كوبر فيلد» من الطبعة التي ظهرت في العام ذاته، والتي تقع في اثني عشر مجلداً من «الروايات والأقاصيص المختارة». وفي السنة التالية تم اختتام تحقيق الكوميديا الإنسانية لبلزاك: وكتب التعقيب عليها وليام ويغاند. وبدا كتاب «بلزاك» لتسفايغ الصادر في عام ١٩٠٨، الآن قليل الأهمية في سياق معيَّن، ولكن حين صدر في عام ١٩١٩ مجلَّدُه الأول من «بناة العالم، وهو القسم الأول من »أنماط الفكر Ty-pologie des geistes»، البُناة الثلاثة: بلزاك، ديكنز، دوستوييفسكي، عن دار إنْزِلْ، كان يتضمن، إلى جانب ذلك المقال عن تشارلز ديكنز، العائد إلى العام ١٩١٠، أيضاً، صورة العالم عند بلزاك، العائدة إلى عام ١٩٠٨ - وكلاهما من دون أية إشارة إلى الاستعمال الأسبق، ولم يكن يمثّل إسهاماً أصلياً سوى المقال الثالث المكرَّس لدوستوييفسكي، إذا صرفنا النظر عن نشر القليل من الدراسات التمهيديه.

وقد ظل بلزاك، بالقياس إلى ستيفان تسفايغ، منذ أن اكتشفه لنفسه، يمثل الأنموذج والعمل الفني في تعقيده بحكم كونه مقياسَ الأدب، وهكذا يأخذ مثلاً على ياكوب ڤاسَّرمَنْ، الذي كرَّم رواياته في مقالة نقدية مستفيضة، في مجلة نويه روندشاوْ، في الأول من تشرين الأول عام ١٩١٢، كما تقرر اليوميات، «النقص في العنصر البروليتاري في عمله. وهو ما ينقصه حيال بلزاك» وبعد أسابيع قلائل، أي في الخامس عشر من تشرين الثاني، نشر في مجلة "Literarisches Echo"، في برلين، مناقشة نقدية لطبعة مقالات بلزاك التي لم تكن نشرت حتى الآن، حول «فيزيولوجيا الحياة الراقية، في (لقاءات مع الكتب»، فرانكفورت الماين، دار س. فيشر للنشر، ١٩٨٣، ص ١٧٩ - ١٨٤) وفي الثاني والعشرين من كانون الأول عام ١٩١٢، أوردت صحيفة برلينَرْتا غيسبلات رسالته المفتوحة المكتوبة منذ الثاني عشر من تشرين الثاني، إلى رومان رولاند مع التهنئة بالفراغ من

«جان كريستوف»، وفيها يعبِّر عن سروره بأنَّ رولان «جعل رسالته» تتمثل في أن يجعل من موسيقيّ ألماني متُخَيَّل، هو بيتهوڤن المبعوث من جديد، بطلاً لعمله الفني ذي الصبغة الأخلاقية، ولم يجعل منه شخصية هي موضوعٌ للسخرية، ولا شخصية مضحكة يترتب على الألماني أن يضعها في الروايات الفرنسية، حتى في حالة بلزاك، وعلى نحو دائم تقريبًا».

ويظل ستيفان تسڤايغ يعود، في هذه الحقبة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، المرة بعد الأخرى، إلى كاتبه: «في المساء أعود ساكنًا كل السكون في حضرة بلزاك، لكي أتعلم منه» (اليوميات، باريس، ٢٤ نيسان، ١٩١٣). وفي الخامس والعشرين من آذار عام ١٩١٤، حصل، في باريس، بسرعة البرق، أو في غمضة عين، وهو ظامئ ملهوف، على الرغم من شعوره بأنه ربما يدفع ثمنًا باهظًا (اليوميات)، ومع تضحيات مادية فادحة- على النسخة ذات الأضعاف الثلاثة من ملازم تصحيح تجارب الطبع العائدة إليه (وهو مخطوط لم يُسْمَع بمثله) والمتعلقة بالقضية الغامضة "Ténébreuse Affaire"، وهو الأوتوغراف البلزاكي الثاني عنده. أما مخطوط أقصوصة «قدّاس الملحد، فكان لديه من قبل، وذلك، على الأقل منذ شباط ١٩١٢، كما يُستَفاد ذلك من رسالة له إلى رولان. وفي نيسان من عام ١٩١٤ نشر في صحيفة برلينرَتا غيسبلات خبراً عن زيارة لبلزاك، ٤٧ شارع رينووآر، في المدينة التي غلب عليها النوم إلى حدٍّ ما، وهي تور» (عالم الأمس»، وهي بالقياس إلى المتحف: تمرين أقرب إلى سمة ركن الأدب والفن، وبالقياس إلى اليوميات غير ذي أهمية كافية، غير أنه ظل يقتفي أثره- إلى أن نشبت الحرب العالمية الأولى في ١ آب ١٩١٤ وفي تشرين الثاني سمح لنفسه بأن يخرج، من مقر الصحافة الحربية الذي تمَّ توطينه فيه. بمحض إرادته طوال مدة الحرب، بنوع من الأفكار أقرب إلى أن يكون تنهُّدات مفاجئة، على غرار قوله: «وحتى الملازم الأول، غبيٌّ ولكنه مفعم بروح العدالة والتهذيب، فهو شخصية تتسم بالأصالة- الآن أفهم كيف كان الكتَبَة في الدواوين، مثل بلزاك والآخرين، يصبحون أدباء ومن أرباب الصياغة والتشكيل. ولابدَّ للمرء أن يرتبط بالبشر بالقسر، لا عن طريق

الاختيار، وأن لا يمارس الانتقاء بنفسه، بل يدع المصادفة تنظم أموره. «بالمصادفة: وعلى نحو غير منتظر بادر التقويم الألماني لهواة الكتب في منتصف الحرب، أي في أيار ١٩١٥ و ١٩١٦ الذي يصدره هانز فايجل في ڤينا، إلى طبع مقاله لهواة الكتب وكتب بلزاك المدفونة تحت الأرض» («سرّ الإبداع الفني»، فرانكفورت الماين، دار س. فيسر للنشر ١٩٨٤، ص٣٣٢– ٣٣٨) مع الطبع بالتصوير طبق الأصل لطلحية طبع مصحَّحة من مجموعته: أمّا كيف أمكن أن تنتهي المسألة إلى هذا النشر فهذا أمر ليس بالواضح.

ولا يعود يرِدُ ذكرٌ، في الرسائل وفي اليوميات، لاسم بلزاك الآن، إلى كانون الثاني ١٩١٨ حين عرف ستيفان تسڤايغ أنه قد يظل في سويسرا إلى نهاية الحرب. ويُدَوِّن لنفسه، في السادس عشر من كانون الثاني ١٩١٨، وكأنه يلجأ من جديد، إلى ملاحظة البشر من أجل التحويل الأدبي إلى فعل، بحزمٍ وعزم، وبالمعنى الذي كان يقصد إليه بلزاك، وعلى أساس الأخبار الواردة عن القضية التي رُفِعَت ضد السياسي جوزيف كايّو لدى المحكمة العليا في باريس، بسبب علاقات له مع العدّ، قوله: «إن قضية كايّو، لَتَمْلِكُ عليّ أنفاسي، وأكاد لا أستطيع أن أفكرً بعدُ في شيء آخر سواها. وههنا تتوافر شخصية لبلزاك. فما بالنا لا نتجرآ على مثلها؟ إننا نظل كامنين دائماً في المضمار السيكولوجيّ ونختنق فيه». وبعد نصف سنة، أي في ٣ حزيران ١٩١٨، كتب إلى أنموذجه الآخر في هذه الحقبة، رومان رولان، الذي تُعَدُّ روايته «جان كريستوف» تاريخ جيلين بين عامي ١٨٧٠ و ١٩١٤، قائلاً إنه، أي رومان رولان، سيظل يمثل شهادة على مدى القرون، مثلما يظل بلزاك الشاهد على الحياة في فرنسا بين الثورة الأولى والثورة الثانية» أمّا كيف وُفِّق بلزاك إلى هذا بمجموعته «الكوميديا الإنسانية» فذلك ما وصفه ستيفان تسڤايغ فيما بعد في السيرة: «لقد غلبت عليه الخاطِرَة الرهيبة، وهي أن يدع الشخصيات التي ابتدعها تعود أدراجها كلٌّ على حدَة، من كتاب إلى كتاب، وبذلك يكتب، بفضل إمكانية تَنَقُّل الأنماط تاريخاً معاصراً أدبياً كاملاً يشتمل على كل الطبقات والمهن، والأفكار والمشاعر والظروف والملابسات (ص ١٤٢). و بات التماشي مع

هذا، الآن، والتحولُ، من جانبه، إلى مؤرِّخٍ لعصره» هدفًا يستحق أن يطمح المرء إليه، الآن طموحًا واعيًا على ما يبدو، بالقياس إلى ستيفان تسفايغ، أي هدفًا لعمله القصصي الخاص، كما أصبح، من جراء ذلك، هدفًا لعمله في السيرة أيضًا. وقد اعترف لرومان رولان بهذا في الثامن من تشرين الأول عام ١٩١٩، غير أنه اعترف في الوقت ذاته أيضًا، باستحالة الوصول إلى هذا، بهذا القدر، لوحده: «إن الموقف في ڤينا ليبعث على الفزع، غير أن حيوية المدينة تبعث على دهشة المرء، ولا يعرف المرء كيف ينبغي له أن يُغذي نفسه من أسبوع إلى آخر، إذ ليس عنده حطب، والأضواء يتم إطفاؤها في الساعة الثامنة، وفي هذه الساعة يوصدون المنازل، والمطاعم والمقاهي- ومع ذلك فالأهالي يتّسمون بالمرح، بل بالمرح الذي يجرح ويؤذي. وما عاد القوم يأملون، غير أنهم لا ينتابهم اليأس أيضًا. ولم يسبق لي قطُّ أن رأيت مثل هذا المثال على طاقة الحيوية. ويبدو أنه لا يدرك ماهيّة الحياة إلاّ أولئك الذين رأوا الموت عن كثب ومقربة شديدة، وأن كل معاناة لا تزيد على أن ترفع من مستوى السرور بالحياة والصمود الداخليّ- في قرارة النفس، وإنه ليؤسفني أنك لاتشهد معنا هذه المسرحية، هذا الرقص الجنوني على شفا الهاوية، وهذا الجنون الفريد في نوعه من قبل أناسٍ بلا أمل، ومن قِبَل أمة بلا غد. أوّاه! ما أشدّ شعوري بضعفي، أنا الكاتب! أنْ يكون المرء، على الأقل، بلزاكَ مثل هذه الحقبة مادام لايستطيع أن يكون المنقذ لهذه النفوس التي انتابها يأسٌ لا مَخْرَج منه- وأيُّ سعادة كانت هذه خليقة أن تكون! فكل ما تقرأه في الصحف يهدف إلى إضرام لهيب الرثاء، ولكن لم يصف أحدٌ حتى الآن تلك الحالة الجنونية التي تسود عندنا، وإني لأشعر أنا، أيضًا، أنني غير أهل لهذا!» وبعد ثلاث سنين، أيْ في السابع عشر من حزيران ١٩٢٢، عاد إلى الحديث، في رسالة إلى رولان، عن هذا التصوُّر الذي هو موضع تمنيّاته: «لطالما ينتابني الكَرْب من جرّاء جبن أدبنا: فلوْ أمكن لبلزاك أن يُبْعَث من قبره فما عساه يصنع من حقبتنا! عشرين رواية، أو ملحمة! إنّك لأنْت الوحيد الذي يمكنه أن ينجز ذلك! وإني لأخشى أن لا يشهد التاريخ أبدًا الحياة الفعلية في هذه الأيام: وذلك أنه لن يصف إلا المعارك والمؤتمرات، ولكن كيف

سيترتَّب عليه أن يصف روح شعب- الشعب في النمسا، والشعب في ألمانيا- بعد الهزيمة، مع هذه الألوف من اللُّوَيْنات والفروق!». ويجيب الصديق عن ذلك في الرابع والعشرين من حزيران: «إنه ليس مما يثير عجبي كثيراً أنه لم يحاول أحدٌ ممن هم على شاكلة بلزاك، أن يرمي شبكته فوق عصرنا إذ إن هذا العصر كثير الوجوه إلى حد مفرط، كما أنه يُعَدُّ، قبل كل شيء كثير التبدُّل. لقد كان بلزاك يكتب تحت مظلة الملك لويس فيليب، وما دامت الأرض تتزلْزَل تحت خطوات الثورات وخطوات الخَبَب التي تتميَّز بها الامبراطورية لم يوجد بلزاكٌ، ولا رجل من طراز هوجو. ألا فصبراً! فإن عصرنا لن يخسر شيئًا إذا ما انتظر وتَربَّص. ولكن لابُدَّ، أوَّل الأمر، أن يؤون أوان عصر المذكرات الشخصية التي يُسِرُّ المرء فيها إلى المستقبل مالا يجرؤ على الإفصاح عنه في اللحظة الراهنة. ومن يدري، فربما كان هذا العصر آن أوانه».

وبالنسبة للَّحظة الراهنة لم تكن فكرة رولان هذه المبنيّة على «بَدَلاً مِنْ» موضوعًا بالقياس إلى ستيفان تسفايغ، والأرجح أنه لبث. هنيهة أخرى من الزمان ويتمسَّك بمثَله الأعلى، ولكن في كانون الأول من عام ١٩٢٦ كان قد تخلّى بصورة كاملة عن الأمل في أن يتمكن كاتب فرد بعينه من أن يُكَوِّن بانوراما من صنع خياله متكاملة في ذاتها، عن عصره وحيله. وقد كتب إلى مكسيم غوركي في التاسع عشر من كانون الأول يقول: «لست أدري أما زلنا نتمتع بالمقدرة على إنشاء عالم، كما فعل بلزاك أو دوستوييفسكي، فربما كنا نعيش في حقبة مفرطة في الاضطراب والحركة، لا يمكن الإحاطة بها بمجرد نظرة واحدة. ولكن ربّما تنقل الأعمال الفنية المتفرِّقة، كلٌّ منها على حِدة، للأجيال القادمة صورة إجمالية لحالتنا النفسية». ولكن بعد ذلك كثيراً، أي في الأسابيع الأخيرة من حياته، تجرأ مع ذلك، على أن يحاول، معتمداً على الذاكرة، أن يورد شهادته بحكم كونه كاتبًا روائيًا: وذلك في روايته التي بقيت في صوْرة شَذْرةٍ مُجتْزأة، بعنوان «كلاريسا»، (فرانكفورت الماين، دار س. فيشر للنشر، ١٩٩٠).

والآن، أي في تموز من عام ١٩٢٠ قدمت دار إنْزِل للنشر كتابه «بناة العالم» الثلاثة الذين كانوا يباعون قبل الصدور في طبعتين» (إلى رولان، ٥ أيار ١٩٢٠). وكان قد اتخذ قراره بصدد هذا التجميع في مجلد منذ ما قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، في آب من عام ١٩١٣، حين كتب إلى رومان رولان، يقول: «أعتزم أن أنشر المقالات الثلاث عن بلزاك وديكنز ودوستوييفسكي مجموعة في مجلد (وهم الأنماط الثلاثة الكبرى عند روائيّ المجتمع والأسرة والفرد، وروائيّ البشرية أيضًا) وأجرؤ على القول إنه سيغدو كتابًا جيدًا. أوَتَرُاكَ تعتزم أن تسمح لي بأن أهدي هذا الكتاب إليك؟ ففي نفسي حاجة إلى أن أُزْجيَ الشكر إليك علانية على ما أَسْدَيْت من مجهود أخلاقي وفني رَائع. ولست أعرف تكريمًا آخر أصيلاً بهذا القدر بين الفنانين مثل إهداء كتاب يَعُدُّه المرء ناجحًا أيَّما نجاح. فهل تأذن لي إذًا، أيها المعلم والصديق، في أن أُدَوِّن اسمك على الصفحة الأولى، وأهدي إليك هذا الكتاب على وجه الخصوص؟». وجاء الجواب عن هذه الرسالة في الثاني من أيلول: «ما كنت لتستطيع أن تبعث في نفسي سرورًا أعظم من أن تهديَ إليّ مجلّدًا عن بناة العالم هؤلاء الثلاثة، ذلك المجلد الذي أُعْجبُ به وأقدِّره أكثر مما أقدِّر كل الكتب الأخرى، وإنه ليبلغ من نفسي أكثر مما أستطيع أن أُعبِّر عنه، فإليك شكري الجزيل، وسيكون عليّ أن أردَّ لك الجميل!»

ويأتي الإهداء الآن بعد سبع سنين على النحو التالي: «إلى رومان رولان، آية شكرٍ على صداقته التي لا تتزعزع في سنوات السرَّاء والضراء» وأوعز ستيفان تسفايغ بأن تُرسَل إليه نسخة على الفور- ولكن لم يصدر ردّ فعل تلقائيٌّ عفوي من جانب الرجل المثقف، ومهما يكن من تَوَقُّع المعطي في هذا الموعد (إذ كان يذكِّره بذلك في رسائله المرةَ بعد الأخرى- فإن ردّ الفعل هذا لم يأتِ إلاّ بعد سبع سنوات، مرة أخرى، بمناسبة صدور الألف الخامسة والعشرين.

أمّا زيجموند فرويد الذي تلقى الكتاب على مدى العام فكان حكمه (في التاسع عشر من تشرين الأول، ١٩٢٠) كما يلي: «لقد تمَّ التمكُّن من بلزاك وديكنز

على نحو كامل». وقال هِرْمَن بار، ولم يكن ذلك، بالطبع إلاّ في أيلول ١٩٢٣، في يومياته التي لم تنشر، كالعادة، إلاّ بُعَيْدَ التدوين في صحيفة «نوية ڤينَرْجورنال»: «ما أشدَّ ما أُعجبت بمقالك الذي لا مثيل له في بلزاك، ولقد ودِدْتُ لو تعرف ذلك». وسيضاف إلى ذلك أصواتٌ أخرى مماثلة في صدد مجموعة الصور، ولم يكن من النادر التوكيد على بلزاك، وفيها ألوان من التشجيع على المزيد من التعمُّق أكثر من هذا في حياة الكاتب الذي هو موضع الإعجاب وعمله الأدبي، وكل ما ظهر حوله، والاستفادة من ذلك في توسيع معرفته وتعميم هذا ونشره. ومِنْ ذلك أنه ناقش، مثلاً، في السابع والعشرين من أيلول ١٩٢٥، في صحيفة براغر تاغبْلات كتاب رواية بلزاك الذي ظهر للتوّ لإرنست ڤايْس «رجال في الليل».

غير أن الكلمة والحكم الصادرين عن فرنسي، هو الصديق الذي كان أهدى إليه مجلّد «بناة العالم الثلاثة»، أصبحا فاصلين قبل كل شيء بالنسبة للخطة التي تمَّ الإفضاء بها في عام ١٩٣٩ من أجل السيرة الكبرى للكاتب الروائي- ولم يكن ذلك سابقًا على القرار النهائي، عن وَعْيٍ وقصد: «لقد سرني أيَّما سرور أن أقرأ مقالاتك الحلوة عن بلزاك وديكنز مرة أخرى، وإني لأشكر لك من أعماق قلبي هذا الإهداء. ومن المألوف أن لا يقول الذين يتلَقَّوْن مثل هذا الإرهداء إنه مطابق للحقيقة. أمّا أنا فأفعل ذلك في الحالة التي بين يديَّ، من دون حب خاطئ لنفسي»، وبهذا تبدأ رسالة رولان في التاسع عشر من نيسان ١٩٢٧ وتمضي قائلة: «لقد كنت فائق البراعة في هذه الخلاصات البانورامية الكبرى التي تتحدث عن فكرٍ وعن حقبة معينة. إنها رِقاعٌ من زمن ومرابعُ شعب، وإن من رسمها لأستاذ من الأساتذة وهي أشياء يرتقي بعضُها ببعض من جراء ما فيها من التضاد، في إطار جمالها. وإن صاحبك بلزاك، وصاحبك ديكنز، ليدوِّنان سيرتهما في هذه الذكرى».

واعتباراً من عام ١٩٢٧، وحتى تلك الرسالة المُسْتَشهَدِ بها في البداية، والمؤرخة في ٢٨ شباط عام ١٩٣٩، إلى رولان، لا يمكن العثورَ على فقرةٍ ما في

اليوميات، أو في رسالة لستيفان تسفايغ، تَمُتُّ بصلة إلى بلزاك، ولا يُصَرِّح، إلاّ في نظرة إلى الوراء، في سيرته الذاتية، قائلاً: «لقد ظللتُ منذ سنين- ولا بد أن يكون المقصود هنا هذه السنين قبل كل شيء- أكدِّس الأعمال التحضيرية بغير انقطاع، من أجل عرض كبير لبلزاك وعمله، يقع في مجلدين، ولكن لم تتهيأ لي الشجاعة للشروع في عمل واسع النطاق إلى هذا المدى، وقد تمّ التخطيط له على أساس الأجل الطويل. على أن الاستياء ذاته، على وجه الخصوص، وهب لي الجرأة على ذلك». وكان هذا هو الاستياء من التطوُّر السياسيّ في أوروبا.

ويمكن أن نقتفي آثار اشتغال ستيفان تسفايغ في هذه الحقبة به، أي ببلزاك وببيئة حياته، في السِّيَر الأخرى، كما كان يحدث من قبل، وهو ماسوف يعود إليه أيضًا، من ناحية أخرى، في كتاب «بلزاك الكبير»، مرة أخرى. ومِنْ ذلك ظهور الفارس دي جارجايْ في رواية «ماري أنطوانيت» (١٩٣٢) الذي يعمل جاهدًا على تحرير الملكة من السجن- وهو زوج أم مدام لور دي بيرني، عشيقة بلزاك الأولى، الأكبر منه سنًا إلى حد بعيد. وكذلك كان، في رواية «مارسلين ديبورد- فالمور (١٩٢٠)، هنري لاتوش العشيق غير الأمين للأديبة- وهو صديق لبلزاك أخفاه في بيته عن الدائنين بعد إفلاسه في مغامرة المطبعة، كما لم يَنْس ستيفان تسفايغ، من ناحية أخرى، أن يشير في سيرة بلزاك، إشارة غير مباشرة على الأقل، إلى عروض سابقة له تتناول فصولاً من تاريخ الحضارة- « . أوَلم يكن كبار أصحاب النزعة الإنسانية أيضًا، في العصر الوسيط مصحِّحين ومستشارين تقنيّين لدى الناشرين؟» (ص٩٦)، ومثال ذلك إشارته إلى التعاون بين طابع الكتب يوهان فروبِن في بال وإراسموس فون روتردام، وكذلك إشارته إلى مُحَرِّر أعماله، بيتوس رينانوس (انتصار إراسموس فون روتردام ومأساته، ١٩٣٥) كما ذكر أيضًا أن بلزاك كان مفتونًا على الدوام بشخص فوشيه. (ص١٣١)- وهي شخصية أضفى عليها ستيفان تسفايغ نفسه هيئة وقِوامًا في الكوميديا المأساوية «خروف الفقراء» (١٩٢٩) ولا سيما من حيث كونها «صورة رجل من رجال السياسة (جوزيف فوشيه، ١٩٢٩).

ومع ذلك فقبل الوقت الذي يحتمل أنه شرَع فيه بالفعل، بالعمل في كتابة سفْرٍ كبير في سيرة حياة بلزاك ونقده، كانت تشغله، على نحوٍ موازٍ لكل ما نشأ في هذه الفترة من الزمن، أفكار شتى بعدُ فيما يتصل بالجانب المبدئي في هذا المشروع، وأخيراً وجدت هذه الأفكار تعبيراً عنها في التأمُّلات المتصلة بتصوير الحياة والعمل الأدبي. وإذاً فالصياغة تعني صحة الرؤية، وصحة التركيز والتصعيد، واستخراج الحد الأقصى، والكشف عن الهوى الجامح في كل ما هو عاطفيّ، وتمييز موطن الضعف في كل قوة، واستخراج القوى الغافية (بلزاك ص ٢٣٦، وما يليها).

ولم يجْرِ تسهيل الكتاب عليه في ربيع عام ١٩٣٩، بعد عودته من الولايات المتحدة إلى لندن. وقد اعترف لصديقه، فيليكس براون، في ٢٣ نيسان، بقوله: «إني لأجد متعة كبيرة في مجاراتكَ في هذا والانسحاب إلى مكانٍ ما في الريف، بعض الوقت، وكان زحف البشر الوافدين من النمسا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ما عاد يمكن التحكُّم فيه، ولا يكاد يتوافر لي بعدُ وقت لرؤية الأصدقاء الحقيقيين، ومنهم، مثلاً، فيكتور (فلايشر). وقد أنهكت قوايَ كل الإنهاك الأحاديث الأبدية عن الإذن، والشهادة الخطية ووزارة الداخلية (Home office) والكفالة- وكل هذه الأشياء التي تسود الحياة الآن، بدلاً من أن تسودها أمور الفكر. وأنا أقوم الآن بالأعمال التمهيدية من أجل عرض أكبر لشخصية أدبية كبيرة للغاية، لأن التركيز غير ممكن بالقياس إليّ، وهو عمل مؤسَّس على أساس سنتين، أو ثلاث سنين، ويقع في مجلدين ضخمين. وكل ما يصرف المرء عن الحاضر يساعد على الاستقرار الداخلي». وبعد أربعة أسابيع كان قد بدأ بالتدوين، وأبلغ رومان رولان في السابع والعشرين من أيار، قائلاً: «لست أدري هل سبق أن كتبت إليك أقول إنني قد استأنفت حلُم صباي من جديد، بأن أكتب كتابًا- كلاً، بل الكتاب الضروري عن بلزاك (في مجلدين على الأقل). لقد ظللت أتردد ثلاثين عامًا في الجلوس إلى العمل وأنا أتابع على الدوام كلَّ ما كان يُنْشَر عنه. وأعتقد أنني بِتُّ الآن أعرف. على وجه التقريب، كل شيء، وما عاد ثمة شيء يترتَّب التنقيب عنه، وأنني أستطيع الآن، أن أبدأ، أخيراً في عرض هذا العملاق وعمله: فياله من

رجل، ويا له من عنفوان! إنه سيكلفني عامين على الأقل، ولكن عصر صغائر الأمور ولّى بالقياس إليَّ، ولا بُدَّ للمرء أن يبدع ما يتميز بالمكانة والاعتبار». وفي تموز خرج إلى باث وهي المكان الأكثر إثارة للملل والسآمة، والأقدم زِيًّا في إنكلترا، «لكي أهرب من هذا القرن (والمرء يشعر هنا أنه في القرن الثامن عشر)، ولكي استجمع قواي» (إلى رولان، ١٥ تموز). وهنا كان يريد وهو أكثر ما يكون عزلة عن أخبار القارة حول «هذه الهزائم اليومية أمام دناءة العالم. فهذه فحسب هي التي تثير انقباضي»، أن يكتب كتابه حول هذه الحياة الخيالية، العبثية التي عاشها أكبر العاملين في الأدب»، مع افتراض وجود السلام» (إلى فيليكس براون، ٥ آب، ١٩٣٩). وكان يعلم أن هذه المخاطرة هائلة، ولم يجرؤ عليها أحد حتى الآن (أما كورتيوس فقاصر ناقص كل النقص)، لا من الفرنسيين ولا من الإنكليز (الموضع نفسه)، وسُرَّ صديقه وطابت نفسه به، فقال: «إن مقالك السابق في بلزاك. سوف يُسْتَخدم الآن لغرض معين تمامًا (١٢ آب، ١٩٣٩). وكان في حاجة ملحة إلى مثل هذا التشجيع، إذ كانت الأخبار السياسية «ألمانيا تقتحم بولونيا»- تنهك طاقته وتغذي «كبده السوداء»: لقد انقطع عملي في بلزاك- فليست لديَّ كتب هنا، ولا مادة، ويبدو لي هذا عبثًا لا معنى له، فكل ما أفعله إنما هو محاولات لإدخال النظام على حياتي الخاصة، في غمار عالم يسوده العَماء. ولو كانت كتبي هنا الآن، إذًا لكان كل شيء أسهلَ عليَّ (إلى فيليكس براون، أيلول ١٩٣٩). ومع ذلك فهو يواصل عمله، وكأنما كان يستمد طاقة من مطالعاته في الكتب الجديدة التي يخرجها المنفيّون الآخرون، والتي كان يبعث بها إليه ناشره الجديد، جوتغريدبير من- فيشر: من رواية توماس مان «لوتّه في ڤايمار» التي كتب لها نقدًا مفعمًا بالحماسة، ومن (أغنية برناديت»، لفرانتس ڤيرفِل، على الرغم من أنها «مفرطة في كاثوليكيَّتها بالقياس إليَّ» ومع ذلك فإن «بلزاك كحجر الرحى حول عنقي، غير أنه يظل على أية حال عبئًا أخفَّ وطأة من عبء الحقبة» (إلى فيليكس براون، ١٦ كانون الأول، ١٩٣٩).

وفي هذه الأسابيع حاولت زوجةُ فريد ريكه، التي كان قد طلّق منها من قبل

مِنْ دون أن يفقد صداقتها، أن تسلِّمه، «بمعونة صديقنا المشترك جوليان كانْ، ومنظم مؤتمرات السفراء» دعوة له إلى باريس لإلقاء محاضرة وفي الثالث عشر من شباط ١٩٤٠ أبلغ رولان بقوله: «أنا أجتهد في الحصول على إذن من أجل المجيء إلى فرنسا مدة أربعة عشر يومًا. فأنا في حاجة مطلقة إلى أربعة عشر يومًا من الدراسات من أجل كتابي «بلزاك» (ومازال جزء هام للغاية، من الرسائل غير منشور بعد)، وفي مستهل نيسان استطاع أن يسافر، مدة ثلاثة أسابيع. وألقى محاضرة حول «ڤينا الأمس» في مسرح ماريجي الذي غُصّ بالحاضرين، كما تحدث بعض الحديث عن طريق الإذاعة. ولكن أيامي مكرَّسة لسيد بدين يقال له بلزاك» (إلى رومان رولان، ١٩ نيسان، ١٩٤٠). وكان يركِّز جهده هنا كل التركيز على «لوحته الزيتية الكبيرة»، «أي الكتاب الكامل الأول عن بلزاك» غير أنه كان قد تجرأ على الإفضاء إلى فيليكس براون، بحكم كونه الأوَّل، حتى قبل الشروع في الرحلة، بشك جديد، أو صعوبة جديدة: «أنا أعمل في الكتلة العملاقة التي هي بلزاك، ولكن كيف يُفْتَرَض أن يبدو هذا؟ فإن المرء لا يستطيع أن يرسل المخطوطات إلى الخارج إلاّ بأكبر الصعوبات، وإنَّ كل طلحيّة من أوراق تصحيح تجارب الطبع لخليقة أن تحتاج إلى ثمانية أسابيع تروح فيها وتجيء، وإني لأعيد النظر في كل شيء ثلاث مرات- وعلى هذا فإن خمسين طلحية من أوراق الطبع ستعني عامين!!! وبهذا كنا مكبَّلين أثناء الحرب» (آذار ١٩٤٠). وبعد العودة من باريس إلى باث كان قد غدا أكثر تشاؤمًا بدرجة جوهرية من ذي قبل: «لقد قُسِمت لي هبة تيريزيا إلى الحد الباعث للوحشة والانقباض، ولقد عشتُ في كل هذه الشهور أحتمل أكثر الهموم تجهُّمًا واسوداداً، وهي الهموم التي زادت منها الأحداث إلى حد يبعث على الفزع. وأنت لا تعرف ما كان يبدو لي، أنا الذي كنت في باريس، وفرنسا وأنت لا تعرف ما عسى أن يعنيه الخطر الذي لا سبيل إلى دفعه بالقياس إليَّ، أنا الذي كنت أراه كما لم يكن من قبلُ أبداً، قبل أربعة أسابيع، بالغ الجدارة بالحب، بالغ الروعة، بالغ الإنسانية- إنه البلد الأخير الذي كنت أشعر فيه كأنني في بيتي. لقد كان بالقياس إليَّ البقيّةَ الزخيرة من أوروبا، موطننا في أَمْسِ الدابِر. أمّا الآن،

فأنا امرؤ بلا وطن، وكل شيء لا معنى له بالقياس إلي. أمّا بلزاك فقد تركته راقدًا، خمسمئة صفحة في المخطوط الأول، وألف ملاحظة. الآن لن يطبعه أحد، ولن يقرأه أحد». وفي اليوم ذاته الذي كتب فيه هذا إلى فيليكس براون، أي في العاشر من تموز ١٩٤٠، دوّن في يومياته: «يوم أسود. في الساعة السادسة الضربة الصاعقة، فقد أعلنت إيطاليا الحرب، وكان الناس يعرفون هذا منذ عهد بعيد، غير أن الغريزة كانت ما تزال تؤَمِّل، وتضاف إلى هذا الخسارة على نهر السوم، والانتصارات الألمانية في البر والبحر في النرويج- وكلُّ من ضُحِّي به، فيما أرى فقد ذهب دمه هَدْرًا وعبثًا، والنصر الفعلي مستحيل، وفي مقابل ذلك، فإن السقوط، في الحالة الأخرى، لا يمكن تصوُّره على الإطلاق، ولم تكن النمسا سوى مسرحية تمهيدية لهذا، وقضيتي مع البرازيل لا يستقيم أمرها على النحو ذاته، فهنا أيضًا أبدو وكأنني تأخرت ساعة في المجيء كما حدث في البداية. وما عادت لديّ بعدُ إرادة على الإطلاق. فأنا أعرف أن هذه الحياة لن ينْجَبر كَسْرُها بعدُ أبدًا، حياة مع وجود فرنسا مدمَّرة، وإنكلترا معادية- إمّا لي بحكم كوني ألمانيًا، وإمّا بحكم كوني يهوديًا، وما عاد لها معنى، وحتى من الوجهة الأدبية فإن كل ما كان يمكنني القيام به معوَّق ومؤجّل إلى سنين من جراء النقص في التركيز، وبحكم كوني في الستينات من العمر فأنا على أية حال مقُوَّص وقد انتهى أمري وأدْبَرت أيامي إلى حدٍّ ما، وما عُدْتُ أنزع إلى فرض هذه الإرادة، وإنما أتردَّد فحسب في فرضها، ولكن المساعدة تبْذَل لي من الخارج من أجل هذا، وإني لأرى أمورًا بالغة الصعوبة قادمة على نحو لا يستشعره الآخرون». أمّا باريس فقد تَمَّ احتلالها من قبل القوات الألمانية بغير قتال، بعد أربعة أيام.

ويتعرَّض ستيفان تسفايغ، بالنتيجة، للوقوع في أزمة عصبية تزداد عمقًا على نحو مطَّرِد «فالاضطرار إلى الاختفاء الدائم وإلى الشعور بالذنب أبدًا، حالة يمكن أن يحتملها المرء بضعة أسابيع، غير أنها لا تُطاق إذا كانت طِرازًا من طُرُز الحياة، ولم يسبق لي قَطُّ أن كنتُ متشائمًا إلى هذا الحد، أو يائسًا إلى هذا المدى. ولكن إلى أين؟» (اليوميات، ١٣ حزيران، ١٩٤٠). وفي كتاب «بلزاك» يجد مثل هذا

الشعور بالضيق مكافئًا له في وقته: «هل تُراه يجد بعدُ المقدرة على استكمال عمله، الكوميديا الإنسانية؟ وهل سيتمكن، مرة أخرى، من الإخلاد إلى الراحة، شأن الآخرين من البشر، ويكون خاليَ البال من الهموم؟ ولأول مرة تنتاب بلزاك لحظات من الانكسار والقنوط، ويفكّر جاداً في مغادرة باريس، وفرنسا وأوروبا والانتقال إلى البرازيل، ويقال إنَّ هناك امبراطوراً يُقال له بيدرو سوف ينقذه ويقدم إليه الملاذ والمأوى. ويوعز بلزاك بطلب كتب عن البرازيل، ويحلم ويفكر، لأنه يشعر أن الأمور ما عادت تستقيم على هذا النحو، ولابُدَّ أن تحدث معجزة لإنقاذه من عَمَل السخرة العبثيّ، ولابدّ أن يجيء شيء ما، بين عشية وضحاها، يحررِّه من المتحف، ويَهَب له تخفيف حدة التوتُّر، بعد فيض التوتر هذا الذي ما عاد يُحْتَمَل» (ص٤٠٨).

ويتلقى، هو وزوجته الثانية، لوتّه، التي كان تزوجها في أيلول ١٩٣٩، تأشيرة سفر إلى البرازيل بعد أخذٍ وردٍّ طويلين، و«قبيل الانطلاق»، ويكون ذلك أوّلاً إلى نيويورك، في ٢٥ حزيران ١٩٤٠، يعترف لجوزيف ليفتقيتش: «لقد لبثت زمنًا طويلاً لا أستطيع أن أحزم أمري ولكن المسألة باتت الآن مُلِحّة، من دون أدنى شك، وكل شيء يتوقّف الآن على العالم الجديد»، ويستكمل الرسالة بقوله: «آمل أن أعود في نهاية تشرين الأول. . » كما يكتب إلى آخرين، في الأسابيع الأولى، من أمريكا، قائلاً إنه يأمل أن يستطيع العودة إلى إنكلترا إذا ما تطورَّ الموقف السياسيّ تطورًّا إيجابيًا. «وهكذا تخلَّف أيضًا كل المخطوط الذي أوشك أن يكتمل، وهو مخطوط ترجمتي الكبيرة لبلزاك. ولكن ألم يكن أهمَّ من ذلك إنقاذ العمل الذي كان في وسع المرء أن ينجزه بعدُ، بدلاً من العمل الذي أُنْجِزَ شطرٌ منه أو لم يجرِ إنجازه البتة؟» (إلى توماس مان، ١٧ تموز ١٩٤٠).

ولبث مع زوجه بضعة أسابيع في نيويورك، وارتحل معها، في التاسع من آب لإلقاء محاضرات في البرازيل، والأرجنتين والأورغواي، ومن هناك إلى البرازيل مرة أخرى: وكان في حاجة إلى نظرة الشمال ليختتم كتابه على «أرض المستقبل

هذه». وفي هذه الرحلة كان يتضح له على نحو مطَّرد الزيادة، أنه ما كان ليرى وطنه أوروبا، من جديد: «أعتقد أنني لن أعود أبداً من جديد إلى أوروبا هذه، وكل مالَدَيّ هناك، أي كتبي، ولا سيما بلزاك (الذي كُتِبَ ثلاثة أرباعه، وتم إعداده) بات ضائعًا، وفضلاً عن ذلك كل البلدان التي كان لي فيها موطئ قدم» (إلى فريد ريكه تسڤايغ، تشرين الثاني، ١٩٤٠) وفي نهاية كانون الثاني من عام ١٩٤٠ باتا، مرة أخرى، في نيويورك، غير أن ستيفان تسڤايغ لم يجد هنا سكينةً من أجل عمله، وبحثا، فوجدا، في نيوها فِن (كونيكتيكت) فندقًا هادئًا. وهنا أتيحت له أيضًا مكتبة ييل التي كانت موجوداتها ذات أهمية بالنسبة إليه من أجل بعض الأبحاث عن البرازيل. وبعد ثلاثة أسابيع استطاع أن يبعث بالمخطوط في الوقت ذاته إلى ناشريه في ريودي جانيرو، وبوينوس آيرس، ونيويورك وستوكهولم.

ولكن كان مازال يفتقر إلى «سكينة حقيقية وتركيز حقيقي» من أجل خططه الأدبيّة. وهكذا واصل سيرته أوّل الأمر إلى أوسيننج، (نيويورك)، وبعد قليل صمم على الذهاب إلى البرازيل التي كان يتوافر له ولزوجه من أجلها في هذه الأثناء تأشيرة دائمة. وسكنا أول الأمر في الفندق بريودي جانيرو قبل أن يتمكنا، في ١٧ أيلول، من الانتقال إلى منزل مستأجَر في بيتروبوليس، غير بعيد من ريو.

وفي أواخر الصيف من عام ١٩٣٩ كان ستيفان تسڤايغ قد شرع، وهو بعدُ في إنكلترا في كتابة مذكرات حياته «سوف أصف ڤينا، وفينا اليهودية، والحرب، وكفاحنا في الحرب وارتقاءنا وانحطاطنا منذ أيام هتلر، وصنوف الإذلال، والحياة «بلا أوطان» وسأطلق عليها اسم «حيَوَاتي الثلاث»، لأنني أعتقد أنني عشت في ثلاثة من العصور مختلفة» (إلى جوزيف ليفتڤيتش. أما مخطوط (عالم الأمس، وهو الاسم النهائي الذي أطلقه على «ذكريات أوروبي» فقد أخذه معه في رحلته إلى العالم الجديد، واختتمه أيضًا. وأما المجموعة المتكدِّسة البالغة الضخامة، من كتابه «بلزاك» والمؤلَّفة من ٦٠٠ صفحة من المخطوط الألماني، وألفَيْ صفحة من الملاحظات وأربعين كتابًا أشير بخطوط على مواضع فيها، فقد خلّفها في باث، ولم

يُرِد أوّل الأمر أن يوعز بأن تُرْسَل وراءه لأنه كان يخشى الصعوبات من جانب الرقابة، غير أنه فكّر بعد ذلك في مخطوط آخر حين بات في البرازيل، ولابُدَّ أن ذلك كان بناءً على نصائح من فريد ريكه: «أنا أشعر بما يعوقني في عملي بكل معنىً من المعاني - أما في المخطوط الأصلي فلن تعود الكتب إلى الظهور، وإنما يرتبط كل تفكيري ونظري بالعقلية الأوروبية، بل اللاتينية. وفضلاً عن ذلك فإن المادة تنقصني في كل موضع، وها هو ذا مخطوط كتابي بلزاك مازال لم يصل، وحتى في هذه الحالة سيكون ذلك من الصعب عليّ»، وبعد ثلاثة أسابيع تتراقص شعلة النار في داخله مرة أخرى: «. وإذا كانت هذه سيرة حياة فذلك حيثما أكون مع القلب، مع بلزاك ومونتايني» (إلى فريد ريكه تسڤايغ، في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٠). وفي عيد ميلاده الستين يهدي إليه الناشرين هبْش (فايكنغ بريس، نيويورك)، ليشجعه بلا ريب، طبعة كاملة من أعمال بلزاك. أما الأوراق المرفقة بكتاب مونتايني فقد عثر عليها بطريق المصادفة في المنزل المستأجر - غير أنه كان يريد أن تأتي مادته المحضَّرة من أجل بلزاك، ولم يكن يريد أن تأتي. وفي رسالته الوداعية إلى فريدريكه، أي في يوم موته الاختياريّ وموت لوتّه، في الثاني والعشرين من شباط ١٩٤٢، يعلن: «لقد أعجبتني بيتروبوليس للغاية، ولكن كانت تنقصني الكتب التي أحتاجها، والوحدة، التي كان لها في البداية أثر باعث للطمأنينة إلى حد بعيد، ثم أخذت تغدو ثقيلة على النفس موحشة - وكان التفكير في أنني لن أتمكَّن أبدًا من الفراغ من عملي المِحْوَرِي، وهو بلزاك من دون عامَيْن من الحياة الهادئة، قاسيًا للغاية، ثم هذه الحرب التي لم تبلغ ذروتها بعد. لقد كنت أكثر إرهاقًا من أن أنهض بهذا كله».

وفي الأسبوع الذي أعقب ذلك وصلت الإرسالية الخاصة ببلزاك مع مرفقاتها إلى بيتروبوليس.

وقد كان ريتشارد فريدنتال يعرف، حين نظر في كتاب ستيفان تسڤايغ الذي «خلّفه في حالة التصميم الأوّلي» شأن كتابَيْ «مونتايني وكلاريسا» (إلى أبراها

وكوغان، ١٨ شباط، ١٩٤٢)، وهو كتاب «بلزاك»، ١٩٤٥، نظرة نقدية، واختتمه جاهزاً للتنضيد، أنه يستطيع أن يفعل هذا على أساس الثقة الكاملة في عمله من قبَل صديقه. وفي ٢٢ حزيران كان هذا قد أعلن إليه قائلاً: «هل تعلم أنني سأتقدم إليك أنا نفسي عما قريب برجاء ما؟ ومهما يبدُ لك هذا غريبًا- وذلك أنني لا أملك من الحقوق إلا القليل أولا أملك، على الإطلاق، حقوق أي امرئ ربما يستشيرني في أشكال معينة من عدم الانسجام والتواءم الداخلي، وذلك أن أولئك الذين يسمَّوْن بالمشاهير لا يتّسع لهم الوقت، أمّا معظم الآخرين فأكثر أدبًا وتهذيبًا، وأقل إلحاحًا وتطفُّلاً من أن يكونوا مشجِّعين- ولذلك فليس لديَّ الآن، في الحقيقة، إذ فرغت من أقصوصة، بُدٌّ من مرجع أو حكَم سوايَ أنا، والآن أعتقد أنني لست بمضطر إلى أن أناشدك، عبثًا، حين أرجو منك أن تقرأ هذا العمل أو العمل الآخر من أعمالي الجديدة بمجرد فراغي منه» مكتوبًا بالآلة الكاتبة، وأن لا تقول لي إنه جيد أو رديء فحسب، بل تقول، كأصدقِ ما يكون القول، أين عساك تحسب أن ثمة شيئًا ما ليس على ما يرام، أو تجد شيئًا غير موفّق من حيث الأسلوب، أو من الجانب الفني. وسيكون من المهم جداً أن يتهيّأ لي امرؤ يوليني هذا الجميل المبنيَّ على الصداقة، من دون رحمة. وأنتَ امرؤٌ واضح كل الوضوح في أحكامك، ولستَ مرتبطًا بأية طائفة، وإذا شئنا أن نرتبط بهذا المعنى فأرجو أن تتيح لي بذلك سرورًا حقيقيًا. وإنّ عهدًا كهذا، ينطوي على خصلتين: هما إسداء العون والصرامة في الحكم، في الوقت ذاته، لهو ضروري ضرورة مطلقة، إذا لم يُرِد المرء في قرارة نفسه أن يسمح لنفسه، عن طريق نجاح ظاهريّ، بأن تندفع إلى نِتاج ناجز، وإني ليساورني الشعور، حين أكون معك، بأنني أستطيع أن أُعوِّل على كلا الأمريْن معًا، حيث يكون من الضروري توافر المودَّة في الموقف المبدئي، ومن أجل ذلك أيضًا، توافرُ صدْق المقالة».

أمّا أين يوجد اليومَ المخطوطُ والملاحظات فذلك مالم يتهيّأ الوصول إليه باستثناء الفصل العشرين (الكوميديا الإنسانية) (محفوظات الأدب الألماني، مارباخ).

غير أن هذه الشَّذْرة من الأصل تثبت مدى الدقة العلمية في التفاصيل، والمقدرة على الاستشعار والتلَمُّس اللذين تصرف بهما ريتشارد فريدنتال في هذه الطبعة المأخوذة من المخلفات. أما أنه يوجد، من حين إلى آخر، فقرات- هي أقلُّ إحكامًا بلا ريب مما يظهر فيما يتبيَّن، بعد ذلك، في حالة مونتانيي المُحَرَّر من المخلَّفات - وهي فقرات تمت مراجعتها بالوسائل الأسلوبية الخاصة، فذلك ما يكمن في طبيعة مثل هذا المشروع، غير أن المسألة كانت تعني بالقياس إليه، قبل كل شيء، دفْع المآخذ التي يُحتمل أن تؤخذ على السمة التعبيرية ذات اللهجة المنبرية، عند ستيفان تسفايغ من حين إلى آخر. وما هو نصف صادق، ربما في النبرة، وربما فيما هو قابل للطعن من أشكال التقييم مثلما يظن ذلك هو فمانزتال، مثلاً، في صدد الأقاصيص.

وقد ورد، في نقد كورت بوتشر لكتاب «بلزاك» في عام ١٩٥٩، مثلاً: «ونحن نَدين لستيفان تسفايغ بسيرة حياة أصبحت أكثر نجاحًا من الوجهة الأدبية، كما يمكن معاناتها مع قراءتها، وهي على الإجمال، رواية حياة لا تتوجّه دائمًا إلى ما هو جوهريّ عند الأديب الكبير، وهي هدية تُساق، على وجه الخصوص، إلى القراء الذين يعرفون عمل بلزاك الأدبي وقد سبق لهم أن كوَّنوا موقفًا قائمًا على اليقين حياله.

كنوت بيك

الفهرس

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٧

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

هذا الكتاب

يعدّ كتاب ستيفان تسفايغ الأخير عن بلزاك، الذي قدر له أن يكون عمله الرئيس، والذي صدر لأول مرة بعد وفاته عام ١٩٤٤، بمثابة انحناءة عميقة بين يدي الأديب بلزاك، الذي لقبه تسفايغ بـ «نابليون الأدب الفرنسي». بدأ تسفايغ العمل على شخصية بلزاك وأدبه منذ عام ١٩١٠، وقد قال في مذكراته (**اليوميات** - باريس ١٩١٣): «في المساء أعود ساكناً كل السكون في حضرة بلزاك، لكي أتعلم منه». وقال في رسالته إلى رومان رولان عام ١٩٣٩، عن مشروعه الكبير: «... لقد ظللت أتردد ثلاثين عاماً في الجلوس إلى العمل... وإنني أستطيع الآن أن أبدأ، أخيراً في عرض هذا العملاق وعمله: فيا له من رجل، ويا له من عنفوان...». كما وصف تسفايغ عمله الأخير هذا عن بلزاك بأنه «لوحته الزيتية الكبيرة»، و «الكتاب الكامل الأول عن بلزاك».

إن هذا الكتاب، الذي تفخر **الهيئة العامة السورية للكتاب** بتقديمه إلى قراء العربية، هو «رواية جذابة آسرة، وذلك على وجه الخصوص لأنه لا يغفل نقاط الوهن الكبيرة والصغيرة عند العبقري، من العمل والإجهاد، ومن الكفاح والتحدي عند الإنسان المبدع. وعلى الرغم من كتابته الطلقة الممتعة فهو ليس كتاباً يلتمس من أجل القراءة السريعة العابرة غير المقرونة بالانتباه والاهتمام. وذلك أن فيه بعض ما يستوجب القراءة مرتين، بل أكثر من ذلك أيضاً، إذ سوف يظل المرء يكتشف فيه، المرة بعد الأخرى، شيئاً جديداً كان يفلت منه حتى الآن. وفي المطالعة مرة ثانية سيقل انجذاب المرء إلى القلم السيّال في السرد، وسوف يطلع، من جراء ذلك على الكثير جداً، لا عن بلزاك فحسب، بل عن مشكلة الكاتب في عصره، وعن كفاحه في سبيل الاعتراف به، وفي هذه الحالة الخصوصية، في سبيل الاعتراف بوضعه بحكم كونه الشخصية الهزلية في المجتمع، والأديب الكبير، في الوقت ذاته». مجلة «**النقد والأدب**» (١٩٧٨، بمناسبة الطبعة الجديدة).



سعر النسخة داخل القطر ٣٤٥ ل.س — في الأقطار العربية مايعادل ٦٩٠ ل.س